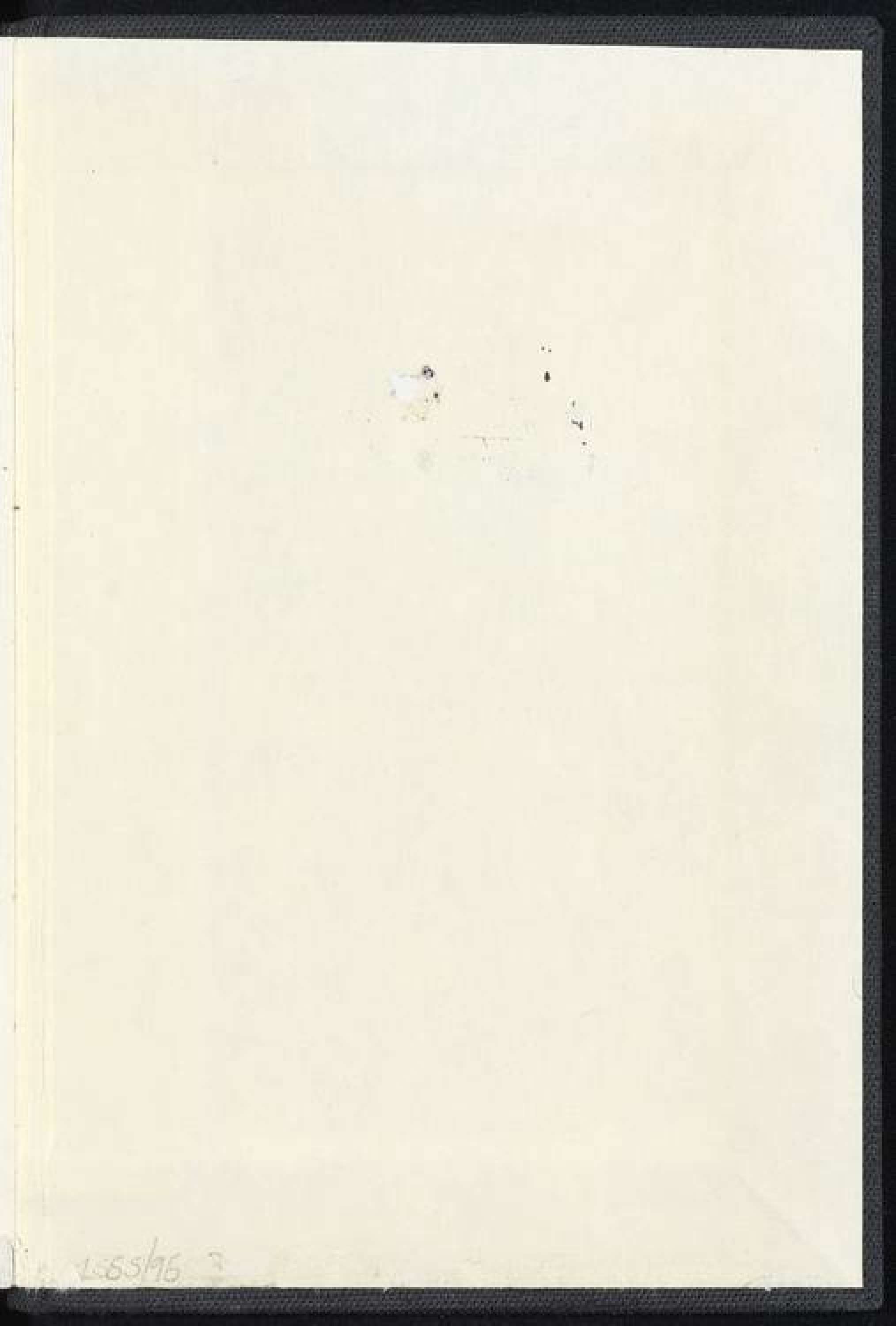
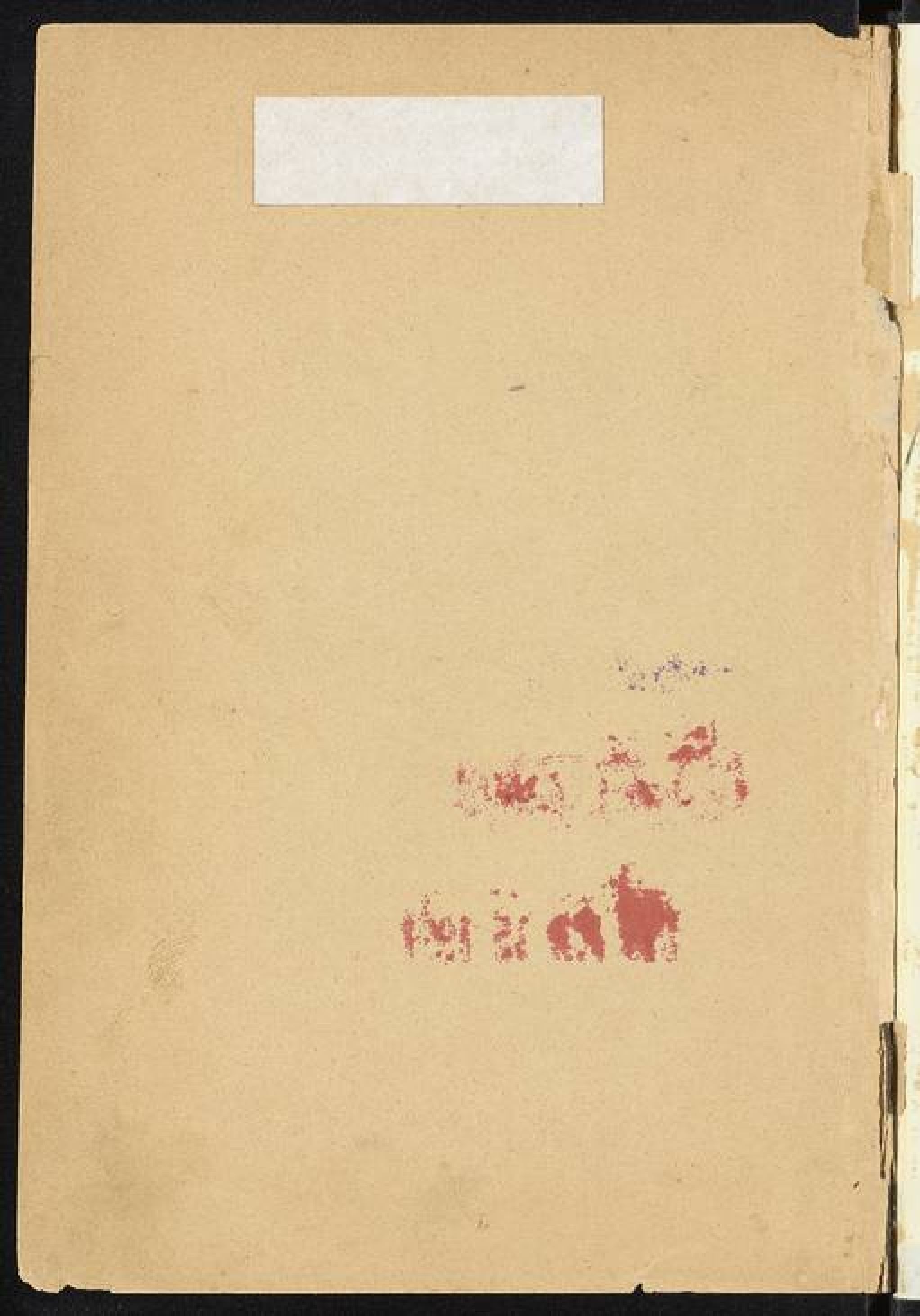
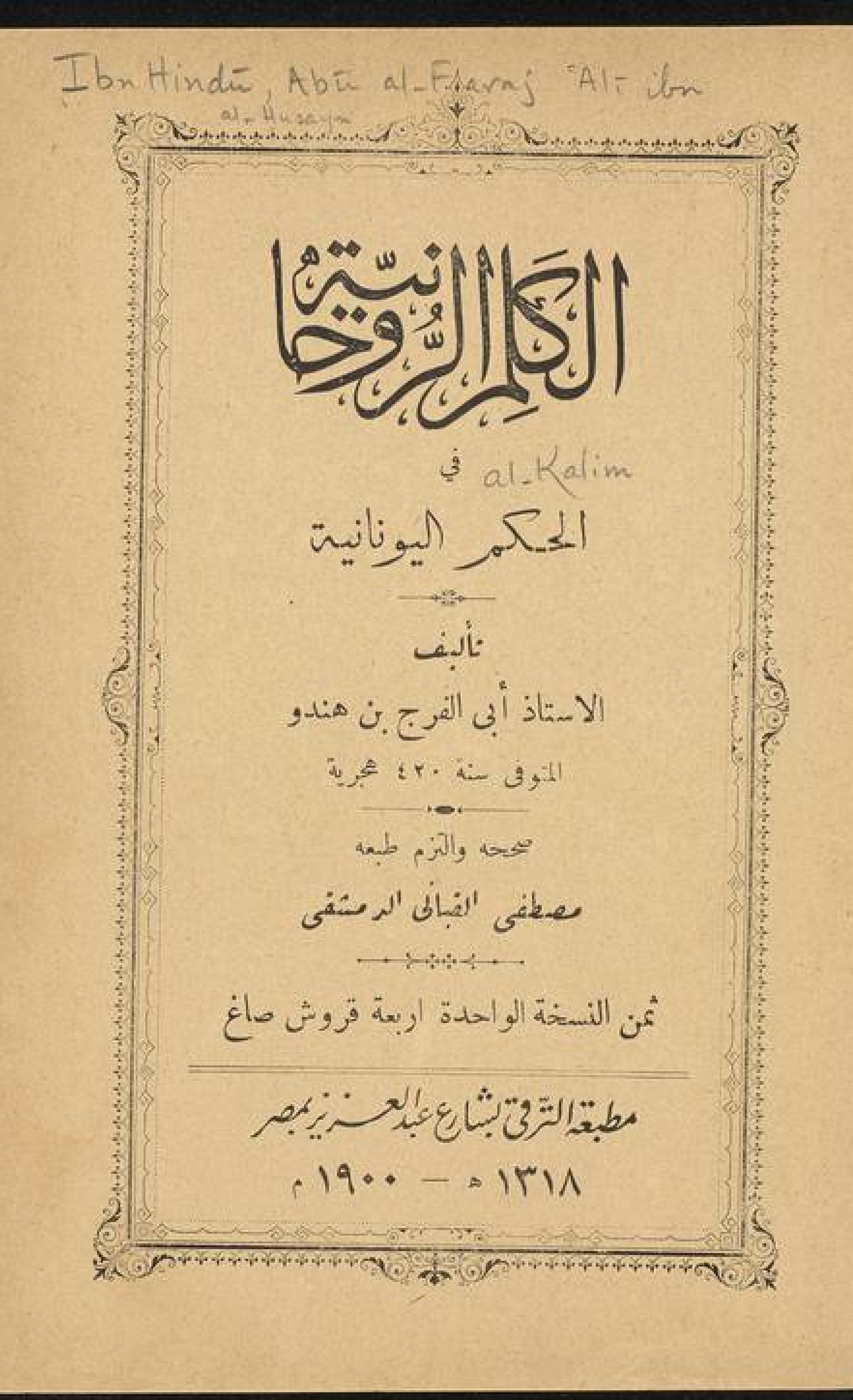



PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY
PAIR>
32101 018042778



Ibn Hindū, Abū al-Faraj ʻAlī ibn al-Husayn



الكلم الروحانية

في

الحكم اليونانية

تأليف

الاستاذ أبي الفرج بن هندو

المتوفى سنة ٤٢٠ هجرية

al-Kalim

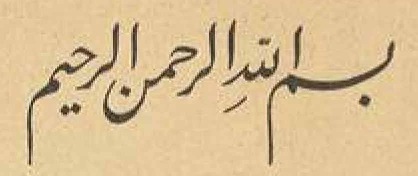
صححه والتزم طبعه

مصطفى القباني الدمشقي

ثمن النسخة الواحدة اربعة قروش صاغ

مطبعة الترقي بشارع عبد العزيز بمصر

١٣١٨ هـ — ١٩٠٠ م



مقدمة

الحمد لله الذي جعل في كل امة افراداً يمتازون عن سواهم بالفضائل والعقول . ويجتازون مجاهل اللهو بسير عقولهم السليمة فيصبحون أئمة يقتدى بقولهم المقبول . والصلاة والسلام على سيدنا محمد صاحب جوامع الكلم والمعجزات . وعلى آله وصحبه الحائزين فى كل علم وفضل اسمى الغايات . المنوه بارتفاع شأنهم فى كتاب الله المكنون . فى قوله تعالى : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

وبعد فان من أجلّ العلوم وضعاً . واكثرها فائدة للناس ونفعاً . علم الآداب والاخلاق . الذى يقوم على اساسه بناء السعادة فى الآفاق . وكان من أجل كتب المتقدمين فى

هذه المواضيع السنيه . كتاب (الكلم الروحانيّة في الحكم اليونانية) . لأنه جامع لتهذيب الاخلاق وطرق السياسة . وذريعة لاجتناء ثمرة الآداب والكياسة . جمعه أبو الفرج عليّ ابن هندو من كلام مشاهير حكماء اليونان . الطائري الصيت في كل الاماكن والازمان . وهو كتاب نادر الوجود لم ارَ منه في الايدي ولا في المكتبات العمومية . سوى نسخة قديمة العهد سقيمة الخط في مكتبة دمشق الشام المحميه . فبادرت لنسخها وراجعت في تصحيحها بعض الافاضل . ثم تتبعت افراد تلك الحكم وضبط اسماء قائليها في عيون الانبا وشوارد الادب وترجمة مشاهير الفلاسفة وبداية الاوائل . ثم ظفرت ببعض حكم لأفلاطون طبعت في الاستانة ولم يعلم اسم جامعها . فالحقتها بحكمه ووضعتها بين هلالين ليكون ذلك الكتاب جامعاً لفرائدها وشواردها . فجاء بحمد الله قاموساً للفضائل . جديراً بأن يقتنيه كل عاقل . ونوراً بين يدى كل كاتب نبيه . يقتبس من مشكاة معانيه . وما توفيقي واتكالي الاَّ على الله هو حسبي ونعم الوكيل

ترجمة المؤلف

قال فى عيون الانبا فى طبقات الاطبا

(أبو الفرج بن هندو) هو الاستاذ السيد الفاضل ابو الفرج على بن الحسين بن هندو من الاكابر المتميزين فى العلوم الحكمية والامور الطبية والفنون الادبية له الالفاظ الرائقة والاشعار الفائقة والتصانيف المشهورة والفضائل المذكورة وكان أيضاً كاتباً مجيداً وخدم بالكتابة وتصرف وكان اشتغاله بصناعة الطب والعلوم الحكمية على الشيخ ابى الخير الحسن بن سوار بن بابا المعروف بابن الخمار وتتلمذ له وكان من اجل تلاميذه وافضل المشتغلين عليه . قال ابو منصور الثعالبي فى كتاب يتيمة الدهر فى وصف ابى الفرج بن هندو قال : هو مع ضربه فى الآداب والعلوم بالسهام الفائزة وملكه رق البلاغة والبراعة فرد الدهر فى الشعر واحد أهل الفضل فى صيد المعانى الشوارد ونظم الفرائد فى القلائد مع تهذيب

الالفاظ البليغة وتقريب الاغراض البعيدة وتذكير الذين يسمعون ويرون أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون . قال ابو منصور الثعالبي : وكان قد اتفق لى معنى بديع لم اقدّر انى سبقت اليه وهو قولى فى آخر هذه الابيات

قلبى وجداً مشتعل ... على الهموم مشتمل
وقد كستنى فى الهوى ... ملابس الصب الغزل
انسانة فتانة ... بدر الدجا منها خجل
اذا زنت عينى بها ... فبالدموع تغتسل

حتى انشدت لابى الفرج

يقولون لى ما بال عينك مذرأت
محاسن هذا الظبي ادمعها هطل
فقلت زنت عينى بطلعة وجهه
فكان لها من صوب ادمعها غسل

فعرفت ان السبق له . ومن شعر ابى الفرج بن هندو ايضاً قال :

قوّض خيامك من ارض تضام بها
وجانب الذل ان الذل يجتنب
وارحل اذا كانت الاوطان منقصة
فمندل الهند فى اوطانه حطب

ولابى الفرج بن هندو من الكتب : المقالة الموسومة بمفتاح الطب ألفها لاخوانه من المتعلمين وهى عشرة ابواب . المقالة المشوقة فى المدخل الى علم الفلسفة . كتاب الكلم الروحانية فى الحكم اليونانيه (وهو هذا) . ديوان شعره . رسالة هزلية . «انتهى باختصار»

(وتوفى سنة عشرين واربعمائة كما فى كشف الظنون)



رب يسر

قال الاستاذ ابو الفرج على بن الحسين بن هندو رحمة الله عليه

سأل الصديق الاثير . والنجيب الخطير . ابو منصور ابراهيم بن علي دبورا من كثر الله فضله . كما وصل بالادب حبله . ان اثبت من كلمات الفلاسفة اليونانيين ما يجرى مع الأمثال السوائر . ويدخل فى حاذ النوادر . دون ما يعد من غامض الفلسفة . ويحصل معناه بعد الكلفة . فجمعت من شواردها ما ساعد عليه الوقت واستحضره الحفظ ناسباً اكثره الى قائليه . وشافياً خفيه بما يجليه . فترجمت الكتاب بالكلم الروحانية . من الحكم اليونانية . مؤملاً ان يطابق اللفظ المعنى . ويتوارد الاسم والمسمى . بتوفيق الله

من كلام أفلاطون

لا تصحبوا الاشرار فانهم يمنون عليكم بالسلامة منهم .

وقال : لا تقسروا اولادكم على آدابكم فانهم مخلوقون لزمان غير

زمانكم . وقال : لا تطلب سرعة العمل واطلب تجويده فان الناس لا يسألون عن مدة العمل وانما يسألون عن جودته . وقال : اذا اقبلت الدولة خدمت الشهواتُ العقول واذا ادبرت خدمت العقولُ الشهوات . وقال : العفو يفسد من الخسيس بمقدار ما يصلح من الرفيع . قال المؤلف : اخذ ابو الطيب المتنبي هذا المعنى فقال

ووضع الندى فى موضع السيف للفتى
مضر كوضع السيف فى موضع الندى

قال افلاطن : (لغة فى افلاطون) لا تكمل خيرية الرجل حتى يكون صديقاً لمتعادين . وقال : اذا اقبل الرئيس استجاد الصنائع واذا أدبر استفزه الاعداء . وقال : اتقوا صولة الكريم اذا جاع واللئيم اذا شبع . وقال : موت الرؤساء أسهل من رئاسة السفلة . وقال : لا يضبط الكثير من لم يضبط نفسه الواحدة . وقال : اذا احببت ان يدوم حبك فاحسن ادبك . وقال : ينبغى للرجل ان ينظر الى وجهه فى المرآة فان كان حسناً استقبح ان يضيف اليه فعلاً قبيحاً وان كان قبيحاً

استقبح ان يجمع بين قبيحين . وقال : موقع الصواب من الجهال مثل موقع الجهل من العقلاء . وقال : اذا ضاقت حالك فاحذر مشورة الافلاس فانه لا يشير بخير . وقال : اذا بلغ المرء من الدنيا فوق مقداره تنكرت اخلاقه للناس . وقال : لا تصحب الشرير فان طبعك يسرق منه وانت لا تدرى . وقال : لا تفارق طاعة الرأى والصبر فى كل امورك فانك ان لم تحرز الحظ الذى تبغيه كنت قد احرزت العذر . قال المؤلف : قد أحسن الشاعر فى هذا حيث يقول :

لأبلغ عذراً او انال رغيبة ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

وقال : طبع المرء اصدق صديق له وليس يتركه لأحد من اخوانه . وقال : موت الصالح راحة لنفسه وموت الطالح راحة للناس . قال المؤلف : قريب من هذا ما يحكى عن غير افلاطن : ابك على العاقل يوم يموت وعلى الاحمق حتى يموت . قال افلاطن : ينبغى للعاقل ان يتذكر عند طلاوة الغذاء مرارة الداء . وقال : ليكن خوفك من تديرك على عدوك فوق خوفك من تدير عدوك عليك . وقال : حرام على الملك

السكر لانه حارس المملكة ومن القبيح ان يحتاج الحارس الى من يحرسه . وقال : اذا خدمت ملكاً فلا تلبس ثوبه ولا تركب دابته ولا تستخدم من يصلح له تسلم منه . وقال : ينبغى للعاقل ان يتخير لمعروفه كما يتخير الارض الزكية لزرعه . وقال : الحرّ يرتفع بجميع من عرفه والنذل يرتفع بنفسه فقط . وقال : ينبغي ان يشفق على اولادنا من اشفقنا عليهم . وقال : زمان الجائر من الملوك اقصر من زمان العادل لان الجائر مفسد والعادل مصلح وافساد الشيء اسرع من اصلاحه . وقال : لايزال الجائر مهملاً حتى يتخطى الى اركان العمارة ومبانى الشريعة فاذا قصدها قربت مدته . وقال : نهاية جور الجائر ان يقصد من لا يلابسه ولا ينتفع به بالاذى فمع ذلك ترجى الراحة منه . وقال : كل خلق من الاخلاق فهو قد يكسد عند قوم الأ الامانة فانها نافقة عند اصناف الناس يفضل بها من كانت فيه حتى ان الآنيـة اذا لم تنشف كانت اكثر ثمناً من غيرها . وقال : اشد الرجل فى النعمة على حسب استكانته فى المحنة . وقال : اصبر على سلطانك فلست باكبر شغله ولا بك

قوام امره . وقال : الظفر شافع المذنبين الى الكرماء . وقال : اذا حصل عدوك فى يدك خرج من جملة اعدائك ودخل فى عدة حشمك . وقال : من مدحك بما ليس فيك وهو راض عنك من الجميل ذمك بما ليس فيك من القبيح وهو ساخط عليك . وقال : الفضيلة تجتمع اهلها على المحبة والرذيلة تفرق بين اهلها بالتنافر والبغضة الا ترى ان الصادق يحب الصادق ويستنيم اليه وكذلك الثقة مع الثقة والحسن الخلق مع الحسن الخلق وترى الكاذب يبغض الكاذب والسارق يخاف السارق وكل واحد منهما حذر من مجاورة صاحبه . وقال : المصغى الى الذم شريك لقائله . قال بعض الشعراء :

والسامع الذم شريك له ‏ ‏ ‏ ‏ والمطعم المأكول كالآكل

وقال افلاطن : لا تعادوا الدول المقبلة وتشربوا قلوبكم استقلالها فتدبر باقبالها . وقال : يستدل على ادبار الملك من قصده المخلصين له بالسوء واستهانته بمشورة ذوى الخبرة بأمره . وقال : تبكيت الرجل بالذنب بعد العفو ازراء بالصنيعة . وقال : الصلف وضع الرجل نفسه بمنزلة لا يستحقها

ومطالبته نفسه والناس بما يجب لتلك المنزلة والتواضع حط الرجل نفسه الى منزلة دون منزلة نفسه لغير نقيصة . وقال : الفقير اذا تشبه بالغنى كان كمن به الورم ويوهم الناس انه سمين وهو يستر ما به من الورم . قال المؤلف : كأن ابو الطيب المتنبي لحظ هذا الكلام حيث يقول :

اعيذها نظرات منك صادقة

ان يحسب الشحم ممن شحمه ورم

وقال افلاطن : من ضرر الكذب ان صاحبه ينسى الصورة الحقيقية المحسوسة ويعتقد الصورة الوهمية الكاذبة فيبنى عليها امره فيكون غشه قد ابداه بنفسه . قال المؤلف : قريب من هذا المعنى ما يحكى عن اشعب الطماع قيل له ما بلغ طمعك قال : اوهم الصبيان ان فى موضع عرساً فاذا تعادوا تبعتهم طمعاً فى ذلك العرس . قال افلاطن : لا تعان ما قوى فساده فيحيلك الى الفساد قبل ان تحيله الى الصلاح . وقال : اذا قويت نفس الانسان انقطع الى الرأي واذا ضعفت انقطع الى البخت . وقال : لست تستدرك بغبن الناس شيئاً من ذات يدك الا اضعت

اضعافه من مروءتك . وقال : اذا تسمح فى دولة بالتحوز فى القضاة والاطباء فقد ادبرت وقرب انحلالها . وقال : البخلاء عفوهم عن عظيم الجرم اسهل عليهم من المكافأة على صغير الآلاء . وقال : اذا اردت ان تعرف طبقتك من الناس فانظر الى من تحبه لغير علة . وقال : العلم صبغ النفس وليس يشرق صبغ الشيء حتى ينظف من ادناسه . وقال : اذا نزلت باحدكم المصيبة فليفكر فى المصائب العظيمة التي حلّت بكثير من الناس ليقلّ همه . وقال : ليكن دعاؤك ان يحرسك الله من اصدقائك لانك لا تقدر ان تحترس منهم . وقال : الأنذال يطردون بالايحاش والاحرار يطردون بفرط التحفي . وقال : مادحك بما ليس منك مخاطب لغيرك وجوابه وثوابه ساقطان عنك . وقال : رأي من دونك فى المعرفة لك امثل من رأيك لنفسك لانه خلوٌ من هواك . وقال : المظلوم ينتصف بالعادل ولا يكاد يستنقى به ممن ظلمه . وقال : الحكمة عنوان المطلوبات . وقال : اعتنوا بقوام البدن فانه آلة النفس . وقال : الحق ابلج . وقال : لوكانت للذهب والفضة فضيلة لما اشتري بهما النحاس . وقال :

انظروا لانفسكم وحاموا على قرابتكم . وقال : تزينوا بالعدل والبسوا ثوب العفاف تفلحوا . وقال : ان الكتاب اذا فارق واضعه فلا بد قبل وقوعه الى من يعرف قدره ويمكنه الانتفاع به من ان يقع فى ايدى جهال يستهينون به ويقذفون واضعه بمنزلة ما ينال الصبي من الشتم واللطم من سفهاء الناس . وقال : لا ينبغى للرجل ان يتمنى لصديقه الغنى فيزهى عليه ولكن يتمنى ان يساويه فى الحال . وسئل افلاطن بما ذا ينتقم الانسان من عدوه ؛ قال : بان يتزيد فضلاً فى نفسه . وقال : اذا عاينت الحدث على جرم فاترك موضعاً لجحود ذنبه كيلا يحمله المراء على المكابرة . وقال : لاتحتقر من الخير قليلاً فان القليل من الخير كثير . وقال لتلامذته : اذا كسلتم عن التأديب فطروا مجالسكم بغرائب الاحاديث لتنشطوا . وسئل بما اعرف انى قد صرت حكيماً ؛ قال : اذا لم تكن بما قضيت من الرأي معجباً ولم يستفزك عند الذنب الغضب . وسئل عن التجارة فقال : حرص الرجل على الجمع بالشره وقلة القناعة . وقيل له من يخدمك ؛ قال : الذين تخدمونهم هم خدمي . قال المولف :

يعنى بذلك قوّتى الشهوة والغضب . وقيل له كيف ينبغي للرجل ان يصنع لئلا يحتاج ؟ فقال : ان كان غنياً فليقتصد وان كان فقيراً فليدمن العمل . وقال : من شكركم على غير معروف او برّ فعاجلوه بهما والا انعكس الحمد فصار ذماً . وقال : من أثرى من الالفاظ فى الصغر افتقر من المعانى فى الكبر . قال المؤلف : يشير الى من يتوفر فى صباه على تعلم اللغات وما يجرى معها . وقال : الحلم استيفاء معنى الوقار وضبط النفس عن الصبر على المكروه او عن المحبوب . وقال : الاشرار يتقربون الى الملوك بمساوئ الناس والاخيار يتقربون اليهم بمحاسنهم . وقال : طاعة الصبر فى النوائب اسهل من الاسترسال الى الجزع والاجتلاب من فنونه المؤذية . وقال : ارحم ثلاثة : عاقلا يجرى عليه حكم جاهل وضعيفاً فى ملك قوي وكريماً يرغب الى لئيم . وقال : ينبغي للعاقل ان يكون مع سلطانه كراكب البحر ان سلم بجسمه من الغرق لا يسلم بقلبه من الحذر . وقال : الاشرار يتتبعون مساوئ الناس ويتركون محاسنهم كما يتتبع الذباب الموضع الفاسد من الجسد

ويترك الصحيح منه . وقال : لا تستصغر عدوك فيقتحمك المكروه من زيادة مقداره على تقديرك فيه . وقال : لا تقبلن فى الاستخدام الا شفاعة الامانة والكفاءة . وقال : من حسن صبره على وعدك حسن صبره على شدائدك . وقال : ينبغي للعاقل ان يستعمل فيما يلتمسه الرفق ومجانبة الهذر فان العلقة بهدوّها تلعق من الدم ما لا تلعقه البعوضة باضطرابها وفرط صياحها . وقال : اذا استشارك عدوك فجرد له النصيحة لانه بالاستشارة قد خرج عن معاداتك الى موالاتك . وقال : اقوى ما يكون التصنع فى بدئه واقوى ما يكون الطبع فى آخره . وقال : العدل فى الشيء صورة واحدة والجور صور كثيرة فلهذا سهل ارتكاب الجور وصعب العدل فهما يشبهان الاصابة والخطأ فى الرماية فان الاصابة تحتاج الى الارتياض والتعهد والخطأ لا يحتاج الى ذلك . وقال : الملك كالبحر تستمد منه الانهار فان كان عذباً عذبت وان كان ملحاً ملحت . وقال : البخيل يسخو من عرضه بمقدار ما يبخل به من ماله . وقال : لا تلاح الغضبان فانك تعلقه باللجاج ولا ترده الى الصواب .

وقال : لا تفرح بسقطة غيرك فانك لا تدرى كيف تصرف الايام بك . وقال : صير العقل والحق امامك فانك لا تزال حراً بهما . وقال : اذا عدم الرجل الحياء من الفضيحة والصبر على تعب الاكتساب سهل عليه السرق . وقال : اضرّ من عاشرته مطريك ومغريك ومن قصرت همته عنك . وقال : لا تنظرن الى احد بالموضع الذى رتبه فيه زمانه وانظر اليه بقيمته فى الحقيقة فانها مكانه الطبيعى . وقال : من تعلم العلم لفضيلته لم يوحشه كساده ومن تعلمه لجدواه انصرف عنه بانصراف الحظ عن اهله الى ما يكسبه . ويقال ان افلاطون رأى فتى ورث مالاً كثيراً وضياعاً فاتلفها فقال : رأيت الارضين تبلع الناس وهذا الانسان بلع الارضين . وقال : ما ينقص من لذات الجسد يزيد فى لذة المعرفة . وقال: لا تشغل فكرك بما ذهب منك بل احفظ ما بقى معك . وقال : شرف النفس أن تقبل المحبوب والمكروه قبولاً واحداً . وقال : كما ان اول مرقاة من السلم هو انفصالك من الارض كذلك اول الخير هو انفصالك من الشر . وقال : الحكمة كالدر فى الصدف

فى البحر فلا ينال الا بالغواصين الحذّاق . وقال : استعمل الحذر فى الطمأنينة والدعة فقلما ماينفع الحذر عند ورود الحادثة . وقال : اشقى الناس من اهتم بما يجمع لغيره . قال المؤلف : رأيت فى العقل الابدى المنسوب الى كيومرت آدم الفرس « ايها الانسان لا تجمع لبعل امرأتك » . قال افلاطن : لأن يموت الانسان فيخلف مالاً لعدوّه خير من ان يحتاج فى حياته الى اصدقائه . وسئل ما العشق . فقال : حركة النفس الفارغة لغير فكرة . وقال : لا ينبغى للأديب ان يخاطب من لا ادب له كما لا ينبغى للصاحى ان ينازع السكران . وقيل له كيف يغم الانسان عدوه . قال : بان يصلح نفسه . وقال : التقوى رأس النجاح والتقى مفتاح الفضائل . وقال : الفجور من خواص الدواب الدنية وفشوّه يهلك الامة . وقال: الشهوات ضد الفكر . وقال : فارقوا الدنيا وانتم غير القلق عليها . وقال: لا ينبغى ان يُختارَ الملكُ بحق السن بل بحق السجية لانه قد يكون الشيخ على خلاف ما يجب والشاب على ما يجب . وقال : ليكن اوّل ما يلتمس من الملك صدق اللسان فان فى صدق

اللسان رغبة الراغب ورهبة الراهب . وقال : كما ان فى الابنية الكبيرة قد يجيب الصدى وليس هناك شخص كذلك فى الناس من له صورة الانسان وليس بأنسان . قيل : جلس يوماً افلاطن وتلامذته حوله سوى ارسطوطاليس . فقال : لو وجدت مستمعاً لتكلمت . فقيل له ايها الحكيم حولك الف تلميذ . قال : اريد واحداً كألف . قال بعض الادباء اخذ الشاعر هذا المعنى فقال فى خالد بن زيد

يا عين فابكي خالداً ألفٌ ويدعى واحداً

وقال افلاطن : الفرق بين الحق والعدل ان الحق هو الذى يعطى كل ذى حق حقه من ذاته والعدل هو المعطى كل ذى حق حقه من الحق . وقال : من حسن ان يتصرف مع الزمان ولم يصرفه الزمان فذاك هو السائس الكامل . وقال : لا يقدر على تفريع الفروع الا من حفظ الأصول ولا يعرف لذة الثمرة الا من ذاقها وعرف نفعها وفضيلتها . وقيل لافلاطن : متى يضجر العاقل قال اذا حملته على مجاورة الجاهل . قيل له : افلا ينبغى ان يجاور الجاهل قال بلى ان

اراد رياضة الفكر . وقال : الاعتدال فى كل شيء واحد وما جاوز الاعتدال فكثير . وقال : الملوك ثلثه طبيعى واختيارى وحسّي فالطبيعى هو الذى يصير اليه الملك من طريق الوراثة والاختياري هو الذى اختاره الخاصة والعامة والحسّي هو المتغلب الذى يغتصب الملك وافضل هؤلاء الثلاثة الاختيارى ثم الطبيعى ثم الحسّي وان كان الطبيعى متمسكاً بالحق فهو افضل الجميع والحسّي وان كان محقاً فهو ثالث فى المرتبة لانه غاصب. وقال : كون النفس فى الجسد واتحادها به كاتحاد نور الشمس بالهوا فاذا عدم الهوآء نور الشمس ذهب ضياؤه واذا صادفه استنار كاستنارة الشمس . ورأى افلاطن حدثاً جاهلاً شديد العجب فقال له : وددت انى بالحقيقة مثلك فى ظنك وان اعداى مثلك بالحقيقة . ويقال : ان افلاطن استوطن بلداً وبيئاً فسئل عن ذلك فقال حتى ان لم امتنع من الشهوات لمضرّة النفس امتنعت منها بالضرورة تجنباً لمضرة البدن . وقال : محب الشرف هو الذى يتعب نفسه بالنظر فى العلم . وسأله بعض الأحداث كيف قدرت على كثرة ما تعلم ؟ قال : انى

افنيت من الزيت أكثر مما افنيت انت من الشراب . وقال : الصور الحسنة بلا ادب مثل اوانى الذهب فيها خلّ . وقال: الجواد هو الذي يعطى بلا مسئلة صيانة للشرف عن المسئلة . وقال : ليس الملك من ملك العبيد والعامة بل من ملك الأحرار . ولا الغنى من جمع الأموال بل من دبر الأموال . وقال : لا تحقرن صغيراً يحتمل الزيادة . وقال : لو لم يكن فى الترفه الا احتمال العادات الرديئة لكان كافياً فيها . وقال : زيادتك كلمة فى مخاطبة الحر أحب اليه من زيادتك درهماً فى اجرته . وقال : عطية العالم شبيهة بمواهب الله عزّ وجل لانها لا تنفد عند الجود بها ولكنها توجد بكمالها عند مفيدها . وقال : من فضيلة العلم انك لا تستطيع ان يخدمك فيه احد كما يخدمك فى سائر الاشياء وانما تخدمه بنفسك ولا يستطيع احد ان يسلبك اياه كما يسلبك غيره من المقتنيات . وقال : احسانك الى الحر يحركه على المكافأة واحسانك الى الوغد يحركه على معاودة المسألة . وقال : اذا انكرت من احد شيئاً فلا تطرحه واجل فكرك فى جميع

اخلاقه فلكل شخص موهبة من الله عز وجل لا يخلو منها . وقال : اذا صادقت رجلاً وجب عليك ان تكون صديق صديقه ولا يجب عليك ان تكون عدو عدوه لان هذا انما يجب على خادمه ولا يجب على مماثل له . وقال : من سعادة الحدث ان لاتتم له فضيلة فى رذيلة . وقال : العقل يشير على النفس بترك القبيح فان لم تقبل منه لم يتركها لانه ليس فيه غضب لكنه يريها اصلح وقت ينبغى ان يفعل ذلك الشيء فيه واحمد جهة يوجد بها لانه يعطي الخير دائما لمن توكل به . وقال : اذا خدمت حازماً فارضه فى اسخاط حاشيته واذا خدمت ضعيفاً فاسخطه فى رضى اتباعه . وقال : التام الحرية من احتمل جنايات المعروف . وقال : اذا طلب المتناظران الحق لم يقتتلا فى المناظرة لان مطلوبهما واحد واذا طلبا الغلبة اقتتلا لان فيهما غلبتين وكل واحد من الخصمين يطلب ان يجذب صاحبه الى الغلبة التى فيه . وقال : اذا اراد الجائر الاساءة سام الرجل ما يعجز عنه فان استعفى حرك الغضب عليه واطاعه فيه ومنعه الغضب من التفكر فى العاقبة

وفى هذا الوقت يحتجب العقل عن النفس وتكون النفس فى تلك الحال كالموضع المظلم الذى قد امتنع من اشراق الشمس عليه . وقال : اذا فسد الزمان كسدت الفضائل وضرت ونفقت الرذائل ونفعت وكان خوف الموسر اشد من خوف المعسر. وقال : الاسخياء يشمتون بالبخلاء عند الموت والبخلاء يشمتون بالاسخياء عند الفقر . وقال : لا تمتطِ الامل والرجاء فى كل وقت وحال فانهما يسوقان الرجل فى اكثر الأمر الى المكروه بسهولة . وقال : الغضب والشهوة وكل خلق من اخلاق النفس له مقدار يصلح فيه حال الشخص الذى يكون فيه فان زاد على ذلك اخرجه الى الشر لان الغضب يشبه الملح الذى يطرح فى الاطعمة فان كان بقدر موافق اصلح الطعام وان كان زائداً افسده وكذلك سائر القوى . وقال : اطلب فى الحياة العلم والمال تحز الرئاسة على الناس لانهم بين خاص وعام فالخاصة تفضلك بما تحسن والعامة تفضلك بما تملك . وقال : اللذة فى هذا العالم اجرة للخدمة ولولاها ما اكل الناس ولا جامعوا لانه لو كان لا يجامع الا من طلب الولد ولا يأكل

الا المشتاق الى البقاء بغير لذة لما فعل هذا اكثر الناس . وقال : النيات تحس بما فى النيات والقلوب تبصر القلوب ويعرف بعضها عن بعض بما فيها . وقال : اقبح ما يكون الصدق فى السعاية والضيق فى العذر والبخل على من عجز لحريته عن المسألة والسطوة على من يؤمن شره . وقال : النفس الفاضلة ترتفع عن الفرح وانما يعرض لنا فى الشىء اذا نظرنا الى محاسنه دون ما فيه من المحاسن والنفس الفاضلة تتأمل جميع ما فيه فتتكافأ فضائله ورذائله فى هذا العالم ولا يغلب عليها احد هذين الخلقين . وقال : طاعة النفس للجسد مثل تخلية الفارس لفرسه اذا ضعف عن ضبطه حتى يعدل عن حاجته التى ركب لها ويشتغل اما بالحضر واما بالرعى وتجد النفس الجاهلة راحة فى ترك مجاهدتها كتلك الدابة واكثر ملاذ الدنيا على هذا . وقال : حذق الملك بسياسة مَنْ دونه وحذق الرعية بسياسة مَنْ فوقها واما الكتاب والاولياء فحذقهم بسياسة من فوقهم ومن دونهم ازكى فطنة . وقال : انظر الى المتنصح والمتقرب اليك فانه ان دخل اليك من مضار الناس

فاقبل منه ما انتفعت به واحذر منه وان دخل اليك من حيز العـدل والصلاح فاقبلها منه واستشعره . وقال : المرآة التى ينظر فيها الانسان الى اخلاقه هى الناس تتبين محاسنك من اوليائك منهم ومساويك من اعدائك فيهم . وقال : الحسن التام والقبح التام فى هذا العالم انما هو فى تأليف قوى النفس وليس هو فى تأليف اعضـاء البدن والوجه . وقال : ليس يخسر العاقل على الصديق لانه ان كان فاضلاً تزين به وان كان سفيهاً حمى به عرضه من السفهاء وراض به احتماله . وقال : لا تمدح احداً باكثر مما فيه فانه يصدق نفسه فيكون ما زدته اياه نقصاً لك . وقال : لا تركبن امراً حتى تصلح فيه بين العقل والشهوة فان العقل وحده يخشن عليك والشهوة وحدها مردية لك . وقال : اظهر البشر للمنعم عليك ولغريمك فانهما يملكان رقك . وقال : حركة القوة الغضبية تلقاء الرهبة وحركة القوة الفكرية تلقاء العلة وبها يساس الطبقات الثلاث من الناس اما الطبقة العلية فبالحجة واما الاوسـاط فبالرغبة واما السفلة فبالرهبة . وقال : القحة فى الانسان انما هى عمى

فكره عن اكثر صور ما يطرأ عليه فهو يمضيها مستهيناً بها لانه لا يتأمل مقاديرها . وقال : اذا قامت حجتك فى المناظرة على كريم اكرمك ووقرك واذا قامت على خسيس آذاك واضطغنها لك . وقال : اذا اردت سوءا بعدوك فاستعرض اخلاقه فانك لا تجدها بأسرها كاملة ولا بد من ان يلحقها النقص فادخل الحيلة اليه من غميزته فانه لا يفوتك . وقال : الحسود ظالم ضعفت يده عن انتزاع ما حسدك عليه فلما قصر عنك بعث اليك تأسفه ومما ثبت فى الصحيفة الصفراء التى تقرأ فى قرابين الهياكل : لا يرتفع الحسد عن احد الا رحمه الناس . وقال : السخي يبخل عند جمع المال ويثقل عليه فى ذلك الوقت المسألة لان طريق الجمع غير طريق البذل . وقال : لا تظن بكل من منع ما يسأل انه بخيل فقد يمنع من طاب السلامة من الناس ومن يكره مداخلتهم له وانفتاح ما لا يملك غلقه منهم ومن يحتاج الى تكلف الاعتذار لهم والانتصار لنفسه منهم فيرى ان يغلق ابواب هذه السبل عنه . وقال : الفرق بين المعرفة بالشيء والعلم به ان المعرفة تذكرك ما قد نسيته

والعلم به ان يثبت فى نفسك من امره ما لم تتصوره قبل ذلك . وقال : اسرع الاشياء ضرراً الخطاء فى السفينة وفى مجالس الملوك وفى مناجزة الحروب . وقال : لا تبتع مملوكاً قوى الشهوة فان له مولى غيرك ولا غضوباً فانه يقلق فى رقك ولا قوى الرأى فيستعمل الحيلة عليك ولكن اطلب من العبيد الحسن الانقياد المطبوع القوى البنية الفرح الشديد الحياء . وقال : اللجاج عسر انطباع المعقولات فى النفس اما لفرط حدة تكون فى الانسان واما لغلظ طبع فلا ينقاد للرأى . وقال : لا تذمنّ ما حمدت الا من بعد شدة الصبر عليه واستعمال حسن المداراة له لانك مرتهن بما فرط منك فيه . وقال : كلما قوى تخيل الحيوان زادت قوة منفعته فى طاعة الرأى وضرره فى طاعة الهوى ولهذا صار الانسان الخير افضل الحيوان والشرير اخسه. وقال: اذا اردت ان تعرف طبع الرجل فاستشره فانك تقف من مشورته على عدله وجوره وخيره وشره . وقال : اذا اقتضتك النفس جميلاً من اجل العادة فلا تفعله حتى يقضيك الرأى اياه فان طاعة العادات مرذولة . وقال : انما

صارت الشهوة اقرب الينا من الرأى لانا منذ نولد مع الشهوة وانما يتكامل الرأى فينا بعد مدة من مواليدنا فالشهوة اخص بنا منه . وقال : اذا كان العشق من اجل قوى النفس ثبت ولم يتغير واذا كان من اجل الجسد تغير بتغير الصورة والمزاج . وقال : البخيل يعد جميع قاصديه اخواناً ورؤساء كراهة ان يقتضيه تفضلهم اياه احساناً اليهم والكريم يتأمر على قاصديه ليبذل لهم اجرة التفضيل . وقال : اذا ازدهاك ما تواصفه الناس من محاسنك فانظر فيما بطن من مساويك ولتكن معرفتك بنفسك اوثق عندك من مدح الناس لك . وقال : اذا انجز رجل ما وعد من معروف فقد احرز فضيلة الجود والصدق . وقال : من عاش وحده مات وحده . وقال : اذا شاورك من الرؤساء من قد وقفت على فاقته الى رأيك فلا تكلمه كلام آمر ولا مشاور واخرج كلامك فى معرض مستفهم منه ماسنح لك وليرَ فيك الحاجة فى عرض كلامك عليه وان حظك فى احاده اكثر من حظه فى قبول ما احتاج اليه منه . وقال : اذا ذكر لك رئيس خطأ كان منه واعترف به فاجل

فكرك فى الاعتذار له منه واحذر ان تعنفه ولا تجتمع معه على ذمه . وقال : اذا طابق الكلام نية المتكلم حرك نيـة السامع وان خالفها لم يحسن موقعه ممن اريد به . وقال : الصوم لجام للنفس الغضبية ويروضها على طاعة النفس الناطقة لان رفع اليدين بالتكبير انما هو استعاذة من وقوع المكروه والركوع على الهيئة التي يقف بها من سمح بنفسه لمن يضرب عنقه والسجود إلقاء وجهه واكرم اجزائه على الارض وهذه تروض القوة الغضبية على حسن الانقياد . وقال : اذا آثرت تأديب احد فاقبضه عن الترف واشعره ببذاذة الهيئة فانه اذا فارق زينـة الجدة طلب ان تكون زينته فى نفسه ولسانه . وقال : ينبغي للعاقل ان يكون رقيباً على نفسه فلا يستعظم الاخطاء ويستصغر صوابه ولا يكترثه لان الصواب داخل فى شرط انسانيته والخطأ مغير لما استقر فى نفوس الناس منه . وقال : اذا استدعيت المحبة من الناس فانزل دون منزلتك فى قلوبهم ولا تكشفن احداً عن زلل فان قلوب الناس وحشية لا تدين لمن كاشفها وان كان اقعد فى الصواب منها . وقال : بخل العالم

بافادة ما اقتناه من ثمار علمه واصوله تحمله على الاقتصار عليه والامساك عن طلب غيره وافادته اياه تبعثه على طلب غيره مما يؤثر الاختصاص به . وقال : الفرق بين الابانة والبلاغة ان الابانة لا تكون الا لموجود والبلاغة تكون لموجود ومفروض. وقال : من اتى بشريعة اتى بسعادة علوية فمن خالف السعادة كان منحوساً . وقال : ليس طلاب الدنيا الذين يأخذون القوت منها وانما طلابها المحتكرون من حطامها. وقال : طالب الدنيا كراكب البحر ان سلم قيل مخاطر وان عطب قيل مغرور . وقال : بحب الدنيا صمّت الاسماع عن الحكمة وعميت القلوب عن نور البصيرة . وقال : ما ابينَ فضيلةَ الموت اذا كان سبباً للنقلة من عالم التعب الى عالم الراحة ومن عالم الفناء الى عالم البقاء . وقال : السكوت سلامة والكلام ندامة . وقال : لولا اربع لصلح امر الناس : جهل غالب وامل كاذب وحرص دائب وهوى جاذب . وقال : حقيق على من كان عمره مكتوماً ان لا يزال دهره مغموماً. وقال : ينبغي للحازم ان يعد للامر الذي يلتمسه كل ما اوجب الرأي في طلبه ولا يتكل فيه على الاسباب

الخارجة عن سعيه مما يدعو اليه الامل وماجرت به العادة فانها ليست له وانما هى للاتفاق الذي لا يثق به الحزمة .وقال من جلس فى ظل الحجة امن العادل وقام عذره فيما يجنيه عليه الجائر ومن جلس فى ظل الملق لم يستقر به موضعه لكثرة تنقله وتصرفه مع الطباع وعرفه الناس بالخديعـة . وقال : الشره هو ان يسبق من كان فيه الى نصيب اللذة قبل نصيب الرأي فى الشيء.وقال : غناء الملاح تحرك فيه الشهوة الطرب وغناء القباح تحرك فيه الطرب الشهوة . وقال : اذا اسست موضعاً وبالغت فى تقويمـه فلا تنس حصة جملة العالم منـه والا اضطرب عليك من حيث لا تدرى . وقال : لما كانت المواهب فى عالم التركيب لا تقيم على حال واحدة ولا بد من وقوع الخلل فيها عاذ العقلاء بالصدقة فجعلوها نصيب الاحداث الواقعة وتسرعوا الى اخراجها فكان فى ذلك اكبر الصلاح فيما صالح لهم . وقال : الفاقة فساد يقع فى الطبقة من الناس كمثل الورم والقرحة فى العضو فان تداركه اهل تلك الطبقه فرفعوه عن الشخص سلمت طبقتهم وان اغفلوه سرى فى غير

موضعه حتى تبطل تلك الطبقة . وقال : الفرح بالشيء على حسب الثقة به . وقال : تبكيت الرجل بالذنب بعد العفو عنه ازراء بالصنيعة وانما يكون قبل هبة الجرم . وقال : الغضب كالتابع الردىء الذى يحركك اولاً فى مصلحتك فان اطعته حركك فى مصلحته . وقال : الناس ثلاثة خيّر وشرير ومهين فالخير هو الذى اذا اقتضيته قبض نفسه عنك ولسانه عن سوء الذكر لك ونكر حسناً ان كان تقدم منك والشرير يقبض نفسه عنك ويطلق لسانه فى ذكر معايبك وربما تعدى الى التكذب عليك والمهين لايقبض نفسه عنك ولا يزال متضرعاً بعفوك ومودة هذا مقترنة باستقامة امورك وصلاح احوالك فاذا انتقلا انتقل عنك بمودته . وقال : اذا زاد مانابك على مقدار استطاعتك فاستعن بمن هو ازيد من علة ماناب وتضرع كالواله الذى لا يجد معدلا عمن سأله فان انحسامه عنك على مقدار اخلاصك له . وقال : علة العلل تمسك نظام جملة العالم وبه قوامه . وقال : الشريعة طاعة القيم على العالم والائتمار له فيما اصلح جملته وتفصيله . وقال : حلاوة الفضائل فى صدرها

وحلاوة الرذائل فى وردها . وقال : الساعى اقرب الى الكذب مما سعى به . وقال : قد يتوهم الجاهل ان السعاية هى النصيحة وليس الامر على ذلك لان النصيحة صدقك الانسان عما فوضه اليك اذا لزمك الحق تعريفه اياه والسعاية صدقك الانسان عما اقترفه بعض اتباعه وانت تريد الاضرار بالتابع والانتفاع بالمتبوع لا تقديم النصيحة لذلك الانسان . وقال : السخيف من حرك غضبه على صورة اللفظ والحصيف من حركه على حقيقة اللفظ والفعل ولم يحرك منه الا بمقدار ما يمنعه من الرحمة لمن لا يستحقها . وقال : المرض الذى يحدث عن سبب بادٍ فى اكثر الاوقات هو اقل خطراً من المرض الذى لا يعرف سببه . وقال : مسام جسم الانسان باسرها تنفتح بانفتاح الجفنين فى اليقظة وتنضم بانضمامها فى النوم . وقال : من خدم فى حداثته الشهوة والغضب شق عليه فى زمان الشيخوخة ما يلحقه من ضعف بدنه عن خدمة اللذة ومن خدم فى حداثته النفس الفكرية وما دلت عليه المعارف شق عليه زمان الشبيبة وجاهد القوى الباعثة له على اللذات وكان فى زمان الشيخوخة مستريحاً .

وقال : قد يتهيأ للرجل ان يعمل فى ايام حياته لما يخلصه بعد مفارقتها الا ترى ان الذين استعملوا تقليل الغذاء وتخفيف البدن قبل الموت احرزوا طول البقاء للجثة وكذلك اذا آثروا الفضائل وترفعوا عن الرذائل لم يكن للشهوة والغضب بهم كبير تعلق وكانت النفس الناطقة مستريحة غير ممنوعة من الخلاص . وقال : من اكبر الادلة ان النفس الناطقه موجودة بعد مفارقة الجسد ما تراه من طول بقاء الجسد بعد الحياة وهو احد جزئى الحي الأخس وليس يجوز ان يكون القيم عليه يقصر عماله من البقاء . وقال : لا تبذلن فى حراسة قنية لك خارجة عنك قوة من قوى نفسك فتصلح البعيد بالقريب وتبيح الخاص للمشترك لان القنية الخارجة عنك تنازعك ملكها وتبعد لمن هو اقوى بذا منك والقوة منفردة بك وغير قلقة فى ملكك . وقال : ليس يلحق علة العلل برهان وانما يلحق البرهان الاشياء الجزئية لانه انما يصل الجزء بكليته . وقال : ليس للعقل ان يعلم ما فوق العقل الا من الجهة التى علم الانسان منها ان العقل ثابت فيه . وقال : النفس التى فى

الشخص تغالب طبيعته وليس تعرف كل واحدة منها الوقوف على حقها من الاخرى الا بالعقل والنفس تشبه ذبالة القنديل والطبيعة تشبه زيته فاذا زادت قوة واحدة منهما على الاخرى بطل نظامها . وقال : الدين فى اكثر الاوقات اعظم محنة منه فى الحال التى احتيج اليه فيها لان الصيانة تعود بغاية الاخلاق وصاحبه مرفوق معه ومستيأس فيه وليس يستحيله الا من صغرت عنده قيمة نفسه وسهل عليه التلبيس والحيلة فى المدافعة . وقال : القاضى اذا كان موسراً مال مع المطالب واذا كان مملقاً مال مع المطالَب . وقال : افضل الاسخياء من ملك فاقته ولا يسمح فيها بشيء من فضائله وانقص البخلاء من منع ما يكف غيره ولا يصل اليه عوده . وقال : ينبغي ان يشغل الاحداث بتحفظ خواص الاشياء ومجارى طباعها وموقع بعضها من بعض قبل اوان قوة التفكير فيهم والا كانوا على المعارضة اقوى منهم على تبين الحجة . وقال : كلم خصمك ما دام على سنن المناظرة فاذا عدل عنك فاثبت بمكانك منه فانه لا يورد عليك ما يقدح فى قولك . وقال : تصرف الانسان وحاله فى

سائر عمره يشبه الشيء الكونى لانه يبتدئ من اخفض حال ثم يرتفع قليلاً قليلاً حتى يبلغ نهايته ثم ينقص مثل ما يزيد حتى يعود الى ما ابتدأ . وقال : النفس الغضبية ابسط من النفس الشهوانية لانها كثيرة التركيب ولذلك هى اعون على الفضيلة من الشهوانية . وقال : احسن ما فى الانفة الترفع عن معائب الناس وترك الخضوع لما زاد على الكفاية . وقال : من الادلة ان القوة الناطقة تعلم ما فى كثير من الازمان الآتية انا نرى الانسان ربما كان خائفاً من ركوب الماء فكانت وفاته من الغرق فيه او خائفاً من شيء فكانت به منيته فيدل ذلك على ان فيها من يرى ما ينزل به وربما تخطى المنية الى غيرها من المصائب ويبغض رجلاً لا ذنب له اليه ولا بعد بينه وبينه فى الشبه فيجرى عليه منه مكروه ويحب آخر لا يشاكله فيجرى له حظ منه . وقال : نفوس الاشرار فاسدة الترتيب لانها تصرف القول الجميل الى انه ستر على الاساءة وليس يفيدها حسن الاحتياط بمقدار ما يخسها سوء التفهم . وقال : البخلاء يكون عفوهم عن عظيم الذنب اليهم اسهل من المكافأة على

صغير الاحسان . وقال : الكريم يؤثرك بخلوته عند الرئيس فيذكر له ما وعدك به والنذل يجتنبها لنفسه . وقال : ينبغى لمن علم ان يسبق الجاهل الى حسن المداراة فانه يجمع بذلك الفضل والمحبة . وقال : لكل ذى فضل عدو لم يكتسبه يسوءه حسن الذكر له وجميل القول فيه ويرى ان ما شاع من ذلك تبكيت له . وقال : الشرير العالم يسره الطعن على المتقدمين فى علمه ويسوءه بقاؤهم لانه يؤثر ان يعرف وحده بذلك العلم لان الغالب عليه شهوة الرئاسة والغلبة والخير يسوءه فقد احد من طبقته فى العلم لان رغبته الازدياد من العلم واحياء علمه بالمذاكرة . وقال : لا تهب نفسك لغير عقلك فتسىء ملكتها وتضيع زمانها وتخلف فيها من سوء العادة ما يرذلها . وقال : عالم الكون والفساد شبيه بمغارة مدمسة بعيدة المهوى وفى اعلاها طاق يدخل اليها منه شىء من الضياء فما قرب من الطاق اضوأ مما بعد وفيها جماعة يبيعون ويشترون ويتعاشرون قد انسوا بظلمتها واستعملوا مقاييس اكثرها فاسدة فى جودة نقودهم فتطلعت نفس احد من تلك المغارة الى التسلق الى

موضع الضوء والتماس ما يبعثه فتسنم مواضع شاهقة ولم يزل
تجشم كل مشقة حتى قرب من الطاق ولم يصل الى ملامسته
لكنه اشرق من بين يديه وكانت معه دنانير ودراهم مما
يستجيدونها فى المغارة وتجرى عندهم مجرى ما ارتفع الريب
فيه فتأملها حيث انتهى به التسلق فوجد بعضها جيداً وبعضها
رديئاً فميز رديئها من جيدها ونزل الى المغارة فعرض الجياد
عنده على نقاد المغارة فاعترفوا بجودتها فاخرج اليهم ما عزله
من الرديئة وسألهم عنها فاستجهلوه وقالوا ما بين الاولى والثانية
فرق فضحك منهم وقال لهم ما اشك فى انها رديئة فقالوا
كيف هذا وما دليلك عليه فقال رأيتها فى هذا الضيآء واومأ
بيده اليه فاستثقل المستوطن للمغارة مقاله واخذ فى الرد عليه
وكذبه ونازعه قوم فشرعوا يتسلقون الى الضيآء فمنهم من
شق عليه التسلق فرجع ومنهم من صار معه الى موضعه فصدقه
فصاروا فيما يتعاملون به ثلاثة اصناف رجل لم يفكر فيما جاء
به المتسلق واقام على ما جرى عليه سلفه غير مرتاب بشيء
من تلك النقود وهم اصحاب التقليد الساكنون الى ما امروا

به وآخرون ينازعون المتسلق وهم اصحاب الجدل الذين ضعفوا عن الرياضة وقووا على المنازعة وآخرون قد طابقوا المتسلق بما شاهدوه معه وهم خدم العقل الذين رقوا اليه بالمقدمات والنتائج وهجروا فى طلب المعقولات ولم يستثقلوا البحث عن الحقائق . وقال : ذوو العيوب يستهدون عيوب الناس ويصدقون من زيادة المخبر عنها ليتسع العذر فيما هم عليه منها . وقال : ينبغى ان تحظر على الشرار العلوم التى تزيد فى قوة النفس وحسن تصرفها ويقتصر بها على الرياضات التى تفتر وقدها وتردّ الى الاعتدال ما شذ عنها فان غير هذه من العلوم ان عدل بها عن اهل الفضل الى الشرار كانت لهم كالاجنحة للعقارب التى تعينها على الآفات وتباعدها منها . وقال : اذا ثقل على الرئيس الوعظ ولج فى ترك الانقياد للناصح وكذب الممكن وآثر التفويض واحتقر الجد من الاعداء فاطلب الخلاص منه . وقال : ينبغي للعاقل ان يصرف حذره الى الشرار واستنامته الى الخيار . وقال : اذا اجتمع للرجل تقدمة عليك فى الرأى

ووفور امانته فقد استحق ان تقلده وتقبل منه . وقال : المتصنع
اذا اجمته يضعف ويلتاث والمطبوع يقوى ويزيد . وقال :
اذا استعمل الرئيس النفاق لمن دونه صعب ملقاه ولم يقبل بشره
وضاعت عوارفه . وقال : من سجايا الحر ان يكون صبره على
استصلاح من دونه اكثر من صبره على استعتاب من فوقه
واحتماله ممن ضعف عنه اكثر من احتماله ممن قوى عليه .
وقال : اسرع الاشياء الى انحلال النفس تجرع المغايظ وقصور
العادات ورد النصيحة وتضاحك ذوى البخوت بذوى العقول .
وقال : ينبغى للعاقل ان لا يتكسب الا بازيد مافيه ولا يخدم الا
المقارب له فى خلقه . وقال : اذا خدمت رجلاً رئيساً فتبين ما
يحتاج اليه فان المستخدم اما ان يكون انقص منك فيما
استخدمك فيه واما ان يكون ازيد منك فيه والناقص عنك
محتاج الى ان تقبل تفويضه ولا تتركن شيئاً من اموره بغير
تأمل والزائد عليك ينبغى ان تطلعه طلع ما عملت به وتحرز
الحجة عنده فى كل ما اتيته فانه انما يقيمك مقام حافظ عليه .
وقال : لا تستوف شرائط الاعمال وما يوجبه لها العدل فى

الازمان المضطربة فيضيع سعيك وتنسب الى التخلف فيما تعانيه ولكن ناسب بعملك طبيعة الزمان ما لم يقدح ذلك فى مروءتك ودينك واخلاقك فاذا بلغ هذه الثلاثة نخلّ عما فى يدك منها والا خسرت من نفسك اكثر مما تربحه فى ذات يدك . وقال : ليس يحسن البخل الا فى اربع الدين والحرم وايام الحياة والمقاتلة . وقال : من جمع الى شرف اصله شرف نفسه فقد قضى الحق الذى عليه واستدعى الفضل بالحجة ومن اغفل نفسه واعتمد على شرف آبائه فقد عقهم واستحق ان لا يقدم بهم على غيره . وقال : لا ترغبن الى من قصرت همته عن همتك وزاد حرصه على حرصك وكانت حيلته اوسع من حيلتك . وقال : اذا خدمت من هو اقوى منك فى امر من الامور فاظهر له فيه من النزاهة وحسن المواظبة ماتعدل به رجحانه عليك فان خدمت من انت اقوى منه فاكفه مؤونة التعب به ووفر عليه العائد فيه . وقال : الحلم لا ينسب الا الى من قدر على السطوة . وقال : ليس يجب الحمد والذم الا لمعتمد للجميل والقبيح . وقال : ينبغى للحاكم ان يسلك

الحدود برفق ولا يخشن على اهل الجرائم فلولاهم ما جلس مجلس الحكم عليهم . وقال : من نقص الشيخ مقامه فى رق الامل واشارته ما ضعف من شهوته ومن فضله ان يسعى لطلب البقاء بذكره ويعصم الاحداث عما يغريهم بديهه ويورطهم فى مكروهه عاقبته ويجتهد ان يثبت بازاء كل رذيلة اقترفها فضيلة قبل تباين اجزائه . وقال : الآكل يستمرئ الاطعمة الموافقة له وتستمرئه الاطعمة المخالفة لطبعه . وقال : اذا طلبت المال فاجعل زمان الاكتساب له اطول من زمان الاستماع به واذا طلبت العلم فاجعل زمان الارتياض به والفكر فيه اطول من زمان الجمع له . وقال : ليس ينتفع بالعلم ولا بالمال سارق لهما ولا محتال فيهما لان هاتين الرذيلتين لا تكونان الا فى نفس قبيحة الترتيب والنظام لا يزكو فيها شىء تملكه ولا يثمر . وقال : لا يكن وكدك تقريب علم الشىء على المتعلم وايصاله اليه من غير تعب يلحقه فيه فان هذا يعمر حفظه ويخرب استطابته ولكن لوّح له به وخلّ بينه وبين اجالة فكره فيه وسدده الى طرق الصواب فاذا تبينت الجهل فيه

فافتح عليه . وقال : لا تيأسن من خير من ضعف من المشايخ عن الاستعمال حتى يتبين ما معه من التجارب فان كان موسراً فيها فالحاجة اليه ماسة وان كان صفراً منها فقد ارتفعت الرغبة فيه . وقال : اذا احتجت الى المشورة فى طارئ عليك فاستبره ببدائه الشبان وردّ الى المشايخ بعقبه وحسن الاختبار فيه . وقال : رأيُ من وازاك فى المعرفة لك امثل من رأيك لنفسك لانه خلو من هواك . وقال : اعظم قربة الرئيس الى المرؤوس الرحمة واكبر ذرائع المرؤوس الى الرئيس الطاعة . وقال : لا تطيعن قاصداً لك فيما يغض من مروّتك او يخطر بك وكن عوناً له فيما سوى ذلك . وقال : لا تطيعن احداً فى معصية من هو اقدر عليك منه فتتعرض من المكروه لاكثر مما تصديت له من الصلاح . وقال : طاعة الصبر على النوائب اسهل من الاسترسال الى الجزع والاجلاب مع فنونه المردية . وقال : من ملك نفسه اطاعه من دونها . وقال : اول الطب ايناس العليل والتثبت فى الاستدلال باعراض العلة على اسبابها واختيار ما سهل على العليل من الادوية والتدبير . وقال : اذا

بغى الرئيس ضيع الفرصة وترفع عن الحيلة وانف من التحرز
وظن انه يكتفى بنفسه فعندها يصل اليه من سدد نحوه فيجد
عورته فاضحة ومقاتله بادية . وقال : الانسان فى سعيه كالعائم
يكافح الجرية فى ادباره ويجري معها فى اقباله . وقال : الخير
من العلماء من رأى الجاهل بمنزلة الطفل الذى هو بالرحمة
احق منه بالغلظة ويعذره بنقصه فيما فرط منه ولا يعذر نفسه
فى التأخر عن هدايته واحتمال المشقة فى تقويمه فان افضل ثمار
العلم تقويمه من دونه . وقال : الدليل على ضعف الانسان انه
ربما اتاه الحظ من حيث لا يحتسب والمكروه من حيث لا
يرتقب . وقال : اقوى ما يكون التصنع فى بدئه واقوى ما
يكون الطبع فى اواخره . وقال : شرف العقل على الهوى ان
العقل يملكك الزمان والهوى يستعبدك له . وقال : من اخذ
نفسه بالطمع الكاذب كذبته الطبيعة الصادقة . وقال : كل
ما حملت الحر عليه احتمله ورآه زيادة فى شرفه الا التماس حط
جزء من حريته فانه يأباه ولا يجيب اليه . وقال : من خدم الخير
لم تذله الامور الطبيعية . وقال : لا ينبغى للمرء ان يستعمل

سوء الظن الا عند انقطاع الرأى . وقال : الرأى يريك غاية الامر فى مبدئه . وقال : اذا تحركت صورة الشر ولم تظهر ولدت الفزع واذا ظهرت ولدت الالم واذا تحركت صورة الخير ولم تظهر ولدت الفرح واذا ظهرت ولدت اللذة . وقال : زينة الانسان ثلاثة الحلم والمحبة والحرية . وقال : منع الكريم البر والتكرم مع اعطائه حقك احسن من بذل السخى بالاستخفاف والتهاون . وقال: ينبغي للحران يصون مروءته من وهمه وحرصه . وقال : العزيز النفس هو الذى لا يذل للفاقة . وقال : افضل الملوك من بقى بالعدل ذكره واستحلى من اتى بعده فضائله . وقال موت الملك بدء حركة الزهد من نفوس الخواص فى هذا العالم وعبرة العوام . وقال : اعرف للاشياء فضلها تعرف فضلك وانظر اليها من جهة جواهرها ولا تتأملها من جهة اعراضها فان محبتك لها تدوم وانتفاعك بها يقيم . وقال : الشراب يكشف عن المتصنع ستر التصنع وكذلك القدرة فلا تستعمل البطش حيث ينجع القول . وقال : قدم العدل تظفر بالمحبة . وقال : ينبغي للعاقل ان يربى صداقة صديقه بجميل

الفعل وحسن التعاهد كما يربى الطفل الذى ولد له والشجرة يغرسها فان ثمرتها ونضرتها بقدر جميل الافتقاد لها . وقال : لا تبكتن احداً فى الظاهر بما تأتيه فى الباطن واستحى من نفسك فانها تلحظ منك ما غاب عن غيرك . وقال : لاتجعل القائد لافائيلك الوهم ولا تجرد شهوتك من العقل اذا هي جمحت بك واستعن عليها بغضبك والا كنت بهيمياً . وقال : الحر من وفى ما يجب عليه وتسمح بكثير مما يجب له وصبر من عشيره على ما لا يصبر منه على مثله وكانت حرمة القصد عنده توازى حرمة النسب وذمام المودة له يجوز ذمام الافضال عليه . وقال : اذا اشتد فرحك باقبال سلطانك عليك فقد ابتدأ بك السكر ونهايته ان ترى الناس بغير مقاديرهم ويسهل عليك ان تستذم اليهم . وقال : لا تشيرن على ملك فى احد بما تكره ان يعمله فى امرك اذا حللت محله . وقال : واظب على من قدمت خلطتك به فان بينك وبينه مناسبة سماوية . وقال : اذا اردت ثبات جدة صاحبك فتبين رقته على من اضاق من ذوى الجدات بالنقص ويعرضهم للمكاره ومن

زالت عنه الجدة بالغلظة فترقب زوال امره ما تكاد الجده تهدى الى صاحبها صديقاً فيه خير ولا تكاد الشدة تهدى صديقاً فيه شر . وقال : المحبة الصادقة للنفس ان تضعها موضعها ولا تحملها فوق طاقتها بلقاء العقل وتمنعها فرط الشهوات . وقال : فى النواميس ايناسُ الخائف افضلُ من اطعام الجائع . وقال : اعظم من فقد النعمة ما تخلف فى نفوس من زالت عنه من الشهوات المردية والمذاهب الذميمة وافضل من فقد الشدائد ما تخلف فى نفوس من زالت عنه من قوة الصبر وذكاء الجوارح وسلوك النفس الى الأمر المحمود . وقال: غريم المرء يشبه ابطه ان اغفله فضحه وابدى عورة منه كانت مستورة . وقال : الحاذق بالسياسة من الملوك من استخدم الفضائل فى الناس والرذائل كما تستخدم الطبيعة فضول الاغذية فتجعلها فى اشياء تنتفع بها . وقال ليس يطول التذاذك بشيء حسيّ ولا طبيعى لانه سريع التنقل والحركة وانما يثبت لك الالتذاذ بالاشياء العقلية التى تثبت ولا تحتاج الى حراسة هيولاها . وقال : احسانك الى من كادك من الشرار والحدة

اغلظ عليهم من موقع اساءتهم منك لانك تمنعهم به ما تطلع نفوسهم اليه من تمام كيدهم لك وبلوغ المحنة فيك وليس ينكسر منهم باحسانك الا من افرط به ضيق احواله وكان فيه ضعف عن المعاركة . وقال : انقص من كذب لغيره واحسن من الظالم من ظلم لسواه . وقال : البخل يحسّن للرفيع التواضع وللنبيه الخمول وللوصول الوحشة والتفرد ويحبب اليه ان يكون رعية بعد ان كان راعياً خوفاً من غلظ المؤن عليه وهو مع هذا ضعيف القلب عن المقاومة والسخاء فى ضد هذه الحال والاعتدال اخذ باحسن ما فيهما . وقال : اذا مرق منك تابع الى عدوّ لك فلا تتبعه سوء ذكر ولا تطلق ذلك فيه لغيرك وحافظ على اسبابه واشع ان خروجه عنك عن مواطأة بينك وبينه وانك نصبته للتخير عليك وهو لا يظهر على لسانك ولكن اطلقها وانكر ما يتأدى منها فانك تفسد بذلك محله وتلين قسوته عليك واحذر ان تؤيسه من حسن المراجعة بسوء الايقاع فى اسبابه . وقال : اذا حاولت امراً فلا تجمح فيه ولا ترمه باكثر من جهدك وكن فيه كالملاح فى قطع

عرض البحر يسترق الجرية والرياح ويستعمل الاخلاص فيما عجز عنه لانه ربما كان الاغراق فى الامر سبباً لفوته والاخطار بصاحبه فيه . وقال : حيث نزيد القول ينقص العمل وحيث تقع التهمة يضعف الاسترسال . وقال : ليس ينبغي للعاقل الحسن الحال ان يفرح بموت عدوّ له لان الطبيعة لا تتركه بغير عدو ولكن ينبغى ان يكون فرحه موكلاً بارتفاع عداوة الخيار له وميل الشرار اليه ويسهل عليه ما سوى ذلك . وقال: لا تظهر الاسف على شيء اغتصبته فى هذا العالم فلو كان لك بالحقيقة لما وصل اليه غيرك . وقال : الزمان الرديء يقلب اعيان المنعمين الى المنع والاساءة بما يظهر فيه من كفر الاحسان ومقابلة الجميل بالقبيح . وقال : لا يغرك ما شاع عن رجل الى الايثار له او الى الانحراف عنه واخلط مع الاشاعة عنه الاختبار له . وقال : ينبغي لمن طال لسانه وحسن بيانه ان لا يحدث بغرائب ما سمع فان الحسد لحسن ما يظهر منه يحملهم على تكذيبه وترك الخوض فى الشريعة والا حملتهم المنافسة على تكفيره . وقال : اضر الاشياء عليك ان يعلم رئيسك انك

احسن حالاً منه . وقال : فساد تناسب المدينة والمنزل والجسد مرض من امراض كل واحد منها . وقال : انما تنقص بلاغة المحررين لانهم قد صرفوا اكثر عناياتهم الى تقويم خطوطهم وليس يضطلع المعتنى بجهتين كما يضطلع المعتنى بجهة واحدة .
ومن بعض وصاياه لتلاميذه : لتكن عنايتكم فى دنياكم بما يصلح معاشكم وفى دينكم بما يرضي خالقكم عنكم . وقال : لا تدفعن عملاً عن وقته فان للوقت الذي تدفعه اليه عملاً وليس يطيق ازدحام الاعمال لانها اذا ازدحمت دخلها الخلل .
وقال : اول ما يغبن الغابن نفسه رضاه بثمرة الخديعة وتفضيله اياها على ثمرة الانصاف التى لا تبعة فيها . وقال : يحتاج الوزير الى جوامع ما يرد عليه ويصدر عنه ويحتاج الملك الى جوامع ما أخذه الوزير حتى يقف على غرض كل وارد وصادر وكذلك ما يطلق . وقال : اعطاؤك الانسان ما لا يحتسبه يفسد نفسه ويعلمها التعبد للبخت . وقال : اذا اردت ان تجمع لمن عنيت به صلاح الحال والنفس فحركه على بعض امورك واستخدمه بافضل ما فيه من مهمك وأغزر نصيبه وعائدته ولا تعطه شيئاً

لغير علة فيطلب الفرح لغير سبب من اسباب الفرح . وقال : ليس حق نبي العصر الظهور الا عند ما يعود على الكل الفساد فاذا أصلحه خفي . وقال اقبح من فاقة الغنى رجوع الآمال عنه وخضوعه الى من دونه فى حراسة ما فضل عن حاجته . وقال الزهاد الذين يلحقهم سحر الطبيعة . وقال : اذا جرت بينك وبين أحد كنت تعرفه ملاحاة فلا تشره بشيء ظهرت به عليه ولا بشر افضى اليك به ولا تستحي منه فى صلحك له فان الاحوال تنتقل . وقال : لا تغضب لاحد على احد تفسد له ما بينك وبينه فربما اصطلحا وبقيت مهاجرا له . وقال : اذا فقد من بعض المواضع فضيلة كانت فيه فهي فى المواضع وليس يظهر فى العالم شيء فيبطل ولا يوجد شيء من اجزائه . وقال : يحتاج من افضى الى نعمة ان يدارى عنها الحاسد عليها والمتأول فيها والمحروم منها والممتعض من الاستطالة بها فان الغرّ من أرباب النعم لا يفكر فى احد من هؤلاء وانما ينظر الى عدو المعاملة فيها فيحاكمه الى الحجة ويصحح العذر له فى كافة الناس ويترك غامض اسرار وقوع المكافأة فيها . وقال : شر من لجأت اليه

فى المنعة الحارسة لنعمتك البعيد الهمة الحثيث الفكرة الصبور على الالتذاذ الذى لا يمسك بمناسبة ولا أنس وخيرهم من حسن موقع صغيرك منه ولم يستعمل الترفع عليك وخلطك بنفسه وكان له موقع يستعمل معه ما رغبت فيه اليه . وقال : احذر من قويت يده وتمكن الشره منه وكانت سنه دون سنك فانه عدوٌّ لك تطرق على نعمك . وقال : اذا تمسكت بحبل رئيس فى حراسة نعمة فلا تداخل المتصرفين له والمنفذين لامره ونهيه وان كنت بما وكلوا به احذق منهم . وقال : فكر فى وتر من اضغنته وان كان صغيراً ولا تنم عنه حتى تمحوه عنك اما باصلاح أو بانارة والاصلاح اعود . وقال : الكريم المحض من غلبت عطاياه من اجل الرقة للقاصدين له ولم يطلب بها المباهاة ولا المكافأة . وذكر ان فى الصحيفة الصفراء : ياأيها الانسان اكتم فى هذا العالم حسن صنيعك عن أعين البشر فان له عيوناً يشرف منها من عمرة ملكوت السموات تبصره وتجازى عليه . وقال : من تمام امانة الرجل كتمانه للسر ورفعة التأول وقبوله الجميل على ظاهره . وقال : الشجاع يختار حسن

الذكر على البقاء والجبان يختار البقاء على حسن الذكر . وقال : المبادرة الى حسن المكافأة تعتقك من رق المحسن وترفعك الى محله وتذخر لك عنده جميل المراجعة ، والامساك عنهما مع القدرة عليها ترذلك وتدل على نقصان فى طبعك وجمود عن الخيرات وزيادة من الانفعال على الفعل . وقال : الانس بالعيب أقبح منه . وقال : اذا حاكمت رجلاً فليكن فكرك فى حجته عليك أقوى من فكرك فى حجتك عليه واحذر ان يسبقك الى الحق فان سبقك اليه فرجوعك الى الصواب احسن من ظفرك به . وقال : احذر مؤاخاة من يجعلك أكبر همه ويؤثر ان لا يخفى عليه شيء من أمرك فانه يتعبك ويأسرك فان جمع الى ذلك الاستقصاء على معاشره لم تتخلص منه وليكن صديقك بمنزلة الغصن من الشجرة ينجذب معك وفى يدك فاذا خليته رجع الى موضعه من الصلة وحسن المحافظة ولم ينافسك المودة ويجعل ذلك سبباً الى القطيعة . وقال : غيرة الاصدقاء والغلمان أضر من غيرة النساء لانها مشوبة بفظاظة وغلظة فاحترس من جنايتها وتنكب من غلبت عليه . وقال : من كرم الشريف

مساواة من لم يكن بينه وبين آبائه شرف وترك الترفع بما ملكه اياه الاتفاق ولم يحزه بسعى . وقال : لا يوحشنك اصطناع قريب عدو لك فان الدرع التى تمنع من جنس السيف الذى يقطع . وقال : افضل الرعية اصبرهم على الملوك وطاعة الرعية سداد الوزراء . وقال: اكثر العثار من امتطاء الامل وحسن الظن بالايام ومكافحة الاكفاء والاستهانة بصغير العداوات . وقال : عاشر الناس معاشرة من الصلة آثر عنده من القطيعة والاحتمال أغلب عليه من التجنى واعلم ان ما يخرجهم الى التعدى والاخلاق الذميمة اغراض وظنون فاسدة تغريهم فتوقهم واغفر لهم . وقال : من كانت خدمته فى هذا العالم للجسد وما اطاف به شقت عليه مفارقة العالم لانه لم يعد للظاعن عنه عدة ولا زاداً فيضيع سعيه ويكثر اسفه ومن خدم الظاعن من هذا العالم استخف باسباب العبودية فيها باسرها وخاصها من لبوسها فأراحها من مصارعة ما يقصر بها وينقص فضلها . وقال : من غلب الشباب ومساعدة الحظ عليه ولم يثنياه عن الامور الفاضلة فهو القوى ومن تصور صدره فى ورده وجعله نصب

عينه ونجى فكره فهو السعيد البخت ومن قضى ما اسلف من الاحسان بغير اقتضاء فهو تام الحرية . وقال : احذر مصارع الدالة واغلظها ما تحرك به معها الغضب فان كسره لا ينجبر وجرحه لا يندمل . وقال : الحر يزيد محلك عنده تقدمهُ عليك والسفلة ينقصك ذلك عنده وذلك انه يتوهم ان زيادة محله بفضلك عليه وقد وقف على وزنه فتستحق عنده النقيصة . وقال : الحر من الرؤساء فى غربته يرى ان معاشريه اهل له فهو يقرب منهم ولا ينبو عنهم ويحسن فى عينه صغير ما احضروه لان انسانيته لا تتركه بغير معاشرين والنذل يستوحش ممن معه فى غربته ولا يقبل غيرهم لما فى طبعه من الاقتصار على من خلفه دون غيرهم . وقال : من فضائل السخاء ان لا يخيل لاحد ان صاحبه يجمع المال وربما تهيأ للعاقل جمع المال فيه ولم يضع فضيلته ولا خفيت محاسنه وكثيراً ما يقع اللئيم فى الامر فلا يجد فيه الخلاص الا بمعونة السخيّ لان اللئيم قد درس ببخله معالم الجاه ودفع كافة الناس عنه . وقال : احسن ما صرف اليه البخيل وكده فى حراسة ماله الى العبادة

والاغراق فى خدمة الشريعة فانه مهيئ لها بما فى نفسه من الاقتصاد والمهابة وهي تذب عنه وتمنع الشرّ منه . وقال : يكاد ان يتعذر على السخي الاستتار وعلى البخيل الظهور . وقال: ان آثرت لزوم بيتك لفساد زمان او تغير سلطان او علو سن فلن تصل اليه الا بظهور علم فيك او عبادة شائعة عنك فان هذين يحرسان صاحبهما فى اكثر الامر من سوء التخطى . وقال : لا تهش الى كافة الناس هشاشة تحشرهم اليك فتضيق ذرعاً بهم ولا تصبر على ما يحبون منك ويؤثرون فيك ولا تنقبض عنهم انقباضاً يوحشك منهم ويمنعك من رفدهم ولكن الق الاعيان منهم بالترحيب والمفاوضة ومن قصر عنهم بحسن اللقاء والصمت وسفلهم بالرأفة وحسن المعونة . وقال : احذر معاشرة من زاد لسانه على عقله وطلبه على استيجابه وموقعه عند نفسه على محله فى الحقيقة فانه من أقوى آلات الزمان فى نحسك واطلب منهم من قيد قوله برؤيته وعمله بخبرته واستصغر ما يكون منه فى جنب الواجب عليه فى حريته ولم يفتنه خلوه فى عصره بفضيلة معه وقابل المطرى له بالاستعفاء من مدحه

لعلمه بان الذي بقى عليه مما لم يعلمه اكثر مما ظهر منه . وقال : اذا قربت النفس من العقل آثرت الانفة والسماحة واذا بعدت منه اختارت طاعة الجسد والبخل عما سواه . وقال : اذا اردت امتحان طبع احد وهل هو محتمل للفضيلة والصبر على الرياضة فاطره فان استخفه ذلك فلا تعن به فهو ضعيف الطبع وان آثر قولك ولم يستخفه فارجه وواظب عليه . وقال : تخرج من ناهضته عن يديك وعلقه بخيفة منك اوامل واحذر ان يقطع عليك الغيظ الرأى فانه سكر وخيم المغبة . وقال : ان احتجت فى مناهضة خصم الى مكاشرة فليكن ذلك بغيرك واجتهد فى ملك نفسك وظهور حسن السجية منك واجذبه الى الحق برفق . وقال : اذا شاورك الملك فى قوم فحركه على استصلاحهم وتعمد هفواتهم فان خطأك فى الحض على الاحسان اسلم من خطأك فى التحريك على الاساءة . وقال : اذا كفى الحرّ مؤونته تفرغ للجميل ولم يتعد السعي المحمود واذا كفى الشرير مؤونته تفرغ للاحتكار والترأس وتتبع عثرات الناس وكان بئس الذخيرة لكافتهم . وقال : شاور فى امورك من

يلزمه فيها ما لزمك واثبته فى المشورة جميع ما أنت بسبيله والا كان تقصيره فى الرأي بقدر ما كتمته من الحال . وقال : اذا عاملت جائراً فاخلط بالاحتجاج عليه الاقناع له ولا توجده فى سعيك شيئاً يتأول عليه فى شريعة او غيرها ما يستحيل به الاساءة اليك . وقال : اذا قصرت بك الحال فلا تجر الى حسم الفضول من اسبابك فيشق عليك استدعاؤها فى زيادتها واجعل فى كل ما آثرته نصيباً من نقيصة ليسهل عليك الاستئناف ولا تفارقك صورة التوسعة . وقال : اجعل المتمسكين بالفضائل فى المواضع البعيدة منك وانصبهم فيها للنيابة عنك فانك تأمن على ما تقلدوه لك ومن قصر عنهم ولم يضبط نفسه كل الضبط فليكن بحضرتك فانك تقومهم بمراعاتك لهم وهم اشبه بالعبيد لانهم لم يملكوا خواطرهم ولو ملكوها لكانوا متمسكين بالفضائل ومن صرفه خاطره فهو عبد وان كان حرَّ الآباء . وقال : اذا اتسعت حالك فلا تعاشرن ذوى اليسار دون غيرهم وترى انهم أخف عشرة لك واقل مؤونة عليك من سائر طبقات الناس فان موداتهم فاسدة ورئاستهم

كاذبة وبهم يشتد حرصك ويقسو على اهل المسكنة قلبك وتجحف لهم بنفسك وانت منهم فى حسد قائم وتغيير لازم ولكن كاشر فى سعة الحال ذوى النباهة فى الرأى لتجتمع لك الجدة فى المعرفة وذات اليد ولئلا يغيب عنك بهم علم ما يتوقع من محبوب أو مكروه . وقال : الملوك تحب ما كان به نظام الامر التام اكثر مما تحب الرجل التام لان ما كان به نظام الامر يصلح لها وهى محتاجة اليه والرجل التام فلا يطوع لها لانه وحده من الناس هو الفيلسوف . وقال : اذا غلب المعشوق على بسيطك ومركبك بعد خلاصك منه . وقال : اضعف الناس من ضعف عن كتمان سره واقواهم من قوى على غضبه واصبرهم من ستر فاقته واغناهم من قنع بما تيسر له . وقال : اذا انعم عليك بنعمة بها فضل عنك فاعلم ان فيها نصيباً لغيرك فتسرع الى اخراجه تأمن بغتة الاستدراك . وقال : يثقل على الرجل ان ينقل صديقاً له من الصداقة الى الاستخدام او الى المعاملة لانه يحتاج فى الاستخدام الى تمكن الهيبة منه فى قلب المستخدم ومناقشته على ما وكل به وردعه عما يخاف وقوعه وهذا يثقل

عليه فيمن صادقه وهو فى المعاملة يخاف فرط الادلال عليه فيها .
وقال : ليس تسلم مودة متعاملين حتى تكون رغبتهما فى الصداقة اكثر من رغبتهما فى المعاملة . وقال : اذا كنت على ثقة مما يجادلك فيه انسان فاصرف فكرك الى الجهات التى لحقته الشبهة منها فانها تعينكما جميعاً على الحق . وقال : لا تناظرن احداً بين يدى من رغب فى اقامة جاهه عنده فانك ان سلمت من خطاه فى اللقاء لم تسلم منه فى الغيب . وقال : ليس يحي للفضائل الا من مات موتاً ارادياً . وقال : النفس الفاضلة هي التى تستقرى المنافع وتعطى ماطال زمانه وكثر عوده من سعيها وخدمتها له اكثر ممايعطي مادونها ولا يشغلهاشيء عن شيء . وقال : الفضل عن مال الغنى حرام عليه ما وجد ظاهر الخلة شديد الفاقة مكدى الاكتساب . وقال من حق الفضل الذى زدت به على الجهال ان تحتمل سقطاتهم وتحسن هدايتهم وترعاهم فانك تجمع الى المثوبة فيهم حسن انقيادهم اليك وتيقظهم لمحلك .
وقال : مرتبة الرجل فى الموضع الذى يؤثر اقامة جاهه فيه واستخدام قيم العالم اياه على حسب سريرته وتقويمه نفسه فى

الباطن للخير والشر . وقال : اذا انعم عليك رجل بنعمة لم يكلفك فيها تواضعاً ولا بذلا فانظر فى وقت اسدائها اليك ما تطيب به نفساً له فاثبته عليك ديناً من ديونك لوقت حاجته اليك فان الحرية تقتضيه وقيم العالم يجازيك عليه . وقال : اذا رغبت الى رجل فجرد فى نفسك قيمته وما يعدل به الرأى عنها ومقدار هشاشته الى قضائه وألقه لمثله ووجوب حقك عليه واسأله بعد هذا ما يحتمله طبعه وما تنشرح اليه نفسه وان سألته قبل النظر فى هذه الاشياء ظلمته فى السوم وبعدت من مطلوبك لديه . وقال : اذا سألت حاجة فلا تنصب فى نفسك جميع ما يعدك الامل منها فتخرب فى الحرص وتسرف فى التواضع وتشقى فى الرد ولكن امزج بين ما ترجوه من الامل فيها بما تخافه من التقصير عنها فان هذا يوفر سعيك ويعظم قدرك ويسليك عما قصرت عنه منها . وقال : لا تجعل ما اسداه اليك رجل مقداراً لعطاياه ويسمح لك به فى كل وقت يسير به فكرك حتى تحصر مادته وموقعك منه ومقدار ما يحسن فى الزمانين وجميع الاشياء المطيفة به فان من هذه يتبين امر زيادتك

والتقصير بك عنده . وقال : كل شيء يفعله الانسان فمقرون بفعله فعل سماوى يزيد فى اعتماده وينقص منه فاذا رغبت الى احد فى شيء فقدم قبل ذلك التواضع لمحرك الاتفاق الصالح وزد فيه على سعيك مع المرغوب اليه واعلم انه يرى من امرك مالا يراه من رغبت اليه فيه فاستحى من مسألته مالا يليق به سؤاله وقال : اعداء قيم العالم من ساءت مكافأته للجميل واستخدم اشرف قواه لارذلها ومعاند ما اتضح فى معرفته صحته ومشيع كلام الملك الشرير بما يقوى به افعاله ويشحذ غيظه وقال : تحقيق الرجاء يسترق باطن النية وانجاز الوعد يسترق ظاهر الفعل والمحبة ابقى على الايام من المخافة . وقال : اذا حسنت للرئيس نفسه قبض ما بسطه من نيله واستكثار مايبذله من عنايته لغير نقص فى ذات يده فليتوقع امراً تقصر باحواله . وقال : اذا كبرت النفس استشعرت الخلود فعملت من الجميل ما يبقى على الازمنة المتطاولة مثل حسن السياسة واجتلاب الشكر واذا نقصت استشعرت قرب المدة وتصرم الاجل فآثرت عاجل الانتفاع على آجل الذكر ولم تحفل بمستقبل

من الازمنة ولا جميل من الفعل . وقال : الزمان قليل الوفاء سيئ الصحبة كلما قدمت مصاحبته لاحد تغيرت صورته وضعف بدنه فلا تحكمه عليك فانه ان قوى على جسمك وقواك فلن يقوى على فضائلك وجميل ماسعيت فيه . وقال : الرغبة الى الحر تخالطك به وتقربك منه وترفع سجوف الحشمة بينك وبينه وتقبض اللئيم عنك وتباعدك منه وتصغرك فى عينه . وقال : اذا كافحت عدوًا فاحذر طاعة الغضب فيه فانه اعدى لك منه . وقال : محبتك للشئ ستر بينك وبين مساويه وبغضتك له ستر بينك وبين محاسنه . وقال : ينبغى للرئيس ان يتأمل اصحابه فان كانوا يستحقون الثقة بهم والسكون اليهم كانت استنامته اليهم اكثر من استنامته الى ماله فاوسعهم به وجادهم منه وتخطى العدل فيهم الى الفضل عليهم وان كانوا حينئذ وحدانًا يجرون بكل ريح كانت ثقته بماله اكثر من ثقته بهم فلم يطلق اليهم منه الا ما يمسك ارماقهم ويعللهم عنه بلطيف الحيلة الى ان يشرى به نفوسهم فى المعارك ويناجزهم بما آثرهم به منه فليس يقضى امثالهم النسيئة ولا يستحقون الايثار . وقال : الحياء اذا توسط

وقف الانسان عما عابه واذا افرط وقفه عما لا يعيبه وعما احتاج اليه واذا قصر سلب عنه ثوب التجمل فى كثير من احواله . وقال : لاتصحبن من هوى دونك حتى تكون دونه فى المعرفة او فى فضيلة اخرى ولا تخرجن عما جرى به الرسم فى المملكة التى انت بها الا بعد اظهار عذرك واشاعته فانك تكف بذلك همس الحاسد وشغب المعاند

من كلام ارسطوطاليس

كتب ارسطوطاليس الى الاسكندر : اذمّ اليك الدنيا الآخذة ما تعطى السالبة ما تكسو تسدّ بالأراذل مكان الافاضل وبالعجزة مكان الخدمة تجد فى كلّ من كلٍ خلفاً (فى كل اى فى كل خصلة من كل اى من كل احد) وترضى بكلّ من كل بدلاً تسكن دار كل قرن قرناً (شجاع محارب) وتطعم سعى كل قوم قوماً من سقته من عذب حلاوتها كاساً

جرعته من غب مرارتها انتكاساً . قيل له لم تناقض صديقك افلاطن قال : افلاطن صديق والحق اولى بالصداقة منه . قيل له ما الفضل بين الاديب وغير الاديب فقال : الفضل الذي بين الحى والميت . وقيل له اخبرنى عنك ثقة بما يوحش . قال : الثقة لا ينم . وسئل اى شىء اصعب على الانسان . فقال : السكوت . وسئل اى الحيوان احسن . فقال : الانسان المزيّن بالادب . وقال : شهود الوقعة بغير سلاح اصلح من توسط جماعة بغير فهم . وسئل أى شىء ينبغي للفاضل ان يقتنيه . قال : الاشياء التى اذا غرقت به سفينته نجت معه . وقال : الادب يكسب الاغنياء زينة والفقراء معاشاً يعيشون به عيش الاحرار . وقال : الحُسن ردىء لصاحبه جيد لغيره . وقال : العقل عقلان مطبوع ومسموع . وقال : اذا تعلم الجاهل شيئاً من الادب استحال ذلك الأدب فيه جهلاً كما يستحيل طيب الطعام اذا خالط جوف المريض داء . وقال : مَن عدم العقل لم يزده السلطان عزاً ومن عدم القناعة لم يزده المال غنى ومن عدم الايمان لم تزده الرواية فقهاً . وقال : الانسان بلا عقل

كالتمثال بلا روح . وقال : الحزن مدهشة للعقل ومقطعة
للحيلة فاذا ورد على العاقل مكروه يحتاج الى الحيلة فيه قمع
الحزن بالحزم واوقع العقل فى الاحتيال . وقال : لا يعد الملك
الكذوب ملكاً . قال المؤلف : كما لا يعد السراب ماء . وقال
ارسطوطاليس : بعد الادب من ان يلتحم بالجاهل كبعد
النار من ان تشتعل فى الماء . وقال : العالم الذي لا يعمل يقل
عنا علمه كما يقل عنا مال المكثر البخيل . وقال : الكذاب
يفتضح بذات فيه . وقال : القليل مع قلة الهم اهنأ من الكثير
ذى التبعة . وقال : من منع المال سبيل الحمد اورثه من
لا يحمده . وقال : اذا دخلت الموعظة اذن الجاهل مرت
من الاذن الاخرى . وقال : حياة الفاجر فضيحة الدهر .
وقال : الاحمق لايحس بألم الحمق المستقر فى قلبه كما لايحس
السكران بألم الشوكة التى تدخل فى يده ورجله . وقال :
ظاهر العتاب خير من مكتوم الحقد . وقال : ضربة الناصح خير
من تحية الشانئ . وقال : التواضع يزيد فى الشرف والفجر
يؤدى الى الخمول . وقال : قرب الهرم من الموت كقرب

الثمرة اليانعة عند هبوب الريح من السقط . وقال : مانع الحق فى الشدة اعذر من مانع الفضل فى الرخاء . وقال : ينبغى للعاقل ان يدارى الزمان مداراة السابح للمآء الجارى . وقال : لا تغتبطن بسلطان غير عادل ولا بغنى من غير حل ولا ببلاغة من غير صدق منطق ولا بجود فى غير اصابة موضع ولا بحسن عمل فى غير خشية . وقال : العقل الغريزى من باطن الانسان بموضع عروق الشجرة من الارض والعقل المكتسب بالتأديب من ظاهره بمنزلة مكان الشجرة من فروعها . وقال : قوت الاجساد المطعم وقوت العقول الحكم فاذا فقدت العقول الحكمة ماتت موت الاجساد عند فقد الطعام . وقال : المعلم الرفيق يربى المتعلم بصغار العلم قبل كباره كما تربى الوالدة ولدها بالرضاع قبل الطعام . وقال : من كفر النعمة استوجب السلب وحُرم المزيد . وقال : العاقل لا يجزع من جفآء الولاة اياه وتقريبهم للجهال دونه لعلمه بان الاقسام لم توضع على قدر الاخطار . وقال : يظهر من صلاح الصالح وان جهد فى كتمانه مثل ما يسطع من ريح المسك وان كان مكتوماً . وقال : لما

خلق الله العـدل الذى جعله سبيل العروج الى جنابه عارضه
الشيطان بالتقصير والافراط فجعلهما سبيلاً الى جهنم . قال
المؤلف : يعنى بالعدل الافعال الواجبة على العبد التى الزيادة فيها
افراط والنقصان منها تفريط ويعنى بالعروج الرجوع الى الله
جلّ وعزّ الذى هو المعاد والجنة . وقال ارسطوطاليس : طوبى
لامرء سلك سبيل القصد فانه وان قصد فى المسير سيبلغ المنزل
وويل لامرء سلك سبيل الجور فانه لا يزداد فى السبيل امعاناً
الا ازداد من المنزل بعداً . وقال : المخدوع فى جنب الخادع
سعيد . وقال : لو أن لساناً صادقاً امر جبلاً ان يزول لزال من
مكان الى مكان . وقال : الحكيم الصالح لايخادع احداً والعاقل
الكامل لايخدعه احد . قال المؤلف : ان يكون الانسان مخدوعاً
ليس بصفة محمودة لانه يدخل فى باب الغباوة وربما ظن
الناس انه صفة مدح لما يسمعون من قولهم الكريم مخدوع
ومن قول الشاعر * ان الكريم اذا ماخودع انخدع *

ومن قول الآخر

خادع خليفتنا عنها بمسألة ان الخليفة للسؤآل ينخدع

وليس الامر كما يظنون وانما المراد بالانخداع ههنا التكلف مع المعرفة بالخديعة وقد صرّح ابو تمام الطائى بالواجب فى هذا المعنى فقال :

ليس الغبيُّ بسيد فى قومه لكنّ سيدَ قومه المتغابى

وقال ارسطوطاليس : ينبغى للمرء ان تكون ثقته فى الشدائد باخوانه وذوى قرابته وفى العهد والذمة بأهل الصدق وفى المسكنة بالمرأة الصالحة وعند الموت بما قدم من الحسنات . وقال : لا فقر افقر من الجهل ولا وحشة اوحش من العجب ولا صاحب اكيس من الشورى . وقال : المشاورة تخلص الرأى من السقط كما تخلص النار الذهب من الكير . وقال : تقريب الولاة للعلماء ازين لهم من اللباس والمراكب لان هذه لا تزينهم الا عند من عاينهم فاما زينة العلماء اياهم فعند من عاينهم ومن سمع بذكرهم فى حياتهم وبعد مماتهم . وقال : من رجا الكرماء ادرك . وقال : نفس العاقل لنقل الصخر مع العقلاء اشد اغتباطاً منها بالاكل والشرب مع السفهاء لعلمه بعاقبة الصنفين . وقال : نصيحة العاقل مبذولة للعامة وسره مكتوم الا من الخاصة . وقال : اعظام

الفاجر تقوية له على الفجور ومسئلة اللئيم مهانة للعرض وتفهيم الجاهل زيادة له فى الجهل وتعليم الأبله ابطال العمر واصطناع الجميل مع الكفور اضاعة للنعمة فاذا هممت بشيء من ذلك فعليك بارتياد المواضع قبل الاقدام بالعمل . وقال : قالت الروم لا عيب على الملك اذا بخل على نفسه مع سخائه على رعيته ، وقالت الهند صواب ان يبخل الملك على نفسه وعلى رعيته ، وقالت الفرس يجب ان يكون الملك سخياً على نفسه وعلى رعيته ، واجمعوا جميعاً ان سخاءه على نفسه مع بخله على رعيته عيب . وقال : الفصاحة أس الفضائح . وقال : اى ملك جعل دينه خادماً لملكه فلكه وبال عليه . وقال : اى ملك جاوز سره وزيره فهو فى حد ضعفاء السوقة . وقال : سرعة الغضب من اخلاق السباع والصبيان . وقال: كثرة الجماع تنهك العمر وتنقض البدن . وقال: اصلح نفسك لنفسك . وقال للاسكندر : كن رحيماً من غير ان تكون رحمتك فساداً . وقال : اعتبر بمن مضى قبلك ولا تكن عبرة لمن يأتى بعدك . وقال: لا تقطع كلام من يحدثك فانه خارج عن خصال الادب . وقال : يا اسكندر اعلم ان عيوب عمالك

عيوبك . وقال : اذا فرضت لجندك دية فلا تفرض لمن لا تعرف والده ومن ولد على العبودية فان الناس يقاتلون بالحمية والانفة . وقال : يا اسكندر لا يكونن لجائزتك حد فان ذلك ابسط للامل فيك . وقال : يا اسكندر اعمر ما خرب مما انشاه من تقدمك يعمر ما تبنيه من يتبعك ، يا اسكندر تفقد امر عدوك قبل ان يطول باعه وارتق الفتق قبل ان يتجاوز اتساعه ، يا اسكندر اذا انشأت حدثاً فيقظها واذا اشعلت ناراً فالهبها ، يا اسكندر اذا ظفرت بقوم فاياك وان تبسط غضبك فيهم فان اكثرهم الضعفاء منهم براء من الجناية ، يا اسكندر اعلم ان في السنة العادلة ان لا تعير من كان على السنة ولا تحارب من كان متمسكاً بحبلها ، يا اسكندر اجر الحكم على الخاصة والعامة . وقال : الحاكم شريك من ولاه . وقال : لا يكونن جليسك الا من تثق به . وقال : قلّ من لم تصرعه الشهوات . وقال : ادفع عن دينك بملكك . وقال : صيّر دنياك وقاية لأخراك . وقال : العلم زينة الملوك . وقال : لا تفخر فيما يزول ولا غنى فيما لا يثبت . وقال : توخَّ حمد الناس فان

مدحهم اطول عمراً منك . وقال : اجعل العقاب بين ناظريك وفكر فيما وهب الله لك من النعم . وقال : اقنع تغن . وقال : لا تكلب على الدنيا فانك قليل البقاء فيها . وقال : يا اسكندر دافع عن البيوتات وان تضعضعت حالهم فان اسلافهم فخر لهم ، يا اسكندر هاك شرفاً ان تميل اليك ابناء الملوك . وقال : عجيب ممن استقر قلبه فى الدنيا وهي دائمة التصرم .وقال : اى ملك تطاول على جنده وقواده فلن يأمن الحتف . وقال : اى ملك ضيع الصغير من امره لم يسلم من كبيره . وقال : اللجاج عطب الملوك . وقال : اي ملك عرف خطأ رأيه ثم تمادى فيه فهو مغير على نفسه سار لأعدائه . وقال : اى ملك مدح من تقدمه من الملوك الممدوحين وكف عن الازراء بالمذمومين تعقبه من بعده بمثل ذلك . وقال : اى ملك نظر للاقوياء واهمل امر الضعفاء كان مثله كمثل صاحب البستان الذى يصرف الماء الى الشجر الرواء ويحرمه الشجر العطاش . وقال للاسكندر : فى سياسة الحرب اجر الرزق على ولد الشهيد ومن جرح بوجهه فكافئه بجائزة ومن جرح فى ظهره فوبخه

بالكلام فقط ، من بطلت له فى الحرب جارحة فقد وجب عليك رزقه بقية عمره . وقال : لا تقدمن فى الحرب حدثاً فان حب الحياة يمنعه عن اللقآء ولا شيخاً فانياً فان البرودة والرطوبة يمنعانه من الحمية ولا من كان له مال جسيم فان حب ماله يمنعه من اللقآء ولا تقدم عبداً ولا من ولد على العبودية فانه لا انفة له ، قدم اهل الحمية والحسب ومن له اول فى الغلبة فانه يحامي على ذلك ، قدم اصحاب المرة السوداء فانهم اصبر من غيرهم ، امنع اصحابك ان يجلبوا فى الحرب فان الجلبة تنقص التعبية ، استكثر من الكمين واجعل فى كل كمين رجالة فان الرجالة حصن الحرب واذا صعبت عليك الحرب فعول على المكيدة فانها فاضحة للحرب واذا ظفرت فاحذر كل الحذر فان النكبة بعد الظفر كالنكسة بعد البرء من المرض لا تقتل صريعاً ولا تتبع منهزماً اكثر من ليلة . وقال : يا اسكندر امنع ان يظهر فى عسكرك الفجور والسكر فانهما مفتاح الوهن ودافع شعب الجند فان نارهم شديدة الوهج . وقال : اياك واللقا بنفسك فانك ان سلمت كنت مخاطراً مخطئاً وان ظفر

بك كنت قتيل خُرق . وقال : لاتبيتن على غير وصية . وقال : شاور بالليل فان الفكر فيه اشد اجتماعاً منه بالنهار . وقال : المشاورة بالليل باب من يحرمك البخت . وقال : الدنيا دول والملك عارية يقلبها يد الملك بالذل لاهل العز والعز لاهل الذل . وقال : كن حلواً مرًّا قريباً بعيداً لا تلن كل اللين فيطمع فيك ولا تشد كل الشدة فينفر عنك . وقال : ليست الشتيمة من اخلاق السراة . وقال : ارجع الى الحق وان ثقل عليك . وقال : يا اسكندر عامل الضعيف من اعدائك على انه اقوى منك وتفقد جندك تفقد من نزلت به الآفة فاضطرته الى مدافعته ولا ترج السلامة لنفسك حتى تسلم الناس من جورك ولا تعاقب غيرك على شيء ترخص فيه لنفسك . وقال : الصدق قوام امر الخلق والكذب داء لا ينجو من نزل به ، من جعل الاجل امامه اصلح نفسه ، من وسخ نفسه ابغضته خاصته لن يسود من يتبع العيوب الباطنة من اخوانه ، من تجبر على الناس احب الناس زلته ، من افرط في اللوم كره الناس حياته ، من مات محموداً كان احسن حالاً ممن عاش مذموماً ، من

نازع السلطان مات قبل يومه ، اى ملك نازع السوقة هتك شرفه . وقال : اى ملك تصدى للحقرات فالموت اكرم له ، من اسرف فى حب الدنيا مات فقيراً ، الاسراف فى الشراب من طباع السفلة ، من مات قبل حساده شمتت به ، الحكمة شرف من لا قديم له ، الطمع يورث الذلة التى لا تنقضى ، اللوم يهدم الشرف ويهدف النفس للتلف ، سوء الادب يهدم ما بنى الاسلاف ، الجهل شر الاصحاب ، بذل الوجه للناس هو الموت الاكبر . وقال : احتمال الرجاء اصعب من احتمال البلاء . وقال للاسكندر : اذا ظهرت على فئة فضع مع اوزار الغضب اوزار الحرب لانهم فى تلك الحال عدو وفى هذه الحالة خول . وقال : التودد من الضعيف يعد ملقاً ومن القوي يعد تواضعاً وكبرهمة . وقال : الايام تأتى على كل نفس فتخلق الافعال وتمحو الآثار وتميت الذكر الا ما رسخ فى قلوب الناس من محبة يتوارثها الاعقاب . وقال : ما قذفك بحجر لغير سبب أشد من قذفك بكلمة لغير معنى . وقال : اذا اردت ان تعرف قوة السلطان العادل على الطماع فانظر

فى الشرائع فانك تجد فيها من المزحور والاشياء الشبيهة بالخرافات ماقد صار بسبب الالف اجل واقوى فى النفس من ان تعرف حقيقته . وقال : الادب يزين غنى الغني ويستر فقر الفقير . وقال : اللذة انما تتصور بتوسط الشهوة والجود بتوسط الكرم والعز بتوسط الشجاعة . وقال : الحكمة تعرف عند النطق والشجاعة عند الغضب والعفة عند الشهوة . وقال : من استحيا من الناس ولم يستحى من نفسه فلا قدرلنفسه عنده . وسئل أى الرسل احرى بالنجح فقال : من جُمع له مع العقل الجمال . وسئل فى أى وقت ترى الباه . قال : اذا اشتهيت ان تضعف ورأى انساناً ناقهاً يكثر من الأكل والشرب وهو يرى، انه يقويه فقال له : يا هذا ليست زيادة القوة بكثرة ما تورد بدنك من الغذآء ولكن بكثرة ما يقبل منه . وكلّمه رجل بكلام طويل جداً فقال : اما اول كلامك فقد نسيته لطول عهده واما آخره فلم افهمه لتفاوت اوله . وسئل لما يوقع الاشرار فى الناس فقال : ليشتغل الناس بما ينسبونهم اليه عن وصف مساويهم . وقال : قد استحسنت قول لا أدري حتى

اقولها فى ما ادرى . وقال : امتحنوا الناس فى وقت تمكنهم وتسلطهم دون وقت ذلهم لانه كما ان الكير يمتحن به الذهب كذلك التمكن يمتحن به الناس فى ذلك الوقت يظهر من الخير خيره ومن الشرير شره . وقال : الآداب اعوان النفس . وقال : ليس طلبي للعلم طلباً فى بلوغ ناصيته والاستيلاء على غايته بل لالتماس ما لا يسع جهله . وقال افلاطن يوماً لارسطوطاليس : ما الدليل على وحدة البارى فقال : ليس شيء من خلقه بادل عليه من شيء اجده (وقال ابو العتاهية)

ايا عجباً كيف يعصى الاله ام كيف يجحده جاحد
وفى كل شيء له آية تدل على انه واحد

من كلام سقراط

قيل لسقراط ما اشد فقرك فقال : لو عرفت الفقر لشغلك التوجع لنفسك عن التوجع لسقراط . قال المؤلف وكأنه اشار

ان الغنى هو القناعة التى استشعرها سقراط وأراد بالفقر الجهل الذى هو فقر النفس لان الانسان عبد هواء النفس فاما عدم المال هو فقر البدن الذى ليس عنده من الانسان فى شىء . وقالت امرأة لسقراط ما اقبحك فقال لها لولا انك من المرايا الصدية لاجزيتى صورتى فيك . قال المؤلف : كانه اشار الى نقص عقول النسآء حتى انهن لا يميزن بين الحسن والقبيح على الحقيقة وقيل له كيف لا نرى أثر حزن فيك . قال : لا املك من الدنيا شيئاً ان عدمته احزنني قيل له ان انكسر حبك هذا كيف تعمل . فقال : ان انكسر الحب لم ينكسر مكانه . ورآه انسان فى كساء خلق متمزق فتعجب منه وجعل يقول هذا واضع ناموس الضلالة فقال له ياهذا ليس علة ناموس الحق الكساء الجديد . قال المؤلف : الناموس عندهم الشرع والاوضاع الشرعية وكان سقراط احد المتشرعين فضيعه قومه حتى قتله ملكهم . وقال سقراط : دواء الغضب الصمت . وقال : أضرّ الاشيآء على الانسان رضاه عن نفسه فان من رضى عن نفسه انقطع عليه بلوغ نهاية ما يلزمه . وقال : المعجب بنفسه يرى فيها

ما هو اجل منها فيظهر فرحه بها . وقال : ضالة الجاهل غير موجودة . قال المؤلف : يعنى ان ضالة الجاهل الحكمة والجاهل لا يعلم انها ضالته فلا يطلبها فكيف يجدها . وقال : مال العالم معه حيث سلك . وقال المؤلف : عنى بذلك ان مال العالم هو العلم فليس يفارقه بوجه من الوجوه كما قال الحكيم الآخر : اقتنوا ما اذا كسر بكم فى البحر سبح معكم . وقال سقراط : راحة الحكمآء فى وجود الحق وراحة السفهآء فى وجود الباطل . وقال : ينبوع مرج العالم الملك الجائر . وقيل له : متى ابتدأت بطلب الفضيلة . فقال : مذ ابتدأت بتوبيخ نفسى . وقال : من أعطى الحكمة فجزع لفقد الذهب والفضة كان كمن أعطى السلامة فجزع لفقد الوصب لان ثمرة الحكمة السلامة والسعادة وثمرة الذهب والفضة الالم والشقاوة . وقال : الاقلال حصن العاقل من الرذائل وطريق الجاهل اليها . قال المؤلف : هذا كقول الشاعر العربى * ان من العصمة ان لا تجد * وقيل لسقراط ان قوماً عزموا على الوثوب عليك فى غد . فقال : ان فعلوا يظهر حلمي عنهم فى غد . وقيل له : ما بال تلاميذك

يقولون الشعر وانت لا تقوله . فقال : انا كالمسن الذى يجعل الحديد قاطعاً وهو لا يقطع . وقال : بحسب السرور يكون التنغيص . وقال لرجل اراد تأديب غلامه : اصفح عن زلته فلان تصلح بفساد غلامك خير من ان تصلح غلامك بفسادك وقال له رجل : يا سقراط ما اقبحك فقال لم يكن تحسين صورتك اليك فتحمد ولا تقبيح صورتى الىّ فاذم . وكان فى اليونانيين رجل مصارع يكون أبداً مصروعاً فترك الصراع وتعلم الطب فقال سقراط الآن يصرع الناس . وقال : التقطوا الحكمة بموضع يكون فيه الشراب واللهو . وتزينت امرأة وبرزت للنظارة فقال سقراط لها : برزت لتنظر المدينة اليك لا لتنظرى اليها . وقال : العدل امان النفس . وقال : الحكمة سلم العروج الى الله تعالى . وقال : القنية مخدومة ومن خدم غير دابة فليس بحر . وقال : يا اسرآء الموت حلوا اسركم بالحكمة . وقال : القنية ينبوع الاحزان . وقال لتلامذته : موتوا بالارادة تحيوا بالطبيعة . قال المؤلف : الموت بالارادة هو اماتة الشهوة والغضب بتسليط الحكمة عليهما والحياة بالطبيعة هى حياة

النفس اذا تجردت عن البدن فهو يقول كلوا نفوسكم بالعلم والعمل لتحيوا الحياة الدائمة بعد فراق الابدان . وقال سقراط : لامرأته حين جزعت لقتله ما يبكيك ؟ قالت لانك تقتل مظلوماً . فقال : ياعاجزة الرأى أ كنت تريدين ان اقتل بحق . وقيل له عندالموت : ياسقراط ما الذى ترى ان يفعل بجسدك . فقال : يعنى بذلك من احتاج الى المكان . وكان سقراط يتشرق فى الشمس فمر به الملك فلم يقم فركله الحاجب برجله . فقال سقراط : خلق انساناً وخلق دابة فما حملك على ما صنعت بى . فقال الحاجب : اذ لم تقم اجلالاً للملك . فقال : ما كنت اقوم لعبد عبدى . فوافاهما الملك وسمع المقالة . فقال : من عرفك انى عبد عبدك ؟ فقال له : ألست منقاداً لشهوتك وغضبك فقال : بلى . فقال : كلاهما لى عبدان فانت فى الحقيقة عبد عبدى . فقال الملك : تصحبنى لاطعمك من لذيذ المأ كل والبسك من افخر الملابس . فقال سقراط : واى فضيلة لذلك فى العقل على ما سد الجوعة وكسى العورة . فقال الملك : يا سقراط ما الذى يمنعك ان تأتينا ؟ فقال له : شغلى بما يقيم الحياة وبذلت ما يليق

بالموت لا حاجة لسقراط الى حجارة الارض وهشيم النبت ولعاب الدود الذى يحتاج اليه سقراط معه حيث توجه . فقال له مزّاح الملك : يا سقراط حرمت نفسك نعيم الدنيا . قال سقراط : وما نعيم الدنيا ؟ قال المزّاح : أكل اللحوم الطيبة وشرب الخمر الصافية والمناكح البهية والملابس السنية . قال سقراط : غير مستنكر ان يكون ذلك نعيم الدنيا عند من رضى لنفسه الشبه بالقرود والكلاب والخنازير والحمير فى الحرص على المناكح وجعل بطنه مقبرةً للحيوانات وآثر عمارة الفانى على عمارة الباقى . وقال سقراط : لتكن عنايتك بتدوين الحكمة فى نفسك ابلغ من عنايتك بتدوينها فى جلود البهائم . وقال : الملك الاعظم أن يملك الانسان شهواته . واستشاره فتى فى التزويج . فقال له سقراط : احذر ان يعرض لك كما يعرض للسمك مع الشبكة فان السمك الخارج منها يطلب الدخول فيها والداخل فيها يطلب الخروج منها . وكان سقراط يتعلم علم الموسيقى . فقيل له : أما تستحي ان تتعلم على رأس الكبر ؟ فقال : اقبح من ذلك ان اكون جاهلاً على رأس

الكبر . وسئل : أيُّ بهيمة اجمل البهائم ؟ فقال : المرأة . ووثبت عليه امرأته وفى يدها عصارة مملوءة وصبتها عليه . فقال لها : ما زلت ترعدين وتبرقين حتى امطرت . وقيل له : لمَ اخترت أسفه امرأة ؟ فقال : لأن اضع بها نفسى فتصلح خلقي للخاص والعام . قيل : يا سقراط ان اهل المدينـة يضحكون منك . قال : بودّى أن يتم ضحكهم منى الى الممات . وسئل سقراط : ما انتفاع الناس بالملك ؟ فقال : هو مؤدب لهم بلا ارادتهم والـكافّ لشر بعضهم عن بعض . وقال : العشق قوة هيأها الله تعالى لبقاء الحيوان وذلك انه يحرص الحيوان على الجماع الذى تكون منه الاولاد فتبقى صورة الحيوان اذ لم يكن فى بقاء اشخاصه حيلة . قال : وانما صار العاشق يعشق احسن الصور ليكون ما يثمر احسن الصور . وقيل لسقراط : ما بالك تعاشر الاحداث دائماً ؟ فقال : أفعل ما يفعله الراضة (مطبعو الخيل) فانهم يرومون رياضة الافلاء (الافلاء جمع فَلْو وهو المهر ، ونظيره اعداء وعدوّ) دون القُرّح (ضـد الافلاء) . وقال : قلوا هومكم تقل مصائبكم . وقيل له : لمَ لا نرى أثر حزن

فيك ؟ قال : لانى لا املك ما احزن عليه اذا عدمته . قال بعض الشعراء :

ألم تر أن الدهر يهدم ما بنى
ويأخذ ما اعطى ويفسد ما اسدى
فمن سره أن لا يرى مايسوءه
فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقدا

وقال : الجهل بالفضائل عدل الموت . وقال : من لا يُستحسن فعله فلا تخطره ببالك . وقال : عطية كل امرىء على قدر همته . وقال : ما ابعد من استعبدته الشهوات من ان يكون فاضلاً . وقال : امتحن المرء بفعله لا بقوله . وقال : افعل الافعال الجسيمة ولا تعد العدات الجسيمة . وقال : أحمد من ينفعك لا من يملقك . قال المؤلف : شبيه بهذا قول العرب : امرَ مبكيائك لا مضحكائك . وقال : الجاهل من عثر بحجر مرتين . قال المؤلف : شبيه بذلك قول نبينا صلى الله عليه وسلم : « لا يلسع المؤمن من جحر مرتين » . قال سقراط : ما اخترت ان تحيا عليه فمت دونه . قال : اظنه اراد ترك

النَيل من الشهوات فانها تهدم العمر . وقال سقراط : كنت ارى كثيراً فى النوم انى أعلم اهل زمانى ولم اجدنى استحق هذه الصفة الا بكثرة قولى لا ادرى فيما أُسأل عنه . قال المؤلف : تروى هذه الحكاية على جهة اخرى وهى ان سقراط قال : أُوحيَ اليَّ انى اعلم اهل زمانى فعجبت اذ كنت اعلم انى لست بهذه الصفة والوحي لا يكذب ، واذاً انى استحق هذه الصفة بانى لا اعلم وأعلم انى لا اعلم ، والناس لا يعلمون ولا يعلمون انهم لا يعلمون . وأخذ ذلك بعض الشعراء فقال :

(وليس يدري المسكين ان ليس يدرى)

وقال رجل لسقراط : ارجو ان اكون فيلسوفاً فى سنة . فقال : ان جاءمنك فيلسوف فى سنة فتلت انا نفسى . وشتمه بعض السفهاء فاستأذنه تلامذته فى جوابه . فقال : ليس بحكيم من اذن فى الشر . وقيل لسقراط : اى السباع اجمل ؟ فقال : المرأة . وقيل له : مامنفعة الاحداث فى تعلم الادب ؟ قال: لولم ينتفعوا منه الا بأنه يمنعهم من المذاهب الردية لكان فى ذلك كفاية . وقال : كما ان الاطباآء سبب سلامة المرضى كذلك

السنن سبب سلامة المظلومين . ونظر الي شيخ يحب النظر فى العلوم ويستحي من ذلك . فقال له : ياهذا تستحي ان تصير افضل مما انت عليه فى آخر عمرك . وقال : الخطأ فى اعطاء من لا ينبغى ان يعطى ومنع من ينبغى واحد . وقال : ينبغى للعاقل ان يخاطب الجاهل مخاطبة الطبيب للمريض . وقال : اللذة خناق من عسل . ورأى فتى اتلف مالاً خلفه ابوه وهو يأكل زيتوناً . فقال له : يا فتى لو كنت تغذيت بهذا قبل ان تتلف تركة ابيك لما صار غذاؤك سائر عمرك . وكان سقراط جالساً فى دكان اسكاف فعطش الاسكاف . فقال لغلامه : اذهب الى الخباز فاسأله ان يقرضنا شيئاً من خمره . فقال سقراط : احسن من هذا ان تسأل نفسك القناعة بالماء . وقال سقراط : لا تكونن عنايتك بان تكسب شيئاً كعنايتك بحسن استعمال ما تكسبه . وقال : احذر العاقل من آرائه والجاهل من سطوته . وقال : النوم موتة خفيفة والموت نوم طويل . ولطم سقراط رجل على خده فكتب على أثر اللطمة : فلان لطمنى هذا جزاؤه منى

محاورات جرت بين ارسيجانس وسقراط

قال ارسيجانس لسقراط يوماً : جوهرى قريب من جوهرك فارسم لى رسوماً موجزة تغنى عن الاكثار . فقال سقراط : لو علمنا ان الايجاز يقنعك لم اذخرك شيئاً مما ينفعك . قال ارسيجانس : امتحن ذلك بالسؤال . قال سقراط : تكلم بالليالى حيث لا يكون اعشاش الخفافيش . قال ارسيجانس : اردت ايها الفيلسوف ان اجيل فكرى فى الخلوات وامنع نفسى عند طلب الحق من ملاحظة المحسوسات . قال سقراط : املاء الوعاء طيباً . قال ارسيجانس : اردت اودع عقلك بياناً وفهماً . قال سقراط : لا تجاوزن الميزان . قال ارسيجانس : أردت لا تجاوزن الحق . قال سقراط: لا تشوظن نار السكين . قال ارسيجانس : اردت لا تزيدن غضب الغضبان . قال سقراط : احذر الاسد الذي ليس بذي اربع . قال ارسيجانس : اردت احذر السلطان . قال سقراط : اذا مت فلا تكن نملة . قال ارسيجانس : اردت اذا رضت نفسك باماتة الشهوات فلا

تفنى الذخائر المحسوسات من الفائتات . قال سقراط : لا تكن مع اصدقائك فرساً ولا تنعس على باب اعدائك . قال ارسيجانس : اردت لا تتبذخ على اخوانك ولا تكونن ابلهاً مطمئناً ما دمت فى هذه الحياة الفانية . قال سقراط : لا يبعد الربيع فى زمان من الازمنة . قال ارسيجانس : اردت لا مانع لك فى كل زمان من اكتساب الفضائل . قال سقراط : اضرب الاترجة بالرمانة . قال ارسيجانس : اردت اخف تدبيرك الباطن بتدبيرك الظاهر كمن يدفن جوهراً كريماً فى التراب لئلا يسرق . قال سقراط : من زرع بالاسود حصد بالابيض . قال ارسيجانس : اردت من فعل فى هذا العالم المظلم فعلاً حسناً كافأه الله عليه فى عالم النور . « انقضت المحاورة »

قيل لسقراط : ذكرت لفلان فلم يعرفك . فقال : يضره الا يعرفني ويضره الا اعرفه لانى لا اعنى بمعرفة خسيس . وقيل لسقراط : اى شىء أحدّ من المنشار؟ قال : السعاية . ورأى امرأة مصلوبة على شجرة فقال : ليت الشجر كله اثمر مثل هذه الثمرة . ورأى سقراط انساناً يرمي بالنشاب فتطيش سهامه يمنة

ويسرة ولا تصيب الغرض فقام سقراط فى موضع الغرض وقال : اخاف ان تصيبنى سهامه . ويحكى انه قال : رأيت الغرض احرز المواضع . ورأى صياداً واقفاً على امرأة جميلة يبتاع منها شيئاً فقال له سقراط : لتنفعك صناعتك ان هـذه مصيدة فاحذر ان تقع فيها

من كلام اوميرس الشاعر

قال اوميرس : الكذاب لا يصلح لشىء حتى يصلح الثعلب للذئب . وقال : الانسان الخير افضل من جميع الحيوان الذى على وجه الارض ، والانسان الشرير اخس من جميع الحيوان الذى على الارض . وحكى اوميرس ان رجلاً من الفلاسفة كسر به فى البحر فقال : ايها الناس اقتنوا ما اذا كسر بكم فى البحر سبح معكم فاذا سلمتم به يبقى عليكم وهى العلوم والفضائل . وقال اوميرس : لا تفعلن شيئاً اذا عيرت به غضبت فانك اذا فعلته

كنت انت القاذف لنفسك . وقال : لِنْ تنلْ واحلم تنبل ولا تكن معجباً فيهن . وقال : ارع الفضائل ترعك المحبة . وقال : لكل امر محمود مقدمة ومقدمة كل المحمودات الحياء ، ولكل امر مذموم مقدمة ومقدمة كل المذمومات القحة . وقال : انى لأعجب من الناس ان مكنهم الله من الاقتداء بالملائكة فيدعون ذلك ويميلون للاقتداء بالبهائم . قال المؤلف : عندهم ان التفلسف هو الاقتداء بالله تعالى بأن تعلم الحق وتفعل الخير . وقال افلاطون فى حد الفلسفة انها التشبه بالله بقدر الطاقة البشرية . وقال اوميرس : الانسان الذى يعلم كل شىء هو عند نفسه لا يعلم شيئاً .

من كلام الاسكندر

لما استولى الاسكندر على ملك دارا بن دارا ملك الفرس وامرءِ وُصفت له بناته فرغب ان يراهن . ثم قال : يقبح ان نغلب

رجالاً مقاتلة فتغلبنا نساء في حال اسر . وهمّ الاسكندر بأن يُوجّه واحداً من اصحابه الى الفرس رسولاً فخاف عليه الغدر من الفرس . فقال الرجل : ان نفسى لطيبة بأن اقتل فى طاعة الملك فقال الاسكندر : فلذلك يلزمنى ايضاً ان اشفق عليك . وأتاه جاسوس له فاخبره بوفور العسكر الذى جهزوا اليه فقال : ان الذئب وان كان واحداً لا تهوله الاغنام الكثيرة وان كانت كثيرة . وقيل له : ان الجيش الذى عبأه دارا فيه ثلاثون الف مقاتل فقال : القصاب وان كان واحداً لا تهوله الاغنام وان كانت كثيرة . وأُشير عليه ببنات الفرس فقال : ليس يليق للملك ان يسرق للظفر . وقال الاسكندر لجلسائه : ينبغي للرجل ان يستحي من اتيان القبيح اما فى منزله فمن اهله ، وأما فى غير منزله فمن يلقاه ، وأما حيث يأمن من يلقاه فمن نفسه ، فان لم يجعل نفسه اهلاً لأن يستحي منها فى خلوته فليستحي من الله تعالى . وسعي الى الاسكندر برجل فقال للساعى : منذ كم تعرفه ؟ قال : منذ كذا . قال : انصرف فانى أقدم معرفة به منك . وسعى اليه آخر برجل فقال : أتحب ان

اسمع قولك فيه على ان اقبل قوله فيك . قال : لا . وأحضر الاسكندر لصاً فامر بصلبه فقال : ايها الملك تلصصت وأنا لذلك كاره . فقال : وتصلب وانت له اشدُّ كراهية . ولامه بعض الناس على مباشرته الحرب بنفسه فقال : ما من الحق ان تقاتل عني اصحابي ولا اقاتل أنا عن نفسي . ودخل اليه بطارقته فقالوا : قد بسط الله ملكك فأكثر من النساء ليكثر ولدك . فقال : لايحسن بمن غلب الرجال ان تغلب عليه النساء . وجلس يوماً للناس فلم يسأله احدحاجة فقال : لا اعد هذا اليوم من ايام ملكي . ورأى الاسكندر رجلين من اصحابه تخاصما وهتك كل واحد منهما صاحبه وكانا قبل ذلك متصافيين . فقال لجلسائه : ينبغي للرجل اذا آخى مصافياً ألاَّ يسترسل اليه فيما يشينه ويتوقى مفاسدته . قال المؤلف : قال ابن الرومي :

احذر عدوك مرة　　　واحذر صديقك الف مره

فلربما انقلب الصديق　　　فكان اعلم بالمضره

ونعي الى الاسكندر صديق له فقال : ما يحزنني موته

كما يحزننى انى لم ابلغ من بره ما كان يستحقه منى . فقال له بعض من حضره : ايها الملك ما اشبه قولك بقول فلان حين اصابته الطعنة وهو يجود بنفسه ويقول ما يحزننى موتى كما يحزننى ما فات من ظهور بأسى وبلائى للعدو . وقال : انتفعت باعدائى اكثر مما انتفعت باحبابى لان اعدائى كانوا يعيروننى بالخطأ وينبهوننى عليه ، واصدقائى كانوا يزينون لى الخطأ ويشجعوننى عليه : وحاصر بعض المدن فتأهب النساء لمحاربته فكف عن الحرب وقال : هذا جيش ان غلبناه لم يكن لنا فيه فخر ، وان غلبنا كانت الفضيحة الى آخر الدهر . وقيل له : بمَ نلت هذا الملك العظيم على حداثة السن ؟ قال : باستمالة الاعداء وتفقد الاصدقاء وكنت لا اغفل فى عمرى شعر اوميرس الشاعر وقوله : لا ينبغى للرئيس ان ينام الليل كله . ورأى الاسكندر رجلا دنيئاً ردىء السيرة اسمه اسكندر فقال : يا هذا بدّل اسمك او سيرتك .

من كلام باسليوس الملك

لا تغتر بحسن الكلام اذا كان الغرض منه ضارًا فان الذين يسمون الناس يخلطون السم بالحلاوات ، ولا يصعبن عليك الكلام الغليظ اذا كان الغرض منه نافعاً فان اكثر الادوية الجالبة للصحة مُرّة بشعة . وقال : لا تذم من الفضائل ما لست كفؤاً لأخذه ولا تنظر الى صغر ما تطلبه منها بل الى مقدار قوتك فان التقاط العسل من الزهرة يمكن النحلة ولا يمكن الانسان . وقال : أليس من القبيح ان يكون الملاح لا يطلق سفينته مع كل ريح ونطلق نحن انفسنا مع الاعتقادات من غير بحث ولا فكر . وقال : اذا استحيا المرء من شيء في الحفل فليستحي منه في الخلوة فانه ليس من العدل ان يوجب الانسان للعامة الكرامة والحشمة ويخص نفسه بالهوان والخساسة . وقال : لا تأخذن من الناس جميع ما عندهم ، خذ ممن جميع خصاله محمودة جميع ما عنده ، وممن يحمد منه شيء

خذ ذلك الشيء فقط فان التفاحة ليست مما يلتذ برائحتها فقط بل يلتذ ايضاً باكلها والزهر يلتذ برائحته فقط وورق الدفلى يلتذ بمنظره فقط والنخلة يلتذ بثمرتها وشجرة الورد بزهرتها ويتوقى شوكها، فاذا كان الامر كذلك وجب ان نأخذ من المحمود فعاله ومقاله وجميع ما عنده وممن فعله فقط محمود فعله دون كلامه . وقال : انا كنا نهتم بجميع اعضاء البدن خصوصاً بالاشرف منها فبالحريّ ان نهتم باجزآء النفس وخصوصاً بالاشرف منها وهو العقل . وقال : كما ان الذين يستعملون الحواس البدنية فقط يمتنعون من طاعة الغضب خوفاً من الملك المحسوس اذا وقفوا بين يديه كذلك يجب على من يستعمل الحواس النفسية ان يمتنع من طاعة الغضب خوفاً من الملك المعقول الذى هو واقف بين يديه يعنى الله تبارك وتعالى . وقال : اذا وعظت انساناً تريد صلاحه فلا تتشكل شكل من يريد ان يبغضىء ويكوى صديقاً لعلاج دآء ردىء به ، واذا وُعظت لصلاحك فتشكل شكل المريض للطبيب . وقال : كما انك لا تشفق على البدن من ان تقطع منه

عضواً قد وقع السم فيه فان اشفقت عليه لم تكن شفيقا بل منغصاً له بالحقيقة ، وكذلك لا ينبغى لك ان تشفق على نفس اذا كانت النفس غالبة لها من ان تلومها فقد قيل ان الذى شفق على سوطه منغص لابنه . وقال : ان كان من القبيح ان تزين البدن من خارج بثياب نظيفة وهو ملطخ بالاوساخ والاقذار فاقبح من ذلك ان تكون النفس باوساخ العيوب ملطخة ويكون البدن مزيناً من خارج .

من كلام فيثاغورس

ويقال انه اول فيلسوف اجتمعت اليه التلاميذ . قال وقد رأى انساناً سميناً : ما اكثر عنايتك برفع سور حبسك . قال المؤلف : يريد انه كلما زادت الكدنة وهي السنام نقصت الفطنة . وكان فيثاغورس يمنع تلامذته من تدوين الحكمة فى الصحف ويقول : لا تجعلوا الحكمة الحية فى الجلود الميتة . وقال

لابنه : اوصيك بعشرة اشياء فاحفظها تسلم : لا تلاحِ حديداً ، ولاتشارب غيوراً ، ولا تساكن حسوداً ، ولا تجاور جاهلاً ، ولا تناهض من هو أقوى منك ، ولا تواخ مرائياً ، ولا تعامل كذاباً ، ولا تكثر مجالسة النساء ، ولا تصاحب بخيلاً ، والعاشرة وهي عمدة الوصية وبها سلامة نفسك الا تستودع سرك احداً . وقال : اذا اردت ان تنظر الى الشيء بقدر موضعه فجرد بصيرتك عن الهوى . قيل سأل متمرد سقلية فيثاغورس ان يقيم عنده فقال له فيثاغورس : ان عقلك يضاد ما ينفعك وان بناءك يقلع اساسك فلا تطمعن فى مقامي عندك فانه ليس من شرط الاطبآء ان يمرضوا مع المرضى . وقال : يجب على المرء قضآء حق والديه لتربيتهما اياه وبرّ ولَدِه ليكافئه على ذلك . وقال : الخطأ فى التدبير هو أن تصرف الاشياء على خلاف ما تصرفه الطبيعة . وقال : من قدر على ان يصون حريته وحرية غيره فلا يَذِل لاحد ولا يُذِل احداً فذلك هو الكريم هو حراسة الحرية . وقال : انما يراك الناس بقدر تصويرك لنفسك فان اعززتها رؤيت

عزيزة وان اهنتها رؤيت مهانة . وقال : لا تستصغر صغيراً في الابتـداء ان كان مما ينمو لانك متى حرت عن قليل في الابتداء كان في التمام اضعافاً كثيرة لذلك القليل . وقال : الجسد كالعود وقوى النفس كالاوتاد والروح كالموسيقى التي تخرج الاصوات بالاوزان . وقال : الحكمة طب الارواح .

من كلام بقراط الطبيب

قال بقراط : العمر قصير والصناعة طويلة والوقت ضيق والتجربة خطر والقضاء عسر . وقال : ليـداوى كل مريض بعقاقير ارضه فان الطبيعة تتطلع لهوائها وتنزعج الى غذائها . وقال : غذآء الطبيعة من انجع ادويتها . وقيل له : ما بال الانسان أثور (اهيج) ما يكون بدناً اذا شرب الدواء ؟ . قال : مثل ذلك مثل البيت اكثر ما يكون غباراً اذا كنس .

من كلام جالينوس

قال : المحترسون مما لا يضرهم قليلون وطالبو الشفاء مما قدضرهم كثيرون . وقال : النفس اذا كانت زكية طيبة وقبلت بذر المنطق انبتت اضعافاً من عندها وازكتها . وقال ما انصف معاشرَ الاطباء الناسُ اذا بريء المريض قالوا قد شفاه الله واذا مات قالوا قتله الطبيب ، فاما ان ينسبوا الحالين جميعاً الى الله تعالى واما ان ينسبوهما الى الطبيب . وقال : يتروح المريض بنسيم ارضه كما تتروح الحبة ببل المطر . قال المؤلف : يتروح الشجر اى يفطر بالورق . قال الشاعر :

واكرم كريماً ان أتاك لحاجة لعاقبة ان العضاة تروّح

من كلام ديمستانس الخطيب

قال يجب على من اصطنع معروفاً ان يتناساه من ساعته ويجب على من أسدِى اليه معروفٌ ان يكون ذكره نصب عينيه . قال المؤلف : قيل فى يحي بن الفضل

ينسى الذى كان من معروفه ابداً

الى الرجال ولا ينسى الذي يعد

وقال ديمستانس : لكل امرء منا مزودان احدهما بين يديه والآخر خلفه فالذى بين يديه مملوء من عيوب الناس والذى خلفه مملوء من عيوبه فلذلك يرى عيوب الناس ولا يرى عيوب نفسه . وسئل ما الانسان ؟ فقال : نار تحيط بها الريح من كل جانب . ولما فتح الاسكندر المدينة التى كان فيها ديمستانس وجده راقداً فى ظل شجرة قد حملته عيناه فركله برجله فانتبه مرتاعاً واستوى جالساً . فقال له الاسكندر : قم ايها الحكيم قد فتحت مدينتك . فقال له : ان فتح المدن لا ينكر من الملوك لانه من عملهم وانما المراكلة بالرجل فهى من عمل الحمير فعليك بطبيعة الملوك واياك وطبيعة الحمير .

من كلام زينون الفيلسوف

قال : اذا ذهب لك الشيء فلا تقل ذهب بل قل رددته لانه لو كان لك لكنت مالكه . ودخل على الاسكندر فقال:

مر لى بعشرة آلاف دينار . فقال : هذا لم يكن من قدرك .
قال : فليكن قدرك . فامر له بذلك .

من كلام ديقوميس

قيل له : ما تقول فى شيخ يتزوج ؟ فقال : من لا يقدر ان يسبح فى البحر كيف يحمل فى عنقه آخر . وقيل له : ما بال العلماء يأتون ابواب الاغنياء اكثر مما يأتى الاغنياء ابوابهم ؟ فقال : لمعرفة العلماء بفضل الغنى وجهل الاغنياء بفضل العلم .

من كلام فيلمون الملك

قال لاصحابه : عاملوا الاخوان بمحض المودة والرعية بالرغبة والرهبة والسفلة بالمخافة والاصغار . وسئل اي الملوك افضل ؟ فقال : مَنْ ملك شهواته ولم يستعبده هواه .

من كلام نوموس

خطب رجلان بنته احدهما غنى والآخر فقير فزوجها الفقير دون الغنى فسأله الاسكندر عن سبب ذلك . فقال : ايها الملك ان الغنى كان احمق ولم يكن له ادب يحفظ غناه والفقير كان اديباً يرجى له الغنى .

من كلام كسانوقراطس

سأله الاسكندر : ما الذى ينبغى للملك ان يلزم نفسه به ؟ قال : يفكر ليله فى مصالح الرعية وينفذ ذلك فى نهاره .

من كلام فورس ملهى الاسكندر

قال للاسكندر اذا سألت الحكماء عن شىء فسلنى . فقال له : ما الذى ينتفع به الرجل عند الكبر ؟ قال : المال . فاعجب الاسكندر .

من كلام فلطين مزاح الاسكندر

قال للاسكندر : مررت بمصور وفى يديه صورة جارية وقد كثر حليها فسألته عن ذلك . فقال : لم يمكنى ان اجعلها حسنة فجعلتها غنية .

من كلام انخرسيس الصقلى

ناظر بعض الحكماء فقال له اسكت يا ابن الصقلية . فقال : اما انا فعار فى جنسى واما انت فعارُ جنسك . قال المؤلف : هذا مثل قول الحكيم الآخر لما عير بنسبه : اليك الذى عيرتني به منى ابتدأ ونسبك اليك انتهى . وقال : افعل من الخير متى امكنك فان الشر ممكن فى كل وقت .

من كلام ديمسطس

قال : كان لى جار مصور ردىء العمل فبلغه انى اريد ان ازوق بيتاً . فقال : جصص بيتك حتى اصوره لك . فقلت :

لا بل صوره حتى اجصصه .

من كلام ديوجانس الكلبي

والكلبيون فرقة من الفلاسفة يستهينون بالعادات مثل ان يأكلوا فى الطرقات ويلبسوا ما اتفق وينامو حيث اتفق ولذلك شبهوا بالكلاب . رأى ديوجانس غلاماً منبوذاً أى ملقوطاً يرمي بالحجارة . فقال له : لا ترم فلعلك تصيب اباك وانت لا تدري . قال المؤلف : نقل شعراء العرب هذا المعنى . فقال :

لا تهجونّ اسنّ منك فربما　　　تهجوا اباك وانت لا تدرى

ورأى ديوجانس رجلين يتنادمان ويديمان التصاحب فسأل عنهما فقيل له انهما صديقان . فقال : ما بالى ارى احدهما غنياً والآخر فقيراً . ورأى شاباً احمق عليه خاتم ذهب . فقال : ما وضع الذهب منك اكثر مما زينك . وقال : ليس الخيرَ من كف عن الشر لكن الخير من عمل الخير . ورأى شيخاً قد

خضب لحيته . فقال : هب انك تخضب شيبك أفتقدِر ان تخفي هرمك ؟ وسمع رجلاً يذكره بسوء فقال ما علم الله منا اكثر مما تقول . ورأى امرأة تجلد وهى تستغيث اليه فقال : ما تهرب منه هو انفع لها مما تستغيث اليه . ورأى رجلاً حسن الادب قبيح الوجه فقال : سلبت فضائل نفسك محاسن وجهك . وسئل عن وقت الطعام فقال : أما لمن يمكنه فاذا جاع ، وأما لمن ليس له فاذا وجد . وسئل عن الاصدقاء فقال : نفس واحدة فى اجساد متفرقة . وسئل من أشعر اليونانيين ؟ فقال : كل واحد عند نفسه ، واوميرس عند الجمهور . وسئل عن الغنى فقال : الكف عن الشهوات . وسئل عن العشق فقال : مرض نفس فارغة لا همة لها . وسئل : مما ذا يتحفظ الانسان ؟ فقال : من حسد اصدقائه ومكر اعدائه . وعضهُ كلب فبعث اليه الاسكندر الملك مطلس المزاح يعوده ، فدخل اليه ورآه وجعاً فقال : ان اردت ان يسكن وجعك فاطعم الكلب الذى عضك ثريداً ودهناً . فقال له : ان فعلت ما قلت لم يبق فى العسكر كلب الا عضنى . وسئل

ديوجانس : بماذا تشبه الحكماء ؟ فقال : اذا قيسوا بالناس فهم كالآلهة ، واذا قيسوا بالله فهم كالملائكة . وسئل : ما الفضل بينك وبين الملك ؟ فقال : الملك عبد الشهوات وأنا مولى لها . وقيل له : ان الملك لا يحبك . فقال : لا يحب من هو اكبر منه . ورأى قوماً يدفنون امرأة فقال : نعم الصهر صاهرتم . قال المؤلف : ما اعجب توارد العقول ! قد روى عن علي عليه السلام انه قال : نعم الختن القبر . وقال ديوجانس : من جمع لكم مع المحبة رأياً فاجمعوا له مع المحبة طاعة . وقال : كل شيء يستحب فضله ما عدا فضل الكلام فتوقوه فانه غير مستحب . وقال لتلامذته : محصوا خطاياكم بالصدقة وآثامكم بالرحمة . وقال : ان كنت تفعل الجميل لا قصداً للجميل وانما قصداً لأن تحمد فلست بأفضل من ان تفعل الشر حتى تحمد فان كثيراً من الناس يفعلون الشر ليحمدوا . ورأى ديوجانس غلاماً صبيحاً لا ادب له . فقال : أيُّ نبت لا اساس له . ورأى امراةً تعلقت بشجرة واختنقت فقال : ليت الشجر كله زكا هذا الزكا . وراى رجلَ سوء حسن الوجه

فقال : أما النبت فحسن وأما الساكن فيه فرديء . ورای فتی لا ادب له عليه خاتم ذهب فقال : حمار عليه لجام ذهب . ورای رجلاً جاهلاً قاعداً على حجر . فقال : حجر على حجر . وقال : من اراد ان يكون مذهبه جيداً فلتكن طريقته على ضد طريقة اكبر الناس . وقيل له : احذر ان تدخل أزقة المدينـة فقد تواعد قوم على ضربك . فقال : ان فعلوا ذلك عرفوا حكمتي . وشتمه رجل فأمسك عنه . فقيل له : لمَ لا تغضب ؟ فقال : كفاه مسبةً انه شتمني ولم اشتمه . وسئل : بماذا يعرف الصديق ؟ قال : عند الشدائد . ورأى شرطياً يضرب لصاً فقال : انظروا الى لص العلانية يؤدب لص السر . ورأى امرأةً قد حملها السيل فقال : زادت على كدره كدراً والشر بالشر يهلك . وقيل له : لمَ تأكل فى السوق ؟ قال : لأنى جعت فى السوق . ورأى غلاماً جميلا يزين نفسه فضحك وقال : ان كنت زينت نفسك للرجال اخطأت وان كنت زينت نفسك للنساء فقد هلكت . ورأى امرأة تحمل ناراً فقال : نارٌ على نار ، وحاملٌ شرٌّ من محمول . ومرَّ بخباز

فأخذ من خبزه وأكل ثم مر به من الغد ففعل به مثل ذلك . فقال الخباز : ايها الفيلسوف قد اكلت من خبزى امس . فقال : وآكل اليوم لانك فى كل يوم تخبز وأنا فى كل يوم اجوع . ودخل على الاسكندر حين ملك فقال له : قد كنت لك أيها الامير أخاً فصرتُ اليوم تابعاً فشتان ما بين الأخ والتابع . ورای صبياً كثير الشبه بأبيه فقال : نعم الشاهد انت لأمك . وقال له اهل مدينة من مدن يونان الطبيب : كيف لنا بقتل اعدائنا ؟ فقال : اجعلوا طبيبكم صاحب جيشكم فانه لا يعالج احداً الا قتله ، واجعلوا صاحب جيشكم مكان طبيبكم فانه لم يقتل احداً قط . وشتمه رجل اصلع فقال : أما أنا فلا اشتمك ، ولكنى اغبط شعرك على مقدمة رأسك فانه قد استراح منك . قدّم الاسكندر يوماً رغيفاً بعد ما اخذه وشمه الى الفلاسفة وقال : قولوا ما رائحته ؟ فلم يكن عند احدهم جواب فدفعه الى ديوجانس فاخذه وشمه وقال : رائحته رائحة الحياة . ورآه رجل من اطباء الاسكندر يغسل بقلاً ليأكله فقال له : لو غشيت الملك لم تفتقر الى اكل هذا . فقال له

ديوجانس : وانت ايضاً لو اقتصرت على أكل هـذا لم تصر عبد الملك بعد أن كنت حراً . وقال ديوجانس : كما تعرف بصوت الفخار اذا نقر صحيحه من مكسوره كذلك تعرف بكلام الانسان نقصه من تمامه . ورأى امرأة عوراء تزين نفسها . قال : نصف الشر شرٌ ايضاً . وأمر له الاسكندر بخلعة نفيسة فلم يقبلها وقال : ايها الملك الرجل السمج اذا لبس الثوب الحسن زاده سماجة واذا لبس ما هو اسمج منه حسنت سماجته فلا تسمجنى بحسن ثوبك دعنى تحسنى سماجة كسوتى وسأله الاسكندر بأى شىء تكتسب الثواب . فقال : بفعل الخيرات وانك لتقدر ايها الملك ان تكتسب منه فى كل يوم واحد ما لا تكسبه الرعية دهرها . وقيل له لما اصفر لون الذهب ؟ فقال : من كثرة اعدائه وخوفاً من ان يشد بوثاق وان يدفن فى الارض . وقيل له اخبرنا عن فلان أهو غنى ؟ فقال : لا اعرف ذلك ما لم اعرف تدبيره للمال . ومر بعشّار فقال له العشار : أمعك شىء ؟ فقال : نعم ووضع مخلاته بين يديه ففتشه العشار فلم يجد فيها . فقال : اين ما قلت ؟

فكشف عن صدره وقال : ههنا حيث لا يقدر عليه ولا تراه . ونظر الى غلام حسن الصوت يتعلم الحكمة فقال : ياغلام قد احسنت اذ نقلت زينة الى نفسك ونظر الى رجل متلاف زينةَ ماله . فقال له : هب لى منا من فضة . فقال الرجل : ما لك تسأل الناس الحبة والفلس وتسألنى مناً من فضة . فقال : لانى ارجو من أولئك العودة ولا ارجوها منك . ونظر الى قملة تتردد على ضلعة رجل فقال : هذا لص قد تحير فى برية ونظر الى امرأة ببعض المعارك تحب الشراب فقال لها : ضعوا لها على رأس خابية الشراب قطعة قطن حتى لا تدنو منها . ونظر الى شاب وهو يعظ امرأة رديئة . فقال له . ما تصنع ؟ قال : اعظ هذه المرأة . فقال : اغسل حبشياً لعله يبيض . وقيل له : ما الحلو وما المر ؟ فقال : الحلو الولد الاديب والمر الدين الثقيل . واعتل فعاده اخوانه وقالوا له : لا تجزع فان هذا امر الله تعالى . قال هو اذاً اشد له . وسئل اى الخصال احمد عاقبة ؟ قال : الايمان بالله تعالى وبر الوالدين وقبول الادب . ونظر الى شاب طويل السكوت .

فقال له : ان كان صمتك لسوء ادبك فانت اديب وان كان لادبك فقد اسأت ادبك اذ امسكت . وقال : لم يحارب العقل كمحاربته للهوى . وعاب قوم من المترفين عيشه فقال لهم : لو اردت ان اعيش عيشكم قدرت عليه ولو اردتم ان تعيشوا عيشي لم تقدروا عليه . ورأى امرأة تشاور نسوة فقال : ثعبان يقترض من افعى سماً . ورأى عجوزاً تتزين فقال لها : ان كنت تتزينين للاحياء فما صنعت شيئاً وان كنت تتزينين للموتى فبادري . ورأى امرأة صغيرة القد جميلة الوجه فقال : خير صغير وشر عظيم . ورأى جارية بتعلم وهي حدثة جميلة . فقال : سيف يسن للشر . ورأى اصلع سفيهاً فقال له : اني حامد لشعرك هذا فلقد هرب عن رأس سوء . ورأى معلماً يعلم جارية فقال : لا تزد الشر شراً . وسئل اي شيء اشد فساداً للانسان ؟ فقال : المال . وقال : لا تعجب مما يتكلم به العدو ولكن مما يمسك عنه . وقال لمتعلم يتهاون في تعلمه : ايها الحدث ان كنت لم تصبر على تعب التعلم صبرت على شقاء الجهل ونظر الى فتى يستخف بوالده . فقال : يا هذا ألا تستحي

ان تحقر من به اعجبتك نفسك . ورأى اسود يأكل الجوارى فقال : ليل يأكل النهار . وقال : المرأة ردية لا سيما اذا سميت بالمرأة مرتين امرأة وامرأة اب . ورأى جارية بكراً جميلة تتعلم الكتابة فقال : ارى سيفاً يُسنّ . وقيل له : اى اوقات الطعام افضل ؟ فقال : اما لمن قدر عليه فاذا اشتهى واما لمن لم يقدر فاذا وجد . ودعاه رجل الى طعام فذهب اليه ثم دعاه مرة اخرى فامتنع فسئل عن ذلك فقال : لانه لم يشكرنى فى المرة الاولى . وتسور بناء عالياً فصاح يا معاشر الناس فاجتمعت اليه العامة من كل جانب فقال : لم ادعوكم وانما دعوت الناس . ونظر الى رجل حسن الوجه ردىء السيرة . فقال : النبت حسن واما الساكن فشيطان .

من كلام اكسيس

سأله رجل بعد ما هرم كيف حالك ؟ فقال : انا إذن اموت على مهل .

من كلام اسحوليس

سمع غلاماً يقول قد لقيت علماء كثيرين فقال : قد لقيت اغنياء كثيرين وما انا بغنى .

من كلام انكسيمنيس

قال : الزمان معتبر العالم

من كلام فندروس

قال : كما ان الجسد اذا فارقته النفس فاح منه النتن فى الخارج كذلك الجاهل الذى عدم الحكمة لا يخرج من فيه لفظة الا كانت فيها اذى ونتناً على سامعها وكما ان الجسد لا يشعر بما يظهر منه من النتن لانه ميت كذلك لا يحس الجاهل بنتن كلامه لانه ميت التميز .

من كلام سولون

قيل انه احد انبياء اليونان . قال : الجاهل فى خطأه يذم غيره وطالب الادب يذم نفسه والاديب لا يذم نفسه ولا غيره . وسئل من الجواد ؟ فقال : من جاد بماله وصان نفسه عن مال غيره . وسئل . أيما احمد فى الصبي الحياء ام الخوف؟ فقال : الحياء لأن الحياء يدل على العقل ، والخوف يدل على الجبن . وقال لتلامذته : احذروا ولاتكم ليحذر من تكونون عليه فيطيعكم . وقال : لأن تتزود من الخير وانت مقبل خير من ان تتزود من الخير وانت مدبر . وقال : احذروا مقاومة الاغنياء فانها ملاطمة الأشق . وقال لبعض تلامذته : تخفف فى امورك ولا تتثاقل فان من أمن الثقل فهو الثقيل . وقال لابنه : دع المزاح فانه لقاح الضغائن . وقيل له : لما لم تفرض عقاباً لقاتل الاب ؟ فقال : لانى لا اعلم احداً يقدم على قتل ابيه . وقيل له : كيف لى بان يقل خطائى . فقال: لاتعرض لعداوة الاشرار . وقال لرجل غنى عيره بالفقر: اما مالى فانه

لا يمكن فى وقت من الاوقات ان يصير لاحد غيرى لكنى ان اعطيته انساناً بقى عندى من غير نقصان واما مالك فانه يصير لغيرك وان اعطيت منه شيئاً نقص ولا فرق بينه وبين الفصوص التى يلعب بها اذا كانت تتقلب جوانبها لكل احد بالاتفاق . وقال : ان الذي يطلب شيئاً لا نهاية له جاهل واليسار لا نهاية له . وقال : احسن ما عوشر به الملوك البشاشة وتخفيف المؤنة ، وسئل ما اصعب الاشياء ؛ فقال ان يعرف الانسان نفسه ويكتم سره . وسئل ايضاً : مااصعب الاشياء؟ فقال : ان يصير الانسان على خيبة من سعيه . وقيل له ما الذي يفسد اخلاق الناس ؛ فقال الدرهم .

من كلام ديموقريطس

قيل له لما اخترت امرأة ذميمة قبيحة الوجه وانت وسيم جسيم ؛ قال اخترت من الشر اقله .

من كلام قراطس الحكيم

قال لتلامذته : اقنعوا بالقوت وابقوا عنكم اللجاجة تقربوا من الله تعالى لان الله تعالى غير محتاج الى شيء ابداً فكلما احتجتم اكثر كنتم منه ابعد . وقال : ان اردت ان لا تفوتك شهوتك فاشته ما يمكنك . وسئل عن اشياء قبيحة فامسك عن الجواب فقيل له لم لا تجيب ؟ فقال : جوابها السكوت عنها . وسأله الاسكندر اى رجل يصلح ان يكون ملكاً ؟ فقال اما حكيم يملك واما ملك يلتمس الحكمة . وصاحب قراطس رجلاً موسراً في الطريق فوقعا في ايدى قطاع الطريق فقال الموسر : الويل لى ان عرفونى . وقال قراطس : الويل لى ان لم يعرفونى .

من كلام ابيفانيوس

قال : لا ينبغي ان تعدن الامور الحكمية بين يدى الكسلان لانه كما ان البهيمة انما تحس من الذهب والفضة بثقلها فقط ولا تحس بنفاستها كذلك الكسلان انما يحس

من امور الحكمة بثقل التعب عليه منها لا بنفاستها .

من كلام انيدرس

قال : من علم انه سيموت فيجب ان لا يغتم لامر صعب . وقال : ان بلغك عن انسان انه حكيم عدل خير ثم بلغك بعده انه تزوج فاخرج من نفسك جميع ماسبق اليهامنه .

من كلام دوقوذيس

قال : ان كان الشاتم نذلاً فالملتقي للشتم بالشتم ايضاً نذل . والكريم هو الذى يتلق الشتم بالاحتمال . وقال اسنحينس وقد شتمه انسان : لست أدخل فى حرب الغالب فيها انذل الفريقين . وقال ثاون : محبة المال هى وتد الشركاه وذلك ان جميع الشرور معلقة بها . وقال : الاباء سبب الحياة والحكماء سبب صلاح الحياة . قيل لعنان الطفيلى : اى الاشياء احب اليك ؟ قال : ان تتفق لى دعوة فى يوم مطير . وقيل لكودوس ماذا يسمّن الفرس ؟ قال عين صاحبه . وقال

فندرس وقد مدحه انسان على زهده فى الغنى فقال : ماحاجتى الى شىء البخت يأتى به واللوم يحفظه والعفة تنبذه وسئل : ما الانسان ؟ قال : عطب العالم .

من كلام سيمونيدس الشاعر

نظر الى فتى كثير السكوت فقال : يا هذا انما السكوت للاصنام . واما الناس فيتخاطبون . وقيل له يا هذا متى تمسك عن مديح قارون ؟ فقال اذا مسك قارون عن احسانه . ونظر الى مصارع يفتخر فقال له : اتغلب من هو اقوى منك او من هو مثلك او من هو دونك ؟ فقال : من هو اقوى مني . فقال : كذبت . قال : فمن هو مثلى . قال : كذبت لو كان مثلك لتساويتما . قال : فمن هو دونى . قال : فكل انسان يغلب من هو دونه . ودعاه انسان ليتعشى عنده فلم يجد هناك ما يتعشى به فقال له : لم تدعنى الى عشاء بل منعتنى من العشاء فى منزلي . وقال له انسان : انى قلق دائمًا ان جلست او مشيت او قمت او استلقيت قال : فما بقى الا ان تصلب . قال

بعضهم : العجلة قيد الكلام .

من كلام فيلن

سئل : لم لا تطلب الولد ؟ فقال : لشدة محبتي للاولاد .
قال بعضهم : الذى يقبل الحكمة هو الذى ضل عنها وليست هى الضالة عنه . قال المؤلف : يشبه هذا قول المتنبي :

اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ان لا تفارقهم فالراحلون هم

وقال ارسطوطاليس : الحق واضح فى نفسه، وانما يخفى علينا لآفة فى عقولنا فان الشمس نيرة ولا يبصرها الخفاش لآفة فى بصره . قال المؤلف : لى من قصيدة بيتٌ فى هذا المعنى :

وزادكم التبصير جهلاً وقد يرى سنا الشمس يعمى ناظر المتأمل

افترى على بعض الحكماء رجل نهاره كله الى ان أجنّه الليل فلما انصرف الرجل احدثا دقلس سراجاً وسعى بين يديه الى منزله

من كلام سيافيدس السكيت

وكان فيلسوفاً فحرّم على نفسه النطق حتى ان بعض الملوك

عرضه على السيف لينطق فما زاد على السكوت ثم ان الملك لما يئس من نطقه أمر بان يكتب له مسائل ليوقع تحتها الجواب فاخترنا النوادر من تلك الاجوبة . سئل عن العالم فكتب : ستارة سرمدية كلية الموجودات . وسئل عن الله تعالى فكتب : معقول مجهول لا نظير له مطلوب غير مدرك . وسئل عن الشمس فكتب : سراج لا تمد عين الفلك النهارى علة العودات سبب الثمرات . وسئل عن القمر فكتب : عقيب الشمس سراج ليلى فرفير الفلك . قال المؤلف : عندهم ان القمر من بين الكواكب ناقص النور فلهذا يرى الخاص به الى السواد والفرفير باللغة الرومية هو لون يقرب من الكحلى الا انه اسبغ منه وهو لون الثياب التريون الكحلية واللون الذى فى الديباج الرومى القريب من البنفسجي فلهذا سمى هذا الفيلسوف القمر فرفير الفلك . وسئل على الانسان فكتب : متفقد العالم يلعبه البخت مطلوب السنين امنية الارض . وسئل عن الارض فقال : قاعدة الفلك وسط العالم أصل ثابت فى هواء أم الثمرات . وسئل عن المرأة فقال : هم الرجل شر لا

يوصف سبع معاشر لبوة فى شعارك افعى مستورة بالثياب حرب لا سلم معها راقد ينبهك حزن دائم هلاك السخيف آلة الفحشاء غول انسية آلة لبقاء الصورة . وسئل عن السفينة فكتب : بيت بلا اساس قبر مولف . وسئل عن الاستحكام فكتب : مسمار الريح القريب من الدنيا البعيد من الارض مبارز يتحرى ميت بلا اختيار . وسئل عن المبارزة فكتب : صناعة رديئة . وسئل عن الفلاح فكتب : خادم الغذاء مرسل النفس بالبخت . وسئل عن الصديق فكتب : اسم لا مسمى تحته انسان لا يظهر هو انت الا انه غيرك . وسئل عن الحسن فكتب : تصوير طبيعي زهرة تذبل . وسئل عن الغنى فكتب : خادم الشهوات هم فى كل يوم شر محبوب . وسئل عن الفقر فكتب : خير مبغض غنى لا ينافس فيه فتنة عسرة الفراق علم الهم مال ليست معه محاسبة تجارة لا خسران فيها . وسئل عن الهرم فكتب : شر يتمنى مرض الصحة موت الحياة ميت يتحرك عقل منهرم ميت ذو روح . وسئل عن الموت فكتب : نوم لا انتباه معه راحة المرضى

انفصال الاتصال نقص البنية رجوع الى المنصر فزع الاغنياء شهوة الفقراء سفر النفس فقدان الوجدان .

من كلام طارس

قيل له قد توفى مايندرس وكان استاذه فقال : الويح لى قد ضاع مسنّ عقلي .

من كلام حارا فرن

قيل له انك وضيع الجنس فقال : الورد يخرج من الشوك فلا يضره ذلك .

من كلام بادريوس الخطيب

قال : الرعب قيد الكلام . وقال : القتل فى الحرب قربان

من كلام سطيحوس

قيل له ان اوميرس يكذب كثيراً فقال : الذى يطلب من الشاعر انما هو الكلام الحسن اللذيذ فاما الصدق فانما

يطلب من الانبياء عليهم السلام .

من كلام سطناطونيقوس

قيل له ان فلانا شتمك بظهر الغيب فقال : لو ضربني بالسياط وانا غائب ما آلمني وصار الى حجام ليتجدف فجدفه تجديفاً رديئاً وعقره فلما فرغ اعطاه ثلاث حبات فقال له الحجام انما كراى حبة واحدة فقال قد علمت لكنى زدتك حبتين لانك احسنت الى حيث صرفتنى من عندك حياً . ونظر الى دار صغيرة بابها كبير جداً فقال : الدار فى اى موضع من الباب .

من كلام بطولامس

قيل له ابنك قتل فى الحرب فقال : لانه ابن ابيه . ثم قيل له بعد ذلك انه لم يقتل لكنه اسر فقال لانه ابن امه

من كلام بطلميوس

دعاه بعض الملوك الى طعامه فاستعفى وقال : يعرض

للملوك قريب مما يعرض للذين ينظرون الى الصور فانهم اذا نظروا اليها اعجبتهم فاذا رأوها من قريب لم يستحسنوها .

من كلام انا قراطس

وجد حارسين نائمين فى وقت الحرس فقتلهما وقال : تركتهما على ماوجدتهما .

من كلام بياس

قال : الحسدة مناشير انفسهم . قال المؤلف : يعنى انهم يهلكون انفسهم ويقطعونها بالحسد وعندهم ان المشار منتهى الحدة لان المنشار يقطع مالا يقطعه السكين والسيف . وقد احسن الشاعر فى هذا المعنى فقال :

اصبر على مضض الحسو　　د فان صبرك قاتله
كالنار تأكل بعضها　　ان لم تجد ما تأكله

من كلام أبا فيثاغورس

حضرته منيته فى ارض غربة فجعل اصحابه يتحزنون

لموته فى الغربة فقال : يا ايها الاصدقا ليس بين الموت فى الوطن والموت فى الغربة فرق لان الطريق الى الآخرة من جميع المواضع واحد .

من كلام افرسيبس

قيل انه ركب البحر فلما صار الى اللجة قال للملاح : كم ثخن لوح هذه السفينة ؟ قال : اصبعان . فقال : ليس بيننا وبين الموت الا اصبعان . قيل لبعضهم : ما بال فلان يخضب لحيته ؟ قال : يخاف ان يطالب بحنكة المشايخ .

من كلام فورنفس مزاح الاسكندر

قيل دخل بعض القواد مع ابن له على الاسكندر وهو على مائدته وبين يديه فورنفس وكان هذا الولد من اقبح الناس وجها فامره ابوه ان ينشده شعراً له فانشد فكان من اقبح وجهة وابوه يزهزه عليه ويفخم منه . فقال الاسكندر

لفورنفس : كيف ترى نشيد هذا الغلام ؟ قال : ايها الملك زعموا ان القردة اذا ولدت تجلس عند ولدها وتتعجب منه ومن جماله وتقول لجماعة القردة من اين جاء له هذا الجمال كله ؛ وانا لا ادرى ولا أرى احداً من جميع الخلق من اليوم والى يوم القيامة يتعجب من هذا الغلام ولا من نشيده غير ابيه

من كلام اقليدس

قال له انسان يتهدده : انا لا آلو جهداً ان افقدك نفسك فقال اقليدس : انا لا آلو جهداً فى ان افقدك غضبك . وكان بعضهم محباً للشراب فرآه بعض اليونان سكراناً فاقبل عليه يلومه ويعاتبه ويقول له : اما تستحي ان تسكر ؟ فقال اما تستحي ان تعظ سكراناً ؟

من كلام ثاوفريطس

نظر الى معلم رديء الكتابة يعلم الصبيان الكتابة فقال له :

الا تعلم الصراع ؟ فقال لا لانى لا احسنه . فقال : فانت هوذا تعلم الكتابة ولا تحسنها .

كلمات منسوبة الى اليونانيين لم يذكر قائلوها

قال بعضهم : من اتخذ صديقاً فهو كراكب البحر لا يدرى أينجو منه ام لا . وقال : قوت الاجساد الطعام وقوت العقول الحكمة فاذا فاتت العقول قوتها من الحكمة ماتت كموت الابدان عند فوت المطاعم . وسئل بعضهم : اى العلوم يجب ان تتعلمه الصبيان ؟ فقال : العلوم التى اذا شاخوا تسمح بهم الا يحسنوها . وقال آخر : لا ينبغي للمرء ان يبلغ من مرارة النفس الى حد يظن معه انه شرير ولا من لين الجانب الى ان يظن معه انه ملاّق . ولقى احد الحكماء قوم اشرار بالمدح فقال لتلامذته : انظروا لعلّى اسأت فى امر من الامور حتى يمدحنى هؤلاء القوم . وقال آخر : فطرة الانسان معجونة بحب الوطن . وسأل الاسكندر حكماء الهند : لم صارت السنن عندكم غير مفتقر اليها ؟ فقالوا : لاعطائنا الحق من انفسنا

ولعدل ملوكنا فينا . وسأل الاسكندر حكماء بابل ايما أبلغ عندكم الشجاعة ام العدل فقالوا : اذا استعملنا العدل استغنينا عن الشجاعة وقال بعضهم : الفقر مع الامن خير من الغنى مع الخوف . وقال آخر : القناعة سلاح اهل الورع . وقال آخر : لن يفتقر قنوع ولن يسر بخيل . وقال آخر : وان تر صاحبها فهي تستبينه . وقال آخر : الغضب من ضيق الفكر . وقال آخر : الندم على ما فات من الفشل . وقال آخر : فى العجب قلائد الوسوسة . وقال آخر : الحسد هلاك صاحبه . وقال آخر : نتيجة الحسد العداوة . وقال آخر : طالب العلم اذا جمعه وغيره مجلس فهو بين حالتين اما ان يكون هو اعلم منه فيتكلم كلام المعلم واما ان يكون دونه فيتكلم كلام المتعلم فالواجب ان يتصفح جليسه فى الحالين ليكون الكلام على حسب ذلك والا كان سوء ادب . قال المؤلف : ويجب ان يكون لهذا قسم ثالث وهو هكذا واما ان يكون مثله فى العلم فيتكلم كلام النظير . وقال المؤلف : قد زاد الخليل ابن احمد البصرى على هذا فى الحسن فكانه اخذ منه حيث قال : اذا رأيت من هو اعلم منى فذاك يوم استفادتى واذا

رأيت من هو دونى فذاك يوم افادتى واذا رأيت من هومثلى فذاك يوم مذاكرتى واذا لم أر احداً من هؤلاء فذاك يوم مصيبتي . وقال رجل لبعض الحكماء : اترى لى ان اتعلم الفروسية ؟ فقال : العمر عمرك انفقه فيما شئت . ورأى بعض الفلاسفة رجلاً سرق مالاً له وهو يحمله فاستحى منه وقال : ما علمت انه لك . قال الفيلسوف : ان لم تعلم انه لى افلم تعلم انه ليس لك ؟ وقيل لبعضهم ما بالكم لا تأنفون ان تتعلموا من كل احد . قالوا : لانا قد علمنا ان العلم نافع من كل موضع اصيب . وقيل لآخر بأي شيء حظيت من الحكمة ؟ قال : بانى افعل ما يجب علىّ اختياراً . وقيل لبعض الفلاسفة : اخرج هذا الغم من قلبك . فقال : ليس باذنى دخل . وقيل لآخر : لا تنظر ، فغمض عينيه ، فقيل له لا تسمع فسدّ أذنيه ، فقيل له لا تتكلم ، فوضع يده على فيه ، فقيل له لا تعلم ، فقال لا اقدر . وقال آخر : الحيطان والبروج لا تحفظ المدن لكن تحفظها آراء الرجال وتدبير الحكماء . وقال المؤلف : شبيه بهذا قول الشاعر : (ان الحصون الخيل لا مدر القرى)

قيل : نظرت عجوز من بلاد اطيقى الى انسان يريد ان يبنى على اهله وقد زين داره وكتب على بابها « يادار لا يدخلك الحزن » فقالت له العجوز : فامرأتك من اين تدخل ؟ وقال آخر : من تشاغل بالادب فأقلّ ما يربح من ذلك ان لا يتفرغ الخطأ .

من امثالهم

قالوا : عيَّر ثعلب لبوةً بأنها انما تلد فى عمرها كله شبلاً واحداً . فقالت نعم الا انه اسد . وقالوا : ابتلع ذئب عظما فطلب من يعالجه فجاء الى الكركى وجعل له اجرة على ان يخرج العظم من حلقه فأدخل الكركى رأسه فى فم الذئب فأخرج بمنقاره العظم ، ثم قال للذئب هات الاجرة فقال الذئب : انت لستَ ترضى بأن ادخلت رأسك فى في ثم اخرجته صحيحاً حتى تطلب منى ايضاً أجرة ؟ قيل : وقف جديٌ على سطح فمر به ذئب فأقبل الجدى يشتمه فقال له الذئب :

لستَ انت تشتمنى انما يشتمنى الموضع الذى انت فيه . وقالوا :
كانت أفعى نائمة فوق جرزة شوك فحملها السيل والأفعى عليها
فنظر اليها ثعلب فقال : هذه السفينة لا يصلح ان يكون لها
الا مثل هذا الملاَّح . قيل : اراد ثعلب ان يصعد على حائط فتعلق
بعوسجة فعقرت يده فأقبل يلومها فقالت له : يا هذا لقد
أخطأت حين تعلقت بى وأنا من عادتى ان اتعلق بكل شيء .
قيل لبعض الفلاحين : لِمَ لا تعرض مع الجند وانت جلد ؟ قال :
لانى لست ارى الفلاَّح يموت الا فى الدهر ، وأما الجند رأيت
الالف منهم يقتلون فى ساعة واحدة . وعيَّر فيلسوف بنسبه .
فقال لمن عيَّره ، أما نسبك فمنك انتهى وأما نسبي فمني ابتدأ .
وقال بعضهم : اكثر الآفات تعرض للحيوان من قبل انه لا
يمكنه الكلام ، واكثر الآفات تظهر للانسان من قبل
الكلام . وسئل فيلسوف عن ابنه فقال : ان لم يسكر فهو على
ما أريد ، وان سكر فهو على ما يريد النبيذ . ودعا طنبوريٌّ
بعض الفلاسفة فقدم اليه اعصاباً مطبوخة فقال له : يا هذا
طبخت لنا طنبورك . ونظر رجل الى فيلسوف يجامع فقال له :

أيّ شيء تعمل ؟ فقال : انسانًا ان تم . وقال فيلسوفٌ لتلميذ كان يفهمه شيئًا : أفهمت ؟ قال نعم . قال : كذبت لأن دليل الفهم السرور ولم أرك سررت . قال المؤلف : هذا كما يقول اهل بغداد : أرى في وجهك قرد المعرفة . قيل لبعضهم : أيُّ شيء أعمّ نفعًا ؟ فقال : فقدُ الاشرار . ورأى بعض الفلاسفة جارية عند معلم يعلمها الكتابة فقال : يا هذا انك تلبس الشر سلاحًا . وقال آخر : العجب ان شرارة المرأة تدعو أباها وقد شق بتربيتها الى الاحتيال لاخراجها من منزله بتجهيزها بماله حتى يستريح منها ، والذى تنقل اليه يدخلها منزله وهو فرح بها . وقال آخر : كما لا يجوز ان يستأثر الرجل شيئًا من الطعام على مؤاكليه كذلك لا يجوز ان يستأثر بالحديث على محاضريه . ورأى بعض الفلاسفة قرويًا عليه ثياب فاخرة وهو يتكلم كلامًا قبيحًا ملحونًا فقال : يا هذا اما ان تتكلم بما يشبه لباسك واما ان تلبس ما يشبه كلامك . وقيل لبعضهم : لمَ لا تخوض معنا فى الحديث ؟ فقال : الحظ فى أُذُن المرء له ، والحظ فى لسان المرء لغيره . وقيل لحكيم : ما الحق الذي يقبح ذكره ؟

قال : مدح الرجل نفسه وان كان حقاً . وقيل لآخر : فلان يحسن القول فيك . فقال : لا جرم انى أحقق قوله . وقيل لآخر : لمَ تعق والديك ؟ قال : لانهما اخرجانى الى الكون . وسئل آخر عن المرأة فقال : حرب لا هدنة فيها . وقيل لبعضهم : مات فلان عدوُّك قال : وددت انكم قلتم تزوّج . وقال آخر فى وصف المرأة : ان اعززتها قهرتك ، وان فوضت اليها حسرتك ، وان اسررت اليها شهرتك ، لا تستطيع ان تقضى طرائقها ، وهى تخبرك امرك كله ، وانت بكل الاشياء اسير فى يدها ، هى أمة مشتراة ، وهى ربة مشتريها ، هى ربقة لا فكاك عنها ، هى غمٌّ لا يرتم ، وشر لا ينفد ، هي اذى لا بدّ منه ، هى خليل ساعة ، تفجر ودمعها قريب ، وتذنب وصوتها عال ، وترتكب الفواحش ووجهها مسفر ، تبهت بالباطل ، وتحلف وجرمها مكشوف ، تهرم واخلاق الصبي معها ، وتفنى قوّتها ويبقى لسانها ، ان كنت منها بعيداً فلا تقرب ، وان كنت منها قريباً فاسرع النجاة ، وان كنت ملابساً فادع بالخلاص منها . قال آخر : أدب المرأة مذهبها لا ذهبها .

مما نقل من اشعارهم الى العربية

الادب ذخر لا يسلب الاحرار تكافئهم ان يسمعوا الشر مرة ، كل ربح يكون من ظلم فهو جالب مضرة ، من اهتم بمعاشه لم تحسن اخلاقه ، ليس الرجل العادل هو الذى لا يظلم بل الذى يقدر على الظلم فلا يرضاه ولا يختاره ، الكبر يفسد قوة الجسد ويزيد قوة العقل ، الشقيّ من عاش بالتمنى ، من حسنت حاله كثرت اصدقاؤه ، عمر يحتاج الى عمر ليس بعمر ، مرض الجسد اصلح من مرض النفس ، زينة المرأة سكوتها ، وجودُ المرأة الخيّرَة ليس بسهل ، رأيُ الجبان جبان ، ليس شيء أردأ من المملوك وان كان خير المماليك ، الجوع والعطش يقطعان العشق ، كثرة كلام الطبيب داء ، ان الرديء لفي عذاب حياً وميتاً ، ذهاب الحياة خير من حياة نكدة ، اذا كنت غريباً فسر بسيرة اهل البلد الذي انت فيه ، من احب العلم فى صغره كان عالماً فى كبره ، لا تتعب فيما لا منفعة فيه .

لا تغلّب اللذة على العقل ، الصحة والأمن امران فاضلان لا يكادان يجتمعان ، محبة المال تورث الشتم واللوم ، ليس بين الصديق الضارّ والعدوّ فرقٌ ، امدح الاصدقاء اكثر من مدحك لنفسك ، اتحاد الاولاد محنة عظيمة ، اذا كان لك اصدقاء فاعلم ان لك كنوزاً ، كن محباً للتعب يحسن حالك ، اذكر ما نالك من الاحسان وانسَ ما تفعل من الاحسان .

قال المؤلف : يشبه هذا قول الشاعر

ينسى الذى كان من معروفه ابداً

بين الرجال ولا ينسى الذى يعد

الزمان ينسى كل شيء ، العقل لجام عظيم لنفوس الناس ، القطر بدوامه يحتفر الصخر ، ابتداء كل عفة مراقبة الله تعالى ، الارض كلها وطن لمن فعله حسن ، الشكر موهبة من الله تعالى للعبد . مساعدة الاشرار افتراء على الله تعالى ، المغلوب من قاتل الله تعالى والبخت ، اذا اراد الله خلاص امرىء عبر البحر على بارية ، مشورة البخت انفع مشورة ، طبيب النفس المريضة الكلام الحسن من نفس صالح ، من

عاش نماماً كثر همه ، ما ألذ الحياة اذا لم يشبها حسد ، الترويح غاية حدود السفاة ، الحياة الصالحة مع المذاهب الرديئة لا تتفق ، ما ألذ الجماع واكثر احزانه . وقال بعضهم : انما شرف الانسان على جميع الحيوان بالنطق والفهم فان سكت ولم يستفهم عاد بهيماً .

« انتهى »



فهرست

(تمت)

not avail

هـــــــــــــــــذه

رساله في شرح حديث ابي ذر رضي الله عنه لشيخ الاسلام تقي الدين ابي العباس احمد بن تيمية الحراني

طبعت على نفقة عبد المجيد زكريا



سئل شيخ الاسلام احمد بن عبد الحليم بن تيمية عن معنى حديث ابي ذر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن الله تبارك وتعالى انه قال ياعبادي اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، ياعبادي كلكم ضال الا من هديته فاستهدوني اهدكم، ياعبادي كلكم جائع الا من أطعمته فاستطعموني اطعمكم، ياعبادي كلكم عار الا من كسوته فاستكسوني اكسكم، ياعبادي انكم تخطئون بالليل والنهار وانا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم، ياعبادي انكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ياعبادى لو أن أولكم

وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على اتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك في ملكي شيئاً ، ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم مانقص ذلك من ملكي شيئاً ، ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فاعطيت كل انسان منهم مسألته مانقص ذلك مما عندي الا كما ينقص المخيط اذا دخل البحر ، ياعبادي انما هي أعمالكم احصيها لكم ثم اوفيكم اياها فمن وجد خيراً فليحمد الله عز وجل ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه

فأجاب رضي الله عنه الحمد لله رب العالمين ولا حول ولا قوة الا بالله أما قوله تعالى ياعبادي اني حرمت الظلم على نفسي ففيه مسئلتان كبيرتان كل منهما ذات شعب وفروع احداهما في الظلم الذي حرمه الله على نفسه ونفاه عن نفسه بقوله وما ظلمناهم . وقوله ، ولا يظلم ربك أحدا . وقوله ، وما ربك بظلام للعبيد . وقوله ، ان الله لايظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها . وقوله ، قل متاع الدنيا قليل

والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا ، ونفى ارادته بقوله وما الله يريد ظلما للعالمين ، وقوله ، وما الله يريد ظلما للعباد ونفى خوف العباد له بقوله ، ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما ، فان الناس تنازعوا في معنى هذا الظلم تنازعا صاروا فيه بين طرفين متباعدين ووسط بينهما وخيار الأمور أوساطها وذلك بسبب البحث في القدر ومجامعته للشرع اذ الخوض في ذلك بغير علم تام أوجب ضلال عامة الأمم ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه عن التنازع فيه فذهب المكذبون بالقدر القائلون بأن الله لم يخلق أفعال العباد ولم يرد أن يكون الا ما أمر بأن يكون وغلاتهم المكذبون بتقدم علم الله وكتابه بما سيكون من أفعال العباد من المعتزلة وغيرهم الا أن الظلم منه هو نظير الظلم من الآدميين بعضهم لبعض وشبهوه ومثلوه في الافعال بأفعال العباد حتى كانوا هم ممثلة الافعال وضربوا لله الامثال ولم يجعلوا له المثل الاعلى بل أوجبوا عليه وحرموا ما رأوا انه يجب على العباد ويحرم بقياسه على العباد واثبات الحكم في

الاصل بالرأي وقالوا عن هذا اذا أمر العبد ولم يعنه بجميع
مايقدر عليه من وجوه الاعانة كان ظالما له والتزموا انه لا
يقدر أن يهدي ضالا كما قالوا انه لايقدر أن يضل مهتديا وقالوا
عن هذا اذا بامر اثنين بأمر واحد وخص احدهما باعانته
على فعل المأمور كان ظالماً الى أمثال ذلك من الأمور التي هي
من باب الفضل والاحسان جعلوا تركه لها ظلما وكذلك
ظنوا أن التعذيب لمن كان فعله مقدراً ظلم له ولم يفرقوا بين
التعذيب لمن قام به سبب استحقاق ذلك ومن لم يقم وان
كان ذلك الاستحقاق خلقه لحكمة أخرى عامة أو خاصة
وهذا الموضع زلت فيه أقدام وضلت فيه أفهام فعارض هؤلاء
آخرون من اهل الكلام المثبتين للقدر فقالوا ليس للظلم منه
حقيقة يمكن وجودها بل هو من الأمور الممتنعة لذاتها فلا
يجوز أن يكون مقدوراً ولا أن يقال انه هو تارك له باختياره
ومشيئته وانما هو من باب الجمع بين الضدين وجعل الجسم
الواحد في مكانين وقلب القديم محدثا والمحدث قديماً والا فهما
قدر في الذهن وكان وجوده ممكنا والله قادر عليه

فليس بظلم منه سواء فعله أو لم يفعله وتلقى هذا القول
عن هؤلاء طوائف من أهل الاثبات من الفقهاء وأهل
الحديث من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم ومن
شراح الحديث ونحوهم وفسروا هذا الحديث بما ينبني على
هذا القول وربما تعلقوا بظاهر من أقوال مأثورة كما روينا
عن اياس بن معاوية انه قال ما ناظرت بعقلي كله أحداً الا
القدرية قلت لهم ما الظلم قالوا ان تأخذ ماليس لك أو ان
تتصرف فيما ليس لك قلت فلله كل شيء وليس هذا من اياس
الا ليبين ان التصرفات الواقعة هي في ملكه فلا يكون ظلماً
بموجب حدهم وهذا مما لا نزاع بين أهل الاثبات فيه
فانهم متفقون مع الايمان بالقدر على أن كل ما فعله الله فهو
عدل وفي حديث الكرب الذي رواه الامام أحمد عن عبد
الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أصاب
عبداً قط هم ولا حزن فقال اللهم اني عبدك ابن عبدك ابن
امتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك
أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك

أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي وغمي الا اذهب الله همه وغمه وابدله مكانه فرحاً. قالوا يارسول الله أفلا نتعلمهن قال بلى ينبغي لمن سمعهن ان يتعلمهن فقد بين ان كل قضائه في عبده عدل ولهذا يقال كل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل ويقال أطعتك بفضلك والمنة لك وعصيتك بعلمك أو بعدلك والحجة لك فاسألك بوجوب حجتك علي وانقطاع حجتي الا ما غفرت لي وهذه المناظرة من اياس كما قال ربيعة بن أبي عبد الرحمن لغيلان حين قال له غيلان نشدتك الله أترى الله يحب أن يعصى فقال نشدتك الله أترى الله يعصى قسراً يعني قهراً فكأنما القمه حجراً فان قوله يحب أن يعصى لفظ فيه اجمال وقد لا يتأتى في المناظرة تفسير المجملات خوفاً من لدد الخصم فيؤتى بالواضحات فقال افتراه يعصى قسراً فان هذا الزام له بالعجز الذي هو لازم للقدرية ولمن هو شر منهم من الدهرية الفلاسفة وغيرهم وكذلك اياس رأى ان هذا الجواب

المطابق لحدهم خاصم لهم ولم يدخل معهم في التفصيل الذي يطول وبالجملة فقوله تعالى ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً قال أهل التفسير من السلف لا يخاف ان يظلم فيحمل عليه سيئات غيره ولا يهضم فينقص من حسناته ولا يجوز ان يكون هذا الظلم هو شيء ممتنع غير مقدور عليه فيكون التقدير لا يخاف ما هو ممتنع لذاته خارج عن الممكنات والمقدورات فان مثل هذا اذا لم يكن وجوده ممكنا حتى يقولوا انه غير مقدور ولو اراده كخلق المثل له فكيف يعقل وجوده فضلا ان يتصور خوفه حتى ينفى خوفه ثم أي فائدة في نفي خوف هذا وقد علم من سياق الكلام ان المقصود بيان أن هذا العامل المحسن يجزى على إحسانه بالظلم والهضم فعلم أن الظلم والهضم المنفي يتعلق بالجزاء كما ذكره أهل التفسير * وان الله لا يجزيه الا بعمله ولهذا كان الصواب الذي دلت عليه النصوص ان الله لا يعذب في الآخرة الا من أذنب كما قال لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين . فلو دخلها احد من غير اتباعه لم تمتلئ

منهم ولهذا ثبت في الصحيحين في حديث تحتاج الجنة والنار من حديث أبي هريرة وانس ان النار تمتلئ ممن كان القي فيها حين ينزوي بعضها الى بعض وتقول قط قط بعد قولها هل من مزيد وأما الجنة فيبقى فيها فضل عمن يدخلها من أهل الدنيا فينشيء الله لها خلقاً آخر ولهذا كان الصواب الذي عليه الائمة فيمن لم يكلف في الدنيا من اطفال المشركين ونحوهم ما صح به الحديث وهو أن الله اعلم بما كانوا عاملين فلا نحكم لكل منهم بالجنة ولا لكل منهم بالنار بل هم ينقسمون بحسب ما يظهر من العلم فيهم اذا كلفوا يوم القيامة في العرصات كما جاءت بذلك الآثار وكذلك قوله تعالى من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد يدل الكلام على أنه لا يظلم محسناً فينقصه من احسانه أو يجعله لغيره ولا يظلم مسيئاً فيجعل عليه سيئات غيره بل لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت وهذا كقوله أم لم ينبأ بما في صحف موسى وابراهيم الذي وفى ان لا تزر وازرة وزر أخرى وان ليس للانسان الا ما سعى. فاخبر انه ليس على أحد من وزر غيره

شي وانه لا يستحق الا ما سعاه وكلا القوانين حق على ظاهره وان ظن بعض الناس أن تعذيب الميت ببكاء اهله عليه ينافي الاول فليس كذلك اذ ذلك النائح يعذب بنوحه لايحمل الميت وزره ولكن الميت يناله ألم من فعل هذا كما يتألم الانسان من أمور خارجة عن كسبه وان لم يكن جزاء الكسب والعذاب أعم من العقاب كما قال صلى الله عليه وسلم السفر قطعة من العذاب. وكذلك ظن قوم انتفاع الميت بالعبادات البدنية من الحي ينافي قوله وان ليس للانسان الا ماسعى فليس الامر كذلك فان انتفاع الميت بالعبادات البدنية من الحي بالنسبة الى الآية كانتفاعه بالعبادات المالية ومن ادعى أن الآية تخالف أحدهما دون الآخر فقوله ظاهر الفساد بل ذلك بالنسبة الى الآية كانتفاعه بالدعاء والاستغفار والشفاعة وقد بينا في غير هذا الموضع نحواً من ثلاثين دليلا شرعياً يبين انتفاع الانسان بسعي غيره اذ الآية انما نفت استحقاق السعي وملكه وليس كل مالا يستحقه الانسان ولا تملكه لايجوز أن يحسن اليه مالكه ومستحقه بما ينتفع به منه فهذا

نوع وهذا نوع وكذلك ليس كل ما لا يملكه الانسان لا يحصل
له من جهته منفعة فان هذا كذب في الامور الدينية والدنيوية
وهذه النصوص النافية للظلم تثبت العدل في الجزاء وانه لا
يبخس عامل عمله وكذلك قوله فيمن عاقبهم. وما ظلمناهم
ولكن ظلموا أنفسهم فما اغنت عنهم الهتهم التي يدعون من
دون الله من شيء. وقوله وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين
بين أن عقاب المجرمين عدلا لذنوبهم لا لانا ظلمناهم فعاقبناهم
بغير ذنب والحديث الذي في السنن لو عذب الله اهل سماواته
وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم لكانت رحمته
لهم خيراً من أعمالهم. بين أن العذاب لو وقع لكان لاستحقاقهم
ذلك لا لكونه بغير ذنب وهذا يبين أن من الظلم المنفي
عقوبة من لم يذنب وكذلك قوله تعالى. وقال الذي آمن ياقوم
اني أخاف عليكم مثل يوم الاحزاب مثل دأب قوم نوح
وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد. بين
أن هذا العقاب لم يكن ظلما لاستحقاقهم ذلك وأن الله لا
يريد الظلم والامر الذي لا يمكن القدرة عليه لا يصلح أن

يمدح الممدوح بعدم ارادته وانما يكون المدح بترك الافعال اذا كان الممدوح قادراً عليها فعلم ان الله قادر على مانزه نفسه عنه من الظلم وانه لايفعله وبذلك يصح قوله اني حرمت الظلم على نفسي وان التحريم هو المنع وهذا لايجوز أن يكون فيما هو ممتنع لذاته فلا يصلح أن يقال حرمت على نفسي أو منعت نفسي من خلق مثلي أو جعل المخلوقات خالقة ونحو ذلك من المحالات واكثر مايقال في تأويل ذلك مايكون معناه اني أخبرت عن نفسي بأن ما لايكون مقدوراً لايكون مني وهذا المعنى مما يتيقن المؤمن انه ليس مراد الرب وانه يجب تنزيه الله ورسوله عن إرادة مثل هذا المعنى الذي لا يليق الخطاب بمثله اذ هو مع كونه شبه التكرير وإيضاح الواضح ليس فيه مدح ولا ثناء ولا مايستفيده المستمع فعلم أن الذي حرمه على نفسه هو أمر مقدور عليه لكنه لايفعله لانه حرمه على نفسه وهو سبحانه منزه عن فعله مقدس عنه يبين ذلك أن ماقاله الناس في حدود الظلم يتناول هذا دون ذلك كقول بعضهم الظلم وضع الشيء في غير موضعه كقولهم

من أشبه اباه فما ظلم أي فما وضع الشبه غير موضعه ومعلوم أن الله سبحانه حكم عدل لايضع الاشياء الا مواضعها ووضعها غير مواضعها ليس ممتنعاً لذاته بل هو ممكن لكنه لا يفعله لانه لا يريده بل يكرهه ويبغضه اذ قد حرمه على نفسه وكذلك من قال الظلم اضرار غير مستحق فان الله لا يعاقب أحداً بغير حق وكذلك من قال هو نقص الحق وذكر أن أصله النقص كقوله (كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً) وأما من قال التصرف في ملك الغير فهذا ليس بمطرد ولا منعكس فقد يتصرف الانسان في ملك غيره بحق ولا يكون ظالما وقد يتصرف في ملكه بغير حق فيكون ظالما وظلم العبد نفسه كثير في القرآن وكذلك من قال فعل المأمور خلاف ما أمر به ونحو ذلك ان سلم صحة مثل هذا الكلام فالله سبحانه قد كتب على نفسه الرحمة وحرم على نفسه الظلم فهو لا يفعل خلاف ما كتب ولا يفعل ما حرم وليس هذا الجواب موضع بسط هذه الأمور التي نبهنا عليها فيه وانما نشير الى النكت وبهذا يتبين القول المتوسط وهو أن الظلم

الذي حرمه الله على نفسه مثل أن يترك حسنات المحسن فلا
يجزيه بها ويعاقب البريء على مالم يفعل من السيئات ويعاقب
هذا بذنب غيره أو يحكم بين الناس بغير القسط ونحو ذلك
من الافعال التي ينزه الرب عنها لقسطه وعدله وهو قادر
عليها وانما استحق الحمد والثناء لانه ترك هذا الظلم وهو قادر
عليه وكما أن الله منزه عن صفات النقص والعيب فهو أيضاً
منزه عن أفعال النقص والعيب وعلى قول الفريق الثاني ماثم
فعل يجب تنزيه الله عنه أصلا والكتاب والسنة واجماع سلف
الأمة وأئمتها يدل على خلاف ذلك ولكن متكلمو الاثبات
لما ناظروا متكلمة النفي ألزموهم لوازم لم ينفصلوا عنها الا
بمقابلة الباطل بالباطل وهذا مما عابه الائمة وذموه كما عاب
الاوزاعي والزبيدي والثوري واحمد بن حنبل وغيرهم مقابلة
القدرية بالغلو في الاثبات وأمروا بالاعتصام بالكتاب والسنة
وكما عابوا أيضاً على من قابل الجهمية نفاة الصفات بالغلو في
الاثبات حتى دخل في تمثيل الخالق بالمخلوق وقد بسطنا
الكلام في هذا وهذا وذكرنا كلام السلف والائمة في هذا

في غير هذا الموضع ولو قال قائل هذا مبني على مسئلة تحسين العقل وتقبيحه فمن قال العقل يعلم به حسن الافعال وقبحها فانه ينزه الرب عن بعض الافعال ومن قال لايعلم ذلك الا بالسمع فانه يجوز جميع الافعال عليه لعدم النهي في حقه قيل له ليس بناء هذه على تلك بلازم وبتقدير لزومها ففي تلك تفصيل وتحقيق قد بسطناه في موضعه وذلك انا فرضنا انا نعلم بالعقل حسن بعض الافعال وقبحها لكن العقل لايقول إن الخالق كالمخلوق حتى يكون ماجعله حسنا لهذا أو قبيحاً له جعله حسناً للآخر وقبيحاً له كما يفعل مثل ذلك القدرية لما بين الرب والعبد من الفروق الكثيرة وان فرضنا أن حسن الافعال وقبحها لايعلم الا بالشرع فالشرع قد دل على أن الله قد نزه نفسه عن أفعال وأحكام فلا يجوز أن يفعلها تارة يخبره مثنياً على نفسه بأنه لايفعلها وتارة يخبره انه حرمها على نفسه وهذا يبين المسئلة الثانية فنقول الناس لهم في أفعال الله باعتبار مايصلح منه ويجوز وما لايجوز منه ثلاثة أقوال طرفان ووسط فالطرف الواحد طرف القدرية وهم الذين حجروا

عليه أن يفعل الا ما ظنوا بعقلهم انه الجائز له حتى وضعوا له شريعة التعديل والتجويز فاوجبوا عليه بعقلهم أموراً كثيرة وحرموا عليه بعقلهم أموراً كثيرة لا بمعنى أن العقل آمر له وناه فان هذا لا يقوله عاقل بل بمعنى ان تلك الافعال مما علم بالعقل وجوبها وتحريمها ولكن ادخلوا في ذلك المنكرات ما بنوه على بدعتهم في التكذيب بالقدر وتوابع ذلك. والطرف الثاني طرف الغلاة في الرد عليهم وهم الذين قالوا لا ينزه الرب عن فعل من الافعال ولا نعلم وجه امتناع الفعل منه الا من جهة خبره انه لا يفعله المطابق لعلمه بانه لا يفعله وهؤلاء منعوا حقيقة ما أخبر به من أنه كتب على نفسه الرحمة وحرم على نفسه الظلم قال الله تعالى وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة. وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الله لما قضى الخلق كتب على نفسه كتاباً فهو موضوع عنده فوق العرش ان رحمتي تغلب غضبي ولم يعلم هؤلاء ان الخبر المجرد المطابق للعلم لا يبين وجه فعله وتركه اذ العلم

يطابق المعلوم فعلمه بأنه يفعل هـذا وانه لا يفعل هذا ليس
فيه تعرض لانه كتب هذا على نفسه وحرم هذا على نفسه
كما لو أخبر عن كائن من كان انه يفعل كذا ولا يفعل كذا
لم يكن في هذا بيان لكونه محموداً ممدوحاً على فعل هذا وترك
هذا ولا في ذلك ما يبين قيام المقتضي لهذا والمانع من هذا
فان الخبر المحض كاشف عن المخبر عنه ليس فيه بيان مايدعو
الى الفعل ولا إلى الترك بخلاف قوله كتب على نفسه الرحمة
وحرم على نفسه الظلم فان التحريم مانع من الفعل وكتابته
على نفسه داعية الى الفعل وهذا بين واضح اذ ليس المراد
بذلك مجرد كتابته انه يفعل وهو كتابة التقدير كما قد ثبت
في الصحيح أنه قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات
والارض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء فانه قال
كتب على نفسه الرحمة ولو أريد كتابة التقدير لكان قد كتب
على نفسه الغضب كما كتب على نفسه الرحمة اذ كان المراد
مجرد الخبر عما سيكون ولكان قد حرم على نفسه كل ما لم
يفعله من الاحسان كما حرم الظلم وكما أن الفرق ثابت في حقنا

بين قوله كتب عليكم القصاص في القتلى وبين قوله وكل شيء فعلوه في الزبر وقوله ما أصاب من مصيبة في الارض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها وقوله فيبعث اليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيقال له اكتب رزقه واجله وعمله وشقي أو سعيد فهكذا الفرق أيضاً ثابت في حق الله ونظير ماذكره من كتابته على نفسه كما تقدم قوله تعالى وكان حقا علينا نصر المؤمنين وقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح يامعاذ اتدري ماحق الله على عباده . قلت الله ورسوله اعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً أتدري ماحق العباد على الله اذا فعلوا ذلك . قلت الله ورسوله اعلم قال حقهم عليه الا يعذبهم ومنه قوله في غير حديث كان حقا على الله أن يفعل به كذا فهذا الحق الذي عليه هو أحقه على نفسه بقوله ونظير تحريمه على نفسه وإيجابه على نفسه ما أخبر به من قسمه ليفعلن وكلمته السابقة كقوله ولولا كلمة سبقت من ربك وقوله لاملأن جهنم ولنهلكن الظالمين فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم واوذوا في سبيلي وقاتلوا

وقتلوا لا كفرن عنهم سيئاتهم ولادخلنهم جنات تجري من تحتها الانهار فلنسئلن الذين أرسل اليهم ونحو ذلك من صيغ القسم المتضمنة معنى الايجاب والمعنى بخلاف القسم المتضمن للخبر المحض ولهذا قال الفقهاء اليمين اما ان توجب حقا أو منعا أو تصديقا أو تكذيباً واذا كان معقولا في الانسان انه يكون آمراً مأموراً كقوله ان النفس لامارة بالسوء وقوله واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى مع أن العبد له آمر وناهٍ فوقه والرب الذي ليس فوقه أحد لان يتصور أن يكون هو الآمر الكاتب على نفسه الرحمة والناهي المحرم على نفسه الظلم أولى وأحرى وكتابته على نفسه ذلك تستلزم ارادته لذلك ومحبته له ورضاه بذلك وتحريمه الظلم على نفسه يستلزم بغضه لذلك وكراهته له وإرادته ومحبته للفعل توجب وقوعه منه وبغضه له وكراهته لان يفعله يمنع وقوعه منه فاما مايحبه ويبغضه من أفعال عباده فذلك نوع آخر ففرق بين فعله هو وبين ماهو مفعول مخلوق له وليس في مخلوقه ماهو ظلم منه وان كان بالنسبة الى فاعله

الذى هو الانسان هو ظلم كما أن أفعال الانسان هي بالنسبة اليه تكون سرقة وزنا وصلاة وصوما والله تعالى خالقها بمشيئته وليست بالنسبة اليه كذلك اذ هذه الاحكام هي للفاعل الذي قام به هذا الفعل كما أن الصفات هي صفات للموصوف الذي قامت به لا للخالق الذي خلقها وجعلها صفات والله تعالى خلق كل صانع وصنعته كما جاء ذلك في الحديث وهو خالق كل موصوف وصفته ثم صفات المخلوقات ليست صفات له كالالوان والطعوم والروائح لعدم قيام ذلك به وكذلك حركات المخلوقات ليست حركات له ولا أفعالا له بهذا الاعتبار لكونها مفعولات هو خلقها وبهذا الفرق تزول شبه كثيرة والامر الذي كتبه على نفسه يستحق عليه الحمد والثناء وهو مقدس عن ترك هذا الذي لو ترك لكان تركه نقصا وكذلك الامر الذي حرمه على نفسه يستحق الحمد والثناء على تركه وهو مقدس عن فعله الذي لو كان لاوجب نقصا وهذا كله بين ولله الحمد عند الذين اوتوا العلم والأيمان وهو أيضاً مستقر في قلوب عموم المؤمنين ولكن القدرية شبهوا على الناس

يشبهم فقابلهم من قابلهم بنوع من الباطل كالكلام الذي كان السلف والائمة يذمونه وذلك ان المعتزلة قالوا قد حصل الاتفاق على أن الله ليس بظالم كما دل عليه الكتاب والسنة والظالم من فعل الظلم كما أن العادل من فعل العدل هذا هو المعروف عند الناس من مسمى هذا الاسم سمعاً وعقلا قالوا ولو كان الله خالقاً لافعال العباد التي هي الظلم لكان ظالماً فعارضهم هؤلاء بأن قالوا ليس الظالم من فعل الظلم بل الظالم من قام به الظلم وقال بعضهم الظالم من اكتسب الظلم وكان منهياً عنه وقال بعضهم الظالم من فعل محرماً عليه او ما نهي عنه ومنهم من قال من فعل الظلم لنفسه وهؤلاء يعنون ان يكون الناهي له والمحرم عليه غيره الذي يجب عليه طاعته ولهذا كان تصور الظلم منه ممتنعاً عندهم لذاته كامتناع ان يكون فوقه آمر له وناه ويمتنع عند الطائفتين ان يعود الى الرب من أفعاله حكم لنفسه وهؤلاء لم يمكنهم أن ينازعوا أولئك في أن العادل من فعل العدل بل سلموا ذلك لهم وان نازعهم بعض الناس منازعة عنادية والذي يكشف تلبيس

المعتزلة أن يقال لهم الظالم والعادل الذي يعرفه الناس وان كان فاعلا للظلم والعدل فذلك يأثم به أيضاً ولا يعرف الناس من يسمى ظالماً ولم يقم به الفعل الذي به صار ظالماً بل لا يعرفون ظالماً الا من قام به الفعل الذي فعله وبه صار ظالماً وان كان فعله متعلقاً بغيره وله مفعول منفصل عنه لكن لا يعرفون الظالم الا بأن يكون قد قام به ذلك فكونكم أخذتم في حد الظالم انه من فعل الظلم وعنيتم بذلك من فعله في غيره فهذا تلبيس وإفساد الشرع والعقل واللغة كما فعلتم في مسمى المتكلم حيث قلتم هو من فعل الكلام ولو في غيره وجعلتم من أحدث كلاماً منفصلا عنه قائماً بغيره متكلماً وان لم يقم به هو كلام أصلا وهذا من أعظم البهتان والقرمطة والسفسطة ولهذا ألزمهم السلف ان يكون ما أحدثه من الكلام في الجمادات وكذلك أيضاً ما خلقه في الحيوانات ولا يفرق حينئذ بين نطق وأنطق وانما قالت الجلود أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ولم تقل نطق الله بذلك ولهذا قال من قال من السلف كسليمان بن داود الهاشمي وغيره ما معناه انه

عن هذا يكون الكلام الذي خلق في فرعون حتى قال أنا ربكم الاعلى كالكلام الذي خلق في الشجرة حتى قالت انني أنا الله لا اله الا أنا فاما أن يكون فرعون محقاً أو تكون الشجرة كفرعون والى هذا المعنى ينحو الاتحادية من الجهمية وينشدون

وكل كلام في الوجود كلامه　　　سواء علينا نثره ونظامه

وهذا يستوعب أنواع الكفر ولهذا كان من الامر البين للخاصة والعامة ان من قال المتكلم لا يقوم به كلام أصلا فان حقيقة قوله انه ليس بمتكلم اذ ليس المتكلم الا هذا ولهذا كان أولوهم يقولون ليس بمتكلم ثم قالوا هو متكلم بطريق المجاز وذلك لما استقر في الفطر ان المتكلم لابد أن يقوم به كلام وان كان مع ذلك فاعلا له كما يقوم بالانسان كلامه وهو كاسب له إما ان يجعل مجرد احداث الكلام في غيره كلاماً له فهذا هو الباطل وهكذا القول في الظلم فهب ان الظالم من فعل الظلم فليس هو من فعله في غيره ولم يقم به فعل أصلا بل لابد ان يكون قد قام به فعل وان كان متعدياً الى غيره فهذا جواب . ثم يقال لهم الظلم فيه

نسبة واضافة فهو ظلم من الظالم بمعنى انه عدوان وبغي منه
وهو ظلم للمظلوم بمعنى انه بغى واعتدى عليه وأما من لم يكن
متعدى عليه به ولا هو منه عدوان على غيره فهو في حقه
ليس بظلم لا منه ولا له والله سبحانه اذا خلق افعال العباد
فذلك من جنس خلقه لصفاتهم فهم الموصوفون بذلك فهو سبحانه
اذا جعل بعض الاشياء أسود وبعضها أبيض أو طويلا او
قصيراً او متحركا او ساكنا او عالماً اوجاهلا او قادراً او
عاجزاً او حياً او ميتاً او مؤمناً او كافراً او سعيداً او شقياً
أو ظالماً او مظلوما كان ذلك المخلوق هو الموصوف بأنه
الابيض والاسود والطويل والقصير والحي والميت والظالم
والمظلوم ونحو ذلك والله سبحانه لا يوصف بشيء من ذلك وانما
احداثه للفعل الذي هو ظلم من شخص وظلم لآخر بمنزلة
احداثه الاكل والشرب الذى هو أكل من شخص وأكل
لآخر وليس هو بذلك أكلا ولا مأكولا ونظائر هذا
كثيرة وإن كان في خلق أفعال العباد لازمها او متعديها
حكم بالغة كما له حكمة بالغة في خلق صفاتهم وسائر المخلوقات

لكن ليس هـذا موضع تفصـيل ذلك وقد ظهر بهذين الوجهين تدليس القدرية وأما تلك الحدود التي عورضوا بها فهي دعاو ومخالفة أيضاً للمعلوم من الشرع واللغة والعقل او مشتملة على نوع من الاجمال فان قول القائل الظالم من قام به الظلم يقتضي انه لا بد أن يقوم به لكن يقال له وان لم يكن فاعلا له آمراً له لا بد أن يكون فاعلا له مع ذلك فان أراد الاول كان اقتصاره على تفسير الظالم بمن قام به الظلم كاقتصار أولئك على تفسير الظالم في فعل الظلم والذي يعرفه الناس عامهم وخاصهم ان الظالم فاعل للظلم وظلمه فعـل قائم به وكل من الفريقين جحد بعض الحق وأما قولهم من فعل محرما عليه أو منهياً عنه ونحو ذلك فالاطلاق صحيح لكن يقال قد دل الكتاب والسنة على أن الله تعالى كتب على نفسـه الرحمة وكان حقاً عليـه نصر المؤمنين وكان حقاً عليـه أن يجزي المطيعين وأنه حرم الظلم على نفسه فهو سبحانه الذي حرم بنفسه على نفسه الظلم كما أنه هو الذي كتب بنفسه على نفسه الرحمة لا يمكن ان يكون غيره محرماً عليه أو موجباً عليه فضلا عن

أن يعلم ذلك بعقل او غيره واذا كان كذلك فهذا الظلم الذي حرمه على نفسه هو ظلم بلا ريب وهو أمر ممكن مقدور عليه وهو سبحانه يتركه مع قدرته عليه بمشيئته واختياره لانه عادل ليس بظالم كما يترك عقوبة الانبياء والمؤمنين وكما يترك أن يحمل البريء ذنوب المعتدين

(فصل) قوله وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ، ينبغي أن يعرف أن هذا الحديث شريف القدر عظيم المنزلة ولهذا كان الامام احمد يقول هو أشرف حديث لاهل الشام وكان ابو ادريس الخولاني اذا حدث به جثا على ركبتيه وراويه ابو ذر الذي ما اظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة منه وهو من الاحاديث الالهية التي رواها الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربه وأخبر انها من كلام الله تعالى وان لم تكن قرآنا وقد جمع في هذا الباب زاهر السحامي وعبد الغني المقدسي وابو عبد الله المقدسي وغيرهما وهذا الحديث قد تضمن من قواعد الدين العظيمة في العلوم والاعمال والاصول والفروع فان تلك الجملة الأولى وهي قوله حرمت

الظلم على نفسي يتضمن جل مسائل الصفات والقدر اذا أعطيت حقها من التفسير وانما ذكرنا فيها ما لابد من التنبيه عليه من اوائل النكت الجامعة . وأما هذه الجملة الثانية وهي قوله وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا فانها تجمع الدين كله فان مانهى الله عنه راجع الى الظلم وكل ما أمر به راجع الى العدل ولهذا قال تعالى لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب . فاخبر انه أرسل الرسل وأنزل الكتاب والميزان لاجل قيام الناس بالقسط وذكر انه أنزل الحديد الذي به ينصر هذا الحق فالكتاب يهدي والسيف ينصر وكفى بربك هاديا ونصيراً ولهذا كان قوام الناس باهل الكتاب واهل الحديد كما قال من قال من السلف صنفان اذا صلحوا صلح الناس الأمراء والعلماء وقالوا في قوله تعالى (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولي الأمر منكم أقوالا تجمع العلماء والامراء ولهذا نص الامام احمد وغيره على دخول الصنفين في هذه

الآية اذ كل منهما تجب طاعته فيما يقوم به من طاعة الله وكان نواب رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته كعلي ومعاذ وابي موسى وعتاب بن اسيد وعثمان بن أبي العاص وأمثالهم يجمعون الصنفين وكذلك خلفاؤه من بعده كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ونوابهم ولهذا كانت السنة أن الذي يصلي بالناس (١) صاحب الكتاب هو الذي يقوم بالجهاد صاحب الحديد . الى أن تفرق الامر بعد ذلك فاذا تفرق صار كل من قام بأمر الحرب من جهاد الكفار وعقوبات الفجار يجب أن يطاع فيما أمر به من طاعة الله في ذلك وكذلك من قام بجمع الاموال وقسمها يجب أن يطاع فيما يأمر به من طاعة الله في ذلك وكذلك من قام بالكتاب بتبليغ أخباره وأوامره وبيانها يجب أن يصدق ويطاع فيما أخبر به من الصدق في ذلك وفيما يأمر به من طاعة الله في ذلك والمقصود هنا أن المقصود بذلك كله هو أن يقوم الناس بالقسط ولهذا لما كان المشركون يحرمون أشياء ما أنزل الله بها من سلطان ويأمرون . بأشياء ما أنزل الله بها من سلطان أنزل الله في سورة الانعام

(١) لعل الصواب . هو صاحب الكتاب والذي يقوم بالجهاد هو صاحب الحديد

والاعراف وغيرهما يذمهم على ذلك وذكر ما أمر به هو وما حرمه هو فقال (قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين وقال تعالى (قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله ما لا تعلمون) وهذه الآية تجمع أنواع المحرمات كما قد بيناه في غير هذا الموضع وتلك الآية تجمع أنواع الواجبات كما بيناه أيضاً وقوله أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين أمر مع القسط بالتوحيد الذي هو عبادة الله وحده لاشريك له وهـذا أصل الدين وضده هو الذنب الذي لا يغفر قال تعالى (ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) وهو الدين الذي أمر الله به جميع الرسل وأرسلهم به الى جميع الامم قال تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول الا يوحى اليـه انه لا اله الا الا انا فاعبدون) وقال تعالى واسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبـدون وقال تعالى

ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت وقال تعالى شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه وقال تعالى (ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا اني بما تعملون عليم وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ولهذا ترجم البخاري في صحيحه باب ماجاء في أن دين الانبياء واحد وذكر الحديث الصحيح في ذلك وهو الاسلام العام الذي اتفق عليه جميع النبيين قال نوح عليه السلام وأمرت أن اكون من المسلمين وقال تعالى فى قصة ابراهم اذ قال له ربه اسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يابني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون وقال موسى ياقوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين وقال تعالى قال الحواريون نحن انصار الله آمنا بالله واشهد بانا مسلمون وقال في قصة بلقيس رب اني ظلمت نفسي واسلمت مع سليمان لله رب العالمين وقال انا أنزلنا التوراة

فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا وهذا التوحيد الذي هو أصل الدين هو أعظم العدل وضده وهو الشرك اعظم الظلم كما اخرجا في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال لما نزلت هذه الآية الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم شق ذلك على اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا اينا لم يظلم نفسه فقال الم تسمعوا الى قول العبد الصالح ان الشرك لظلم عظيم وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال قلت يا رسول الله اي الذنب اعظم قال ان تجعل لله ندا وهو خلقك قلت . ثم اي قال ثم ان تقتل ولدك خشية ان يطعم معك قلت ثم اي قال ان تزاني بحليلة جارك فانزل الله تصديق ذلك والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون الآية وقد جاء عن غير واحد من السلف وروي مرفوعا الظلم ثلاثة دواوين فديوان لا يغفر الله منه شيئاً وديوان لا يترك الله منه شيئاً وديوان لا يعبأ الله به شيئا فاما الديوان الذي لا يغفر الله منه شيئا فهو الشرك فان الله لا يغفر ان يشرك به واما الديوان الذي لا يترك الله منه

شيئاً فهو ظلم العباد بعضهم بعضاً فان الله لا بد ان ينصف المظلوم من الظالم واما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئاً فهو ظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه أي مغفرة هذا الضرب ممكنة بدون رضى الخلق فان شاء عذب هذا الظالم لنفسه وان شاء غفر له وقد بسطنا الكلام في هـذه الابواب الشريفـة والاصول الجامعة في القواعد وبينا انواع الظلم وبينا كيف كان الشرك اعظم أنواع الظلم ومسمى الشرك جليله ودقيقه فقد جاء في الحديث الشرك في هذه الامة أخفى من دبيب النمل وروي أن هذه الآية نزلت في اهل الرياء فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً وكان شداد بن أوس يقول يا بقايا العرب يا بقايا العرب انما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية قال ابو داود السجستاني صاحب السنن المشهورة الخفية حب الرياسة وذلك ان حب الرياسة هو أصل البغي والظلم كما ان الرياء هو من جنس الشرك أو مبدأ الشرك والشرك أعظم الفساد كما ان التوحيد أعظم الصلاح ولهذا قال تعالى ان فرعون علا في الارض

وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين الى أن ختم السورة بقوله تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الارض ولا فساداً وقال وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الارض مرتين ولتعلن علواً كبيراً وقال من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس او فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيي الناس جميعاً وقالت الملائكة أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء فأصل الصلاح التوحيد والايمان وأصل الفساد الشرك والكفر كما قال عن المنافقين واذا قيل لهم لا تفسدوا في الارض قالوا انما نحن مصلحون ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون وذلك ان صلاح كل شيء ان يكون بحيث يحصل له وبه المقصود الذي يراد منه ولهذا يقول الفقهاء العقد الصحيح ما ترتب عليه أثره وحصل به مقصوده والفاسد مالم يترتب عليه أثره ولم يحصل به مقصود والصحيح المقابل للفاسد في اصطلاحهم هو الصالح وكان

يكثر في كلام السلف هذا لا يصلح او يصلح كما كثر في كلام المتأخرين يصح ولا يصح والله تعالى انما خلق الانسان لعبادته وبدنه تبع لقلبه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح ألا ان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح لها سائر الجسد واذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب وصلاح القلب في أن يحصل له وبه المقصود الذي خلق له من معرفة الله ومحبته وتعظيمه وفساده في ضد ذلك فلا صلاح للقلوب بدون ذلك قط والقلب له قوتان العلم والقصد كما ان للبدن الحس والحركة الارادية فكما أنه متى خرجت قوى الحس والحركة عن الحال الفطري الطبيعي فسدت فاذا خرج القلب عن الحال الفطرية التي يولد عليها كل مولود وهي ان يكون مقراً لربه مريداً له فيكون هو منتهى قصده وارادته وذلك هي العبادة اذ العبادة كمال الحب بكمال الذل فمتى لم تكن حركة القلب ووجهه وارادته لله تعالى كان فاسداً إما بأن يكون معرضاً عن الله وعن ذكره غافلا عن ذلك مع تكذيب او بدون

تكذيب أو بأن يكون له ذكر وشعور ولكن قصده وارادته غيره لكون الذكر ضعيفاً لم يجتذب القلب الى ارادة الله ومحبته وعبادته والا فتى قوي علم القلب وذكره أوجب قصده وعلمه قال تعالى فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم فأمر نبيه بأن يعرض عمن كان معرضاً عن ذكر الله ولم يكن له مراد الا ما يكون في الدنيا وهذه حال من فسد قلبه ولم يذكر ربه ولم ينب اليه فيريد وجهه ويخلص له الدين ثم قال وذلك مبلغهم من العلم فأخبر انهم لم يحصل لهم علم فوق مايكون في الدنيافهي أكبر همهم ومبلغ علمهم وأما المؤمن فأكبر همه هو الله واليه انتهى علمه وذكره وهذا الآن باب واسع عظيم قد تكلمنا عليه في مواضعه واذا كان التوحيد أصل صلاح الناس والاشراك أصل فسادهم والقسط مقرون بالتوحيد إذ التوحيد أصل العدل وإرادة العلو مقرونة بالفساد إذ هو أصل الظلم فهذا مع هذا وهذا مع هذا كالملزوزين في قرن فالتوحيد وما يتبعه من الحسنات هو صلاح وعدل ولهذا كان

الرجل الصالح هو القائم بالواجبات وهو البر وهو
العدل والذنوب التي فيها تفريط أوعدوان في
حقوق الله تعالى وحقوق عباده وهي فساد وظلم
ولهذا سمي قطاع الطريق مفسدين وكانت
عقوبتهم حقا لله تعالى لاجتماع الوصفين والذي يريد العلو
على غيره من ابناء جنسه هو ظالم له باغ اذ ليس كونك عاليا
عليه باولى من كونه عاليا عليك وكلا كما من جنس واحد
فالقسط والعدل ان يكونوا اخوة كما وصف الله المؤمنين
بذلك والتوحيد وان كان أصل الصلاح فهو أعظم العدل
ولهذا قال تعالى قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء
بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ
بعضنا بعضاً اربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا
مسلمون ولهذا كان تخصيصه بالذكر في مثل قوله قل أمر
ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه
مخلصين له الدين لا يمنع أن يكون داخلا في القسط كما أن
ذكر العمل الصالح بعد الأيمان لا يمنع أن يكون داخلا في الايمان كما

في قوله وملائكته وجبريل وميكال ومن النبيين ميثاقهم ومنك هذا اذا قيل إن اسم الايمان يتناوله سواء قيل انه في مثل هذا يكون داخلا في الاول فيكون مذكوراً مرتين أو قيل بل عطفه عليه يقتضي انه ليس داخلا فيه هنا وان كان داخلا فيه منفرداً كما قيل مثل ذلك في لفظ الفقراء والمساكين وأمثال ذلك مما تتنوع دلالته بالافراد والاقتران لكن المقصود ان كل خير فهو داخل في القسط والعدل وكل شر فهو داخل في الظلم ولهذا كان العدل أمراً واجباً في كل شيء وعلى كل أحد والظلم محرماً في كل شيء ولكل أحد فلا يحل ظلم أحد أصلا سواء كان مسلماً أو كافراً أو كان ظالماً بل الظلم انما يباح أو يجب فيه العدل عليه أيضاً قال تعالى يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن «أي يحملنكم» شنآن أي بغض قوم وهم الكفار على عدم العدل» قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى وقال تعالى فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم وقال تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به

وقال تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها وقد دل على هـذا قوله في الحديث يا عبادي اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا فان هذا خطاب لجميع العباد ان لا يظلم أحد أحداً وأمر العالم في الشريعة مبني على هذا وهو العدل في الدماء والاموال والابضاع والانساب والاعراض ولهذا جاءت السنة بالقصاص في ذلك ومقابلة العادي بمثل فعله لكن المماثلة قد يكون علمها أو عملها متعذراً ومتعسراً ولهذا يكون الواجب ما يكون اقرب اليها بحسب الامكان ويقال هذا أمثل وهذا أشبه وهـذه الطريقة المثلى لما كان أمثل مما هو العدل والحق في نفس الامر اذ ذاك معجوز عنه ولهذا قال تعالى وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً الا وسعها فذكر أنه لم يكلف نفساً الا وسعها حين أمر بتوفية الكيل والميزان بالقسط لان الكيل لا بد له أن يتفضل احد المكيلين على الآخر ولو بحبة أو حبات وكذلك التفاضل في الميزان قد يحصل بشيء يسير لا يمكن الاحتراز منه فقال تعالى لا نكلف نفساً الا وسعها ولهـذا

كان القصاص مشروعاً اذا أمكن استيفاؤه من غير جنف كالاقتصاص في الجروح التي تنتهي الى عظم وفي الاعضاء التي تنتهي الى مفصل فاذا كان الجنف واقعاً في الاستيفاء عدل الى بدله وهو الدية لانه أشبه بالعدل من اتلاف زيادة في المقتص منه وهذه حجة من رأى من الفقهاء انه لا قوَد إلا بالسيف في العنق قال لان القتل بغير السيف وفي غير العنق لا نعلم فيه المماثلة بل قد يكون التحريق والتغريق والتوسيط ونحو ذلك أشد إيلاما لكن الذين قالوا يفعل به مثل ما فعل قولهم أقرب الى العدل فانه مع تحري التسوية بين الفعلين يكون العبد قد فعل ما يقدر عليه من العدل وما حصل من تفاوت الالم خارج عن قدرته وأما اذا قطع يديه ورجليه ثم وسطه فقوبل ذلك بضرب عنقه بالسيف أو رض رأسه بين حجرين فضرب بالسيف فهنا قد تيقنا عدم المعادلة والمماثلة وكنا قد فعلنا ما تيقنا انتفاء المماثلة فيه وانه يتعذر معه وجودها بخلاف الاول فان المماثلة قد تقع اذ التفاوت فيه غير متيقن وكذلك القصاص في الضربة واللطمة

ونحو ذلك عدل عنه طائفة من الفقهاء الى التعزير لعدم إمكان المماثلة فيه والذي عليه الخلفاء الراشدون وغيرهم من الصحابة وهو منصوص أحمد ما جاءت به سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثبوت القصاص به لان ذلك أقرب الى العدل والمماثلة فانا اذا تحرينا أن نفعل به من جنس فعله ونقرب القدر من القدر كان هذا أمثل من أن نأتي بجنس من العقوبة تخالف عقوبته جنسا وقدراً وصفة وهذا النظر أيضاً في ضمان الحيوان والعقار ونحو ذلك بمثله تقريبا أو بالقيمة كما نص أحمد على ذلك في مواضع ضمان الحيوان وغيره ونص عليه الشافعي فيمن خرب حائط غيره انه يبنيه كما كان وبهذا قضى سليمان عليه السلام في حكومة الحرث التي حكم فيها هو وأبوه كما قد بين ذلك في موضعه فجميع هذه الابواب المقصود للشريعة فيها تحري العدل بحسب الامكان وهو مقصود العلماء لكن أفهمهم من قال بما هو أشبه بالعدل في نفس الامر وان كان كل منهم قد أوتي علما وحكما لانه هو الذي أنزل الله به الكتب وأرسل

به الرسل وضده الظلم كما قال سبحانه ياعبادي اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ولما كان العدل لابد أن يتقدمه علم إذ من لا يعلم لايدري ما العدل والانسان ظالم جاهل إلا من تاب الله عليه فصار عالما عادلا صار الناس من القضاة وغيرهم ثلاثة أصناف العالم العادل والجاهل الظالم فهذان من أهل النار كما قال النبي صلى الله عليه وسلم القضاة ثلاثة قاضيان في النار وقاض في الجنة رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار فهذان القسمان كما قال من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ ومن قال في القرآن برأيه فأخطأ فليتبوأ مقعده من النار وكل من حكم بين اثنين فهو قاض سواء كان صاحب حرب أو متولي ديوان أو منتصباً للاحتساب بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى الذي يحكم بين الصبيان في الخطوط فان الصحابة كانوا يعدونه من الحكام ولما كان الحكام مأمورين بالعدل بالعلم وكان المفروض إنما هو بما

يبلغه جهد الرجل قال النبي صلى الله عليه وسلم اذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران واذا اجتهد فأخطأ فله أجر

(فصل) فلما ذكر في اول الحديث ما اوجبه من العدل وحرمه من الظلم على نفسه وعلى عباده ذكر بعد ذلك احسانه الى عباده مع غناه عنهم وفقرهم اليه وانهم لا يقدرون على جلب منفعة لانفسهم ولا دفع مضرة الا ان يكون هو الميسر لذلك وامر العباد ان يسألوه ذلك وأخبر انهم لا يقدرون على نفعه ولا ضره مع عظم ما يوصل اليهم من النعماء ويدفع عنهم من البلاء وجلب المنفعة ودفع المضرة اما ان يكون في الدين او في الدنيا فصارت أربعة اقسام الهداية والمغفرة وهما جلب المنفعة ودفع المضرة في الدين والطعام والكسوة وهما جلب المنفعة ودفع المضرة في الدنيا وان شئت قلت الهداية والمغفرة يتعلقان بالقلب الذي هو ملك البدن وهو الاصل في الاعمال الارادية والطعام والكسوة يتعلقان بالبدن الطعام لجلب منفعة واللباس لدفع مضرته وفتح الامر بالهداية فانها وان كانت الهداية النافعة هي المتعلقة بالدين فكل اعمال

الناس تابعة لهدى الله اياهم كما قال سبحانه سبح اسم ربك الاعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى وقال موسى ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى وقال تعالى وهديناه النجدين وقال انا هديناه السبيل اما شاكراً واما كفورا ولهذا قيل الهدى اربعة أقسام احدها الهداية الى مصالح الدنيا فهذا مشترك بين الحيوان الناطق والاعجم وبين المؤمن والكافر والثاني الهدى بمعنى دعاء الخلق الى ماينفعهم وأمرهم بذلك وهو نصب الادلة وارسال الرسل وانزال الكتب فهذا ايضاً يشترك فيه جميع المكلفين سواء آمنوا أو كفروا كما قال تعالى واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى وقال تعالى انما انت منذر ولكل قوم هاد وقال تعالى وانك لتهدي الى صراط مستقيم فهذا مع قوله انك لا تهدي من احببت يبين ان الهدى الذي أثبته هو البيان والدعاء والامر والنهي والتعليم وما يتبع ذلك ليس هو الهدى الذي نفاه وهو القسم الثالث الذي لا يقدر عليه الا الله والقسم الثالث الهدى الذي هو جعل الهدى في القلوب وهو الذي يسميه بعضهم بالالهام

والارشاد وبعضهم يقول هو خلق القدرة على الايمان كالتوفيق عندهم ونحو ذلك وهو بناء على ان الاستطاعة لا تكون الا مع الفعل فمن قال ذلك من أهل الاثبات جعل التوفيق والهدى ونحو ذلك خلق القدرة على الطاعة وأما من قال انهما استطاعتان احداهما قبل الفعل وهي الاستطاعة المشروطة في التكليف كما قال تعالى ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعمران بن حصين صل قائماً فان لم تستطع فقاعداً فان لم تستطع فعلى جنب وهذه الاستطاعة يقترن بها الفعل تارة والترك اخرى وهي الاستطاعة التي لم تعرف القدرية غيرها كما أن أولئك المخالفين لهم من أهل الاثبات لم يعرفوا الا المقارنة وأما الذي عليه المحققون من أئمة الفقه والحديث والكلام وغيرهم فاثبات النوعين جميعاً كما قد بسطناه في غير هذا الموضع فان الادلة الشرعية والعقلية تثبت النوعين جميعاً والثانية المقارنة للفعل وهي الموجبة له وهي المنفية عمن لم يفعل في مثل قوله ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون وفي قوله

لا يستطيعون سمعاً وهذا الهدى الذي يكثر ذكره في القرآن في مثل قوله اهدنا الصراط المستقيم وقوله فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً وفي قوله من يهدي الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً وأمثال ذلك وهذا هو لذي تنكر القدرية ان يكون الله هو الفاعل له ويزعمون ان العبد هو الذي يهدي نفسه وهذا الحديث وأمثاله حجة عليهم حيث قال يا عبادي كلكم ضال الا من هديته فاستهدوني اهدكم فامر العباد بان يسألوه الهداية كما أمرهم بذلك في أم الكتاب في قوله إهدنا الصراط المستقيم وعند القدرية ان الله لا يقدر من الهدى الا على ما فعله من إرسال الرسل ونصب الادلة وازاحة العلة ولا مزية عندهم للمؤمن على الكافر فى هداية الله تعالى ولا نعمة له على المؤمن اعظم من نعمته على الكافر في باب الهدى وقد بين الاختصاص في هذه بعد عموم الدعوة في قوله والله يدعو الى دار السلام ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم فقد جمع الحديث

تنزيهه عن الظلم الذي يجوزه عليه بعض المثبتة وبيان انه هو الذي يهدي عباده رداً على القدرية فاخبر هناك بعدله الذي يذكره بعض المثبتة واخبر هنا باحسانه وقدرته الذي تنكره القدرية وان كان كل منهما قصده تعظيماً لا يعرف ما اشتمل عليه قوله والقسم الرابع الهدى في الآخرة كما قال تعالى ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار يحلون فيها من اساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير وهدوا الى الطيب من القول وهدوا الى صراط الحميد وقال ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بأيمانهم تجري من تحتهم الانهار في جنات النعيم فقوله يهديهم ربهم بأيمانهم كقوله والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بأيمان الحقنا بهم ذريتهم وما التناهم من عملهم من شيء على احد القولين في الآية وهذا الهدى ثواب الاهتداء في الدنيا كما أن ضلال الآخرة جزاء ضلال الدنيا وكما أن قصد الشر في الدنيا جزاؤه الهدى الى طريق النار كما قال تعالى احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون

الله فاهدوهم الى صراط الجحيم وقال ومن كان في هذه أعمى
فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا وقال فاما يأتينكم مني هدى
فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري
فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم
حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا
فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وقال من يهدي الله فهو المهتد ومن
يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على
وجوههم عميا وبكما وصما الآية فاخبر أن الضالين في الدنيا
يحشرون يوم القيامة عميا وبكما وصما فان الجزاء ابداً من جنس
العمل كما قال صلى الله عليه وسلم الراحمون يرحمهم الرحمن
ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء وقال من سلك
طريقا يلتمس فيه علما سهل له الله به طريقا الى الجنة ومن
يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر
مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان
العبد في عون أخيه وقال من سئل عن علم يعلمه فكتمه
الجمه الله يوم القيامة بلجام من نار وقد قال تعالى وليعفوا

وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم وقال ان تبدوا خيرا
أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فان الله كان عفوا قديرا وأمثال
هذا كثير في الكتاب والسنة ولهذا أيضاً يجري الرجل في
الدنيا على مافعله من خير الهدى بما يفتح عليه من هدي
آخر ولهذا قيل من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم وقد
قال تعالى ولو انهم فعلوا مايوعظون به لكان خيراً لهم وأشد
تثبيتا الى قوله مستقيما وقال قد جاءكم من الله نور وكتاب
مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام وقال ياأيها
الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته
ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم وقال ان تتقوا الله
يجعل لكم فرقانا فسروه بالنصر والنجاة كقوله يوم الفرقان
وقد قيل نور يفرق به بين الحق والباطل ومثله قوله ومن
يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب وعد
المتقين بالمخارج من الضيق وبرزق المنافع ومن هذا الباب
قوله والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم وقوله انهم
فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ومنه قوله انا فتحنالك فتحامبينا

ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك الله نصراً عزيزاً . وبإزاء ذلك أن الضلال والمعاصي تكون بسبب الذنوب المتقدمة كما قال الله (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم وقالوا قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم . وقال فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية . وقال واقسموا بالله جهد أيمانهم الى قوله لايؤمنون الى قوله يعمهون وهذا باب واسع ولهذا قال من قال من السلف ان من ثواب الحسنة الحسنة بعدها وان من عقوبة السيئة السيئة بعدها وقد شاع في لسان العامة أن قوله اتقوا الله ويعلمكم الله . من الباب الاول حيث يستدلون بذلك على أن التقوى سبب تعليم الله وأ كثر الفضلاء يطعنون في هـذه الدلالة لانه لم يربط الفعل الثاني بالاول ربط الجزاء بالشرط فلم يقل واتقوا الله ويعلمكم ولا قال فيعلمكم وانما أتى بواو العطف وليس من العطف مايقتضي أن الاول سبب الثاني وقد يقال العطف قد يتضمن معنى الاقتران والتلازم كما يقال زرني، وأزورك وسلم علينا ونسلم عليك ونحو ذلك

مما يقتضي اقتران الفعلين والتعاوض من الطرفين كما لو قال لسيده اعتقني ولك علي الف أو قالت المرأة لزوجها طلقني ولك الف أو اخلعنى ولك الف فان ذلك بمنزلة قولها بألف أو علي ألف وكذلك أيضاً لو قال انت حر وعليك الف أو انت طالق وعليك الف فانه كقوله علي الف أو بألف عند جمهور الفقهاء والفرق بينهما قول شاذ ويقول أحد المتعاوضين للآخر أعطيك هذا وآخذ هذا ونحو ذلك من العبارات فيقول الآخر نعم وان لم يكن أحدهما هو السبب للآخر دون العكس فقوله واتقوا الله ويعلمكم الله. قد يكون من هذا الباب فكل من تعليم الرب وتقوى العبد يقارب الآخر ويلازمه ويقتضيه فمتى علمه الله العلم النافع اقترن به التقوى بحسب ذلك ومتى اتقاه زاده من العلم وهلم جرا

(فصل) وأما قوله ياعبادي كلكم جائع الا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم وكلكم عار الا من كسوته فاستكسوني إكسكم. فيقتضي أصلين عظيمين أحدهما وجوب التوكل على الله في الرزق المتضمن جلب المنفعة كالطعام ودفع المضرة

كاللباس وانه لايقدر غير الله على الاطعام والكسوة قدرة مطلقة وإنما القدرة التي تحصل لبعض العباد تكون على بعض أسباب ذلك ولهذا قال وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف وقال ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها واكسوهم. فالمأمور به هو المقدور للعباد وكذلك قوله أو اطعام في يوم ذي مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة وقوله فاطعموا القانع والمعتر وقوله وكلوا منها واطعموا البائس الفقير وقال واذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا انطعم من لو يشاء الله أطعمه. فذم من يترك المأمور به اكتفاء بما يجري به القدر ومن هنا يعرف ان السبب المأمور به أو المباح لا ينافي وجوب التوكل على الله في وجود السبب بل الحاجة والفقر الى الله ثابتة مع فعل السبب إذ ليس في المخلوقات ما هو وحده سبب تام لحصول المطلوب ولهذا لا يجب ان تقترن الحوادث بما قد يجعل سبباً الا بمشيئة الله تعالى فانه ما شاء الله كان وما لم

يشأ لم يكن فمن ظن الاستغناء بالسبب عن التوكل فقد ترك
ما أوجب الله عليه من التوكل وأخل بواجب التوحيد ولهذا
يخذل امثال هؤلاء اذا اعتمدوا على الاسباب فمن رجا نصراً
أو رزقاً من غير الله خذله الله كما قال علي رضي الله عنه
لا يرجونّ عبد الا ربه ولا يخافنّ الا ذنبه وقد قال تعالى
ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا
مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم وقال تعالى وان
يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير
فلا رادّ لفضله يصيب به من يشاء من عباده وقال قل أرأيتم
ما تدعون من دون الله ان أرادني الله بضر هل هن كاشفات
ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي
الله عليه يتوكل المتوكلون . وهذا كما ان من أخذ يدخل في
التوكل تاركاً لما أمر به من الاسباب فهو أيضاً جاهل ظالم
عاص لله بترك ما أمره فان فعل المأمور به عبادة لله وقد
قال تعالى فاعبده وتوكل عليه وقال إياك نعبد وإياك نستعين
وقال قل هو ربي لا اله إلا هو عليه توكلت واليه متاب

وقال شعيب عليه السلام عليه توكلت واليه أنيب وقال وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت واليه أنيب وقال قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم انا برءآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده الا قول ابراهيم لابيه لاستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير. فليس من فعل شيئاً أمر به وترك ما أمر به من التوكل بأعظم ذنباً ممن فعل توكلا أمر به وترك فعل ما أمر به من السبب إذ كلاهما مخل ببعض ما وجب عليه وهما مع اشتراكهما في جنس الذنب فقد يكون هذا ألوم وقد يكون الآخر مع أن التوكل في الحقيقة من جملة الاسباب وقد روى أبو داود في سننه أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى بين رجلين فقال المقضي عليه حسبي الله ونعم الوكيل فقال النبي صلى الله عليه وسلم ان الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس فان غلبك أمر فقل

حسبي الله ونعم الوكيل وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال المؤمن القوي خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز فان أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فان اللوم يفتح عمل الشيطان ففي قوله صلى الله عليه وسلم احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز أمر بالتسبب المأمور به وهو الحرص على المنافع وأمر مع ذلك بالتوكل وهو الاستعانة بالله فمن اكتفى باحدهما فقد عصى أحد الامرين ونهى عن العجز الذي هو ضد الكيس كما قال في الحديث الآخر ان الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس وكما في الحديث الشامي الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله فالعاجز في الحديث مقابل الكيس ومن قال العاجز الذي هو مقابل البر فقد حرف الحديث ولم يفهم معناه ومنه الحديث كل شيء بقدر حتى العجز والكيس

ومن ذلك ما روى البخارى في صحيحه عن ابن عباس قال
كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون يقولون نحن المتوكلون
فاذا قدموا سألوا الناس فقال الله تعالى وتزودوا فان خير
الزاد التقوى فمن فعل ما أمر به من التزود فاستعان به على
طاعة الله وأحسن منه الى من يكون محتاجاً كان مطيعاً لله
في هذين الامرين بخلاف من ترك ذلك متلفتاً الى ازواد
الحجيج كلاً على الناس وان كان مع هذا قلبه غير ملتفت الى
معين فهو ملتفت الى الجملة لكن ان كان المتزود غير قائم بما
يجب عليه من التوكل على الله ومواساة المحتاج فقد يكون
في تركه لما أمر به من جنس هذا التارك للتزود المأمور به
وفي هذه النصوص بيان غلط طوائف طائفة تضعف أمر
السبب المأمور به فتعده نقصاً أو قدحاً في التوحيد والتوكل
وان تركه من كمال التوكل والتوحيد وهم في ذلك ملبوس
عليهم وقد يقترن بالغلط اتباع الهوى في اخلاد النفس الى
البطالة ولهذا تجد عامة هذا الضرب التاركين لما أمروا به
من الاسباب يتعلقون بأسباب دون ذلك فاما ان يعلقوا

قلوبهم بالخلق رغبة ورهبـة واما أن يتركوا لاجل ما تبتلوا له من الغلو في التوكل واجبات أو مستحبات انفع لهم من ذلك كمن يصرف همته في توكله الى شفاء مرضه بلا دواء أو نيل رزقه بلا سعي فقد يحصل ذلك لكن كان مباشرة الدواء الخفيف والسعي اليسير وصرف تلك الهمة والتوجه في عمل صالح انفع له بل قد يكون أوجب عليـه من تبتـله لهذا الامر اليسير الذي قدره درهم أو نحوه وفوق هؤلاء من يجعل التوكل والدعاء أيضاً نقصاً وانقطاعاً عن الخاصـة ظناً أن ملاحظة ما فرغ منه في القدر هو حال الخاصة وقد قال في هذا الحديث كلكم جائع الامن أطعمته فاستطعموني أطعمكم وقال فاستكسوني أكسكم وفي الطبراني أو غـيره عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ليسئل احدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله اذا انقطـع فانه ان لم ييسره لم يتيسر وهذا قد يلزمه ان يجعل أيضاً استهداء الله وعمله بطاعته من ذلك. وقولهم يوجب دفع المأمور به مطلقاً بل دفع المخلوق والمأمور وانما غلطوا من حيث ظنوا سبق التقدير يمنع أن

يكون بالسبب المأمور به كمن يتزندق فيترك الاعمال الواجبة بناء على ان القدر قد سبق بأهل السعادة وأهل الشقاوة ولم يعلم أن القدر سبق بالامور على ما هي عليه فمن قدره الله من أهل السعادة كان مما قدره الله بتيسيره لعمل أهل السعادة ومن قدره من أهل الشقاء كان مما قدره انه ييسره لعمل أهل الشقاء كما قد أجاب النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا السؤال في حديث علي بن أبي طالب وعمران بن حصين وسراقة بن جعشم وغيرهم ومنه حديث الترمذي حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان عن الزهري عن أبي خزامة عن أبيه قال سألت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها ورقى نسترقي بها وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً فقال هي من قدر الله وطائفة تظن ان التوكل انما هو من مقامات الخاصة المتقربين الى الله بالنوافل وكذلك قولهم في أعمال القلوب وتوابعها كالحب والرجاء والخوف والشكر ونحو ذلك وهذا ضلال مبين بل جميع هذه الامور فروض على الاعيان باتفاق أهل الايمان

ومن تركها بالكلية فهو اما كافر واما منافق لكن الناس هم فيها كما هم في الاعمال الظاهرة فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ونصوص الكتاب والسنة طافحة بذلك وليس هؤلاء المعرضون عن هذه الامور علماً وعملا بأقل لوماً من التاركين لما أمروا به من أعمال ظاهرة مع تلبسهم ببعض هذه الاعمال بل استحقاق الذم والعقاب يتوجه الى من ترك المأمور من الامور الباطنة والظاهرة وان كانت الامور الباطنة مبتدأ الامور الظاهرة وأصولها والامور الظاهرة كمالها وفروعها التي لا تتم الا بها .

(فصل) وأما قوله ياعبادي انكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً وفي رواية وأنا أغفر الذنوب ولا أبالي فاستغفروني أغفر لكم فالمغفرة العامة لجميع الذنوب نوعان أحدهما المغفرة لمن تاب كما في قوله تعالى قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله الى قوله ثم لا تنصرون فهذا السياق مع سبب نزول الآية يبين أن المعنى لاييأس مذنب من مغفرة الله ولو كانت ذنوبه ما كانت

فان الله سبحانه لا يتعاظمه ذنب ان يغفره لعبده التائب وقد
دخل في هذا العموم الشرك وغيره من الذنوب فان الله
تعالى يغفر ذلك لمن تاب منه قال تعالى فاذا انسلخ الاشهر
الحرم فاقتلوا المشركين الى قوله فان تابوا وأقاموا الصلاة
وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم وقال في الآية الاخرى فان
تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم في الدين وقال
لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة الى قوله أفلا يتوبون
الى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم وهذا القول الجامع
بالمغفرة لكل ذنب للتائب منه كما دل عليه القرآن والحديث
هو الصواب عند جماهير أهل العلم وان كان من الناس من
يستثني بعض الذنوب كقول بعضهم ان توبة الداعية الى
البدع لا تقبل باطناً للحديث الاسرائيلي الذي فيه فكيف
من أضللت وهذا غلط فان الله قد بين في كتابه وسنة رسوله
انه يتوب على أئمة الكفر الذين هم أعظم من أئمة البدع وقد
قال تعالى ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم
عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق قال الحسن البصري انظروا

الى هذا الكرم عذبوا أولياءه وفتنوهم ثم هو يدعوهم الى التوبة وكذلك توبة القاتل ونحوه وحديث أبي سعيد المتفق عليه في الذي قتل تسعة وتسعين نفساً يدل على قبول توبته وليس في الكتاب والسنة ماينافي ذلك ولا نصوص الوعيد فيه وفي غيره من الكبائر بمنافية لنصوص قبول التوبة فليست آية الفرقان بمنسوخة بآية النساء اذ لا منافاة بينهما فانه قد علم يقيناً أن كل ذنب فيه وعيد فان لحوق الوعيد مشروط بعدم التوبة اذ نصوص التوبة مبنية لتلك النصوص كالوعيد في الشرك واكل الربا واكل مال اليتيم والسحر وغير ذلك من الذنوب ومن قال من العلماء توبته غير مقبولة فحقيقة قوله التي تلائم أصول الشريعة أن يراد بذلك أن التوبة المجردة تسقط حق الله من العقاب وأما حق المظلوم فلا يسقط بمجرد التوبة وهذا حق ولا فرق في ذلك بين القاتل وسائر الظالمين فمن تاب من ظلم لم يسقط بتوبته حق المظلوم لكن من تمام توبته أن يعوضه بمثل مظلمته وان لم يعوضه في الدنيا فلا بد له من العوض في الآخرة فينبغي للظالم التائب

أن يستكثر من الحسنات حتى اذا استوفى المظلومون حقوقهم لم يبق مفلسا ومع هذا فاذا شاء الله أن يعوض المظلوم من عنده فلا راد لفضله كما اذا شاء أن يغفر مادون الشرك لمن يشاء ولهذا فى حديث القصاص الذى ركب فيه جابر بن عبد الله الى عبدالله بن أنيس شهراً حتى شافهه به وقد رواه الامام احمد وغيره واستشهد به البخاري في صحيحه وهو من جنس حديث الترمذي صحاحه أو حسانه قال فيه اذا كان يوم القيامة فان الله يجمع الخلائق في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب انا الملك انا الديان لا ينبغي لاحد من اهل الجنة أن يدخل الجنة ولا لاحد من اهل النار قبله مظلمة ولا ينبغي لاحد من اهل النار أن يدخل النار ولا لاحد من اهل الجنة حتى أقصه منه فبين في الحديث العدل والقصاص بين اهل الجنة واهل النار وفي صحيح مسلم من حديث ابي سعيد أن اهل الجنة اذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض فاذا هذبوا ونقوا اذن لهم

في دخول الجنة وقد قال سبحانه لما قال ولا يغتب بعضكم بعضا. والاغتياب من ظلم الاعراض قال أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم. فقد نبههم على التوبة من الاغتياب وهو من الظلم وفي الحديث الصحيح من كان عنده لاخيه مظلمة في دم أومال أو عرض فليأته فليستحل منه قبل أن يأتي يوم ليس فيه درهم ولا دينار الا الحسنات والسيئات فان كان له حسنات والا أخذ من سيئات صاحبه فطرحت عليه ثم يلقى في النار أوكما قال وهذا فيما علمه المظلوم من العوض فاما اذا اغتابه أو قذفه ولم يعلم بذلك فقد قيل من شرط توبته اعلامه وقيل لايشترط ذلك وهذا قول الا كثرين وهما روايتان عن احمد لكن قوله مثل هذا أن يفعل مع المظلوم حسنات كالدعاء له والاستغفار وعمل صالح يهدي اليه يقوم مقام اغتيابه وقذفه قال الحسن البصري كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته وأما الذنوب التي يطلق الفقهاء فيها نفي قبول التوبة مثل قول اكثرهم لاتقبل توبة الزنديق وهو المنافق وقولهم اذا تاب

المحارب قبل القدرة عليه تسقط عنه حدود الله وكذلك قول
كثير منهم أو اكثرهم في سائر الجرائم كما هو أحد قولى
الشافعي وأصح الروايتين عن احمد وقولهم في هؤلاء اذا
تابوا بعد الرفع الى الامام لم تقبل توبتهم فهذا انما يريدون
به رفع العقوبة المشروعة عنهم أي لاتقبل توبتهم بحيث
يخلى بلا عقوبة بل يعاقب اما لان توبته غير معلومة الصحة
بل يظن به الكذب فيها واما لان رفع العقوبه بذلك يفضي
الى انتهاك المحارم وسد باب العقوبة على الجرائم ولا يريدون
بذلك أن من تاب من هؤلاء توبة صحيحة فان الله لايقبل
توبته في الباطن اذ ليس هذا قول أحد من أئمة الفقهاء بل
هذه التوبة لاتمنع الا اذا عاين أمر الآخرة كما قال تعالى
انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون
من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما
وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم
الموت قال اني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار
الآية قال ابو العالية سألت أصحاب محمد صلى الله عليه

وسلم عن ذلك فقالوا لي كل من عصى الله فهو جاهل وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب واما من تاب عند معاينة الموت فهذا كفرعون الذي قال الله فلما ادركه الغرق قال آمنت انه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل وانا من المسلمين قال الله الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين وهذا استفهام انكار بين به ان هذه التوبة ليست هي التوبة المقبولة المأمور بها فان استفهام الانكار إما بمعنى النفي اذ قابل الاخبار واما بمعنى الذم والنهي اذا قابل الانشاء وهذا من هذا ومثله قوله تعالى فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا. الآية بين ان التوبة بعد رؤية البأس لا تنفع وان هذه سنة الله التي قد خلت في عباده كفرعون وغيره وفي الحديث ان الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر وروي مالم يعاين وقد ثبت في الصحيحين انه صلى الله عليه وسلم عرض على عمه التوحيد في مرضه الذي مات

فيه وقد عاد يهودياً كان يخدمه فعرض عليه الاسلام فاسلم فقال الحمد لله الذي انقذه بي من النار ثم قال لاصحابه آووا اخاكم ومما يبين ان المغفرة العامة في الزمر هي للتائبين انه قال في سورة النساء ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فقيد المغفرة بما دون الشرك وعلقها على المشيئة وهناك اطلق وعمم فدل هذا التقييد والتعليق على ان هذا في حق غير التائب ولهذا استدل اهل السنة بهذه الآية على جواز المغفرة لاهل الكبائر في الجملة خلافاً لمن أوجب نفوذ الوعيد بهم من الخوارج والمعتزلة وان كان المخالفون لهم قد أسرف فريق منهم من المرجئة حتى توقفوا في لحوق الوعيد باحد من اهل القبلة كما يذكر عن غلاتهم انهم نفوه مطلقاً ودين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه ونصوص الكتاب والسنة مع اتفاق سلف الامة وائمتها متطابقة على ان من اهل الكبائر من يعذب وانه لا يبقى في النار من في قلبه مثقال ذرة من ايمان . النوع الثاني من المغفرة العامة التي دل عليها قوله يا عبادي انكم تخطئون بالليل والنهار وانا اغفر الذنوب

جميعاً ، المغفرة بمعنى تخفيف العذاب أو بمعنى تأخيره الى أجل مسمى وهذا عام مطلقاً ولهذا شفع النبي صلى الله عليه وسلم في أبي طالب مع موته على الشرك فنقل من غمرة من نار حتى جعل ضحضاح من نار في قدميه نعلان من نار يغلي منهما دماغه قال ولولا انا لكان في الدرك الاسفل من النار ، وعلى هذا المعنى دل قوله سبحانه ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ، ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ، وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير .

(فصل) واما قوله عز وجل يا عبادي انكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني فانه هو بين بذلك انه ليس هو فيما يحسن به اليهم من إجابة الدعوات وغفران الزلات بالمستعيض بذلك منهم جلب منفعة أو دفع مضرة كما هي عادة المخلوق الذي يعطي غيره نفعاً ليكافئه عليه بنفع أو يدفع عنه ضرراً ليتقي بذلك ضرره فقال انكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني ولن تبلغوا ضري فتضروني فلست

اذاً أجسكم بهداية المستهدي وكفاية المستكفي المستطم والمستكسي بالذي أطلب ان تنفعوني ولا أنا اذا غفرت خطايا كم بالليل والنهار أتقي بذلك ان تضروني فانكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني وان تبلغوا ضري فتضروني اذ هم عاجزون عن ذلك بل ما يقدرون عليه من الفعل لا يقدرون عليه الا بتقديره وتدبيره فكيف بما لا يقدرون عليه فكيف بالغني الصمد الذي يمتنع عليه أن يستحق من غيره نفعاً أو ضراً وهذا الكلام كما بين ان ما يفعله بهم من جلب المنافع ودفع المضار فانهم لن يبلغوا ان يفعلوا به مثل ذلك فكذلك يتضمن ان ما يأمرهم به من الطاعات وما ينهاهم عنه من السيئات فانه لا يتضمن استجلاب نفعهم كامر السيد لعبده أو الولد لولده والامير لرعيته ونحو ذلك ولا دفع مضرتهم كنهي هؤلاء أو غيرهم لبعض الناس عن مضرتهم فان المخلوقين يبلغ بعضهم نفع بعض ومضرة بعض وكانوا في أمرهم ونهيهم قد يكونون كذلك والخالق سبحانه مقدس عن ذلك فبين تنزيهه عن لحوق نفعهم وضرهم في احسانه

اليهم بما يكون من أفعاله بهم وأوامره لهم قال قتادة ان الله لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته اليهم ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلا به عليهم ولكن أمرهم بما فيه صلاحهم ونهاهم عما فيه فسادهم

﴿ فصل ﴾ ولهذا ذكر هذين الاصلين بعد هذا فذكر ان برهم وفجورهم الذي هو طاعتهم ومعصيتهم لا يزيد في ملكه ولا ينقص وان اعطاءه اياهم غاية مايسألونه نسبته الى ما عنده أدنى نسبة وهذا بخلاف الملوك وغيرهم ممن يزداد ملكه بطاعة الرعية وينقص ملكه بالمعصية واذا أعطى الناس ما يسألونه أنفد ما عنده ولم يغنهم وهم في ذلك يبلغون مضرته ومنفعته وهو يفعل ما يفعله من احسان وعفو وأمر ونهي لرجاء المنفعة وخوف المضرة فقال ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على اتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ياعبادي لو أن اولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً اذ ملكه وهو قدرته

على التصرف فلا تزداد بطاعتهم ولا تنقص بمعصيتهم كما تزداد قدرة الملوك بكثرة المطيعين لهم وتنقص بقلة المطيعين لهم فان ملكه متعلق بنفسه وهو خالق كل شيء وربه ومليكه وهو الذي يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء والملك قد يراد به القدرة على التصرف والتدبير ويراد به نفس التدبير والتصرف ويراد به المملوك نفسه الذي هو محل التدبير ويراد به ذلك كله وبكل حال فليس بر الابرار وفجور الفجار موجباً لزيادة شيء من ذلك ولا نقصه بل هو بمشيئته وقدرته يخلق ما يشاء فلو شاء ان يخلق مع فجور الفجار ما شاء لم يمنعه من ذلك مانع كما يمنع الملوك فجور رعاياهم التي تعارض أوامرهم عما يختارونه من ذلك ولو شاء ان لا يخلق مع بر الابرار شيئاً مما خلقه لم يكن برهم محوجاً له الى ذلك ولا معيناً له كما يحتاج الملوك ويستعينون بكثرة الرعايا المطيعين

(فصل) ثم ذكر حالهم في النوعين سؤال بره وطاعة أمره اللذين ذكرهما في الحديث حيث ذكر الاستهداء

والاستطعام والاستكساء وذكر الغفران والبر والفجور فقال لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل انسان منهم مسئلته ما نقص ذلك مما عندي الا كما ينقص المخيط اذا دخل البحر والخياط والمخيط ما يخاط به اذ الفعال والمفعل والمفعال من صيغ الآلات التي يفعل بها كالمسعر والحلاب والميشارفبين ان جميع الخلائق اذا سألوا وهم في مكان واحد وزمان واحد فاعطى كل انسان منهم مسئلته لم ينقصه ذلك مما عنده الا كما ينقص الخياط وهي الابرة اذا غمس في البحر وقوله لم ينقص مما عندي فيه قولان احدهما انه يدل على أن عنده أموراً موجودة يعطيهم منها ما سألوه اياه وعلى هذا فيقال لفظ النقص على حاله لان الاعطاء من الكثير وان كان قليلا فلا بد ان ينقصه شيئاً ما ومن رواه لم ينقص من ملكي يحمل على ما عنده كما في هذا اللفظ فان قوله مما عندي فيه تخصيص ليس هو في قوله من ملكي وقد يقال المعطى اما ان يكون اعيانا قائمة بنفسها أو صفات قائمة بغيرها فاما الاعيان

فقد تنقل من محل الى محل فيظهر النقص في المحل الأول
واما الصفات فلا تنقل من محلها وان وجد نظيرها في محل
آخر كما يوجد نظير علم المعلم في قلب المتعلم من غير زوال
علم المعلم وكما يتكلم المتكلم بكلام المتكلم قبله من غير انتقال
كلام المتكلم الاول الى الثاني وعلى هذا فالصفات لا تنقص
مما عنده شيئاً وهي من المسؤول كالهدى وقد يجاب عن
هذا بانه هو من الممكن في بعض الصفات أن لا يثبت
مثلها في المحل الثاني حتى تزول عن الاول كاللون الذي
ينقص وكالروائح التي تعبق بمكان وتزول كما دعا النبي صلى
الله عليه وسلم على حمى المدينة ان تنقل الى مهيعة وهي الجحفة
وهل مثل هذا الانتقال بانتقال عين العرض الاول أو بوجود
مثله من غير انتقال عينه فيه للناس قولان اذ منهم من يجوز
انتقال الاعراض بل من يجوز ان تجعل الاعراض اعياناً
كما هو قول ضرار والنجار واصحابهما كبرغوث وحفص
الفرد لكن ان قيل هو بوجود مثله من غير انتقال عينه
فذلك يكون مع استحالة العرض الاول وفنائه فيعدم

عن ذلك المحل ويوجد مثله في المحل الثاني والقول الثاني أن لفظ النقص هنا كلفظ النقص في حديث موسى والخضر الذي في الصحيحين من حديث ابن عباس عن ابي ابن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم وفيه أن الخضر قال لموسى لما وقع عصفور على قارب السفينة فنقر في البحر فقال ياموسى مانقص علمي وعلمك من علم الله الا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر ومن المعلوم أن نفس علم الله القائم بنفسه لايزول منه شيء بتعلم العباد وانما المقصود أن نسبة علمي وعلمك الى علم الله كنسبة ماعلق بمنقار العصفور الى البحر ومن هذا الباب كون العلم يورث كقوله العلماء ورثة الانبياء ومنه قوله وورث سليمان داود ومنه توريث الكتاب أيضاً كقوله ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ومثل هذه العبارة من النقص ونحوه تستعمل في هذا وان كان العلم الاول ثابتاً كما قال سعيد بن المسيب لقتادة وقد أقام عنده سبوعاً سأله فيه مسائل عظيمة حتى عجب من حفظه وقال نزفتني يا اعمى وانزاف القليب ونحوه هو رفع مافيه بحيث

لايبقى فيه شيء ومعلوم أن قتادة لو تعلم جميع علم سعيد لم يزل علمه من قلبه كما يزول الماء من القليب لكن قد يقال التعليم انما يكون بالكلام والكلام يحتاج الى حركة وغيرها مما يكون بالمحل ويزول عنه ولهذا يوصف بأنه يخرج من المتكلم كما قال تعالى كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون الا كذبا . ويقال قد أخرج العالم هذا الحديث ولم يخرج هذا فاذا كان تعليم العلم بالكلام المستلزم زوال بعض مايقوم بالمحل وهذا نزيف وخروج كان كلام سعيد بن المسيب على حقيقته ومضمونه انه في تلك السبع الليالى من كثرة ما أجابه وكلمه ففارقه أمور قامت به من حركات وأصوات بل ومن صفات قائمة بالنفس كان ذلك نزيفاً ومما يقوي هذا المعنى أن الانسان وان كان علمه في نفسه فليس هو أمراً لازماً للنفس لزوم الالوان للمتلونات بل قد يذهل الانسان عنه ويغفل وقد ينساه ثم يذكره فهو شيء يحضر تارة ويغيب أخرى واذا تكلم به الانسان وعلمه فقد تكل النفس وتعي حتى لايقوى على استحضاره الا بعد مدة

فتكون في تلك الحال خالية عن كمال تحققه واستحضاره الذي يكون به العالم عالمًا بالفعل وان لم يكن نفس ما زال هو بعينه القائم في نفس السائل والمستمع ومن قال هذا يقول كون التعليم يرسخ العلم من وجه لا ينافي ماذكرناه واذا كان مثل هذا النقص والنزيف معقولا في علم العباد كان استعمال لفظ النقص في علم الله بناء على اللغة المعتادة في مثل ذلك وان كان هو سبحانه منزهاً عن اتصافه بضد العلم بوجه من الوجوه أو عن زوال علمه عنه لكن في قيام أفعال به وحركات نزاع بين الناس من المسلمين وغيرهم وتحقيق الامر ان المراد ما أخذ علمي وعلمك من علم الله وما نال علمي وعلمك من علم الله وما أحاط علمي وعلمك من علم الله كما قال ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء الا كما نقص أو أخذ أو نال هذا العصفور من هذا البحر أي نسبة هذا الى هذا كنسبة هذا الى هذا وان كان المشبه به جسما ينتقل من محل الى محل ويزول عن المحل الاول وليس المشبه كذلك فان هذا الفرق هو فرق ظاهر يعلمه المستمع من غير التباس كما

قال صلى الله عليه وسلم انكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر فشبه الرؤية بالرؤية وهي وان كانت متعلقة بالمرئي في الرؤية المشبهة والرؤية المشبه بها لكن قد علم المستمعون ان المرئي ليس مثل المرئي فكذلك هنا شبه النقص بالنقص وان كان كل من الناقص والمنقوص والمنقوص منه المشبه ليس مثل الناقص والمنقوص والمنقوص منه المشبه به ولهذا كل أحد يعلم ان المعلم لا يزول علمه بالتعليم بل يشبهونه بضوء السراج الذي يحدث يقتبس منه كل أحد ويأخذون ما شاءوا من الشهب وهو باق بحاله وهذا تمثيل مطابق فان المستوقد من السراج يحدث الله في فتيلته أو وقوده ناراً من جنس تلك النار وان كان قد يقال انها تستحيل عن ذلك الهواء مع ان النار الاولى باقية . كذلك المتعلم يجعل في قلبه مثل علم المعلم مع بقاء علم المعلم ولهذا قال علي رضي الله عنه العلم يزكو على العمل أو قال على التعليم والمال ينقصه النفقة وعلى هذا فيقال في حديث أبي ذر ان قوله مما عندي وقوله من ملكي هو من هذا الباب وحينئذ فله وجهان

أحدهما ان يكون ما أعطاهم خارجاً عن مسمى ملكه ومسمى ما عنده كما ان علم الله لايدخل فيه نفس علم موسى والخضر والثاني أن يقال بل لفظ الملك وما عنده يتناول كل شيء وما أعطاهم فهو جزء من ملكه ومما عنده ولكن نسبت الى الجملة هذه النسبة الحقيرة ومما يحقق هذا القول الثاني ان الترمذي روى هذا الحديث من طريق عبد الرحمن بن غنم عن أبي ذر مرفوعاً فيه لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم ورطبكم ويابسكم سألوني حتى تنتهي مسألة كل واحد منهم فأعطيتهم ما سألوني ما نقص ذلك مما عندي كمغرز إبرة لو غمسها أحدكم في البحر وذلك اني جواد ماجد واجد عطائي كلام وعذابي كلام انما أمري لشيء اذا أردته ان أقول له كن فيكون . فذكر سبحانه ان عطاءه كلام وعذابه كلام يدل على أنه هو أراد بقوله من ملكي ومما عندي أي من مقدوري فيكون هذا في القدرة كحديث الخضر في العلم والله أعلم ويؤيد ذلك ان في اللفظ الآخر الذي في نسخة أبي مسهر لم ينقص ذلك من ملكي شيئاً الا كما ينقص البحر وهذا قد يقال

فيه انه استثناء منقطع أي لم ينقص من ملكي شيئاً لكن يكون حاله حال هذه النسبة وقد يقال بل هو تام والمعنى على ما سبق

(فصل) ثم ختمه بتحقيق ما بينه فيه من عدله واحسانه فقال يا عبادي انما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه فبين انه محسن الى عباده في الجزاء على أعمالهم الصالحة احسانا يستحق به الحمد لانه هو المنعم بالامر بها والارشاد اليها والاعانة عليها ثم احصائها ثم توفية جزائها فكل ذلك فضل منه واحسان اذ كل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل وهو وان كان قد كتب على نفسه الرحمة وكان حقاً عليه نصر المؤمنين كما تقدم بيانه فليس وجوب ذلك كوجوب حقوق الناس بعضهم على بعض الذي يكون عدلا لا فضلا لان ذلك انما يكون لكون بعض الناس أحسن الى البعض فاستحق المعاوضة وكان احسانه اليه بقدرة المحسن دون المحسن اليه ولهذا لم يكن المتعاوضان ليخص أحدهما

بالتفضل على الآخر لتكافئهما وهو قد بين في الحديث أن العباد لم يبلغوا ضره فيضروه ولن يبلغوا نفعه فينفعوه فامتنع حينئذ أن يكون لأحد من جهة نفسه عليه حق بل هو الذي أحق الحق على نفسه بكلماته فهو المحسن بالاحسان وباحقاقه وكتابته على نفسه فهو في كتابة الرحمة على نفسه واحقاقه نصر عباده المؤمنين ونحو ذلك محسن احسانا مع إحسان فليتدبر اللبيب هذه التفاصيل التي يتبين بها فصل الخطاب في هذه المواضع التي عظم فيها الاضطراب فمن بين موجب على ربه بالمنع ان يكون محسنا متفضلا ومن بين مسو بين عدله وإحسانه وما تنزه عنه من الظلم والعدوان وجاعل الجميع نوعاً واحداً وكل ذلك حيد عن سنن الصراط المستقيم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل وكما بين انه محسن في الحسنات متم إحسانه باحصائها والجزاء عليها بين انه عادل في الجزاء على السيئات فقال ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه كما تقدم بيانه في مثل قوله وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم وعلى هذا الاصل استقرت الشريعة الموافقة

لفطرة الله التي فطر الناس عليها كما في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري عن شداد بن أوس عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال سيد الاستغفار ان يقول العبد اللهم أنت ربي لا اله الا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فانه لا يغفر الذنوب الا أنت ففي قوله أبوء لك بنعمتك علي اعتراف بنعمته عليه في الحسنات وغيرها وقوله وأبوء بذنبي اعتراف منه بأنه مذنب ظالم لنفسه وبهذا يصير العبد شكوراً لربه مستغفراً لذنبه فيستوجب مزيد الخير وغفران الشر من الشكور الغفور الذي يشكر اليسير من العمل ويغفر الكثير من الزلل وهنا انقسم الناس ثلاثة أقسام في إضافة الحسنات والسيئات التي هي الطاعات والمعاصي الى ربهم والى نفوسهم فشرهم الذي اذا اساء اضاف ذلك الى القدر واعتذر بان القدر سبق بذلك وانه لا خروج له عن القدر فركب الحجة على ربه في ظلمه لنفسه وان احسن اضاف ذلك الى نفسه ونسي نعمة الله عليه في تيسيره لليسرى

وهذا ليس مذهب طائفة من بني آدم ولكنه حال شرار الجاهلين الظالمين الذي لا حفظوا حدود الامر والنهي ولا شهدوا حقيقة القضاء والقدر كما قال فيهم الشيخ ابو الفرج بن الجوزي انت عند الطاعة قدري وعند المعصية جبري اي مذهب وافق هواك تمذهبت به وخير الاقسام وهو القسم المشروع وهو الحق الذي جاءت به الشريعة انه اذا احسن شكر نعمة الله عليه وحمده اذا انعم عليه بان جعله محسناً ولم يجعله مسيئاً فانه فقير محتاج في ذاته وصفاته وجميع حركاته وسكناته الى ربه ولا حول ولا قوة الا به فلو لم يهده لم يهتد كما قال اهل الجنة الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق. واذا اساء اعترف بذنبه واستغفر ربه وتاب منه وكان كابيه آدم الذى قال ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين. ولم يكن كابليس الذي قال فبما اغويتني لازينن لهم في الارض ولاغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين. ولم يحتج بالقدر على ترك مأمور ولا فعل محظور

مع ايمانه بالقـدر خيره وشره وان الله خالق كل شئ وربه ومليكه وانه ما شاء الله كان وما لم يشاء لم يكن وانه يهدي من يشاء ويضل من يشاء ونحو ذلك وهؤلاء هم الذين اطاعوا الله في قوله في هذا الحديث الصحيح فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه ولكن بسط ذلك وتحقيق نسبة الذنب الى النفس مع العلم بان الله خالق افعال العباد فيه اسرار ليس هذا موضعها ومع هـذا فقوله تعالى (وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عنـد الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حـديثاً ما اصابك من حسنة فمن الله وما اصابك من سيئة فمن نفسك) ليس المراد بالحسنات والسيئات في هذه الآية الطاعة والمعاصي كما يظنه كثير من الناس حتى يحرف بعضهم القرآن ويقرأ فمن نفسك ومعلوم أن معنى هذه القراءة يناقض القراءة المتواترة وحتى يضمر بعضهم القول على وجه الانكار له وهو قول الله الحق

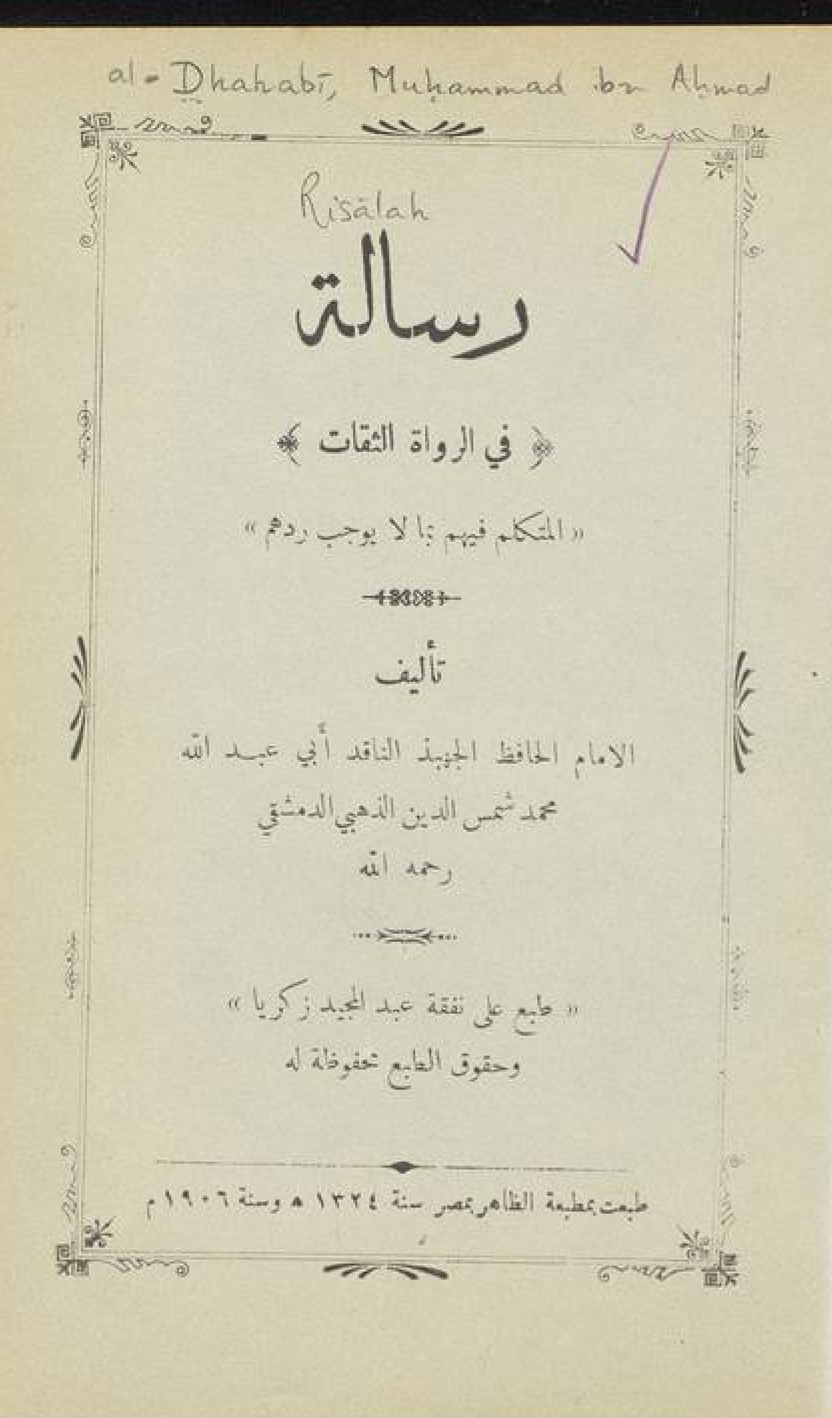
فيجعل قول الله الصدق الذي يحمد ويرضى قولا للكفار يكذب به ويذم ويسخط بالاضمار الباطل الذي يدعيه من غير أن يكون في السياق مايدل عليه ثم ان من جهل هؤلاء ظنهم أن في هذه الآية حجة للقدرية واحتجاج بعض القدرية بها وذلك انه لاخلاف بين الناس في أن الطاعات والمعاصي سواء من جهة القدر، فمن قال ان العبد هو الموجد لفعله دون الله أو هو الخالق لفعله وأن الله لم يخلق أفعال العباد فلا فرق عنده بين الطاعة والمعصية، ومن أثبت خلق الافعال وأثبت الجبر أو نفاه أو أمسك عن نفيه واثباته مطلقاً وفصل المعنى أو لم يفصله فلا فرق عنده بين الطاعة والمعصية فتبين أن ادخال هذه الآية في القدر في غاية الجهالة وذلك أن الحسنات والسيئات في الآية المراد به المسار والمضار دون الطاعات والمعاصي كما في قوله تعالى (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) وهو الشر والخير في قوله (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) وكذلك قوله (أن تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة

يفرحوا بها) وقوله تعالى ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء
مسته ليقولن ذهب السيئات عني وقوله تعالى (وما أرسلنا في
قرية من نبي الا أخذنا اهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون
ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس
آباءنا الضراء والسراء فاخذناهم بغتة وهم لا يشعرون
وقوله تعالى واذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وان تصبهم
سيئة يطيروا بموسى ومن معه) فهذه حال فرعون وملائه
مع موسى ومن معه كحال الكفار والمنافقين والظالمين مع
مع محمد واصحابه اذا اصابهم نعمة وخير قالوا لنا هذه أو قالو
هذه من عند الله وان أصابهم عذاب وشر تطيروا بالنبي
والمؤمنين وقالوا هذه بذنوبهم وانما هو بذنوب أنفسهم لا
بذنوب المؤمنين وهو سبحانه ذكر هذا في بيان حال الناكلين
عن الجهاد الذين يلومون المؤمنين على الجهاد فاذا أصابهم
نصر ونحوه قالوا هذا من عند الله وان أصابتهم محنة قالوا
هذه من عند هذا الذي جاءنا بالامر والنهي والجهاد قال الله

تعالى يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم الى قوله وان منكم
لمن ليبطئن الى قوله ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم
وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال اذا فريق
منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم
كتبت علينا القتال الى قوله أينما تكونوا يدرككم الموت)
وإن تصبهم حسنة هؤلاء المذمومون يقولوا هذه من عند الله
وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك أي بسبب أمرك
ونهيك قال الله تعالى (فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون
حديثاً ما أصابك من حسنة من نعمة فمن الله وما أصابك
من سيئة فمن نفسك أي فبذنبك كما قال وما أصابكم من
مصيبة فبما كسبت أيديكم وقال وان تصبهم سيئة بما قدمت
أيديهم . وأما القسم الثالث في هذا الباب فهم قوم لبسوا الحق
بالباطل وهم بين أهل الايمان أهل الخير وبين شرار الناس
وهم الخائضون في القدر بالباطل فقوم يرون انهم هم الذين
يهدون أنفسهم ويضلونها ويوجبون لها فعل الطاعة وفعل

المعصية بغير إعانة منه وتوفيق للطاعة ولا خذلان منه في المعصية وقوم لا يثبتون لانفسهم فعلا ولا قدرة ولا أمراً ثم من هؤلاء من يخل عن الامر والنهى فيكون أكفر الخلق وهم في احتجاجهم بالقدر متناقضون إذ لا بد من فعل يحبونه وفعل يبغضونه ولا بد لهم ولكل أحد من دفع الضرر الحاصل بأفعال المعتدين فاذا جعلوا الحسنات والسيئات سواء سيئة لم يمكنهم أن يذموا أحداً ولا يدفعوا ظالما ولا يقابلو مسيئاً وأن يبيحوا للناس من أنفسهم كل ما يشتهيه مشتهاه ونحو ذلك من الامور التي لا يعيش عليها بنو آدم اذ هم مضطرون الى شرع فيه أمر ونهي أعظم من اضطرارهم الى الاكل واللباس وهذا باب واسع لشرحه موضع غير هذا وانما نبهنا على ما في الحديث من الكلمات الجامعة والقواعد النافعة بنكت مختصرة تنبه الفاضل على مافي الحقائق من الجوامع والفوارق التي تفصل بين الحق والباطل في هذه المضايق بحسب ما احتملته أوراق السائل والله

ينفعنا وسائر اخواننا المؤمنين بما علمناه
ويعلمناماينفعنا ويزيدنا علما ولا
حول ولا قوة الا بالله ولا ملجأ
منه الا اليـــه له النعمة وله
الفضـل وله الثناء الحسن
واسـتغفر الله العظيم
لي ولجميـع اخواننا
المؤمنـين والحمـد
لله رب العالمين
وصلى الله على
محمد وآله
وسـلم
تسليما
م م
م



Risālah

رسالة

في الرواة الثقات

« المتكلم فيهم بما لا يوجب ردهم »

تأليف

الامام الحافظ الجهبذ الناقد أبي عبد الله
محمد شمس الدين الذهبي الدمشقي
رحمه الله

« طبع على نفقة عبد المجيد زكريا »

طبعت بمطبعة الظاهر بمصر سنة ١٣٢٤ ه وسنة ١٩٠٦ م

تاييس

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا فصل مفيد من كلام الامام الحافظ الناقد أبي عبدالله محمد بن الذهبي رحمه الله قال وقد كتبت في مصنفي الميزان عدداً كثيراً من الثقات الذين احتج خ اوم اوغيرهما بهم لكون الرجل منهم قد دون اسمه في مصنفات الجرح وما أوردتهم لضعف فيهم عندي بل ليعرف ذلك وما زال يمر بي الرجل الثبت وفيه مقال من لا يعبأ به ولو فتحنا هذا الباب على نفوسنا لدخل فيه عدة من الصحابة والتابعين والأئمة فبعض الصحابة كفر بعضهم بتأويل ما والله يرضى عن الكل ويغفر لهم فما هم بمعصومين وما اختلافهم ومحاربتهم بالتي تليّنهم عندنا أصلا وبتكفير الخوارج لهم انحطت رواياتهم بل صار كلام الخوارج والشيعة فيهم جرحا في الطاعنين فانظر الى حكمة ربك نسأل الله السلامة وهكذا كثير من كلام الاقران بعضهم

في بعض ينبغي أن يطوى ولا يروى ويطرح ولا يجعل طعناً ويعامل الرجل بالعدل والقسط وسوف أبسط فصلا في هذا المعنى يكون فصلا بين الجرح المعتبر وبين الجرح المردود ان شاء الله .

فاما الصحابة رضي الله عنهم فبساطهم مطوي وان جرى ما جرى وان غلطوا كما غلط غيرهم من الثقات فما يكاد يسلم أحد من الغلط لكنه غلط نادر لايضر ابداً اذ على عدالتهم وقبول مانقلوه العمل وبه ندين الله تعالى .

وأما التابعون فيكاد يعدم فيهم من يكذب عمداً ولكن لهم غلط وأوهام فمن ندر غلطه في جنب ما قد حمل احتمل ومن تعدد غلطه وكان من أوعية العلم اغتفر له أيضاً ونقل حديثه وعمل به على تردد بين الائمة الاثبات في الاحتجاج عمن هذا نعته كالحرث الاعور وعاصم بن ضمرة وصالح مولى التوأمة وعطاء بن السائب ونحوهم ومن فحش خطأه وكثر تفرده لم يحتج بحديثه ولا يكاد يقع ذلك في التابعين الاولين وتوجد ذلك في صغار التابعين فمن بعدهم

وأما أصحاب التابعين كمالك والاوزاعي وهذا الضرب فعلى المراتب المذكورة ووجد في عصرهم من يتعمد الكذب أو من كثر غلطه وغلظ تخبيطه فترك حديثه . هذا مالك هو النجم الهادي بين الامة وما سلم من الكلام فيه ولو قال قائل عند الاحتجاج بمالك فقد تكلم فيه لعزر وأهين وكذا الاوزاعي ثقة حجة وربما انفرد ووهم وحديثه عن الزهري فيه شيء ما وقد قال فيه احمد بن حنبل رأي ضعيف وحديث ضعيف وقد تكاف لمعنى هذه اللفظة وكذا تكلم من لا يفهم في الزهري لكونه خضب بالسواد ولبس زي الجند وخدم هشام بن عبد الملك وهذا باب واسع والماء اذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث والمؤمن اذا رجحت حسناته وقلت سيئاته فهو من المفلحين هذا ان لو كان ما قيل في الثقة الرضي مؤثراً فكيف وهو لا تأثير له

فنهم فضيل بن عياض ثقة بلا نزاع سيد قال احمد بن ابي خيثمة سمعت قطبة بن العلاء يقول تركت حديث فضيل بن عياض لانه روى أحاديث ازرى على عثمان بن عفان رضي الله

عنه وحدثنا عبد الصمد بن يزيد الصائغ قال ذكر عند الفضيل وأنا اسمع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال اتبعوا فقد كفيتم ابو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم قلت لا يقبل قول قطبة ومن هو قطبة حتى يسمع قوله واجتهاده فالفضيل روى ماسمع ولم يقصد غضاً ولا أزري على أمير المؤمنين عثمان ابن عفان رضي الله عنه فقعل مايسوغ افبمثل هذا يقول تركت حديثه فهو كما قيل (رمتني بدائها وانسلت) وقطبة قد قال خ فيه نظر وضعفه س وغيره وأما فضيل فاتقانه وثقته لا حاجة لذكر أقوال من اثنى عليه فانه رأس في العلم والعمل رحمه الله

محمد بن ادريس الامام الشافعي ممن سارت الركائب بفضائله ومعارفه وثقته وأمانته فهو حافظ متثبت نادر الغلط حتى ان أبا زرعة قال ماعند الشافعي حديث غلط فيه وقال ماأعلم للشافعي حديثاً خطأ وقال أبو عمر بن عبد البر روينا عن محمد بن وضاح قال سألت يحيى بن معين عن الشافعي فقال ليس بثقة ثم قال يعني ابن عبد البر ابن وضاح ليس بثقة قال ابن عبد البر أيضاً قد صح من طرق عن ابن معين انه يتكلم في الشافعي قلت قد

آذى ابن معين نفسه بذلك ولم يلتفت الناس الى كلامه في الشافعي ولا الى كلامه في جماعة من الاثبات كما لم يلتفتوا الى توثيقه لبعض الناس فانا نقبل قوله دائما في الجرح والتعديل ونقدمه على كثير من الحفاظ ما لم يخالف الجمهور في اجتهاده فاذا انفرد بتوثيق من لينه الجمهور أو بتضعيف من وثقه الجمهور وقبلوه فالحكم لعموم أقوال الائمة لا لمن شذ فان ابا زكريا من أحد ائمة هذا الشأن وكلامه كثير الى الغاية في الرجال وغالبه صواب وجيد وقد ينفرد بالكلام في الرجل بعد الرجل فيلوح خطأوه في اجتهاده بما قلناه فانه بشر من البشر وليس بمعصوم بل هو في نفسه يوثق الشيخ تارة ويلينه تارة يختلف اجتهاده في الرجل الواحد فيجيب السائل بحسب ما اجتهد من القول في ذلك الوقت قال المؤلف رحمه الله تعالى وكلامه يعني ابن معين في الشافعي ليس من هذا اللفظ الذي كان عن اجتهاد وانما هذا من فلتات اللسان بالهوى والعصبية فان ابن معين كان من الحنفية الغلاة في مذهبه وان كان محدثاً وكذا قول الحافظ ابي حامد بن الشرقي كان يحيى بن معين وابو عبيد

سيئآ الرأي في الشافعي فصدق والله ابن الشرقي اساءآ في ذاتهما في عالم زمانه وكذا قول احمد بن عبد الله في الامام ابي عبدالله هو ثقة صاحب رأي ليس عنده حديث وكان يتشيع فكان العجلي يوهم في الامام ابي عبد الله التشيع لقوله .

ان كان رفضاحب آل محمد　　فليشهد الثقلان اني رافضي

وكذا تكلم فيه بالتشيع بعض أعدائه من كبار المالكية لموافقته الشيعة في مسائل فروعية أصابوا فيها ولم يبدعوا بها كالجهر بالبسملة والقنوت في الصبح والتختم في اليمين وهذا قلة ورع وتسرع الى الكلام في الامام فالشافعي رحمه الله أبعد شيء من التشيع كيف وهو القائل فيما ثبت عنه الخلفاء الراشدون خمسة ابو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز افشيعي يقول هذا قط وقد صنف الخطيب الحافظ مسألة الاحتجاج بالشافعي فشفى وكفى فقول العجلي ليس عنده حديث قول من لا يدري ما يقول في حق الامام ابي عبد الله وما عرفه العجلي ولا جالسه فالشافعي من جلة أصحاب الحديث رحل فيه وكتب بمكة والمدينة والعراق واليمن ومصر ولقب ببغداد ناصر الحديث وهو قلما

يوجد له حديث غلط فيه والله حسيب من يتكلم بجهل أو هوى فان السكوت يسع الشخص نعم لم يكن الشافعي رحمه الله في الحديث كيحيي القطان او ابن مهدي او احمد بن حنبل بل ما هو في الحديث بدون الاوزاعي ولا مالك وهو في الحديث ورجاله وعلله فوق ابي مسهر وابي يوسف القاضي وعبد الرحمن ابن القاسم واسحق بن الفرات واشهب وامثالهم فرحم الله الجميع .

ابراهيم بن طهمان ثقة متقن من رجال الصحيحين وكان مرجئاً فهذا رجل عالم كبير القدر بخراسان اخطأ في مسألة فكان ماذا فما لمجرد الارجاء يضعف حديث الثقة ويهدر فقد كان من هو اكبر من ابراهيم مرجئاً

ابراهيم بن سعد من ائمة العلم وثقات المدنيين كان يجوز سماع الملاهي ولا يجد دليلا ناهضاً على التحريم فاداه اجتهاده الى الرخصة فكان ماذا قال عبد الله بن احمد بن حنبل حدثني ابي قال ذكر يحيي بن سعيد عقيلا وابراهيم بن سعد فجعل كأنه يضعفهما يقول عقيل وابراهيم ثم قال ابي هؤلاء ثقات لم يخبرهما

يحيى قال وثنا وكيع مرة عن ابراهيم بن سعد ثم تركه باخرة قلت اتفق أرباب الصحاح على الاحتجاج بابراهيم بن سعد مطلقاً مع انه ليس في الزهرى كمالك ولا كابن عيينة

أبان بن يزيد العطار أحد الثقات قال فيه أبو حاتم صالح الحديث وهذه العبارة تدل على ان غيره من رفقائه أثبت منه كهمام وبشار وقال احمد العجلى ثقة يرى القدر ولا يتكلم به وقال ابن عدى متماسك يكتب حديثه قلت هو جاز القنطرة واحتج به الشيخان وهو من طبقة همام

ابو ثور الكلبي ابراهيم بن خالد الفقيه أحد المجتهدين وثقه الناس تعنته أبو حاتم كعوائده وقال ليس محله محل المستمعين في الحديث كان يتكلم بالرأي فيخطيء ويصيب قلت هذا غلو من ابي حاتم غفر الله له

ابراهيم بن سعيد الجوهري الحافظ الثقة قال الخطيب وغيره ثقة وقال ابن خراش سمعت حجاج بن (الشاعر) يقع فيه قلت لاعبرة بوقوعه فيه

احمد بن الازهر النيسابوري ثقة صاحب حديث رحل

الى عبد الرزاق فانفرد عنه بذاك الحديث في مناقب علي رضي الله عنه تكلم فيه ابن معين ثم عذره احتج به س والناس

احمد بن صالح الطبري حافظ الديار المصرية وعالمها ثقة جبل لم يلتفت النقاد الى قول يحي بن معين فيه كذاب يتفلسف ولا قول النائي ليس بثقة قد احتج به خ وغيره ولكنه كان فيه تيه وبأو عفا الله عنه وكان شيخ مصر في العلم متفنناً

احمد بن عبـد الله بن احمد الحافظ. ابو نعيم الاصبهاني صاحب التصانيف تكلم فيه بامر لا يمنع من الاحتجاج به كما بسطناه في ترجمته بل ذنبه عندي روايته الاباطيل

احمد بن علي بن ثابت الحافظ ابو بكر الخطيب تكلم فيه بعضهم وهو وابو نعيم وكثير من علماء المتأخرين لا أعلم لهم ذنباً اكبر من روايتهم الاحاديث الموضوعة في تآليفهم غير محذرين منها وهذا اثم وجناية على السنن فالله يعفو عنا وعنهم

احمد بن عبد الله من ثقات البصريين احتج به م وماعلمت به بأساً الا قول ابن خراش تكلم الناس فيه وهذا مردود

احمد بن عيسى التستري مصري ثقة احتج به الشيخان

وما علمت فيه وهنا فلا يلتفت الى قول يحيي بن معين فيه كذاب وكذا غمزه ابوزرعة

احمد بن الفرات الرازي الحافظ ابو مسعود من كبار الأئمة الاثبات فلا يعرج على قول ابن خراش فيه يكذب عمداً

احمد بن محمد بن حنبل بن هلال الامام الحجة تكلم فيه بعض من ابتدع وبالضرورة فما زالت رؤوس البدع يتكلمون في أئمة السنة وكذا لا عبرة بقول من لينه في ابراهيم بن سعد اه

احمد بن منصور الرمادي الحافظ ثبت صنف المسند وثقه الدارقطني وله رحلة الى عبد الرزاق قال ابو العباس محمد ابن رجا قلت لابي داود لم أرك تحدث عن الرمادي فقال كان يصحب الواقفة فلم احدث عنه

اسحق بن ابراهيم بن راهويه امام اهل المشرق حجة امام بالاجماع وقال الآجرى سمعت د يقول تغير قبل موته بخمسة اشهر فسمعت منه في تلك الايام ورميت به

اسمعيل بن علية امام حجة بلا نزاع واليه المنتهى في الحفظ والدين وقد بدت منه هفوة وتاب منها في حديث تجيء البقرة

وآل عمران يحاجان عن صاحبهما فقيل له الهما لسان فقال نعم والا فكيف يتكلم فقالوا تقول القرآن مخلوق وهذا تحرير ومبالغة وتزيير من السلف فامتنع لذلك منصور بن سلمة الخزاعي من الرواية عنه وقال الفضل بن زياد عن احمد بن حنبل وهيب احب الى منه اه

سمعيل بن زكريا الخلقاني من اقران هشيم حديثه في الكتب الستة وهو صدوق قال احمد حديثه مقارب

اسرائيل بن يونس من ثقات الكوفيين وعلمائهم ولا سيما بجده ابي اسحق فانه بصير بحديثه احتج به الشيخان ووثقه الناس وقال ابن سعد منهم من يستضعفه قلت ولا يلتفت الى ابن حزم في رده لحديث اسرائيل وتضعيفه

اشعث بن عبد الملك الحمراني صاحب الحسن ثقة هو اجل الاشاعثة الذين هم هو واشعث بن سوار الكندي واشعث الحداني ما خرجا له شيئاً

افلح بن سعيد القبائي صدوق احتج به م ورأيت ابن حبان قد بالغ في الحط عليه بلا مستند بريد بن عبد الله بن

ابي بردة الاشعري ثقة احتجا به في عدة احاديث ووثقه غير واحد لكن قال س ليس بالقوي

ثور بن يزيد الحمصي ثبت مجود احتج به خ عبيد القدر

جعفر بن محمد الصادق وثقه ابو حاتم والنائي الا ان خ لم يحتج به وبلا شك ما هو في التثبت مثل عبيد الله بن عمر يقال كان ربما لقن واحتج بهم وحديثه في الحج منسك لطيف وكان سيداً نبيلاً اماماً ماعلمت عليه شيئاً يشينه في دينه اصلا

جرير بن حازم الازدي امام حجة مشهور الا ان ابن معين قال هو في قتادة ضعيف

حبيب بن المعلم حجة تعنت فيه يحيي بن سعيد فكان لا يحدث عنه حديثه في الكتب كلها وحسين المعلم اثبت منه

حرب بن شداد عن الحسن وجماعة احتج به الشيخان ووثقه احمد بن حنبل وغيره لكن كان يحيي القطان لايحدث عنه

حريز بن عثمان قل من يوجد في الشاميين في اتقانه وثقه غير واحد لكنه ناصبي نسأل الله السلامة الا انه لايسب

حسين المعلم ثقة حجة حديثه في الكتب لينه الفضيل

بلا حجة .

حصين بن عبدالرحمن الاسدي وثقوه وقيل انه تغير يسيراً

حفص بن ميسرة الصنعاني ثقة يحتج به في الصحاح قال الازدي وحده يتكلمون فيه

حمران بن ابان مولى عثمان حجة قال ابن سعد لم ارهم يحتجون به قال الحاكم تكلم فيه بما لا يؤثر فيه قلت هو ثبت

حميد بن قيس المكي وثقه يحي وحديثه في الكتب وقال فيه احمد ليس بالقوي

خالد الحذاء ثقة امام قال ابوحاتم وحده لا يحتج به وكان شعبة ربما يتكلم فيه سراً

خيثمة بن عراك احتج به الشيخان وقال الازدي منكر الحديث

زكريا بن ابي زائدة ثقة له في الكتب كلها لينه ابوحاتم فقط

زيد بن ابي انيسة ثقة حديثه في الاصول قال في حديثه بعض النكارة

سعيد بن ابي عروبة ثقة امام ساء حفظاً بآخرة وحديثه

في الكتب منتق الا انه قدري قاله احمد بن حنبل

سعيد بن محمد الحرمي روى عنه الشيخان ثقة فيه تشيع

سليمان بن حيان أبو خالد الاحمر ثقة مخرج له في الكتب الستة قال ابن معين ليس بحجة

سليمان بن داود ابو داود الطيالسي ثقة ماعلمت به بأسا وقد أخطأ في أحاديث فكان ماذا

سليمان بن مهران الاعمش حجة حافظ لكن يدلس عن الضعفاء

شبابة بن سوار احتج به الشيخان ووثقه غير واحد لكن قال احمد داعية الى الارجاء

شجاع بن الوليد ابو بدر السكوني وثقوه وحديثه في الاصول الستة وقد قال ابو حاتم لين الحديث

شيبان النحوي ثقة من رجال الكتب قال ابو حاتم لا يحتج به قلت بل هو حجة

عباد بن عباد المهلبي وثقوه وحديثه في الكتب وقال ابو حاتم لا يحتج به قلت ابو حاتم متعنت في الرجل

العباس بن الوليد النرسي ثقة روى عنه الشيخان تكلم فيه ابن المديني

عبد الله بن رجاء الغداني احتج به خ وس قال العلائي كثير الغلط

عبد الله بن سعيد بن ابي هند حديثه في الكتب وهو ثقة ضعفه ابو حاتم وحده

عبد الاعلى ابن عبد الاعلى السامي بالمهملة ثقة حديثه في الكتب قال ابن سعد لم يكن بالقوي قلت نعم ماهو في قوة ابن علية

عبد ربه ابن نافع الكناني ابو شهاب الحناط احتج به خ م وهو صدوق لكن غيره احفظ منه له حديث واحد

عبد الرحمن بن محمد المحاربي ثقة نبيل روى مناكير عن مجاهيل .

عبد الرزاق بن همام امام له ما ينكر وفيه تشيع معروف

عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز وثقوه ولينه ابو مسهر فقط بلا حجة

عبد الكريم الحريري ثقة توقف فيه ابن حبان واحتج بمن هو دونه

عبد الملك بن عمير وثقوه وقد تغير بآخرة وما اختلط

عبيدالله ابن أبي جعفر المصري ثقة قال احمد ليس بالقوي قلت وما هو بضعيف

عبيد الله بن موسى العبسي ثبت الا انه شيعي

عدي بن ثابت حديثه في الكتب قال الدارقطني رفض

عكرمة ثقة ثبت أعرض عنه مالك واحتج به الجمهور كان يرى السيف فيما بلغنا

علي بن الجعد الجوهري (وفي التقريب ثقة ثبت رمي بالتشيع) ثبت لكنه فيه بدعة ما

عمر بن ذر الهمداني ثقة ماعلمت غير الارجاء

عمر بن علي المقدمي ثقة في الكتب لكنه مدلس

عمرو بن عاصم الكلابي ثقة مشهور محتج به في الكتب الستة قال بندار لولا فرق من الله لتركت حديثه

عوف الاعرابي ثقة مشهور حديثه في الكتب قال

بندار قدري شيعي

القاسم بن مالك المزني ثقة احتج به خ م ضعفه زكريا الساجي وحده ووثقه طائفة وهو ممن لا بأس به

قبيصة بن عقبة شيخ خ حديثه في الكتب وهو ثقة قال يحيي بن معين ثقة الا في الثوري قلت لا بأس به

قيس بن ابي حازم ثقة امام كاد أن يكون صحابياً وحديثه في جميع دواوين الاسلام روى علي ابن عبد الله عن يحيي القطان قال منكر الحديث قلت هذا القول مردود

مالك بن دينار الزاهد صدوق ما علمت فيه جرحا وقد قال فيه س ثقة وخرج له م متابعة وخ تعليقاً

محمد بن ابراهيم بن الحرث التيمي ثقة نبيل حديثه في كتب الاسلام قال احمد في حديثه شيء روى مناكير

محمد بن ادريس تقدم

محمد بن طلحة بن مصرف اليامي ثقة من رجال الصحيحين املاء قال س ليس بالقوي قلت ماهو بقوة شعبة

محمد بن الفضل عارم (لقبة عارم بالمهملتين كما في التقريب)

ثقة حجة يقال اختلط بآخرة لكن ما ضر ذلك حديثه فانه ماحدث حينئذ فيما علمت .

معاذ بن هشام الدستوائي صدوق حديثه في الكتب كلها قال ابن معين صدوق وليس بحجة

معمر بن راشد ابو عروة امام ثقة قال ابو حاتم صالح الحديث وما حدث به بالبصرة ففيه اغاليط قلت ما نزال نحتج بمعمر حتى يلوح لنا خطأوه بمخالفة من هو احفظ منه أو نعده من الثقات .

مفضل بن فضالة قاضي مصر ثقة محتج به في الكتب قال ابن سعد منكر الحديث قلت قد يغرب

نافع بن عمر الجمحي قال احمد ثبت وقال ابن سعد ثقة فيه شيء قلت احتج به الشيخان ولا شيء فيه

هدبة بن خالد القيسي احتج به الشيخان ووثقه غير واحد والعجب من س كيف ضعفه ولا يخبره

هشام بن حسان (الازدي الفردوسي) ثقة محتج به فى الصحاح وقد قال شعيب بن حرب عن شعبة كان حشبياً ولم

يكن يحفظ.

همام ابن يحي بصري ثقة من رجال الصحيحين قال ابو حاتم ثقة في حفظه شيء قلت هو احفظ من فليح بكثير

هشيم بن بشير الحافظ ثقة لكنه يدلس وحديثه في الصحاح لكن ما خرجوا له عن الزهرى شيئاً لانه ضعيف فيه

ورقاء بن عمر اليشكري الكوفي ثقة لا سيما ابي الزناد لينه يحي القطان ووثقه الناس

الوليد بن كثير المخزومي حجازي ثقة حديثه في الكتب كلها لكن قيل انه قدري اباضي والله أعلم

الوليد بن مسلم عالم أهل دمشق ثقة حافظ لكنه يدلس عن الضعفاء فاذا قال عن فليس بحجة حديثه في الكتب كلها

وهب بن جرير ثقة حافظ حديثه فى الكتب ضعف في شعبة ثم ماهو كغندر

وهب بن منبه عالم أهل اليمن ثقة له في الصحيحين ضعفه العلائي

يحي بن حمزة قاضي دمشق ثقة له فى الصحيحين قيل

انه قدري

يحيى بن صالح الحمصي الوحاظي له في الصحيحين حجة لكنه تجهم

يحيى بن واضح ابو تميلة المروزي وثقوه ولينه بعضهم حديثه في الكتب الستة

يزيد بن ابراهيم التستري ثقة مخرج له في دواوين الاسلام قال ابن معين ليس هو في قتادة بذاك

يعلى بن عبيد الطنافسي ثقة حديثه في الكتب كلها ضعفه ابن معين في سفيان الثوري حسب قلت ماهو كالفريابي

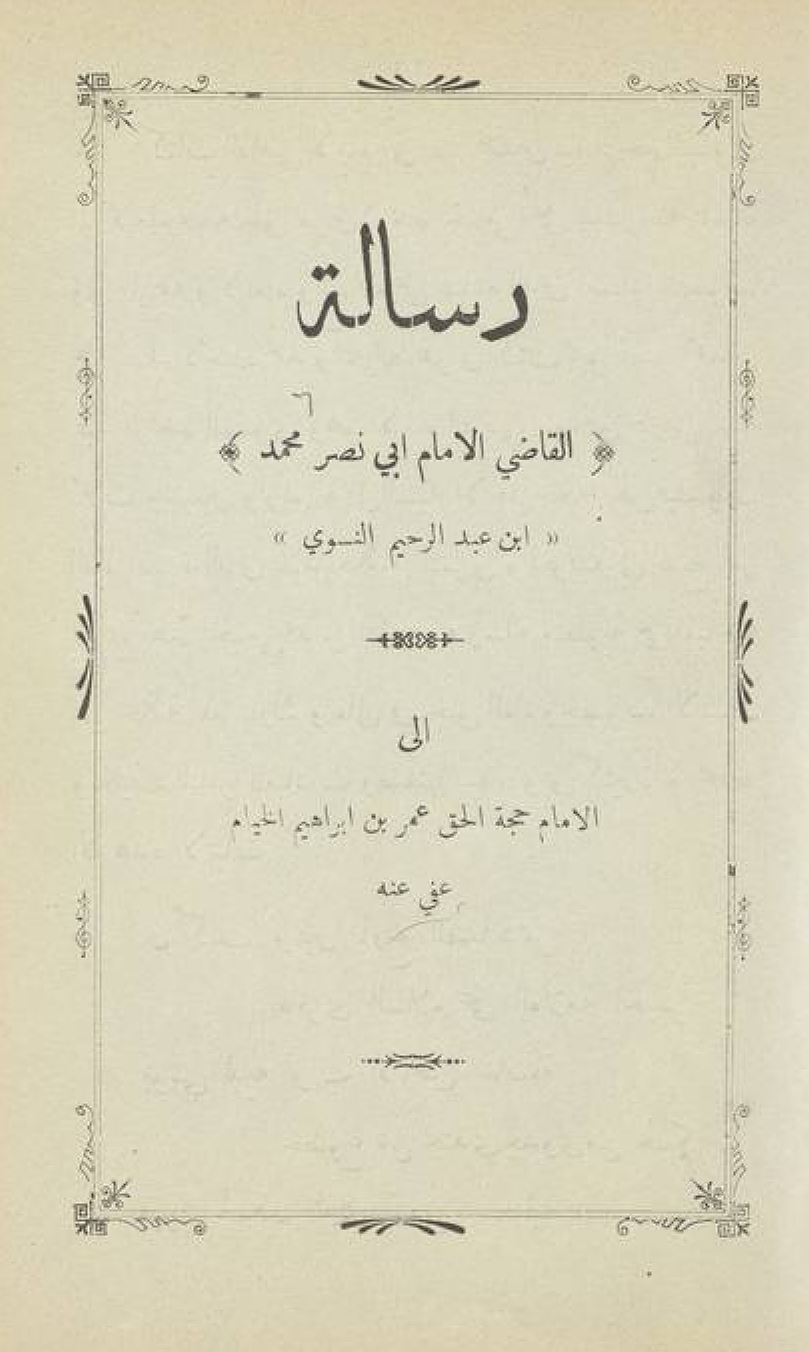
ابو بكر بن ابي موسى الاشعري ثقة مخرج له في الكتب قال ابن سعد يستضعف

ابو اسحق السبيعي ثقة امام لكنه كبر وساء حفظه وما اختلط وصلى الله على محمد وآله وسلم

نقلت هذه النسخة على نسخة قوبلت على اصل حسن وعليها خط القطب الخيضري في تاريخ سنة ٨٤٤ ثمانمائة واربع واربعين ثم خط شمس الدين محمد بن طولون الدمشقي وتمت

مقابلتها بملاحظة العالمين النحريرين الشيخ محمد جمال الدين القاسمي والشيخ محمد المبارك الجزائري الحسني





رسالة

« القاضي الامام ابي نصر محمد »

« ابن عبد الرحيم النسوي »

الى

الامام حجة الحق عمر بن ابراهيم الخيام

عفي عنه

كتاب القاضي الامام أبي نصر محمد بن عبد الرحيم النسوي الى الامام حجة الحق عمر بن ابرهيم الخيامي أعلى الله درجته الحمد لله ولي الرحمة والانعام والسلام على عباده الذين اصطفى خصوصاً على سيد الانبياء محمد وآله الطاهرين كتب ابو نصر محمد بن عبد الرحيم النسوي وهو الامام القاضي بنواحي فارس سنة ثلاث وسبعين واربعمائة الى السيد الاجل حجة الحق فيلسوف العالم نصرة الدين سيد حكماء المشرق والمغرب ابي الفتح عمر بن إبراهيم الخيامي قدس الله نفسه رسالة منطوية على المباحثة عن حكمة الله تبارك وتعالى في خلق العالم وخصوصاً الانسان وتكليف الناس للعبادات وضمنها ابياتاً وهي كثيرة لم يحفظ الا هذه الابيات

ان كنت ترعين يا ريح الصبا ذممي

فاقري السلام على العلامة الخيمي

بوسي لديه تراب الارض خاضعة

خضوع من يجتدي جدوى من الحكم

فهو الحكيم الذي تسقى سحائبه

ماء الحياة رفات الاعظم الرمم

عن حكمة الكون والتكليف يأت بما

تغني براهينه عن ان يقال لم

فاجابه بهذه الرسالة :

ان علمك أيها الاخ الرئيس الفاضل الاوحد الكامل أطال الله بقاءك وأدام عزك وعلاءك وحرس عن المكاره والغير فناءك أوفر من علوم أقراني وفضلك أغزر من فضلهم ونفسك أزكى من نفوسهم فانت اذاً أعرف منهم بان مسألتي الكون والتكليف من المسائل المعتاصة المتعذر حلها على اكثر الناظرين فيها والباحثين عنها وان كل واحدة منها منقسمة الى عدة أقسام كل قسم منها مفتقر الى عدة ضروب من المقاييس الوعرة المبتنية على أصناف من القضايا مختلف فيها عند أهل النظر وان هاتين المسألتين من أواخر العلم الاعلى والحكمة الاولى وان آراء المتكلمين فيها متباينة جداً واذا كان الامر كذلك فبالحري أن يكون الكلام فيهما صعباً جداً الا انني شرفتني بالمباحثة عنها والمحاورة فيهما لم أجد بداً من ان أسلك في تقدير أقسامها

واستيفاء أصنافهما وتبيين جمل براهينهما بحسب ما انتهى اليه بحثي وبحث من تقدمني من معلمي على سبيل الايجاز والاختصار لضيق الوقت وعدم احتمال التطويل والبسط والتبديل ولمعرفتي بان ذكاءك وحدسك حرس الله مجدك يكتفيان من القليل بالكثير وبالاشارة من العبارة ويكون كلامي فيهما كلام المستفيد لا المفيد والمتعلم لا المعلم استرواحا الى ما يصدر عن جنابك الشريف واغترافاً من بحرك الزاخر ادام الله فضلك ولا أعدمنا ظلك واعتصم بفضل التوفيق من الله تعالى انه ولي كل خير ومفيض كل عدل

المطالب الحقيقية الذاتية المستعملة في صناعة الحكمة ثلاثة وهي أمهات المطالب الاخر أحدها مطلب هل هو وهو السؤال عن انية وثباته كقولنا . هل العقل موجود أم لا . فيكون الجواب بنعم أولا . والثاني مطلب ماهو وهو السؤال عن حقيقة الشيء وماهيته كقولنا ماحقيقة العقل فيكون الجواب فيه إما تحديداً أو ترسيما واما شرحا للاسم وتبييناً ولا يكون هذا المطلب حاصراً لجواب المجيب بين طرفي النفي والاثبات

بل يكون الجواب الى المجيب يأتي بما يشاء مما يراه حداً لذلك الشيء أو معرفا له والثالث مطلب لِمَ وهو السؤال عن السبب الذي لاجله وجد الشيء ولولاه لما وجد ذلك الشيء كقولنا لِمَ العقل موجود وهذا المطلب أيضاً لا يكون حاصراً لجواب المجيب بين طرفي النقيض بل يفوض اليه الجواب من غير أن يتعرض لشيء من اجزاء جوابه اللهم الا في السؤال الثاني وبين مطلب ما ومطلب لم مناسبات قد استوفي الكلام عليها في كتاب البرهان من كتب المنطق وكل واحد من هذه المطالب منقسم الى أقسام شتى لا حاجة الى ذكرها في مطلوبنا هذا الا ان مطلب ما منقسم بحسب القسمة الاولى الى قسمين لا بد من ذكرهما باختلاف أصحاب الصنعة فيه أحدهما مطلب ما الحقيقي وهو الباحث عن حقيقة الشيء وهذا متأخر عن مطلب هل في الترتيب لانا مالم نعرف ان الشيء موجود ثابت لم يمكنا أن نحقق ذاته اذ لا يكون للمعدوم ذات حقيقي والثاني مطلب ما الرسمي وهو باحث عن شرح الاسم المطلق على الشيء وهذا متقدم على مطلب هل في الترتيب. لانا مالم نعرف شرح قول

القائل . هل عنقاء مغرب موجود أم لا لم يمكننا أن نحكم عليه بالنفي والاثبات فيجب أن يكون هذا الجواب الشارح للاسم قبل مطلب هل . ولما لم يتفطن الجماعة من المنطقيين لقسمي ما تبلبلوا وتحيروا . فذهب بعضهم الى ان مطلب ما متأخر عن مطلب هل وأراد به القسم الحقيقي . وذهب بعضهم الى انه متقدم وأراد به القسم الشارح . وأما مطلب لم فهو متأخر عن المطلبين الآخرين لانا مالم نعرف حقيقة الشيء وأنيته لم يمكننا أن نعرف السبب الذي لاجله وجد ذلك الشيء وهاهنا مطلب آخر مثل أي وكيف وكم ومتى وأين وهي عرضية باحثة عن حقيقة الاعراض الطارئة على الشيء وثباتها له فهي اذاً عند التنقير الشافي داخلة تحت المطالب الذاتية الحقيقية ولا حاجة بنا الى ذكرها . وليس يخلو موجود عن هلية ما اي انية وثبات فان الخالي عن الانية والثبات يكون معدوما وقد فرضناه موجوداً وهذا محال وكذلك ليس يخلو عن ماهية وحقيقة بها يعين ويتميز عن غيره اذ الخالي عن التعين والتميز عن غيره يكون معدوما وقد فرضناه موجوداً هذا محال وقد يكون

من الموجودات ماهو خال عن الكمية والاشياء الواجبة التي لا يمكن أن لا تكون موجودة وان فرضت غير موجودة لزم منه محال والشيء الذي يكون بالحقيقة على هذه الصفة لا يكون له سبب وكمية فيكون اذاً واجب الوجود بذاته وهو الواحد الحي القيوم الذي عنه الوجود لكل موجود. وبجوده وحكمته فاض كل خير وعدل. جل جلاله وتقدست اسماؤه. وهذه مسألة مفروغ عنها في مطلوبنا هذا وأنت اذا أمعنت النظر في جميع الموجودات ولمياتها اداك النظر الى أن تحقق ان لميات جميع الاشياء منتهية الى لميات وعلل وأسباب لالمية لها ولا علل ولا أسباب. برهان ذلك اذا قيل لم اب قلنا لانه ج واذا قيل لم اج قلنا لانه د واذا قيل لم اد قلنا لانه ه وهكذا فلا بد أن ينتهي بنا البحث عن العلل الى علة لا علة لها والا فيلزم منها التسلسل وهو محال أو يلزم منها الدور وهو محال. فقد صح ان جميع علل الموجودات منته الى سبب لاسبب له وقد تبين في العلم الالهي ان السبب الذي لا سبب له هو واجب الوجود بذاته وهو

واحد من جميع جهاته وبريء من جميع انحاء النقص وجميع الاشياء منته اليه وموجود عنه . فتبين ان سؤال اللهم لا يعترض على كل موجود بل على موجودات اذا فرضت غير موجودة لم يلزم منه محال وأما على الموجود الواجب الواحد فلا .

واذ قدمنا هذه المقدمات وتكلمنا فيها على سبيل الاختصار فلنرجع الى الغرض المقصود نحوه وهو الكلام في الكون والتكليف فنقول ان لفظة الكون تقع على عدة معان باشتراك الاسم فالغينا الخارج عن الغرض ونقول ان الكون المقول في هذا الموضع هو وجود الاشياء الممكنة الوجود التي ان فرضت غير موجودة لم يلزم منه محال وأما مطلب هل فيه مثل قول القائل الموجودات التي هي على الصفة المذكورة حاصلة أم لا فيكون الجواب فيه بنعم فان طالبنا بالبرهان على حصول هذه الموجودات فان ذلك ظاهر جداً يغنينا الحس والمشاهدات الضرورية والقضايا العقلية عن الاستدلال عليه بشيء آخر غيرها اذ جميع الموجودات التي قبلنا هو من هذا القبيل لان

ابداننا وأحوالنا مسبوقة العدم وأما لمية الكون المطلق وهو
فيضان هذه الموجودات منتظماً في ترتيب هذه السلسلة النازلة
من عند المبدإ الاول الحق عز وجل طولا وعرضاً فهي جوده
الحق المحض التام الذي يفيض عنه كل ممكن بجود الباري
تعالى سبب هذه الموجودات فان طولبنا بالجواب عن لمية
وجوده قلنا لا لمية له فكذلك جوده وجميع أوصافه لا لمية لها
وقد بقيت من هذا القبيل مسئلة هي أطم المسائل وأصعبها في
هذا الباب وهي في تفاوت الموجودات في الشرف فاعلم ان
هذه مسئلة قد تحير فيها اكثر الناس حتى لا يكاد يوجد عاقل
الا ويعتريه في هذا الباب تحير ولعلي ومعلمي أفضل المتأخرين
الشيخ الرئيس أبا علي الحسين بن عبد الله بن سينا البخاري
أعلى الله درجته قد أمعنا النظر فيها وانتهى بنا البحث الى ما
قنعت به نفوسنا إما لضعف القانعة بالشيء الركيك الباطن
المزخرف الظاهر وإما لقوة الكلام في نفسه وكونه بحيث يجب
أن يقنع به وسنأتي بطرف من ذلك على سبيل الرمز فأقول
ان البرهان الحقيقي اليقيني قائم على ان هذه الموجودات

لم يبدعها الله تعالى معاً بل ابدعها نازلة من عنده في الترتيب فالمبدع الاول هو العقل المحض وهو اشرف الموجودات لقربه من المبدإ الاول الحق ثم هكذا ابدع الاشرف فالاشرف نازلا الى الاخس فالاخس حتى بلغ في الابداع الى أخس الموجودات وهو طينة الكائنات الفاسدات ثم ابتداعها الى الاشرف فالاشرف حتى انتهى الى الانسان الذي هو اشرف الموجودات المركبة وآخر الموجودات في عالم الكون والفساد فالاقرب منه في المبدعات أشرفها والابعد من الطينة في المركبات أشرفها وقدر تعالى جده تكوين هذه المركبات في زمان ما لضرورة عدم اجتماع المتضادات بل المتقابلات في شيء واحد في زمان واحد من جهة واحدة معاً فان قال قائل لم خلق المتضادات المتمانعة في الوجود فيكون الجواب عنه ان الامساك من الخير الكثير من جهة لزوم شر قليل اياه شر كثير والحكمة الكلية الحقة والجود الكلي الحق اعطيا جميع الموجودات كمالها الذاتي لها من غير ان بخس حظ واحد منها الا انها بحسب القرب والبعد متفاوتة في الشرف وذلك لا

للبخل من جهة الحق عزّ وجل بل لاقتضاء الحكمة السرمدية ذلك فهذه جمل وان أوردتها على سبيل اقتصاص مذهب قوم من الحكماء فان تحقيق أصولها بالبرهان يهديك سبيل تحقيقها باليقين

وأما مسئلة التكليف فلعلها اسهل من مسئلة الكون واني أعرض عليك ما أعرفه في ذلك مستفيداً فاقول ان لفظة التكليف لا يبعد ان يكون لها معان مختلفة حسب الاصطلاحات والحكماء يريدون بها ما أذكره

التكليف هو الامر الصادر عن الله تعالى السائق للاشخاص الانسانية الى كمالاتهم المسعدة لهم في الحياة الاولى والاخرى الرادع اياهم عن الظلم والجور وارتكاب القبائح واكتساب النقائص والانهماك في متابعة القوى البدنية المانعة اياهم عن اتباع القوة العقلية وأما هلية التكليف فانها مندرجة ضمن لميته لان لمية الانبياء تتضمن هليتها فنقول في لميته ان الله عزوجل خلق النوع الانساني بحيث لا يمكن الامكان الاكثري ان تبقى أشخاصه ويحصل لهم كمالاتهم إلا بالتعاضد والتعاون والترافد

لان غذاءهم ولباسهم وكنهم مالم تكن مصنوعة وهكذا اكثر ما يحتاجون اليه من أصناف التعيش فاضطروا الى أن يتولى كل منهم شيئاً من المحتاجين اليه من التعيش فيفرغ صاحبه عند مهم لو تولاه بنفسه لازدحمت على الواحد أشغال كثيرة واذا كان الامر كذلك فبالواجب أن يضطروا الى سنة عادلة يتعادلون بها فيما بينهم وتلك السنة انما تكون من عند واحد منهم يكون أقواهم عقلا وأزكاهم نفساً لا يهمه من أمور الدنيا الا الضروريات وما لا بد منه في الحياة وليس همه فيما يتوخاه للرياسة أو التمكن من أمر شهواني أو غضبي بل يكون همه ابتغاء مرضاة الله تعالى فيما يأمره به من ايراد السنة العادلة لا يلتفت فيها لفت عصبية وتفضيل بعض على بعض ويمضي حكم الشرع فيهم على سواء فيكون هذا هو الحق الذي يفيض على نفسه من الوحي ومشاهدة الملك مالا يفيض على غيره ممن هو دونه في المرتبة ويكون .... باستحقاق الطاعة وذلك التميز انما يكون بآيات ومعجزات تدل على انها من عند ربه فضل ثم من المعلوم ان اشخاص الناس متفاوتة في

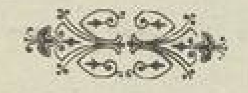
قبول الخير والشر والرذائل والفضائل وذلك بحسب امزجة ابدانهم وهيئآت نفوسهم معاً والاكثر من الناس يرون مالهم على غيرهم حقاً واجباً ويبالغون في استيفائهم ذلك ولا يرون ما لغيرهم عليهم ويرى كل واحد منهم نفسه أفضل من نفوس كثير من الناس واحق بالرياسة من غيرها فوجب ان يكون هذا الشارع مؤيداً مظفراً لا يعجز عن امضاء حكم الشريعة في جمهور الناس بعضهم بالوعظ وبعضهم بالبرهان او الدليل وبعضهم بتأليف القلب والبدن وبعضهم بالتخويفات والانذارات وبعضهم بالزجر العنيف والقتال ولاجل ان وجود مثل هذا النبي لا يتفق ان يكون في كل زمان وجب ان تبقى السنن المشروعة مدة ما وهي الى الوقت المقدر فيه اضمحلالها ولا يمكن استبقاء الشرائع والسنن العادلة الا بما يذكر الناس دائما صاحب الشرع ففرضت عليهم العبادة المذكورة لصاحب الشرع وللحق عز وجل وكررت عليهم تلك حتى يحكم التذكير بالتكرير المتواتر

ثم يحضر من تلقي الاوامر والنواهي الالهية والنبوية

بالطاعات ثلاث منافع احداها ارتياض النفس بتعودها الامساك عن الشهوات وزمها عن القوة الغضبية المكدرة للقوة العقلية والثانية تعويدها النظر في الامور الالهية واحوال المعاد في الآخرة لتجرها المواظبة على العبادات من جناب الغرور الى جناب الحق والتفكر في الملكوت وتحرصها على تحقق وجود الحق الاول أعني الذي عنه وجود كل موجود جل جلاله وتقدست اسماؤه ولا إله غيره فيضان الموجودات عنه منتظمة في سلسلة الترتيب التي اقتضتها الحكمة الحقة بالبرهان المبني على القياس المجردة عن اصناف التمويهات والمغالطات والثالثة تذكيرهم الشارع الحق وما اتى به من الآيات والانذارات ووعده ووعيده الممضي احكام السنة العادلة فيما بينهم فيجري بينهم التعادل والترافد ويبقى نظام العالم الذي اقتضته حكمة الباري جل وعلا على حاله فهذه هي منافع التكليف ومنافع العبادات ثم زاد لمستعمله الاجر والثواب في الآخرة فانظر الى حكمة الحي القيوم ثم الى رحمته تلحظ جناباً تبهرك عجائبه هذا هو القدر النزر الذي لاح لي في الحال

فعرضته على مجلسك الرفيع أيها الكامل الاوحد لكي تسد خلله وتصلح فاسده وتعوضني منه ما أسكن اليه بلقائك الشريف وكلامك اللطيف والله تعالى أعلم بالصواب . والحمد لله أولا وآخراً وباطناً وظاهراً

﴿ تمت رسالة الخيام ﴾

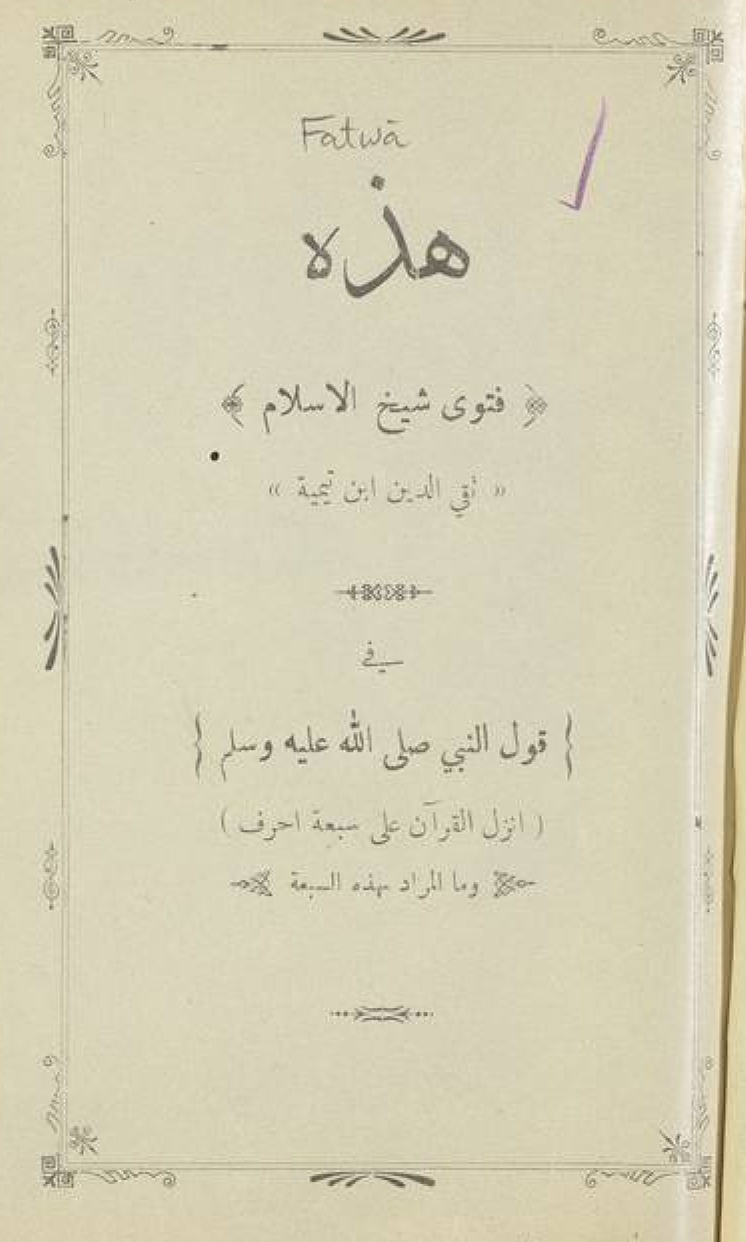


من كلام الخيام أيضاً في رسالة له في ضرورة التضاد في العالم

وأما سؤاله عن أي الفريقين أقرب الى الصواب فلعل الجبري في بادىء الرأي وظاهر النظر من غير ان يتلجلج في هذيانه ويتغلغل في خرافاته فانه حينئذ يبعد عن الحق جداً

وأما الكلام الجاري في البقاء والباقي فانه قد شغف به جماعة من الاغبياء حيث لم يعقلوا ولم يتفطنوا للحق اذ البقاء ليس هو اتصاف الموجود بالوجود مدة ما فكان الوجود غير ملتفت فيه الى المدة والبقاء وجود يتضمن معنى المدة فالوجود أعم معنى من البقاء فليس الفرق بين الوجود والبقاء الا بالخصوص والعموم ثم العجب ان قائل هذا القول اعترف بان الوجود والموجود هما معنى واحد في الاعيان وان كانا مفترقين في النفس فلما بلغ الى البقاء ضل

Ibn Taymiyah, Ahmad



Fatwā

هذه

﴿ فتوى شيخ الاسلام ﴾

« تقي الدين ابن تيمية »

في

{ قول النبي صلى الله عليه وسلم }

(انزل القرآن على سبعة احرف)

وما المراد بهذه السبعة

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر يا كريم مايقول سيدي الشيخ جمع الله له خير الدنيا والآخرة في قول النبي صلى الله عليه وسلم أنزل القرآن على سبعة أحرف ما المراد بهذه السبعة وهل هذه القراآت المنسوبة الى نافع وعاصم وغيرهما هي الاحرف السبعة أو واحد منها وما السبب الذي أوجب الاختلاف بين القراء فيما احتمله خط المصحف وهل تجوز القراءة برواية الاعمش وابن محيصن وغيرهما من القراآت الشاذة أم لا واذا جازت القراءة بها فهل تجوز الصلوة بها أم لا افتونا مأجورين. أجاب الشيخ تقي الدين ابن تيمية

الحمد لله رب العالمين هذه مسئلة كبيرة قد تكلم فيها أصناف العلماء من الفقهاء والقراء وأهل الحديث والتفسير والكلام وشرح الغريب وغيرهم حتى صنف فيها التصنيف المفرد ومن آخر ما أفرد في ذلك ما صنفه الشيخ ابو محمد

عبد الرحمن بن اسمعيل بن ابراهيم الشافع المعروف بابي شامة صاحب شرح الشاطبية

فاما ذكر أقاويل الناس وأدلتهم وتقرير الحق فيها مبسوطاً فيحتاج من ذكر الاحاديث الواردة في ذلك وذكر الفاظها وسائر الادلة الى ما لا يتسع له هذا المكان ولا يليق بمثل هذا الجواب ولكن نذكر النكت الجامعة التي تنبه على المقصود بالجواب فنقول لانزاع بين العلماء المعتبرين ان الاحرف السبعة التي ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ان القرآن انزل عليها ليست هي قرآآت القراء السبعة المشهورة بل أول من جمع قرآآت هؤلاء هو الامام أبو بكر بن مجاهد وكان على رأس المائة الثالثة ببغداد فانه أحب ان يجمع المشهور من قرآآت الحرمين والعراقين والشام اذ هذه الامصار الخمسة هي التي خرج منها علم النبوة من القرآن وتفسيره والحديث والفقه في الاعمال الباطنة والظاهرة وسائر العلوم الدينية فلما أراد ذلك جمع قرآآت سبعة مشاهير من ائمة قراء هذه الامصار ليكون ذلك موافقاً لعدد الحروف التي أنزل عليها القرآن لا لاعتقاده

أو اعتقاد غيره من العلماء ان القرآآت السبعة هي الحروف السبعة أوان هؤلاء السبعة المعينين هم الذين لا يجوز أن يقرأ بغير قراءتهم ولهذا قال من قال من ائمة القراء لولا ان ابن مجاهد سبقني الى حمزة لجعلت مكانه يعقوب الحضرمي امام جامع البصرة وامام قراء البصرة في زمانه في راس المائتين

ولا نزاع بين المسلمين ان الحروف السبعة التي انزل القرآن عليها لا تتضمن تناقض المعنى وتضاده بل قد يكون معناها متفقاً أو متقارباً كما قال عبد الله بن مسعود . انما هو كقول أحدكم اقبل . وهلم . وتعال . وقد يكون معنى أحدهما ليس هو معنى الآخر لكن كلا المعنيين حق وهذا اختلاف تنوع وتغاير لا اختلاف تضاد وتناقض وهذا كما جاء في الحديث المرفوع عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث حديث . انزل القرآن على سبعة احرف ان قلت غفوراً رحيماً أو قلت عزيزاً حكيماً فالله كذلك مالم تختم آية رحمة بآية عذاب او آية عذاب بآية رحمة وهذا كما في القرآآت المشهورة الا ان يخافا ألا يقيما . والا ان يخافا الا يقيما . وان كان مكرهم

لتزولَ . ولَتزولُ منه الجبال . وبل عجبتَ . وبل عجبتُ . ونحو ذلك . ومن القرآآت ما يكون المعنى فيها متفقاً من وجه متبايناً من وجه كقوله . يخدعون . ويخادعون . ويكذَبون ويكذِبون ولمستم . ولامستم . حتى يطهُرن . ويطَّهرن . ونحو ذلك . وهذه القرآآت التي يتغاير فيها المعنى كلها حق وكل قراءة منها مع القراءة الاخرى بمنزلة الآية مع الآية يجب الايمان بها كلها واتباع ما تضمنته من المعنى علما وعملا لا يجوز ترك موجب احداها لاجل الاخرى ظناً ان ذلك تعارضٌ بل كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه . من كفر بحرف منه فقد كفر به كله

وأما ما اتحد لفظه ومعناه وانما يتنوع صفة النطق به كالهمزات . والمدات . والامالات . ونقل الحركات . والاظهار . والادغام . والاختلاس . وترقيق اللامات . والرآآت أو تغليظها . ونحو ذلك مما تسمى القرآآت الاصول فهذا أظهر وأبين في انه ليس فيه تناقض ولا تضاد مما تنوع فيه اللفظ أو المعنى اذ هذه الصفات المتنوعة في اداء اللفظ

لاتخرجه عن ان يكون لفظاً واحداً ولا يعد ذلك فيما اختلف لفظه واتحـد معناه أو اختلف معناه من المترادف ونحوه . ولهذا كان دخول هذا في حرف واحد من الحروف السبعة التي انزل القرآن عليها مما يتنوع فيه اللفظ أو المعنى وان وافق رسم المصحف وهو ما يختلف فيه النقط أو الشكل ولذلك لم يتنازع علماء الاسـلام المتبوعين من السلف والائمة في انه لا يتعين ان يقرأ بهذه القراآت المعينة في جميع امصار المسلمين بل من ثبت عنده قراءة الاعمش شيخ حمزة أو قراءة يعقوب ابن اسحق الحضرمي ونحوهما كما ثبت عنده قراءة حمزة والكسائي فله أن يقرأ بها بلا نزاع بين العلماء المعتبرين المعدودين من أهل الاجماع والخلاف بل اكثر العلماء الائمة الذين أدركوا قراءة سفيان بن عيينة واحمد بن حنبل وبشر بن الحارث وغيرهم يختارون قراءة ابي جعفر بن القعقاع وشيبة بن نصاح المدنيين وقراءة البصريين كشيوخ يعقوب بن اسحق وغيرهم على قراءة حمزة والكسائي وللعلماء في ذلك من الكلام ما هو معروف عند العلماء ولهذا كان ائمة أهل العراق الذين ثبتت

عندهم قرآآت العشرة أو الاحد عشر كثبوت هذه السبعة يجمعون ذلك في الكتب ويقرأونه في الصلوة وخارج الصلوة وذلك متفق عليه بين العلماء لم ينكره أحد منهم •

وأما الذي ذكره القاضي عياض ومن نقل من كلامه من الانكار على ابن شنبوذ (١) الذي كان يقرأ بالشواذ في الصلوة

(١) قوله ابن شنبوذ الخ

في المرشد الوجيز لابي شامة مانصه : قال اسماعيل بن علي الخطبي في كتاب التاريخ اشتهر ببغداد امر رجل يعرف بابن شنبوذ ويقرئ الناس ويقرأ في المحراب بحروف يخالف فيها المصحف مما يروى عن عبد الله بن مسعود وابن ابي كعب وغيرهما مما كان يقرأ به وقيل جمع المصحف الذي جمعه عثمان بن عفان ويتتبع الشواذ فيقرأ بها ويجادل حتى عظم امره وفحش وانكره الناس فوجه اليه السلطان فقبض عليه في يوم السبت لست خلون من ربيع الآخر سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة وحمل الى دار الوزير محمد ابن علي يعني ابن مقلة واحضر القضاة والفقهاء والقراء وناظره يعني الوزير بحضرتهم فاقام على ما ذكر عنه ونصره واستنزله الوزير عن ذلك فابى ان ينزل عنه او يرجع عما يقرأ به من هذه الشواذ المنكرة التي تزيد على المصحف وتخالفه فانكر ذلك جميع من حضر المجلس واشاروا بعقوبته ومعاملته بما يضطره الى الرجوع فامر بتجريده واقامته بين الهنبازين وضربه بالدرة على قفاه فضرب نحو العشرة ضرباً شديداً فلم يصبر واستغاث واذعن

في اثناء المائة الرابعة وجرت له قضية مشهورة فانما كان ذلك في القرآات الشاذة الخارجة عن المصحف كما سنبينه ولم ينكر أحد من العلماء قراءة العشرة ولكن من لم يكن عالمًا بها أو لم تثبت عنده كمن يكون في بلد من بلاد الاسلام بالمغرب أو غيره ولم يتصل به بعض هذه القرآات فليس له أن يقرأ إلا بعلمه فان القراءة كما قال زيد بن ثابت سنة يأخذها الآخر عن الاول كما ان ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من انواع الاستفتاحات في الصلاة ومن انواع صفة الاذان والاقامة وصفة صلوات الخوف وغير ذلك كله حسن يشرع العمل به لمن علمه وأما من علم نوعا ولم يعلم غيره فليس له ان يعدل عما

بالرجوع والتوبة تخلي عنه واعيدت عليه ثيابه واستتيب وكتب عليه كتاب بتوبته واخذ فيه خطه بالتوبة . وقرأت في تاريخ هارون بن المأمون قال وفي ايام الراضي ضرب ابن مقلة بن شنبوذ سبع درر لاجل قرآات انكرت عليه ودعا عليه بقطع اليد وشت الشمل فقطعت يده ثم لسانه • ثم قال ثم مات ابن شنبوذ في صفر سنة ثمان وعشرين بعد موت ابن مجاهد باربع سنين وعزل ابن مقلة ونكب في سنة اربع وعشرين بعد نكبة ابن شنبوذ بسنة واحدة فجرى عليه من الاهانة بالضرب والتعليق والمصادرة امر عظيم ثم آل امره الى قطع يده ولسانه نسأل الله العافية اه

علمه الى مالم يعلم وليس له ان ينكر على من علم مالم يعلمه من ذلك ولا أن يخالفه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « لاتختلفوا فان من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا »

وأما القراءة الشاذة الخارجة عن رسم المصحف العثماني مثل قراءة ابن مسعود وأبي الدرداء رضي الله عنهما والليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى والذكر والانثى . كما قد ثبت ذلك في الصحيحين . ومثل قراءة عبد الله . فصيام ثلثة أيام متتابعات وكقراءته ان كانت الازقية واحدة . ونحو ذلك فهذه اذا ثبتت عن بعض الصحابة فهل يجوز أن يقرأ بها في الصلاة على قولين للعلماء هما روايتان مشهورتان عن الامام احمد وروايتان عن مالك احداهما يجوز ذلك لان الصحابة والتابعين كانوا يقرأون بهذه الحروف في الصلاة والثانية لا يجوز ذلك وهو قول اكثر العلماء لان هذه القراآت لم تثبت متواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم وان ثبتت فانها منسوخة بالعرضة الآخرة فانه قد ثبت في الصحاح عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم ان جبريل عليه السلام كان يعارض النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن

في كل عام مرة فلما كان العام الذي قبض فيه عارضه به مرتين والعرضة الا خرة هي قراءة زيد بن ثابت وغيره وهي التي أمر الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلي بكتابتها في المصاحف وكتبها ابو بكر وعمر في خلافة ابي بكر في صحف امر زيد بن ثابت بكتابتها ثم امر عثمان في خلافته بكتابتها في المصاحف وارسالها الى الامصار وجمع الناس عليها بأتفاق من الصحابة علي وغيره وهذا النزاع لابد أن يبنى على الاصل الذي سأل عنه السائل وهو ان القرآآت السبعة هل هي حرف من الحروف السبعة أم لا فالذي عليه جمهور العلماء من السلف والائمة انها حرف من الحروف السبعة بل يقولون ان مصحف عثمان هو أحد الحروف السبعة وهو متضمن للعرضة الآخرة التي عرضها النبي صلى الله عليه وسلم على جبريل والاحاديث والآثار المشهورة المستفيضة تدل على هذا القول . وذهب طوائف من الفقهاء والقراء وأهل الكلام الى ان هذا المصحف مشتمل على الاحرف السبعة وقرر ذلك طوائف من أهل الكلام كالقاضي أبي بكر الباقلاني وغيره بناء على انه لايجوز

على الامة أن تهمل نقل شيء من الاحرف السبعة وقد اتفقوا
على نقل هذا المصحف الامام العثماني وترك ماسواه حيث أمر
عثمان بنقل القرآن من الصحف التي كان ابو بكر وعمر كتبا
القرآن فيها ثم أرسل عثمان بمشاورة الصحابة الى كل مصر من
أمصار المسلمين بمصحف وأمر بترك ما سوى ذلك قال هؤلاء
ولا يجوز أن ينهى عن القراءة ببعض الاحرف السبعة ومن
نصر قول الاولين يجيب تارة بما ذكر محمد بن جرير وغيره
من ان القراءة على الاحرف السبعة لم تكن واجبة على الامة
وانما كان جائزاً لهم مرخصاً لهم فيه وقد جعل اليهم الاختيار
في أي حرف اختاروه كما ان ترتيب السور لم يكن واجباً عليهم
منصوصاً بل مفوضاً الى اجتهادهم ولهذا كان ترتيب مصحف
عبدالله على غير ترتيب مصحف زيد وكذلك مصحف غيره
وأما ترتيب ايات السور فهو منزل منصوص عليه فلم يكن لهم
ان يقدموا اية على اية في الرسم كما قدموا سورة على سورة
لان ترتيب الآيات مأمور به نصاً وأما ترتيب السور فمفوض
الى اجتهادهم قالوا فكذلك الاحرف السبعة فلما رأى الصحابة

ان الامة تفترق وتختلف وتتقاتل اذا لم يجتمعوا على حرف واحد اجتمعوا على ذلك اجتماعا سائغاً وهم معصومون أن يجتمعوا على ضلالة ولم يكن في ذلك ترك لواجب ولا فعل لمحظور

ومن هؤلاء من يقول بان الترخيص في الاحرف السبعة كان في أول الاسلام لما في المحافظة على حرف واحد من المشقة عليهم أولا فلما تذلات السنتهم بالقراءة وكان اتفاقهم على حرف واحد يسيرا عليهم وهو أوفق لهم أجمعوا على الحرف الذي كان في العرضة الآخرة ويقولون انه نسخ ماسوى ذلك وهؤلاء يوافق قولهم قول من يقول ان حروف أبي ابن كعب وابن مسعود وغيرهما مما يخالف رسم هذا المصحف منسوخة

وأما من قال عن ابن مسعود انه يجوز القراءة بالمعنى فقد كذب عليه وانما قال قد نظرت الى القراء فرأيت قراءتهم متقاربة وانما هو كقول أحدكم أقبل وهلم وتعال فاقرأوا كما علمتم أو كما قال فمن جوز القراءة بما يخرج عن المصحف مما ثبت عن الصحابة قال يجوز ذلك لانه من الحروف السبعة التي أنزل القرآن عليها ومن لم يجوزه فله ثلاثة مآخذ تارة يقول

ليس هو من الحروف السبعة وتارة يقول هو من الحروف المنسوخة وتارة يقول هو مما انعقد اجماع الصحابة على الاعراض عنه وتارة يقول لم ينقل الينا نقلا يثبت بمثله القرآن. وهذا هو الفرق بين المتقدمين والمتأخرين ولهذا كان في المسئلة قول ثالث وهو اختيار جدي أبي البركات انه ان قرأ بهذه القرآت في القراءة الواجبة وهي الفاتحة عند القدرة عليها لم تصح صلاته لانه لم يتيقن انه أدى الواجب من القراءة لعدم ثبوت القرآن بذلك وان قرأ بها فيما لا يجب لم تبطل صلاته لانه لم يتيقن انه أتى في الصلاة بمبطل لجواز أن يكون ذلك من الحروف السبعة التي أنزل عليها وهذا القول يبتني على اصل وهو ان مالم يثبت كونه من الحروف السبعة فهل يجب القطع بكونه ليس منها فالذي عليه جمهور العلماء انه لا يجب القطع بذلك اذ ليس ذلك مما أوجب علينا أن يكون العلم به في النفي والاثبات قطعياً.

وذهب فريق من أهل الكلام الى وجوب القطع بنفيه حتى قطع بعض هؤلاء كالقاضي ابي بكر بخطاء الشافعي وغيره ممن أثبت البسملة من القرآن في غير سورة النمل لزعمهم ان ما كان

من موارد الاجتهاد في القرآن فانه يجب القطع بنفيه والصواب القطع بخطاء هؤلاء وان البسملة آية من كتاب الله حيث كتبها الصحابة في المصحف اذلم يكتبوا فيه الا القرآن وجردوه عما ليس منه كالتخميس والتعشير واسماء السور ولكن مع ذلك لايقال هي من السورة التي بعدها كما ليست من السورة التي قبلها بل هي كما كتبت آية انزلها الله في أول كل سورة وان لم تكن من السورة وهذا اعدل الاقوال الثلاثة في هذه المسئلة وسواء قيل بالقطع في النفي او الاثبات فذلك لا يمنع كونها من موارد الاجتهاد التي لا تكفير ولا تفسيق فيها للنافي ولا للمثبت بل قد يقال ما قاله طائفة من العلماء ان كل واحد من القولين حق وانه آية من القرآن في بعض القرآآت وهي قراءة الذين يفصلون بها بين السورتين وليست آية في بعض القرآآت وهي قراءة الذين يصلون ولا يفصلون بها .

وأما قول السائل ما السبب الذي أوجب الاختلاف بين القراء فيما احتمله خط المصحف فهذا مرجعه الى النقل واللغة العربية لتسويغ الشارع لهم القراءة بذلك كله اذ ليس

لاحد أن يقرأ برأيه المجرد بل القراءة سنة متبعة وهم اذا اتفقوا على اتباع القرآن المكتوب في المصحف الامامي وقد اقرى بعضهم بالياء وبعضهم بالتاء لم يكن واحد منهما خارجا عن المصحف ومما يوضح ذلك انهم يتفقون في بعض المواضع على ياء أو تاء ويتنوعون في بعض كما اتفقوا في قوله تعالى (وما الله بغافل عما تعملون» في موضع وتنوعوا في موضعين وقد بينا ان القراءتين كالآيتين فزيادة القرآت لزيادة الآيات لكن اذا كان الخط واحداً واللفظ محتملا كان ذلك أخصر في الرسم والاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب لا على حفظ المصاحف كما في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال . ان ربي قال لي قم في قريش فانذرهم فقلت أي رب اذاً يثلغوا رأسي (أي يشدخوا) فقال اني مبتليك ومبتل بك ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرأه نائما ويقظان فابعث جنداً ابعث مثليهم وقاتل بمن أطاعك من عصاك وانفق انفق عليك فاخبر ان كتابه لا يحتاج في حفظه الى صحيفة تغسل بالماء بل يقرأه في كل حال كما جاء في نعت أمته اناجيلهم

في صدورهم بخلاف أهل الكتاب الذين لا يحفظونه الا في
الكتب ولا يقرأونه كله الا نظراً لا عن ظهر قلب وقد ثبت
في الصحيح انه جمع القرآن كله على عهد النبي صلى الله عليه
وسلم جماعة من الصحابة كالاربعة الذين من الانصار وكعبد
الله بن عمرو فتبين بما ذكرناه ان القرآت المنسوبة الى نافع
وعاصم ليست هي الاحرف السبعة التي أنزل القرآن عليها
وذلك باتفاق علماء السلف والخلف وكذلك ليست هذه
القرآت السبعة هي مجموع حرف واحد من الاحرف السبعة
التي أنزل القرآن عليها باتفاق العلماء المعتبرين بل القرآت
الثابتة عن ائمة القرآن كالاعمش ويعقوب وخلف وابي جعفر
يزيد بن القعقاع وشيبة ابن نصاح ونحوهم هي بمنزلة القرآت
الثابتة عن هؤلاء السبعة عند من ثبت ذلك عنده كما ثبت ذلك
وهذا أيضاً مما لم يتنازع فيه الائمة المتبوعون من ائمة الفقهاء
والقراء وغيرهم وانما تنازع الناس من الخلف في المصحف العثماني
الامامي الذي أجمع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
والتابعون لهم باحسان والامة بعدهم هل هو بما فيه من القرآت

السبعة وتمام العشرة وغير ذلك هل هو حرف من الاحرف السبعة التي أنزل القرآن عليها أو هو مجموع الاحرف السبعة على قولين مشهورين والاول قول ائمة السلف والعلماء والثاني قول طوائف من أهل الكلام والقراء وغيرهم وهم متفقون على ان الاحرف السبعة لا يخالف بعضها بعضاً خلافاً يتضاد فيه المعنى ويتناقض بل يصدق بعضها بعضاً كما تصدق الآيات بعضها بعضاً وسبب تنوع القراآت فيما احتمله خط المصحف هو تجويز الشارع وتسويغه ذلك لهم اذ مرجع ذلك الى السنة والاتباع لا الى الرأي والابتداع أما اذا قيل ان ذلك هي الاحرف السبعة فظاهر وكذلك بطريق الاولى اذا قيل ان ذلك حرف من الاحرف السبعة فانه اذا كان قد سوغ لهم أن يقرأوه على سبعة أحرف كلها شاف كاف مع تنوع الاحرف في الرسم فلأن يسوغ ذلك مع اتفاق ذلك في الرسم وتنوعه في اللفظ أولى وأحرى وهذا من أسباب تركهم المصاحف أول ما كتبت غير مشكولة ولا منقوطة لتكون صورة الرسم محتملة للامرين كالتاء والياء والفتح والضم وهم يضبطون باللفظ

كلا الامرين ويكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين المسموعين المتلوين شبيهاً بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنيين المنقولين المعقولين المفهومين فان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تلقوا عنه ما أمره الله بتبليغه اليهم من القرآن لفظه ومعناه جميعاً كما قال ابو عبد الرحمن السلمي وهو الذي روى عن عثمان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » كما رواه البخاري في صحيحه وكان يقريء القرآن أربعين سنة قال حدثنا الذين كانوا يقرؤننا عثمان بن عفان وعبد الله ابن مسعود وغيرهما انهم كانوا اذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً ولهذا دخل في معنى قوله خيركم من تعلم القرآن وعلمه تعليم حروفه ومعانيه جميعاً بل تعلم معانيه هو المقصود الاول بتعليم حروفه وذلك هو الذي يزيد الايمان كما قال جندب بن عبد الله وعبد الله بن عمر وغيرهما . تعلمنا الايمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا ايمانا وانكم تتعلمون القرآن

ثم تتعلمون الايمان . وفي الصحيحين عن حذيفة قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين رأيت أحدهما وأنا انتظر الآخر حدثنا ان الامانة نزلت في جذر قلوب الرجال ونزل القرآن وذكر الحديث بطوله ولا تتسع هذه الورقة لذكر ذلك وانما المقصود التنبيه على ان ذلك كله مما بلغه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الناس وتلقاه أصحابه عنه الايمان والقرآن حروفه ومعانيه وذلك مما أوحاه الله اليه كما قال تعالى « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا » وتجوز القراءة في الصلاة وخارجها بالقراآت الثابتة الموافقة لرسم المصحف كما ثبتت هذه القراآت وليست شاذة حينئذ والله أعلم



فائدة

« من أمالي الشيخ عز الدين بن عبد السلام رحمه الله تعالى »

قال رحمه الله قال ابن عطية في تفسيره . سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي علم القرآن أفضل فقال عربيته فالتمسوها في الشعر . وقال من تكلم في القرآن برأيه فاصاب فقد أخطأ قال ابو محمد معناه ان يسأل عن معنى فيتسور عليه برأيه دون نظر فيما قال العلماء اذا اقتضته قوانين العلوم كالنحو والاصول وليس يدخل في هذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته والنحاة نحوه والفقهاء معانيه باجتهادهم المبني على قوانين ونظر وكان جلة من السلف كسعيد بن المسيب وعامر الشعبي يعظمون تفسير القرآن ويتوقفون عنه تورعا واحتياطا لانفسهم مع ادراكهم وتقدمهم . وكان جلة من السلف كثير عددهم يفسرونه .

وقال عليه السلام ان هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤا ما تيسر منه

واختلف الناس في معنى هذا الحديث فقيل ذلك في الذي يقال على سبعة أوجه كاللغات التي في اف ونحوه وكالحروف التي في كتاب الله التي فيها قراآت كثيرة وهذا ضعيف وقال ابن شهاب في كتاب مسلم بلغني انها في الامر الذي يكون واحداً لا يختلف في حلال ولا حرام

قال أبو محمد وهذا كلام محتمل وقيل هي الامر والنهي والوعد والوعيد والقصص والمجادلة والامثال وهذا ضعيف لان هذه لا تسمى أحرفا وايضا فالاجماع ان التوسعة لم تقع في تحليل حرام ولا تحريم حلال ولا تغيير شيء من المذكورة وذكر القاضي ابن الطيب (١) في هذا حديثاً ان هذا القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف نهي وأمر وحلال وحرام ومحكم ومتشابه وامثال فاحلوا حلاله وحرموا حرامه وأتمروا واعتبروا بمحكمه وامنوا بمتشابهه

قال ابن الطيب فهذا تشبيه تفسير منه عليه السلام الاحرف ولكن ليست هذه التي أجاز لهم القرءة بها على

(١) المراد بابن الطيب هنا هو القاضي ابو بكر الباقلاني

اختلافها وانما الحروف ههنا بمعنى الجهة كقوله ومن الناس من يعبد الله على حرف أي على وجه وطريقة وذكر القاضي أيضاً عن أبيّ انه روى ان رسول الله قال يا أبيّ اني أقريت القرآن على حرف أو حرفين ثم زادني حتى بلغ سبعة أحرف ليس منها الا كاف شاف ان قلت غفور رحيم سميع عليم أو عليم حكيم وكذلك مالم تختم عذاباً برحمة أو رحمة بعذاب

قال أبو محمد وقد اسند ثابت بن قاسم نحو هذا الحديث عن أبي هريرة عنه عليه السلام

قال القاضي ابن الطيب وهذه أيضاً سبعة غير السبعة التي هي قراءة وانما هي سبعة أوجه من أسماء الله واذا صحت هذه الرواية حمل على انه نسخ فلا يجوز للناس أن يبدلوا اسماء الله بغيره مما يوافق معناه او يخالفه . وزعم قوم ان كل كلمة تختلف القراء فيها فانها على سبعة احرف اوجه ويعرف بعض الوجوه بمجي الخبر ولا يعرف البعض اذ لم يأت بها خبر

وقال قوم ظاهر الحديث يوجب ان يوجد منه في القرآن كلمة او كلمتان تقران على سبعة اوجه فاذا حصل ذلك تم معنى

الحديث . وزعم قوم انه انزل على سبع لغات وهذا باطل الا ان يراد الوجوه المختلفة التي تستعمل في القصة الواحدة والدليل على ذلك ان لغة عمر وابيّ وابن مسعود واحدة فقراءتهم مختلفة وخرجوا فيها الى المناكرة واما السبعة التي صوب الرسول القراءة بجميعها وهي التي روجع فيها فزاده وسهل عليه لعلمه تعالى بما هم عليه من اختلافهم في اللغات فانها سبعة اوجه وسبع قرآآت مختلفات وطرايق يقرأ بها على اختلافها في جميع القرآن ومعظمه على حسب ما تقتضيه العبارة ويدل على ذلك قول الناس حرف ابيّ وحرف ابن مسعود ويقول في الجملة ان القرآن منزل على سبعة احرف من اللغات والاعراب وتغيير الاسماء والصور وان ذلك مفرق في كتاب الله ليس بموجود في كتاب الله حرف واحد وسورة واحدة يقطع باجتماع ذلك فيها وحكي القاضي ابن الطيب ايضاً قال تدبرت وجوه القرآن فوجدتها سبعاً منها ماتتغير حركته دون معناه وصورته مثل هن اطهر لكم واطهر ومنها ما لا تتغير صورته وتتغير معناه بالاعراب نحو ربنا باعد وباعد ومنها ما يتغير

معناه باختلاف الحروف دون صورته مثل ننشرها وننشزها ومنها ما يتغير صورته دون معناه كالعهن المنفوش والصوف المنفوش ومنها ما يتغير صورته ومعناه نحو طلح منضود وطلع منضود ومنها ما يتغير بالتقديم والتأخير نحو وجاءت سكرة الموت بالحق وسكرة الحق بالموت ومنها بالزيادة والنقصان نحو تسع وتسعون نعجة انثى

قال ابو محمد انتهى ماجمعت من كلام القاضي واما استدلاله بان لغة عمر وابن مسعود واحدة ففيه نظر لان ما استعملته قريش في عبارتها ومنهم عمر وما استعملته الانصار ومنهم ابيّ وما استعملته هذيل ومنهم ابن مسعود قد يختلف ومن ذلك النحو من الاختلاف هو الاختلاف في كتاب الله فليست لغتهم واحدة في كل شي، وأيضاً فلو فرضناهم على لغة واحدة لما كان اختلافهم حجة لان المناكرة لم تكن لان المنكر سمع ماليس في لغته فانكره وانما كانت لانه سمع خلاف ما أقراه الرسول وعساه قد أقراه ما ليس من لغته والمتقرر من كلام القاضي انه انزل على سبع لغات لسبع قبائل وتلخيص القبائل التي أرادها عليه السلام ان قاعدتهم قريش ثم بنو سعد بن بكر لانه عليه الصلاة والسلام

استرضع في سعد ونشأ حتى عفت تمائمه وهو يخالط في اللسان كنانة وهذيلا وثقيفاً وخزاعة وأسد اوضبة والفافها لقربهم من مكة وتكرارهم اليها ثم بعد هذه تميما وقيساً ومن انضاف اليهم وسط جزيرة العرب فانزل بلغة هذه الجملة

قال ثابت بن قاسم لو قلنا من هذه الاحرف لقيس ومن هذه الاحرف لكنانة ومنها لاسد ومنها لهذيل ومنها لتميم ومنها لضبة والفافها ومنها لقيس لكان قد اتى على قبائل مضر في مراتب سبعة تحتوي على اللغات التي نزل بها القرآن وهذه الجملة هي التي انتهت اليها الفصاحة وسلمت لغتها من الدخل لتوسطها الجزيرة وأما قبائل اليمن فقد خالطوا الحبشة والهند على ان أبا عبيد القاسم بن سلام وأبا العباس المبرد ذكر ان عرب اليمن من القبائل التي أنزل القرآن بلغاتهم وذلك عندي انما هو فيما استعمله أهل الحجاز من لغة اليمن فمعنى الحديث انه نزل في عبارة سبع قبائل بلغة جملتها فيعبر عن المعنى تارة بلغة قريش وتارة بلغة غيرها على حسب الافصح الاوجز في اللفظه . وفي البخاري قال عليه السلام اقرأني جبريل على حرف واحد فراجعته فلم أزل استزيده ويزيدني حتى انتهى الى سبعة

أحرف ولما أراد عثمان ان يجمع القرآن أمر زيد بن ثابت وثلاثة من قريش سعيد بن ابي العاصي وعبدالرحمن بن الحارث وعبد الله بن الزبير خرجه البخاري والترمذي وقال لهم اذا اختلفتم في شيء اي اختلفت الرواة فيه فاجعلوه على لغة قريش نحو التابوت والتابوه فان زيداً كان يقرأه بالهاء ونسخ منها مصاحف ووجه بها الى البلاد وامر بما سواها ان يحرق او يخرق يروى بالحاء والخاء والمعجمة احسن

قال القاضي ابو بكر وترتيب السور اليوم من تلقاء زيد ومن كان معه مع مشاركة عثمان وقد ذكر ذلك مكي وذكر ان ترتيب الايات في السور ووضع البسملة في الاوائل من النبي ولما لم يأمر بذلك في اول براءة بقيت بلا بسملة وظاهر الآثار ان السبع الطول والحواميم والمفصل كان مرتباً في زمنه عليه السلام وكان من السور ما لم يرتب فرتب وقت الكتابة واما شكل المصحف ونقطه فعبد الملك بن مروان امر به وعمله فتجرد لذلك الحجاج بواسط وجد فيه وزاد تحزيبه وقيل اول من نقطه ابو الاسود الدؤلي وقيل يحيى بن يعمر وذكر الجاحظ ان اول من نقطه نصر بن عاصم واما وضع الاعشار فرأيت في

بعض التواريخ ان المأمون العباسي امر بذلك وقيل الحجاج فعله واختلف الناس هل فيه لغة عجمية فقال ابو عبيدة وغيره في كتاب الله من كل لغة وذهب الطبري الى انه ليس فيه الا العربية والذي ينسب الى غيرها انما هو من توالد اللغات والذي عليه العقيدة انه ليس في القرآن لفظة لا تفهم الا من لسان آخر لانه عربي مبين فاما ما نسب لغير العرب فمخالطة العرب غيرها في الاسفار تعلقت بها هذه الالفاظ فغيرت بعضها بالنقص من حروفها واستعملتها فجرى مجرى العربي فان جهلها عربي ما فكجهله بعض اللغات واما نوادر اللغات فبعيد

انتهى كلام الشيخ عز الدين رحمه الله

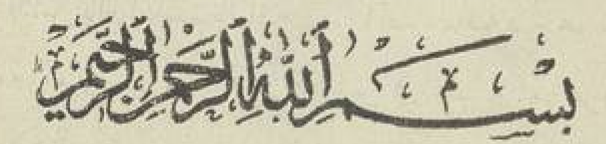
رسالة حكم ابن المقفع

قال القفطي في ترجمة ابن المقفع ما نصه :

كان فاضلا كاملا وهو اول من اعتنى في الملة الاسلامية بترجمة الكتب المنطقية لابي جعفر المنصور وهو فارسي النسب الفاظه حكمية ومقاصده من الخلل سليمة ترجم كتب ارسطوطاليس المنطقية الثلاثة وهو كتاب قاطيغورياس وكتاب

باري ارمينياس وكتاب انالوطقيا وذكر انه ترجم اسياغوجي تأليف فرفوريوس الصوري وغيره وترجم ذلك بعبارة سهلة وترجم مع ذلك الكتاب الهندي المعروف بكليلة ودمنة وله تواليف حسنة منها رسالته في الادب والسياسة ورسالته المعروفة باليتيمة في طاعة السلطان اه — نقلا عن مجلة المقتبس

واليك الرسالة كما هي في الاصل



قال عبد الله بن المقفع رحمه الله تعالى

عمل البر خير صاحب. احق ما صان الرجلُ امر دينه. الآلف للدنيا مغتر. من الزم نفسه ذكر الآخرة اشتغل بالعمل. المغبون من طلب ثواب الآخرة في الدنيا. القلب اسرع تقلباً من الطرف. أحسن العفو ما كان عن عظيم الجرم. الاعتراف يؤدي الى التوبة. الاصرار وعاء للذنوب. الجواد من بذل مايضن به. المتكلف لما لا يعنيه متعرض لما يكره. الفكر مفتاح القلب. الاستماع أسلم من القول. كمون الحقود ككمون النار

في العود . اكرم الاخلاق التواضع . التواضع يورث المحبة . الكبر مقرون به سوء الظن . من عذب لسانه كثر اخوانه . من استبعد الآخرة ركن الى الدنيا . سرور الدنيا كاحلام النائم المغبون من طلب الدنيا بعمل الآخرة . المصيبة العظمى الرزية في الدين . سرور الدنيا مخوف المغبة . من أهلك نفسه في مرضاة غيره عظمت جنايته . انفع الكنوز العمل الصالح . احق الناس بالبر أعلمهم بالعاقبة . من أبصر العاقبة فآثرها امن الندامة الوالي من وزرائه بمنزلة الرأس في أعضائه . من عرف ثمار الاعمال كان حقيقاً ان لايغرس مراً . اهن دنيا بائدة تستكمل كرامة . ابقى الجروح مضضاً جرح الآثام إئت الى الناس ما تحب أن يؤتى اليك . استصغر المشقة اذا أدت الى منفعة . رأس البر الورع . اطلب الرحمة بالرحمة . خير الاعمال ما دبر بالتقوى . بالحزم يتم الظفر . من أحب التزكية تعرض للضحكة . الدنيا نوم نائم والدولة حلم حالم . من سالم الناس ربح السلامة ومن تعدى عليهم كسب الندامة . بادر لعمل الخير اذا امكنك . من حصن سره امن ضر زلات الدنيا قد تدرك بالجهل كما تدرك بالعقل . احسن العمل الصالح ما كان بصدق

النية . خسر من انفق حياته في غير حقها . طوبى لمن ترك دنياه لآخرته . من الحق على السلطان رفع ذي الفضيلة وأن يسد فاقته . لاتحمد نفسك على ما تركت من الذنوب عجزاً . بالرسول يعرف قدر المرسل . رفق الرسول يلين القلب الصعب . لا رأي لمن انفرد برأيه . من ترك رأي ذي النصيحة اتباعاً لما يهوى استوخم العاقبة المشاورة أوثق ظهير . المستشار مؤتمن . اعتبر عقل الوالي باصابته موضع أصحابه . من صحب السلطان لم يزل مروعاً . كثرة اعوان السوء مضرة بالعمل . بالحزم يتم الظفر . باصالة الرأي تظفر بالحزم . استوجب الطاعة من ذوي الرأي بالمودة . الصنيعة عند الملك . (كذا) الحازم من استمسك برأي الحزمة من ذوي الرأي . لاصلاح لرعية واليها فاسد . خير مستفاد الهدي . اكثر محادثة من يصدقك عن عيوبك . حلية الملوك وزراؤهم . اكمل النصحاء من لم يكتم صاحبه نصيحة وان استقلها . فساد الوالي اضر بالرعية من جدب الزمان . استعن بالصمت على اطفاء الغضب . لاتجنين على نفسك عداوة وبغضة اتكالا على ماعندك من العمل والقوة والمنعة . كن في الحرص على معرفة عيبك بمنزلة عدوك في

معرفة ذلك . البصير من عرف ضره من نفعه . (التواضع يورث المحبة. اكرم الاخلاق التواضع الكبر مقرون به سوء الظن) ربما تحولت البغضاء مودة والمودة بغضاء. قرب الصالحين داع للصلاح. أحسن العفو ما كان عن عظيم الجرم. المال عون قوي على المروءة وانفاقه مهلكة للمروءة. من عدم ماله انكره اهله. خير الملوك من يرى انه لا يضبط ملكه الا بالعدل بين رعيته وأضيعهم الفظ المتهاون. لا تغتر الاقوياء بفضل قوتهم على الضعفاء. الضعيف المحترس من العداوة أقرب الى السلامة من القوي المغتر. اخوف الاحقاد احقاد الملوك. ابصر الوزراء من بصر صاحبه عيبه بالامثال. من قل كلامه حمد عقله. من عرف قدره قل افراطه. احسن والدولة لك يحسن اليك والدولة عليك. (كمون الحقود ككمون النار في العود). حرم العقل رزيء دنياه وآخرته. آفة العقل العجب. الهم مرض العقل. احذر صولة اللئيم اذا شبع. احسن المدح أصدقه. الاحسان يقطع اللسان



mot anal.

كتاب

دعوة الأطبّاء

على مذهب كليلة ودمنة

تصنيف

ابي الحسن المختار بن الحسن بن بطلان الطبيب

عُني بطبعه وتصحيحه

الدكتور بشارة زلزل

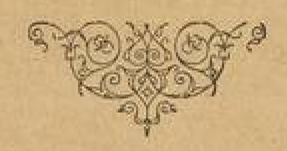
طبع بالمطبعة الخديوية بالاسكندرية سنة ١٩٠١

مقدمة

اما بعد الحمد لله تعالى فهذه رسالة تشهد لمصنفها بالفضل الباهر كما يشهد النور للمصباح الزاهر . وتخبر عن ادبه الوافر كما يخبر النسيم عن شذا الروض العاطر. عثرتُ عليها في خزانة كتبي وقد توارت بالحجاب . فوجدتها آيةً في الحسن يعتبر بها ذووا الالباب واثراً من احسن الآثار القديمة لا تعادله قيمة . بل درّة يتيمةً لم تزل مكنونة في الصدف . وهي مما لا يُظفَرَ بهِ الا في نوادر الصدف فآثرت ان اتحف بها القرآء من ابناء هذه اللغة رجاء ان يتدبروا بما اشتملت عليه من الحكم والنصائح والفوائد مسبوكةً في قالب الفكاهة قلائدَ من عقيان ومنظومةً في سلك الفصاحة عقوداً من جمان وفي كلام مصنفها عنها ما يغني عن زيادة البيان قال، هذه رسالة دعوة الاطبآء على مذهب كليلة ودمنة تشتمل على مزح يبسم عن جدّ وباطل ينطق عن حقّ وخير القول ما اغنى جدُه والهى هزله صنفها ابو الحسن المختار بن الحسن بن بطلان للامير نصر الدولة ابي نصر احمد بن مروان من امثال الحكماء وكلام البلغاء ونوادر الفلاسفة ليجد العالم فيها ما يوافق

طريقتهُ ويتناول المتعلم بسهلها لتسهيل غرضهِ فيقرب عليه تناوله
ويظهر للقارئ فضل الاطبآء المهرة وعجز المتخرقين بهذه الصناعة"
وقد صدرتها بترجمة المصنف نقلاً عن كتاب عيون الانبآء
في طبقات الاطبآء بيانًا لفضله وتعريفًا له باصلهِ وفصلهِ ولم اتصدَّ
لتغيير شيء مما جآء في هذه الرسالة الا ما اقتضاه التصحيح والتهذيب
تفاديًا من الفاظٍ وعبارات لا يألفها ذوق الادبآء من ابنآء هذا
العصر وعلقتُ شرحًا على ما كان منها غامض الكلام ليعمَّ نفعها
ويزدان بحلية الكمال طبعها والله المسئول ان ينفع بها المطالعين
وهو حسبنا ونعم الوكيل

بشارة زلزل



ترجمة المصنف نقلاً عن عيون الانباء في طبقات الاطبآء لابن ابي أُصيبعة

,, ابن بطلان ‘‘ هو ابو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون بن بطلان نصراني من اهل بغداد وكان قد اشتغل على ابي الفرج عبدالله بن الطيب وتلمذ له واتقن عليه قرآءة كثير من الكتب الحكمية وغيرها ولازم ايضاً ابا الحسن ثابتاً بن ابرهيم بن زهرون الحرّاني الطبيب واشتغل عليه وانتفع به في صناعة الطب وفي مزاولة اعمالها . وكان ابن بطلان معاصراً لعلي ابن رضوان الطبيب المصري وكانت بين ابن بطلان وابن رضوان المراسلات العجيبة والكتب البديعة الغريبة ولم يكن احد منهما يؤلف كتاباً ولا يبتدع رأياً الا ويردُّ الآخر عليه ويسفهُ رأيهُ فيهِ وقد رأيت اشياءَ من المراسلات التي كانت فيما بينهما ووقائع احدهما بالآخر . وسافر ابن بطلان من بغداد الى ديار مصر قصداً منه الى مشاهدة عليّ ابن رضوان والاجتماع به . وكان سفرهُ من بغداد في سنة ٤٣٩ ولما وصل في طريقه الى حلب اقام بها مدة واحسن اليه معز الدولة ثمال ابن صالح بها واكرمه اكراماً كثيراً وكان دخوله الفسطاط في مستهل جمادى الآخرة من سنة ٤٤١ واقام بها ثلاث سنين

وذلك في دولة المستنصر بالله من الخلفاء المصريين وجرت بين ابن بطلان وابن رضوان وقائع كثيرة في ذلك الوقت ونوادر ظريفة لا تخلو من فائدة. وقد تضمن كثيراً من هذه الاشياء كتاب ألفهُ ابن بطلان بعد خروجه من ديار مصر واجتماعه بابن رضوان ولابن رضوان كتابٌ في الرد عليه وكان ابن بطلان اعذب الفاظاً واكثر ظرفاً واميز في الادب وما يتعلق به ومما يدل على ذلك ما ذكرهُ في رسالته التي وسمها ,,بدعوة الاطباء،، وكان ابن رضوان اسود اللون ولم يكن بجميل الصورة ولهُ مقالةٌ في ذلك يردُّ فيها على من عيرهُ بقبح الخلقة وقد بيّن فيها بزعمه ان الطبيب الفاضل لا يجب ان يكون وجههُ جميلاً. وكان ابن بطلان اكثر ما يقع في عليّ بن رضوان من هذا القبيل واشباهه ولذلك يقول فيه في الرسالة التي وسمها بوقعة الاطباء

فلما تبدّى للقوابل وجههُ   نكصنَ على اعقابهنَّ من الندم ٢

وكان يلقبه بتمساح الجن وسافر ابن بطلان من ديار مصر الى القسطنطينية واقام بها سنة وعرضت في زمنه اوباء كثيرة ,,ونقلت،، من خطه فيما ذكرهُ من ذلك ما هذا مثاله قال,, ومن مشاهير الاوباء في زماننا الذي عرض عند طلوع الكوكب الآثاري في الجوزاء من سنة ٤٤٦ فان في تلك السنة دُفن في كنيسة توما بعد

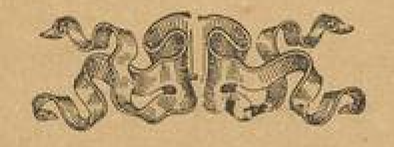
ان امتلأت جميع المدافن التي في القسطنطينية اربع عشرة الف نسمة في الخريف فلما توسط الصيف في سنة ٤٤٧لم يوفِ النيل فمات في الفسطاط والشام اكثر اهلها وجميع الغربآء الأ من شاء الله وانتقل الوبآء الى العراق فاتى على اكثر اهله واستولى عليه الخراب بطروق العساكر المتعادية واتصل ذلك بها الى سنة ٤٥٤ وعرض للناس في اكثر البلاد قروح سوداوية واورام الطحال وتغير ترتيب نوائب الحميات واضطرب نظام البحارين فاختلف علم القضاء في تقدمة المعرفة... وبعد ذلك كلام على ما كانوا يعتقدون من تأثير الاجرام في حدوث الاوبئة الى ان نقل اسماء جملة من مشاهير العلماء الذين فقدوا بالاوبآء العظيمة في زمانه في مدة بضع عشرة سنة منهم الأجل المرتضى والشيخ ابو الحسن البصري واقضى القضاة الماوردي وابن الطيب الطبري ومهيار الشاعر وابو العلاء المعري وابو الحسن الصابيء وابو الفتح النيسابوري . وصاعد الطبيب وابو الفرج عبدالله ابن الطيب ,,اقول'' ولابن بطلان اشعارٌ كثيرة ونوادر ظريفة وقد ضمن منها اشيآء في رسالته التي وسمها بدعوة الاطباء وفي غيرها من كتبهِ وتوفي ولم يتخذ امرأةً ولا خلف ولداً ولذلك يقول من ابيات

ولا احدٌ ان متُّ يبكي لميتتي سوى مجلسي في الطب والكتب باكيا

ولابن بطلان من الكتب كناش الاديره والرهبان . كتاب شرآء العبيد وتقليب المماليك والجواري . كتاب تقويم الصحة . مقالة في شرب الدوآء المسهل . مقالة في كيفية دخول الغذآء في البدن وهضمه وخروج فضلاته وسقي الادوية المسهلة وتركها . مقالة الى علي ابن رضوان عند وروده الفسطاط سنة ٤٤١ جواباً عما كتبه اليه . مقالة في علة نقل الاطباء المهرة تدبير اكثر الامراض التي كانت تعالج قديماً بالادوية الحارة الى التدبير المبرّد كالفالج واللقوة والاسترخاء وغيرها ومخالفتهم في ذلك لمسطور القدماء في الكنانيش والاقراباذينات وتدرجهم في ذلك من العراق وما والاها على استقبال سنة ٣٧٧ الى سنة ٤٥٥ وصنف ابن بطلان هذه المقالة بانطاكية في سنة ٤٥٥ وكان في ذلك الوقت قد أُهّل لبناء بيمارستان انطاكية . مقالة في الاعتراض على من قال ان الفرخ احرّ من الفرّوج بطريق منطقية الفها بالقاهرة في سنة ٤٤١ . كتاب المدخل الى الطب . كتاب دعوة الاطبآء الفها للامير نصر الدولة ابي نصر احمد بن مروان ونقلتُ من خط ابن بطلان وهو يقول في آخرها : فرغت من نسخها انا مصنفها يوانيس الطبيب المعروف بالمختار بن الحسن بن عبدون بدير الملك المتنيح قسطنطين بظاهر القسطنطينية في آخر ايلول سنة خمس وستين وثلاثمائة والف

(١٣٦٥) هذا قوله ويكون ذلك بالتاريخ الاسلامي من سنة ٤٥٠. كتاب وقعة الاطباء . كتاب دعوة القسوس . مقالة في مداواة صبي عرضت له حصاة

م



بسم الله الرحمن الرحيم

هذه رسالة دعوة الاطباء على مذهب كليلة ودمنة تشتمل على مزح يبسم عن جد وباطل ينطق عن حق . وخير القول ما اغنى جده والهى هزله ، صنفها ابو الحسن المختار بن الحسن بن بطلان للامير نصر الدولة ابي نصر احمد بن مروان (١) من امثال الحكماء وكلام البلغاء ونوادر الفلاسفة ليجد العالم فيها ما يوافق طريقته وينقاد

(١) هو ابو نصر احمد بن مروان بن دوستك الكردى الحميدى الملقب صاحب الدولة نصر الدين صاحب ميافارقين وديار بكر ، ملك البلاد بعد ان قتل اخوه ابو سعيد منصور بن مروان فى قلعة الهتاخ ليلة الخميس خامس جمادى الاولى سنة ٤٠١ وكان رجلاً مسعوداً عالى الهمة حسن السياسة كثير الحزم قضى من اللذات وبلغ من السعادة ما يقصر الوصف عن شرحه وحكى ابن الازرق الفارقى فى تاريخه انه لم ينقل ان نصر الدولة صادر احداً فى ايامه سوى شخص واحد قص قصته .... عاش ٧٧ سنة وكانت امارته ٥٥ سنه

نقلا عن ابن خلكان

المتعلم بسهلها الى تسهيل غرضه فيقرب عليه تناوله ، ويظهر للقارىء فضل الاطباء المهرة وعجز الممخرقين بهذه الصناعة وهي اثنا عشر قسماً

الاول منها في فاتحة الكتاب ومدح بغداد وذم ميافارقين لما فيها من الكساد . الثاني في ذكر مجالس الطعام وايراد الحجج التي تحمي عن الاكل فيما يقدم من الالوان . الثالث في نعت مجلس الشراب واللذة وذكر ما جرى من المسائل الرابع في اعتبار الطبائعي بمسائل توضح فضله وتظهر جهله الخامس في سؤال الكحال عما لا يسعه جهله السادس في اعتبار الجرائحي بمعرفة التشريح والمنافع ، السابع في امتحان الفاصد بما يحتاج الى معرفته من المنافع . الثامن في اعتبار الصيادلة بمعرفة العقاقير والادوية التاسع في غيرة الاطباء وتغايرهم على المرضى . العاشر في اعتذار الطبيب المصروف وذم الصارف له . الحادي عشر في استهانة العامة بالصناعة الطبية والرد عليهم . الثاني عشر في خاتمة الكتاب وذكر سبب

انقطاع الزيارة والاجتناب ونسأل الله ان يوفقنا لدرك الاغراض الصحيحة، والانفاظ الفصيحة، ليكون ما نأتي به ماالكاً لرضى من حث على نظم منتثره وجمع منتشره، انه جواد مجيد قريب مجيب.

الاول في فاتحة الكتاب

قال بعضهم لما دخلت ميافارقين سألت عمن بها من المتطببين. فارشدت الى دكة بالعطارين عليها شيخ من ابناء السبعين. مرهف الشمايل حلو الدعابة عذب الفكاهة حسن المعارضة متميز عن اضرابه متشبث باذيال الادب ذو براعة في صناعة الطب فملت نحوهُ مسلماً فرد عليَّ السلام. واوسع لي المكان وتلقاني بالاكرام والاعظام . وقال من انت قلت غريب رمت بي الاقدار الى هذه الديار. قال وما صناعتك قلت طبيب. قال انفع الصنائع، واربح البضائع، ومن اين اقبلت قلت من بغداد. قال بغداد سرة الدنيا وقطب الارض

وعرصة الادب ومعدن الفضل ودار السلام وحضرة الامام وقبة الاسلام وانشد

احبُّ الحلولَ بتلك الطلولِ وجرَّ الذيولِ بذاك المقام

دخلتها قديماً لطلب العلم وزمانها كالربيع الممرع وايامها كالاعياد والجمع ، وترابها اثمد تكتحل به الاحداق. وحصاها در تقلد به الاعناق. وبضائع العلماء قائمة المواسم والاسواق ولقيت بها ابن الخمار وابن عبدان ونظيف بن يمن القيس وابن نكس وابا الوفاء المهندس . قلت له لِمَ رحلت عنها أمللت المقام بها فانشد

لعمركَ ما فارقتها عن قلىً بها واني بشطَّيْ جانبيها لعارفُ

قلت فكيف سمحت نفسك بمفارقة هؤلاء الفضلاء وهم كانوا لك الغرض الاقصى ، فقال والله يا سيدي ما صعدت الى هذه البلد وقد بقي من القوم احد قلت ثم ماذا قال

ثم انقضت تلك السنونَ واهلها فكأنها وكانهم احلامُ

ويعزُّ عليَّ ما فعل الدهر باولائك الانجم الزهر فقد فقد والله العلم بفقدهم ومات الفضل بموتهم . ولعلهم ياسيدي لو عاشوا الى زماننا هذا لماتوا قبل اوانهم قل الطالب وزهد الراغب وصارت الكتب تباع على العطارين للحوائج وعلى الذهبيين للسفاتج وعلى الملاحين للمزاود هذه والله صناعة دثرت وخمدت نارها وطفيت وصار المتعرض لها غرضه التكسب لا التطبب وقد قيل انه بالحكمة تطبُّ الابدان وبالدراهم تمرض الحكمآء فاذا رأيت الطبيب يجر الدآء الى نفسه فتى يداوي غيره شعر

وهل يرجى لذي سقمٍ شفاءٌ   اذا ما كان مُسقمهُ الطبيبُ

ثم قال لي فانت لَمَ لم تقم ببغداد فقلت شعر

تقيم الرجالُ الاغنيآء بارضهم   وترمي النوى بالمعسرين المراميا

اما سمعت قول الشاعر

بغداد دارٌ لاهل المالِ طيبةٌ   وللمفاليسِ دارُ الضنكِ والضيق

ظللتُ حيرانَ امشي في ازقتها　　كأنني مصحفٌ في بيتِ زنديق

قال صدقتَ ولكن عرفني لمَ قصدت هذه الديار قلتُ لزيارة غمر الزعفران ونيل الارتسام بالطب ان طابت لي هذه البلاد. فاضطرب اعزيمتي وقال هيهات يا هذا لأن تسمع بالمعيدي خير من ان تراهُ ، خاب والله سعيك ، وكبا زندك ، وليتني كنت مثلك خالي العذار فاهرب من هذه الديار . فما يتأتى لي بها مقام لانني وردت اليها وبها قوم يحسن عليهم الثناآء ويقبح عند تقريظهم الاستثناآء ، ان اجتمعوا حسبتهم جوهراً منظوماً ، واذا تفرقوا خلتهم لوءلوءاً منثوراً

شعر

من تلقَ منهم تقلْ لاقيتُ سيدهم　　مثل النجوم التي يسري بها الساري

قلت فما فعل الدهر بهم قال ماتوا والله هم واولادهم وغلمانهم ولكن بعد ما اتعبوا خاطري واسهروا ناظري في علاجهم الى ان قضى الله بموتهم فلله درهم وسقى صوب الغمام

قبورهم فانهم كانوا كفوني مؤونة الزمان مدة حياتهم
وكنت في تضاعيف برهم لا اخلو من صبية تفطم اوغلام
يختن او مفصود اول فصادة او مريض ادخله الحمام دع
هدايا الاعياد والنواريز وما يحصل من زبون الدكان فانه ما
كان يموت لي مريض الا وقد مرض لي عوضه اثنان فانا
في تضاعيف ذلك في فلك من العجب والتجمل كأنني قرواش
بن المقلد او ملك ميافارقين وآمد . واليوم اذا انقطع الوتر
قصدنا عرقين بدانق . ولولا ان عندي بقية من موسم
سنة الخوانيق اترمق بها والا كنت من الهالكين . واظرف
من هذا باسره انه كان في كل خريف تكثر الامراض .
وفي كل خمس سنين يعرض وباء وموت . فمنذ يوم ملك
بن مروان هذه الديار كسدت الصناعة وبارت البضاعة
وصحت الاجساد وانكشف الوباء عن هذه البلاد وانقطعت
علة الخوانيق . وكانت قل ما فارقت الحلوق . وبطلت

الامراض الخريفية وكان موسماً مالوفاً معروفاً فصرنا لا نرى مريضاً الا في كل حين ولا نشاهد جنازة الا في كل زمان بعيد ولا نسمع صراخاً الا في كل دهر مديد حتى كأن اقبال الامير قد عصم الابدان من الاسقام وحصن الاعضاء من الآلام او كأنه من بين آل مروان قد اخذ للخلق من الدهر الامان. فما في الناس الا من ينشد فيه شعر الحسن بن هانيء :

علقتُ بحبلٍ من حبالِ محمدٍ　　أمنتُ بهِ من طارقِ الحدثانِ
تغطيتُ من دهري بظلّ جناحهِ　　فعيني ترى دهري وليس يراني
فلو قيلَ للايام ما اسمي مادرت　　واين مكاني ما عرفنَ مكاني

يا سيدي ما اسعده على نفسه والناس . وما أثقل رجله علينا منذ يوم ولي ديارنا ما يفتكر احد فينا ولا يحتاج الينا ولا يلتفت نحونا بعد ان كان الطبيب في هذه البلد اعزّ من جبهة الاسد . اليوم جمهور الحفارين والحمالين قد بعدوا عن هذه الديار وتشتتوا في القرى والامصار. واشتغل اكثرهم

بالزروعات وسوق العجل والفدان . ونقل الجبصين من رؤوس الجبال الى البلدان. وربما يلقاني البطال منهم فاسكن منه لوعتهُ ويقول ربما عاد ذلك الزمان شعر

عسى الايام ان يُرجعن قوماً كما كانوا على اقصى المرادِ

يا سيدي عن اي شيء اخبرك من تلك الايام . والله لقد كانت تخرج الجنائز الى المقابر بالثياب الديباج كأنها زهر البستان ولقد عدَّ في يوم من ايام الوبآء ما قد خرج من باب واحد من الجنائز فكان ماتي جنازةٍ ممن كنت اطبهُ انا سوى من كان يطبهُ هذا الطبيب الذي في جواري وكانت تقف لي كل يوم على باب داري خمسون بغلة من بغال الجند والكتاب سوى رسل التجار ومن تلك السنة صرت اتيهَ من عمارة بن حمزة واعزّ من عمر بن معدي كرب فمن لنا بذلك الموسم وانشد

قد ذقتُ منهُ ما ليس يقلعهُ ابو الحسين القلاع من ضرمي

يا اخي ان كنت واهل هذه البلاد لا ترى فيهم صحيح

المزاج ولا مستغنياً عن التداوي والعلاج . والجنائز تجلى كالعرائس وتحط على المقابر كالنجوم الزواهر . واصوات الصوائح في المآتم والنوائح كترنم المزاهر . واصطخاب الآلات والمزامر . ومغسلوا الموتى لا يوصل اليهم الا بالملاطفات . والاطباء يتزاحم على دكاكينهم بالمهاري والبغلات اليوم وحقك الناس متشاغلون بتصفية القناني . والاقداح واختيار الملاهي والغواني . والضرب على المثالث والمثاني والغناء بشعر الحسن بن هاني :

قد علقنا من الامير حبالاً　　أمنتنا طوارقَ الحدثانِ

يا سيدي اي شيء تعمل في هذا البلد والله اني ابقى اليوم والشهر لا يسألني انسان حاجة ولا تجتاز بي جنازة . واذا سهل الله وجاءنا مريض كان كما قال المثل اذا كسد اصحاب القلانس جاءهم زبون معوجوا الرؤوس . وقد والله ياسيدي سئمت نفسي هذا البلد وملني اهلهُ . لان الماء اذا

وقف ظهر نتنه . واذا كثر لبثه ظهر خبثه . ولقد حدثتني
نفسي دفعات بالخروج منه ثم اقول الى اين اخرج ولمن
أقصد واين اتغرب وما بقي اقل مما مضى ومع اليوم غدا.
وما يقعدني الا الالف . والزمان كلما مرّ جاء الى خلف.
كلُّ هذا غرضه ان يبغض لي المقام . ثم قال حدثني ما
تعمل في غمر الزعفران . قلت يا سيدي سمعت جالينوس يقول
ان قياس طب الهياكل الى طبنا كقياس طبنا الى طب
الطرقات . وانا رجل ضعيف المعدة ناقص الشهوة . وما
ابقيت دواء الا شربته وما نفعني وقد وصف لي ان
في هذا الغمر رجلاً من فضلاء الرهبان الذين رأوا الدنيا
بعين الحقيقة فاطرحوها عن خبرة بها فانا امضي للقائهِ
والتبرك بدعائه . فضحك الشيخ مني حيناً وقال ما اشبه
هذا منك الا برجل رمدت عيناه فلقيه صديق له فقال
له ارى وجع عينيك قد طال فبماذا تعالجهما قال بدعاء الوالدة
فقال له لو اضفتَ اليه قليل انذروت لكان اسرع في الاجابة.

وكذلك انت لو اقتنعت عن دعآء الرهبان بمعجون الزامهران كان ابلغ في تقوية المعدة وتنبيه الشهوة . وهذا دوآء عندي عملته لنفسي وانا اواسيك منه بما تنتفع به . هات عرفني كيف هضم معدتك للطعام وكم مقدار غذآئك في هذه الايام . قلت اما شهوتي فعلى غاية التقصير وغذآءي نزر يسير . فلما نظر الشيخ مني الى ضعف المعدة وقلة الشهوة قال أتقوم الى البيت يافديتك لنأكل شيئاً ونتحدث فقد آنست بك لانك لست من اهل هذا البلد فتخرج حديثنا الى احد . وقلما آنست بانسان . وما انا مع الاخوان والاصحاب. الا كلمع السراب .

عدوك من صديقك مستفادٌ فلا تستكثرنَّ من الصحابِ
لان الدآء اكثر ما تراهُ يكونُ من الطعام او الشرابِ

فتمنعت وحلفت له انی قد اكلت فالحّ عليّ فقمت الى داره وجلسنا ساعة نتحدث واذا الغلام قد اتى بطبق عليه منديل وفوقه خبز وخل وبقل فلما وضعه بين ايدينا قال :

وما الخصبُ للاضياف ان تكثر القرى ٭ ولكنما وجهُ الكريمِ خصيبُ
أضاحك ضيفي قبل انزال رحلهِ ٭ فيخصب عندي والمحلُ جديبُ

ثم قال يا سيدي نحتاج ان نعتذر فالعامة تقول اذا طرقت فما حضر واذا دعيت فلا تذر، ولكن الايام طوال .واخذ رغيفاً وقال ، رحم الله العجوز لقد كانت لها عناية حسنة بالخبز وهي علمت هذا الغلام يخبز هذا الخبز كل يا سيدي فانه مغسول الحنطة، مختمر العجين . معتدل الملح خانجي الظهر . مورد الوجه . علك المضغ . سريع الهضم ملائم الجسم ثم اخذ طاقة هندباء وقال اعلم يا سيدي ان الهندباء انواع اجودها الرقيقة فانها خير من غيرها واصلح في اصلاح الكبد واسرع في تفتيح السدد وكثيراً ما سقي ماؤها مع الراوند انظر ياسيدي الى عرض ورقها وصفاء خضرتها وتطم عذوبة طعمها ورطوبتها وبردها لا سيما اذا اكلت فخيرٌ ان تؤكل مع هذا الخل الثقيف انظر اليه فما معولي في دفع الصفراء الا عليه . ولكن لا حيا الله هذا

الغلام فانه غلط منذ ايام وقدم اليَّ منهُ شيئاً قليل المزاج فاكلت منه شيئاً على اغترارٍ بهِ فما ان حصل منه يسير على لساني حتى طار الى حلقي ورأسي فبادر رعافي وسالت دموعي واتصل بي السعال وبقيت متألماً عدة ايام . ثم قال كل منهُ واحذرهُ . فلما هممت بالاكل قال ألست على النية في الحمية قلت لعلي اختار يوماً لذلك . قال اعظم من الذنب اليأس من الرحمة واشد من الخطيئة المماطلة بالتوبة وشرٌ من المرض التسويف بالحمية . وقد قيل ان الشفيع المتخلف عدو طالب الحاجة والطبيب المهتجم رسول ملك الموت والمريض المخلط كدودة القز التي كلما ازدادت نسجاً ازدادت من الحيوة بعداً قلت يا سيدي انا والله كاره للحمية فقال لعمري ان الحمية صعبة ولكن افضل الاعمال ما اكرهت عليهِ النفوس وفيثاغورس يقول من ساس معدتهُ فقد قرب جميع الاعضاء من الاعتدال وانت تحكم الصناعة ما كنت اظنك تحتاج الى بعض هذا فانه قبيح

بالطبيب ان يرى مخلطاً كما انه قبيح بالفقيه ان يكون فاسقاً فاستخر الله وامض العزيمة في الحمية وانظر الى الغذاء تصورته اذا استحال في غده فما احسن ما قال سقراط وقد اجتاز على كساح قد اخرج من حش كساحةً (١) يا اهل اثينا هذا الذي كنتم تغلقون عليه ابوابكم وتقيمون لحفظه الخزان وكانت شهواتكم تستخدم عقولكم في اعداده اليوم نفوسكم أنفة منه وطباعكم نافرة عنه . وحواسكم مع هذا ايضاً تروم مثل ما كان هذا عنه . ثم قال كل وتدبر بما قد سمعت فان هذه النصيحة متلقاة بالتحية وهذه الموعظة موشحة بالحكمة . فلما بدأت بالاكل أمسك يدي وقال اسمع كلاماً ينفعك فيما شكوت ويقرب عليك صحتك اعلم ان مداواة الامراض ضبط الشفتين والرفق باليدين واخذ المريض نفسه بموجب العقل لا بد واعي الهوى والجهل فان

(١) الكساحه ما يكسح من زبالة ونحوها والحش البستان ويكنى به عن المستراح

العقل يلتمس من الاغذية انفعها والهوى يطلب من الاطعمة اشهاها والذها وقلما يجتمع في الشيء النفع واللذاذة فان النفع قلما يكون في الغذآء واللذاذة قل ما توجد في الدوآء فاياك ان تتلذذ بحلاوة الغذآء فتتنغص بمرارة الدوآء وانشد

فان المرَّ حين يسرُّ حلوٌ ‌ ‌ ‌ وان الحلوَ حين يضرُّ مرُّ
فخذ مراً تصادف منهُ نفعاً ‌ ‌ ‌ ولا تعدلْ الى حلوٍ يضرُّ

واياك ان تؤثر لذة عاجلة فانها على المرء مضرة آجلة لاسيما وانت مريض وقد امتلاءت من الغذآء . قلت يا سيدي قد انهضم وانا مشتهي للطعام فقال جوع كذاب وشهوة كالسراب وانشد

وللهضوم مواقيتٌ مقدرةٌ ‌ ‌ ‌ وكلُّ شيءٍ لهُ حدٌّ وميزانُ
فلا تكن عجلاً في ما تحاولهُ ‌ ‌ ‌ فليس يحمدُ قبل النضج بحرانُ

قلت فما رأيك في التقدير قال الراي التوقف فان الداء الدوي ادخال الطعام على الطعام وهو الذي افنى البرية

وقتل السباع في البرية فان التخمة اذا بقيت اتلفت واذا تحللت ضعفت وبقراط يقول لا تغترّ بامرٍ جرى على غير القياس مثل جوعٍ يجدهُ المريض قبل النقاهة. قلت يا سيدي اما تعلم ان القدماء يقولون ان القوة للمريض كالزاد للمسافر والمرض كالمسافة ولهذا يجب ان لا يهمل الطبيب امر القوة خوفاً من سقوطها قبل منتهى المرض. قال وما علمت ان بقراط يقول ان الابدان غير النقية كلما غذوتها زدتها شرًّا قلت صدقت ولكن القدماء ايضاً يقولون ملْ مع المريض في بعض شهواتهِ فان الطعام الشهيّ وان ضرّ خير من غير الشهي وان نفع. قال الشيخ هذا صحيح الا ان القدماء ايضاً يذكرون انَّ الابدان المملوءة بالفضول تحيل الاغذية وان كانت جيدةً الى طباعها. قلت وقد قالوا ايضاً اطرح العلاج بالدواء ما امكن التدبير بالغذاء. قال الشيخ الذي اعلم انك رجل معدتك رديئة واحشاؤك ليست نقية ولا آمن عليك ان دنوت من الطعام ان تقع في بلية

قلت يا سيدي انا آكل واستمين بالله . قال الشيخ لاحول ولا قوة الا بالله . اذا انقضت المدة كان الحيف في المدة فاضربت عن كلامه ثم هممت بالاكل فقال الشيخ مهلاً مهلاً اعلم شفاك الله ان صورة العلم عند العقل كصورة الغذآء عند الجسم الا ان بردآءة الغذآء يهلك الجسم ويهبط هوَ والنفس الى اسفل السافلين وبحقيقة العلم تصفو النفس وتستصحب معها الجسم الى عليين ومقر الروحانيين ومقام العز ومعدن البهآء والفوز . والحكيم بقراط يقول ليس بالخبز يحيي الانسان بل بكل كلمة طيبة وسقراط يقول ان احببت ان تأكل فلا تاكل حتى تأكل . وافلاطون يقول آكل لأعيش لا أعيش لآكل فاياك ان تهجم على الاكل لكن تأنَّ وتمهل وكن كالخياط الفارة (١) الذي يقدر الف مرة حتى يقطع فما في العجلة خيرٌ وخذ بقول الاول

قد يدركُ المتأني بعض حاجتهِ وقد يكونُ مع المستعجلِ الزللُ

(١) الفاره الحاذق والماهر النشيط

قلت له ولمَ لا آخذ بقول الثاني

وربما فات قوماً جلُّ امرهم . من التأني وكان الحزمُ لو عجلوا

قال فاذا عزمت على الاكل فصغر اللقم وقطعها بالثنايا وكسرها بالانياب واطحنها بالاضراس وقلبها باللسان وابلع سحيقها واعد الى طحن الاضراس جريشها وقدّم البقول على الثرايد (١) واذا اكتفيت بالثرايد فلا تعدل الى التوابل (٢)

وانشد .

فالنفسُ راغبةٌ اذا رغّبتها . واذا تردُّ الى قليلٍ تقنع

واياك واللحمان فسقراط يقول لا تجعلوا بطونكم مقبرة للحيوان وجالينوس يقول اجهل الناس من ملأ بطنه من كلما يجدهُ . واعتمد على مقاومة الصفراء بالاشياء الحامضة والبلغم بالطعوم المالحة والسوداء بالثرائد الدسمة . واعلم ان الصفراء كالصبي الصغير ترضيه الثمرة وتسخطه الكلمة .

---

(١) جمع ثريدة وهي فتات الخبز في المرق

(٢) جمع تابل وهي ابزار الطعام اي مايطيب به الغذاء من الاشياء اليابسه كالفلفل والكمون

والسوداء كالثور يسوقه الصبي والمرأة واذا غضب لم يضبط
والبلغم كالسبع ان قُتل والا قَتل فاقهر البلغم قهرك عدوك
واخضع للصفراء خضوعك لمن فوقك وسالم الدم مسالمتك
صديقك وجاهد السوداء مجاهدتك عدوك واختصر
يا سيدي من كثرة الالوان فان الالوان المختلفة الطباع
تحتار المعدة في هضمها وتعجز القوة عن احالتها ولا تأكل
ما يكدُّ اسنانك في مضغه فتعجز معدتك عن هضمه .
واجعل يا سيدي ما يرد الحشى اثلاثاً ثلثاً طعاماً وثلثاً شراباً
وثلثاً نفساً واختصر من الغذاء فما يساوي الدنيا التردد
الى بيت الخلاء وقل من شرب الماء البارد في تضاعيف
الغذاء وغلب العقل على الهوى فانهُ قلَّ من غلب هواهُ على
عقله فلم يعطب وقل من حرص على النساء فلم يفتضح
وقل من ابتلي بوزراء السوء فلم يهلك وقل من اكثر من
الطعام والشراب فلم يسقم وجعل الشيخ يرنُّ في ضرب
من هذا الفن ليشغلني عن الاكل فلما اطال كلامه واتسع

في الهذيان ميدانهُ اضربت عن كلامهِ صفحاً واقبلت على الاكل فامعنت في الخل والبقل وهو لا يستزيد اداماً ولا يستدعي طعاماً حتى خيل لهُ انني قد شبعت وتصور انني من الخل والبقل قنعت فقال لغلامه ارفع هذا عنا وقرب الشوآء منا . فقدم الغلام حملاً مشوياً فمددت يدي الى الاكتاف فقال اياك واياها فانها تقبل من القلب الفضلات فملت نحو الزّور فقال لا تتعرض له فانه بطيء الهضم فعدلت الى الكلى فقال هذه معدن البول ومائية الدم فاومأتُ الى الافخاذ فقال انها مجاورة للمعى والبراز فاستأذنته في الالية فقال الله في نفسك فانها وخمة رديئة تميت الشهوة وتحدث الهيضة فقلت فعلى ماذا اعتمد قال على الاطراف من العضد فهي الطف ما في الخروف لاسيما من هذا الرضيع المعلوف فاومأت الى اخذ طرف كان قريباً مني فقال تأخذ من الاطراف المؤخرة والمقاديم اشرف وتأخذ اليمنى منها واليسرى الطف لقربها من القلب والحرارة

الغريزية وبعدها من الزبل والفضلات الردية خذ ما
اعطيك وتجنب ما سواهُ فانه يؤذيك . ثم فرك احد
الاطراف اليابسة وقال هاك هذه اليمنى فان الاعتماد كان
عليها في الرعي والسعي فهلم نحوها يا ابن اخي فاخذتها
ثم قال لغلامه ارفعه عني عسى ان نكفى غائلته ونأمن
رداءته وبليته فابلوغ الشهوات قرائن مهلكات وعوارض
مؤلمات فربَّ اكلة قد حرمت اكلات وهات ما عندك
فقدم مضيرةً (١) بلحم بقر فبدأت آكل فقال اعلم وفقك
الله ان الآكل يستمري الاطعمة الموافقة له ولا يستمري
الاطعمة المخالفة لطبعه وهذه مضيرة بلحم بقر والقدماء
ينهون عنها لمن به ما بك وعن الجمع بين لحم البقر واللبن
كما ينهون عن الجمع بينه وبين السمك وهذه والله معدن
المفاصل والنقرس واللقوة والقولنج والفالج فالله الله ان
تحملك الشهوة على الاستضرار بهذه المضيرة . ثم قال

(١) قال الفيروزبادي المضيرة مريقة تطبخ باللبن المضير اى الحامض

لغلامه ارفعها عنا ففي رفعها الخيرة لنا فاني لا آمن ان ينقاد بزمام الهوى الى مناخ الشهوة فيقع من هذه المضيرة في امراض صعبة فرفعت. وقدمت ارزة بلبن قد عملت تحت الحمل فتصورت انه لاشيء يرجى بعدها فدعت الضرورة الى الشبع منها فحين رآني فيها ممعناً وعلى اكلها مقبلاً تبين الغضب في وجهه فاومأ الى الغلام برفع الطبق فظن الغلام انه يستدعي منه الحلواء فقدم جاماً فيه فالوذج صبيغ اللون محكم العقد فازداد غضبه وكاد يملأ الجام بتسكاب دموعه وقال اعوذ بالله من سوء ما جرت به المقادير اعلم يا سيدي انه ليس الآمر بالخير باسعد من المطيع له ولا الناصح اولى بالنصيحة من المنصوح له فاسمع نصيحتي واعلم ان الحلواء مضرة بالاسنان مبثرة للفم واللسان لاسيما اذا اتبعت بالماء البارد فان المأمون شكا وجع اسنانه الى طبيبه جبريل فقال له يا امير المؤمنين امتنع عن الماء البارد بعد الرطب (١)

(١) تضييج البسر الواحدة رطبه

والسكر فقال ويحك يا جبريل لولاهما لما اردتك واي
لذة تبقى للسان اذا امتنع الانسان من الماء البارد والحلوآء
وخالف جبريل فيما وصف فكان من اسنانه ما قد عرف
وانا استنزلك عن هذا الجام فان العاقل لا يؤثر اللذة على
الصحة فعرفني على ما عزمت. قلت على الاكل والاتكال
على الله فقال كأنك ان تركت الحلوآء لا تتكل على الله
ثم قال اعلم ان الطبيب واسطة بين الله والمريض والوسط
فيه ما في الطرفين ففيه من صفات الله تعالى رحمة ومنحة
ومن المريض سؤال ورغبة ففرضهُ العافية ودأبهُ اهدآء
النصيحة والتوصل الى صلاح كل نسمة وانشد

لو غضبت روحٌ على جسمها … أصلح بين الروح والجسمِ
كأنهُ من لطفِ افكارهِ … يجولُ بين اللحم والعظمِ

فلا تسيء فيَّ الظن وتنسبني في هذا القول والفعل الى
البخل فانه لا بد من النصيحة لك فلا يثقل ذلك عليك
فبالله انني اشتهي كثيراً اللون اللذيذ واؤثره ثم اخاف

غائلته فانهي نفسي عنه' وربما غلبتني الشهوة فلا ازال اذكر نفسي بالآلام والاوجاع واحضر بين يدي آلات العلاج ثم قال لغلامه ارفع الحلواء وهات ما عندك فما شككت الا انه' جام آخر ولون قد تأخر واذا طبق فيه كلبتا (١) الاضراس ومكاوي الطحال والراس والنشاب(٢) وصنانير السبل والظفرة وزراقات القولنج وقاثاطير التبويل وملزم البواسير ومخرط المناخير ورصاص التنقيل (٣) ومنجل الثآليل ومخالب التشمير ومحك الجرب ومنشار القطع ومهت (٤) القدح ومجرفة الاذن ومقص السلع وخشبة

(١) الكلبتان بلفظ التثنية الة من حديد يأخذ بها الحداد الحديد المحمى والكلاب حديدة معطوفة الراس جمعة كلاليب

(٢) النشاب من النشوبه وهى ما يعلق به الشيء الواحدة نشابه

(٣) كسر العظام حتى يخرج منها فراشها والفراش جمع فراشة وهى كل عظيم رقيق

(٤) الة البهت اى الكسر والفت. والقدح عملية فى العين لاستخراج الماء الازرق

الكتف وحمال الورك ومفتاح الرحم ونوار النسا (١) ومكمدة الحشا ومقدح الشوصة (٢) ودرج المكاحل ومرهمدان (٣) المراهم ودست المباضع فلما نظرت اليها تنغصت بالاكل وتصورت البلاء والسقم فقال لي يا سيدي يجب على الانسان الشكر لله تعالى على الصحة وان يسأله دوام العافية اليس هذا جميعه لاجل الاكل والمضغ أعد لهذا الجسد وانشد

كم دخلت أكلة حشى نهِمٍ ... فاخرجت روحهُ من الجسدِ
لا بارك اللهُ في الطعام اذا ... كان هلاكُ النفوس بالمعدِ

ثم قال لغلامه اعفنا من الطعام واعدل بنا الى الطشت والاشنان (٤) فغسلنا ايدينا واخذ مخدة واتكأ وقال هات يا سيدي تحدث فان ابا علي كان ينشدنا دائماً

(١) النسا بالالف المقصورة عصب الورك . والنوار آلة يغرز بها
(٢) الشوصه نوع من ذات الجنب
(٣) لعلها فارسية ويراد بها وعاء توضع فيه آنية المراهم
(٤) الاشنان (يونانى) الحرض وهو الذى تغسل به الثياب ويسمى بالغاسول قال ابن البيطار عن البكرى هو نبات لا ورق له وله اغصان دقاق فيها شبيه بالعقد

ولقد سئمتُ مآربي　　فكأنَّ اطيبها خبيثُ
الا الحديث فانهُ　　مثل اسمهِ ابداً حديثُ

وبدأ الشيخ يتعمد الحديث ويتشجع ويتكلف النشاط ويتصنع وانشد

وتجلدي للشامتين أُريهم　　اني لريب الدهر لا أتضعضعُ

فقلت يا سيدي قد تعلقت بذلك المعجون ما دمت على الحمية فاسألك ان تعرفني متى آخذهُ وكم مقدار ما اتناول منهُ . فقال ما هذا حجر يحتاج قبل الطحن الى النقر ولانت الى ما يقطع بعض شهوتك احوج منك الى ما يقوي معدتك فاعرض عن هذا وهات حدثني اي شيء تحفظ من النوادر قلت اخبار ابي نواس قال ومن الشعر قلت قصيدة في التطفل قال ومن الابيات في الامثال السائرة قلت قول الشاعر :

نزوركم لا نُعنيكم بزورتكم　　انَّ الكريمَ اذا لم يُستزَرْ زارا
يقرّبُ الشوقُ داراً وهي نازحةٌ　　من عالج الشوقَ لم يستبعد الدارا

قال فاي شيء عانيت من المهن قلت الطبيخ قال فما الذي قرأت من الطب قلت تدبير الناقه قال فما العلة التي أدتك الى ضعف المعدة قلت الشهوة الكلبية قال فاي شيء أخرجك من بغداد قلت كان بها غلاء ولحقني بها ضرر فاغتاظ ونهض وكان متكئاً فجلس وانشد

بذا قضت الايامُ ما بين اهلها مصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائدُ

قلت يا سيدي اذا آيستني من الدواء أفتأذن لي ان اسألك عن شيء مما اجدهُ قال قل وارجوان يكون سؤالاً مباركاً قلت ما السبب في انني لا اقدر على شرب الشراب ولا يلائم معدتي في حال من الاحوال فاعجبهُ ما سمع من قولي وقال هذه عادة ظريفة ان تكون المعدة قويةً على الاكل وعن الشراب ضعيفة

القسم الثالث

﴿في نعت مجلس الشراب واللذة وذكر ماجرى من المسائل﴾

فلما آنس الى قولي ضحك واعتقد ان باطن هذا القول

كظاهره فقال لغلامه هات نبيذاً فاحضر طبقاً ونقلاً وخمراً فاخذ القدح وغسله وقال انظر حسن هذا القدح فانه حصل لي من نهب قصر الامارة ايام الفتنة وكان عندي احسن منه ولقلة المعيشة في هذه الشتوة احتجت فبعته وقال

وقد تخرج الحاجات يا أم مالك كرائم من ربٍّ بهن ضنين

ولكن ايام المشمش لا بد ان تاتي ونرد عوضه لا سيما وشتاؤنا كان كثير الجنائب(١) والمطر وربيعنا هذا شديد الاختلاف والتغير واظنها ان شاء الله سنة وبائية ثم ملأ قدحه وقال هذه الخمرة التي كنا زماناً نشتهيها وبقراط يقول انها تسكن العطش وتشفي من الم الجوع وفيها عشر منافع خمس منها تتعلق بالجسد وخمس بالنفس فاما التي تتعلق بالجسم فانها تجيد الهضم وتدر البول وتحسن اللون وتطيب النكهة وتزيد في القوة واما التي تتعلق بالنفس فانها تسر النفس وتقرب الامل وتشجع القلب وتحسن الخلق وتقاوم

---

(١) جمع جنوب وهي ريح تخالف الشمال

البخل ثم شرب وقال لغلامه امضِ الى تلميذي ابي جابر الفاصد وادعهُ ومعهُ عودهُ وجز بصديقينا ابي ايوب الكحال وابي سالم الجرائحي وقل لابي موسى الصيدلاني بحياتي عليك الا جعلتنا في هذا اليوم من احد زبونك فما كانت هنيهة حتى حضر القوم فسلموا فرددنا عليهم السلام وسألوا عني فاخبرهم بحالي ثم بدأ القوم يشكون ما يقاسونهُ من المعيشة ويتذاكرون ما بقي من الصيدلة فرأيت قوماً قد لاذوا بالادب الا ان السوقية عليهم اغلب فسكتوا ساعة ثم اخذوا في الكلام في مسئلة فقال الشيخ اليوم خمرٌ وغداً امر ما فينا اليوم قرآءة ولا تدريس لان العلم الدائم يكدُّ النفوس وجالينوس يقول ان العلمآء محتاجون الى ان يتركوا التفكر وقتاً ما لئلا ينهك قواهم واجسامهم فان الاجسام آلة القوى والافعال ثم ملأ القدح وقال لتلميذه اعلم ان القدمآء يقولون ان العود مبني على الطبائع الاربع وان الضرب من المغني يجري مجرى المبضع من

الفاصد والاوتار كالعروق ووجه العود كالاعصاب فاياك ان تضرب ضرباً يقع ايقاعهُ خارج الاوتار واعتمد ما سمعت مني وهات غنني بشعر ابي نوءاس في استاذنا جبريل الطبيب فضرب الغلام واندفع يغني منشداً

سألتُ اخي ابا عيسى　　وجبريلُ لهُ الفضلُ
فقلتُ الراحُ تعجبني　　فقال كثيرُها قتلُ
فقلتُ لهُ فقدّرها　　فقال وقولهُ الفصلُ
وجدتُ طبائع الانسا م　　نِ اربعةً هي الاصلُ
فاربعةٌ لاربعةٍ　　لكلِّ طبيعةٍ رطلُ

ثم بسطهُ

اعدلا بي عن دارسات الطلولِ　　وقفا بي في المربع المجهولِ
واسقياني على تصاخبِ اوتارٍ م　　جرى بينهنَّ خفق الطبولِ
ثم جسَّ الاوتار ويكَ بلطفٍ　　جسَّ بقراط نابضاتِ العليلِ

فطربوا وشربوا كلهم الا انا فلما آيستُ من الشراب بدأتُ اعمل في اكل النقل فقلت له ان انفع الانقال لي ما هو يا سيدي فقال ان المتوكل سأل جبريل عن انفع الانقال

فقال له نقل ابي نوأس يا امير المؤمنين فقال وما هو قال

مالي في الناس كلهم مثل ماي خمر ونقلي القبل

هذا قالهُ جبريل للمتوكل وهو صحيح ما به ما بك قلت صدقت الا ان هذا يصفهُ جبريل للمتوكل وفي مقاصيره اثنتا عشرة الف جارية فانا يا سيدي على ما اعتمد في هذا النقل أعلى الشيخ ابي ايوب الكحال ام على ابي سالم الجرائحي فغاظهُ هذا القول مني وقال أليس ذكرت انك طبيب قلت بلى ثم قال اي شيء تعاني من اجزاء الطب قلت الطبائع

﴿ القسم الرابع ﴾

﴿ في اعتبار الطبائعي بمسائل توضح فضلهُ وتظهر جهلهُ ﴾

قال أسألك عن مسئلة قلت افعل فبدأ وانشد:

أعذني ربِّ من حصرٍ وعيٍّ ومن نفسٍ اعالجها علاجا

ومن زلاّت نفسي فاغفرها فاني لا اطيق لها لجاجا

ثم عاد وقال اسألك عن مسئلة قلتُ افعل فقال الشيخ لا

تظن اني اسألك لمَ صار الحبشة والصقالبة وبلادهم مختلفة وطبائعهم متضادة يغتذي كل منهم بالاغذية الحارة اليابسة ويشربون الخمور ويتغلفون بالمسك والعنبر ووجب ان يجرى الامر فيهم على خلاف ذلك التدبير فهذا مما لا اسألك عنه لانه مقول بالجواب ان الحبشة يستعملونه غذآء والصقالبة يأخذونهُ دوآء لئلا يلزم ان تستعمل انت مثل ذلك في الصيف والشتآء ولا اسألك ايضاً عن الخنزير وهو من اعدل الحيوان وغذآؤه يجب ان يكون اعدل النبات وتراه يغتذي باخبث فضلات الانسان لان هذا من المسطور المذكور ولا اسألك ايضاً عن القدمآء لِمَ قسموا البلغم من طعومهِ ولِمَ جعلوا الزجاجي والمسيخ احد اقسامهِ وليس لهُ طعم كاحد اصنافهِ ولِمَ قالوا ايضاً انهُ بارد وهو أحرّ من الدم في الهضم الثالث ولا اسألك عن الولادة هل هي طبيعية وقد جمعت اجناس الامراض الثلثة ام هي ليست بطبيعية وهي اصل الافعال الطبيعية والانسانية

لكني انسألك واقول لك ربما نام الانسان وهو حاقن فرأى كأنهُ يبول فلا يبول فانتبه وقد حفزهُ البول للخروج فنهض وبال قلت نعم قال فما الذي منع البول من الخروج مع حدته وامهلهُ الى الانتباه على كثرته قلت لا اعلم قال فمن لا يتأتى له الكلام في بوله يهجم على اثقال الناس ويأكلهما ثم التفت الى الحاضرين وقال صدق انهُ لا يعلم لان البطنة تذهب الفطنة. والله لو اكل ما اكله بقراط لاضحى يعتقد ان القوة العقلية في المعدة. ثم قال لي يا مبارك الناصية اذا لم يتشاغل الطبيب بمسائل الاطباء وتواريخ القدماء والبحث عن غوامض الكتب البقراطية وتفاسير الست عشرية وعلل البحارين الشمسية والقمرية وعن النماء وهل هو من خواص الاعضاء المتشابهة الاجزاء ام الآلية وعن النبض غير المنتظم في نبضة واحدة وفي نبضات كثيرة والا فبماذا يشغل نفسهُ أبأخبار المخنثين والمغنين وطيب لحن ابن شريح وترنم معبد ونوادر بدعة الكبيرة واهزاج سريرة

الراقصة وايقاع مزاحم الرقاص ؛ واذا ايرتش نفسه في كتب النسخ والدساتير وتحرير الادوية على موجب القوانين والافباي شيء يعتني؛ أبكتابة رقعة تتعلق بالعاشق والمعشوق ووصف القدود. والخدود. والعيون. وكسر الجفون. والجبين والانين. وفرقة القرين. ولوعة الحزين. وطيب التلاق وشكوى الفراق. وحلاوة الوصل ومرارة البين وما لحق قيساً مع لبنى والمجنون بليلى وجميل ببثينة قلت يا سيدي لست طبائعياً قال فانت ماذا قلت انا كحال فقال هذا شيء يتعلق بشيخنا ابي ايوب

القسم الخامس

في سؤال الكحال عما لا يسعه جهله

فقال لابي ايوب اشرب هذا القدح واسأله ثم اخذ القدح وتأمله ورفعه وقال هذه والله كما قال الشاعر

وكأنَّ الزجاجَ قطرةُ ماء جمدت والعقارَ شعلةُ نار

هات بالله يا سيدي غنِّ صوت استاذنا ابي اسرائيل الكحال

فاندفع وغنى

قالوا اشتكت عينه فقلت لهم من شدة القتل مسها الوصب
حمرتها من دماء من قتلت والدم في النصل شاهد عجب

ثم هزجه

مريض الجفون بلا علة ومكتحل الطرف لم يكتحل
شكا حسنه قبح افعاله فأثر في وجنتيه الخجل

فشربت الجماعة كلهم دوني ثم قال لي ابو ايوب لو ان رجلاً برخشياً «١» كحل عين حمارك على غير علم منك فاعماها وادعى ان بها سدة ثم شارطك على برءها فكحلها بدواء عاد بصرها به أتعرف الدواء الذي يبقي طبقات العين ورطوباتها ويمنع النظر بها والدواء الذي يزيل ذلك الداء في الحال عنها فقلت لا فقال صاحب الدار يا أرمد البصيرة اعتقدت انه يسألك عن الظفرة متى تكون مرضاً ومتى تكون سبباً او عن جالينوس لم ذم العين الصغيرة ومدح

(١) اى من الغوغاء وهم اخلاط الناس

الحدقة الضيقة اللهم غفراً يا سيدي في اي شيء افنيت ايام الحداثة اظنك قضيت الزمان في محبة الصبوح والغبوق ومعاشرة الاخوان وتحديد القيان ومعرفة اسماء الخمر وتعديل نايات الطبل وتعبئة المجالس واصلاح المشام وتفريع الاترنج وحشو التفاح وترتيب الاوتار وشد ازيرة «١» العيدان على مقادير الالحان واصلاح الطبقات في ثقيل الاول وخفيفه والرمل وخفيفه والهزج بالوسطى والسبابة والبنصر . يا سيدي ما هذا والله مما ينفع الطبيب في طبه ولا المريض المسكين في ازالة مرضه قلت ما انا كحال قال اراك تدعي صناعة وتجحد اخرى كأنك تقدم غضارة «٢» وتبعد اخرى هات عرفني اي شيء انت قلت انا جرائحي قال هذا شيء يتعلق بالشيخ ابي سالم

(١) جمع زير وهو الدقيق من الاوتار
«٢» الغضارة القصعة الكبيرة

القسم السادس

﴿ في اعتبار الجرائحي بمعرفة التشريح والمنافع ﴾

ثم قال لابي سالم اشرب هذا الدور واسأله ثم التفت الى الساقي وقال له ناوله فاعطى لابي سالم فشرب وانشدوا

جدْ بماء المزنِ والعنبِ   كاشفات الهمّ والكُرَبِ
قهوةٌ لو انها انتسبت   ساجلت قحطانَ في النسبِ
فهي تكسو كفَّ شاربها   دستبانات من الذهبِ

فملأ الساقي القدح واعطاهُ فقال لابي جابر غنِّ لي صوت استاذنا ابي الحسين بن نفاح فاندفع يغني :

كلُّ جريحٍ ترجى سلامتهُ   الا فؤاداً دهتهُ عيناها
تبلُّ خديَّ كما ابتسمت   من مطرٍ برقهُ ثناياها

فشربوا ثم ملاءوا الاقداح فزجهُ

تأوُّهي من حرّ نارِ الهوى   قَتَلتُ حتى لم يجدِ مقتلا
تأوُّهي من جسدي كلهِ   فصل مني مفصلاً مفصلا
ارى المعافى يعذلُ المبتلى   يا رب ذا العاذلُ ما يبتلى

فشربت الجماعة ثم اوما أليَّ وقال يحتاج الجرائحي ان يكون عالماً بالتشريح ومنافع الاعضاء ومواضعها ليجتنب في فتح المواد قطع الاعصاب واطراف العضل والاوتار والالياف ثم قال كيف معرفتك بالتشريح قلت على غاية الكمال قال كم هي الياف المعدة قلت ثلثة قال وما هي قلت واحد موضوع طولاً به تجذب الغذاء وآخر يمضي عرضاً بهِ تمسك الغذاء وآخر ورابا بهِ تدفع الغذاء . قال فان قال قائل لا بل الدفع بالموضوع عرضاً والمسك بالموضوع طولاً والجذب بالماضي ورابا بماذا تجيبهُ أترى هذا مما يقوم لك عليه برهان او تظهر لك صحتهُ من العقل و التأثير قلت لا فقال صاحب الدار انا والله نظامه . من أكل ذلك الاكل لا يجيب عن هذه المسائل. ثمَّ قال ابو سالم أحسبك انك اعتقدت انني اسألك عن الجراحات المدورة في المفاصل المتحركة لمَ لا تلتحم بسرعة وعن علة الضرس النابت في سن الشيخوخة وعن الفرق في البنية بين الاناث والذكور ماهذه

مسائل تضيق افاضل العلماء عن جوابها ثم التفت الى الحاضرين وقال قد حصلنا من هذه الصناعة على تدوير العامة وتحرير الشابورة «١» وسعة الدراعة وعظم الخاتم وانفشر عند العامة اذا غاب الفضلاء ، وقول السوقة يا فلان أما ترى ذا؟ من اين مثل هذا؟ ومن يسمع من غيره هكذا؟ لاسيما اذا اخذ الكتاب بيده وفتل شاربهُ وامال رأسهُ واومأ بيده عند قرآءته فمن الحواريون في اقامة الموتى وابرآء الزمنى ؟ ومن بقراط في طبه؟ وارشيميدس في حيله ؟ واقليدس في هندسته ؟ واذا فاتحتهُ بالعلم وجدتهُ عارياً مما انتحلهُ عاطلاً مما تحلى به وانتمى اليه وعول في المعيشة عليه : فهو كما قال الشاعر

فاذا ساجلتهُ في علمه ... قال علي يا خليلي في سفط
في كراريس جيادٍ أُحكمت ... وبخطٍ اي خطٍ اي خطّ

«١» لعلها السابورة بالسين من شابور وهي كورة في بلاد فارس ينسب اليها السابري وهو ثوب رقيق جداً . وتحرير بمعنى ضبط

فاذا قلت له هات اذا حك لحيته جميعاً وامتخط
واذا أخبر عن شيء ترى فاتحاً فكاً ومنه قد خلط

لا سيما الواحد منهم اذا شد العضد وفصد ومسح الميل وكحل ونظر الى القاروزة وحرك رأسه فقد وفى الصناعة حقها وعرف علمها وعملها وقال لقد احكمتها والصواب التشاغل بعلم غيرها وينسى «قول بقراط العمر قصير والصناعة طويلة» هذا والساعات طائرة والحركات دائمة والفرص بروق تأتلق والاوطار في الايام تجتمع وتفترق. والنفوس على قوانينها تذوب وتحترق. فان اتفق لهذا الجاهل ان يحضر مع طبيب قد اسهر ليله وكد نفسه فيما يحتاج اليه في مناظرته لم يحصل منه على اكثر من المهاترة والمكابرة والاعتضاد (١) عليه بالذناء والعامة والشفاعة الى المريض برقاع الاصدقاء الى ان يصرف ذلك الطبيب

(١) الاستعانه . ما ابدع ما وصف به الممخرقين بصناعة الطب المعروفين عندنا بالدجالين . وسيأتي الكلام عليهم في التكملة

ثم لا يزال معه في طبه ماضياً على سننه الى ان ينبت المرعى على تربته فاذا سئل عنه بعد موته قال ما كان يمكن ان يعيش لان المرض كان مهلكاً والقوة ساقطة وما على الطبيب الا الاجتهاد وليس في قوة الصناعة شفاء كل مريض ولو كان كل مريض اذا استطب برأ لما مات احد ولكن الآجال مقسومة فما الحيلة ولا حيلة في الموت ولا قدرة لنا ان نزيد في الاجل ولعمري انه كان حراً ويعز عليَّ والله فقده ولكن الانبياء ماتوا وما يبقى احد ويخرج لهم في فتاوي احمد بن حنبل ويستطرد بمخالفة المريض وغلط الطبيب الاول فان سئل عما تجدد له تنهد وانشد

أخنى عليه الذي أخنى على لُبَدِ (١)

وان قدر ان يتأتى له برؤ قال لقد خلصته من فك الاسد ورددته من شفير القبر ويرى انه حل العصابة

(١) لبد آخر نسور لقمان والشعر للنابغة وصدر البيت أضحت خلاء وأضحى اهلها احتملوا

من لحيته ونزع يد الغاسل من يده وجذب ناصيته من منكر ونكير وقد بدا بمسائلته ثم قال مالي اراك مطرقاً ملياً قلت لاني لست جرانحياً فاغتاظ من تنقلي في الصنائع وقال .

اظنك من بقية قوم موسى   فهم لا يصبرون على طعام

قلت ياسيدي عادتي اغتذي ثلث دفعات في اليوم قال دع هذا عنك فما هذا اردت هات عرفني اي شيء انت قلت فاصد

القسم السابع

﴿ في امتحان الفاصد في ما يحتاج الى معرفته من المنافع ﴾

قال هذا شيء يتعلق بفتانا ابي جابر فالنوبة معه فقال ابو جابر لصاحب الدار يأستاذ اسألك ان تنوب عني في مسائلته وانا اعوضك عن ذلك بان اغني لك شعر شاجي لما اهدت جاريتها للمتوكل يوم فصاده قال افعل فاندفع الغلام وغنى .

فصدتَ عرقاً تبتغي صحةً البسكَ اللهُ به العافيه
فاشرب بهذا الكأس ياسيدي منتمعاً من هذهِ الجاريه
واجعل لمن اهداكها زورةً تحظى بها في الليلة التاليه

فصاح وطرب وشرب ثم ملاؤا الاقداح فهزجه

ويح الطبيبِ الذي جَست يداه يدكَ ما كانَ اخبرهُ فيما بهِ اعتمدك
لو أنَّ الحافظهُ كانت مباضعهُ وقد نحاكَ بهامن رقّةٍ فصدك

فصاح وطرب وشرب وملأوا الاقداح فلما شربوا سكتت الجماعة فقال الشيخ كان لملوك اليونان عادة وذلك انهم لا يعلمون صناعةً لانسان الا بعد تأمل مولدهِ لان المطبوع في كل امرء هو الذي يكون دليل ذلك الشيء قوياً في مولدهِ والذين لا مولد لهم يدخلونهم الى بيت فيه صور الصنائع فما تحركت اليهِ طباعهم ومالت نحوهُ نفوسهم واشرأبت اليهِ قلوبهم اخذوهم بتعلمهِ لقولهِ « وكل امرء يصبو الى ما يجانس » وجالينوس يستدل على همة الصبي من لعبهِ مع اقرانهِ في الملعب وهل يؤثر ان

يكون ملكاً عليهم او خادماً لهم فان الشخص تسمو نفسه في ذلك الوقت بحسب الغالب عليه في طباعهِ اذا كانت الروية (١) مغمورة بالطباع الحيواني ولمافسد هذا النظام صار كل عطار يتصدى انظر القوارير (٢) والكلام على الطبائع وتنفيق ما كسد عندهُ من الحوائج ولاسيما اذا اضاف الى طبهِ قرطاساً فيه نشادر وخضاب وغسول وكليكان (٣) وحب العروس (٤) وان شمشآء تحلف لسكينة بالمصحف ان ليس في العالم احسن من طبهِ وهو مع هذا ربما طبخ ماء الشعير وانكبَّ على نفخ الدخان ولا يعلم المسكين ان الفاصد يحتاج ان يعنى بعينيهِ بمداومة الاكحال الجالية وشرب الحبوب المنقية.

(١) الروية النظر فى الامور بعد الرؤية وقبل العزيمه
(٢) جمع قارورة ويراد بها الوعاء المستعمل لفحص البول قال بعضهم يمدح ابن قرة الطبيب

مثلت له قارورتى فراى بها ... ما اكتن بين جوانحى وشغافى

(٣) من انواع الكراث (٤) هو الكبابة نبات عطرى

تالله انني ما اعلم من المرحوم الفاصد المدفوع الى ما ليس من عمله ام المفصود المغرور الذي يوقع يده بيده فيتحكم في عرقه وعضده . ثم قال لي اسألك قلت سل عما بدالك قال . لا تظن انني اسألك عن العلة التي من اجلها صار بعض العروق يفصد طولاً وبعضها عرضاً وبعضها ورباً فذلك معروف ولا اسألك ايضاً لِمَ صار منفعة فصد الأسيلم (١) في بعض الامراض اكثر من الباسليق (٢) وهو طرفه وشعبة منه ولا عن الشروط التي تلزم الفاصد وقت فصاده وقبله وبعده ولا عن العروق التي حصلت معرفتها بالقياس والعروق التي عُرفت بالتجربة والتي أدركت على جهة الوحي في المنام فذلك مما يعرفه فار البيمارستان ولا اسألك عن عرق الجبهة اين يطلب في الصبيان وعرق اليافوخ اين

(١) وريد بين الخنصر والبنصر
(٢) وريد في ثنية المرفق يستعمل الفصد فيه عادة

يوجد في الرجال ولا اسألك، عن الدم الاحمر الذي اذا طرح عليه الماء اسودَّ والاسود احمرَّ بل اسألك عن العلة التي من اجلها يكره الاستفراغ بالفصد في امتلاء القمر والدم من استهلاله الى ابداره في ابدان الحيوان اغزرُ منهُ في زمان محاقه أتعلم ذلك قلت لا . قال أفتعرف الفوائد الثلث في شدّ العضد قبل الفصاد قلت لا قال . ألا تعرف اول من نبه على الفصاد واختياره لمداواة الامراض قلت لا . قال فانت من عمرك تتهك اعراض الموائد وتحبب الناس بالاكل وتأكل وتنام وتتاوى في المسائل كانك عرق زوال (١) تحت مبضع مصدء وقد حصلنا من هذا الفصد معكم على شق العروق واخذ الفضة وشهادة العامة ان فلاناً يفصد جيداً ويدهُ خفيفة والواحد منكم لا يعلم انه إن ضرب شرياناً نزف الدم الذي يتبعهُ الموت وان ضرب عصباً

(١) الذي يتحول

ابطل الحركة والحس وشنج اليد وان ضرب عضلةً
جذب المواد الخبيثة الى العضو * بطلت والله هذه الصناعة
وصار الحذق في الفصد مسك العضد وغوص الشدو عصر
العروق حتى يهراق الدم وعصٌ (١) العصابة وتربيع
الرفادة وترك المبضع تحت العمامة فما يعرفون غير اهراق
الدماء واخذ الكراء فلو ان انساناً ضاعت حمارتهُ او وقعت
دراعتهُ (٢) لما اشترتم عليهِ الا بفصدهِ واهراق دمهِ
ثم قال لي ارني مباضعك فاخرجت اليهِ دست المباضع
فتأملهُ وقال اين المدورات والشفرات والمزويات (٣)
والحربات واين فأس الجبهة وصنارة الصدغ والدوآء
القاطع للدم قلت ما معي من هذا كله شيءٌ قال فأرني
لطف انامِلك فلما اخرجت يدي قال ما هذه انامل تصلح

(١) اى شدها
(٢) الدراعة جبه من صوف
(٣) المزويات اى ذوات الزاويه

لجس العروق ولا هذا زندٌ يقدح جواب هذه المسائل قلت لست فاصداً قال فانت ماذا قلت صيدلاني

القسم الثامن

﴿ في اعتبار الصيادلة بمعرفة العقاقير والادوية ﴾

قال هذا يلزم شيخنا ابا موسى فقال لابي موسى اشرب هذا القدح واسألهُ فملأُوا الاقداح ورفع ابوموسى قدحهُ وقال ما احسن ما قال فيها ابن المعتز

وراحٍ من الشمس مخلوقةٍ بدتْ لك في قَدَحٍ من نهارِ
هواءٌ ولكنهُ راكدٌ وماءٌ ولكنهُ غيرُ جارِ

ثم التفت الى الغلام وقال بالله غنِّ صوت استاذنا احمد بن قرابة فاندفع يغني

لما لممتُ باصحابي وقد هجعوا حسبت حتى رحال القوم عطّارا
فقلتُ من ذا الحيا وانتبهتُ لهُ قالوا الحبيب الذي تهواهُ قدزارا
قلت انزلوا نعمتْ دارٌ بقربكمُ اهلاً وسهلاً بكم من زائرٍ زارا

فلما شربوا قال ابو موسى لستُ اسألك عن

الادوية التي تستعمل لوقتها والتي تستعمل لشهرها والتي يؤمن استبقاؤها وان تقادم عهدها لأن هذا معروف ولا اسألك عن الدواء التفه الذي اذا طرح على الخل حلا . ولا عن الدوآ الذي اذا طُرح على الحلو حمض ولا عن الشيء اليابس الذي اذا القي عليه الربوب اماعها ولا عن المائع الذي اذا طرح عليه الماء جمد فذاك معروف بل اسألك عن الحجر الذي اذا أدني الى ضوء السراج يضمحل . وعن البدور القمرية . وعن السنباذج (١) الصيني . والساذج (٢) الهندي والتوتيا الحشري (٣) وعن منابت العقار بحسب فصول الزمان أفتعرف ذلك قلت لا قال أفتعرف الحنظل قلت نعم قال

(١) حجر كانه مجتمع من رمل خشن معدنه في جزائر بحر الصين

(٢) نبات شبيه بالناردين

«٣» لعله بالنسبه الى الحشر وهو النخالة او تحريف الحجرى

أفتعرف الانثى من الذكر قلت لا . قال أفتعرف ما منهُ دواءٌ نافع فتأخذهُ وما منهُ سم قاتل فتطرحهُ . قلت لا قال أفتعرف الاسفنج ليس البحري ولكن النباتي قلت لا قال أفتعلم متى يؤخذ زبل الذئب وبعر الضب قلت لا . قال أفتعرف الشيء الذي تغير الطبيعة طعمهُ وتبقى عليهِ لونهُ والشيء الذي تغير لونهُ وتبقى طعمهُ والشيء الذي تغير طعمهُ ولونهُ وبالضد . قلت لا قال أفتعرف الحجر الذي يراه الناظر ابيض فاذا ادام النظر راهُ احمر فاذا ادامهُ جداً راهُ بنفسجياً فان زاد النظر راهُ اسود مظلماً قلت لا قال أفتعرف الدواء البسيط الذي يجد اللسان منهُ حلاوة ومرارة وحموضة وملوحة معاً قلت لا . قال الشيخ يايبروح صنمي (١) ما هذه من مقاماتك هذه من مقامات ديسقوريدس الذي قد بدلنا منهُ بقطاعي الشوك وباعة

«١» اليبروح اصل اللفاح البرى ويعرف عندهم باليبروح الصنمى لانه يشبه صورة الانسان

الفودنج(١) ها انتم تلعبون بمهج الناس . تعزّ عليّ هذه الصناعة قلّ الواصف لها وعدم العارف بها فتحامى التجار جلب العقار وبقينا من صناعة الصيدلة على البراني المصففة والصواني المزوقة والدكاكين المزخرفة والالواح المرندجة (٢) والموازين والمكاييل والمصافي والطباشير وصارت العناية كلها بالحنّاء الجيد وماء الورد الطيب والخضاب الحلك والغسول الاحمر والقلي والنوشادر والحارود(٣)ودخنة مريم وان تقول شمثآء العاتكة ما في الدنيا مثل دخنة ابي الحسين العطار وتقول عليا القابلة ومن اين مثل قشوته (٤) وتقول سكينة الماشطة ان

«١» نبات هو اللبلابه بعجميه الانداس وعامه مصر تسميه فليه واهل الشام يسمونه الصعفر .عن ابن البيطار

«٢» المدهونه بالاسود من اليرندج والارندج وهو السواد او الزاج

«٣» هو اسم الحيوان الذى خصاه الجندبادستر

«٤» قفه خوص لعطر المراة

عندهُ دهن العافية شيءٌ ما في الدنيا مثلهُ وتحلف ان ما في العالم مثل حوائجهِ لا سيما اذا قالت لهُ كم ثمن خمس دراهم فشار فيعطيها ويزيدها ويحلف انهُ لا يأخذ ثمنه منها ويرسلها وقد جعلها شبكةً من شباك المعيشة فلا يبقى حمام ولا مجلس قاضٍ ولا سوق غزلٍ ولا دكان قطان الا والحديث كلهُ صفة ابي الحسين العطار . فلما استوفى كلامهُ عجزت عن الجواب ورأيت ان مسالمتهُ من الصواب فقلت ياسيدي الحكماء يقولون ان لكلِ فضلٍ زكاةً فزكاة المال الصدقة على الفقير المحتاج وزكاة القوة المدافعة عن الضعيف المظلوم وزكاة البلاغة القيام بحجة من عجز عن حجتهِ وزكاة الجاه ان يعين بهِ من لا جاهَ لهُ وزكاة العلم التعليم لمن قصر علمهُ واذا وجب على المال زكاةٌ وهو ينقصهُ الانفاق فهي اوجب على العلم الذي يزيدهُ الانفاق وقد قيل العلم كالشعر كلما حلقتهُ كان اقوى لنمائهِ فان لم تحلقهُ فان لهُ مقداراً محدوداً ان قصَّ عاد اليه

وان تركه لم يزد عليه فهل لك ان تعرفني جواب هذه المسائل قال الشيخ من يمنع الحكمة طلابها كالذي يمنع الظمآن الماء البارد العذب ومن يعرض الحكمة على غير طلابها كالذي يعرض على الريان الماء الحار المالح وانا اعرفك جواب هذه المسائل بعد ان تعرفني اي شيء تنتحل من الصنائع فبالله اني اورد عليك كلاماً كالوشي المحبوك والذهب المسبوك قلت انا رجلٌ جئتُ بكتب الى اهل هذه البلدة قال انت من طب الرقاع والرسائل والتفتَ الى القوم وقال هذا مثل فتانا قلت ومن هو

القسم التاسع

﴿ في غيرة الاطباء وتغايرهم على المرضى ﴾

قال فتى حدث نشأ عندنا يعرف بخاروف ابي الوفا امسى في بعض الليالي معافى واصبح يدعى انهُ حكيم ،

قالت لهُ النفسُ كنْ طبيباً تقضي على الناس بالذهابِ

تأخذُ مالَ العليل قهراً ثم تؤاتيهِ (١) الى التراب

اعاذنا الله واياكم من سوء ما تجري بهِ المقادير على يديهِ فهو الآن يلبس الدبيقى (٢) المقلم والمقصب المذهب والخواتيم اليشب والفيروزج ومع هذا فوالله انني ارحمهُ

وحسبكَ من حادث بامرئ ترى حاسديهِ لهُ راحمينا

لان هذا اللباس يبغضهُ الى الناس ويحملهم على غيبتهِ حتى يتكلموا فيه بما انا احلف انهُ لا يتجاسر عليهِ ولا يمد يدهُ اليهِ ولكنهُ لا يرضى لنفسه ان يكون مثلنا نحن الاطباء. الذين رضينا من الثياب ما ناب مناب الريش للطائر ومن الشماشك (٣) ما ناب للحيوان مناب الحافر هذا انفع وذاك اطيب ولكن اللعب الى آخرهِ ياسيدي هذه عادة القدماء. وزهاد الاطباء. وكل ما لا يشبه اربابهُ

«١» تسوقه

«٢» بالنسبه الى ديبق بلد بمصر

«٣» جمع شمشك وهو من ملابس الرعاة

مسروق ونحن اعزك الله اصحاب ثروةٍ وعافية ما علينا من غيرنا ولكن اذا رأى البائس الفقير طبيباً كأنهُ وزير فكيف يتجاسر عليه او يمد يدهُ اليهِ او يجسر يريهِ نفثهُ وبولهُ وبرازهُ ولكن هو بعدُ حدثٌ ما يحسن بداري عيشهُ ومن المعلوم ان ذا العقل لا تبطرهُ منزلة اصابها وان عظم امرهُ كالجبل الذي لا يتزلزل وان اشتدت بهِ الريح والسخيف تبطرهُ ادنى منزلةٍ كالحشيش الذي يحركهُ ادنى ريح فان الادب يُذهب عن العاقل السكر ويزيد الاحمق سكراً كالنهار يزيد كل ذي بصر بصراً ويزيد الخفاش عماءً . بالله انني اعجب اذا قالوا ان فلاناً قد صار طبيباً وكنت اعهده يُتيماً فلما ترعرع ماشى كسير وعوير (١) فشهدا لهُ بالجندية والركوب والفروسية الى ان مضى على ذلك برهةٌ فما احسستُ بشيء حتى تصدر بعمامة وصقل

«١» بصيغة التصغير كناية عن قرين السوء يقال له كسير وعوير وكل غير خير

فلا يتعدى وصف البزور والسكنجبين وآخر يزهو بجهله على غير علم كالوارم الذي يتظاهر بالشحم وهو لشدة ما يقاسيه في جهد وانشد

وقد يلبسُ المرءُ خيرَ الثيابِ ومن دونها حالةٌ مُضنيه
كما يكتسي خدُّهُ حمرةً وعلتها ورمٌ في الرئــه

ولهذا قال جالينوس الجهل بالجهل جهلٌ مضاعف وهب سلمنا لهُ بالعلم ماذا ينفعهُ بلا عمل فانهُ يقال ليس شيءٌ اهلك للمريض من طبيب يحسن القول ولا يحسن العمل فان صاحب العمل وان قصر بهِ القول في مستقبل الامر فسيبين فضلهُ عند الخبرة وعاقبة الامر وصاحب القول وان اعجب ببديهتهِ وحسن صنعتهِ لا يحمد غبُّ امرهِ . وان الطبيب الذي يعول في مداواة الامراض والمرضى على تنميق الكلام واقامة المعاذير يريد هلاك المريض من دون التدبير السديد كالذي يشرب السم اتكالاً على ما عندهُ من الترياق • فقد بان ان حسن العلم لا يتمُّ الا بالعمل واذا

عرف المريض دوآء مرضه عند ما كان صحيحاً ولم يتداوَ
به لم يغنه علمه به في صحته ولم يجد له راحة ولا خفاً وبالضد
ثم التفت الى تلميذه وقال قد شغلنا عن لذتنا بنبذة من
ذكره هات قدحي فملأوا الأقداح واقترح على المغني

قالَ لي عاذلي ولم يدرِ ما بي اتحبُّ الحياة ما عشتَ حقاً
فتنفستُ ثم قلتُ لعمري قد جرى في العروق عرقاً فعرقا
قد لعمري ملَّ الطبيب وملَّ م الاهلُ مني مما اقاسي والقى
ليتني متُّ واسترحتُ فاني ابداً ما حييتُ فيها مُلقىً (١)

فغنى وشربوا وطربوا وضرب الغلام هزجاً بهذه الابيات

يا ممرضي بغيبهِ ومعذبي برقيبهِ
يا مانعي بصدودهِ حلوَ المنامِ وطيبهِ
لِمْ لا تجودُ لعاشقٍ اسرفتَ في تعذيبهِ
اعيا الطبيبَ دآؤهُ فبكتهُ عينُ طبيبهِ

فصاح صاحب الدار وقال هذا وملحم الحروق

(١) اى لا يزال يلقاه مكروه

ومجرى الدم في العروق لو كتب بالإبر على البصر لروئي احسن منظر فنهضت الجماعة وشربت قياماً ساراً (١) لصاحب الدعوة . فتقدمت اليه منتهزاً للفرصة وقدهزته الاريحية وقلت هل لك ياسيدي ان تسقيني قدحاً ادفع عني به ضرر المضيرة وتشركني والجماعة في هذه المسرة فقال ان كنتَ مستحقاً له قلت وبماذا اكون مستحقاً له قال بان تخبرني عقيب اي حركتي التنفس تشربه أعقيب حركة الانبساط ام عقيب حركة الانقباض؟ فاذا شربته اي حركة يتحرك القلب بعدها أضد ما قطعت عندها ام مثلها؟ فذهبت امسك نفسي لانظر ما هو الجواب وقال لي ما اشبه هذا منك الا بما حكاه ابن قتيبة في ادب الكاتب عن الذين لما سئلوا عن عدد الاسنان جعلوا ايديهم في افواههم ليعدوها ثم قال هذا

(١) السار المفرح ولعلها اللفظة التى طالما بحث عنها الادباء ليستعملوها فى التعبير عما يكون فى الولائم والمادب عند الشرب وقد استعمل بعضهم لفظة النخب فقال شرب نخبه والعامه تقول شرب سره

وما سألتك متى يكون نبض الجنين موافقاً لنبض الحامل ومتى لم يكن موافقاً ؟ ولا عن الانقباض أهو اقدم من الانبساط ؟ ولاعن العلة التي من اجلها اذا فتح الانسان شفتيه ونفخ نفخاً حاراً فاسخن الاشياء الباردة واذا ضمها ونفخ نفخاً بارداً فبرّد الاشياء الحارة ؟ ولا عن العلة في ان النفخ البارد يلهب النار الكثيرة ويطفيء النار القليلة ؟ ولِمَ صارت حركة الشرايين والقلب واحدة وحركتهما وحركة التنفس مختلفة ؟ ثم قال لي أتعلم شيئاً من ذلك قلت لا قال أفتعلم ان منفعة الانبساط بالذات ادخال الهوآء البارد وبالعرض مصُّ الاشيآء المايعة كالماء والشراب والمرق والنقاعة (١) والتنخع وشم الروائح الطيبة ؟ قلت لا قال أفتعلم ان منفعة الانقباض بالذات اخراج الهوآء الحار واعداد هوآء الترويح وبالعرض تصويت الحيوان والكلام والسعال والزمر والنفخ للنار والجشآء والبصاق والفواق

(١) النقاعه من كل شيء الماء الذى ينقع فيه

ودفع الروائح الكريهة والاستنثار(١) وبجميعها يتم التثاؤب والضحك والبكاء والتنهد وتنفس الصعداء والتأفف والعطاس؛ قلت لا قال فاشرب قدحاً واحداً على جهة الرحمة لك فملأت قدحاً الى رأسه فقال جودت هذا كأنه خط العلماء بلا هامش قلت ياسيدي هذا الى الخط المستقيم فاغتاظ وقال ياغبي المستدير لا يكون عليه خط مستقيم لكن اما دائرة او قوس واخذ القدح من يدي فشربه وقال مجالسة الجاهل حمى الروح وانشد

لا انسَ الا في مجالسَ تلتقي بفنائها الاشكال والنظراء
ان الجهولَ تضرُّني اخلاقه ضررَ السعالِ لمن به استسقاء

ومثل ذلك قول المتنبي

واحتمال الاذى ورؤية جانيه م غذاء تضوى بهِ الاجسامُ

وما احسن ما قال حكيم الفرس مقاطعة الجاهل توازي صلة العاقل. وبدأ وقد هزته الاريحية وقال أترى من لهذا

(١) الجذب

الامر بعدي ذهبت والله الصناعة البقراطية والعلوم الطبية وانقبضت اطرافها وتقطعت اهدابها فشخصها مأووف وطرفها مطروف وصار الطبيب اذا دخل على المريض فهو بين ان يفصده ان بعد عهده ويمنعه الفصد ان قرب عهده به ويسهله ان وقف طبعه ويحبسه ان سهل ويبرده ان سخن ويسخنه ان برد ويمناه اذا رآه قلقاً ويبشر بصحته اذا رآه ساكناً هادئاً كل هذا لانه المسكين لا يعلم ان كثيراً ما يكون القلق اصلح من السكون والاختلاط اصلح من التيقظ وسواد الاطراف اجود من بياضها وان كثيراً ما يستعمل الطبيب الدواء المسهل فيمن طبيعته ممسكة ليسهلها وان كثيراً ما يعالج الحار بالحار والبارد بالبارد ويستعمل مع المرضى ما يضعف الاحساس والقوة

القسم الحادي عشر

﴿ في استهانة العامة بالصناعة الطبية ﴾

ولولا عجز الاطباء من هذه الامور لما استهان الجمهور

بالصناعة الطبية واستدلوا على نقضها من اراجيز الشعرآء واقوال العامة فضربوا لها الامثال وسحبوا عليها اذيال المقال فواحد يقول

ما للطبيبِ يموتُ بالدآء الذي قد كانَ يشفي غيرهُ فيما مضى

هلك المداوي والمداوَى والذي جلب الدوآء وباعهُ ومن اشترى

وآخر ينشد

والناس يلحونَ الطبيبَ وانما غلطُ الطبيبِ اصابةُ الاقدار

وآخر يجرد ويقول هذاكله هذيان والذي اعلم ان ابن ثلثين سنة لا يموت ابن عشرين ولا يعلم ان هذه قضية قد قتلت مئة الف قتيل وآخر يقول الموت سبيل لابدَّ منه وانما الطبيب مطيبٌ للقلوب وهذا كلهُ جوابٌ لمن قال ان الطبيب ضامن درك الحيوة وان الطبيب يشفي سائر الامراض وآخر يقول مالي اعذب نفسي بالحمية ها فلان الطبيب ما يزداد بالحمية الاصفرةً (١) ومرضاً ولا يعلم

(١) نحولاً

انه لو لم يحتمِ لمات وواحد يقول انا آكل واشرب واترك التداوي واتكل على الله وقائل ذلك اذا مرض له حمار قبل فيهِ بمشورة البيطار وكان يجب بحسب رايهِ ان يتركهُ ويتكل على الله . على ان الطبيب لا يامر بالتداوي وينهي عن التوكل على الله. وآخر يقول كم مرضت وبرأت بلا دواء ولا يعلم انه لو استطب لكان اسرع في برءهِ وانهُ سيأتي عليهِ وقت لا تفي فيهِ القوة لدفع المرض ولا يجد من الطبيب معاونة فيهلك . وآخر يقول كم قد تداريت واحتميت فلما خلطت برأت ولا يعلم ان التخليط صادف بالاتفاق فناء مادة المرض فبرأ وان اناساً كثيرين خلطوا قبل فناء هذه المادة فهلكوا وانشد

عابَ الطبيبَ اناسٌ لاعقولَ لهم   وماعليهِ اذا عابوهُ من ضررِ
ماضرَّ شمسَ الضحى والشمسُ طالعةٌ   ان لا يرى ضوءها من ليس ذا بصرِ

وهذه الطوائف الجاحدة لفضل صناعة الطب اذا سمعت

الطبيب يقول هذا الغذآء يضرهُ كذا يقولون كم قد اكلناهُ وما ضرنا وما يعلمون ان الطبيعة تحامي ما امكنها عن نفسها وتعجز عن المحاماة فتعطب ويقولون ما دام للانسان خبز عند الخباز فما يضرهُ شيء فاذا جآء ابو ضابط ما ينفعهُ شيء ويسمون الخبز الحياة ومعطي الحياة الخباز ويكنون الموت ابا ضابط. واذا قيل لهم ان الترياق ينفع السموم قالوا ها الترياق وها الافعى من ادعى فليبرهن واذا ذكر النبض لهم قالوا هاتان امرأتان احداهما حامل والاخرى عاقر عرفونا احداهما من الاخرى من نبضهما يريدون من الطبيب ان يعلم من كل شخص ما هو معلوم الله منهُ على الحد الذي لا مزيد فيهِ ولا نقص منهُ ولا يقنعون بما لاح لعينه وتجلى لبصيرتهِ لانهم لا يفهمون ان هذه الصناعة تجيء بالممكن واذا عضدت بالتوفيق كانت كالضروري فليس لان احكامها ليست مدركة ومحاطاً بها في كل شخص يجب ان تكون مرذولة ومطروحة بل

تكون متوسطة بين ادراك البغية وعدمها وايس لان بعض المرضى هلك لا ينبغي ان ينظر في الطب ولا بسبب ان بعض المرضى بريء بالطب وجب ان يعول عليها في البرء ابداً والحكمة توجب توسط هذا الامر حتى يشكر الله من ينجو او تسلم نفسه من الهلاك ولهذا استصعب بقراط القضاء والبتّ بما يؤول اليه امر المرضى. وان رأوا طبيباً يقرأ في كتاب قالوا له مستهزئين به أفي هذا دواء الموت؟ فاذا قال لا قالوا ما هذه الكتب الا خرافات صدرت من عجائز خرفات وما يزيد في أجل العالم علمهُ ولا ينقص في عمر الجاهل جهلهُ وما الامر الا كما قال ابو غسان الطبيب

حكم كأس المنون ان يتساوى في احتساها الغبيّ والالمعيُّ
ويحلُّ البليدُ تحت ثرى الارض كما حلّ تحتها اللوذعيُّ
أصبحا رمّة تزايل عنها فصلها الجوهريُّ والعرضيُّ
وتلاشى كيانها الحيواني وتوارى تقويمها المنطقيُّ

وهذا الكلام من الايجاز على غاية الاضمحلال والفساد

فليس تساوي الناس في الموت والفناء حجة في عدم البقاء والمراتب في الدار الاخرى والناس قد يتساوون في السفر الى المدينة ويتزينون اذا وصلوا الى المستقر بحسب المنزلة بما صحبهم من الذخائر والامتعة هذا بيان بحسب الاختصار وفيه كفاية . ويعظمون البيطرة على الطب لانسهم بالبهائم وشبههم بها وينظرون بالمحبرة (١) ويسمونها خرزة الشؤم ومحرفة (٢) الحرفة واذا رأوا طبيباً مكباً على العلم قالوا مقرون بالحذق ضيق الرفق (٣) واذا تكلم ودقق في مسألة قالوا سوداوي اعتقاداً ان العلم يخرج الى الجنون فان لم يفهموا ما يقول قالوا هذه زندقة فان نظرهُ فريقٌ منهم انشد الفريق الآخر

وماتنفعُ الآدابُ والعلمُ والحجى وصاحبها بعد الكمالِ يموتُ

---

(١) الدواة
(٢) الة الكسب
(٣) اى الانتفاع يقال ارتفقت به اى انتفعت به

ولا يقولون في الاغذية حارة وباردة لكن هذا غذاء ميال يريدون مستحيلاً كالبطيخ وهذا بطبع الموت اي انه بارد يابس ويسمون الرطب ليناً ويقولون ان المشمش بطبع الحمى والبلوط قولنج وهذا كله قريب وانما المصيبة العظمى اعتقادهم في الكافور والثلج انهما حاران وفي الرازيانج (١) والحناء انهما باردان وان ماء الشعير بطبع الصفراء كل هذا من عجز الاطباء وقلة خبرتهم بكتب القدماء فانقرضت الصناعة ووهى نظام سلكها واخلق جديدها وتفرق ايدي سبا عديدها فهانت في النفوس ودبرت (٢) عند الناس وخلت من الفضلاء فصار الآن يتعاطاها القوابل وقوام (٣) الهياكل ويعتادون (٤) في

---

(١) بقله وقيل هو الانيسون وقيل الشمر

(٢) ماتت

(٣) جمع قيم

(٤) اعتاد الشيء اتتابه اى صيره عادة لفسه يقول انهم اتخذوا عادة لانفسهم ما يصفه الاطباء للمرضى

صفات الاطباء فذهب رونقها واخلقت بهجتها وصارت كالفضل الذي لا يحتاج اليه وبطل الطب البقراطي وظهر طب لم يأمر الله سبحانه على السنة اصفيآئه بشيء منه . فبينما هم في الكلام اذ طرق الباب مريض فاذن له في الدخول فلما حضر سلم وجلس واستأذن في وصف ما يجده فاذن له فقال ياسيدي اني اجد نشفاً في فمي ورياحاً في أحشاءي واعتقالاً في طبعي وبصاقاً وبلاغم في معدتي ورطوبات تسيل على مخدتي واذا شربت البارد ازداد لهبا واذا شربت الحار سكن في الحال اكثر ما اجد ومع هذا بينما تراني ضاحكاً حتى عدت باكياً . آمالي قصيرة وافراحي يسيرة هضمي قليل وغذآئي كثير حشاي يحترق وبولي ابيض يقق . واذا شكوت ما بي الى الاطبآء نسبني بعضهم الى الكذب ولم يزدني آخرون على تحريك الرأس والعجب . قال الشيخ هذا مما كنا فيه قد صدقتَ في جميع ما ذكرتَ وهذا مرض ينفع فيه العلاج بالاشيآء

الحارة ولكل ما ذكرتَ اسبابٌ واضحة يحتاج شرحها الى زمان ممتد وتفريغ قلب وعقل جيد فعول على الحمية وعد اليَّ دفعة ثانية فودعنا وانصرف فاوماً الى تلميذه وقال غنِّ صوتاً فاندفع يغني

منَّةٌ للكرى وطيفِ الخيالِ جددتْ بيننا عهودَ الوصالِ
كانَ قد ساعد الرقيبُ بها لو م لا فضولُ السوارِ والخلخالِ

فالتفت اليهِ مغضباً وقال اين تذهب بك ؟ أهذا من اقتراحات الاطباء واصوات الحكماء ؟ أما علمت انهُ قبيح بالمغنى ان يغني في تموز

قفي بالله يامطرُ فكثرة ما يجي ضررُ

وقبيح ان يغني بالعشى

تصبح بوجه الراح والطالع السعدِ

وقبيح بانه يغني في العرس

احسن ما كان تفرقنا فخاننا الدهر وما خِنّا

وقبيح ان يغني لشريف

لكَ عيدُ الصليبِ تلعبُ فيهِ ولنا المهرجانُ والنيروزُ

ثم قال غنِّ احد اصواتي التي اقترحتها في مبدإِ سكري فاندفع وغنى بشعر العباس بن الاحنف

زعموا لي انها باتت تُحمّ ابتلى الله بهذا من زعمْ
اشتكت مما بهِ كانت كما يشتكي البدرُ اذا ماقيل تمّ
ايت بي شكواكِ ياسيدتي فلكِ الاجرُ وان طال السقمْ

فشربوا وملأوا الاقداح فهزجه في شعره ايضاً

يا ايها المحمومُ نفسي فداكْ مالي من الدنيا سرورٌ سواكْ
قد كان بي سقمٌ وقد زادني سقمُك سقماً وبلاني بلاكْ
فليتني حُمّاتُ عنكَ الذي تلقى لكي يُجمعَ هـذا وذاكْ

فطرب ابو ايوب الكحال وقال اسمعوا يا اخوان الصفآء وبقية العلمآء فوحق منشيء الطبائع ومبديء البدائع لو كتب هذا بالمباضع في المسامع وقع اجل المواقع فشرب القوم وطربوا وزاد الشيخ في حد الانتشآء فلما دبت فيه حُميا الكأس وانتشرت منه في المفاصل والرأس

اخذ في هذيانه وبث اشجانه وقال ياخي قد تعبتُ في جمع العلم وكددتُ نفسي في قرآءة الكتب وما بلغتُ بصناعة الطب غرضي من الكسب وسبب ذلك ان مروءات الناس قد سقطت ونفوسهم قد خست وصغرت وقد مضى العمر وكبر السن وانا ماضٍ وما اخلف ولداً يحيي ذكري ولا حميماً يبكي على قبري وتمثل بقول الاول

تذكرتُ من يبكي عليَّ فلم اجدْ　　سوى مجلسي في الطبِ والعلم والكتب

ثم ارخى عينيهِ ساعة بالبكآء وانصرف القوم

القسم الثاني عشر

﴿في خاتمة الكتاب وذكر سبب انقطاع الزيارة والاجتناب﴾

وبقي ابو جابر تلميذهُ فالتفت الى غلامهِ وقال اسقني قدحاً وقال غنني بقول الشاعر

يموتُ راعي الضأنِ في جهلهِ　　ميتة جالينوسَ في طبهِ

وربما زادَ على عمرهِ　　وزادَ في الامن على سربهِ

ثم مال على جنبهِ نائماً فنهضتُ على رجلي قائماً

فلما هممتُ بالانصراف قال لي الغلام أتمضي ياسيدي وتتركني وهذا المسكين الذي قد كدَّ يومهُ وغنى حتى بحَّ حلقهُ جائعين . فقلتُ وما سبب جوعكما وفي الدار طعام فقال متى انصرفتَ لم اتجاسر على سقيهِ ولم اقدر على التعرض بهِ وان اقمت احتججتُ بك ودخلتُ انا وهذا الفتى في غمارك (١) فصغت نفسي الى اطعامهما وسقيهما غيضاً (٢) من شحهِ ومكافأة على بخلهِ فاعاد الحمل وقدم الطبق فلم نبق ولم نذر . وعدانا الى الفالوذج فاتثنينا على بقيتهِ وملنا نحو الشراب فشربنا فضلتهُ وغنى ذلك الفتى

نُبئتُ ان النارَ بعدَكَ أُضرِمَتْ واستبَّ بعدَكَ يا كُليبُ المجلسُ
وتحدَّثوا في أمرِ كلِّ عظيمةٍ لو كنتَ شاهدهم بها لم ينبسوا

وطاب الوقت واتصل الشرب . بيننا فبينما نحن على

---

(١) يقال دخلت فى غمار الناس اى فى زحمتهم وكثرتهم واصله من الغمر وهو الستر والتخفية

(٢) مصدر غاض الماء اى نقص وقل ونضب

هذه الحال اذ رفع الشيخ رأسهُ متيقظاً فلما رأى وقد تفرغ الجام من الحلوآء وابيضت عظام الشوآء قال ما هذا التبسط في منزلي والتحكم في مطعمي ومشربي . قلت تذكرتُ قولك قال وما هو قلت

أُضاحكَ ضيفي قبل إِنزال رحلهِ   فيخصبُ عندي والمحلُّ جذيب

قال الاشرار يتبعون مساوىء الناس كما يتبع الذباب المواضع الفاسدة من البدن. قلت ياسيدي ما تناولنا منه الا القليل وكنا قادرين على الكثير . قال صدق افلاطون في قوله « لا تصحبوا الاشرار فانهم يمنون عليكم بالسلامة منهم » أما تعلم ان كحل اصفهان يأتي على الجمال ويفنى بالاميال قلت ياسيدي انت دعوتني الى منزلك وعرضت عليَّ طعامك وشرابك فما زرتُ مثقلاً ولا حضرتُ عندك متطفلاً قال قد فعلتَ ما هو اقبح من التطفيل واصعب من التثقيل لانك حرزتني (١) من نفسك

---

(١) اى جعلتنى احترز

وزعمت انك لا تقدر على شرب الشراب واراك تكرع منهُ بالارطال والاقداح والذنب لي في الاغترار بك والانخداع لك . ثم استوفى على نفسه اليمين انه لا يضيف غريباً بقية عمره ولا يأْذن لاحد في دخول منزلهِ فنهضت من عنده وغبتُ عنه عدة ايام وعاودت دارهُ فاذا بهِ مراعياً للطريق من شباك فلما نظرني صاح ياغلام احفظ الباب والمرق فقد ورد الغرار المملق (١) واخاف ان يلج الدار ويتسلق . فلما رأَيتهُ بدأْتهُ بالسلام وغمرتهُ بالاعظام والاكرام فاعرض ولم يرد السلام فانشدت

كأن لم يكنْ بين الحجون الى الصفا انيسٌ ولم يسمر بمكةَ سامرُ

فقال الشيخ

بَلى نحن كنا اهلها فأَبادنا صروفُ الليالي والطبيبُ المسافرُ

ثم قاطعني واغلق باب الشباك فكان آخر عهدي به

(٢) من املق اى افتقر والغرار صيغة مبالغه من غره غروراً وغرة خدعه واطمعه بالباطل

قد وفينا بما ضمنا بقدر ما جادت بهِ القريحة وساعدت عليه العبارة وجعلنا الهزل طريقاً الى الجدّ اذا كان الانسان متردداً بين الحس والعقل. وقد ذكرنا اسماء غير دالة على اشخاص معروفين ليصل الفهم الى القارىء بهم على وجه المجاورة ووسعنا الكلام لان اللسان اذا وجد مسرحاً لم يقف الخاطر واذا أصاب سخاء لم يكف على انا لو اردنا فرش الكلام لتعرضنا لحدوث الملال والسآم. ونرجو ان يكون ما اتينا بهِ مدركاً لرضى من حث على نظم منثره وجمع منتثره. والله نسأل ان يخرجنا من هذا الفناء المحشو بالعناء بعد العناء(١) الى حضرة القدس ومقر الانس مع مراد النفس في ملكوت السماء حيث لا يتعذر مطلوب ولا يفقد محبوب انهُ سميع مجيب

تمت الرسالة بحمد الله ومنهِ وحسبنا
الله ونعم الوكيل

(١) العناء الذل من عنا يعنو والعناء التعب

المقدمة

ترى أيها القارئ اللبيب أنَّ هذا الكتاب وقد تمثَّل لك في صورةٍ من حسن الطبع يرتاح اليها النظر . وتجمل بتصحيح عبارته وتهذيب بعض الفاظه على طريقةٍ لا يمجها الذوق ولا ينبو عنها البصر . حريٌّ بأن تحلَّهُ محلَّ القبول والاستحسان . وتفسح له من بصيرتك النقَّادة مجال التروّي والامعان . وتتدبر بما تضمنه من الحكم الناصعة . وتعمل بنصائحه النافعة . وتستفيد من آدابه الرائعة . واذا شئت ان تعفيني من تنميق الكلام وتطريزه . في مدحه وتقريظه . تحاشياً من ترديد النغم الواحد لثقله على السمع . وتنكباً عن خطة التحدّي لانها صارت نافرةً على الطبع . فلستُ أُعفيك من ان ترجع معي القهقرى تسعةً من القرون . وقد تقلّص ظلُّ الدولة العربية عن بغداد دار العلوم والفنون . لترى كيف يكتب المصنف بلغة ذلك العصر . روايةً كما نوّر الزهر . موّهَ بها الجدّ بالنكات الهزلية . وضمّنها من الحكم الفلسفية . والوصايا الصحية . والمسائل الطبية . ما يستفيد به كلُّ انسان . فكأنها تنطق بكل لسان . او كأنهُ من ابناء هذا الزمان . وقد آلتفَّ حواليه المتخرقون . وهو يحاول تقويم المناد

واصلاح الشؤُون

واذا كنت

لاترى ,, الاوائِلَ '' شيئاً وترى للأواخر التقديما

فلا يسعكَ ان تنكر

ان هذاالقديم كان حديثاً وسيبقى هذا الحديثُ قديما

فربَّ قضيةٍ مسلمةٍ الآن . ستُنقَضُ في مستقبل الزمان . لعدم تحققها بالبرهان . وثبوتها بالعيان . ولا مراء في أنَّ العلم قد وشجت لهذا العهد أعراقهُ في تربة التحقيق . واخضلت اوراقهُ بعد اذ سُقيَ بماء التمحيص والتدقيق . على ان فضل القدماء لا يُنكر والاغضاء عن بيان فضلهم لا يُشكر . فنحن انما بنينا على اساسهم . واهتدينا بنبراسهم . على ما سيتضح في هذه المقالة التي اقترحها عليَّ بعض الاصحاب . فلم اجد ندحةً عن الاجابة رغبة في تعميم الفائدة للطلاب

وان تكن مُحكمات الشُكلِ تمنعني ظهور جريٍ فلي فيهنَّ تَصهالُ
لكن رايتُ قبيحاً ان يُجادَ لنا وانما بقضاء الحق نُجَّالُ

الفصل الاول

﴿ في مبدإ علم الطب ﴾

خُلق الانسان محفوفاً بالاخطار والمهالك معرَّضاً للتأثر بالفواعل الطبيعية مما يُحدث في بنيتهِ تغيراً تخرج بهِ عن خطة النظام القائم بحفظها وتدبيرها وكأنها حريصاً على طلب النافع ودفع الضارّ مولعاً بالبقاء مجتهداً في صيانة نفسهِ من العوارض التي تطرأ عليه محمولاً بالطبع على التوجع والتألم منقاداً بالضرورة الى تجربة ما ظنهُ نافعاً له فكان في مبدإ امرهِ طبيب نفسهِ ثمَّ لما كان اليفاً بالطبع مفطوراً على رقة العواطف والشفقة على المصابين والمتألمين صار بعد ذلك طبيب غيرهِ فمبدأ الطب اذاً الميل الغريزيُّ في الانسان الى مزاولة الوسائط العلاجية واستعمالها بمقتضى الشفقة والمناصحة وغايتهُ ,, شفاءُ الادواء احياناً وتخفيف الآلام غالباً وتعزية المصاب دائماً ,,(١)

فبناءً عليه يكون علم الطب موجوداً مع خلق الانسان لانهُ ضروريٌّ في صلاحهِ فهو من شؤُون الفطرة السليمة بدليل كونهِ

(1) Introduction du dictionaire de médecine et de thérapeutique médicale et chirurgicale, par E. Bouchut et A. Després

غريزياً في الحيوان على ماثبت بالمشاهدات الكثيرة فترى السنانير اذا حصل لها وجع في بطونها لحست الزيت من المصابيح وكذا تأكل العشب في الربيع وليس هو من اغذيتها فاذا اكلته تقيأت والثعلب اذا ولد وخاف على اولاده من الذئب جعل حول وجاره من بصل العنصل فان الذئب اذا مشى على بصل العنصل اعتلّ وربما مات قال الرازي ان طائراً كثير الغذاء بالسمك يأخذ من ماء البحر بمنقاره ويحقن به نفسه اذا احتبس بطنه فيخرج منه الثفل ومنه تعلم الناس الحقنة [1] . ومن المقرران الانسان عوّل في بدء امره على التجربة لمداواة نفسه وعلاج ابناء جنسه وتوسع بذلك حتى صار مجموع النتائج المحصَّلة من هذا القبيل على توالي الايام وتعاقب العصور علماً واسع المجال بعيد المنال بما ضُمّ اليه من المجربات وما استُنبط فيه من طرق الاستقراء والاستدلال [2]

ولما كثر الناس وانتشروا على وجه البسيطة وتفرقوا قبائل وشعوباً دعت الضرورة الى تخصيص فئة من كل قوم للسيطرة والزعامة محافظةً على النظام وتقريراً لاصول السياسة فنشأت مبادئ

---

(١) مقدمه كتاب الجوهر النفيس فى شرح ارجوزة الشيخ الرئيس للشيرازى

(٢) الطيب فى الناب والاطباء . للموءلف

الرئاسة [١] والانسان ميالٌ بالطبع الى الاستقلال لا ينقاد الى غيرهِ الا مُكرَهاً مدفوعٌ بحكم الضرورة الى مغالبة الطوارئ الطبيعية ومنازعة امثالهِ ليتسنى لهُ البقاء مفطوراً على حب السلطة بما يتهيأ لهُ من الوسائط فلا بدع ان اعتصمت هذه الفئة بالقوة لتأبيد رئاستها وتعلقت باسباب الاستبداد لتمكين سلطتها واتخذت من خوارق الطبيعة اسباباً تخلب عقول البسطاء للانقياد لها والتسليم لاحكامها وليس شيء اقرب في اختلاب العقول وتقرير الصلة بين الخالق والمخلوق من صناعة الشفاء وعليه قولهم الطبيب واسطة بين الله والمرضى [٢] فاختص الطبُّ بالكُهّان من قديم الزمان وكانوا يستنزلونهُ وحياً على زعمهم ويتخذونهُ ذريعةً لاثبات دعوى المعجزات ويقتبسون نوره من وراء الطبيعة. وكانت العامة يُعظمونهم لما تخيلوا من كراماتهم ومقدرتهم التي تفوق طور العقول فانقادوا اليهم صاغرين ثم زاد وهمهم فألهوهم بعد موتهم وعبدوهم واقاموا لهم الهياكل والانصاب يقربون فيهـا القرابين والذبائح ويحرقون البخور ومن خالف الجمهور في اعتقاده عدُّوهُ مجرماً او كافراً فنكلوا بهِ تنكيلاً

(١) انظر مقدمه ابن خلدون

(٢) دعوة الاطباء صفحه ٣٢

وكانت الهياكل بمثابة بيوتٍ للمرضى يجتمعون اليها طلبا للشفاء وكان لسدنتها السلطة على النفوس والاجساد لا يُعارضون في ما يعملون لانهم اتخذوا الوحي والالهام ذريعة لهم فكانوا يعالجون بالعقاقير على سبيل التجربة كما يتراءى لهم ويقيدون ما تعلموهُ وجربوه على جدران الهياكل ليستفيد بهِ الخلف من ذريتهم لا يبحون سرهُ لسواهم ولا يستعملهُ غيرهم . وهذا ما سماهُ جالينوس بطب الهياكل

وانحصر الطب في اليونان بآل اسقيليبُس وهو عندهم إله الصحة والطب [1] نشأ القول بألوهيتهِ في تساليا مسقط رأسه على ما ادَّعوا ولهم بشأنهِ قصصٌ خرافية نعدُّها من اساطير الاولين . وكان لهُ في ارغوليد من إلبريا هيكلٌ كبير اقيم بجانبه بناءٌ فسيحٌ للمرضى . وكذلك كان لهُ في اثينا هيكل عظيم في سفح الاكروبول الجنوبي حيث وجد في انقاضهِ ادراجٌ اثريةٌ كُتب فيها شكر المرضى على شفائهِ اياهم وصفات العلاج الذي استعمل لهم . واشتهرت ايضاً مدينة برغامس في آسيا الصغرى بعبادة اسقيليبس وكانوا يصورونه قابضاً يدهِ على عصى التفت عليها حيتان والى جانبه ديكٌ فالحية رمزٌ على تجدد الشباب لانها تنسلخ في بعض فصول

---

[1] Esculape, Æsculapius, ΑΣΚΛΗΠΙΟΣ voy. la Grande Encyclopédie

السنة . والعصى او الصولجان رمز على السلطة . وقال سقراط ان المرضى الذين كانوا ينالون منهُ نعمة الشفاء كانوا يقدمون لهُ ديكاً فالديك الذي يرى الى جانب صورته يشير الى تقدمة الشكر على حصول البرء . قال ابن القُف [١] ان اسقبليبس سمي متألهاً لانهُ رُفع الى السماء لشرف صناعتهِ بعد ان نشرها في الارض واودعها في اهلهِ ولم يخرجها منهم فكان اهلهُ من بعدهِ يعاهدون بعضهم بعضاً ان لا يمكّنوا احداً خارجاً عنهم ان يقف على شيء من علم هذه الصناعة بل كانوا يعلّمونها لاولادهم وكانت المواضع التي يُعلَّم فيها الطب ثلاثة احدها المدينة المعروفة برودُس والثاني مدينة قوس والثالث المدينة المعروفة بقيدوس . وان الاطباء الذين كانوا في هذه المدن الثلاث كانوا ايضاً من آل اسقليبيس . فلما مضى عدة قرون باد علم الطب من رودُس وانطفأ مصباحهُ من قيدوس ولم يبقَ من اهله في قوس الا نفر قليل فكادت هذهِ الصناعة يزول اسمها ويمحى رسمها لولا ان نبغ بقراط بن ارقليدس حفيد

(١) شرح فصول بقراط لابن القف : مجلد ضخم عليه خط المولف بالكلدانيه وفى اخره : بلغ قراءة على مصنفه فصح وكتبه العبد الفقير يعقوب النصرانى الملكى المذهب لنفسه ووافق الفراغ من نسخ هذا الكتاب عشيه الخميس ثالث عشر شهر رمضان سنه ٦٨٣ هـ

بقراط الاول من آل اسقيلبس فعُني بجمع اصول الطب من الهياكل وتدوينها في الصحف وتعليمها للطلبة . ولكي يخرج نفسهُ من الاثم بنسخ عهد السلف كتب ميثاقاً على كل من يتلقى هذه الصناعة هذه صورتهُ ,, أُقسم بالله رب الحياة والموت وخالق الشفاء وواهب الصحة . وأُقسم باسقيلبيس وباولياء الله جميعاً لأتخذنَّ المعلمين لي صناعة الطب بمنزلة اباءي أبرُّ بهم وأُواسيهم وأصلهم عند الحاجة بمالي . واعتبر ابناءهم بمثابة اخوةٍ لي واعلمهم هذه الصناعة ان احتاجوا بدون اجرةٍ ولا شرط . واشرك بين اولادي واولاد معلميَّ وتلامذتي في جميع حقوق الصناعة . واحرص على نفع المرضى جهدي بما اتوصل اليه من التدبير . وامتنع عن اجراء كلما يضرُّ فلا اعطي دواء يسقط الحمل ولا اشير بهِ . واحفظ نفسي على الطهارة والزكاة . واصون ذاتي بالعفاف . ولا ابح بالاسرار التي أُوتمن عليها ''

وذكر الشيرازي شارح ارجوزة الشيخ الرئيس ترجمة بقراط فقال ,, تفسير لفظة بقراط ماسك الارواح وانما كان اسمهُ الاول بقراطيس وكان سابع الاطباء المشهورين من اليونان تعلم العلم من ابيهِ وجدهِ وكانت صناعة الطب قبلهُ مخفيةً يدخرها من يتعلمها وكانت في اهل بيت واحدٍ وهو اول من أحدث البيمارستان

وسماهُ اخشندوكين [1] ثم ان الذي جاء بعدهُ سماه بيمارستانًا لان لفظة البيمار المرضى وستان الموضع. قال جالينوس كان بقراط امامًا في علوم كثيرة منها علم النجوم والفلاسفة والطبيعيات والالهيات ولم يكن لهُ رغبةٌ في الدنيا ولا في خدمة الملوك ولما سمع به ملك الفرس ازدشيرماه انفذ اليهِ مائة قنطار من الذهب على ان يتحوَّل اليه فامتنع وأبى ان يقبلها وقال

(١) وفى المقريزى اصدولين. «قال الجوهرى فى الصحاح» المارستان بيت المرضى معرب عن ابن السكيت. وذكر الاستاذ ابرهيم بن وصيف شاه فى كتاب اخبار مصر ان الملك مناقيوش بن اشمون احد ملوك القبط الاول بارض مصر اول من عمل البيمارستانات لعلاج المرضى. ومناقيوش هذا هو الذى بنى مدينة اخميم وبنى سنتريه. وقال زاهد العلماء ابو سعيد منصور بن عيسى اول من اخترع المارستان واوجده بقراط ابوقليدس وذلك انه عمل بالقرب من داره فى موضع من بستان كان له موضعا مفرداً للمرضى. وجعل فيه خدما يقومون بمداواتهم وسماه اصدولين اى مجمع المرضى واول من بنى المارستان فى الاسلام ودار المرضى الوليد بن عبد الملك فى سنة ٨٨ هـ وجعل فى المارستان الاطباء واجرى لهم الارزاق وامر بحبس المجذومين واجرى عليهم وعلى العميان الارزاق. ويطلق العامه الان اسم المارستان على دار المجانين ويخصون دار المرضى بالمستشفى وهو مولد وربما قالوا اسبتال وهو فى الاصل دار الضيافه. لاتينى

لست أبيع الفضيلة بالمال . وكان مقبلاً على الاشغال وكان قليل الاكل كثير الصوم يقول انا آكل لأعيش لا أعيش لآكل . قال بعض القدماء كان لبقراط ثمانون مصنفاً في الطب ولما مات خلف ابنين وبنتاً . قيل كانت اعلم بالطب من اخويها ومن اقواله ,, كل مرض معروف السبب موجود الشفاء ،، ولد سنة ٤٦٠ ق م وتوفي على الارجح سنة ٣٧٧ ق م في لاريسا [١] وقد اقيم له نصب من حديد في اثينا كتب عليه ,, تذكار لبقراط المحسن الينا مخلصنا ،، ونسب اليه الذين جاؤوا بعده مصنفات لم تكن له وحكوا عنه قصصاً عجيبة ولا يبعد ان يكون النُسّاخ في عهد الدولة اللاغوسية قد نسبوا اليه من الكتب ما لفقوه طمعاً بالربح لان البطالسة كانوا يبذلون الاموال الطائلة في شراء الكتب النفيسة واستنساخها وترجمتها فكثر المحتالون حينئذٍ وراجت بضاعتهم في تزوير الكتب ونسبتها الى جهابذة المتقدمين

وقد عني ليتراي اخيراً بجمع مؤلفاته عن الاصل اليوناني وترجمها الى اللغة الفرنساوية في عشر مجلدات طبعت مع الاصل اليوناني في باريس سنة ١٨٣٩ ـــ ٦١ [٢]

(1) Hippocrate, Grande Encyclopédie
(2) Littré: Œuvres d'hyppocrate (Paris, 1839-61) 10 vol in-8 avec le texte grec et trad. francaise

الفصل الثاني

﴿ في الطب البقراطي ﴾

نبذة أُولى

جرى بقراط في وضعهِ قوانين الطب ومزاولة صناعة الشفاء على مبدإِ الاختبار الشخصي والاستدلال العلمي فجمع بين التجربة والقياس وقرن العلم بالعمل . وكان سلفاؤُهُ يعوّلون في تجاربهم على الإِلهام ويهيمون في اودية الأوهام . فمهّد لخلفائهِ سبيل التحقيق وبقي مذهبهُ شائعاً وتعليمهُ راسخاً الى امدٍ غير بعيدٍ لان الفلاسفة الذين جاءُوا بعدهُ نسجوا على منوالهِ ولم يغيّروا من مبادئهِ شيئاً . على ان اكثرهم اعتمدوا على مصنفاتهِ فتوسعوا في تفهم معانيها وعلّقوا عليها الشروح الطويلة وبعضهم تحرّى طريقتهُ في وصف الامراض واسبابها واعراضها وعلاجها فرتبها على نسق يقرّبها من الفهم كما فعل اريسطو . ومنهم من تصدّى لتجربة العقاقير ومعرفة خواص الادوية فكشفوا كثيراً منها كما فعل دسقوريدس واندروماخس

وكانت اثينا لذلك العهد مهبط اسرار الحكمة ومجتمع الفلاسفة الذين اناروا بتعاليمهم اقطار العالم حتى بُنيت مدرسة الطب في الاسكندرية وأنشئت مكتبتها الشهيرة فتحول اليها كثيرٌ من فلاسفة

اليونان وبذل البطالسة جهدهم لترويج بضاعة العلم وجمع الكتب فازهر مصباح الحكمة فيها بعد ان خبا نوره في سائر مدن العالم .
وقد امتازت مدرسة الطب في الإسكندرية بانها اول مدرسة عني فيها بتشريح الجثث البشرية وأُجريت فيها التجارب العلمية على الحيوانات الحية لمعرفة منافع الاعضاء . ومن اساتذتها هيروفيلوس الخلقيدوني [1] تلميذ بركساغوراس من آل اسقيليبس وكان هذا من اطباء مدينة قوس جاء الاسكندرية في آخر حكم بطليموس فيلادلفوس واجتهد بمزاولة التشريح في مدرستها وكان يجلّ بقراط كثيرًا ولكنهُ لم يقرّ لهُ ببلوغ غاية العلم كما كانوا يزعمون ولم يسلم لهُ بصحة ما ذكر عن اسباب الامراض وحقيقتها . وقد شهد جالينوس انهُ لم يكن لهُ في التشريح كفؤًا احد . فهو على الحقيقة مؤسس هذا العلم ولا يزال ذكرهُ مخلدًا ما الف فيه كتاب

وكان ايرازستراتوس معاصرًا لهيروفيلوس وزميلاً لهُ وهو من تلامذة مدرسة قيدوس الأَ انهُ اتخذ خطةً مخالفةً لمعاصريهِ وسابقيهِ فتحرّى نقض آرائهم زاعمًا ان الشرايين لا تحمل الا روحًا وان الدم الذي ينزف عند قطع احدها انما يتطرّق من الاوردة

(1) A. Laboulbène: La Revue scientifique tome XXX de la collection - 1882
Grande Encyclopédie: Ecole de médécine d'Alexandrie

ولم يعتدَّ كثيرًا باسباب الامراض العامة ولكنهُ علَّق على الاعراض الاهمية الكبرى وزعم ان منشأ العلل خللٌ في الغذآء فكان يُعوّل في العلاج على المسهلات

وممن نشأ في مدرسة الاسكندرية في ذلك الزمن فيلينوس وسرابيون (١) وكلاهما ذهبا الى انَّ العمدة في صناعة الطب انما هي التجربة وبَنَيا طريقتهما على ثلاث قواعد الاولى ان الفصاحة لاتجعل الانسان حاذقًا في فنهِ والعامل بارعًا في صناعتهِ بل العمل والممارسة والثانية اذا عرفتَ الدوآء فلا تهتمَّ بمعرفة سبب الدآء . والثالثة لا يُشفى العليل بتنميق الكلام ولكن بالعلاج . وهذه القاعدة كانت كثيرة الاعتبار عند الاسكندرانيين . ونشأ على اثر ذلك مذاهب أُخر كثيرة اشارَ اليها جالينوس في مصنفاتهِ وذكر اصحابها وردَّ عليهم وفند مذاهبهم

اما مكتبة الاسكندرية فقد صرف البطالسة الاموال الطائلة بانشآئها وجمعوا فيها الكتب التي استنسخوها باجور باهظة من جميع الجهات فكانت تشتمل على مئات الالوف من ادراج

(1) Philinus, de Cos; Sérapion, d'Alexandrie.

البَرْدِيّ المصرية والرقوق البرغامية[1] والكتب القيمة في جميع العلوم واللغات . قيل انها كانت تشتمل على سبعماية الف مجلدٍ . واذا اعتبرتَ ان الطباعة لم تكن معروفةً حينئذٍ وان العلوم لم تكن منتشرة كما هي الآن وان طريقة نسخ الكتب لم تكن سهلة وقليلة الكلفة لم تجد مخرجاً للتعليل عن امكان جمع هذه الكتب الا بان المجلَّد الواحد انما كان مؤلفاً من بضعة صفائح كما زعم بعضهم[2] فقدَّر أنها لا تزيد على خمسين الف مجلدٍ بالنسبة الى الكتب المتداولة بين أيدينا . وقد حُرق قسمٌ من هذه المكتبة سنة ٤٧ ق.م . اذ كان يوليوس قيصر يحاصر المدينة . قيل ان القسم الذي احترق حينئذٍ كان فيهِ اربعمائة الف مجلدٍ . فعُوض عن هذا القسم بمكتبة سرابيون ومكتبة برغاموس وكانت تشتمل على مائتي الف مجلدٍ وهبها مرقس انطونيوس الروماني لكليوبترا ملكة مصر . وزعم ابو الفرج الطبيب المؤرخ ان عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية ارسل

(١) البردى نبات له ساق هشة كان اهل مصر فى القديم يعملون منه القراطيس Papyrus . قيل ان ملوك مصر منعوا اخراج البردى من بلادهم فاستنبط اهل برغامس الرق يتخذونه من جلود المعزى وغيرها للكتابة بعد صقلها ولذلك سمى بالرق البرغامى (mambrana pergamena)

(2) A. Laboulbène; Revue scientifique 1883. tome: XXXII de la collection P. 648
Grande Encyclopédie; Bibliothèque

الى عمر بن الخطاب يخبره بالفتح ويستشيره بأمر المكتبة فكتب اليه " ان كانت هذه الكتب مخالفة لكتاب الله فلا حاجة لنا بها وان كانت موافقة له ففي كتاب الله غنىً عنها " فأمر بحرقها وبقوا ستة اشهر يوقدون بها الافران . وسوآء كانت هذه الرواية صحيحة او غير صحيحة فقد سبق بطاركة الاسكندرية الى تعطيل الموزايوم الشهير ونهب المكتبة مراراً منعاً للوثنيين واليهود من تعليم فلسفتهم . وقال كلوت بك [1] ما ملخصهُ : ان الكتب التي حُرقت بامر ابن العاص كان اكثرها من كتب الفلاسفة الجدلية والدينية اما مكتبة ارسطو ومصنفات بقراط وجالينوس وافلاطون فقد سلمت وبقيت وهي التي عُني الخلفآء بترجمتها الى العربية

وممن نبغوا في مدرسة الاسكندرية الفيلسوف الشهير كلوديوس جالينوس جآء اليها في مقتبل عمره وقد أدبهُ الدرس وحنكته التجارب وبقي اربع سنين يشتغل في التشريح ويتخرج في علم الطب حتى بلغ غايته منهما . وُلد في مدينة برغامس (من ميسيا في آسيا الصغرى) سنة ١٢٩ م على الاصح [3] وكان ابوه نيقور من اشراف هذه المدينة

(1) Aperçu général sur l'Egypte Par A.-B. Clot-Bey; tome II. p. 331

(2) La Revue scientifique ;1882. Travau de Darmberg sur Galien

(٣) جاء في موسوعات العلوم الفرنسوية انه ولد سنة ١٣١م

واغنيآئها وحكمائها فعني بتهذيبهِ وتعليمهِ حتى بلغ عمرهُ السنة الخامسة عشرة ثم سلمهُ الى الفلاسفة الافلاطونيين ليعلموهُ الفلسفة ولما صار عمرهُ ١٧ سنة رأى في الحلم ان يعلمهُ الطب . ومات ابوهُ وعمرهُ ١٨ سنة . ولما بلغ السنة العشرين جاء الى ازميروالف فيها ثلاث رسائل ثم جاء الى الاسكندرية وبقي فيها اربع سنين كما تقدم ثم آب الى موطنهِ يشتغل بالتطبيب حتى بلغ من العمر ٣٣ سنة فجآء الى رومة في بداية حكم مرقس اوريليوس قيصر وكان يلقي على العموم الدروس الطبية والفلسفية الى ان تفشى الطاعون سنة ١٦١ فارتحل عنها وقد عيب عليهِ ذلك . ثم طلبهُ الامبراطور صديقهُ الى رومة وأمرهُ ان يذهب مع الجيش في بعض حروبهِ فأبى زاعماً ان اسقليبس اوحى اليهِ في الحلم ان لا يترك رومة فرغب القيصر اليه بتعليم اولادهِ وكان يشتغل بالتأليف . وكثرت المشاحات بينهُ وبين اطبآء رومة فغالبهم وغلبهم ولم يسلم من نقدهِ احد الاَّ انهُ كان يجلُّ بقراط ويحترمهُ ويثني على هيروفيلوس لبراعتهِ بالتشريح . توفي وعمرهُ سبعون سنةً في مسقط رأسهِ برغامس

وكان الاطبآء في زمن جالينوس مختلفين في الآرآء والمذاهب ففريقٌ كان يعوّل على التجارب دون القياس . وفريقٌ كان

ينكر التجارب فلا يعرف للطب الا مزية العلم · وزعم قومٌ ان المرض انما يحدث في المادة المؤلف منها بدن الانسان وليس للطبيعة دخلٌ في اصلاح الخلل الحادث فيجب ان يقاوَم بالعلاج الموافق لان التوقف مضرٌّ · وقال آخرون ان المرض ليس الا الخلل الحادث في الاخلاط او احدها تخرج به عن حد الاعتدال والطبيعة انما تقتضي الموازنة فلذلك يقوم اصلاح الخلل بمساعدة الطبيعة والعبرة بالتوقف[1] . ومنهم قوم اعتمدوا على السفسطة والترَّهات فسمى بعضهم بالمخرقين وآخرين بمتمقي العبارات والمشاًرين والمقلّدين · قال الشيرازي لما ظهر جالينوس كانت صناعة الطب قد اندرست ومُحيت محاسنها وخُفي اكثرها فاحياها بعد موتها واظهرها بعد خفائها وحررها بعد تبديلها · صنف في اكثر فروع الطب كتباً كثيرة وشرح مصنفات بقراط في ١٥ كتاباً وحكى ترجمة حياته في مقدمة كتاب عمله لقراءة كتبه . واكثر مصنفاته ترجمت الى العربية في القرن التاسع · ومنها ما فقد اصلهُ اليوناني وبقيت

(١) يراد بالتوقف expectation الوقت الذى يراقب فيه الطبيب فعل الطبيعة بدون مزاولة العلاج فى اول الامر ليتبين هل الطبيعه جاريه على خطه السلامه او مائلة الى حالة الخطر فيتدبر بما تقتضيه الاحوال

ترجمتهُ العربية ثم تُرجمت الى اللغات الاوروبية وطُبعت مراراً

قال ابو العلاء المعري

سُقياً ورعياً لجالينوس من رجلٍ ورهط بقراط غاضوا بعد او زادوا
فكلما أصَّلوهُ غير منتقضٍ بهِ استغاثَ اولوا سُقمٍ وعُوَّادُ
كُتْبٌ لطافٌ عليهم خفَّ محملُها لكنها في شفاء الداء أطوادُ

واشتدت في مدينة الاسكندرية المشاحات على العقائد الدينية بعد تملك الرومانيين وانتشار الديانة المسيحية وتباينت المنازع السياسية وكثرت الفتن بين أهليها لتبايُن المنازع واختلاف العقائد فاضطرَّ العلماء الى مهاجرتها فخبا نور العلم فيها ودُرست الصناعة الطبية واخنى الدهر على مكاتبها ومتاحفها فتفرقت ايدي سبا . وكان الرومانيون متشاغلين بالسياسة والحروب فلم يعمر للعلم في ربوعهم منتدى ولم يذكر التاريخ عن اطبائهم الا افراداً اشهرهم بولس الايجيني من جزيرة ايجينا ويسمى بالقوابلي لانهُ كان متضلعاً بعلم الولادة وامراض النساء فكانت القوابل يستشرنهُ . عاش في آخر القرن الرابع بعد المسيح . وترجم حنين بن اسحق بعض مؤلفاته الى اللغة العربية . ونبغ في ذلك القرن القس هرون الاسكندري وهو اول طبيب وصف الجدري والف باليونانية مجموعةً تشتمل على ثلاثين كتاباً في الطب ترجمها الى اللغة

السريانية ماسرجيس اوماسرويه الاسرائيلي من بصرى بالاشتراك مع عالم آخر من الاسكندرية اسمه غوسيوس اوجاسيوس واخذ عنها الرازيُّ وعليُّ بن عباس وزعما ان اكثرها منقول عن كتب فلاسفة اليونان ولا سيما جالينوس . وهذه المجموعة اول الكتب التي حصل عليها العرب في علم الطب

ولا يسعنا ان ننتقل للكلام على اطباء العرب قبل ان نذكر شيئاً من ترجمة شيخ فلاسفة اليونان وامام الفلاسفة اجمالاً واعني بهِ ارسطو [1] . كان اوحد زمانهِ في الطب والفلسفة والطبيعيات وجميع العلوم وهو المشار اليه في كتبهم بالفيلسوف الاكبر والفيلسوف الاول اخذ عنهُ العرب الحكمة وترجموا مصنفاته واشتغل كثير منهم بشرحها والتوسع في معانيها . وكان ابوهُ نيكوماخس Nicomaque طبيب ملك مكدونية امنتاس Amyntas الثاني ابي فيليبوس ابي الاسكندر الكبير وجدهُ كان طبيباً ايضاً من آل اسقيليبس فلا غرابة اذاً ان يكون الاسكندر العظيم تلميذاً لهذا الفيلسوف العظيم . ولد سنة ٣٨٤ ق . م . وتوفي سنة ٣٢٣ ق . م . ودخل مدرسة افلاطون في اثينا اذ كان عمرهُ ١٨ سنة وبقي ملازماً لهُ عشرين سنة حتى توفي استاذهُ ٣٤٧ ق . م . فترك اثينا ثم عاد اليها يدرس الخطابة وسنة ٣٤٢

(1) Aristote; Grande Encyclopédie

دعاهُ الملك فيلبوس المقدوني لتهذيب ابنهِ الاسكندر وكان عمرهُ حينئذٍ ١٤ سنة فلم يفارقهُ حتى شرع بالفتوحات في آسيا سنة ٣٣٤ ق . م . ثم اشتغل بالتدريس والتصنيف قال الشيرازي انهُ صنف ماية وثمانية عشر كتاباً وهو اول من تكلم في صناعة البرهان وجعلها آية العلوم النظرية ٥ وذكر الشيرازي من اطباء اليونان آخرين منهم روفس قال انهُ كان بعد بقراط بنحو مايتي سنة وكان من اجلّ علماء اليونان ذكرهُ جالينوس في عدة من كتبهِ واثنى عليهِ وعلى زهدهِ وعلى علمهِ صنف كتباً كثيرة وأفرد امراضاً كثيرة كلاًّ بمصنف ومن كلامه ,,امتحن المرء في وقت غضبهِ لا في وقت رضاهُ`` وقولهُ ,,خير الاشياء اجدُّها الا المودات``. ومنهم ارياسس قال انهُ كان طبيب ملوك زمانهِ انتهى اليهِ علم الطب بعد جالينوس وكان ماهراً في احوال النساء وكان على دين النصرانية واكثر تصنيفه الكنانيش . ومشيح بن الحكم كان طبيباً نصرانياً قيل انهُ ممن أخذ عنهُ الحارث بن كلدة وكان حسن العلاج والتصوير وكثيراً ما ينقل عنهُ الرازي في الحاوي ومن كلامه ,,انفع الاشياء موت الاشرار`` وقال ,,سلوا القلوب عن المودات فانها شهود لا تقبل الرُّشى`` وقيل لهُ ما اصعب شيء على الانسان قال ,,معرفة نفسه وكتم سرهِ``

الفصل الثالث

في اطباء العرب

نبذة اولى

في منشإ الطب عند العرب

كانت العرب قبائل متفرقةً منتشرةً في شبه الجزيرة العربية تعتمد في معاشها على الانعام فتضرب في اكناف البادية طلباً لمواقع الغيث وانتجاعاً للكلاٍ . وكانت كلُّ قبيلةٍ كثر عديدها او قلَّ مستقلةً بأمرها يجري افرادهـا على الفطرة السليمة في معاملة بعضهم البعض وينقادون لمشائخهم كما ينقاد الابناء للآباء . وكان دأبهم الغزو يتفاخرون به ويثأرون بعضهم بعضاً فلم تنفكَّ العداوة بينهم حتى جاء الاسلام فجمع شتيتهم وألف بين قلوبهم فصاروا أُمةً اندفعت كالسيل المنهمر على مدن سوريا فاجتاحتها وتملكتها وتقدمت الى بلاد فارس من جهة اسيا والى مصر من جهة افريقيا ثم دخلت أُروبا وتملكت اسبانيا ولم تصدَّها جبال البرانس [1] عن التقدم حتى

(1) Pyrénées هكذا كتبها المورخون من العرب لا كما يكتبها المترجمون الآن راجع نفح الطيب

وقف في طريقها كارل مارتل [1] في سهل بواتياي [2] من فرنسا كما وقف سور الصين في سبيلها من جهة آسيا وقد استولت في الزمن القصير على ممالك القياصرة والاكاسرة ودخلت في حوزتها جميع المدن القديمة والامصار العظيمة الواقعة في اطراف المعمور من شواطيء بحر الظلمات [3] الى شواطيء الاوقيانوس الهندي ومن بحر الروم الى مجاهل افريقيا . وكلّ مملكةٍ افتتحتها رسخ قدمها فيها ودان اهلوها لها واعتنقوا دينها الاّ الذين استأمنوا ودفعوا الجزية عن يدٍ فانتشرت اللغة العربية الى اطراف المعمور وغلبت سائر اللغات في مواطنها الاصلية فجرت ذيل العفاء على السريانية والقبطية واليونانية والعبرانية والفارسية وغيرها [4] . وكان النصارى في تلك الايام دائبين على المشاحات في العقائد الدينية متشاغلين بالمماحكات في المنازع السياسية متهالكين في تقويض بنيان ممالكهم بالدسائس الداخلية والفتن الاهلية وقد اتخذ ملوك الروم قاعدة سياستهم ,, فرّقْ فتملكْ ،، فساد الظلم ووقع الحيف واستبدّ القوي بالضعيف وتشتت الجمع وانقسموا فرقاً تمكنت منها اسباب العداوة

(1) Charles Martel (2) Poitier
(3) Atlantique (4) V. l'histoire génèrale des Arabes, par Sédillot

وكلُّ فرقةٍ قويت انتقمت من الاخرى ونكلت بها تنكيلاً ولذلك اضطرَّ كلُّ من جرى في عروقه دم الشرف والحرية الى ان يغادر موطنهُ ويهاجر الى حيث يرى لهُ مأمناً ومرتفقاً فكان العلماءُ والحكماءُ اول من اتخذ هذا السبيل وهم حياة الامة فقصدوا بلاد الاكاسرة وغيرها من الاطراف الشاسعة هرباً من ظلم مضطهديهم وهرب كثير من علماء مدينة الاسكندرية الى اللاذقية وغيرها من مدن سوريا [1]

وكان النساطرة ممن ذاقوا البلاء من الروم اذىً وشدَّةً فلجأوا الى ظلّ الاكاسرة في العجم حيث اسسوا في مدينة الرها مدرسةً ثم أنشئوا في مدينة جنديسابور مدرسة ومارستاناً واشتغل اساتذتها بترجمة كتب اليونان الى السريانية فتمهد للعرب بذلك سبيل طلب العلم

ولم تحفل الدولة الاموية في الشرق بعلم الطب والحكمة لتشاغلها بالفتوحات وتوطيد قواعد الملك . واول اطباء العرب الحارث بن كلدة اخذ الطب عن اساتذة مدرسة جنديسابور وطبَّ بحضرة النبي وتوفي في بداية خلافة عثمان . وذكر الشيرازيُّ الاحنف بن قيس بن معاوية بن حصن السعدي التميمي البصري

1 Laboulbène; la médecine chez les Arabes; Sédillot. ; histoire générale des Arabes

توفي سنة تسع وستين من الهجرة . وذكر بعضهم عبد الملك بن ابهر الكناني وكان طبيباً عربياً نصرانياً من حكماء مدرسة الاسكندرية اسلم في ايام عبد العزيز بن مروان حاكم مصر سنة ٧٠ من الهجرة (٦٨٩ م) ويوحنا أو يحيي المعروف عند السريان بالنحوي (غراماطيقوس) كان يعقوبياً من حكماء الاسكندرية . وفد على عمرو بن العاص وقد عرف مكانهُ من العلم فاكرمهُ وقرَّبهُ . وكأَنَّ مجد الدولة العربية في احياء موات العلم ونشر صناعة الطب بقي مرتهناً الى ان تبوأً بنوا العباس عرش الخلافة وجعلوا بغداد عاصمة المملكة الاسلامية . أو كأَنَّ الدولة العباسية آلت لتنهضنَّ بهذه الامة الى ذروة المجد فلم تجد مرقاةً لها افضل من العلم . فمنذ اختطَّ الخليفة المنصور مدينة بغداد سنة ٧٦٢ م ترك جرجس بن جبريل من ابناء بختيشوع مدرسة جنديسابور واقام في بغداد وكان طبيب الخليفة وتوفي في ايامهِ وكان لهُ خبرة بتصوير العلل والعلاج فقط وهو الذي مهد الطريق لذويهِ بالحظوى لدى الخلفاء ورجال الدولة

وبنى هرون الرشيد المدارس وبيوت المرضى والصيدليات واباح الانتفاع بها للعموم . وكان طبيبهُ جبريل بن عبدالله بن بختشوع وكان مكرماً لديه حظياً عندهُ وفي ايامه تُرجمت كتب الحكمة

والطب من السريانية واليونانية والهندية الى العربية . وعهد اليهِ الخليفة بفحص الاطبآء في مدينة بغداد ومنع من لم يكن كفوأ لمزاولة هذه الصناعة . صنف الكناش الصغير للصاحب بن عباد فاجازهُ بالف دينار . وانشأ المأمون ندوةً علمية جمع اليها العلمآء من كل صوبٍ وحَدَب وبذل من الاموال ما لايقدَّر لمشترى الكتب وترجمتها الى اللغـة العربية فكانت بغداد حينئذٍ عروس الدنيا ودار العلوم وعرصة الادب . قيل ان العلمآء والمدرسين فيها واعضآء ندوتها العلمية بلغوا لذلك العهد ستة آلاف عداً . فتأمل

ومن مشاهير النساطرة الذين كانت لهم يدٌ بالترجمة الى العربية ابنآء ماسويه منهم يوحنا صاحب النظم الحاذق والعلاج الخارق والبراعة التامة برع في عدة علوم وكان من بطانة هرون الرشيد . اشتغل بتدريس علم الطب في مدرسة بغداد والف كتباً كثيرة وتوفي سنة ٢٤٣ ﻫ . وكان تلميذهُ حنين بن اسحق المولود في الحيرة من مشاهير المترجمين في القرن التاسع ثم صار طبيب المتوكل ومما يؤثر عنهُ ان المتوكل اراد امتحانهُ ليعرف مكانهُ من صدق الخدمة فخلع عليهِ واقطعهُ بما يساوي خمسين الف درهم ثم طلب منهُ ان يصف لهُ دوآء يقتل به عدواً لهُ لا

يجبُ ذكر اسمهِ فاجابهُ حنين يعفوني امير المؤمنين فانني لم اتعلم غير الادوية النافعة ولم يخطر ببالي انهُ يطلب مني خلافها ولما لم يظفر منهُ بطائل اخافهُ وتهددهُ ثم ارسلهُ الى السجن في بعض القلاع وتركهُ مدةً وبعد ذلك احضرهُ واعاد عليهِ الطلب فاصرَّ على امتناعه . فأمر الخليفة باحضار سيف ونطع وقال نقتلك ان لم تفعل . فقال حنين ان لي رباً يأخذ بحقي غدًا في الموقف الرهيب . فتبسم المتوكل وقال لهُ طب نفساً فانا انما اردنا امتحانك والثقة اليك . فقبَّل حنين الارض وشكر . وبعد ان هدأ روعهُ سألهُ الخليفة ما الذي منعك من الاجابة مع ما رأيت من صدق الامر منا في الحالين . فقال شيئان ,, الدين والصناعة ‘‘ اما الدين فانهُ يأمرنا باصطناع المعروف حتى الى اعدائنا واما الصناعة فانها موضوعة لنفع ابناءِ الجنس ومقصورة على معالجتهم ومع هذا فقد جُعل في رقاب الاطباءِ عهد موءكد بايمان مغلظة ألاَّ يعطوا احدًا دواءً قتالاً او مضرًّا فقال الخليفة انهما شرعان جليلان وانعم عليه فحمل انعامهُ وخرج وهو احسن الناس حالاً وانعمهم بالاً [1] . واشتغل حنين بالترجمة فترجم كتب بقراط وجالينوس

(١) خطاب للموءلف القاه فى ختام سنه ١٨٨٩ للمدرسة الكلية السوريه — الوافى للمرحوم امين الشميل —
Sédillot; histoire générale des arabes; tome II, page 75

وافلاطون وبطليموس وبولس الايجيني وكان ابناهُ اسحق وداود مترجمين ايضاً . وذكر الشيرازي اسحق ولم يذكر حنيناً . قال نقلاً عن ابن خلكان" اسحق بن حنين العبادي الاسرائيلي الحميري اشتغل على ابن ماسويه وكان متقناً للطب والعربية واليونانية عرَّب كثيرًا من كتبها وكان كثير الاعتناء بكتب ارسطو وجالينوس توفي سنة ٢٦٨ هـ" . وامتاز ابن اخته حُبيش بضبط الترجمة والنقل والف كتاباً في الطب. وكثر مترجموا الكتب عند الخلفاء العباسيين وممن اشتهر منهم حجاج بن مطر ترجم المجسطى تأليف بطليموس في علم التنجيم ومقالات اقليدس في الرياضيات وبعض مصنفات ارسطو . وكثر الاطباء من الهنود والفرس واليهود والنصارى عند الخلفاء منهم صالح بن بهلة وعبدوس بن زيد وموسى بن اسرائيل الكوفي وابناء الطيفوري وزين الطبري اليهودي وقسطا بن لوقا من بعلبك وابو زكريا يحيى بن ماسويه وابو زيد حنين بن اسحق بن سليمان بن ايوب العبادي الشهير بالترجمة ولد سنة ١٩٢ هـ (سنة ٨٠٩ م) وثابت بن قرة الصابئ من حران اشتغل مع قسطا بن لوقا بترجمة كتب جالينوس وغيرها من كتب الطب والرياضيات والتنجيم وفيه يقول السريُّ

الرفاء احد شعراء سيف الدولة بن حمدان [١]

هل للعليل سوى ابن قرة شافِ بعد الالهِ وهل لهُ من كافِ
احيى لنا رسم الفلاسفة الذي اودى واوضح رسم طبٍّ عافِ
فكأنهُ عيسى بن مريمَ ناطقاً يهبُ الحياةَ بايسر الالطافِ
مثلت لهُ قارورتي فرأى بها ما اكتنَّ بين جوانحي وشغافي
يبدو لهُ الداء الخفيُّ كما بدا للعين رضراضُ الغديرِ الصافي

ومنهم يوحنا بن سرابيون المعروف بيوحنا الدمشقي بالنسبة الى دمشق وهو مؤلف الكناش كتبهُ بالسريانية وترجم الى العربية ثم ترجم الى اللاتينية ولهُ تصانيف كثيرة اكثر الرازي عنهُ النقل. ومن مشاهيرهم في ذلك العصر ابو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي كان من بطانة المأمون ثم اتصل بالمعتصم وهو من ابناء الملوك وكان فيلسوفاً بارعاً في علوم اليونان والعجم والهند. الف كتباً كثيرة ونقل عن فلاسفة اليونان ولاسيما عن ارسطو [٢]

---

(١) يتيمه الدهر للثعالبي

(٢) ذكر صاحب عيون الانباء فى طبقات الاطباء وغيره اسماء كثيرين من نقلة العلوم والمترجمين الى اللغه العربيه من يونان ويعاقبه وسريان ونساطرة ويهود وهنود فاقتصرنا على ذكر بعضهم ممن اشار اليهم علماء الافرنج اثباتا لما نحن فى صدده

فمما تقدم يتضح ان العلوم ولا سيما علم الطب لاح نورها في مدرسة جنديسابور من بلاد العجم ثم اشرق في بغداد بعد ان خبا في بلاد اليونان وانطفأ في مدينة الاسكندرية. وان الصلة بين اللغة اليونانية واللغة العربية كانت اللغة السريانية في بدء الامر . وان نقلة علوم الحكمة والطب كانوا من النساطرة واليعاقبة غالباً واليهود والصابئة احياناً . وان الكتب التي وضعت باللغة العربية حتى القرن التاسع لم تكن الا مترجمةً عن اليونانية غالباً . وان الفضل في احياء هذه هذهِ العلوم ونشرها يرجع للخلفاء العباسيين ولا سيما الرشيد والمأمون اللذين ظهرت عنايتهما بترجمة الكتب وجمع العلماء وانشاء دور العلم وبيوت المرضى في بغداد كما فعل البطالسة في الاسكندرية من قبل

نبذة ثانية

في حكماء العرب في الشرق

وبعد القرن التاسع ظهرت فلاسفة العرب الذين ألفوا في الطب الكتب النفيسة وهي الكتب التي اتخذت دستوراً جرى عليهِ العلماء عموماً في مزاولة صناعة الطب مدة اثني عشر قرناً . ولا يسعنا المقام ان نذكرهم كلهم فنجتزيء بذكر تراجم الذين امتازوا

بينهم ولا سيما الذين اخذ عنهم الاوربيون وترجموا مصنفاتهم الى لغاتهم . فنهم الامام ابوبكر محمد بن زكريا الرازي الملقب بجالينوس العصر [١] ولد ونشأ في الريّ وبرع في علم الادب والفنون منذ كان صغيراً وكان كثير الولع بالموسيقى والنظم ثم جاء بغداد وزار بيمارستانها فرغب في الفلسفة والطب فبرع فيهما حتى بلغ الغاية وصار اشهر اساتذة مدرسة بغداد . وكان زكياً حافظاً باراً بالناس رؤوفاً بالمرضى كثير العناية بالفقراء صنف كتباً كثيرة منها كتاب الاقطاب في ثلاثين مجلداً والحاوي في خمسة عشر مجلداً وقد حكى فيه عن عجائب في معالجته تدل على براعته وتُرجم هذا المصنف الى اللغات الاوروبية وطُبع على اثر اختراع آلة الطباعة في مدينة البندقية في ١٧ مجلداً . قال كوفياي " ان هذا الكتاب يشتمل على الدروس التي املاها الرازي على تلامذته في مدرسة بغداد وقد اضاف اليها بعضهم فصولاً بعد موته " وكان رئيس اطباء بيمارستان بغداد والري وجنديسابور معاً . وألف في الكيمياء اثني عشر كتاباً وألف كتباً كثيرة في التشريح ومنافع الاعضاء وغير ذلك . ومن مصنفاته المنصوري في عشرة مجلدات ذكر في آخره الصفات التي

---

(1) V. la Revue scientifique, tome XXXII de la collection P. 647

يجب على الطبيب ان يكون حاصلاً عليها والقوانين التي يجب عليهِ السلوك بموجبها وندَّد بالمخرقين بصناعة الطب كما فعل بقراط وجاليغوس من قبلُ . وهذا الكتاب بلغ من الشهرة في اوروبا في القرون الوسطى ما لم يبلغهُ كتاب آخر حتى ان الملك لويس الحادي عشر امر بان لا يعتمد الا عليهِ في تدريس علم الطب في مدرسة باريس [١] وسماهُ بالمنصوري لانهُ جعلهُ تقدمةً الى منصور بن نوح الساماني امير خراسان حفيد الخليفة المعتصم . ومن بديع مصنفاتهِ رسالة في وصف الجدري والحصبة عُني بطبعها في بيروت الاستاذ الطبيب الذكر العلامة كرنيليوس فانديك . قيل ان الرازي اصيب في شيخوخته بالماءِ الازرق فجاءَهُ جراح ليقدح عينهُ فسألهُ كم هي طبقات العين ورطوباتها فلم يُحِرْ جواباً فقال خيرٌ لي ان ابقى اعمى من ان يقدح عيني جاهل . وصرفهُ . توفي سنة ٩٣٢ م (٣١١ هـ)

ومن [٢] كلامهِ "الحكيم برأيهِ متلفٌ" ومنهُ "يجب على

(١) وقيل ان الملك لويس الحادى عشر طلب الكتاب المذكور من مدرسة باريس الكلية بضمانة باهظة لياخذ عنه نسخة

Edouard Forestiè; LaRevue scientifique, .tome XXXIV de la collection – 1885, P.87

(٢) نقلا عن شرح ارجوزة الشيخ الرئيس

الطبيب ان يوهم العليل بالصحة وان كان غير واثق بها "— وقال " الاطباء الاحداث الذين لا تجربة لهم قتالون " — وقال " يجب على المريض ان يقتصر على طبيب يثق بهِ فخطأهُ في جنب صوابه يسيرٌ لان من استعمل اطباء كثيرين وقع في خطإِ الجميع " — وقال " اذا استطاع الطبيب ان يعالج المرضى بالاغذية دون الادوية فقد وافقتهُ السعادة " — وقال " اذا كان الطبيب حاذقاً والصيدليُّ صادقاً والمريض موافقاً فما اقلَّ لبث العلة "

وجاء بعد الرازي عليُّ بن العباس المجوسي الاهوازيُّ المعروف بالملكي تلميذ ابي ماهر وكان بعد الرازي بنحو ٥٠ سنة وهو مثلهُ عجمي صنف كتاب كامل الصناعة لعضد الدولة بن بويه الديلمي في ٢٠ مجلداً تحدَّى بهِ جالينوس وكان اماماً بالعلم والعمل قال بعضهم علم القانون وعلاج الملكي لم يسبق اليهما وبعضهم يفضلهُ عن ابن سينا . تُرجم مصنفهُ الى اللاتينية وطُبع سنة
١٤٩٢ م . ومما يؤثر عنه قولهُ " يجب على الاطباء الاحداث ٢
ان يتمرنوا على العمل في المارستان لانني استفدتُ كثيراً بما تجربتهُ من التجارب فيهِ " . ونبغ ابن سينا في القرن العاشر وكان من تلامذة مدرسة بغداد وهو ابو علي الحسين بن عبدالله بن الحسين بن علي بن سينا ويعرف بالشيخ الرئيس وُلد في بخارا

سنة ٣٧٠ هـ ـ ٩٨٠م . وتوفي بالاسهال في همذان سنة ٤٢٨هـ ـ ١٠٢٦ م كان فيلسوف الزمان . برع في الطب والفلسفة والطبيعيات والمنطق والرياضيات والفقه واتقن اقليدس والمجسطي وفاق في علم الطب اهل زمانه ثم اتصل بخدمة نوح بن منصور الساماني وسأله ان يمكنه من الدخول الى خزانة كتبه فاذن له فرأى فيها شيئاً من كتب الاوائل لم يكن في ايدي الناس فحصل منها على فوائد كثيرة وفي رواية انه احتال في حرق مكتبة بخارا لينفرد بمصنفاته وهذه الرواية لم تثبت . وتقلد الوزارة لشمس الدولة . ومؤلفاته كثيرة في جميع العلوم والفنون منها كتاب الشفآء وكتاب اللواحق وكتاب الحاصل والمحصول نحو من ٢٠ مجلداً وكتاب البرء الاثم مجلدان وكتاب الانصاف جمع فيه كتب ارسطو في ٢٠ مجلداً وكتاب لسان العرب في اللغة قال بعضهم لم يؤلف في اللغة مثله وكتاب المبدإ والمعاد وكتاب الاشارات وكتاب التنبيهات وكتاب الحدود وكتاب عيون الحكمة والموجز في المنطق وكتاب تقاسيم العلوم والحكمة وله المدخل الى علم الموسيقى ومقالة في الاجرام العلوية ومقالة في الرصد وكتاب تدبير النفس وشرح كتاب النفس لارسطو وكتاب اللمع في النحو ورسالة في

الزهد وفضيلته على انهُ لم يكن زاهداً كما يعلم من تاريخ حياته ويحكى ان صاحباً لهُ لامهُ على اسرافه على نفسه فاجابهُ انني احب الدنيا قصيرة عريضة ولا احبها طويلة ضيقة . ولهُ كتاب تعبير الرؤيا ولهُ رسالة في الكيمياء ورسالة في القضاء والقدر ورسالة في مخارج الحروف ولهُ كتاب القولنج وكتاب الادوية القلبية ورسالة في خط الاستواء ومقالة في حد الجسم وغير ذلك في الاصول والفروع وفي علم الحديث ولهُ نظمٌ رائق منهُ قولهُ

عدوُّكَ من صديقك مستفادٌ   فلا تستكثرنَّ من الصحابِ
لان السقمَ اكثرُ ما تراهُ   يكونُ من الطعامِ او الشرابِ

ولهُ في النفس قصيدة بديعة شرحها بعض العلماء قال في مطلعها

هبطت اليكَ من المحلّ الارفعِ   ورقاء ذات تعززٍ وتمنّعِ

ولهُ الارجوزة المشهورة في علم الطب وعمله قال فيها الامام مروان بن زهر انها محيطة بجميع كليات الطب وانها افضل من كتب كثيرة وقد شرحها كثير من العلماء منهم الفيلسوف ابن رشد والعلامة الشيرازي . واحسن كتاب الفهُ القانون وهو مشهور بقي ستة قرون معولاً عليه في علم الطب وعمله حتى عند الاوربيين الذين ترجموهُ الى لغاتهم وكانوا يتعلمونهُ في مدارسهم وطبعوه

سنة ١٤٧٦ وذلك بعد اختراع آلة الطباعة بنحو ٣٠ سنة واذا عرفتَ ما تقدم لم تستغرب قولهم "كان الطب معدوماً فأوجده بقراط وكان ميتاً فاحياه جالينوس وكان متفرقاً فجمعه الرازي وكان ناقصاً فكمله ابن سينا"

ومن فلاسفة العرب لذلك العهد الفارابي وهو محمد بن محمد بن اوزلغ بن طرخان من فاراب مدينة من مدن الترك صاحب التصانيف في المنطق والموسيقى اخذ عنهُ الرئيس ابن سينا . طاف البلاد وقال اني لاعرف اكثر من سبعين لساناً وتوفي في دمشق سنة ٣٣٩ هـ . ومنهم ابن ابي صادق عبد الرحمن بن علي النيسابوري برع في العلوم الحكمية وكان من تلامذة الرئيس ابن سينا . توفي سنة ٤٥٩ هـ . ومنهم الامام الاستاذ موفق الدين ابو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي البغدادي عرف بابن اللباد وكان جالينوس الزمان وبقراط الوقت برع في اللغة العربية والفلسفة واصول الطب وفروعهِ وكان كثير العناية بكتب ارسطو صنف ماية وثمانين مصنفاً وردَّ على ابن سينا ردًّا شنيعاً حيث صنف في علم الكيمياء توفي سنة ٦٢٦ هـ ـــ ١٢٣٠ م . ومنهم ابن نفيس عليّ ابن ابي الحزم القرشي شيخ الاطباء في عصرهِ وامامهم برع في

الطب وكان يملي ويدرس ويصنف في المجلس الواحد وجميع مصنفاته من حفظه . صنف كتاب الشامل وبيض منه نحو ١٠٠ مجلد وصنف المهذب في صناعة الكحل (امراض العيون) ولم يسبق الى مثله توفي سنة ١٢٨٧ . ومنهم ابو الفرج يعقوب بن اسحق القف من نصارى الكرك كان حكيماً رياضياً برع في الطب واشتهر بالجراحة وخدم في قلعة عجلون ثم في قلعة دمشق ومن مصنفاته كتاب الشافي في الطب وكتاب شرح كليات قانون ابن سينا في ٦ مجلدات وكتاب شرح فصول بقراط مجلدان وهو كافٍ للدلالة على براعته ودقة بحثهِ وسعة اطلاعهِ وصحة نقدهِ ومن مصنفاتهِ كتاب العمدة في صناعة الجراح ٢٠ مقالة ذكر فيه جميع ما يحتاج اليه الجراح ولهُ مؤلفات أُخرى توفي ١٢٨٤ ومنهم ابن ابي اصيبعة صاحب عيون الانباء في تاريخ الاطباء ولد في دمشق سنة ١٢٠٣ وتوفي فيها سنة ١٢٦٩ م . واشتهر في ذلك القرن عليّ بن عمر وكان كحالاً منشأهُ مصر وكانت امراض العيون فيها كثيرة كما هي الآن ومن مشاهير علماء اليهود الميموني وكان ميالاً الى الفلسفة اكثر من الطب جاء من اسبانيا الى مصر وتوفي سنة ١٢٠٤ م . والف كتبهُ باللغة العربية

وفي تلك القرون حُملت مصابيح الحكمة من مدينة بغداد الى سائر المدن الاسلامية فلم تخلُ مدينة من مدرسة للطب ومارستان لتطبيب المرضى ومكتبة او مكاتب تشتمل على الوف الالوف من الكتب الجليلة في جميع العلوم والفنون . ولو شئنا استقصاء ما ذكرهُ المؤرخون عن بناء المدارس وبيوت المرضى والمكاتب لطال بنا المجال فنقتصر على ذكر شيء من ذلك للدلالة على ما كان عليهِ ملوك الاسلام من العناية بالامة والنظر في مصالحها وسعادتها وما ادّى اليه الاهمال من ضياع هذهِ الكنوز النفيسة ليعتبر من ألقى السمع وهو شهيد . فقد ذكروا ان نور الدين بن الشهيد اسر بعض ملوك الافرنج وقصد قتلهُ ففدى نفسهُ بتسليم خمسة قلاع وخمسماية الف دينار انفقها نور الدين كلها على عمار مارستانهِ في دمشق . وحدث ان الملك المنصور لما توجه وهو امير الى غزاة الروم في ايام الظاهر بيبرس سنة ٦٧٥ھ اصابهُ بدمشق قولنج عظيم فعالجهُ الاطباء بادوية اخذت من مارستان نور الدين الشهيد فبرأ وركب حتى شاهد المارستان فاعجب به ونذر ان اتاهُ الله الملك ان يبني مارستاناً فلما تسلطن بني مارستانهُ الكبير المعروف بالمنصوري بخط بين القصرين من القاهرة افرد لكل طائفة من المرضى موضعاً

فيه فجعل اواوين المارستان الاربعة للمرضى بالحميات ونحوها وافرد قاعة للرمدى وقاعة للجرحى وقاعة لمن به اسهال وقاعة للنسآء ومكاناً للمبرودين ينقسم الى قسمين قسم للرجال وقسم للنسآء وجعل المآء يجري في جميع هذه الاماكن وافرد مكاناً لطبخ الطعام والاشربة والادوية ومكاناً لتركيب المعاجين والاكحال والشيافات ... ومكاناً يجلس فيه رئيس الاطبآء لالقآء درس الطب . وجعله سبيلاً لكل من يرد عليه من غني وفقير . اما المارستان العتيق فقد بناه صلاح الدين يوسف بن ايوب واستخدم له اطبآء وطبائعيين وجراحين وخداماً ووجد الناس بهِ رفقاً واليهِ مستروحاً وبه نفعاً وكذلك بمصر امر بفتح مارستانها القديم . واول مارستان بني في مصر بعد الفتح انشأه احمد بن طولون وانفق على بنائهِ ستين الف دينار [1] واذا كان كافور الاخشيدي بني مارستاناً في القاهرة فباي عين ينظر الآن امرآؤنا وكبرآؤنا مارستانات الافرنج تبنى في ديارهم ولايحزنون

وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم ان التشبه بالكرام فلاحُ

(١) راجع الجزء الثانى من الخطط والآثار للمقريزى صفحه ٤٠٦

نبذة ثالثة

في الطب العربي في المغرب

ولم يكن الشرق وحدهُ مطلع شموس المعارف والحكمة ومجلى انوار فلاسفة العرب فقد كان للغرب من ذلك الحظ الاوفر على عهد الخلفاء الامويين وقد انشأ الحكم بن هشام في قرطبة ندوةً علميَّة كان العلماء يتقاطرون اليها من جميع الامصار كما كانوا يتقاطرون الى الندوة العلمية التي انشأها المأمون في بغداد وارسل الوفود الى جميع الجهات لمشترى الكتب ونسخها فجمع مكتبة كانت في القرن العاشر تاجاً على مفرق الغرب وسعت ستمائة الف مجلد وكان برنامجها في ٤٤ مجلداً وقال بعضهم[1] انها كانت تشتمل على ٢٨٤٠٠٠ وهو مقدار يرى المتأمل فيه عظمة الدولة العربية في الاندلس وشدة عنايتها برفع منار العلم اذ لم تكن الطباعة معروفةً وطريقة استحصال الكتب لم تكن سهلةً كما في هذه الايام . ومما امتازت بهِ قرطبة ايضاً مدرستها الجامعة التي كان يأُمها طلاب الحكمة من جميع الامصار وقد تعلم فيها بعض عظماء الافرنج في زمن

(1) Laboulbène. V. la revue scientifique; tome XXXII

جاهليتهم ولما ذاقوا لذة العلم وتبينوا منافعه دفعوا الى الاقتداء بالعرب . وانشأ فيها محمد بن عليّ حديقة غناء لاجل درس علم النبات . ومما قيل في وصف قرطبة

باربعٍ فاقتِ الاقطارَ قرطبةٌ ... وهنَّ قنطرةُ الوادي وجامعها
هاتانِ ثنتانِ والزهراء ثالثةٌ ... والعلمُ افضلُ شيءٍ وهوَ رابعها

ومما يدلُّ على رواج بضاعة العلم عند العرب في الاندلس كثرة المدارس الطبية فيها فقد أُنشيء في اشبيلية مدرسة كبرى نبغ فيها كثيرٌ من مشاهير الحكماء وكان في طُليطلة مدرسة اخرى للطب توهج فيها نور الحكمة وفي مدينة مرسية مدرسة ثالثة لا تقلُّ سناءً عن غيرها من تلك المدارس الزاهرة وقد امتاز الاندلسيون بالتأنق في الحضارة والمدنية كما امتاز علماؤهم بالتدقيق في المباحث الفلسفية واستنباط كثيرٍ من المباديء التي بُنيت عليها المكتشفات العلمية التي هي من مفاخر هذا العصر ولا ابالغ اذا قلت ان مبدأ مذهب دَرْوِن في التحويل والارتقاء مأخوذ عن العرب ولديَّ مصنف محمد بن احمد الورّاق المعروف "بالكتبي" في علم الطبائع فمما قالهُ في الكلام على طبائع القرد "هذا الحيوان عند المتكلمين في الطبائع مركبٌ من انسان وبهيمة وهو من تدريج الطبيعة من البهيمة الى الانسان

(كذا) وهو يحاكي الانسان بصورتهِ وافعاله .... " اه
بحروفهِ ونحن نرى دَروِن يدعي بان جدَّهُ جراسيموس اول
من قال بمبداءِ التحول في الحيوانات منكراً على لَمرَك الفرنسويّ فضل
الاسبقية [1] وانما الفضل للكتبي" الذي اوضح هذهِ الحقيقة
بصريح العبارة قبل ان يوجد لَمرَك وجراسيموس ودَروِن بقرون .
ومن يتأمل في كلام عبدالله البكري صاحب كتاب مسالك
الابصار في ممالك الامصار يتعجب كيف حوَّم ببصيرتهِ على
الآراء الشائعة الآن بعد ان كشف العلامة بستور بتجاربهِ البديعة
مبادئ الفساد والتعفن وأوضح حقيقة تولد الجراثيم الوبيلة ومنفعة
التلقيح . قال في الكتاب الثاني عشر من مؤلفهِ المشار
اليهِ في الكلام على الهوام والحشرات ما نصهُ " اذا أوقدتَ
ناراً في وسط غيضةٍ لترى ما يغشى النار من الحشرات
بدت لك صورٌ عجيبة واشكالٌ غريبة . على ان الخلق
الذي يغشى النار يختلف باختلاف المواضع من الغياض
والجبال والسهول والبراري فان في كل بقعةٍ من هذهِ
البقاع اشكالاً من المخلوقات مخالفةً لما في البقعة الاخرى

(1) V. notice historique sur l'origine des espèces par Charles Darwin

وقد خُلقت هذهِ الحشرات من المواد الفاسدة والعفونات الكائنة ليصفو الجوُّ منها ولا يعرض لهُ الفساد الذي هو سبب الوبآء وهلاك الحيوان والنبات · والذي يحقق ذلك انا نرى الذباب والديدان في دكان القصَّاب والدباس ولا نراها في دكان البزاز والحداد فهي تمتصُّ العفونات وتُتغذَّى بها فيصفو الهوآء منها ويسلم من الوبآء (كذا) وجعل صغارها مأكولاً لكبارها والأ ملأت وجه الارض منها ‹‹ الى ان قال ‹‹ واعجب ما في هذا النوع ان كلَّ ما جُعل سبباً لضرر حيوانٍ جُعل لحمهُ دفعاً لذلك الضرر فان الاطبآء الاقدمين وجدوا في لحم الحية قوةً تقاوم السموم فأدخلوا لحمها في الترياق · والتجربة دلت على ان من لدغتهُ العقرب يقتلها ويطلي موضع اللدغ برطوبة بدنها فان الالم يسكن في الحال ‹‹ والكتاب المذكور يشتمل على كثيرٍ من صور النباتات بالوانها الطبيعية فهو من الآثار القديمة الباقية الى الآن للدلالة على فضل العرب ويظهر ان موءلفهُ متأخر عن ابن البيطار العشاب لانهُ يعتمد عليهِ كثيرًا في النقل اما سائر اجزآء الكتاب فلم اهتدِ حتى الآن اليها

ومن فلاسفة العرب في الاندلس ابو القاسم خلف بن عباس الزهراوي المتوفي سنة ١٠١٣ وهو اول طبيب طُبعت موءلفاتهُ

مترجمةً الى اللاتينية في مدينة البندقية . ألف كتاب التصريف في ٣٠ مجلداً وقد مدح العلامة هلّر موءلفهُ المذكور ولاسيما الكتاب الاول منه في المادة الطبية لانهُ لم يتعدَّ غيرهُ بالنقل بل اعتمد على نفسهِ في تحرّي الحقائق ولهُ كتاب القياس والتجربة وهذا الكتاب من ابدع كتب الطب القديم يشتمل القسم الذي يبحث فيه عن الجراحة على صور الكسور والخلع والآلات الجراحية

ومنهم ابن وافد ابو المطرّف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير بن يحيى بن وافد اللخمي من طُليطلة برع في الطب والفلسفة وكان مولعاً بدرس مصنفات ارسطو وجالينوس وكان يعوّل في العلاج على الادوية البسيطة ولهُ موءلفات كثيرة ضمنها مقالات ديسقوريدس وجالينوس توفي سنة ١٠٧٤

وكان في الاندلس ابناء زُهر بمثابة ابناء بختيشوع وحنين وماسويهِ في بغداد واشهرهم ابو مروان عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر الايادي الاشبيلي صاحب كتاب التيسير اخذ الطب عن ابيهِ وجدهِ وكان يتحدَّى جالينوس الاَّ انه كثيراً ما عقَّب عليه وردَّ على ما ترآى لهُ من مظانّ الشبهات فيهِ . كان حاذقاً محققاً مدققاً ذا منزلة رفيعة ويظهر انهُ لم يَطبّبْ كسائر اطباء زمانهِ ولكنهُ كان يُستشار في الامور المهمة . ومن حكاياتهم

عنهُ ان المهدي لما اخذ بلادالمغرب قرّبهُ وأكرمهُ واتحفهُ بالعطايا ومما عمل لهُ انهُ اخذ ادويةً مسهلة نقعها وسقى بمائها كرمةً فحملت عنباً فاحمى الخليفة واعطاهُ عنقوداً منها فاكل منهـا عشر حبات فقال لهُ يكفيك تقوم عشرة مجالس لانك اكلت عشر حبات فكان كما قال [1] فتزايدت قيمتهُ عندهُ وعطاياهُ ٠ قال الشيرازي وفي زمانهِ وصل القانون الى المغرب فلم يعجبهُ وصار يقطعهُ ويصرُّ بهِ الادوية ٠ وهو استاذ ابن رشد توفي وعمرهُ ٩٢ سنة في اشبيليه سنة ٥٩٥ هـ — ١١٦٢ م

وكان ابن رشد يؤثر الفلسفة على الطب وهو الامام ابو الوليد محمد بن محمد القرطبي كان ابوهُ قاضي قضاة الاندلس فرباهُ على حب الفضيلة والعلم فبرع في الفقه وفي الحديث وفي الجدل وفي معرفة مذاهب المتقدمين ودرس الرياضات والطبيعيات والطب ثم صار مدرساً للفلسفة والفقه والطب في مدرسة قرطبة وكان أبيَّ النفس عيوفاً للمحاباة عرّض مرّةً بالخليفة فحرمهُ من مخالطة الناس الأ اليهود ورُمي بالزندقة فحجزت املاكهُ وهاج الشعب عليهِ فهرب الى فاس ولكنهُ ضبط فيها وأُكرِهَ على

---

(١) خاتمة شرح ارجوزة الشيخ الرئيس للشيرازي
Sédillot; histoire générale des arabes

الوقوف صاغراً بباب الجامع ليبصق المارون عليهِ ثم عاد الى قرطبة يجرُّ ذيول الشقاء وبعد ذلك دعاهُ يعقوب المنصور سلطان مراكش فحسنت حالهُ واسترد ما فقده ُ(١) وتوفي سنة ٥٩٩ ﻫ ـ ١١٩٨ م. الف كتباً كثيرة منها كتاب الكايات في عدة مجلدات شرح بهِ فلسفة ارسطو ولهُ شرح ارجوزة ابن سينا

وآخر جهابذة الطب في الاندلس الامام المدقق ابو محمد عبدالله بن صالح المعروف بابن البيطار وُلد في مالقة في نهاية القرن الثاني عشر وسافر مشارق الارض ومغاربها ليرى النبات في موضعهِ ويتحقق صفاتهِ بالعيان متنكباً عن خطة التحدي والتقليد ومن طالع كتابهُ الجامع لمفردات الادوية والاغذية تبين ما كان عليهِ من ذكاء النفس وكثرة الحفظ وصحة النقد وسعة المعرفة لم يترك هفوةً اطلع عليها في كتب المتقدمين الا نبَّهَ عليها توفي في دمشق سنة ٦٤٦ ﻫ ـ ١٢٨٤ م

هؤلاء هم اشهر حكماء العرب الذين اهتدى الاوربيون بهداهم واقتفوا آثارهم ايام كان الجهل ضارباً اطنابهُ بينهم وكانوا

(1) V. les médecins arabes; Revue scientifique tome XXXII de la collection P. 653

على حالة من الهمجية اقلَّ ما قيل فيها انهم لم يكونوا يعرفون للقميص معنىً حتى استعاروا اسمهُ من العربية كما استعرنا منهم الآن اكثر اسماء ملابسنا كالبنطلون والبلطو فانقلبت الآية وكذلك الدهر بالناس قُلَّب · ولا شك ان علة هذا الانقلاب غلبةُ الجهل وترك العلم على ما يشهد العيان وتثبت الآثار · فلم يكن يوجد منهم من يعرف القراءة والكتابة الا بعض الرهبان وكان التشيع الديني يمزقهم كل ممزّق وكانت الخرافات والاضاليل والعبودية تعمي بصائرهم وكان الطبيب عندهم ساحرًا دجالاً بيطارًا والصيدليّ حائكاً عطارًا والجراح حلاقًا مهذارًا · واول شعاع من نور العلم ضاءت به آفاقهم انما انعكس عليهم من العرب مجاوريهم في الاندلس او مخالطيهم في حروبهم معهم ولا سيما الحروب الصليبية فتعلموا فلسفة ارسطو من مؤلفات ابن رشد وهندسة اقليدس من ترجمات الحجاج بن مطر واسحق بن حنين وثابت بن قرة والطب البقراطيّ من قانون ابن سينا ومصنفات الرازي والكيمياء من جابر بن حيان والنبات من ابن البيطار والرياضيات والطبيعيات والتنجيم من ترجمة المجسطي ومصنفات العرب الكثيرة (1) التي لا يسعنا بيانها الآن · وكانت مدارس

(1) V. l'histoire générale des arabes par Sédillot

الاندلس ولا سيما قرطبة محط رحالهم في طلب العلم واول من علم في مدارسهم اساتذة تلقوا العلوم عن العرب كما يعلم من تاريخ مدرسة سلرنا في ايطاليا وهي اقدم مدرسة في اروبا ولم يكن مسموحاً للنساء عندهم ان يتعلمن حتى القراءة البسيطة والكتابة وكان التعليم بوجه العموم موكولاً الى خدمة الدين وبقي كذلك في فرنسا الى بداءة القرن الماضي فلم يتقرر فيها نظام المعارف العمومية الا بعد الثورة التي ثلّ بها عرش الاستبداد وتحررت العقول من ربقة الاستعباد . وهذه لغاتهم تشهد عليهم كما يشهد التاريخ وعقلاؤهم يقرّون بان العرب كانوا اساتذتهم فلفظة الجبر algèbre دليلٌ على انهم اخذوا هذا العلم عن العرب والكيمياء alchimie تدل ايضاً على انهم اعتمدوا على المؤلفات العربية في هذا الفن بعد ان امر الامبراطور فردريك الثاني بترجمة الكتب العربية بعد الحروب الصليبية . والصفر chifre دليل على انهم لم يكونوا يعرفون الارقام وهم حتى الآن يسمونها بالارقام العربية وصورها الافرنجية هي نفس الصور التي استعملها العرب قديماً واكثر الاسماء في علم الهيئة عربية كالعنكبوت alancabuth والدبران aldébaran والطير althair والغول alghol والرجل rigel والسمت semt ثم تصرفوا بلفظها فقالوا zénith والنظير nadir ومما

اخذوهُ عنهم في الملاحة اميرال amiral والاسطول escadre مأخوذة من الطلياني في القرن الخامس عشر وكان يلفظونهـا eshiele وفي التشريح الصافن safène وفي الكيمياء الانبيق alambic والاكسير elixir والقلي alcali وفي المواد الطبية الترياق thhériaque والكحل [1] alcohol والشراب sirop والجلاب julep والرب rob والمعوق looch

(١) ويكتبه المترجمون الكؤول alcool وكانوا يكتبونه الكحول Alcohol تبعا للفرنسويين قبل ان قررت جمعيه العلوم الفرنسويه حذف الحرف h من هذه اللفظه وكفى بذلك دليلا على ضياع هذه اللغة وامتهانها من ابنائها فيما حقها ان تشرف به اما اصل اللفظة فقد اجمعوا على انها الكحل بمعنى الاثمد وانما خفي عليهم توجيه معنى الاثمد لروح الخمر . قال ليتراى فى معجمه الكبير انهما يلتقيان فى معنى اللطافة والدقة . واتذكر انى سمعت من الدكتور فانديك رحمه الله اذ كان يدرس الكيماء فى مدرسة بيروت الكلية روايه لو صح سندها لكانت هى الحقيقه بعينها قال « من فنون العرب فى الاندلس استقطار روح الخمر واسرافهم باستعماله شرابا وقد عرفوا الانتيمون بخاصته السامه وانه من الكحل فكانوا اذا قصدوا اغتيال احد وضعوا الانتيمون فى الشراب فاذا سئل عنه قالوا سقوه الكحل . يكنون بذلك عن موته مسموما . وعليه اطلاق لفظه الكحل على المشروبات الروحيه »

والبادزهر bézoard والتمرهندي tamarin والسنا séné والنفط naphte والكمون cumin والانيسون anis والكراويا[1] carvi وغير ذلك مما يطول الكلام عليه ولا غرابة في ذلك فهم انما تعلموا في مدارس العرب ونقلوا كتب العرب الى لغاتهم وطبعوها قبل ان يعتنوا بطبع غيرها من الكتب لانهم اعتمدوا عليها في التدريس والتعليم ولا يخفى ان آلة الطباعة اخترعها يوحنا غوتنبرج سنة ١٤٤٥م واول كتاب طُبع بها مترجماً الى اللغة اللاتينية هو كتاب التصريف للامام ابي القاسم الزهراوي المتقدم ذكرهُ وذلك في مدينة البندقية سنة ١٤٧١ م . ثم طُبع قانون ابن سينا سنة ١٤٧٦ م . وبعد ذلك طُبعت مؤلفات الرازي سنة ١٤٨١ م ثم كليات ابن رشد سنة ١٤٨٢ ـ ١٤٨٤ م . ثم طُبع تصنيف علي بن عباس الاهوازي المعروف بالملكي سنة ١٤٩٢ م مع ان مصنف شلشيوس انما طُبع سنة ١٤٧٨ م . ومصنفات

---

(١) تنبيه ـ قد ذكرت بعض الالفاظ المنقولة عن العربيه الى الفرنسويه بقطع النظر عن كونها عربيه الاصل اومعربه ولم اتصد لبيان هذه الالفاظ في سائر اللغات لان اللغه الفرنسويه اكثر شيوعا بيننا

جالينوس طُبعت سنة ١٤٨٠م وهي السنة التي طبعت فيها مؤلفات الرازي . فتأمل

الفصل الرابع

في ماهية الطب القديم

قد تقدم (صفحة ١١٢) ان بقراط جرى في تحرير اصول الطب على القياس والتجربة فهو اذاً علم وعمل وعليهِ قول ابن سينا في مقدمة أُرجوزتهِ المشهورة

الطبُّ حفظُ صحةٍ برءُ مرضْ   في بدنٍ من سببٍ عنهُ عرضْ
قسمتهُ الأُولى لعلمٍ وعملْ   والعلمُ في ثلاثةٍ قد اكتملْ
سبعُ طبيعاتٍ من الأُمورِ   وستةٌ وكلها ضروري
ثم ثلاثٌ سُطِّرت في الكتُبِ   من مَرضٍ وعَرضٍ وسَببِ

وبناءٌ عليهِ يكون علم الطب عندهم متوقفاً على معرفة الامور الطبيعية السبعة والامور الضرورية الستة وعلى معرفة الامراض واعراضها واسبابها . واما عملهُ فيراد بهِ مزاولة صناعة العلاج إِما بالجراحة وإِما بالدواءِ وتدبيرِ الغذاءِ وعليهِ قول الشيخ الرئيس في ارجوزتهِ المذكورة

وعملُ الطبِّ على قسمينِ   فواحدٌ يُعمل باليدينِ
وغيرهُ يُعملُ بالدوآء   وما يقدَّمُ من الغذآء

أمّا الامور الطبيعية السبعة فهي الاركان والمزاج والأخلاط والاعضآء والقوى والارواح والافعال ولكل منها احكامٌ وخصائص يطول الكلام عليها . قالوا ان الاجسام باسرها مركبة من الهيولى والصورة . وان الهيولى والعنصر والمادة والأسطقس والاصل والركن والموضوع متحدة بالذات مختلفة بالاعتبار لان الشيء الذي يتكون منه شيء آخر لابدَّ وان يكون قابلاً لصورته فباعتبار كونهِ قابلاً للصورة مطلقاً يسمى هيولى وباعتبار كونهِ قابلاً لصورةٍ معينةٍ يُسمى مادةً وباعتبار كون الصورة حاصلةً فيه بالفعل يسمى موضوعاً وباعتبار كونهِ جزأً للمركب يُسمى ركناً وباعتبار كونهِ يبتدئ منهُ التركيب يسمى عنصراً وباعتبار كونهِ ينتهي اليهِ التحليل فيكون اصغر جزء في المركَّب يُسمى اسطقساً وباعتبار كون ذلك المركب مأخوذاً منهُ يُسمى اصلاً فالركن ابسط شيء في المركَّب ويقال على الاجزآء الاولية لبدن الانسان وهي مكونة من العناصر الاربعة على ما يؤخذ بالاستقرآء وهي النار والمآء والهوآء والتراب . وقالوا ان البدن مؤلف من الاعضآء الآلية وهذه الاعضآء تتكوَّن من الدم

وهو من الغذآء وهو اما نبات او حيوان وهو ايضاً من النبات والنبات انما يقوم بالمآء والهوآء والتراب وحرارة الشمس فمرجع التكوين الي العناصر المذكورة . والنار بالطبع حارة يابسة والمآء رطب بارد والارض رطبة يابسة والهوآء رطب حار ٭ واما الامزجة فهي كيفيات متشابهة تحدث من تفاعل الاركان بقواها المتضادة وهي على ثماني حالات وكلٌ مقابلٍ ينقسم الى ثمانية اقسام فالخارجة عن الاعتدال الطبي اربعة وستون والمعتدل الحقيقي الذي لا وجود لهُ واحد فالجملة ثلاثة وسبعون ولهم في بيان ذلك كلام طويل لا محل لها الآن ٭ واما الاخلاط فهي اجسام رطبة سيالة تتولد من الغذآء وهي الدم والصفرآء والبلغم والسودآء وذلك ان الغذآء متى انهضم في المعدة يستحيل الى الكيلوس وينجذب الصافي منهُ الى الكبد فينطبخ فيهِ فيحصل فيهِ شيءٌ كالرغوة وشيءٌ كالرسوب وشيءٌ فجٌ فالرغوة هي الصفرآء والرسوب هي السودآء والشيء الفج هو البلغم واما المصفى من هذهِ الجملة نضيجاً فهو الدم ٭ واما الاعضآء فهي الاجسام المتولدة من اول مزاج الاخلاط وتنقسم الى رئيسية وهي القلب وفيهِ مبدأ قوة الحياة والدماغ وفيهِ مبدأ قوة الحس والحركة والكبد وفيهِ مبدأ التغذية ٭ واما القوى فهي اما

طبيعية محلها الكبد او حيوانية محلها القلب او نفسانية محلها الدماغ ولكل منها اقسام ليس من غرضنا بيانها الآن * واما الارواح فهي اجسام تحدث عن بخارية الاخلاط ولطافتها وتنقسم الى طبيعية وهي التي تنفذ من الكبد في العروق الغير الضوارب (الاوردة) الى جميع البدن والى حيوانية وهي التي تنفذ من القلب في العروق الضوارب (الشرايين) الى جميع البدن والى نفسانية وهي التي تنفذ من الدماغ في العصب الى اقاصي البدن

واما الستة الضرورية فهي (١) الهواء و(٢) الغذاء و(٣) النوم واليقظة و (٤) الحركة والسكون و(٥) الاستفراغ و (٦) الأحداث النفسانية . وكل ذلك يستلزم معرفةً مدققةً للتوصل الى معرفة حقيقة المرض واسبابهِ واعراضهِ وبالتالي الى معرفة علاجهِ . وقالوا في حدّ المرض انه حالة للبدن خارجة عن المجرى الطبيعي معها ينال الافعال الضرر بلا واسطة وان الاعراض علامات يعرف بها الخلل الحادث ومحلهُ من البدن وسببها انفعال الاعضاء بما يُجرى فيها على غير النظام الطبيعي لان الطبيعة تحاول اصلاح هذا الخلل وتغالب قواها قواهُ فاما ان تقهرهُ فتحدث الصحة واما ان يقهرها فيحدث الموت فالطبيب

النطاسي اذاً انما "هو خادم الطبيعة" التي تحذو الافعال الطبية حذوَها فيجب عليهِ ان يقويها متى وجدها ناهضة بشفاء مرض او يتركها على حالها وان يقويها ويقابل مقاومها بما يضادهُ متى وجدها مقصرةً وان وجدها عادمة آلةٍ او مسلكٍ هيأ ذلك لها مثل رد خلع وتسوية كسر وفتح عرق كل ذلك بحسب الامكان . ووضعوا للمعالجة بالدواء قوانين هي اولاً اختبار كيفية الدواء من حرارتهِ وبرودتهِ ورطوبتهِ ويبسهِ وذلك بعد معرفة نوع المرض هل هو حارٌّ او باردٌ او غير ذلك ليعالج بالضدّ وتحفظ الصحة بالمثل وثانياً اختيار وزنهِ هل يؤخذ منه كثير او قليل وثالثاً وقت استعمالهِ والوقت الحاضر من اوقات الفصول واوقات المرض وهي اربعة الابتداء والتزيد والوقوف والانحطاط فيعطيهِ ما يناسبهُ في تلك الاوقات

هذهِ هي خلاصة ما ذهب اليهِ الحكماء في الطب القديم اخذتها عن عدةٍ من كتبهم المعتبرة ولم اتصدَّ لبيان ما بنوا عليها من الآراء والمذاهب وما توسعوا فيها من الشرح والتفصيل وما تحرَّوا من المباحث والمطالب وانما قصدت الاشارة الى الاصول التي اتخذوها اساساً لمعارفهم لتتسهل المقابلة بينها وبين الاصول المتخذة الآن فتُدفَع مزاعم الذين يهرفون بما لا يعرفون

ويكتبون عنهم وهم لا يقرأون واذا قرأوا لا يفهمون ويُعلَم ان الطب انما وصل الى حالتهِ الحاضرة من الاتقان واتساع المدى وصحة المبداءِ بعد ان تدرج في مراتب الارتقاء من طور الى طور حتى وصل الينا في هذا الطور وقد كاد يبلغ ذروة الكمال

وقد مرَّ بك ان القدماء بنوا مذهبهم في تركيب بدن الانسان من الاركان الاربعة على تعليم بقراط مستدلاً على ذلك بان العناصر اربعة وهي الماء والهواء والنار والتراب وان هذا المذهب بقي شائعاً معوَّلاً عليه حتى الى امدٍ قريب وذلك لانهم توهموا ان العناصر الاربعة انما هي بسيطة ولم يكن لديهم من الوسائط ما يهتدون بهِ الى معرفة حقيقتها الا الحدس والظن والانسان مطبوعٌ على حب التقليد والتحدي فلم تكن مخالفة هذا المذهب بالامر الهين طالما لم يثبت نقيضهُ ببرهان التجربة والمشاهدة . على ان الكيماويين من العرب قد مهدوا السبيل لمعرفة تركيب العناصر بما اجروا من التجارب لتحويل المعادن الى فضةٍ وذهب واقتفى آثارهم بذلك بعض الرهبان كروجر باكون واول ما اهتدوا اليهِ تحويل الزنجفر الى الزئبق والكبريت ثم كشف بريستلي الانكليزي وشيلي الاسوجي

ولافوازياي الفرنساوي غاز الأُكسجن سنة ١٩٧٤ وسنة ١٧٧٥ وكشف كافندِش الانكليزي غاز الهيدروجن سنة ١٧٦٦ وكشف الدكتور رثرُفرد النيتروجن سنة ١٧٧٢ وسماهُ لافوازياي ازوتًا لعدم صلاحيتهِ للحياة فثبت كون المآء مركبًا من الهيدورجن والأُكسجن وكون الهوآء مركبًا من الاوكسجن والازوت وغيرهما وان النار ظاهرة تتولد من اتحاد مادة كربونية بغاز الأُوكسجن في حالة الاشتعال وان التراب مركب من عناصر كثيرة يطول شرحها

وكان التشريح محرَّمًا على القدمآء فلم يكن من سبيل لمعرفة منافع الاعضآء الا بقدر ما توصل اليهِ بقراط بحدسهِ الصائب وذكائهِ الغريب من النظر الى الحيوانات التي كانت تقدَّم في هياكلهم ضحايا لآلهتهم واول من مارس التشريح من القدمآء هيروفيلوس الخلقيدوني في مدينة قوس فهاج اهلها عليهِ حتى اضطروهُ الى الهرب فجآء الى الاسكندرية واشتغل في مدرستها بتشريح الحيوانات وجثث المحكوم عليهم بالاعدام واتُّهم بتشريح الاحيآء وتبعهُ ايرازستراتوس من مدينة قبدوس فحققا اشيآء كثيرة مما لم تصل اليه معرفة الذين تقدموهما واخذ عنهما جالينوس واشتغل ايضاً بالتشريح في مدرسة

الاسكندرية وألف الكتب التي اهتدى بها علماء العرب وتوسع كثيرًا بمباحثه الاَّ انهُ تابع ارسطو بزعمهِ ان الدم ينفذ من احد بطيني القلب الى الآخر بواسطة بطين ثالث سماهُ دهليزًا وربما حداهُ الى هذا الزعم مشاهدتهُ في أجنة الحيوانات اللبونة ثقبًا بين البطينين لان الدم الشرياني يختلط بالوريدي في الاجنة وهذا الثقب يُسدُّ بعد الولادة . وقال ان الشرايين تحمل الروح والاوردة تحمل الدم . ومن يتأمل في مؤلفات اطباء العرب يرى ان معارفهم بالتشريح لم تكن قاصرةً الى الحد الذي توهمهُ بعضهم بحجة ان التشريح كان محرمًا عليهم . قالوا في تشريح القلب ما نصه " اما القلب فانهُ جسمٌ مخروطي كهيئة الصنوبر قاعدتهُ وسط الصدر ورأسهُ الى جانب اليسار وهو احمر لحماني مركَّبٌ من اللحم والليف والغشاء الصلب (وهو الصمامات) المنتسج من ثلاثة انواع من الليف الطويل الجاذب والعريض الدافع والمورب الماسك ليكون لهُ اصناف الحركات وفنون الافعال . وهو منبع الحرارة الغريزية ولهُ بطنان احدهما الايمن وهو مملوء بالدم الكثير والروح القليل ولهُ مجاري يجري فيها من القلب الى الرئة دمُ الغذاء ومن الرئة الى القلب الهواء والثاني الايسر وهو مملوء بالروح الكثير والدم القليل وهو منبت

الشرايين . ومن ذلك يعلم ان اطباء العرب لم يبعدوا كثيرًا عن معرفة حقيقة دورة الدم . فلو ابيح لهم اجراء التجارب على الحيوانات حيةً كما فعل هرفي في القرن السادس عشر لما قصروا عن مداه . ومع ذلك فقد عرفوا ان منفعة الرئتين الترويح وهو عندهم نفض البخار الدخاني (الحامض الكربونيك) وجذب النسيم اليه (وهو الهواء النقي المشتمل على الأكسجن) . ومن ذلك يُعلم انهم حوّموا على الحقيقة بالحدس الصائب . وقالوا ان الدم اصل في تكوين الجسم الحيواني وان تغذية جميع الاعضاء انما تقوم به بحيث يتناول كلُّ جزء منهُ ما يماثلهُ ويصلح لان يتشبَّهَ بهِ فيحصل التركيب والافراز ونتيجة ذلك النماء وطرح الفضول . وعرفوا الاعصاب وعددها ومنابتها من الدماغ والنخاع الفقري وانها تورد الحس وتصدر الحركة . وقيل ان جالينوس عرف ذلك بالتجربة حيث قطع في مواضع من النخاع الفقري طولاً وعرضاً كما فعل شارل بلّ في القرن الاخير فتحقق مصدر الحسّ والحركة في العصب الواحد . وفيما تقدم كفاية لتفنيد مزاعم الذين يقولون ان علماء العرب كانوا بعيدين عن الحقائق العلمية بمراحل وانهم لم يبتدعوا رأياً ولم يستنبطوا امرًا

ولو عرفوا ليلى اقرّوا بفضلها   وقالوا باني في الثناء مقصِّرُ

الفصل الخامس

في الطب الحديث

نبذة اولى

في مدرسة سلرنا

لامرآء في ان اصول الطب الحديث مبنيّة على اساس التحقيق لان العلم صار حرًّا بعد عتق الافكار من العبودية القديمة فلا يؤخذ الآن بمجرد الاذعان والتسليم لقول من قال ولوكان من جهابذة الفن بل بتحقيق كل قضية منهُ ببرهان التجربة والعيان فلولا اباحة علم التشريح واجرآء التجارب علي الحيوانات الحية لمعرفة منافع الاعضآء لبقيت اصول علم الطب من الاسرار الخفية التي ضُرب عليها حجاب الجهل ولولا التدقيق في اجرآء التجارب التي قصد بها تحويل المعادن الخسيسة الى المعادن النفيسة لما عُرفت طرق تحليل العناصر الكيماوية وتركيبها فلم يكن من سبيل لنقض اراَء الاقدمين المبنية على الحدس والتخمين . على ان الوصول الى تحقيق القضايا العلمية ببرهان التجربة والاختبار الشخصي لم يكن سهلاً ولا سيما في زمن

الاستبداد والهمجية بل كانت تحول دونهُ شبهات المروق عن الدين فمن حاول ذلك كان مخاطرًا بنفسهِ · حُكي عن روجر باكون وكان راهبًا نبغ في القرن الثالث عشر انهُ كان يزاول التجارب الكياوية ويرصد النجوم فحسبوهُ ساحرًا وطردوهُ من ديرهِ في باريس فالتجأ الى انكلترا موطنهِ وهناك اتهموهُ ايضًا بالسحر فسجنوهُ وضيقوا عليه مدة عشر سنين حتى عُلَّ ومات وقيل ان احد اصحابهِ سعى في اخراجهِ من السجن قبل وفاتهِ بمدة قصيرة [1] وفي آخر ساعةٍ في حياتهِ جاءَهُ الكاهن ليعرّفهُ حسب العادة فقال لهُ اندم على خطاياك فاجابهُ "انني نادم على ما جلبت لنفسي من الشقاء باجتهادي في مقاومة الجهل [2] · ولم يكن احدٌ من الاوربيين في ذلك الزمن آمنًا على نفسهِ ومطمئنًا في بيتهِ بل كان مهددًا في كل حين بفقد حياتهِ وخسارة مقتنياتهِ لمجرد تهمةٍ يسعى بها جواسيس مجمع التفتيش الديني ولذلك بقي علم الطب متوقفًا عدة قرون فلم يتقدم في سبيل النجاح الحقيقي الا في القرن التاسع عشر بعد ان عُتقت الافكار من قيود العبودية ورفع على نوادي العلم

(1) Worthies of science. by J. Stoughton
(2) Diederot; Introduction à la chymie; V. Revue scientifique, tome XXXIV P. 102

واقدم جميع المدارس الطبية التي انشأها الاروبيون هي مدرسة سَلرنا[1] التي اقتبست انوار الحكمة المشرقية من العرب وقد اختلف الباحثون في زمن انشائها وفي الذين انشأوهـا لانهُ لايوجد في التاريخ نص صريح يتبيَّن منهُ اصلها. وجلُّ ما عرفوهُ من هذا القبيل مأخوذ عن قيود مدينة نابلي وعن روايات تقليدية ذُكِرفيها ان الذين انشأوا هذه المدرسة اربعةٌ يمثِّلون الاجيال الاربعة المشهورة بالعلم في القرون الوسطى وهم العرب واليهود واليونان واللاتين . وزعم بعضهم ان قسطنطين الافريقي اسس هذهِ المدرسة سنة ١٠٧٥ على ان الاكثرين ينكرون ذلك ويثبتون وجود المدرسة وبيمارستانها قبل زمن قسطنطين المذكور ويدعون ان المدرسين فيها كان يُطلق عليهم لقب استاذ وقسطنطين المذكور لم يُعرف بهذا اللقب فلم يكن من اساتذتها وانما ترجم كتب العرب الى اللاتينية في جبل كاسينو قرب سَلرنا وادعاها لنفسهِ . وقال آخرون ان الرهبنة البنديكتية بنت هذهِ المدرسة في القرن التاسع او قبلهُ . ونسب غيرهم

1 V. les médecins arabes et l'école de Salerne; Revue scientifique, tome XXX II p. 647, 681

تأسيسها الى امرآء لمبرديا وكان الاساتذة فيها من الرهبان والعلمانيين · وذُكِر في قيود مدينة نابلي اسمآء عدة اطبآء نبغوا في مدرسة سلرنا منذ سنة ٨٤٦ منهم امرأة اسمها تروتا[1] عاشت سنة ١٠٥٩ والفت في امراض النسآء والولادة وسائر علوم الطب وكان زوجها وابنها طبيبين

اما قسطنطين الافريقي فوُلد في قرطجنة في القرن الحادي عشر وسافر ٤٠ سنة في بلاد العرب والعجم والحبشة ومصر وعاد الى وطنهِ فاتهموهُ بالسحر وهموا بقتلهِ فلجأ الى ايطاليا وتعين كاتباً عند روبرت غويسكرد ثم اعتزل الخدمة ليترهب في دير مونتو كاسينو المختص بالرهبنة البنديكتية فتفرغ لترجمة كتب الطب البقراطي من العربيَّة الى اللاتينية وادعى انه مؤلفها وكانت مصنفات جالنيوس قد تُرجمت من العربية الى اللاتينية فانتشر مذهبهُ وسميت سلرْنا بالمدينة البقراطية · وفي منتصف القرن الثاني عشر انتشرت القصيدة المعروفة بمدرسة سلرْنا scola salernitana ولم يعرف ناظمها ولا يبعد أن يكون اكثرها مترجماً عن ارجوزة الشيخ الرئيس · وفي القرن الثالث عشر نبغ في المدرسة المذكورة الجراح روجر واشتهر بمؤلفهِ في الجراحة الذي اشترك في تأليفهِ ثلاثة

1 Trotula, Trotta ou Trocta

آخرون . وممن اشتهروا في ذلك القرن بترجمة الكتب العربية الى اللاتينية جيرار الكريموني [1] من تلامذة مدرسة طُليطلة ترجم من اللغة العربية الى اللاتينية سبعين مصنفاً في العلوم والطب . وكان بيمارستانها يقصدهُ المرضى من جميع الاقطار للاستشفاء من امراضهم

ومن الثابت ان مدرسة سلرنا ارتقت الى قمة النجاح في ايام فريدريك الثاني ملك صقلية سنة ١١٤٧ وامبراطور المانيا سنة ١٢١١ الى ١٢٥٠ [2] فهو الذي ضمَّ اليها المدارس الثانوية وجعلها مدرسة كلية تُعلَّم فيها العلوم الادبية والفلسفية قبل الطب وعين مدة درس العلوم الطبية خمس سنين يزاد عليها سنة لممارسة الصناعة في البيمارستان وسنة اخرى لدرس علم التشريح البشري اذا كان الطالب راغباً في مزاولة الجراحة . ومنحها حق اعطاء الشهادات القانونية لمستحقيها . وحظر التطبيب الا على الذين تخرجوا في هذه المدرسة وحصلوا على شهادتها . وجعل لمعاطاة الصيدلة نظاماً من مقتضاه ان كلّ صيدلي ضامنٌ لما يتعاطاه وان الاطباء لا يجوز لهم الاشتراك مع الصيادلة في الاتجار بالادوية ولا ان يختصوا انفسهم بدواء لمنفعة خصوصية . وكان فريدريك المشار اليهِ محباً للعلم والعلماء متخلقاً باخلاق كرام العرب حريصاً على جمع الكتب

1 Gèrard de Crémone «Lombardie».
2 V. la grande Encyclopédie.

وترجمتها الى لغة قومهِ . وكان العلماء يفدون اليه من كل صوب وجهة . فاجتمع في بلاطهِ الادباءُ والعلماءُ والحكماءُ والاطباءُ من عرب ويونان وطليان وفرنجة . وكان يخطب فيهم بلغاتهم ويباحثهم في الرياضيات والفلك والعلوم الطبيعية والطب لانه كان بارعاً في هذه العلوم فضلاً عن براعته في النثر والنظم باللغتين الطليانية واللاتينية فكان الشعراء لا يفارقون مجلسه . وهو الذي امر بترجمة مصنفات ارسطو وابن رشد والكيمياء والطب الى اللغة اللاتينية واستدعى علماء العرب من الاندلس ومن افريقيا لنشر العلوم في بلادهِ وقرب اليه الرياضي ليونارد من بيزا والفيلسوف ميشل سكوت ومما يؤْثر عنه قولهُ في بعض منشوراتهِ الملوكية ,, لا شيء ينفع الامة مثل تعميم العلم بين افرادها لانه يكفل للمملكة السلامة وللعامة النجاح ولذلك لم ندخر وسعاً من الأخذ بالاسباب التي تؤُول الى انتشارهِ ،، وكان ينزع الى الاستقلال بالسلطتين الزمنية والروحية فخاصمهُ رؤساء الدين واتهموه بالسحر والزندقة والتعطيل وهاجوا عليه سخط شعبه واصدر البابا غريغوريوس التاسع منشوراً بشجبهِ وضيقوا عليه الخناق حتى اضطروه الى مسالمتهم بامنحهم من المزايا والحقوق وما تظاهر بهِ من مقاومة الهراتقة والمشاقين والتنكيل بهم . وهو الذي انشأ الندوة الطبية في نابلي وخصها بحقوق وامتيازات لم تكن لغيرها من قبل

فكانت سبباً لانحطاط مدرسة سلرنا عن منزلتها الاولى لانحراف الطلبة عنها ثم حدثت بينهما مساجلات افضت الى تضعضع اركانها وذلك في القرن السادس عشر ثم قُضِي عليها بالالغاء بموجب حكم صدر في ٢٩ ايلول سنة ١٨١١ وبذلك انقضى عهد هذه المدرسة المشهورة التي يندبها التاريخ وترثيها الاعصار بعد ان كانت كأنها شعلة نار توقدت بالمعارف العربية في ظلمات الجاهلية الاروبية الى ان ثارت عليها عواصف الحوادث فأطفأت نورها واخمدت سعيرها وقد حُملت جذواتها الى المدارس التي أُنشئت على الأثر فأضاءت مصابيحها في تلك الاقطار ولم تزل زاهرة تهدي الهدى للبصائر والنور للابصار

نبذة ثانية

في طرق انتشار علم الطب في اوربا
وبداية نقض آراء القدماء

قد تقدم ان علم الطب وصل كغيرهِ من علوم الحكمة المشرقية الى المغرب مأخوذاً عن العرب مترجماً عن اللغة العربية الى اللغة اللاتينية حتى مؤلفات حكماء اليونان فقد تُرجمت عن العربية الى اللاتينية وليس عن اليونانية الا القليل منها ٠ وان

الصلة بين المشرق والمغرب في نشر العلوم ونفوذ اشعتها في ظلمات الجاهلية الاروبية انما كانت مدرسة سَلَرْنا كما كانت مدرسة جنديسابور واسطة لنشر الطب البقراطي وحكمة اليونان بين العرب . وان نقلة هذه العلوم الى اللغة اللاتينية تعلّم اكثرُهم في مدارس العرب وسافروا في البلاد العربية اي التي يتكلم اهلها باللغة العربية منهم قسطنطين الافريقي وجيرارد الكريموني وروجر الكبير مولف كتاب الجراحة مع ثلاثة آخرين من اساتذة مدرسة سَلِرنا . ويظهر ان الاطباء كانوا في ذلك الزمن يدرسون اللغة العربية كما ندرس نحن الآن لغةً أُروبية لاتقان علم الطب . والفرق بيننا وبينهم اننا ندرس اللغات الاروبية لنصير اروبيين اي لننكر اصلنا وفصلنا وهم انما كانوا يدرسون اللغة العربية ليستفيدوا بنفائسها ويفيدوا وطنهم بتعميم مطالب العلم ونشرهِ وتحقيق مسائلهِ وايضاح ما غمض من مشاكلهِ ولعلّ هذا الفرق حادثٌ من مبادىء التربية لاننا مضطرُّون للتعلّم في مدارسهم حيث لا مدارس لنا . وهم انما امتازوا بانشاء المدارس الكثيرة في اقطار اوربا منذ سطع نور العلم في افق الاندلس فكثرت المدارس في انحاء ايطاليا ثم في فرنسا وانكلترا وسائر جهات اوربا وساعد على امتدادها استعمال لغةٍ واحدةٍ في جميعها هي اللغة اللاتينية لغةُ الكنيسة الرومانية .

وكان لخدمة الدين اليد الطولى في إنشاء هذه المدارس وادارتها والسيطرة عليها حتى ان مدرسة مونبلياي وهي اقدم مدرسة اوربية خُوّلت حقَّ اعطاء الرتب المدرسية منذ سنة ١١٢٠ لم تكن تمنح لقب الاستاذ إلاّ للاكليروس وتلتها مدرسة باريس سنة ١٢٧٢ وقد تقدم ان مدرسة سلرنا خوّلت هذا الحق منذ سنة ١٢٣٢ مع انها اقدم جميع المدارس الاروبية من حيث النشأة

ولا يسعنا المقام ان نذكر هذه المدارس والذين أنشأوها ولكننا نلمُّ بذكر بعض الذين نبغوا فيها ممن امتازوا بالاراء الصائبة المؤيدة بالتجربة والمكتشفات التي تدرَّج بها علم الطب في مراتب الكمال واخصُّ هذه المكتشفات في علميْ التشريح والكيمياء وهما اساس جميع العلوم الطبية وذريعة العمران ومعدن السعادة وكلاهما حُفَّ بالمكاره لان التشريح كان محرَّماً والكيمياء عُدَّت من فنون السحَرة فلا بدع ان بقي علم الطب واقفاً عند الحد الذي انتهت اليه مدرسة الاسكندرية ولم يجرِ في حلبته المتسابقون شوطاً بعيداً الا بعد ان نشطت العقول من عقال الوهم . ولقد اشار ابو القاسم الزهراوي في مولفه ,,القياس والتجربة‘‘ الى هذا الامر الخطير معترضاً على تحريم التشريح معرِّضاً بالذين حالوا دون تحقيق المسائل العلمية بالترُّهات وصدُّوا عن سبيل العلم بالخزعبلات وهذا الكتاب هو

اول كتاب مثلت فيه صور الآفات الجراحية واشكال الآلات التي استعملت لمعالجتها [1] فيحق لنا ان نبدأ به تاريخ النهضة الطبية

وكان الاطباء يدرسون التشريح خفية عن اعين المراقبين من رجال الدين ثم أذن لهم بتشريح جثث المجرمين وسبقت مدرسة بولونيا ومدرسة باريس سواهما الى عرض هيكل عظام الانسان في قاعة التدريس . ويظهر ان اطباء الطليان تجرأوا وقبل غيرهم على ممارسة التشريح ومهدوا الطريق لنقض مذهب بقراط وجالنيوس والذين جاءوا بعدهما من اطباء العرب . واول من قام بهذه النهضة ويزال [2] المعروف بابي الجراحة ولد سنة ١٥١٠ وكان حلاقاً ابن حلاق ثم صار بالممارسة جراحاً ومشرحاً فاثبت وجود الفاصل بين بطيني القلب وان الدم لا يخترقهما كما زعم جالنيوس ولكنه يسير من الجهة اليسرى من القلب ويعود الى الجهة اليمنى . وهو اول من استعمل ربط الشرايين لقطع النزف الدموي . توفي سنة ١٥٩٠ وطبعت مؤلفاته سنة ١٥٧٥ وهي مزينة بالرسوم التشريحية والجراحية . ثم عرف سِرفت [3] الدورة الرئوية ولكنه بقي على مذهب القائلين بان الدم الوريدي الذي يرد من الكبد

1 La Revue Scientifique; Tome xxx II
2 Vésale 3 Michel Servet

تناط به التغذية وان الدم الشرياني يصدر عنه الروح الحيواني وتتوقف عليه الحرارة الغريزية. وقد اتهم ديوان التفتيش الديني ويزال بالمروق عن الدين وحكم عليه بالحريق حياً الا ان فيليب الثاني توسط في نجاته فأُلجئ الى الذهاب الى الارض المقدسة كفارةً عن جرمه وغرق قرب جزيرة كريت. واما سرفت فاحرق حياً بامر كلفينس سنة ١٥٣٥ وجاء بعدهما كولمبوس[1] وريلدو[2] واُوستاخيوس[3] وفلو بيوس[4] وأرنشيو[5] وكلٌّ منهم مذكورٌ في كتب التشريح بما اكتشف عليه من الحقائق التي لم يتوفق الى اكتشافها السلف . ونبغ سنة ١٥٩٨ فبريس[6] الاكوابديتي فاكتشف على صمامات الاوردة وكان مدرساً للتشريح في مدرسة بادو المكلية وتخرج عليه هرفي الشهير . اماسيزلبيني[7] فجلُّ ماذكره من جهة دورة الدم ان الاوردة تمتلئ دماً اذا رُبِط الذراع تحت مكان الربط لا فوقهُ وعلل بذلك عن رجوع الدم الى القلب. ولُد سنة ١٥١٦ وكان مدرساً للتشريح في مدرسة رومة

ومن مشاهير ذلك العصر غُوي من شولياك[8] درس في مدرسة

1 Colombo 2 Realdo 3 Eustache 4 Fallope 5 Arantio 6 Fabrice d'Acquapendente 7 Césalpin 8 Guy de Chauliaque.

طولوز وتخرج في مدرسة مونبلياي ثم جاء الى بولونيا فاخذ التشريح عن نيقولا برتروشي وطالع مولفات اطبآء العرب وكان طبيب البابا اينوسان السادس · الف في الجراحة كتاباً ضخماً سنة ١٣٦٣ طبع في البندقية سنة ١٣٩٠ وتُرجم الى جميع اللغات الاروبية .

وفي القرن الخامس عشر اخذت غيوم الغباوة والجهل تنقشع عن آفاق القارة الاروبية فتلوح من خلالها اشعة المعارف وتبدو تباشير صبح الاصلاح · وذلك ان العرب اصطنعوا ورق الكتابة من الحرير ثم من القطن فاخذ الاسبان والطليان عنهم هذه الصناعة فكانت فألاً لاستنباط آلة الطباعة وتعميم نشر الكتب . واكتشفوا على منافع الحك في الملاحة وكان الملاَّحون من قبل يهتدون بمواقع النجوم فتهيأ لخريستوف كولمبوس ذلك السفر الطويل الشاق الذي انتهى باكتشاف العالم الجديد . وأوجدوا البارود واستعملوهُ في حروبهم مع الاسبان لرمي القذائف فتعلمهُ هؤلاء منهم واتقنوا صناعته وحاربوهم بسلاحهم[1] فكان ذلك بداية انقلاب الفنون الحربية واستنباط الآلات الجهنمية · واجتاح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية وغلب الروم عليها فلجأ كثيرٌ من علمائهم الى ايطاليا

1 V. l'Histoire des Arabes par Sédillot

وتفشي الداء الزهري في مدينة نابلي وجنوبي اوربا فاعوز الحال الى الاطباء والجراحين. وكأنَّ هذه الاسباب قد تهيأت لتعمل على خلع نير العبودية والاستبداد فهبَّ المصلحون في طلب الحرية وتجرأ اهل القرن السادس عشر على بث آرائهم وافكارهم وظهر حينئذ هرفي الانكليزي فابدع بكشف دورة الدم وكان ذلك من اقوى الاسباب التي تداعى بها بنيان الطب القديم

وُلدوليم هرفي[1] سنة ١٥٧٨ ودرس علوم الطب في مدرسة كمبردج الجامعة ثم تخرج في مدرسة بادو مدة اربع سنين وكانت هذه المدرسة معدودةً حينئذ في اول درجات المدارس العليا ثم عيّن طبيباً في بيمارستان القديس برثلماوس وكان يلقي خطباً في التشريح والجراحة ثم عينهُ الملك جاك الاول طبيباً لهُ واشتهر بممارستهِ التشريح على الحيوانات الحية ونشر مؤلفهُ في حركات القلب والدم في الحيوانات سنة ١٦١٥ قال ,, اذا شُقَّ الصدر عن القلب ورُفع الشغاف حالاً يرى القلب متحركا حركاتٍ متواليةً بين كل حركتين فترة سكون فلهُ اذاً وقتٌ للعمل ووقتٌ للراحة،، وكانوا يظنون ان علة نبضان القلب مصادمة طرفهِ الجدارَ الباطن للصدر عندالانبساط

1 W. Harvey

فأثبت ان الحقيقة على خلاف ما زعموا لان القلب انما يصدم جدار الصدر الباطن عند الانقباض الذي يندفع به الدم من البُطينين . فالدم المندفع من البُطَين الايسر يجري في الاورطى (الابهر) والمندفع من البطين الايمن يجري في الشريان الرئوي. والاورطى يحمل الدم النقيَّ بالشرايين التي تنشأ منه الى جميع انحاء الجسد لتتم الاعمال الحيوية ثم يعود بالاوردة التي تبتدئ بان تكون دقيقةً فتغلظ بما يتصل بها من الفروع الواردة بعضها الى بعض حتى تنتهي من جهة الراس والعنق بالاجوف النازل ومن جهة الاطراف والصدر والاحشآء بالاجوف الصاعد وكلاهما يصبان في الأُذينة اليمنى الدمَ الوريديَّ القاتم اللون وهي تفرّغهُ في البطين الايمن حيث ينشأ الشريان الرئويُّ فيحمله الى الرئتين وبعد اتمام دورته فيهما يعود الى أذينة القلب اليسرى محمولاً بالاوردة الرئوية فتُفرّغهُ في البطين الايسر حيث ابتدأت الدورة ولا يزال دائرًا على هذا المنوال مادام الحيوان حيًا

هذهِ هي دورة الدم التي أبدع بيانها هرفي محمولاً الى اكتشافها بما تحرّاهُ من التجارب على الحيوانات الحية والتأمل في كمية الدم الغزيرة النازفة من الشرايين لدى قطعها وفي النسبة بين كميتهِ وبين تجاويف القلب والاوعية وفي عمل

الصمامات وسرعة حركة الدم الى غير ذلك مما اوضحه في مؤلفهِ المشار اليه اثباتاً لهذه الحقيقة التي عارضهُ بها معاصروه وانكروها عليهِ لانهُ خالف آراء الاقدمين كأنهُ جاء امراً فريا. على انهُ قد نهج بذلك طريقاً سوياً أدى الى كشفِ كثير من الحقائق بعضها على اثر بعض فجاءت كلها مؤيدة لاكتشافه البديع . منها اكتشاف تفمم الاوعية الدموية والدورة في الاوعية الشعرية اللذين اوضحهما مليبجي[1] سنة ١٦٦١ ومنها اكتشاف الاوعية الليمفاوية التي ابدع بيانها أزلي[2] واهمُّ هذه الاكتشافات وابدعها واشدُّها طائلة على نقض الآراء القديمة واثبات منفعة الدم ودورتهِ وبناء علم الطب الحديث على اسس الحقيقة انما هو اكتشاف لافوازياي مصدر الحرارة الحيوانية وطريقة تطهير الدم بواسطة التنفس على ما يُعلَم مما يأتي

نبذة ثالثة

في نقض المذاهب القديمة من حيث الكيمياء

لامراء في انَّ مصر سبقت الى الحضارة والمدنية جميع الامصار على ما يُعلَم من الآثار المكتشفة. عليها وقد ثبت انها سبقت غيرها الى احراز العلوم وتدوينها بالخط القبطي القديم المعروف

1 Malpighi 2 Aselli

بالهيروغليف ليبقى اثراً خالداً يدلُّ في جميع الاحقاب والعصور على عظمتها ومدنيتها ويبعث في الخلف روح الغيرة والنشاط بتذكار ما كان عليه السلف . ومن الثابت ان مشاهير فلاسفة اليونان جاؤوا مصر وأخذوا عن المصريين منهم فيثاغورس وهيرودوتوس وافلاطون وارسطو. ولما خبا مصباح العلوم في مدارس اليونان ازهر في مدرسة الاسكندرية فنبغ فيها ارخميدس بالهندسة وبطليموس في علم الهيئة وجبليكس[1] وبلوتنس[2] في الفلسفة وهيروفيلوس وايرازستراتوس وجالينوس في التشريح وسائر العلوم الطبية . اما علم الكيمياء فقد كان الكهنة المصريون ابناء بجدته وكانوا يحلّونه من دينهم في المحلّ الارفع ويبخون دماء من باح بسره ولذلك لم يدوّنوه الا بالرموز والالغاز والأشكال الغريبة التي نقلها اليونان عنهم وتحدّوهم بها من ذلك تسمية المعادن السبعة المنطرقة باسماء الكواكب السبعة السيارة ووضعهم لكل منها علامة خصوصية تدلُّ عليها بالخط فاذا ذكروا الرصاص قالوا زُحل وكتبوه بسمته واذا ارادوا الزئبق اشاروا الى المريخ ورمزوا الى الذهب بالشمس والى النحاس بالزهرة والى القصدير بالمشتري والى الفضة بالقمر . ويظهر من كتب الخط اليونانية القديمة الموجودة في المكاتب العمومية

1 Jamblique 2 Plotin

في ممالك اوربا ومقابلتها بادراج البردي المصرية ان اليونان لم يزيدوا شيئاً في هذا العلم على ما اخذوه عن المصريين . واجمعوا على ان اساتذة الكيمياء العظام الذين سموهم بمعلمي المسكونة أخذوا عن المصريين وهم هرمس وديمقريطس وذوسيم . اما هرمس فنعتوه بالمثلث العظمة [1] لانهم زعموا انه آله يقتاد الانفس الى الالهتين تهوت وتوت وقال آخرون انه من ملوكهم العظام استنبط العلوم واودع اسرارها الكتب الرمزية واليه ينسب علم الكيمياء فيقال الصناعة الهرمسية والصناعة المقدسة وهو عند العرب ادريس او اخنوخ وعليه قول ابن هانيء في شذور الذهب

دعني من صبغ النحاس بزرنيخ ومن عقد محلول الرصاص بمريخ

الى ان قال

ومن ذلك ارماز الذين تحالفوا على كتم هذا السر من عهد أخنوخ

واما ديمقريطس فهو من مشاهير فلاسفة اليونان كان في عهد افلاطون وجاء مصر وبقي خمس سنين يتلقى العلوم فيها وسافر في جميع البلدان وكان يسمى بالحكمة . واما ذوسيم فكان في القرن الثالث في زمن اكليمنضوس الاسكندري وترتوليانوس وهو الذي نقل الرموز الكيماوية الى لغة اليونان في ٢٨ رسالة هي اقدم ما

1 Trimageste : V. Hermés ; Qrande Encyclopédie

ألف في هذا الفن" وذكره ابن هاني؛ الاندلسي · قال مشيرًا الى الكيمياء ·

كم كنى لا آثمًا في ما كنى هرمسٌ عنها ولا ذا جَنَفِ
واطالَ القولَ فيها ذوسمٌ وهو قد دوّنها في الصحفِ
واجادَ النظمَ فيها خالدٌ لرجالٍ من خيار السلفِ

وقال برثلوت كيماوي" هذا العصر الشهير ،، من كتب الخط القديمة الموجودة في المكتبة الوطنية (باريس) كتاب في صناعة الزجاج والاحجار الكريمة ينسب الى سلمناس salmanas العربي من رجال القرن الثامن '' ولعله مسلمة المجريطي من حكماء الاندلس كان بعد جابر . قال ابن خلدون كتب مسلمة كتابهُ الذي سماه رتبة الحكيم في الكيميا وجعله قرينًا لكتابه الأخر في السحر والطلسمات الذي سماه غاية الحكيم وزعم ان هاتين الصناعتين هما نتيجتان للحكمة وثمرتان للفنون ومن لم يقف عليهما فهو فاقد ثمرة العلم والحكمة اجمع وكلامه في ذلك الكتاب وكلامهم اجمع في تآليفهم هي الغاز يتعذر فهمها . اه اجابر فمختلف" فيه ذكر صاحب كتاب الفهرست انه ابو موسى جابر بن حيان الطوسي بالنسبة الى طوس مدينة

1 Les manuscrits alchimiques grecs, par M. Berthelot—Rsvue scientifique; t. xxxv

في خراسان كان في القرن الثامن واقام في الكوفة ولذلك يقال لهُ الكوفي . وقال آخرون أنه وُلد في حران وكان من الصابئة وزعم يوحنا الافريقي انه كان روميًا واسلم . ألف في الكيمياء ٧٠ رسالة على ما ذكر ابن خلدون وفي كتاب الفرست ان المصنفات المنسوبة اليه تبلغ ٥٠٠ واكثرها لتلامذته . قال ديدرو[1] ,, ان جابرًا يعدُّ ابًا للكيمياء لانهُ اول من اوضح مبادئ الصناعة على طريقة علمية وجمع اصولها في كتاب بل هو اول من دقق في كيفية اجراء العمليات الكيماوية الاساسية وبهِ تبتدئ الفلسفة الكيماوية '' وقوله هذا موافق لقول ابن خلدون في مقدمة تاريخه وهو ,, وامام المدوّنين فيها جابر بن حيان حتى أنهم يخصونها بهِ فيسمونها علم جابر '' وقالوا ان جابرًا كان تلميذًا لجعفر الصادق وقال آخرون انه كان تلميذ خالد بن يزيد ابن معاوية بن ابي سفيان . قال ابن خلدون ,, وربما نسبوا بعض المذاهب والاقوال فيها الى خالد بن يزيد بن معاوية ربيب مروان بن الحكم ومن المعلوم البين ان خالدًا من الجيل العربي والبداوة اليهِ اقربُ فهو بعيدٌ عن العلوم والصنائع

1 Diderot; Introduction à la Chimie, V. la Revue Scientifique ; tome XXXI

بالجملة فكيف له بصناعة غريبة المنحى مبنية على معرفة طبائع المركبات وامزجتها وكتب الناظرين في ذلك من الطبيعيات والطب لم تُترجم بعد. اللهمَّ ان يكون خالد بن يزيد آخر من اهل المدارك الصناعية تشبه باسمهِ فممكنٌ،، وقد مرَّ في الابيات المنسوبة الى ابن هانيء ذكر خالد بعد ذكر هرمس وذوسيم وفي القصيدة نفسها يشير الى جعفر الصادق بقولهِ

حكمةٌ اورثناها جابرٌ عن امام صادق القولِ وفي
لوصيٍ طاب من تربتهِ فهو كالمسك تراب النجف[١]

وقال ابن خلدون ،،ولابن المغيربي من أئمة هذا الشأن كلمات شعرية على حروف المعجم من ابدع ما يجيء في الشعرِ ملغوزةٌ كلها لغز الاحاجيّ والمعاياة فلا تكاد تُفهم،، وهذا الوصف يصدق على الكتاب الذي نقلت عنه الابيات المذكورة آنفاً وهو منسوب في النسخة التي بيدي الى ابن هانيء الاندلسي وعنوانه ،،شذور الذهب،، يشتمل كلُّ حرف على قصيدةٍ او اثنتين من غُرَر القصائد اكثرها من الثلاثين الى الخمسين بيتاً يرتاح المطالع الى استيعابها وينشرح صدر اللبيب بها لعذوبة لفظها وسهولة انسجامها

---

١ مكان لا يعلوه الماء او هي ارض مستديرة مشرفة على ما حولها

مع ما فيها من تعمية المقاصد والمعاياة والرموز. ولا بأس ان نورد منها قصيدة يستدلّ بها على سائرها ليتبصر بها شعراء هذا العصر ويعتبر بها الكتبة الادباء. وما اكتم عن القارىء اللبيب انني قد احترتُ في اختيار القصيدة التي انقلها لأن هذا القصائد سلسلة مُفرغة من معدنٍ واحدٍ لا يُدرَى اين طرفاها حتى وقع نظري في قافية الدال على قوله

لنفسكَ فانظر أيهذا المقتدي — فلستَ وان حاولتَ نصحاً بمرشدي
فما الخيرُ في مرءٍ يروحُ معنّفاً — لطالبِ علمِ الكيمياء ويغتدي
وفي كلّ شيءٍ للصناعة آيةٌ — متى استشهدتها فكرةُ المرءِ تشهدِ
ولكنّهُ يخفى على الغرِّ [1] سرُّها — ويبدو لذي الرأي المصيب المسرّدِ [2]
واني وإن خالفتُ صحبي لضاربٌ — لها مثلاً يُهدى به كلُّ مهتدي
رأيتُ من التأثير للشمس حجةً — لصنعتنا ان يجحد الحسُّ تجحدِ
فانَّ لها في أوجها إن تحلَّهُ — سبيلاً على الأنوال [3] والكلإِ النديِ
وتجعلُ ما قد كان لبّدهُ الندي — هباءً كمنخولٍ من الكحلِ إثمدِ
وتنزلُ بالميزانِ او برقيبهِ — فتزجي سحاباً من بخارٍ مصعدِ
بكلّ عصوفٍ يزدهي كلَّ مبرقٍ — وجونٍ [4] كأصرام الحنادس [5] مرعدِ

---

١ الشاب لا تجربة له ٢ الثاقب ٣ جمع نول وهو الوادي السائل ٤ اللون يضرب الى السواد ٥ الجماعات

فينحلُّ ذاكَ البرقُ ماءً للطفهِ — يمايلهُ من دمعها المتبددِ
ويظهر عن هذين كلُّ عجيبةٍ — من الصبغ لم يعلق بها اثرُ اليدِ
فمن روضةٍ غناءَ زُخرف وشيها — ومن جدولٍ يسعى به سعي اسودِ [1]
ومن أقحوانٍ كالثغورِ مؤشرٍ — ومن زَهرٍ مثل الخدودِ مورَّدِ
فيصبح وجهُ الارضِ من زَهراتها — ونوّارها في عبقريٍّ معسجدِ
وان تركت بالجدي ألقت لبسهِ — على الماءِ من بردِ الهواءِ فيجمدِ
فذاك هو التكليسُ ان كنت ترعوي — وذاك هو التعفير[2] لو كنت تهتدي
وذاك هو التقييد للآبق الذي — متى حلَّ بالدهن المقطّرِ يعقدِ
وذاكَ هو التصعيد تشويهِ قبلهُ — فانك ان تشويهِ من قبلُ يصعدِ
وللخلط إحراقانِ يظهر عنهما — سوادٌ وتبييضٌ فبيض وسوِّدِ
وعقدان عن حلّين لا بدَّ منهما — فحلّهُ وأعقدْ ثم حلّهُ واعقدِ
وسوِّده تسويدَينِ تحظَ بسرّهِ — وبيّضه تبييضينِ تُغنَ وتسعدِ
فيجمدُ بعد الحلِّ روحاً مجسماً — متى ينبسطْ في جسم ذانِ يخلدِ
وتحليلُهُ من بعد سهلٌ لمن شدا — قليلاً من التدبير فاصبغهُ تحمدِ
وما صبغهُ من غيرهِ بل لغيرهِ — بهِ منهُ فاستخرجهُ بالفير واجهد

١ العظيمه من الحيات ٢ التجفيف من عفر اللحم اى جففه على الرمل فى الشمس

ولا تطلبن في الرمز وزنا فانه قريب وان تطلبه في الرمز يبعد
ولا تصغين فيه الى لغز لاغز فذلك من تضليلهم عن تعمد
فلو رمت في الاجزاء فضل زيادة على الوزن لم يقبل ولم يتزيد
فان شئت ان تحظى بحكمة هرمس ومن بعده من أوحد بعد اوحد
فدونك هذا القاسي الخالد الذي يدبر بالدهن اللطيف المقيد
هو العالم المعلوم في كل بلدة هو الزئبق المشهود في كل مشهد
هما الماء والنار اللذان اذا اقتفى فتى بهما اثر الطبيعة يرشد
اذا جمعا عودا وبدءا وبيضا اضاءا كضوء الكوكب المتوقد
فهذا هو الاكسير والحجر الذي تفجر عن نهري لجين وعسجد
وهذا هو الكنز الذي من يفز به يفز بغنى ان ينفد البحر ينفد
الى علمه فلتصب ان كنت صابيا ومل عنه لا عن حادث الدهر في غد
ستبدي لك الايام ما كنت جاهلا ويأتيك بالاخبار من لم تزود

ومما هو حري بالاعتبار ان كهنة المصريين اتخذوا علم الكيمياء وسيلة لكتمان سر الديانة فموهوا به على السذج المغفلين كما قال شيشرون واريجانوس . اما اليونان فهاموا في طلب الحجر الكريم والاكسير الذي تحول به المعادن الخسيسة الى المعادن النفيسة واقتفى اثرهم العرب طمعا في تحصيل الغنى والسعادة ثم احس الاوربيون بمنافع المدنية بعد الحروب الصليبية وترجمت

الكتب العربية الى لغاتهم وقد وقف بعضهم على مصنفات جابر والرازي وابن سينا وغيرهم فجدّ بهم الحرص على تجربة ما ذكر فيها . واول من اشتغل بذلك ألبر الكبير وروجر باكون وكان كلاهما راهبين فانكشفت لهما اسرارٌ من العلم وقد اوضح الاخير منهما كثيرًا من الحقائق في علم الهيئة والحيَل والبصريات والكيمياء والطب .

وجاء بعدهما ارنلدولنوف[1] احد اساتذة منبلياي . وُلد في بداية القرن الثالث عشر وكان طبيب جاك الثاني ملك اراغوان وتعلم اللغة العربية في صقلية وهو اول من حكى عن التقطير وروح الخمر نقلاً عن العرب وكانت التجارة بروح النبيذ والعرقي رائجة في صقلية وكالبريا ثم تحوّلت الى البندقية . وذكر علماء الافرنج عدّةً من الكيماويين في ذلك العصر كان دأبهم طلب الحجر الكريم او حجر الفلاسفة حتى جاء باراشلس السويسري سنة ١٤٩٣ وكان يُسمى برئيس الاطباء وهو اول من اعترض على مذاهب القدماء وندّد بآراء جالينوس وحرق مصنفاته مع مصنفات ابن سينا بنار الكبريت والزئبق في مدرسة بال التي نُدِب للتدريس فيها فوقعت المشاحة بينهُ وبين علماء عصرهِ . ونبغ بعدهُ جان هلمونت[2] من بروكسل

1 Arnauld Villeneuve 2 Jean—Baptiste van Helmont

وُلد سنة ١٥٧٧ ودرس الطب البقراطي والرياضيات وفلسفة ارسطو وامتاز بعلم الكيمياء . ولما أُصيب بالجرب جرّب العلاجات التي كانوا يُستطبون بها لهذه العلة فلم تُنجع فاشار عليه بعضهم باستعمال الكبريت على ما وصفه باراشلس فشُفي فحمله ذلك على متابعة ذلك الكيماوي ومقاومة مذهب الاخلاط وكان ذلك من اقوى الاسباب لحدوث الانقلاب في علم الطب وتقرير درس علم الكيمياء في مدارسهم من حيث هو علم بقطع النظر عن حجر الفلاسفة . ونشأ حينئذٍ القول بان بدن الحيوان مؤلفٌ من عناصر كيمياوية وان الظواهر الحيوية ليست الا نتيجة التفاعل الكيماوي الذي يؤدّي الخلل فيه الى المرض فثبت كون الاختمار حادثةً كيمياوية وان الحميات تحدث عن اختمار العفونات في البدن فالحمى اذاً حادثةٌ كيمياوية . وبقي هذا المذهب شائعاً حتى حلّ محلّهُ مذهب الآليين المنسوب الى بورالي [1] ومآلهُ ان الاعمال الحيوية انما تصدر عن عمل الاعضاء التي هي بمثابة آلات حية فكل خلل في عمل الاعضاء يظهر بالاعراض التي هي دلائل المرض وجرى على هذا المذهب الشهير بورهافن [2] مدرس التشريح والنبات والكيمياء في مدرسة ليد المدينة التي وُلد

1 Borelli 2 Boerhaave

فيها سنة ١٦٦٨ . ومما يدلُّ على رفعة شأنهِ انهُ اضطر الترك التدريس مدةً وهو مريض فلما ابلَّ عمَّ السرورُ اهلَ المدينة كلهم فشاركوا تلامذتهُ في مظاهر الفرح ونوَّروا بيوتهم مساء اليوم الذي عاد فيه الى شغلهِ المألوف فكانت المدينة كانها شعلةٌ من نار . ومن تلامذته النابغين هلر[1] الالماني . وُلد في برن من سويسرا سنة ١٧٠٨ وتوفي سنة ١٧٧٧ وكان مدرساً للتشريح والجراحة والنبات في مدرسة غوتنغ الكلية ولهُ في علم منافع الاعضاء اكتشافات مهمة منها مبدأ التهيج في الاعصاب والتقلص في العضل . وكان واسع الاطلاع كثير التدقيق متبحرًا في كتب المتقدمين لم يبخس الزهراوي حقهُ من الثناء على مؤلفاتهِ . ونبغ في ذلك العصر آخرون لم نتصدَّ لذكرهم اكتفاءً بما تقدم

وفي اواخر القرن الثامن عشر كثر المشتغلون في علم الكيمياء وسائر العلوم الطبية وغير الطبية وتوالت المكتشفات وتمهدت السبل لتمحيص الحقائق وبرح الخفاء عن كثير من اسرار الطبيعة . وقد ذكرنا ان بريستلي وشيلي كشفا اتفاقاً الغاز المسمى الآن بالاكسجن وان بريستلي كشف ايضاً الازوت وغيرهُ من الغازات المعروفة الآن وان كافندش كشف عن غاز الهيدروجن فاخذت عقد الكيمياء

---

1 Haller

تحلُّ واحدةً فواحدةٍ حتى اتى على آخرها امامُ هذا العلم على الحقيقة لافوازياي[1] الشهير المقضي عليه بالاعدام في الثورة الفرنسوية سنة ١٧٩٤ . وُلد في سنة ١٧٤٣ وعين كيماويًا مساعدًا في جمعية العلوم منذ كان عمرهُ خمسًا وعشرين سنة وحصل باجتهادهِ ثروةً طائلةً وجاهًا وجيهًا وكان معملهُ مجمع العلماء حتى أمَّهُ مشاهير العصر من اقطار العالم مثل بريستلي الكيماوي ووط[2] مستنبط الآلة البخارية والفيلسوفان فونتانا[3] وفرنكلن[4] والاقتصادي ينغ[5] وغيرهم ولكن الدهر اخنى عليه فانزلهُ من شاهق مجده لما قُضي عليه بالاعدام فلم تشفع بهِ اكتشافاتهُ وفضلهُ ومالهُ وجاههُ

كأنَّ الردى عادٍ على كل ماجدٍ اذا لم يعوّذ مجدهُ بعيوبِ

وكان عمر لافوازاي تسعًا وعشرين سنةً اذ شرع باجراء تجاربهِ التي اكتشف بها تلك الحقائق الساطعة وهو لم يعثر بها صدفة واتفاقًا ولكنهُ تحرَّاها عن فكرةٍ وقادةٍ وبصيرةٍ نيرةٍ فرسم الخطة التي جرى عليها في محاولته اصلاح علم الكيمياء وقد تمَّ لهُ ذلك حيث حداهُ البحث الى معرفة تكليس المعادن وتركيب الهواء ومنفعة الاكسجن في الاشتعال وتكوين الحوامض والتنفس

---

1 Lavoisier 2 Watt 3 Fontana 4 Franclin
5 Young

وماهية الغازات عموماً ومصدر الحرارة وطريقة تولدها في الحيوانات . وآخر آياته البينات حلّ الماء وعقده اي تحليله الى عنصريه الاكسجن والهيدروجن وتركيبه منهما فكان ذلك الضربة القاضية على مذهب القدماء

وكان الهواء الجويّ معتبراً حتى منتصف القرن الثامن عشر عنصراً بسيطاً غير قابل للحل فاثبت لافوازياي أنهُ مركب بتجربة نراها الآن بسيطة وهي تكليس القصدير مع الهواء في اناء محكم السد فظهر له ان وزن الاناء بما اشتمل عليه لم يزد ولم ينقص خلافاً لزعم من قال انهُ يزيد لتعلق مادة النار فيه . على ان القصدير المحوَّل الى مادة كلسية قد ازداد وزنهُ في الحقيقة لانهُ اخذ من الهواء المشتمل عليه الاناء وقد ثبت له ان نقص الهواء كان معادلاً لزيادة المعدن فالشيء الذي خسره الهواء هو الاكسجن الذي تركب مع القصدير فكوَّن أكسيد القصدير

ويدعي الانكليز الفضل في اكتشاف الاكسجن لوطنيهم بريستلي وهو في الحقيقة قد سبق الى استحضاره ولكن على غير قصد لانه بينما كان يزاول بعض التجارب وجد ان الراسب الاحمر يفلت منه غاز اذا وُضع في اناء مسدود ووُجهت اليه اشعة الشمس مجموعةً ببلورةٍ . وقد تبين ان لهيب المصباح يزداد

بهذا الغاز ضياءً وان التنفس يزداد به سرعة فعمد الى استعماله علاجاً في بعض الامراض . وهو مصيب بذلك ولكنه وهم في تعليله حيث ارتأى ان الهواء مادة بسيطة لها كيفيتان متباينتان يزداد الاشتعال والتنفس باحداهما وينقصان بالاخرى . وبيان ذلك ان تؤخذ كمية من الزئبق وتوضع في إنبيق مسدود وتحمى فيتحد بعض الهواء ضمن الانبيق بالزئبق ويبقى البعض الآخر غير صالح للتنفس والاشتعال فلذلك سمى الهواء المتحد بالمعدن بالهواء المحرق . اما لافوازياي فاثبت ان الهواء ينحل الى عنصرين تقوم باحداهما الحياة فسمّى احدهما بالهواء الحيوي في مقابلة العنصر الاخر الذي سماه بالازوت أي الغير الحيوي . قال ,,الهواء مزيج من غازين مختلفين احدهما الهواء الحيوي (اي الاكسجن) والثاني الازوت وليس للاحتراق معنى في تركيبه''

وقد نجح لافوازياي بتركيب الهواء بان مزج الازوت مع الغاز الذي امتصه الزئبق لدى تكليسه . ثم تبين ان الغاز الذي يتولد عند احماء الزئبق والفحم معاً انما هو الحامض الفحمي ووضح له ان الكبريت والفصفور يجريان على هذا السنن فسمى الغاز المذكور بالاكسجن اي مولد الحوامض . وبعد ان عرف حقيقة التأكسد وكيفية توليد الحوامض وماهية الهواء

تهيأ له بطريق القياس ان يعرف حدوث مثل ذلك في بدن الحيوان فأثبت ان التنفس يشبه عمل الاحتراق في خارج البدن وان الحرارة الحيوانية تتولد من اتحاد الاكسجن بالمواد المحترقة وان الاكسجن يرد بالهوآء المستنشق وينفذ من الخلايا الرئوية الى الدم فيتلاقى مع المواد المحترقة وحينئذ يتولد الحامض الكربوني (الفحمي) الذي يطرح من الرئتين بالتنفس فينتقي الدم منه ويتطهر . ولاثبات ذلك وضع حيوانًا في أناء ضمنه آلة تقاس بها درجة الحرارة ووزن الاكسجن الذي يمتصه الحيوان والحامض الكربونيك الذي يبرزه والحرارة التي تظهر فيه فانجلت الحقيقة على نحو ما دار في خلده كما تقرر آنفًا . ثم اكتشف على تركيب الماء من الاكسجن والهيدروجن فتقوض بناء المذاهب القديمة من اساسه ودخل علم منافع الاعضاء في طور جديد من التحقيق والتدقيق وبعد ذلك وضع مبادئ التسمية الجديدة للاجسام الكيماوية وألف كتابه الذي انتشر في جميع انحاء العالم فصار قاعدة للتعليم ومدخلاً لمعرفة اصول هذا الفن

نبذة رابعة

في علم الطب في القرن التاسع عشر

يقف الفكر حائرًا في حضارة الاورويين لهذا العهد وجريهم

شوطاً بعيداً في حلبة المدنيـة فكأنهم هبّوا من غفلتهم هبوب الرياح وطاروا على اجنحة النجاح. أجلْ فهم الذين ذللوا قوى الطبيعة واستخدموها في قضاء اغراضهم فلم تبدِ امتناعاً واستنبطوا من الكهرباء قوى تجري بهم كالبرق الى كل غاية سراعاً وسلطوا النار على الماء فكان البخار لامرهم مطواعاً وطوَّقوا الارض بقُضُب الحديد فجرت عليها قُطُرهم تباعاً ولهم في كل يوم اختراعٌ عجيب وابتداعٌ غريب . واذا عرف السبب زال العجب . أليس كلُّ ماتراهُ من ظواهر عظمتهم وبدائع صنعتهم وغرائب مكتشفاتهم ومخترعاتهم اثرَ العلم الحقيقي الذي يستطيع كلُّ انسان ان يتحقق مسائلهُ بالحسّ والامتحان لا الوهمي الذي يُضطرُّ الى الانقياد اليهِ بالتسليم والاذعان [1] ولا سيما علم الطب الذي ذكرنا في ما سبق تدرجه في مراتب الكمال الى ان وصلنا الى القرن التاسع عشر وبيّنا طريقة انتشارهِ في اقطار أوروبا منقولاً عن العرب حتى دُرِست معالم الطب القديم ولم نتصدَّ للكلام على العلم الطبيعي وهو من اقسام العلم الحقيقي ولم نذكر فضل العرب في تحقيق مسائلهِ الا الماماً لئلا نخرج عن صدد البحث الذي

1 V. La Philosophie Positive, par Auguste Comte

آثرناهُ فبقي علينا ان نتمَّ الكلام في هذا الموضوع وقد انتهينا الى بداية القرن الماضي وهو القرن الذي برز فيهِ علم الطب بثوبهِ القشيب بين قومٍ عرفوهُ فأجلوهُ واحلوهُ في سويداءِ القلوب

ومعلوم ان جميع هذهِ العظائم التي يقال ان ذوي المدارك السامية استنبطوها او ابتدعوها او اخترعوها او اكتشفوها لا تتعدَّى حدود الطبيعة ولا تخرج عن السنن الذي يجري عليهِ نظامها وانما بقيت محجوبة عن الافهام لان ادراكها جملةً من المحال . وقد رأينا كثيراً من المسائل المشكلة لم تنحلَّ عقدها الا بالتدريج على تمادي الزمان فالحرارة الحيوانية مثلاً بقيت من الاسرار الطبيعية المحجوبة عن الافهام الوفاً من السنين حتى جاء لافوزياي في نهاية القرن الثامن عشر فاوضح حقيقتها بتجاربهِ البديعة بعد ان تهيأ السبيل لهُ بتجارب سلفائهِ ومباحثهم في الكيمياء والتشريح

وقد اشرنا في ما سبق الى تدرج علم التشريح في مراتب الارتقاء حتى بداية القرن التاسع عشر فيجمل بنا الآن ان نبين كيف وصل في القرن المذكور الى ذروة الكمال وان نذكر على سبيل الاستقراء كيفية نشوء الفروع الجديدة من هذا الاصل وما أثمرت تلك الافانين من الفوائد والمنافع

ولا خلاف في ان نابغة هذا القرن كان فتىً عُرِف باسم

مصلح هذا العلم. ألا وهو بيشات[1] الشهير وُلد سنة ١٧٧١ وتوفي في عنفوان الشباب لكثرة ما كدَّ نفسهُ واجتهد غير متجاوز الحادية والثلاثين من عمره وكان ابوهُ طبيباً فأخذ عنهُ وتدرَّب على الممارسة بتشريح الهررة وتلقي العلوم في مدرسة ليون الكلية ثم جاء الى باريس سنة ١٧٩٣ ولازم ديزلت موشس مدرسة الجراحة العملية فعهدت اليه ادارة[2] مجلة الجراحة على انه ترك الاشتغال بهذا الفن ليتفرغ لدرس منافع الاعضاء فانفسح لهُ مجال التحقيق وعكف على التأليف فنشر رسالة في الاغشية وتلاها بنشر رسائله في الحياة والموت وفي سنة ١٧٩٩ طبع مؤلفهُ في التشريح العام وعين حينئذٍ طبيباً لمارستان باريس المعروف بأوتل ديو hotel dieu فاعمل فكرتهُ في المقابلة بين الاعضاء الصحيحة والمريضة لمعرفة خلل منفعة الاعضاء من جراء خلل الاعضاء نفسها وكان يشرّح جثث المتوفين بالامراض المختلفة ليعرف التغيرات المرضية فتسنى لهُ ان يشرّح في مدة ستة اشهر اكثر من ستماية جثة ولم يحوّم احدٌ قبلهُ على هذا الامر فهو اذاً واضع علم التشريح المرضي وقد حاول اصلاح طرق معالجة الامراض على هذا المبدأ فعاجلتهُ المنية

1 Bichat 2 Désault

واذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الاجسامُ

هذا هو بيشات الذي ابدع بوصف الاعضاء المؤلف منها جسد الانسان ورتَّب الانسجة التي تتكوَّن منها الاعضاء انواعاً يمتاز كلٌّ منها بخصائص تُعرف بها ماهية العمل الذي وُجدت لاجلهِ وقسم هذه الانسجة الى ما تقوم به الحياة النباتية اي التي يشتركُ بها الحيوان والنبات كوظائف التغذية والتوالد والى ما تقوم به الحياة النسبية اي التي يظهر بها تعلق الحيوان بما حواليه وتعرف بوظائف المخالطة وهي خاصة بالحيوان واثبت ان الاعضاء الرئيسة هي القلب والدماغ والرئيان وذهب الى ان الحياة نتيجة تكافل الانسجة بابداء ما قُدِّرَ على كل منها من العمل والمنفعة قال „ الحياة نتيجة عمل الاعضاء الذي تقاوم بهِ الموت" او هي قوة غير معروفة الماهية لاتزال تقاوم العوامل الخارجية التي تفضي الى اضمحلالها وانَّ الامراض انما تحدث عن خلل في الخصائص الحيوية فهي اذاً تختلف باختلاف الانسجة الواقع عليها الخلل وان غاية العلاج اصلاح هذا الخلل بما يحفظ الموازنة بين الانسجة

ومن العجيب ان بيشات على سمو مداركه وسعة اطلاعه لم يحفل بالمجهر (المكروسكوب) ولم يستعملهُ في تحقيق بناء

الانسجة وكشف اسرار الكائنات المتناهية في الصغر مع ان لُوِنْهوك[١] استنبط هذه الآلة البديعة منذ سنة ١٦٨٣ وكشف بها كريات الدم (التي اعتبرها ملبيجي كريات دهنية) واتمَّ اكتشاف هر في بتبيين الاوعية الشعرية وكشف ايضاً عن النقاعيات وبين اشكال الجسيمات الحية المختلفة التي تكون في الفم في حالة الصحة الى غير ذلك مما اهتدى به المتاخرون واوضحوا به من الحقائق ما كان مستوراً فصار درس الاجسام المجهرية فرعاً من اهم فروع العلم ومبحثاً من المباحث التي اتسع بها نطاق علم الطب وتحققت مسائلهُ الغامضة ولولاهُ لم يتقدم علم بناءِ الانسجة ومنافع الاعضاءِ ولم يظهر العالمَ المحجوب عن الابصار لصغر الاجسام المؤلف منها وهو عالمُ الجسيمات المجهرية ولكن روكتنسكي[٢] لم يدع طريقة من طرق التحقيق في هذا العلم فقد شرَّح ثلاثين الف جثةٍ فاكثر وبلغت جملة الذين شرَّحوا في فينَّا باطلاعه من سنة ١٨١٧ الى سنة ١٨٧٨ سبعين الف جثةٍ وثاني وسبعين جثةً اوضح تغيراتها المرضية في مؤلفاتهِ وخطبهِ فتأمل ·

وممن وافقهم الجدُّ في بداية القرن التاسع عشر الشهير ادورد جنر[٣] الذي استنبط طريقة التقليح بمادة الجدري البقري للوقاية من

1 Leeuwenhoech 2 Rockitenski 3 E. jenner

الجدري البشري على ما هو شائع الآن وُلد في مقاطعة غلوشستر من بلاد الانكليز سنة ١٧٤٩ وتوفي سنة ١٨٢٣ وكشف طريقة التلقيح سنة ١٧٩٦

وفي النصف الاول من القرن التاسع عشر لم تطمح ابصار الباحثين في التشريح المرضي الى غير تغيرات الاعضاء الحادثة في الامراض على ما ترى بالنظر المجرَّد · ولكن استنباط المكرسكوب وشيوع استعماله في تلك الاثناء فتح طريقاً للتحقيق كان موصداً من قبل فعُرف به ان الاجسام الحية باسرها موءلفة من دقائق متناهية بالصغر لا ترى بالحس المجرَّد وان انسجة الحيوانات مبينة من هذه الدقائق التي سماها مِرْبل[1] سنة ١٨٠٨ بالخلايا لمداناتها بالشبه للخلايا التي يعسل فيها النحل · وقد ثبت ان كل كائن حيّ انما هو مكوَّن من عناصر تشريحية تُرَدّ بالتحليل المكروسكوبي الى الخلايا المذكورة · وان نموّ كل كائن حيّ انما يبتدئ بخلية واحدة لان البُوَيضة التي ينشأ منها كلُّ حيوان [2] والبزرة التي يتولد منها النبات تتضمنان هنة التكوين في خليَّة واحدة وان الخلايا على الجملة تنشأ في بثات ملائمة على طرق مخصوصة فتتكاثر وتتضامُّ بعضها

1 Mirbel

2 Omn vivum ex ovo

٢ هذه قضيه قررها هرفى

الى بعض على انحاءٍ مختلفة في الكم والكيف مع بقاء كلٍ منها مستقلاً
بعملهِ الخاصّ فتتباين في قواها وتتغير في اشكالها بحسب مرتبة
الحي المكوّن منها سوآءٌ كان راقياً في التكوين او سافلاً ولذلك
كان كل فردٍ من الحيوانات موءلفاً من انسجة مختلفة واعضاء
متباينة يقوم بكلٍ منها خلايا خصوصية · فالحياة اذاً مهما تنوعت
ظواهرها واختلفت عواملها في الكائن الحي سافلاً كان او راقياً في
البناء انما هي انفعال خلايا ذلك الجسم ونتيجة حركتها من جراء
فعل المبدإِ المهيج لها لتقوم بالعمل المحتوم عليها ثم تسكن
فتموت وقد تولد منها غيرها على آسالها [1] فلا تزال جارية على هذا النمط وقد
سمي هذا الفرع من علم التشريح بالهيستولوجيا اي علم تكوين الانسجة
على ما ثبت بالمذهب الخلوي وجرى عليه العلماء عموماً و بنى عليهِ الشهير
ورخو [2] تعليمهُ بان المرض انما هو خلل في الاعمال المتعلقة بالخلايا
وتابعهُ بهِ علماءُ العصر · وُلد هذا الفيلسوف سنة ١٨٢١
فلهُ الآن من العمر ٨٠ سنة وقد احتفلت مدينة برلين بعيدهِ في
١٣ تشرين الاول من هذه السنة وعُرضت لائحة مصنفاته في
سبع صحائف مطبوعة ومن ذلك يعلم انهُ برع في جميع العلوم
ولا سيما في التشريح المرضي وعلم حفظ الصحة وعلم طبيعة

1 Omnis cellula e cellula 2 Rudolf Virchow

الانسان وهو لا يزال حيًّا يفيد العالم بمعارفهِ وعلومهِ

ولا مراء في ان التوسع بمعرفة ماهية الامراض في القرن التاسع عشر انما كان نتيجة التوسع باستنباط الذرائع التي امكن التوصل بها الى معرفة الحقائق التي القت عليها الطبيعة حجاب الغيب ومعلوم ان معرفة حقيقة الامراض متوقفة على معرفة الاعضاء ومنافعها فلذلك كان التعمق بمعرفة علم المنافع (الفيسيولوجيا) من اقوى الاسباب التي ترقى بها علم الطب لهذا العهد وقد ذكرنا ما كان من اكتشاف دورة الدم وطريقة تطهيره بالتنفس فيجمل بنا الآن ان نذكر كيف اهتدى الباحثون الى معرفة منافع الاعصاب وقد تقدم (صفحة ١٥٩) ان جالينوس عرف ان العصب يقوم بهِ الحس والحركة ولكن الذي ابدع بايضاح هذه الحقيقة واثبتها ببرهان التجربة هو شارل بل[1] الانكليزي من علماء القرن التاسع عشر (وُلد سنة ١٧٧٤ وتوفي سنة ١٤٨٢) وكان كثير الاشتغال بالتشريح والفيسيولوجيا ولهُ فيهما اكتشافات بديعة ومن تحقيقاتهِ ان كل عصب ينبت من النخاع الفقري او الدماغ باصلين احدهما يغوص منبتهُ في القائمة المقدمة للنخاع الفقري او ما تستديم اليهِ في الدماغ وهو الذي تتوقف عليه الحركة والثاني

1 Charles Bell

مؤخر يغوص منبته في القائمة الخلفية وهو الذي يقوم به الحس بدليل ان قطع الاصل المقدم يعطل الحركة كما ان قطع الاصل الخلفي يعطل الحس . وكلاهما يلتقيان في نقطة لدى نفوذهما من الثقب بين الفقار او من ثقوب الجمجمة فيؤلفان عصباً واحداً تنشأ منه فروع ينضم بعضها الى بعض فتتألف الضفائر العصبية ويبقى بعضها مستقلاً . وكلها تتوزع في جميع الاعضاء فتصدر عنها الحركات وينقل بها الحس الى المراكز . وقد توسع ماجندي[1] باجراء التجارب على الحيوانات الحية فاثبت الحقائق المذكورة آنفاً وفصلها تفصيلاً كافياً وابدع بمباحثه في الامتصاص ودورة الدم وعمل الاعصاب المنعكس وكيفية حدوث القيء ومنفعة السائل المخي الفقاري وغير ذلك مما يشهد له بالبراعة والفضل . وقد انتقد اراء بيشات وندد بمذهب الحيويين . ولد سنة ١٧٨٣ وتوفي سنة ١٨٥٥ وتخرج عليه كلود برنارد[2] الشهير وهو نابغة العصر برع في علم المنافع العملي فلم يجاره احد واكتشف على حقائق كثيرة خلدت ذكره في الغابرين منها طريقة توليد السكر في الكبد وعمل الاعصاب المتوزعة في الاوعية الدموية ومنافع العصب الاشتراكي (السمپاثوي) ومنفعة العصب الرئوي المعدي في تعديل نبضان القلب وطريقة اختمار

1 Magendie 2 Claud Bernard

الغذاء بفعل العصارة المعدية ومنفعة عصارة البنكرياس الى غير ذلك مما يطول الكلام عليه ولا يخلو كتاب أُلف حديثاً في هذا الفن من ذكره . وُلد سنة ١٨١٨ وتوفي سنة ١٨٧٧ وقد توصل فرّياي[١] وغيره الى تعيين مراكز القوى العاقلة في الدماغ وبين بروقا[٢] ان مركز خاصة النطق في التلفيف الثالث لشطر الدماغ الايسر وحقق ذلك شركوت بمباحثه الدقيقة وتجاربه البديعة وتوسع كثيراً في تحرّي الحقائق وحلّ المسائل المشكلة مما يتعلق بالمجموع العصبي وهو الذي توصل الى تحقيق كثير من منافع المجموع العصبي بمقابلة النتائج المرضية على الاعمال العصبية فجاء ذلك مصداقاً لقول بعضهم ,, ان علم الامراض انما هو معرفة خلل منافع الاعضاء ''

ومن مبتدعات القرن التاسع عشر تعيين امراض الصدر وتمييزها بالاستقصاء والاستسماع . استنبط هذه الطريقة لينِّك[٣] بعد ان اشتغل كثيراً بالتشريح المرضي وعرف التدرن الرئوي وميزهُ عن غيره من امراض الصدر ولهُ مؤلفات كثيرة اشهرها في تشخيص امراض الرئتين والقلب مجلدان لا يزال الاطباء يعولون عليهما في هذا الفن . وُلد سنة ١٧٨١ وتوفي سنة ١٨٢٦

وقد تقدم ان الجراحة كانت في أُوروبا كما هي الآن في

1 Ferrier 2 Broca 3 Charcot 4 Laënnec

كثير من الامصار الشرقية مهنة الحلاقين يمارسونها عفواً و يدعونها سفاهاً لا عن معرفة واختبار ولكن عن لزوم واضطرار فكانت قاصرة على الفصد والكي وبط الخراجات والختان والخصاء والبزل ورد الخلع والكسر وأساوة الجروح . واول من اشار بفتح البطن لرد الفتق المختنق وخياطة الجرح بعد ذلك براكساغورس القوسي استاذ هيروفيلوس وقد اجرى ايرازيستراتوس عملية شق البطن في خرّاج الكبد والطحال والاورام في الاحشاء . وكانت عملية استخراج الحصى من المثانة شائعة كعملية قدح العين في الماء الازرق . ولكن اكثر العمليات الجراحية كان يمارسها الحلاقون الذين كان لهم صولة وسطوة في زمن الغباوة والجهل . ولم يكن للجراحين الاطباء شأن حتى تألفت الجمعية الاولى في باريس سنة ١٢٦٨ وقررت نظاماً مؤلفاً من ٣٦ مادة فعارضتها جمعية الحلاقين المؤلفة تحت زعامة حلاق الملك وقويت عليها حتى انحاز الى الجراحين لويس التاسع . وفيليب الجميل الذي اصدر منشوراً قال فيه ,, لقد احاط الملك علماً بان بعض الاجانب يمارسون في مملكته صناعة الجراحة وماهم الا لصوص محتالون سفاكون للدماء ممخرقون لم يتعلموا اصول الصناعة ولم يجوزوا الامتحان ومع ذلك تجاسروا على وضع الرايات

في نوافذ بيوتهم كالجراحين الاصوليين فلذلك تأمر بان لا يسوغ لاحد ان يمارس الجراحة الا اذا حصل على شهادة بامضاء الاساتذة الجراحين المقيمين في باريس مصدقاً عليها من جراحنا بتردي[1] وخلفائه" وبقي الخلاف بين الحلاقين والجراحين والاطباء حتى سنة ١٦٦٠ واول جمعية جراحية انشئت في باريس سنة ١٧٣١ ثم أسست مدرسة الجراحة العملية سنة ١٧٥٠ واول مجلة جراحية انشأها ديزلت استاذ بيشات . على ان تقدم الجراحة انما كان موقوفاً على استنباط التشريح الموضعي الذي تمكن به الجراحون من التدقيق في من معرفة الاعضاء التي تجرى عليها العمليات الجراحية فأمنوا بذلك من الخطاء في العمل وكان اكتشاف الكلوروفورم اقوى مساعد لاجراء العمليات الدقيقة الطويلة . كشفه سوبيران[2] الفرنسوي وليبج[3] الالماني في وقت واحد واول من استعمله للتخدير سمبسون[4] من ادنبرج . وهم الآن لا يبالون بمخاطر العمليات الكبرى بعد ان استنبط الاستاذ لستر[5] الطريقة المضادة للعفونة

---

1 Pitardi . Histoire des sciences, par Laboulbène V. la Revue Scientifique; T. XLII, P. 729

2 Soubeiran 3 Liebig 4 Simpson 5 Lister

المنسوبة اليه مهتدياً بتجارب العلامة بستور[1] التي كشف بها عن علة الفساد والاختمار وطريقة تولد الجراثيم الحية وحدوث الحميات بسببها الى غير ذلك مما يأتي الكلام عليه

ولا مراء في ان تقدم الجراحة والطب في هذه الآونة انما هو نتيجة اجتهاد جمهور من الجهابذة الافاضل الذين وقفوا حياتهم على تحرّي الحقائق والتنقيب عن اسرار العلم الغامضة ولكن الفضل كلَّ الفضل يرجع للعلاَّمة بستور الذي سرى على ضوء مشكاتهِ الباحثون في هذا العصر فهو اول من قال بان الاختمار انما يحدث عن الكائنات الحية المتناهية بالصغر واثبت ان لكل خمير مكروباً خاصاً بهِ كشف عنهُ وعزلهُ واستنبتهُ في بئة ملائمة لنموهِ وراقب طرق توالدهِ وتكاثرهِ وظواهر حياة كل نوعٍ منهُ وتأثير مفرزهِ السام في بدن الحيوان وهو الذي اكتشف على جراثيم العدوى في الامراض الوبيلة وكانوا يتكهنون من قبل على كيفية حدوث الامراض الوافدة والمعدية ولم يعرفوا حقيقة الحمة المرضية والوبالة فاثبت ان العفونة والفساد والحمة المرضية والوبالة مسببة كلّها عن جراثيم حيـة تدخل البدن بالماء والهواء والطعام وتتكاثر فيهِ بطرق التوالد

1 Pasteur

والنشوء فتغالبهُ على غذآئها ونمآئها وحينئذٍ يحصل النزاع بين عناصرهِ وبينها فتحدث ظواهر الامراض المختلفة · وقد اثبت ان لكل مرضٍ مكروباً خاصاً بهِ وعرف كثيراً من هذهِ المكروبات وجرى على طريقتهِ الباحثون فبرح الخفآء عن الحقائق التي لم يهتدِ اليها احد قبلهُ · ومن الغريب ان العلامة المشار اليهِ لم يكن طبيباً ولا جراحاً وانما كان كيماوياً قصر همتهُ على تحقيق المباحث الجهرية (المكروسكوبية) ومعرفة عالم الاحيآء الحقيرة فتوصل باجتهادهِ الى تقريرِ اصول الطب على قواعد راهنة انقلب بها من حالة الظنون الى حالة اليقين وكفاهُ شرفاً استنباط طريقة اللقاح لتخفيف حمة الامراض الوبيلة وتلطيفها كالكلب والبثرة الخبيثة وضربة الطحال في الغنم والتيفوس البقري الى غير ذلك مما تحدّاه به تلامذتهُ المجتهدون كروكس[1] مستنبط اللقاح في في الخناق (الدفتريا) ويرسن[2] مستنبط اللقاح في الطاعون وغيرهما وعلى الجملة فهو مجد الامة الفرنسوية وسراج العصر المنير وقدوة العلمآء العاملين الذي وقفوا حياتهم لمنفعة بني الانسان

ذي المعالي فليعلوَنْ من تعالى هكذا هكذا وإلاَّ فلا لا

ولا يسعنا المقام ان نأتيَ على بيان مكتشفات العلامة بستور

1 Yersin 2 Roux

ومنافعها وطريقة توصله اليها وما تحراه من التجارب الدقيقة لاظهار حقائقها فنجتزىء بالاشارة الى ما تهم معرفته عامة المطالعين مما لا يخرج عن صدد الموضوع الذي آثرناه في سرد الوقائع التاريخية . وقد تقدم ان لوونهوك استنبط المكروسكوب وكشف به عالم الاحياء الدقيقة سنة ١٦٧٥ في النقاعة بطريقة يسهل اجراؤها وهي ان يؤخذ شيء من المواد القابلة للفساد كاللحم والثمار وينقع في الماء ويغلى حتى ينتهك ثم يصفى الماء عن النقيع ويوضع في مكان حرارته بين ٣٥° و٤٠° س ويترك يوماً او يومين فيصير الماء كدراً بعد ان كان صافياً فاذا فحصت قطرة منه بمجهر يكبر الاجرام ٤٠٠ او ٥٠٠ ضعف يظهر في تلك القطرة مشهد يأخذ بمجامع الالباب لان الوف الالوف من الكائنات الحية تتزاحم فيها طلباً لرزقها . فبعضها تثب من مكان الى آخر بسرعة تدهش الابصار وبعضها تسير الهوينى متئدة في حركاتها وبعضها تلبث غير متحركة وكلها تتفاوت في الحجم والشكل ولاسيما اذا كانت مواد النقيع مختلفة كأنَّ كلَّ جسم منها محتاج الى بيئة موافقة لقيام حياته . وسميت هذه الكائنات بالنقاعيات وهي من كل شيء الماء الذي تقع فيه لانها اول ما كشفت فيها ثم ثبت ان جراثيمها تكون في الهواء . وتوسعوا في درسها

وبيان مراتبها ومعرفة اشكالها وخصائصها وقسموها الى اجناس وانواع واصناف يطول الكلام عليها . والذي حداهم الى التوسع في البحث عنها مسئلة التولد الذاتي فمنهم من قال ان الحيوانات السافلة في مراتب الخلق تنشأ من تلقآء نفسها في العفونات والمواد الفاسدة ومنهم من انكر هذا القول واثبت ان كلّ حيٍّ انما يتولد من حي [١] . اما القول الاول فكان عليهِ جمهور القدمآء اتباعاً لمذهب ارسطو [٢] واول من تصدَّى لنقضهِ ببرهان التجربة طبيب طلياني اسمهُ فرنتشيسكو رَيدي وذلك سنة ١٦٦٨ فانهُ اخذ في مراقبة اللحم ليتحقق سبب نتنهِ فوجد ان الدود الذي يتولد فيهِ انما ينشأ من بيوض يلقيها الذباب الذي يحوم عليهِ ولم يكن المكرسكوب معروفاً حينئذٍ فلم يتمكن الطبيب المذكور من معرفة علة نتن اللحم الحقيقية كما عرفها من جآء بعدهُ الا انهُ تهيأ لهُ بما أجراهُ من التجارب ان يثبت حقيقة هذه القضية وهي ,, كل حيّ من حي '' فكانت ارآؤهُ في هذا الشأن حجة يعوَّل عليها . ولكنهُ بعد استنباط المكرسكوب وكشف العالم الحي الموأف [٤] من الكائنات المتناهية في الصغر كان من رأي جماعةٍ من الباحثين ان هذه

1 Omne vivum ex vivo.

٢ عجائب المخلوقات للقزويني

الكائنات اصلٌ صدرت عنهُ الكائنات التي هي ارقى منها في البنآء فعادوا الى القول بالتولد الذاتي لانهم لم يتمكنوا من كشف جراثيمها حينئذٍ فنشأت منذ ذلك الحين المساجلات بين العلمآء على هذه المسئلة وكثرت فيها مباحثهم واختلفت مذاهبهم في تحقيق احد وجهيها وتحري التجارب التي تحلُّ بها معضلات مشاكلها

وكان من اخص نصرآء القائلين بالتولد الذاتي بدهام فانه نشر آرآءهُ سنة ١٧٤٨ ومحصلها ان الكائنات الحية تكونت في الاصل من دقائق اصلية تضامَّت بعضها الى بعض بفعل قوة مكوّنة خصوصية فعارضهُ بذلك سبالنزاني سنة ١٧٧٨ واثبت ببرهان التجربة ان الكائنات الحية التي تتولد في النقاعة انما تنشأ من الجراثيم التي تندسُّ فيها من الهوآء وبرهانهُ على ذلك انهُ اذا وضعت النقاعة في قارورة مسدودة سدًّا محكمًا واغليت على حرارة ١٠٠° س ثم وضعت في الحالة الموافقة لتوليد الكائنات الحية فيها لبثت غير متغيرة شهورًا عديدة لانقطاع الصلة بينها وبين الهوآء الخارجي بعد موت الجراثيم التي كانت فيها قبل الاغلآء . وردَّ بان القارورة التي وضعت فيها النقاعة لم يكن فيها من الهوآء ما يقوم بحاجة هذه الكائنات بناءً على انهُ

اذا منع الهوآء عن كائن حي لم يبقَ سبيل الى ظهور الحياة فيهِ فدفع شلز[1] هذا الاعتراض بطريقة اوصل فيها الهوآء الى القارورة بعد تنقيتهِ بمروره على الحامض الكبريتيك المركز لظنهِ ان الجراثيم السابحة في الهوآء تموت بعرضها على الحامض المذكور. وفي سنة ١٨٣٧ نشر شوان[2] رسالة ذكر فيها ان علة العفونة وفساد اللحم ونتنه انما هي نتيجة التحليل من نموّ الكائنات الحية في المواد الآلية وان هذهِ الكائنات انما تتولد من جراثيم سابحة في الهوآء وانه متى نقي الهوآء من هذه الجراثيم أمكن حفظ الموادّ التي تماسها من الفساد. وفي سنة ١٨٥٤ عمد شرَوْدر[3] الى تنقية الهوآء من جراثيم الكائنات الحية بواسطة سبيخةٍ اي قطعة من القطن المندوف اقرّها على افواه الآنية بعد اغلائها. وما زالوا يتوسعون في التجارب والتحقيقات ويقوى القول بنفي التولد الذاتي حتى نشر بوشاي[4] مؤلفهُ المعنون ,, بالتولد الذاتي" فران بهِ على عقول كثير من الباحثين وانقاد فريق الى تأييد رأيه حتى ابدع العلامة بستور بتحقيقاتهِ في علة الاختمار فتصدى للمسئلة ونزل الى مضمار المساجلة فبحث فيها بحثاً عجيباً وفي سنة ١٨٦٢ نشر رسالة في الجسيمات السابحة في الهوآء بناها

1 Schulze 2 Schwaun 3 Shrouder 4 Boucher

على ما اجراه بنفسه من الامتحانات التي لم يصل اليها احد ممن سبقه فانه التقط هذه الجسيمات من الهوآء وتمكن من فحصها بالمكرسكوب فوجد ان اكثرها من ذوات البنآء الحي فزرعها في نقاعةٍ بعد تطهيرها بالاغلآء فنمت فيها الكائنات الحية بعد حين وتكاثرت جداً وبذلك دفع حجة القائلين بالتولد الذاتي وقوّض اركان براهينهم واثبت ان كل حيّ يتولد من حيّ

ووكلت اليهِ نظارة الزراعة في فرنسا سنة ١٨٦٥ امر البحث عن علة دود القز بايعاز من استاذهِ الكيمياوي الشهير دوماس فبقي يشتغل في هذا الموضوع خمس سنين منقطعاً الى المراقبة والامتحان بين الفلاحين المعتنين بتربية الدود حتى عرف العلة واثبت كونها صادرةً عن جراثيم حية فتمهد له بذلك السبيل لمعرفة العلل الوبيلة التي يصاب بها الحيوان والانسان واتخاذ الوسائط الفعالة لاتقآء شرها ودفع ضرّها فكأنه ظفر بالحجر الكريم الذي افنى الفلاسفة القدمآء عمرهم في طلابهِ طمعاً بالحصول على الثروة والسعادة واطالة الحياة

ولما اشتهر هذا العلامة بدقة مباحثهِ وكثرة تحقيقاتهِ ناصبه كثير من رجال العلم وشنعوا عليه المقال ولاسيما لانه تكلم في كثير من المباحث الطبية وهو ليس بطبيب فانتصر له منهم

قوم افاضل لاينطقون عن الهوى كالاستاذ كُهن [1] والدكتور كوخ [2] من المانيا والعلامة تندل [3] والجراح لستر من انكلترا وطال النزاع وكثر الجدال وهو دائب على تحرّي الحقائق واجرآء التجارب الدقيقة البديعة واستنباط المسائل العجيبة الغريبة حتى ثبت تعليمهُ وانتشر في الزمن القصير فعمَّ انحاء العالم وصار شغل الاطبآء والعلمآء والحكمآء ومطمح ابصارهم وسرح افكارهم

وقد ابدع كُهن في بيان حقيقة الفساد ونسبته الى المكروب [٤] قال ,, ان الفساد انما يقع على المواد الازوتية

---

1 Cohn 2 Koch 3 Tyndall

٤ مكروب microbe لفظه ماخوذة عن اللغه اليونانيه Μικρόβιος معناها فى الاصل « حياة قصيرة » واول من استعملها سديليوت سنه ١٨٧٨ للدلالة على هذه الجرائيم الحيه بينما كان يطالع تقارير العلماء الواردة على جمعيه الاطباء فى باريس وكان حينئذ رئيسا لها وقد رأى هذه التقارير مملوة بذكر اسماء غريبة للدلالة على هذه الجرائيم ينبو عنها السمع فقال ماضر لو اطلقنا عليها لفظه خفيفه يعم استعمالها ولا يمجها الذوق وارسل الى صديقه الطبيب اللغوى ليتراى يساله عن ملائمه وضع هذه اللفظه فاستحسنها ومنذ ذلك الحين جرى عليها العلماء اجمالا ولم نر باسا من تعريبها ولا سيما بعد شيوعها بين المتكلمين بالعربيه

الهولندية ونحواً من سبعماية كلمةٍ حفظها من طريق سريّ عن الهولنديين فصاروا يجتمعون في الشهر خمس مرات او ستاً يتباحثون في العلم ويحاولون حلّ رموز ذينك الكتابين ويشرّحون بعض الحيوانات وعلى هذا الوجه تمكن سوجيتا ولكن بعد عناءٍ عظيم من معرفة شيء من اللغة الهولندية ثم ضوى اليهم نفر من مثل نمطهم فاشتهر امرهم وذاع صيتهم وكان كلٌّ منهم قد اخذ على نفسهِ الاشتغال بفرع من العلوم فتفرّغ ميدا للادب والفلسفة وسوجيتا للطب فألف كتاباً في التشريح أصلح فيهِ خطأ اسلافهِ الا انه خاف في اول الامر من نشرهِ ثم غلبتهُ الرغبة في نفع وطنهِ فشرع في طبعهِ غير مبالٍ بما يكون بعدهُ ولكن خدمهُ حسن البخت فحاز الكتاب قبولاً واستحساناً في عيون (الشوغن) امرآء المملكة واذنوا في نشرهِ والاخذ عنهُ ومنذ ذلك الحين تهيأ دخول الطب الأوروبي الى اليابان وفي سنة ١٨٥٧ عرفت مدرسة الطب الهولندية بين يدي الحكومة اليابانية معرفة رسمية وفي سنة ١٨٦٨ـ ١٨٦٩ حدثت في تلك المملكة ثورة هائلة كان من نتائجها طلب الحكومة اليابانية وفداً فرنساوياً لاصلاح شؤون جندها ورغبت في اصلاح علم الطب بقدر ما تستلزمهُ الحال العسكرية. واذ كانت تعتقد ان

ان للالمان اليد الطولى في هذا العلم عهدت بتدريسهِ الى طبيبين من نطس اطبـآء المانيا وهما الدكتور هفمان والدكتور ملّر اللذان وضعا نظام المدرسة الكلية المشيّدة بامداد الحكومة في توكيو · وهي مدرسة حافلة بجميع وسائط التعليم منقسمة الى اربعة اقسام تدرس في احدها العلوم الادبية وفي الثاني العلوم الشرعية وفي الثالث العلوم الفلسفية وفي الرابع الطب · وقد بلغت المكاتب العمومية في تلك المملكة سنة ١٨٨٩ اثنتين وعشرين مكتبة يتردد اليها في السنة اكثر من ١١٠٠٠٠ من القرآء ويُنشَر فيها سنويًا اكثر من ثلاثة آلاف مؤلف فليتأمل ذووا الالباب

واذا كان ثلاثةٌ من اطبآء اليابان شعروا بفضيلة العلم لان احدهم نظر الى صوَر كتاب في علم التشريح وهو لا يعرف لغتهُ التي حظر تعلمها رؤسآء امتهِ تحت طائلة العقاب بالموت فحملهم ذلك على معاناة البحث عن الحقيقة ولم يَثنِهم خوف العذاب عن الاجتهاد ولكنهم هبُّوا بهذه الامة من سبات الغفلة وطاروا بها الى ذروة الكمال حتى ضارعت الامم الاروبية الراقية في الزمن القصير فما عذر الامة العربية عن هذا السبات العميق وهذه الغفلة المستمرة وهي التي اهتدى بهدى علمآئها السابقين رجالُ العلم من الامم الاروبية اجمع كما سبق بيان ذلك · ألم

يوجد في مصر وسوريا وتونس والجزائر وزنجبار وغيرها ثلاثة درسوا العلوم الطبية او وقفوا على ترقي هذه العلوم عند الغربيين لهذا العهد ؟ او لم تترجم بعض الكتب العصرية في هذه العلوم الى اللغة العربية وتنشر مطبوعة ليستفيد بها الخاص والعام ؟ أو لم تنشأ المدارس لتعليم هذه العلوم ونشرها بين ابناء هذه اللغة ؟ فهل نشطت هذه الامة من عقال الوهم وتحررت من ربقة العبودية وتخلصت من قيود التقليد؟ واذا كانت مصر اقدم المدن المتمصرة واسبقها الى الحضارة والعمران لا تغار على سابق مجدها من استهانة الاجانب واذلالهم ابناءها بما يتخذون من وسائط التسلط عليهم لكنها تساعدهم على بسط هذا التسلط وتقويته بانحيازها اليهم وتوطئتها لهم كنف الرغبة فماذا يكون مصير هذه الامة ولم يبق لها من أمل للنهوض من وهدة الانحطاط الا بهذا القطر ؟ واذا كان الذين يهمهم نجاح هذه الامة يرون ان هنالك خللاً ينبغي اصلاحه أفما يجدر بهم والحالة هذه ان ان يستقصوا عن اسباب الخلل لعلهم يهتدون الى علاج ينجع في شفاء هذه العلة ؟ مسائل اجتزيء عن الجواب عليها كلها باستلفات نظر اذكياء النفوس من ابناء الوطن الى ما يفعله الاروبيون لتأييد سطوتهم وتقرير استبدادهم وتمكين سلطتهم . وفي ما ذكره

كلوت بك في مؤلفهِ[1] تاريخ مصر عبرة وذكرى قال ما ملخصهُ

,, لما رأت فرنسا ان ظل سلطتها قد تقلص عن وادي النيل وليس لها مطمع برجوعهِ عمدت الى بسط ظلها المعنوي ليكون وسيلة لرجوع سطوتها ونفوذ كلمتها واناطت بالمسيو جومار نشر مكتشفات الندوة واتمام المباحث العلمية والتاريخية التي بُدِيء بها منذ احتلال الفرنساويين مصر فجآء الى الاسكندرية سنة ١٨١٥ وسعى مع قنصل الدولة الفرنسوية لدى الخديوي بتهيئة السبيل الى اتمام ما نُدِب اليهِ وكان قصدهُ ان يجمع بين مصر وفرنسا بتهيئة سبيل التعليم والنجاح الأدبي فلم يجد لذلك وسيلة افيد من حمل المصريين على طلب العلم

,, وكان محمد علي باشا خديوي مصر يرى ان الامة المصرية لا تقوم لها قائمة بغير العلم وان العلوم التي تعلّم في الجامع الازهر وغيره لا تفي بتحقيق امانيهِ فارسل الى فرنسا وايطاليا عدةً من الشبان لتلقي العلوم فيهما منهم عثمان افندي نور الدين الذي تخرج في باريس وامتاز باجتهاده ومداركهِ . فاسرَّ اليهِ حينئذ موسيو جومار بنجواهُ رجآء ان يكون معيناً لهُ على تحقيق

1 Aperçu général sur l, Egypte, par A.-B. Clot-Bey; t. II, p. 333

بما تفعله فيها الجراثيم المجهرية وهو يكون سريعاً او بطيئاً بحسب كثرتها او قلتها ويتوقف بكل واسطة تمنع نموها او تهلكها . فمضادات الفساد اذاً انما هي مضادات المكروب . وقال ان الامراض الوافدة والمعدية انما هي مسببة عن هذه الجسيمات السابحة جراثيمها في الهواء او الماء فمتى اصابت الجسم الحي ووافقت الاحوال نموَّها توالدت فيه وكثرت الى حدٍّ فاحش فتفسد سوائلهُ وتحلل منسوجاته فان قوي الجسم عليها عاد الى صحته وان قهرته هلك وبناء عليهِ عرِّف المرض بانه جهاد بين المكروب والجسم المنتشر فيه . واغرب الدكتور كوخ في مكتشفاته الكثيرة من هذا القبيل لانهُ هو الذي اكتشف باشلس (أنبوبيات) التدرن في السل والبرص وجرثومة الهواء الاصفر والحميات الغَمِقيّة[1] وجرى بعد ذلك الباحثون شوطاً بعيداً في هذا المضمار فكشف لُفلر[2] جرثومة الخناق وبين يرسن وقيتازاتو الياباني جرثومة الطاعون وما زالوا يتسابقون في الاكتشافات من هذا القبيل

١ بالنسبة الى الغمق وهو من الاماكن الذى يبلله الماء . يقال نبات غمق لريحه خمة وفساد لكثرة الندى . وهو المراد بالملاريا كلمة طليانية مركبة من Mala ردى و aria هواء

2 Löffler

ويستنبطون العلاج بالمصل لقاحاً على طرق بديعة نجح بعضها ولم يزل البعض الآخر موضوعاً لتحقيق المجتهدين

نبذة خامسة

في الطب الحديث عند الشرقيين

اذا استثنينا امة اليابان من الشرقيين لا نرى في الشرق على اتساع ممالكهِ وكثرة سكانها امةً يجاري اطباؤُها اطباءَ الغرب ويبارونهم في حلبة التقدم بل لا نرى في دُوَل الشرق اجمع دولة يصحُّ لابنائها ان يفاخروا غيرهم بفضل طبيبٍ نبغ فيهم لهذا العهد فابدع رأياً يُعوَّل عليهِ اوكشف عن حقيقة يعتدُّ بها كما تفاخر امم أروبا بعضها بعضاً بعلمائها وأطبائها ذوي الابداع والاختراع وما ذلك الأَّ لان الشرقيين على الجملة من رؤساء ومرؤسين قد ترفعوا عن العالم الهيولاني وتاهوا في فيافي الخيال فجعلوا الروساء آلهةً او ممثلي الآلهة او ظل الاله المعبود فهم لا يزالون على ما كان عليهِ الناس لاول عهدهم بالمدنية من تقديم الاكرام والسجود لهذه الاشباح التي توهموا ان لها قوةً تردُ اليها من السماء فلا بدع ان استهان الرؤساء بمرؤوسيهم واتخذوهم عبيداً يتحكمون فيهم وفي ارواحهم كما يشاءُون ولا غرو

ان رزح المرؤوسون تحت نير الاستبداد واعتمدوا على رؤسائهم لا على انفسهم في تدبير شؤونهم واستسلموا للمقادير ولم يتحولوا عن خطة التحدي والتقليد . واذا كان الرئيس يرى ان لا مطالب له في ما يعمله ولا دَرَكَ عليه في سياسته وانه لا يتحمل تبعة خطله وخطائه فماذا يمنعه ,,وهو انسان،، من اتباع شهواته ومطامعه او ماذا يدفعه للسهر على مصلحة الامة وسِنَةُ النعاس غالبةٌ عليه وكيف يطيق صاحب السلطة ولاسيا اذا لم تكن مقيدة ان يرى الناس,, وقد خلقوا لاجله على ما يعتقد،، راغبين في الحرية فلا يصدُّهم عنها وكلٌّ يسعى الى مصلحة نفسه وانما العاجز من لا يستبدُّ . هذا هو سبب تأخر الشرقيين وليس كما يتوهم البعض من ان عقول الاوربيين على الجملة اكمل عن عقولهم وانهم اشدُّ نباهة واعظم كَيساً بفطرتهم الاولى وان نفوسهم الناطقة اكمل بفطرتها من نفوسهم وان التفاوت بينهم واقع في حقيقة الانسانية

وقد وضح ان الاوربيين لم يبلغوا هذا المبلغ العظيم من الترقي والنجاح الا بعد ان عتقت افكارهم من ربقة العبودية ونشطت احلامهم من قيود التقليد وهذه هي امة اليابان يشهد ترقيها العجيب في مدارج المدنية والعمران منذ مدة قريبة على ان النجاح لا يُعلَن ان لم يُمطْ عنهُ حجاب التقليد ويرفع برقع

الوهم · فلا يخفى ان هذه الامة المغولية المنشأ الصينية اللغة والمعتقد كانت من اشد الامم حرصاً على تقاليدها القديمة حتى منعت الاجانب من الدخول الى بلادها لئلا يميل اهلها الى الاحداث وسنت الاحكام الشديدة القاضية بقتل كل من يخالطهم او يكون وسيلة لمخالطتهم ويتعلم لغتهم ولم تؤذن الا لفئة من الهولنديين بعد ثورة سنة ١٦٣٩ ان تقيم في طرف من الجزيرة يسمى ديسيما · واتفق ان طبيباً وطنياً اسمهُ سوجيتا فوساي عثر في بعض الايام على كتابين في علم التشريح يتضمنان صور الاعضاء واشكالها فنظر فيها نظر المتأمل اللبيب ولم يكن يعرف اللغة الهولندية فاخذت تلك الصور بمجامع لبهِ الا انهُ وجد فيها فرقاً عما كان تعلمهُ من مبادىء التشريح النظري اخذاً عن الصينيين فحملهُ ذلك على البحث والتنقير ليتوضح اي العلمين اصح أعلمُ الصينيين ام علم الهولنديين وشاقهُ طلب الحقيقة الى تعلم اللغة الهولندية فأسرَّ نجواهُ الى صديق له من مواطنيهِ يسمى مَيدا ريوتاكو وكان هذا طبيباً محباً للعلم حريصاً على طلبه راغباً في التعلق باسبابهِ فوافقهُ على ما قصد الا انهما خافا تبعة الامر اذا شاع عنهما انهما يخالطان الهولنديين ويتعلمان لغتهم · ثم انضم اليهما صديق آخر كان يعرف حروف الهجاء

انشاء مثل هذه المدارس للمصريين على امل ان ينبغوا فيها كمن يحاول ان يجتني من الشوك عنباً لان هذا المنحى لا يلائم امةً لم تزل قاصرة ولم تخرج عن وصاية القيّم عليها . . . . ومما يؤاخذ به هذا المورخ اتهامهُ الاساتذة بالخداع قال ,, انهم لم يقتصروا على خديعة التلامذة ولم يكتفوا بالكذب على محمد علي باشا بل تطاولوا الى خديعة الزائرين من عظماء الافرنج الذين كان يتباهى محمد علي باشا امامهم باعماله المجيدة ولاسيما بانشاء المدارس فيرغب اليهم بزيارة المدرسة ليشهدوا لهُ بالفضل وحينئذ كانت التلامذة يُعرضَون عليهم ويفحصون باللغة العربية فتترجم الاجوبة التي كانت تُلقَّن لهم من قبل على نحو ما يشاء المترجم الى ان قال ,, ان ابراهيم باشا لما كان في سوريا طرد من الجيش الاطباء الوطنيين الذين أُرسلوا اليهِ لانهم عوَّهوا الجرحى الذين نُدبوا لمعالجتهم على ما كتب الى ابيه . ثم حكى عن الذين أُرسلوا الى باريس للتخرج في العلوم والفنون وان ذلك كان بقصد التمويهِ للتخلص من تبعة التقصير الحاصل فأُنشيء الوفد المصري مؤلفاً من شبان ورجال لم يكن همهم الا الحصول على المراتب والرواتب واقتناء الجواري والسراري والتنعم في سكنى القصور . وتفنن ماشاء في التعليل عن ضعف قابلية المصريين للترقي في العلوم والمدنية

ناسباً ذلك الى الفطرة والعادة والتعصب الديني ورسوخ اثر العبودية في اخلاقهم الى غير ذلك · وزعم ان الوفد المذكور عاد الى مصر وبضاعته الادعاء الفارغ وشيء من معرفة اللغة الفرنسوية وبعض مبادىء العلوم · وقد أحسن ملتقاه لما أشيع عنه من النجاح فتظاهر بمظاهر العظمة وحمل على مديري المدارس الاجانب فعمت المساجلات والمشاحات بين الفريقين · وكان ذلك سبباً لانحطاط التعليم وحجر عثرة في سبيل نشر العلم وتعميمه

اما ما تحامل به هذا المؤرخ على المصريين فظاهر من تسميته اياهم تارةً بالفلاحين وطوراً بالعرب على سبيل التحقير كأنه لم يعلم ان علماء أمته يجلون هذا الاسم ويعتبرون السلالة العربية اكرم مما سواها محتداً وارفع مما توهم شأناً · وكثيراً ما مزج بين الترك والعرب والفلاحين في تحامله · واذا لم ينجح المصريون الذين تخرجوا في مدارس باريس وكانوا على ما اتهمهم من ضعف المدارك المموهة بطلاوة الحديث وخفة الحركة وسهولة المحاكاة فما سبب سبقهم في حلبة المناظرة وحصولهم على شهادات المدارس العليا ؟ وقد ذكر كلوت بك [1] انه بعد انشاء مدرسة الطب في ابي زعبل بخمس سنين انهى كثير من التلامذة دروسهم

1 Aperçu Général sur L' Egypte par Clot- Bey; T· II P. 414

فعينوا في المستشفيات العسكرية مساعدين لاطبائها الاوروبيين وانتخب منهم ثمانية لاعادة الدروس في المدرسة على الطلبة وأرسل اثنا عشر الى باريس للتخرج في مدارسها . فقدموا الفحص باللغة الفرنسوية تجاه مجمع العلوم وحصلوا على شهادة الدكتورية سنة ١٨٣٣ " فان احتجَّ بما يزعمهُ الان كثيرون ان المدارس الفرنسوية تتساهل مع الشرقيين لانهم لايمارسون في بلادها وبين ابناءوطنها فالحجة قائمة على هذهِ الامة التي ينتسب اليها هذا المؤرخ لمحاباتها في الوجوه وعدم وفائها حق العلم وليس ذلك من شرف المبدإ وحرية الضمير . على انا اذا نظرنا الى الحقيقة نرى ان هذه المدرسة الملوكية لم تتدرج في سلم الكمال ولم ترقَ الى المرتبة التي اعدَّها لها مصلح الامة المصرية مع افتقار البلاد اليها وعدم وجود مزاحم لها في بابها وقد تولى ادارتها الوطنيون مدة ليست قصيرة فما سبب استهانة الاجانب بها وما الموجب لخروجها الآن من يد الوطنيين وابدال لغة الوطن باللغة الانكليزية

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا انيسٌ ولم يسمر بمكة سامرُ
بلى نحن كنا اهلها فابادنا صروف الليالي والجدودُ العواثرُ

اما المكتب الطبي السلطاني في الاستانة فمرجع الفضل في انشائه الى السلطان محمود الثاني . واساتذتهُ من الاطباء الاوربيين والاتراك

المشهود لهم بالبراعة والفضل . ولغة التعليم فيه التركية . وقد تُرجمت الى هذه اللغة مصنفات كثيرة من احسن المصنفات الحديثة في جميع فروع علم الطب . وهو المدرسة الوحيدة المعتبرة شهادتها في جميع المملكة العثمانية والمقبولة في عرف النظامات الدولية عند الاجانب

ويلحق بهذا المكتب مدرستان كليتان أُنشئتا حديثاً في مدينة بيروت الاولى امركانية تقوم بادارتها لجنة من المرسلين الانجيليين والثانية فرنسوية يتولاها الآباء اليسوعيون وقد نبغ في كلتيهما جمهور من الاطباء الوطنيين ممن يعوّل على معارفهم في ممارسة الصناعة الطبية . اما المدرسة الكلية الامركانية فقد اعتمدت على اللغة العربية في التعليم عدة سنين وترجم اساتذتها كتباً كثيرة مفيدة لم تزل من احسن الوسائل لنشر المعارف بين العموم ولكن الثورة التي حدثت من تلامذتها لاسباب لا يجمل ذكرها ادّت الى ابدال اللغة العربية باللغة الانكليزية فحُرم الوطن من فوائد المؤلفات التي كانت تتحف بها ابناءه

نبذة سادسة

في تكافل الاطباء بما يرقي الطب

ومما امتاز به الاوربيون التكافل الاجتماعي وهو ان يقوم

أمانيهِ واماني الدولة الفرنسوية فتمَّ له ذلك وفي سنة ١٨٢٦ عين الخديوي موسيو جومار زعيماً على الوفد الاول الذى امر بارسالهِ الى فرنسا على نفقة الحكومة المصرية وكان موءلفاً من اربعة واربعين فتى تعين بعضهم لدرس الفنون الحربية والادارية والسياسية والملاحة وآخرون للطب والجراحة وغيرهم للزراعة والمعادن والتاريخ الطبيعي والكيمياء والري وصبّ المعادن والحفر الخ وجرت الحكومة المصرية على هذا النحو سنة فسنة فكثر طلاب العلم من المصريين في فرنسا وفي الزمن القصير استقل هولاء الذين تمخضت بهم مصر بمناصب الحكومة المصرية فكانوا عوناً للدولة الفرنسوية على بسط سطوتها في وادي النيل''

ومعلوم ان بونابرت القائد العظيم لم يحتلّ بجيشه ارض مصر الا مدة قصيرة مع ما تظاهر به هو واتباعهُ من الاستمساك بعروة الدين المحمدي ومحالفة الدولة العثمانية واضطهاد خدمة الدين المسيحي الى غير ذلك من المزاعم التي توهم بانهُ يتزلف بها من المصريين لرسوخ قدمهِ بينهم فكانت كالخط على صفحات الماء اما جومار فانهُ بلغ بدهائه مالم يبلغهُ بونابرت بسيفهِ . ثم سعى كلوت بك بانشاء مدرسة الطب بعد ان تعين رئيساً لاطباء الجيش المصري فتمَّ افتتاحها في ابي زعبل سنة ١٨٢٧ وانشيء

مجلس الصحة على مقتضى النظام الفرنسوي وعُهد بتدريب الجند على الفنون الحربية لضباط من الفرنسويين فانتشرت اللغة الفرنسوية وامتدت سطوة الفرنسويين في وادي النيل الى اليوم

ولا يؤخذ مصلح هذه الامة الطيب الذكر محمد علي لاستئناسه بالاوربيين واحتفائه بالفرنساويين وقد اقتضت عزيمته الشماء وسياسته الحكيمة النهوض بهذهِ الامة الى ذرى المجد ولم يجد سبيلاً لذلك الا باستئصاله شأفة الفساد وتقرير مبادىء الاصلاح على قواعد متينة ولم يكن لديهِ من الرجال المحنكين الخبيرين من يعتمد عليه في تدريب عسكره على النظام الجديد الذي آثر ان يبدأ بهِ الاصلاح الذي نواهُ

ولو وجد في الامة المصرية حينئذ أكفاء لهذا الامر الخطير لما رغب عنهم بسواهم . على انهُ مع ذلك لم يأمن من الفتن والدسائس فاضطر ان يبعد الكتيبة التي عبأها لتتدرب على الفنون الحربية الحديثة عن القاهرة ولم يجد مكاناً موافقاً لاقامتها الامدينة قنا من الصعيد . وبعد ان تمّ لهُ الامر على ما يروم عين كلوت بك رئيساً على اطباء الجيش وأنشأ في ابي زعبل المستشفى الاميري ثم بدا لهُ ان يلحق بهذا المستشفى مدرسة طبية على ما اشار بهِ كلوت بك فقرر ذلك وأجراه مع ما كان يحول

دونهُ من العقبات ولا سيما بالنظر الى تحريم التشريح واختيار لغة التعليم

وبعد ان استتبَّ لهُ الامر وسرَّ بنجاح قصدهِ عمد الى نقل مدرسة الطب ومستشفاها الى القاهرة وعين لها قصر العيني وجعل البناَء في ابي زعبل مدرسةً اعدادية لتعليم العلوم والفنون وانشأ في الاسكندرية مدرسة على هذا النحو. وعُني بتعليم العلم ونشرهِ فانشأ المدارس الاولية في جميع انحاَء القطر المصري وجعل مدة التعليم فيها ثلاث سنين ليترشح التلامذة في نهايتها للدخول الى احدى المدرستين الاعداديتين المذكورتين آنفًا وقد تقرر ان تكون مدة الدرس في كل منهما اربع سنين فبلغ عدد الطلبة في السنة تسعة الاف تلميذ كانت الحكومة المصرية تقوم بنفقة تعليمهم ونصرف لهم ثمن الطعام والكساء ومع ذلك عينت راتبًا شهريًا لكلّ منهم تزداد كميتهُ من سنة الى اخرى

وقد نبغ في مدرسة الطب المصرية جمهورٌ من الاطباَء والجراحين الذين وضح فضلهم في مصر وسوريا وترجموا الى اللغة العربية كتبًا كثيرة في جميع فروع علم الطب طبعت بمطبعة بولاق التي انشأها فقيد مصر لنشر العلوم وتعميم المعارف ولما كان الاساتذة الذين عُينوا لتدريس العلوم الطبية في المدرسة

المذكورة لا يعرفون اللغة العربية خُصِّص لهم مترجمون ينقلون الى التلامذة الدروس التي تُعطى لهم بلغتهم العربية

فيرى مما تقدم ان محمد علي باشا استمسك بأقوى اسباب الترقي للنهوض بالامة المصرية من وهدة الانحطاط. وسواء نحا من تلقاء نفسه تحويل ,, الفلاحين '' الى اطباء ومهندسين واداريين وسياسيين او كان هذا المنحى موعزاً اليه من احد الاجانب كما زعم بول موريان صاحب تاريخ محمد علي[1] فالغايةُ من اجلّ ما تصبو اليه النفوس الكريمة والوسيلةُ اليها من افضل ما يسعى اليه الكرام. ولا يلام مصلح هـذه الامة ان لم تحقق امانيهُ على ما ينبغي او حال دون تحقيقها دسائس المتكسبين ممن القوا بساحته عصا الترحال فأحلهم على الرحب والسعة فكان من امرهم انهم تبسطوا بماله او بمال الامة وتحكموا بهما وانقلبوا عليها بالشتائم والطعن وكذا شأن الاشرار ولله درّ افلاطون حيث قال ,, لا تصحبوا الاشرار لانهم يمنون عليكم بالسلامة منهم ''

وقد ندد بول موريان المذكور بالذين اشاروا على محمد علي باشا بانشاء المدارس العليا في مصر قال ما ملخصهُ ,, ان

[1] Histoire de Méhémet - Aly, par Paul Mauriez; T. III; ch . XXVI — XXVII

كلٌّ واحد من اعضاءِ المجتمع الانساني من حيث هو اصيلٌ عن نفسه بعمل خاص به يشترك فيه مع آخرين على سبيل التعاضد والتعاون للمحافظة على كيان هذا المجتمع وبقائهِ وتقويتهِ وغنائهِ ودفع ما يطرأ عليهِ من اسباب الخلل فيكون كلٌّ واحدٍ منهم مستقلاً بذاته في عملهِ رشيد نفسهِ في جلب المنفعة الشخصية ومكافئاً للاخرين في عملهم يؤازرهم على القيام بما تعين على كل واحد منهم عملهُ فيتكافلون جميعاً باجراءِ ما تقوم بهِ المصلحة العامة التي هي حق مشتركٌ شائعٌ نصيبُ كلٍّ منهم فيها كنصيب غيرهِ على السواءِ ولذلك ترى اعضاءَ المهنة الواحدة متكافلين فيما بينهم متكافئين في عمل كل واحدٍ منهم على نظام يكفل النجاح والنماءَ والبقاءَ في الخصوص والعموم وليس للحكومة دخلٌ في شؤونهم الا بمقدار ما خولوها لاجراءِ هذا النظام. اما الشرقيون فلا تكافؤَ بينهم ولا تكافل لان الواحد منهم يعدُّ نفسه سيداً لمن دونهُ وعبداً لمن فوقه فينتج عن ذلك استبداد القوي بالضعيف وفقد الاستقلال الذاتي والحرية ونتيجة ذلك موت الجامعة الوطنية ولذلك كان اعتمادهم على رؤَسائهم كاعتماد القصّر على اوصيائهم. على ان القصّر يخرجون عن حكم الوصاية في سن البلوغ والرشد اما الشرقيون فلا يزالون كالقصّر ولو بلغوا سن البلوغ لانهم لا يرشدون. الم يصيروا احراراً

يستطيعون هدم حائط العداوة المتوسط بين فرقهم المختلفة فلا غرابة ان استكانوا للذل وآثروا السكون على الحركة والكسل على العمل والخمول على النهضة . خذ مثلاً صناعة الطب فترى الطبيب الفرنسوي بعد ان تخرج في العلم وحصل على الشهادة المؤذنة بكفاءته وخوّل حق ممارسة الصناعة الطبية بين ابناء وطنهِ لا يقصر همهُ على التكسب مكتفياً بالعلوم التي حصلها في المدرسة ولكنه يرى باب النجاح مفتوحاً يتزاحم عليه المتسابقون والسابقون منهم الجياد فيدخل في غمار القوم حيث يتاح لهُ ان يفيد ويستفيد ويشارك في ارآئه اهل المهنة التي انتظم في سلكها فيتذاكرون في مجتمعاتهم وكلٌّ منهم يعرض بضاعة علمه ويكشف عما بدا لهُ في ممارسة صنعتهِ مما انفرد بتوضح حقيقتهِ او امتاز بابداعهِ أو عنَّ لهُ ان ينكره فيناقشهُ عليهِ المجتمعون حتى تنجلي الحقيقة وحينئذٍ تنشر اخبارها الجرائد والمجلات فتجوب اقطار العالم ويطلع عليها من شاء في كل قطر ومصر فمن وجد فيها خللاً فاصلحه او نقصاً فكمله او اشكالاً فحلهُ عدَّ ذلك لهُ مأثرةً تذيع فضلهُ وتخلد ذكرهُ . ولا يخفى ما في ذلك من دواعي الشهرة التي تُحثُّ اليها مطايا الاجتهاد . فالعلامة بستور لم يكن شيأً مذكوراً قبل ان اذاعت الجرائد خبر اكتشافهِ جراثيم الاختمار ونشرت المجلات

العلمية مباحثه في التولد الذاتي وما كان من مناقشة العلماء له في هذا الموضوع حتى حصحص الحق وزال الريب بعد بحث طويل اشترك فيه جميع علماء اوربا في هذه السنين المتأخرة فلا غرابة اذاً ان كانت الجرائد والمجلات والجمعيات العلمية من اقوى الاسباب التي ترقت بها العلوم ولاسيما الطبية في بلاد اوربا منذ عهد قريب وقد شهد بستور في حفلة خصصت لتكريمه بان مرجع الفضل في انتشار العلوم بسرعة غريبة للجرائد والمجلات وان اخبار المكتشفات والمخترعات المفيدة كانت الجرائد السياسية قبل ثلاثين سنة تنشرها للعموم فصارت الآن من شؤون المجلات المخصصة للعلوم والطب والفنون

والتصانيف والمجلات التي تنشر في كل سنة في مدن اوربا تدلُّ على ما هنالك من حركة الافكار الدائمة وترقي العقول الى درجة تقف دون وصفها القرائح كليلة . اما المجامع والندوات العلمية والطبية فحدّث عنها ولا حرج وفي تأليف الجمعية الطبية الانكليزية عبرة للمعتبر . وذلك ان بعض الاطباء من الانكليز ائتمروا على مقاومة الدجالين فتالفوا سنة ١٨٣٢ جمعية انضوى اليها نحو الخمسين منهم وقرروا ان يجتمعوا مرةً في السنة في احدى المدن الانكليزية وفي السنة التالية بلغ عدد اعضائها ١٤٠ وتقرر نظامها

ومن مقتضاه أن كلَّ عضو ملزوم ان يقدم خطاباً او تقريراً عن حالة الطب ونجاحه في كل سنة . وما زالت هذه الجمعية تنمو وتتسع نطاقها حتى بلغ اعضاؤها سنة ١٨٨١ تسعة آلاف ومائتين واثنين وقسمت الى فروع الجراحة وامراض النسآء وعلم منافع الاعضآء الخ وانشأت المجلة المنسوبة اليها وهي من اعظم المجلات الطبية اعتباراً واكثرها انتشاراً . ومن اعمالها انها قررت في سنة ١٨٦٩ المداخلة في ما يختص بالمنافع العامة وانفذت الى الحكومة لائحة تطلب بها اصلاح بعض الامور فاجابت طلبها ومنذ ذاك الحين تقرر لها حق المداخلة رسمياً في اجرآء الوسائط الصحية والتدابير الطبية

ولكل أمة اوربية جمعيات من مثل هذه الجمعية ينضوي الى كلٍّ منها جهابذة كلّ فن حتى انهم اختصوا كل فرع من فروع العلم بجمعية خاصة كما هو معلوم بل انهم اختصوا ببعض مسائل جمعيات تقتصر على ايضاحها لما لها من الاهمية كجمعية السل والجمعية التي نظم فرائدها الاستاذ فورنياي[1] مؤخراً في باريس لدفع مضار الدآء الزهري ولم يتعين اعضاؤها من الاطبآء خاصة بل انتظم في سلكهم جمهور من الفقهآء وذوي المناصب العالية وخدمة الدين وغيرهم ممن لهم شأن في خدمة الانسانية. فهل اهتمَّ

(1) Fournier

احد المصريين بشيء من هذا القبيل ؛ هذا فضلاً عن الجمعيات العمومية التي تشترك فيها دولهم كلها وتحتفي باعضائها كلُّ مدينة يجتمعون فيها على التعاقب لان كل فريق منهم يمثل امتهُ ويسعى لترقي العلوم والمدنية أفلا تنظر امم المشرق الى هذا التكافوء والتكافل ؛ وفي الاختلاف الجاري بين اطباء مصر على تأليف المؤتمر الطبي عبرة وذكرى

وفي طريقة انشاء الاوربيين هذه القصور الشاهقة التي نسميها بالمستشفيات وهذه الدور الفسيحة المعروفة بالمتاحف التي تودع فيها نفائس الكائنات وهذه الملاجيء للشيوخ والايتام وهذه المعامل لاجراء التجارب الطبيعية والكيماوية والطبية وغيرها برهانٌ واضح على فوائد التكافل الاجتماعي لان جميع هذه المنشآت الخطيرة انما يقوم بها افراد كلّ امةٍ منهم فيشترك فيها كل من آثر عمل الخير ومحبة الوطن لان فوائدها تؤول الى جمهور الامة التي يفتخر بالانتماء اليها كل واحد منهم ويفاخر بها غيرهُ من الامم الاخرى بل كل عمل خطير لا يستقلُّ به العامل الفرد ولا يستتبُّ اتمامهُ للرجل الواحد انما يقوم بهذه الشركات التي تتفاوت في عظمتها تبعاً لتفاوت مقاصدها فاين الشرقيون من مثل ذلك وهم قد اجمعوا على ان لا يجتمعوا واتفقوا على ان لا يتفقوا واذا أتيح لهم وجود رجل مفرد

في عزيمته وأنفته كمحمد علي باشا يهيئ لهم سبيل التقدم ويفتح ابواب النجاح عُدَّ ذلك من الخوارق فلا تلبث اعماله المجيدة حتى تزول بفقده فلا يبقى الا ذكرها يدونها التاريخ بمداد الاسف

الفصل السادس

في فوضى اطبائنا وواجبات الاطباء ورد شبهات ترد على الطب

نبذة اولى

في فوضى الطب والصيدلة في مصر وسوريا

لا يصلحُ الناسُ فوضى لاسراة لهم ولا سُراةَ اذا جهالهم سادوا

هذان القطران مصر وسورية مرتبطان بحقوق الجوار وجامعة اللغة ومُنيان بعوامل التفريق ودواعي الانحطاط نصيبُ كلٍ منهما كنصيب الاخر. تغلب الفاتحون عليهما في ازمنة متفاوتة حتى استقلت بهما الدولة العثمانية واستتب لها الحكم عليهما وعقدت مع الدول الاروبية معاهدات تجارية كانت نتيجتها ما نراه من انتشار الاروبيين في مدنهما ومزاحمتهم السكان الاصليين وفوزهم على هذه الفئة المؤلفة من اجيال شتى استحكمت فيها عوامل التفريق لاختلافها في المنازع والعقائد الدينية ورسوخ اثر السلطة الاجنبية عليها وعدم انتظام مجتمعها المدني. ولكن القطر المصري استقل بحكومته

بعد ان تولاه محمد علي باشا مع بقائه خاضعاً لسيادة الدولة العلية بمقتضى الفرمانات السلطانية والمعاهدات الدولية وقد رسخ قدم الاوروبين فيه وكثرت طوارئهم في مدنه والمورد العذب كثير الزحام ولكل طارئةٍ مجتمع خصوصيٌّ مستقلٌّ بنفسهِ تتولَّى سياسته هيئة تمثل الدولة التي تنتمي اليها ولكل دولة قوانين خصوصية لا يسري مفعولها على غير تبعتها ونتيجة ذلك تعدد الحكومات في المدينة الواحدة على مقدار تعدد الدول المختلفة

واطباء مصر وسوريا وصيادلتها اكثرهم اجانب وكلهم قد تخرَّجوا في مدارس الاجانب الا بعضاً من الاطباء المصريين الذين تلقوا دروسهم في مدرسة القصر العيني . ولما كان الوطنيون ممتهنين من الاجانب وليس لاحدٍ منهم كرامة عند ابناء وطنه انفسهم اضطروا للانضواء الى الاحزاب المتباينة كلٌّ منهم يغني على ليلاهُ فصار عمرو ينتمي الى الانكليز وزيد الى الفرنسويين وخالد الى الالمانيين وبكر الى الامركانيين والاخر الى الطليان او اليونان او الاسبان وهلم جرًّا . وليس احد ينتمي الى وطنهِ الا مستمسكاً بأهداب التعصب فيتخذ الواحدُ من الاسلام حزباً والاخر من القبط وهذا من الارثوذكس والاخر من الكاثوليك.... وكل دولة لها مصلحة في الشرق تهتم بانفاذ مآربها بواسطة مريديها من الشرقيين . واكثر الدول اهتماماً

بذلك في الشرق الادنى الدولة الفرنسوية فلا بدع ان حاولت بسط سطوتها ونفاذ كلمتها وبلوغ امانيها بما تبديه من التودد للمصريين والسوريين كما يرغب الانكليز الان في التقرب من المصريين. وغيرهم يحاولون مثل ذلك. ونتيجة الامر اضافة التحزب السياسي الى التحزب الديني وفقد الشعائر الوطنية

ومصيبة العامة بالاطباء من اهم ما يقتضي الانتباه اليه ولكنها تقع كالقضاء المحتوم فلا احدٌ ينتبه اليها ولو وجب الدرك على الاطباء والصيادلة وطولبوا بغوائل اهمالهم أو جهلهم لصلحت الاحوال كثيراً. حكى ان احد الظرفاء من مشخصي الروايات وقف مرة على دكة المرسح والتفت الى الجمهور فقال "تهزأون بي لاني لاأجيد التمثيل فلا أتخذ مهنة تودي بحياة الالوف منكم" يعرّض بصناعة الطب لان قلّى الاطباء لا يودون واقل خطإٍ في تشخيص العلة ووصف العلاج يؤدّي الى هلاك المريض ولكن عامة الناس لا يعلمون أمات المريض من اصابة الاقدار او من خطإ الطبيب . وليس في الصنائع كصناعة الطب صناعةٌ تموّهُ بها الحقائق وتجوز الاوهام فيرين بها الممخرقون على عقول البسطاء ويتلاعبون بار واحهم واموالهم ولاسيما اذا كانوا من هؤلاء الذين اتخذوا الصناعة آلة للتكسب لا للتطبب ...

ولقد اجاد ابن بطلان في حديثه عن الممخرقين بهذه الصناعة

فوصفهم بما ينطبق على احوالهم في هذا العصر لولا تبدّل احوال المعائش والملابس وطرق التحصيل وغير ذلك مما يتبع احوال العمران ويختلف باختلاف الزمان

ومما اجاد بوصفهِ ما يجري عليه بعض الصيادلة في ترويج بضائعهم بان يشترك احدهم مع طبيب يقاسمهُ من ثمن الدواء فيتفق كلاهما على غش الناس وخداعهم . ومن الغريب ان يحدث مثل هذا الامر في هذا العصر في بلاد دستورية ويُسكت عنهُ ولكن الحكومة لا تستطيع اصلاح مثل هذا الخلل ولا غيرهِ لانتماء الصيدليات الى الدول المختلفة فهذه انكليزية وتلك فرنساوية والاخرى المانية اوامركانية اوطليانية الخ ومع ذلك فان لكلٍ منها قانوناً خاصاً تجري عليهِ في تركيب الادوية فتختلف جرعاتها بموجبه اختلافاً مهماً ربما اودى بحياة المريض اذا لم ينتبه الصيدلي الى هذا الامر

ومما لا يجمل السكوت عنه تغاير الصيادلة وتزاحمهم على موارد الكسب الى حد ان يبيع الواحد منهم الدواء بنصف قيمتهِ الاصلية وما ذلك الا لانهُ نقص من الكمية الفعالة او ابدل مادة باخرى ومثل هذا الغش لا يصدر الا عن خسارة الصيادلة على ان هنالك امراً يستوي فيهِ الجميع وهو مضاربة التجارة فكل صيدلي

يرغب في التوفير بمشترى العقاقير والمواد الطبية من اي معمل كانت تعريفة اثمانه ارخص من غيره وقلما يبالي بالنقاوة وجودة التركيب. واذا كان يحدث مثل ذلك في صيدليات المدن العريقة بالحضارة والمدنية وحفظ النظام فما ظنك بمدن مصر وسورية ؟ ففي مملكة بلجيكا تعين الحكومة لجنة لفحص الصيدليات في كل سنة ومنذ مدة قريبة قدمت هذه اللجنة تقريرها للحكومة عن سنة ١٩٠٠ فنشرته في جريدة الصحة العمومية ومما جاء فيه ,, الحديد المحوّل بالهدروجن هو على الجملة غير نقي يحتوي على مواد كبريتية ولا يشتمل الا على ٤٠/١٠٠ من الحديد المحول بدلاً عن ٨٩ وسيال فولر هو على الغالب فاسد لا يوافق تركيبهُ القانون وصبغة اليود لا تشتمل غالباً الا على ٣٠ او ٤٠/١٠٠ من اليود بدلاً عن ٧٠/١٠٠ '' الى غير ذلك مما كشفت عن الغش فيه وبلغت صفحات قائمتها اكثر من خمسين فهل تستطيع الحكومة في مصر وسوريا ان تجري مثل هذا الفحص في بلادها على صيادلة الاجانب ليكون الاطباء على بصيرة مما يصفون للمرضى ويعلم الصيادلة بانهم مطالبون بما يبيعون وبما يشترون وانما هم بارواح العباد يتجرون

نبـذة ثانيـة
في صـفات الاطبـاء

ويجمل بنا ان نلمّ هنا ببعض الصفات التي يجب ان يكون عليها الطبيب المداوي وهو بحث افاض به القوم قديماً وحديثاً ووضعوا له قوانين يجرون عليها في غير مصر وسوريا حيث تعرف قيمة النظامات والقوانين ويحكم الوجدان ويراعى شرف الصناعة على انا لا نتصدى فيما نذكره من هذا القبيل الا لما يعتبر به الجمهور

قال احد اطباء العصر الافاضل ما محصله [1] ,,يشعر الطبيب بالتغيرات المرضية في بدن العليل بحواسه الخمس فوجب ان تكون هذه الحواس سليمة فيه على ان هذا الشعور انما يُدرَك بالعقل الذي يتدبّر به عمل الحواس نفسها ويزكن الامور التي توصلها اليه ويميز بين صحيحها وفاسدها فيعطي كلّ شيء منها حقهُ ويحله محلهُ ولذلك وجب ان يكون عقل الطبيب سليماً صحيحاً رجيحاً لا يكبّر الامور الحقيرة ولا يصغر الامور الخطيرة والا كان استدلاله ناقصاً وقياسه فاسداً وعلى ذلك يتوقف "حذق" الطبيب وبه تُعرف براعته ويظهر فضلهُ وتذكر مهارتهُ فالحذق اذاً خاصةٌ يوحى

1 Traité de Diagnostique et de Séméiologie; par C. Bauchut

بها تشخيص العلل لبعض الاطباء فيدركوا لاول وهلة الدلائل التي تميز بها علة عن علة . واذا نظرت الى الاطباء عموماً وجدتهم يتفاوتون في مراتب الحذق فهل هو من خصائص الفطرة او شيء مكتسب بالدرس والممارسة ؟ مسئلة لا يصعب حلها اذا عرفت ان الناس يختلفون بعقولهم كما يختلفون بوجوههم فترى اثنين كلٌ منهما يقارن الآخر في عمره ومعاشهِ وتربيتهِ اذا تعلما في مدرسةٍ واحدة مدة معينة ينجح احدهما ويتبلد الاخر ومثل ذلك يقال عن الاطباء ولو صدروا كلهم عن مورد واحد . على ان الدرس والممارسة يلطفان ولاشك هذا التفاوت „

„ويجب على الطبيب المداوي ان يكون نزيهاً عفيفاً رصيناً ونعني بالنزاهة ان لا يبدر منه ما يحمل على الظنة به لانهُ لا يجمل بالطبيب ان تتنابهُ المآرب اذا شاء ان يكون حكمهُ سديداً . ويجب على الطبيب ان يكون لدى سرير المريض غير هياب ولا مضطرب البال لان الطبيب الجبان لايملك امر نفسهِ فهو ابداً متذبذب متردد بين الشك واليقين كما ان الطبيب المضطرب البال لا يقوى على التجرد لممارسة الصناعة والاعتناء بعليله لانهُ يفقد حريتهُ ويضيع انتباههُ ولاشيء يحمل على اضطراب البال مثل الاشتغال بالمضاربات ولعب القمار . . . .

,, ويجب عليه ان يكون صبوراً رزيناً بعيداً عن التوهم صادق اللهجة لايبتغي الكسب الا من اوجهه المحللة . هذه هي خطة الاطباء الافاضل اما المخرقون الذين يعتمدون على الادعاء والتمويه لرواج بضاعتهم فانما هم بمثابة الاثمار الخميجة تسقط من الشجرة الزكية وكم من اسرة كريمة لا يتدنس عرضها بنشوز فرد منها ''

والطب علم وعملٌ فعلم الطب يراد بهِ معرفة الامراض بما تحدث عنه اي الاسباب وما تُعرَف بهِ اي الاعراض وما تميز بهِ اي التشخيص وما تؤول اليه اي تقدمة المعرفة اوالانذار وكل ذلك يستلزم التعمق بمعرفة جميع فروع علم الطب لان معرفة العلل لايمكن الحصول عليها بدون معرفة منافع الاعضاء في حالتي الصحة والمرض وعلم منافع الاعضاء مرتبط بعلم التشريح وهذا العلم يفتقر الى علوم الكيمياء والنبات والحيوان وكلها محتاجة الى العلم الطبيعي وهو مرتبط بالعلم الرياضي ٥ وعمل الطب العلاج بواسطة وبغير واسطة فيدخل فيهِ ما يتعلق بعلم حفظ الصحة وتدبير المرضى ووصف الدواء والجراحة وكل ذلك يقتضي ان يكون مبنياً على اساس العلم المتين فوجب ان يكون الطبيب عالماً عاملاً والذين يمارسون الصناعة بدون علم هم دجالون

ولما كان الطبيب موءتمناً على نفس مريضه وجب ان يعامله

بعاطفة الشفقة والحنوّ كأنهُ يشاركهُ فيما يشكوهُ مهتماً بشفائه كما يهتمّ لنفسهِ سالكاً بالصدق والامانة فيما يستعملهُ وما يجيب بهِ على الاسئلة مما لا بدَّ لهُ من ان يجيب عليه متجنباً الفضول والهذر والانذار على غير علم صحيح ومعرفة محققة بما تصير اليه نهاية العلة · وينبغي لهُ ان يكون حازماً حاذقاً متلطفاً في اختيار انفع العقاقير وايسر وسائط العلاج جرياً على مقاومة عوارض الامراض بما تقتضيه ادلة الحال فقد قيل ان الطبيب اذا دخل على المريض ينبغي ان يكون كالشجاع الذي يدخل الحرب وقد اعدَّ جميع ما يقيهِ ويتلقى بهِ فانه لا يعلم اي خصم يعدو عليه وباي سلاح يأتيهِ وبأية حيلة يأخذهُ وكذلك الطبيب يحتاج اذا دخل على المريض ان يكون عارفاً بمزاجهِ عالماً بطبيعة البلاد التي يعالج فيها واخلاق اهلها وعاداتهم ومنزلتهم في مراتب المدنية وان لا يذهل عن استقصاء كل مسئلة طبية واستطلاع جميع ما يعرض في هذا الفن من تغير الآراء وتبدل المذاهب واختلاف التعاليم فان هذا العلم ليس محدود المبادئ مضبوط القواعد كالعلوم الرياضية ولكنهُ كثير التغير خفيُّ المسائل تبعاً لتغير موضوعهِ الذي هو بدن الانسان فان افرادهُ تختلف اختلافاً عظيماً من جهة العمر والجنسية والسلالة والبنية والمزاج والطباع والاستعداد المرضي والتربية

والقوى الادبية والعقلية والاميال والصفات المتوارثة ومحل الاقامة وحالة البلاد ونوعية المعاش والحرفة وسائر الاحوال مما يؤثر في الامراض فيجعل المرض الواحد مختلفاً في اثنين اختلافاً يجعل الدوآء النافع لاحدهما مضراً بالاخر او غير نافع لهُ ففي مثل هذه الاشيآء يجب على الطبيب ان يحترز من الخطآء ليكون نافعاً في علمهِ معتمداً عليهِ في عملهِ

نبذة ثالثة

في واجبات الاطبآء نحو زملائهم

اما واجبات الاطبآء بعضهم نحو بعض فنقتصر منها على ذكر ما نشرتهُ مجلة مجلس الجمعيات الطبية العام في باريز بتاريخ ٥ افريل سنة ١٩٠١ وهو ما اتخذهُ المجلس المذكور دستوراً يجري بموجبه

(١) يجب على كل طبيب دعي لعيادة مريض في غيبة الطبيب المداوي سوآء كان غائباً او مريضاً ان لا يستعمل علاجاً الا ريثما يعود زميله

(٢) اذا تأكد الطبيب المدعو في غيبة الطبيب المداوي ان المريض يقصد قصداً باتاً ان يعتمد على علاجه في المستقبل يسوغ له ان يداوم عيادة المريض بعد ان يُخطر زميلهُ

(٣) كل طبيب يُدعَى بطريقة الصدفة لعيادة مريض يعالجه

طبيب آخر يجب عليه ان يقتصر على وصف الادوية اللازمة لملافاة العوارض الحالية ولا يعود لعيادة المريض الا اذا دُعي من الطبيب المداوي للمشاورة

(٤) كل طبيب يُدعى لمعالجة مريض في اثناء علة يتعاطى علاجها طبيب اخر سواء كانت حادة او مزمنة يجب عليه ان يبذل جهده لاستدعاء الطبيب المداوي فان لم يفلح يجب عليه ان يخبر بدون تأخير زميله الذي خلفهُ عما توقع

(٥) كل طبيب يدعى للمشاورة يلتزم ان يمتنع عن اعطاء افكاره للمريض ولمن حوله وانما يجب ان تجري المشاورة بمعزل عنهم . والعلاج المتفق عليه يتعاطاهُ الطبيب المداوي

(٦) الطبيب المدعو للمشاورة من قبل الطبيب المداوي او من قبل اهل المريض يجب عليه ان لا يعود لعيادة المريض الا اذا دُعي للمشاورة مرة اخرى ورُخص له من الطبيب المداوي

(٧) تقتضي واجبات الاخوّة بين الاطباء قبول الطبيب الذي يقدّمهُ اهل المريض للمشاورة مهما كان سنهُ ومرتبتهُ وحالتهُ على شرط ان لا يكون ملاماً في شرفه الشخصي وفي شرف المهنة

(٨) ندوة المشاورة حرة يستطيع الطبيب ان يعطي فيها آراءهُ لكل من يسألهُ اياً كان الطبيب المداوي

نبذة رابعة

واجبات العامة للاطباء

وللأطباء على العامة حقوق لا يبخسهم اياها الا الذين يجهلون قدر العلم ولا يعرفون للصحة مزية ولقد احسن القائل

ان المعلمَ والطبيبَ كلاهما ٭ لا ينفعان المرء ان لم يكرَما
فاصبر لدائك ان اهنتَ طبيبهُ ٭ واصبر لجهلك ان اهنت معلما

ومن اخص هذه الحقوق معاملتهم بالتجلة والاكرام والعمل بنصائحهم واتباع ما يأمرون به بالدقة وعدم التعرُّض لهم في صناعتهم فلا يليق بالمريض ومن حولهُ ان يشيروا على الطبيب بما يخطر لهم و يعارضوهُ في تدبيرهِ او يبدلوا علاجهُ بآخر او يضيفوا اليهِ شيأً من تلقاء انفسهم او مما وصفهُ لهم آخرون ولكنهم يستطيعون متى شاؤُا ان يكلفوهُ بطلب طبيب آخر المداولة معهُ فان اتفقا وجب العمل برأيهما والا فهما يستدعيان طبيباً آخر ولاهل المريض ان يطلبوا من يثقون بهم للاجتماع بالطبيب المداوي الذي لا يسوغ لهُ ان يرفض طلبهم و يستدعي من يحبُّ او من يتفق معهُ كما يفعل البعض . . . . . . ولا يعذَر الطبيب لجهلهِ او اهمالهِ ولكنهُ يُعذَر اذ الم يكن في وسعه ان يأتي بالخوارق ويصيرَ المحال ممكناً في هذه الحالة لا يسوغ ان يغتاب الطبيب

اهلُ المريض اذا قُضي عليه ويعيبوهُ ويستهينوا بالصناعة الطبية كأن الطبيب ضامن دَرَك الحياة او كأنه يستطيع ان يشفي سائر الامراضِ . وما الطبيب الا خادم الطبيعة كما قال بقراط وعليه قول مدرسة مُنبلياي Medicus interpres et minister natura فما عليهِ الا ان يراقب اعمالها ويسعفها بما تحاولهُ من دفع الضرر واصلاح الخلل الا اذا تجاوز ذلك حدَّ الاعتدال فحينئذٍ يوجه النظر الى مؤاخذتها وتلطيف حدتها ان استطاع الى ذلك سبيلاً

نبـذة خامسة

في رد شبهات يُعترَضُ بها على الطب

ويردُ على الطب شبهات لا يزالُ الناس يلهجون بها مع تقدم العلوم وترقي المدنية كما كانوا في العصرُ الخوالي وقد ذكرها ابن القف في شرح الفصل الاول من فصول بقراط وهو قوله ,, العمر قصير والصناعة طويلة '' وفنـدها بكلام ننقلهُ عنه بنصهِ الرائق وهو :

اولاً — ارادة الله تعالى او علمهُ او قدرتهُ في الازل او الطالع الفلكي على ما يقول المنجمون اما ان تقتضي حفظ صحة زيد وان لا يمرض الى وقت مخصوص واما ان تقضي تغيير مزاجهِ

واختلاله ُ فان كان الاول فلا حاجة الى علم الطب لان الصحة باقية بدون استعمال قوانينهِ وان كان الثاني لم يُفد استعمال الطب والجواب كما ان الله قدّر وجود الصحة جعل استعماله ُ على ما ينبغي سبباً لحصولها حاصلةً او ردها زائلة . ويقال لقائل هذا الشبه يلزمك ان تستريح من تكليفات المآكل والمشارب وذلك لان الامور المذكورة اما ان تقتضي الشبع والريّ او لا تقتضي شيئاً من ذلك فان اقتضت فلا حاجة الى استعمال ذلك وان كان الثاني فلا حاجة الى استعمالها لانهُ يكون عبثاً وكل ذلك محال لانهُ يلزم عنهُ ان يكون وجود الاغذية عبثاً وهو قول بالتعطيل وهو خطأٌ محض

ثانياً — لو كان الطب علماً نافعاً في حفظ الصحة وازالة المرض لكان الطبيب الفاضل قادرًا على دفع الموت عن نفسهِ لكن ذلك محال . والجواب كلُّ علم فلهُ غايةٌ لكن ليس دفع الموت فان هذا غير ممكن ولا يلزمُ من انتفاء هذه الغاية انتفاء مطلق الغاية اذ لا يلزم من انتفاء الخاص انتفاء العام فانه لا يلزم من انتفاء الانسان انتفاءُ الحيوان بل نقول غايتهُ دفع الاسباب المعجلة للتجفيف لا الواجبة لهُ وهو منع العفونة وحفظ الرطوبة الاصلية من التحليل بقدر الامكان

ثالثاً — الاطباء متفقون على ان اكثر قوانين الطب حدسية ظنية وهذا امرٌ ظاهر فانهُ متى حضر جمعٌ من الاطباء لمباشرة

المريض او حضر واحدٌ واحد منهم فان كل واحد يصف ما لا يصفهُ الآخر ولا يحصل الاتفاق بينهم الا نادرًا وعلمٌ يكون حالهُ كذلك يكون خطاؤه صاحبهِ اكثر من اصابتهِ وما كان كذلك فلا حاجة اليهِ البتة لانهُ يكون حالهُ حالَ المجرب لشيء في شيء بغير علم ومعرفة والجواب ان التقصير المذكور وخفآء ما يخفى من احوال البدن حتى صار اكثر قوانين العلاج حدساً وتخميناً ليس هو لتقصير الصناعة في نفسها بل لعجز الطالب عن ادراك فروعها وقوانينها على ما ينبغي ولذلك صار الجمع من الاطبآء يختلفون فيما يأمرون بهِ المريض في المداواة لان كل واحد منهم يقع لهُ في المداواة غير ما يقع للآخر بسبب ان هذا ادرك من الاعراض ومعرفة المرض ما لم يدركهُ الآخر ولذلك متى جُمع بين الفضلآء المحققين منهم وقع اتفاقهم على نوع واحد من المعالجة

❊

يتهم البعض جمهور المسلمين بانهم لا يتداوون لاعتقادهم بان المرض وشفاءه والحياة والموت كلّ ذلك انما يقع بقضآء الله تعالى وقدرهِ وربما حملهم على هذه التهمة ما يرى من عدم اعتنآء الفقرآء والمغفلين بالصحة وعدم اكتراثهم بالعلاج واستهانتهم بالطب والاطبآء والحال ان دين الاسلام يوجب الاعتنآء بالصحة والمداواة من

الامراض عملاً بما ورد في القرآن العزيز والحديث النبوي والسنة ونحن نذكر هنا ما يدفع هذه التهمة نقلاً عن بعض العلماء المحققين فمما جاء في القرآن قوله ,, لا تلقوا بايديكم الى التهلكة '' وعن النبي (١) ,, تداووا عباد الله فان الله لم يضع داء الا وضع له شفاء لا الهرم '' رواه ابو داود وابن ماجة وقوله ان الله لم يعط شيئاً احب اليه من العافية '' رواه الترمذي والنسائي . وعن ابن عباس جاء اعرابي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ما اسأل الله تعالى بعد الصلوات الخمس قال اسأل الله العافية فاعاد عليه فقال في الثالثة سل الله العافية في الدنيا والاخرة رواه الترمذي . وقال من اصبح معافىً في بدنه آمناً في سربه عنده قوت يومه فكانما حيزت له الدنيا بحذافيرها. رواه الترمذي . وعن هلال بن سياف قال دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على مريض يعوده فقال ارسلوا الى الطبيب فقال قائل وانت تقول ذلك يارسول الله قال نعم ان الله لم يرسل داء الا جعل له دواء رواه ابن السني والاحاديث في هذا المعنى متواترة . وقل الاحنف بن قيس ثلاثة لا ينبغي للانسان ان يدعهن علم يحثه على عمل يتزوده لمعاده وطب يذب به عن نفسه وصنعة يستعين بها على امر معاشه

(١) نقلاً عن شرح ارجوزة الشيخ الرئيس للشيرازي

وقال الشافعي صنفان لاغنى للناس عنهما الاطباء لابدانهم والعلماء لاديانهم وصح عنه انه قال العلم علمان علم الابدان وعلم الاديان وساقه بعضهم حديثاً عن النبي · وقال بعض الحكماء البلد الذي ليس فيه طبيب لايسكن . والطب من فروض الكفايات لو تركه اهل بلد لعصوا

تنبيه

المسائل التي ضمّنها ابو الحسن بن بطلان رسالته الموسومة بدعوة الاطباء شرحها ابو الحسن عليّ بن هبة الله بن اثردي الارشيديا كي في جواب عن كتاب ارسله اليه الشيخ ابو العلاء محفوظ المسيحي البيلي قال فيه ,, سألتني أيدك الله بحسن المعونة والتوفيق وارشدك من اليقين الجليّ اوضح طريق ايضاح اجوبة المسائل التي أودعها الشيخ ابو الحسن بن بطلان مقالته الموسومة بدعوة الاطباء واظهار معانيها لذوي العقول الالباء فجنحت عن ذلك لإشكال البعض عليّ ووصول معرفة بعضها اليّ ولكون الخاطر متبدداً والهم متجدداً ثم انني فكرت في علامة زمانه ورئيس اوانه الشيخ الرئيس ابي علي بن سينا وقوله حيث سأله بعض تلاميذه ,, اما اجوبة المسائل التي اعلمها علماً يقيناً فقد

كتبت في جوابها مع البرهان عليه والتي لم يكن عندي لها برهان فقد كتبتُ جوابها اقناعاً وما لم اعلمهُ قلتُ لا اعلمهُ فلي فيه اعلى قدوة . . . وهذا القول يشفّ عن نفس زكية وفيه عبرةٌ لمدعي العلم في زماننا ممن يتوهمون انهم يجيبون على كل مسئلة اصابوا ام لم يصيبوا ليعتبرهم المغفلون فلاسفة

اشدُّ الناسِ للعلم ادعاءً * اقلُّهمُ بما هو فيهِ علما

وقد كان في النية ان انشر جوابهُ برمتهِ واستوفي الشرح بما ينطبق على المعارف المحصلة الى يومنا هذا بقدر ما تصل اليهِ معرفتي القاصرة ولكنني رأيت ان الكلام في ذلك يطول وان بعض هذه المسائل الى المعاياة اقرب وبعضها لا يترتب عليهِ كبير امر الاَّ بتحويل المعنى الى قصدٍ آخر . وكلها على الجملة مما ينبغي ان تروَّض بهِ افكار الالباء . فتركت الاشتغال بها ليتبصر كل من اطلع عليها ويتمرَّن على حلّ مشاكلها بقدح زناد الفكرة وفوق كل ذي علم عليم

خاتمة

هذا حديث عن رجال العلم　　يُحكى لاصحاب الحجى والفهم
ألفته بلغة القوم الأُولى　　كانوا مصابيح الدجى بين الورى
وقد رغبت في بيان نُبلهم　　ليقتدي أبناؤهم بفضلهم
ويقتفوا آثارهم ان يبتغوا　　طريقة الى النجاح تُبلغ

***

وفي الحديث كلمات مره　　ترمي الى اغراض نفس حره
اوردتها موجزة العباره　　ويفهم اللبيب بالاشاره
رجاء ان ينهض ابناء الوطن　　من وهدة الخمول في هذا الزمن
وينفضوا عنهم غبار الذلّ　　ويرأبوا الصدع بجمع الشمل

***

والجمع كالعقد له سلك فان　　وهى فبالشتات ذا الجمع يهن
وذاك السلك لسان العرب　　من ينتظم به يفز بالارب

اي بني وطني اقد طال سباتكم أفما تستيقظون وقد لاح لكم ضوء الصباح انسيروا في محجة النجاح أفلا تبصرون

فهبوا ولبوا دعوة العلم انهُ ☆ ليَعمَرُ ما قد صيّر الجهلُ بلقعا

وشدُّوا اواخي الاتحادِ فتراُبوا ☆ بذلك من بُنيانكم ما تصدَّعا

احسن الله خواتمنا وسدَّد الى الصواب عزائمنا وحسبنا الله ونعم الوكيل



فهرس كتاب دعوة الاطباء

صحيفة



فهرست التكملة

صحيفة

صحيفة



وقعت اغلاط في الطبع لا تخفى عن ذوي الالباب ونحن نشير هنا الى ما عثرنا عليهِ منها ليصلحهُ المطالعون ولهم الفضل

صحيفة	سطر	خطا	صواب
٦	١٨	مجلسى	مجلدي
١٧	١٣	عمر	عمرو
٢٠	٢	كان	لكان
٢١	١٥	حيا	حبى
٣٦	١٢	الفارة	الفاره
٣٣	١١	جمعة	جمعهُ
٦٠	٨	العاتكه	لعاتكة
٦٤	١٥	عماء	عمىّ
١٠٦	٣	مفطورًا	مفطورٌ
١١٦	١٨	Travau	Travaux
١٢٨	٣	الحميري	الحيري
١٤٣	٨	دفماً	دافماً
١٤٣	١٠	فأدخلو	فأدخلوا
١٤٥	١٣	الفقة	الفقه

صحيفة	سطر	خطا	صواب
١٤٨	١٨	النطير	النظير
١٤٩	٢	وكان	وكانوا
١٥٠	١٣	تصنيف	مصنّف
١٦٩	٦	تجرّا وقبل	تجرأوا قبل
١٨٠	٤	هذا	هذه
١٩٧	١٣	١٤٧٢	١٨٤٢
٢٠٣	١٥	الذي	الذين
٢٠٩	٦	مرح	مسرح
٢٢٣	٦	قعت	فوقعت
٢٢٥	٥	أُنشتا	أُنشئتا

[al-Miṣrī, ʻAbd al-Ḥalīm]

Nasamāt al-Ṣubḥ



أيها القارىء العزيز

أزف اليك مجموعة أشعار اقتطفتها مما اتيح لى نظمه ساعات الفراغ واويقات الخلوة فاعرضها عليك كما هى غير واثق ان كانت طبق ذوقك السليم أم ان اوانها ما ازف بعد . وانى لارجو كل من اطلع عليها أن يشاطرنى ملحوظاته عنها ويبادرنى بما عن له

فهى اشعار قلتها بين شك — وأمال وربما دون قصد
قد اراني احيتها انما يا — هل ترى تحيي نفسها من بعدى

الشعر والعرب [1]

قيل كان اليونان يقولون اكثر اقاويلهم الشعرية في الحث على عمل فعل ارادى أو فى بث معرفة أو نهياً عن أمر مستقبح لتجنبه أو الحث على الفضائل والكف عن الرذائل وكان منهما المدح والهجو . هذا وان كانت أقاويلهم لم تضع فى الغالب لذلك القصد

غير أن العربي قل ما ارعوى الى هذا فكان يقول الشعر في الشجاعة والكرم على طريق الفخر ثم في الحب . والعربى ولو كان أمياً أى جاهلا القراءة والكتابة [2] فانه فطر على قريحة وقادة ، و بصيرة نقادة ، ورزق نباهة الفكر وسرعة الخاطر وفصاحة اللسان وطلاقته . فاجاد في صناعة البيان حق الاجادة بما لم نسمع به كثيراً عند الامم الغابرة أو الناشئة

ولقد زعم بعضهم ان ملكة اللغة قيضت للعربي بالسليقة وهذا قول فاسد لا يسلم به الاديب البصير لان ملكة اللغة هى ملكة لسانية

---

(١) كنت القيت هذه النبذة بصفة خطاب فى المحفل الادبى المنعقد بكلية القديس يوسف ببيروت سنة ١٩٠٢ حيث كنت تلميذا بها

(٢) ولا عجب اذا كانت أقدم اشعار عثرنا عليها لا تصعد الى مافوق القرن السادس للمسيح حيث استعمل الخط . أما ما قيل قبل هذا التاريخ فان توالى الازمان وآفة النسيان جعلته فى خبر كان .

تستقر فى الذهن بمخالطة متكلميها منذ الصغر و بمواظبتها وممارستها فى الكبر وليست هى جبلة كما يخال للبعض بخلاف الملكة الشعرية التى هى فطرية محضة وهذا قول ليس فيه اثنان

أما اذا قيل ولم لم نعهد هذه الملكة الصناعية راسخة في السنة المستعربين ؛ قلت إن اللغة كانت بداءة بدء لهجة العربى لم يأخذها عن سلف بل نشأ عليها فاستقرت في لسانه بحيث أنه اذا كان تعمد ان يتكلم خطأ أو رام أن يحود عن الاساليب التي شب عليها لما قدر وعصاه لسانه فضلا عن ان ابن الوبر والمدر لم يحط معرفة بعلوم شتى الهم الا استقراء وتجربة ولم يشتغل بالصنائع الا فيما ندر فعكف على تهذيب لغتهوالتفنن بها وصرف الى ذلك أكثر همهوافرغ كنانةجهده حتى أوسع نطاقها وكان منها ما كان

أما الآن فهذه الملكة قد استأصلت شأفتها فلا تستفاد فى الندور الابكثرة المحفوظ من حر كلامهم والانطباع على مبناهم والتدريب على منحاهم لان اللغة الصحيحة تلاشت لرسوخ العجمة والعوج فى الالسنة ومن كان أعرق في العجمة وابعد عن اللسان العربى كان اقصر عن اكتساب هذه الملكة

ولامراء ان العربي كان ينظم الاشعار ارتجالا وهو على ظهر جواده وفي اجتماعاته ومنافساته وقبل مبارزاته وغزواته وكلما تثور به النخوة الجاهلية ، وقد يأتي فيها عفواً بما يضيق عنه ذرع غيره من المولدين بعد التروية والاستعداد وهو لعمرك أمر عظيم صعب الملتمس لايعلمه

إلا من كلف نفسه الهجوم عليه . وما ذلك الا لان العربى كان يتكلم بما حضر على لسانه واعتاد أن ينطق به في كل حال من الاحوال دون أن يتعمد التزويق والتنميق أو يقصد أجناس البديع التى كانت تنساب على ضمائره وتسبق اليه من تلقائها .

ولهذا السبب لم يخدش الشعر القديم تكلف ولم تظهر عليه آفات التصنع كما ترى ذلك في الشعر الذي قيل بعده في الطور الذى يليه . وكل أجمع على قوة معناه وحدة مخيلته وشدة تأثيره وعظمة نفسه

ويستشف لنا من مطالعته أن ابن الوبر كان أبيّ النفس بأنفه شمم أصيل الرأى بعيد الهمة كريم المحتد قرماً شجاعاً لا يطوى على الضيم وغير ذلك من الخلال الكريمة التى تجعل الشعر القديم أفضل بان تنشأ عليه الاحداث وتتخرج عليه

ولقد يقف المطالع على أحوال الجاهليين وحوادثهم وعوائدهم وعقائدهم وطباعهم مدونة في أشعارهم بمثابة تاريخ عند اللبيب الفطن وذلك أن الشاعر يبث في الشعر امياله ومقاصده واخباره وجميع ما يخالجه وربما دون قصد منه ويودع فيه أيضاً طباع اهل زمانه ويفتخر بما تم على يد قومه أو ينهرهم لما أتوا عليه . وفى كل ذلك تخليدًا لحوادث والاخبار التي تكون جرت على أيامه . ومعلوم ان المبالغات والاقاويل الشعرية لا تذهب بالاصل الحقيقى الذى لايخفى على الحاذق

ولربما كانت هذه العوائد مناقضة لما طبعنا عليه فتظهر ثقيلة على انفسنا غليظة فى اعيننا تافهة في اذواقنا كما نشعر ذلك مثلا في قراءة ما يلى :

رقاق النعال طيبت حجزاتهم يحيون بالريحان يوم الشباشب
تحييهم بيض الولائد بينهم واكسية الاضريج فوق المشاحب
يصونون اجساما قديما نعيمها بخالصة الادران خضر المنا كب

فكان أن قوما كثيفا من بين ظهرانينا فضلا عن الاغراب يقدحون زناد التهكم بالشعر القديم اللطيف ويحطون بقدر الاعرابي الشريف ويستعوذون من ذوقه الفاسد غير انهم وعزة الحق لفي ضلال مبين

أما ان الجاهلي كان فاسد الذوق فهذا قول لا وجه له من الصحة ولا يذهب اليه الا كل جاهل . فالجاهلي أسلم ذوقاً وأرق جانباً واحد شعوراً ممن اتى بعده من الشعراء المولدين والمحدثين فهو أول من نطق بالشعر [١] وعزز جانبه ومكنه من مقامه السامي وفتق جلباب البديع بطرق طبيعية فكان يؤخذ منه ويحذا حذوه ويرجع اليه ناهيك أن حذاق القوم يعقدون له اللواء ويأتمون به ويودون ان نشأت عليه احداث الشبان فتكون قد رسخت في البابهم صحة تعابيره واصطلحت عليه اذواقهم

واما كونه شب على الشدة وغلاظة العقائد وهمجية العوائد كالسلب والغزو والنهب فليس هذا بضائره لان أمة العرب تقدمت تختلف طبيعتها

(١) قيل ان الحداء كان الباعث للنطق بالقريض فقد شعر العربي بارتياح نفسه الى ذلك ووجد ان الابل السائرة في الفيافي الشاسعة على نغمات هذا الحداء قد تشرأب باعناقها اليه وتجد السير . وبواسطة المقاطيع التي قيلت في الحداء والهجاء وباستمانة العربي بملكته الخاصة تكون الرجز أولا فانتظم سلك الشعر كما عهدناه تام الاجزاء موزونا شجياً ثم جاء الخليل بن احمد الفراهيدي في القرن الثاني من الهجرة وجعل القريض صناعة اذ وضع له قواعد سميت بالعروض

عن طبائع بني اليوم وتناقض بقعتها احوال بلادنا وتفترق ايامها عن دهرنا فما حضرت عصر التمدن والسنن والشرائع والبخار وطور الاختراع والابتكار فلا يجب ان تؤخذ الا بما ابقت ولكل زمان حال

وزد عليه اننا نلاحظ ان أمة العرب لم تنفرد بما كانت عليه لان اليونان والرومان كانوا في اولهم على شاكلتها لا بل كانوا أكثر توغلا في غلظة الطباع والعقائد فان اشعارهم التي نظمت في اول القول شفافة عن سنن وضحايا واعمال قاسية ترتعد الآن منها الفرائص مع كل فاننا نجلها كانها منزلة أو موحى بها وكثير من الامم تترجمها الى لغاتها وتثقف بها صغارها

وعلى رسلك يارعاك الله لاتتهافت الى بخس الجاهلي اذا انحصر في عدة اوصاف وتشابيه طالما رجع اليها ولم يعرف التفنن الحالي ولا تشنعه اذا بلغ رائد مخيلته ذروة عالم الخيال ونمى وأنمى من المبالغات أو اذا وجدته ربما خرج عن حدود انفعال النفس ودائرة شعورها فلو كنت في ايامه ومازجت طباعك طباعه وفطرت على جبلته وكابدت دهره وسعير هاجرته لما نبوت لدى سماع اوصافه وتشابيهه واستعاراته ومجازاته وكناياته وقصارى القول مقاصد كلامه

كان ابن الوبر لا يعرف غير الكرم والشجاعة فالحب

جبلت يداه على العطاء وفطرت نفسه على السخاء فلا يلحقه مضض من اتلاف ماله جوداً بل بهش اذا وافاه سائل :

تراه اذا ما جئته متهللا   كانك تعطيه الذي انت سائله

وقد الفت نفسه هذا البذل فلا يقعده الصبر حتى تيسر له القري فهو يذهب لملاقاة ضيوفه ويبعث غلمانه سعياً وراء المسافر او يزكى نارا على علم فى ظلمة الليل فتأمه السراة التى تشوم عن بعد وميض جوده وتنزل فى رحب خيامه وهناك تلمع الجفن الغر ويبسط على كفه السخية النفس والنفيس

ونجر الكوم عبطاً في منازلنا   للنازلين اذا ما استطعموا شبعوا

اجل كان ابن الورد فاتكاشجاعا ذا نخوة قعساء وهمة علياء ليس بالجزوع أمام طوارق الممات وشعوب الخطوب يحمل على النفس الجموح ضيمها ويجدعها قبـل ان تطحو به يات خصيص الاحشاء ويفرج الازمة الشنعاء دون أن يلحق بنفسه قذى :

لا تسقنى ماء الحياة بذلة   بل فاسقنى بالعز كأس الحنظل

وهو يفتخر بالرمي والطعن و بضرب الحسام لا يحجم عند اللقاء لانه يرى في الاحجام سبة وفي الاقدام رفعة فيندفق في العجاج رابط الجنان والحرب تستعر ويخوض تحت ظل القسطل بقلب أشد من الجندل يحمل على الخصم بحزم وعزم يقدان الصخر الاصم قداً ويجوش فيه النخوة العربية كلما ادعى وانشد :

والخيل تعلم والفوارس انني   شتت جمعهم بضربة فيصل

كان العربي لا يعرف غير الحب يوجد فيه رضيعاً وينمو به شابا ويشرف معه شيخا هرما. ذاك الحب مازجته الشجاعة فدل على عظمة النفس وعفتها هو الحب الذى يدافع عنه باطراف الاسنة و بضرب

النصال على النصال غيرة وشرفاً . هو اخيراً الحب الطاهر في جميع اطواره لم يخلق له عرضاً ولم يكسبه وصماً يرد به حياض الموت ورداً دون ان يرتكب فيه منكراً :

وودت تقبيل السيوف لانها　　　لمعت كبارق ثغرك المتبسم

ولا عجب اذا رأينا الجاهلى بعد ذلك قد اطنب وافتخر وخلد له بالشعر مجدا تلادا وطارفا وشيد فوق السماك سما كا واقتعد فلعمرك انه لم يقل الا مافيه

ألا ناشدتك الله على م نجعله ملوماً اذا ولع بجواده وصرف اليه عنايته وتكفل بنفسه رعايته فراعى انتباه واجل تاجه وزوق وزلف في وصفه واعده كفيل حياته فانظر اليه ومهاده الغبراء وسقفه القبة الزرقاء تره ممتطئا صهوة جواده يسبح عليه في حندس الليل وتحت سعير الهاجرة فيجوب السباسب جوبا وينهب الخلوات نهبا :

وقد اغتدى والطير في وكناتها　　　بمنجرد قيد الاوابد هيكل

ولعمرك لو كان ضاعف به العناية ولازمه ملازمة الحميم ما كان به عندي مليما :

لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى　　　ولكان لو علم الكلام مكلمى

وكما ان الله أتاح له فيه السعادة فقد اوجد له ايضا في الابل والقطعان اسباب التعيش فيجتز ويكتسى ويحتلب ويستقي وينحر ويغتذي ويتهادى بها ويؤدى المهر وينتدب ويضرب عليها الهودج وينتقل طلباً للمرعى

هذا واذا علمنا ما عليه بلاده من امتداد الفيافى الشاسعة وتأثير منظر الاكمات الراسخة فاحيانا حمارة القيظ وهبوب اعصار وموتفكات وسافيات [١] وأويقاتاً رقة أديم ونحول نسيم واعتدال هواء ونقاء سماء ثم كثرة رياحين وأزهار في المدن قوية العرف تجلى لنا لماذا العربى كان حاد الطبيعة رقيق الشعور قوي المخيلة فاكثر من الاطناب باوصاف تربته وصار مجنون ليلاها والتجأ كثيرا للشعر كلما شام بارقا يلمع أو نظر بدرا يسطع او انتظر نزول المطر . اعذروه اذا شبه الحسن بالشمس والقمر وتلطف بالزهر والزهر وتشوف كلما تلألأ وميض واشرق . ووصف محيا المحبوب بالبدر المؤتلق وتغزل بنفحات النسيم اذ سرى وعبق وكنى عن الجود بالغيث المتدفق ورأي صفاء العيش في تسلسل الماء المترقرق . فمن قرّ قراره بعربة وناسب مناخها جبلته تحقق ان المكوث بها مما يهيج المشاعر ويدعو الشعر الى ان ينثال على الضمائر وينزل على الخواطر فيصف النوق ويحاديها و بالاجمال يستأنس بما لم يستأنس به الآن فى الشعر القديم

وعربة ارض لا يحـل حرامها من الناس الا اللوذعي الحلاحل

* * *

وغب ذلك اذ كانت اللغة روضة غناء والشعر مترعرعاً فيهـا بنضارة وازدهاء تضرب له قبة في عكاظ حيث كانت تهرع اليه الناس من كل أوب وصوب يفتخرون ويتنافسون به ويتناقشون فيه رفع

(١) الاعصار والمؤتفكات هي الرياح الشديدة المتلفة والسافيات هى التى تحمل التراب

الاسلام أعلامه في تلك الانحاء فزاد الشعراء انعكافاً عليه وازداد الشعر رونقاً وبهاء . ومالبث أن تزيل عن الحجاز وتلك البقعة وخالط الاعاجم فكسد سوق اللغة وغلب فيها التهجن واللكن حتى كاد يكبو زناد ملكة هذه اللغة التي كانت راسخة في السنة متكلميها لان الفتوحات والمراتب وأحوال السياسة أشغلت بالهم عن الالتفات اليها والاهتمام بها ثم انه بمخالطة الاجانب تولد اللحن والامالة فأوشكت حينئذ اللغة أن تذهب أيدي سبا

إلا أن هذا الأمر عظم في أعين ذوي النهى والحذق وشق عليهم أن تستهدف لغتهم للفساد فشمروا عن ساعد الجد واستنبطوا لها روابط وضوابط ضناً بها وخشية عليها وذلك باستقراء الشعر والمقابلة والتنقيب . فكان الشعر القديم كما لا يزال لليوم تاريخاً لاستجلاء الغوامض ومورداً لتحقيق الحقائق واستنضاض الغرر فهو شاهد الصواب ومقوم العثور فعليه يعول واليه يرجع و به يؤخذ

ومن ثم ثابت الهمم من رقدتها وهبت الفطن من سنتها فترعرعت حديقة الآداب وتسلسلت أنهارها وتفتحت اكمامها ونورت أزهارها واينعت أثمارها وقام الشاعر في هذا الطور (ابتداء من القرن السابع للمسيح) خطيباً وناصحاً وحكيماً ومادحاً وواصفاً وفاخراً سائراً على طراز الشعر القديم ناحياً منحاه [١] ثم انه اجتهد في التفنن والجزالة والرشاقة

---

(١) كان اكثر الشعراء ثمة لا يألون جهداً في الاقتداء بالشعر القديم يصفون الخيام وسرب القطا والنوق والفياف حتى ان البعض منهم ازداد به الحرص الى —

فجمع بين الملح النادرة والحكم الزاجرة والامثال السايرة والاوصاف المبتكرة الزاهرة ورقة الاسلوب فكثيراً ما هجر اللفظ الوحشي الذى كان في لغة البدوى واستعاض عنه بما هو أفصح وأقرب فهما. وظل الشعر على هذا النمط حلية للشعراء ومدحة للخلفاء والامراء كل أيام بنى امية وصدراً من دولة العباسيين حيث كانت العلوم رائجة والناس تجل الآداب والادباء أى اجلال [٢]

غير أن الايام دول فانه بينما كان الشعر ناميا ساميا يكاد يمتزج بالروح رقة اذ ظفر به القرن الرابع عشر للمسيح حيث جفت هذه الاغصان الباسقة وعفت تلك المعالم الشاهقة [٣]

*
* *

وكانت الضربة القاضية على الشعر تغلب دولتي التتر والاتراك على الممالك العربية فانه لما استفحل أمر هؤلاء وصارت البلاد العربية

ان كان يحافظ على الالفاظ المهجورة التى تركت لايام الجاهلية وهجرت اقدمها وقلة استعمالها . قيل كان الفرزدق يعاير ذا الذمة لانه كان ممن بالغ فى المحافظة على منهج الشعر القديم ولم يلو عنه

(٢) وقد يؤخذ على شعراء هذا الطور كثرة انكبابهم على المديح انعكاف الجياع على القصاع ولم يتفرغوا لما سواه كتفرغهم له حتى ضيقوا عليه المجال من هذا القبيل

(٣) مع كل فقد اشتهر بعد هذا التاريخ صفى الدين الحلى (١٢٧٨ — ١٣٠١) ونصير الدين نصير الحمامى (١٣١٢) كان ينظم الموشحات ويستعطي بها الصدقة. وسراج الدين عمر بن مسعود اشتهر بالموشحات أيضاً (١٣٠١) وشمس الدين الدهان (١٣٢١) وقد برع أيضا فى ضرب القانون وابن نباته جمال الدين (١٢٨٧ — ١٣٦٦) وابو المحاسن تقى الدين (١٣٦٦ — ١٤٣٤) صاحب الديوان ثمرات الشهية

في قبضتهم لم يشغل بالهم سوى توسيع دائرة ملكهم وتعميم نفوذهم وتعظيم شوكتهم (كما هي واللاسف حالة كل محتل) ثم اخماد الفتن والثورات التي ما انطفأت جزوتها فى ركن حتى اشتعلت في ركن آخر

واستمر الوجوم ضاربا اطنابه فى ربوع هذه اللغة ردهة طويلة من الدهر منذ انقراض الممالك العربية واستواء الامراء الاتراك على ارائكها وما ذلك الا لان تقدم العلوم كما لايخفى متوقف على همم الملوك وذوي النهي والامر فهم الذين ينهضون رجال الادب ويقوّون اذرهم لبلوغ الارب فقد كان الشاعر ألف ان يدخل على الملوك ويجلس في ناديهم ويزوق وينمق ويطنب وينسب ويخرج من بين أيديهم مثقلا لما أجيز به على صنعته وقد فاز بطلبته . انما قد جرت الاحوال بما لا يرجى. فتقطعت الاسباب بين الملوك والادباء لما اغلقت دونهم أبواب الامراء. فكسدت على الشعراء اعلاقهم ويئسوا من رواجها في سوق الادب وتحول كل الى ماهو أصلح لشأنه فى سبيل التعيش. ولم يحط هذا الخطب بالشعر وحده فان سائر الفروع العلمية لم تكن بأقل نصيب بعد ان كانت بلغت شأو الترقى

إلا ان الله قيض للغة رجالا ايقظوها من رقدتها فنفحت نسيم من نواحى دار السلام والشهباء وجبل لبنان واتاح أيضاً لمصر محمد على باشا هذا الرجل العظيم الذي نفخ في الآداب والمعارف نفخة حياة وبث فيها نفس النشاط فاخذت اللغة العربية من ذاك الحين تنمو رويداً رويدا حتى استقامت أو كادت تستقيم وكأن شعر بنهضة جديدة ايقظت الهمم

الوانية وكشحت عن الشعر الغبار الذى تراكم عليه اثناء هذا الكساد المزمن فسارت نجائب الاشعار بين الادباء. حقق الله الامانى (١)

* *
*

وهنا لا نتمالك أن نكتم طويلا خطرة بال لا نرى بدا من الاباحة بها لا مشاحة ان شعراء العربية قاطبة اجادوا فى صناعة البيان كل اجادة وضربوا في ذلك بالاسهم السبعة . غير ان السواد الاعظم منهم لم يفقهوا للاسف الغاية السامية من الشعر وفهمه بهذا التحديد وهو «الكلام الموزون المقفى» فكان انه جنى عليه اذ فاته أن الشعر ماهو الا عبارة عن اظهار الحسن البالغ (Beau Idéal) بالاقاويل المخيلة الموزونة

---

١ ونخص بالذكر المطران جرمانوس فرحات (١٦٦٠—١٧٣٢) من حلب والخورى نقولا الصائغ (١٧٥٦) والسيد احمد بن عبد اللطيف بن احمد البربير الحسنى (١٧٤٧ — ١٨١١) من بيروت ومخائيل صباغ (١٧٨٤ — ١٨١٦) من غزه والياس فطر السيوطى (١٧٨٠ — ١٨٢١) من اسيوط ونقولا الترك (١٧٦٣ — ١٨٢٨) من دير القمر (سوريه) والشيخ رفاعه الطهطاوى من طهطا والشيخ نصيف اليازجى (١٨٠٠ — ١٨٧١) من كفرشيما (سورية) وبطرس كرامه (١٨٥٠) ومحمد شهاب الدين الحجازى (١٨٥٧) من مكة ومحمود باشا سامى البارودي ناظر النظار سابقاً وعبد اللطيف البغدادى وعبد الله باشا فكرى ولد بمكة ومات بمصر سنة (١٣٠١) هـ والسيد عبد الله نديم ولد بالاسكندرية ومات بالقسطنطنية سنة (١٣١٤) وهو وعبدالله باشافكرى ممن نفى ابان الثورة العرابية وافرج عنهما وعلى افندى درويش من مصر (١٨٦٧) ونقولا نقاش (١٨١٧ — ١٨٥٥) من صيدا وامين الجندى من حمص (١٨٤٠) والشيخ أبو الثناء محمود من تونس وابراهيم دنيوس من الجزائر والسيد عبد الغفار بن عبد الواحد (١٨٧٤) وعبد الرحمن ابن ابراهيم الصوفى وكلاهما من الموصل وكثير غير هؤلاء ضربنا صفحاً عن ذكرهم لضيق المقام

فلذلك منهم من اضاعه في مديح الامراء و بعضهم دخل عليه من غير بابه واتخذه حلية على عطل وفريق ضيق عليه والتزم فيه خطة من سبقه ولم يلو فيه الا على مالوى عليه القدماء بطبيعة الحال فاقتصر على وصف النوق والظبا والمها والعتاق الاعوجية والذهاب الى الخيام تحت جنح الظلام فكان كل شيء في عينيه سراباً فتراه يتغزل بالعقيق واهيله ويذكر سلمى وسعادوليلى ولبنة وحريرة وغيرذلك مماهومبتذل لا يدل على شعور حقيقي طبيعي :

فكم هائم اسباه منها الذي يسبي　　فلانك في اطلال مية هائمـا
بسهمى لحاظ ثم سربي الى سربي　　ودع ميتا غيلان مى بميـة

فان كثيرا من الشعراء المولدين والمحدثين قد نحوا هذا النحو على غير هداية ولم يدركوا أن موضوع الشعر لفسيح المجال فامامهم الكون الجميل باسره يطوف به الشاعر باجنحة الخيال ويسرح فيه البال ويمرح به ويختال .فحينا يصف الطبيعة مثل المصوركما تجلت امامه بكل مشهد فتان مما لا يشعر به كل انسان متنقلا من مكان الى مكان وتارة ينظر بعين البصير الى حوادث الايام ويؤبدها في قالبه الشعرى كالمؤرخ وأخرى يحيي ويحيي عظام الرجال العظام ويميط عن آثارهم اللثام فيقرب لنا الغابر كاننا نراه وطورا يناجي باسراره من تعذر مزاره وبعدت داره وآونة يقف في الناس واعظا حكيما يرى المستقبل ويتملك على مجامع القلوب فيدير حركاتها ويثير اهواءها حملا على ما نحمد عقباه واحيانا يخاطب الجماد ويجعل الشعر في فم الحيوانات حكما وعظات وغير ذلك

مما توحى به عليه عروس الشعر

كفانا نريش سهام الملام تشكيا من الدهر فما الدهر وحقك بملوم بل نحن أسأنا اليه فعادانا واقتصرنا على اللهو والزهو فلهى عنا وارادنا

ألا ناشدتك الله لم نضيق على انفسنا المجال وهو رحب وننتاب الاوصاف نفسها التى اخلقها الزمان لقدمها ولماذا لا نزال على غرب النجائب هابطين بطنا ومتيممين نجدا ولدينا قطارات البخار تنساب كالاراقم فوق جسور تكسوها خطوط حديد

مالنا والعقيق ومربع تهمدوالا نمادولنا في حواضرنا من المتنزهات التي تسحر الالباب وتقضي بالعجب العجاب. هل ضاقت بنا اختراعات هذا العصر عصر البخار وابي العصور أم هل وصفنا كل هذه المكتشفات وكشفنا عنها النقاب ولم نعثر على تشابيه جديدة مبتكرة

فالوداع اذن ايها الشعر القديم ان هذا العصر ليس عصرك فتنح لغيرك. وانت أيها الشعر الجديد عليك السلام فاليك الآن ينصرف الحنين والهيام لا الى لبنة وسعاد. ارفع لواءك وأمط لثامك ولا تخش شامتاً ان قوما غفيرا حياك. انما حافظ على حقوق شقيقك ولا تنس فضله عليك والسلام لمن اتبع الهدى

حلمي

ذكر

ذكركم هيج قلبى التملا — شفه بالوجد حتى اندملا
ذكركم أوسع جسمى عللا — فاعجبوا يا قوم مما فعلا

يا لذكر قد أثار اللهبا — بفؤاد في هواهم قد صبا
وبسري نم لما غلبا — فجرى دمعى دما منهملا

يالذكر مت حبل الامل — فسقاني جرعة من وهل
ولقد أرسلنى كالمثل — فى الورى ياليته ما مثلا

هل رأيتم مثل سقمى في العباد — هل علمتم أن فرشي من قتاد
فالجوى كحل عينى بالسهاد — ورداء الحزن فوقى انسدلا

إن لى فى حبكم سرا عجيب — لوتجلى حرك الصخر الصليب
ياقومي قدهمى دمعى صبيب — انتم رحتم وقلبي ارتحلا

آه من علمكم هذا الجفا — بعد أن كنتم فى عين الوفا
علموكم فى التجافى السرفا — وبوصلى أن تكونوا بخلا

فتنوا قلبى وكبدى اربا — برحونى لست أشكو نصبا
عذبونى فعذابى عذبا — اظلموا فالظلم عندى عدلا

يالقومي هل تذكرتم غريب — هزه التذكار كالغصن الرطيب
فاسمحوا ياقوم بالوصل القريب — كم وكم اتعبت فيكم رسلا

كلما أسمع طيراً يسجع — كلما انظر بدرا يطلع
كلما أرقب برقا يسطع — قد تروني في التصابي ثملا

كثرت عندي منكم صور — مثلتكم لى كما هم قدروا
لا...وهل حل بلوح قمر — كي تحلوا فيه انتم أولا

يابدوراً قد أنارت غلسا — عللينى في وصالى بعسى
أنت فى فكرى صباحا ومسا — آه لوتحيين منى الاملا

بيروت فى نوفمبر سنة ١٩٠١

رؤيا

وذنبقة بالطهر ساد شذاها — وشاق الورى طراً كمال بهاها
أحاطت بها الاشواك من كل جانب — ومن حقدها مدت نصال قلاها
فلما رأت عين السماء اضطهادها — بكتها فكان الدمع تاج سناها
فقالت لاخت شاركتها بحزنها — تعالى فما بالارض غير رداها
فهيا بنا نحو السماء التى بكت — علينا عسى داعى القبول بكاها
فلبت دعاها الاخت دون تردد — لان عناها كان مثل عناها

وحينئذ نحو السماء توارتا كفرخي حمام رفرفا بسماها
أجل رفرفا نحو العلاء تحظيا على المجد ان الارض قل وفاها
الى هذه الارجاء قد سبقتكما بكل تقي أم أريق دماها

بيروت في فبراير سنة ١٩٠١

تخميسه ابيات للفارضي

مهلا ايا من ملكت القلب محتكما هل ترتضي أن يقولوا حاكما ظلما
فاعطف لئلا يذوب القلب مضطرما «بحق عصياني اللاحي عليك وما
بأضلعي طاعة للوجد من وهج»

مهلا فان الجفا عندي شبيه نوى وما لداء الجفا غير الوصال دوا
مهلا حبيبي ففيك القلب حار هوى «وانظر الى كبد ذابت عليك جوى
ومقلة من نجيع الدمع في لجج»

كفاك اشعلت في احشائي القبسا لما هجرت ولولا الوعد مت اسى
ألا انجز الوعد وافرج عني الهوسا وأعطف على ذل اطماعي بهل وعسى
وامنن على بشرح الصدر من فرج»

بيروت في فبراير سنة ١٩٠١

الجديدات في بستانه

أشهر الصبح حسامه	وبدا يرمى سهامه
ورآه الليل يدنو	فطوى حالا خيامه
رام أن يهرب ممن	جاءه زحفا ورامه
ذاك منصور وهذا	مدبر يعدو أمامه
وبدت رايات نور	بددت عنا ظلامه

وكذاك الحق يسطو	عند أهل الاستقامه

فاعتلت شمس الضحى تز	هو ككاسات المدامه
سطعت فوق الرواسي	مثل تاج فوق هامه
وغدا الطير يغنى	ويهنى بالسلامه
ويميل الغصن تيها	مثل من نال مرامه
وثغور الزهر عجبا	قابلتها بابتسامه
وخدود الورد بانت	للحيا فيها علامه
والرياحين تهادت	عرف نشر مستهامه
فكأن الروض أضحى	للصفا مغنى إقامه

ثم الفيث فريخاً	ذا اكتآب وسآمه
فكأن الدهر جوراً	بالرزايا السود سامه
قلت ما للطير يبكى	قال يشكو لى هيامه

إني والله أدرى لست من هذي المقامه
كل مرأى في ذراها نصب عيني كالغمامه

بكفيا (لبنان) في ابريل سنة ١٩٠١

المال (١)

ألغزت في اسم شاق أهل زماني فتجرعوا غصصاً من الاشجان
حجوا لكعبته وشدوا رحلهم من شاسع الاقطار والبلدان
وترا كضوا وتسابقوا وعدوا الى مغناه رسلا مثل خيل رهان
مالوا وما ملوا وقد ذلوا فهم عشاق شائق قده الفتان
لله مولى ذكره ساد الورى بسنائه يسبي حجى الانسان
هو «المال» أخر رأسه وجزاهم «ألما» ينغص راحة الابدان
هاموا بحبه خالعين عذارهم واستبدلوا خلد البقاء بفاني
عهدي به «أمل» سدى يبدو لنا «مذ حل أوله محل الثاني»
يا جامعاً للمال مل عنه فرا حته عناً ورجاه خيب أماني

بيروت في ابريل سنة ١٩٠١

---

(١) حل لغز اقترح في مجلة المشرق

الفتاة المسكينة (١)

وليتُ عن هذا المنام المقلق إذ ليس فيـه خيال آمال يقي
فظللت اهبط في الشعاب وارتقي سحراً وأعلام الضحى لم تشرق
وحشاشتي في لوعة وتحرق

يبنا على الغصن الرطيب الطائر بلذيذ شجو فضل ربه شاكر
والأم نحوه بالغذاء تبادر آها فشقت مهجة ومرائر
وانهل سابق مدمعي المتدفق

لم ليس لى أم ترق لشقوتي لم لم أكن كالطير ذات مسرة
فالطير قر قراره في ايكة فوق الغصون الزاهرات الغضة
ومن الندى المنظوم حوله يستقي

مالي حمى في كنفه أتردد كلا ولامهد عليه أرقد
من لى بذي حلم وفضل ينجد اني فتاة ليس لى من يعضد
ألفيت قرب كنيسة الحي التقي

اين الاحبة أين أمي أين هي فالوجد باقٍ والجوى لم ينته

---

١ معربة عن قصيدة افرنسية تدعى La pauvre fille للشاعر الافرنسي اسكندر سومه Al-Soumet وادرجت في المشرق الاغر في العدد ١٢ السنة الرابعة

ماذقت منهم شهد أنسهم الشهي　　بل ذقت كاسات النوى بتوله
واليف ود بعدهم لم أرزق

ياما أحيل الأهل إذ تتجمع　　إبان يسدل من ظـلام برقع
هم يصطلون بقرب نار تسطع　　فى غبطة بينا أنا أتهجع
اشكو الفراق بدمعي المترقرق

وبنات هذا الحي باتت فى طرب　　متنافسات بالأوائل والنسب
متناشدات مائسات كالقضب　　متبرجات في الحرائر والقشب
وأنا أصبت بسهم فقر مرشق

وانا الوحيدة نحو ظل المعبد　　امضي فبيت الله مأوى المطرد
وهناك أقضي ليلتي حتى الغد　　بتنهد　　وتهجد　　وتعبد
على بمن قد فارقوني التقي

ياطالمـا جبت الديار بعبرة　　قلبي على جمر الغضا من حسرتي
حتى أرى أثراً على الارض التي　　امي بأدمعها الذوارف بلت
لكنّ دهري من صروف لم يق

ياجل ماطفت القبور بلا اهتدا　　شوقي هـداني والتوله ارشدا
امضي وقلبي في رداء من ردى　　والمدمع المهراق خدى خددا
وأقول من يأس أيا نفسي اخفقي

أنفقت أيامى بسح الادمع　　بين القبور وفى المكان البلقع
ها قدذكت نار الجوى فى أضلعي　　أواه يا أماه هل من مرجع
حتى ترى مسكينة فتشفق

بيروت فى مايو سنة ١٩٠١

استعطاف (١)

مازال قلبى عنك مائل　　والدمع فوق الخد سائل
وأقول للعزال قو　　لاليس فيه من يماول
مهلا فقد ضيعتم　　أيامكم من غير طائل
اجهلتم أمر الهوى　　أم كان جهلكم تجاهل
إن الغرام لمنهل　　من ذاقه ذاق الفضائل
حاشاى أن اروى الظما　　من غير هاتيك المناهل

وارحمتا لمتيم　　اضحى أليفا للقلاقل
متكلف ستر الهوى　　عن قومه والوجد ناقل
كل الورى قد هم في　　عذلى فكم لى من عواذل
وانا اقابلهم بقا　　ب لم يزل في الوصل آمل
قلبي كغصن كلما　　نسمت جنوب فهو مائل
عجباه من زمن به م　　اصطادت ظبا اسدابواسل

(١) وضعت فى الاصل فى رواية

أبليتنى يا هاجرى ناهيك أن الهجر قاتل
بالله لاتك جائرا بل دع خيال الطيف جائل
بالمـال أنك مسرف لكن بوصلى أنت باخل
سائل نجوم الليل عن ارقى فتخبر لوتسائل
فوحق عهدك اننى مابت عنها قط غافل
اظلم فاني طائع مهما ظلمت فانت عادل

يا طرفه بالله أنى م صارم في الغمد صائل
يا ورد وجنته لمـا ذااليوم منى صرت خاجل
كالبدر طلعته وليـــس البدر كل الشهر كامل
سعدے بتقبيل اللمـا يا غبطتي لو كان قابل
اهفو اليـه ما شدا طير الحمائم ـفى الخمائل
للغير انى باقل ولوصفه سحبان وائل

طهطا فى يوليو سنة ١٩٠١

فى البحر

هل أرتجى لدجي الجفاء صباحا لأرى الجبين الزاهر الوضاحا
أسفاه قد كادت أويقات الصبا تمضى وفجر مآربي ما لاحا
عشرون عاماقد مضت خطفا وفى نادي صـفا ما ذقت يوماً راحا

حتى غدوت اقود خلفي ناحباً ثقـل الحياة مقاسـيا أتراحا
متنقلا في تيه خلوات وقد آليت ألا اسمع النصاحا
ومدامعي حمر خدودي خددت وجوانحي اشتعلت وقلبي طاحا
اصبحت مثل الطير في قفص كلا نا أن من أسر كلانا ناحا
لكن لي أمل يمهد لي السبيـ ل فلو مضيت به ينوب جناحا
واذا على الدأماء سرت اليهم فيكون ثمة شوق الملاحا
واذا صبا هبت كأن نشقت من ذكراهم الريحان والارواحا
ومضت بروق ذكرتني حسنهم فانهل سابق مدمعي سـفاحا
وسدى كتمت عن الوشاة سريرتي والوجـد قد اضحى لهم فضاحا
لما وقفت ببابهم أرجو الرضا أملت مأثرة الوفا المفتاحا
ورأيت نفسي في دياجير الجفا أيقنت حسن رضاهم المصباحا
يا أهل ودي رحمة لاسـير إلا ف في فداكم يبسط الارواحا
ايامه سـقم وأتراح وقد كانت بكم أيامـه أفراحا
منوا اليـه بلحظ عين انه ما زال طرفه نحوكم طماحا
لا تنكروا جزلي وتهليلي اذا ما الوصل في أفق الصبابة لاحا
ما زلت في يا رب وصـل منكم يا ليت ربي بالوصال أتاحا
فهبوا فؤادي الصلب ليس فؤادكم فالمغنطيس بجـذب صلب باحا

بيروت في يونيو سنة ١٩٠١

الصليب فوق الضريح (١)

وغب ان توارى قرص الجونة وراء هضاب المغرب خرج من قصره شاب متشح بالحداد قريح الفؤاد يستشف من سحنته أثر الحزن الفادح والوجد القادح فسرى كعادته متيما ضريحا ثوى به قلبه على مقربة من عين اصفى من الدمعة وهو ينشد :

اتيت كعادتي والشوق نام أقوم بذمتي والدمع طام
اتيت اليك يرشدنى هيامى ويسترني الجناح من الظلام
وقصدى ثم اهداء السلام

ثم القى عصا التسيار بعد ان قطع مسافة نصف ساعة عند قبر من الرخام عليه تاريخ فقيده حفت به حلقة من الآس والرياحين وظللته شجرة الخلاف باغصانها المنسدلة فوقه . وجلس في مكانه المعتاد واسند رأسه على مقدم الرمس كانه يريد مناجاة دفين القبر . وظل هكذا هنيهة واجما تحرقه اللوعات وتخنقه الزفرات ويتصاعد بين هذه وتلك أنين الشجو والالم :

أتيتك يا صديق على انفراد لعلى منك أحظى بالمراد
فقم حتى م تبقى في رقاد وقد كحلت جسمى بالسهاد
فمهدى منك لحظ بابتسام

(١) ظهرت فى مجلة المشرق الغراء فى العدد ٧ السنة الخامسة

اتيتك راغبا في أن أراكا		فقم لاليف ود قد أتاكا
وعفر غض خده في ثراكا		وقبله ثلاثاً في هواكا
وناح كنوح ورقاء الحمام

ثم رفع عقيرته والدموع تترقرق من شؤونه فقال :

ومن عجبي اشتكيت من الفراق		وشبر واحد منع التلاق
لئن اصبحت طيّ اللحد باق		وملت الى الافول بلا لحاق
فشخصك في الفؤاد مدى الدوام

واذ ذاك كان الاديم صافياً والنسيم مصافيا وزهر النجوم تتلألأ في بساط السماء الازرق . فالسكون سائد في هذه الانحاء لا يطرق السمع الا خرير النمير المجاور وحفيف خفيف يتجدد عند معانقة الاوراق بعضها لبعض كلما جر النسيم العاطر ذيله مع عندلة الهزار يسبح ليلا على الغصن الزاهر خالق هذا الكون العجيب الباهر فانشأ يقول:

خريرك يا نمير هو النذير		فقد تسرى الحياة كما تسير
فهب صفت الحياة فما المصير		أما مرسى الانام هى القبور
أما سير العباد الى الحمام

كفاك تميس ياغصن الخمائل		فطرفى عنك في ذا اليوم غافل

فطوراً أنت بالازهار رافل   عليك الطير يشدو وهو جاذل
ولكن طير قلبي ظل صامي

وانت هزار حندسة الظلام   رويدك صوت صدحك كالحمام
فصه إني بغير هواك دام   ألست ترى دموعي في انسجام
وقلبي فى غشاء من سهام

ثم اطرق قليلا وانبعث فى انشاده :

سدى تزهين يا دنيا لانى   رويت من الشجون وكل حزن
فليست آلتى مما يغنى   بكل ترنم وبكل لحن
فصوتى صوت نوح لا غرام

كأنى قدخلقت لكى أقاسى   نكالا حار فيه كل آسى
لقدطفحت من الاحزان كاسى   وصرت بلاأنيس اومواسى
لذا الدنيا بعينى كالظلام

فما فيها يصير الى الزوال   ويمسى موطئاً تحت النعال
وقد يغدو رخيصا كل غالى   وبعد اليسر قدتأتى الليالى
فهل من مسعف من ذا العرام

يذر على الملا ملك الضياء   ويشمله بثوب من بهاء

فيحكى الطفل نوره في الضحاء　　ونصف العمر في كبد السماء
ومغربه نذير الانصرام

ونجم فى بساط الافق سائر　　أراه وطرفه ساه وساهر
ونوره في الدجى زاه وزاهر　　هوى فوهت به كل البصائر
فيا أسفى على بدر التمام

وبينا كان يتلحن بهذا الشطر الاخير اذ شعرت عينه بنور ضئيل فانذعر له وسكت بغتة ورجع الى نفسه فرأى ان شعاع القمر خرق أوراق الاغصان التى كانت تظلله فاضاء بصره وانار الصليب الذى كان قائما على ذروة الجدث فرسم له ظلا كاملا نصب عينيه

حينئذ التفت ذات اليمين واليسار خشية من عين الرقيب ثم أطرق رويدا متأملا فى هذا المشهد العجيب ورفع عقيرته يخاطب القمر:

أجئت تزورنى فى حال همى　　وتقشع ستر دجن كاد يعمى
الا دعنى أموت صريع سهم　　أصاب حشاشتى وسرى بعظمى
فضاق بفسحة الدنيا مقامى

أجئت من العلاء تحل أسرى　　وتبعث لى شعاعا فيه يسرى
وهل وافيت تكشف ستر أمرى　　وتكفينى الظلام فيا لسر
أيا وفد السما اصدق كلامى

وكان فتانا يشخص الى القمر المشرق عليه بنور كمد كأنه يناجيه ويسائله ثم حول نظره الى شبح الصليب الذي فوق الضريح فشعران قلبه يستعذب هذا المنظر لما يجد فيه من السلوان فبهت به

وظل طرفه محدقا اليه وفكره جائلا فيه حتى تبدد عن بصيرته غيهب الحزن فبرقت اسرته وجف مدمعه الساكب وضاء وجهه الشاحب وعاد الى سابق نضارته فقال :

صليب مليكنا رب الجلال ... صليب النور يا ملجا الموالى
اليك أنوب من قبح الفعال ... وارجو ان ترق لسوء حالى
فبالأرزاء قلبي صار دامى

أراك هنا فماذا انت فاعل ... اتحرس ذا الضريح عن النوازل
اتسكب فوقه الاحسان وابل ... وكل عنه في اللذات غافل
افعل كل ذا لهوى الانام

أجل اني أرى لم أنت حاضر ... فليس لغير قصد أنت ساهر
تسائل رحمة من كل سائر ... لمفقودى وتجلب كل زائر
لذا جعلوك فوق القبر سامى

فانت هنا تجيب المستميحا ... اذا ما جاء يفتقد الضريحا
فياربي استمع قلبا جريحا ... اليك قد سما جسما وروحا
لتغفر ما اقترفته من ملام

أأهل مودتي خلوا شجانا تعالوا واقصدوا هذا المكانا
وصلوا للفقيد معي «أبانا» فإن يسوع تعزية الحزانى
وحيوه بآيات السلام

بيروت في مارث سنة ١٩٠١

الا يامن تصلون اذكروني [1]

(ترجمة)

تمادى السقم بالمضنى الحزين يريه الموت حينا بعد حين
فاصبح فاقدا الف القرين يفكر في صباه بالشجون
ودامى الدمع سال من العيون

يقول لحبه عند الغداة بقلب شاعر قصف الحياة
اليكم ثم أوقات الصلاة ورنات النواقيس النعاة
ألا يامن تصلون اذكروني

ولكن حين تلفون النميرا توارى بين أدواح مسيراً
واوراق به انتثرت نثيرا فقولوا ان ذا المضنى الاسيرا
نجا دوما من الداء الدفين

---

١ هذه القصيدة من نظم ملفوا نسج بردتها في نيلي ثمانية ايام قبل وفاته

فحينئذ تعالوا عنــد قبري اعيدوا نخبة من نفس شعرى
وخلوا الدمع فوق الخد يجرى وأنى رنة الاجراس تسرى
ألا يامن تصلون اذ كروني

قضيت العمر في كرم الخلال اعرض للقلى طيب الخصال
وصنت النفس من قبح الفعال وزدت بها كمالا في كمال
فلاقيت القضا نضر الجبين

وقد مضيت ايامي سريعا فما اني ابارحها ربيعا
كغض الغصن قد أمسى صريعا ولكن ذا القضا عم الجميعا
الا يامن تصلون اذ كروني

وأنت أيا حبيبة كيف عنى ودهرك قالب ظهر المجن
وهبتك كل عمري غير أنى اراه كشعلة فى خيط قطن
فأمسى طى رمسي كالرهين

ألا يا أهل ودى أعذروها وفي المنعى بربكم ذروها
وعند صلاتكم سمعا عروها تروا عني تقول بملء فيها
ألا يامن تصلون اذ كرونى

بيروت فى مايو سنة ١٩٠١

الشاعر المائت

تعريب (Le Poète Mourant) للشاعر لامرتين

تشظى (١) كأس عمرى وهو زاخر　　وقد فرت حياتي مثل طائر
بأنفاس أحر من المجامر　　وفي ايقافها لادمع قادر
ولا حسرات قلب كالبواتر

وجنح الموت يخبط غيرواني　　لينذرني بمقربة الاوان
على الجرس الذى علنا نعاني　　وبالدقع المقطع قد بكاني
أأبكى أم أغني يا معاشر

أجل لم لا اغنى والانامل　　على الاوتار ما فتئت شواغل
اغنى بالختام لكي اماثل　　فريخ البعج (٢) حين الموت ماثل
فثمة يلهم الموت الخواطر

فذا يمن يرى في كل شاعر　　يشام به وميض السعد زاهر
إذا ارواحنا كانت بواهر　　وحباً يرفع الاميال طاهر
لتشدو بالنشائد في الآواخر

---

(١) بمعنى تحطم (٢) البعج هو طير من نوع الاوز يسمى عند الفرنساويين (Le Cygne) يقال انه يغنى احسن غناء قبل ان يستسلم الي الموت لذلك يكنى عندهم بغناء البعج (Le Chant du Cygne) آخر وانفس شيء قاله الشاعر أو المغنى او الخطيب

يصيح الطين بالصوت الرقيق　　اذا انفصمت عرى الوتر الوثيق
وقد يزهو باشراق رشيق　　سراج حين ييأس من مفيق
كمن يقرى السلام على المسامر

وآخر ساعة نحو السماء　　فريخ البعج يشخص بارتقاء
واما المرء ينظر للوراء　　ويحسب كل أيام البقاء
ليكيها بتهتان المحاجر

فما هي هذه الايام أجمع　　ليكيها انتحابا كل مولع
اما شمس باثر الشمس تطلع　　وساعات بها الساعات تتبع
يضاهي كل آت كل غابر

فما يأتي به هذا اليكا　　امرك ذاك يسلب من يديكا
فشغل عبثه قاس عليكا　　وحينا لذة تبدو لديكا
وعقب اليوم جنح الليل ساتر

ولكن فلينح ندما وقهرا　　من ابتسمت له الايام ثغرا
فمال الى محاسنها وسرا　　وفى ذا اليوم ذاق الشهد مرا
ويجزع كيف تبلعه المقابر

وإني لست ممن قد تأصل　　بارض عن مطاها سوف يرحل
فما انا نازح عنها ومعذل　　بلا بطء كما الاوراق تحمل
بذيل الريح ليلا وهو سائر

فأحرى أن يكسر كل طبن إذا لم يرج منه غير لحن
رويداً سوف يانفسي نغني بطبن السارفيم فلا تئني
وتعسف بين أيديك المزاهر

رويداً سوف نرتع في الخلود ونصدح في ذراه بالنشيد
هناك تقود قوات الجنود بترنيم سماويّ جديد
لمجد المقتدى رب العناصر

رويداً... غير أن يدالقضاء بأوتارى اختلت دون ازدراء
فبتت تحت باهظ ذا البلاء وصاحت صيحة نحو السماء
كمن يشكو اليها ظلم جائر

ألا يا أهل ودى ساعدونى فطبنى صار أبكم فانشدونى
خذوا آلاتكم ثم اطربونى لتسمو النفس من دار الشجون
لدار الخلد مع لحن المزاهر

طيطا في سبتمبر سنة ١٩٠٢

الغريب والفراش

في أحدى ليالى أيار (مايو) حيث القمر الفضي مكتمل الابدار يسري الهوينا فى حديقة السماء الشاسعة تحف به عصابة من الكواكب الناصعة ونسيم الليل البليل يروي احاديث الازهار فيعقب الارجاء أرجه ويبرى الدنف عليله كان شاب فى مقتبل العمر قد بات فى حجرته سمير الفرقد يتأوه الى وطنه ويحن ويذوب عند ذكرى حبيبته ويئن والطبيعة تميد خيلاء في غلالة الصفاء

***

بارح ف شرقه العزيز مكبلا بسلاسل من الاحزان اذيرى نفسه منقادا (وهو برئ أمام الله والناس) الى جزيرة منفاه مفارقا حبيبة الروح وروح الحبيب على غير آمل الرجوع

فمضى وهو نضو فراق اليف التذكار وحليف الاكدار يكتم ما به من سعير الشوق فينم الوجد. فنفر عنه الكرى اذ ذاك وجفاه وبرحه البين واضناه وشفه الهجر وابراه وامتقع لونه وخارت قواه وانذر بالموت القريب ضناه

هذا وقد كان اتخذ كتب الهيام رسلا الى حبيبته يشكو اليها طول غربته وشديد حرقته ولوعته ويبث اليها لواعج أحر من المجامر وزفيرات تصدع بما فى صدره من الوجد . وكانت ترد عليه أثناء ذلك رسائلها تترى مستوعبة ذكر أيام الصبا وعهود الحب الوثيقة

***

ففي ليلة سكنت بها حركات الطبيعة وساد الهدو اختلى ف بنفسه فى حجرته واتجه باجمعه نحو حبيبته يسر اليها حديث اسرار الصبابة

والهيام ويصف لها ما ألم به من ألم النوى وفؤاده تلظى كجمر الغضا

وبينما هو كذلك شعر بأن كاد صدره ينفجر لما ضمه من الاسى . فتعذر عليه أن يصعد الزفيرات ويردد النفثات فقام من فوق منضدته ووقف في شباكه المطل على رياض ذات منظر جميل يسرح الطرف ويبرد الغليل برقة النسيم العليل . ونظر الى حيث حبيبته كانه يريد أن يشق حجاب الليل وينظر ما وراء الفضاء المتعرض بينه وبينها . ثم اناط طرفه بنجم يتلألأ في كبد السماء . وتنهد قائلا:

آه ولى وقت الصبا دون علم   مثل من قد تعاشقا في حلم
طرحتني النوى بارض العجم   دون وصل يرجى فيا للظلم

فجبال وأبحر وسيول   ورمال إثر الرمال تحول
كلما اسرى في المضاب تطول   وقتام يزيد ديجور همي

هل سبيل الى عزيز لقاك   هل دليل يهدي الى مرآك
لا ولكنما سمائي سماك   فانظري ان الوصل في ذا النجم

فهناك الطرفان يجتمعان   ويبوحان بالذي في الجنان
أوما كنا قبل هذا الاوان   إتخذناهما لسان الفهم

كثرت بين البعض في الحب كتب   وشكت رسل بين من قد احبوا
رب من ضمهم جنان خصب   ولقانا بالطرف في ذا الجرم

قال هذا واغرورقت مقلتاه بالدموع الهمول تنحدر على خديه وتسيل . وكانت في الشباك وريدة متفتحة حديثا قد اعتنى بهـا كل الاعتناء وسقاها الصباح مع المساء

فلما استروح رواح شذاها التفت اليها فرآها وكأنها تبسم له وتريد تقبيله . فتحركت اذ ذاك بنفسه العواطف الشجية واثالت على ضمائره المعاني القلبية وثابت الى خاطره المبتكرات الشعرية فانشأ يخاطبها :

وردة الروض ما أرق شذاك | بهجة الرآئي ما أجل بهاك
ماترومين اليوم في شباكى | أتسلين مدنفا ذا سقم

يا جناني في خلوتى وشقائى | ياعزائي فى غربتى وعنائى
انما لايبقيك حكم القضاء | غير يوم فيا له من حكم

وبعد عاد فجلس على كرسيه وكان الحزن قد أخذ مأخذه وانشب فيه ناجذه فأمال رأسه على يده اليسرى وغاص في لجج الافكار وما عتم أن ران على جفنيه النعاس فصار نشوان سلافه العذب

وفى ذاك الحين دخلت من الشباك فراشة قد ساقها الى هـذا المكان النور المنبعث الى الخارج . فأمت توآ المنارة التي كانت فوق المتضدة امام ف*** واخذت تدور حولها مثل مألوفها . ثم دومت قليلا فوق النائم وحطت على ثغره العنابي فاستيقظ مذعورا متذمذما وقد كان شاهد في الحلم أن حبيبته لابسة أثواب حداد يائسة من طول

البعاد وساكبة دموعا كالنجيع

وأول ما فتح عينيه ألفى الفراشة تدوم بأجنحتها البلجاء على منارته فتطير من ذلك ومكث برهة قطبا للهواجس وجسمه يرتعدفانشديقول:

من أتى بالفراشة البلجاء عند صب ذى شقوة وبلاء
مالها بي حلبفة العلياء أيقظت صباً غارقا في الحلم

آه لم يبق لى رجا فى الحياة عن قريب يعم ذكر وفاتى
فيعدوننى من الاموات ويقولون : يا لخطب الام

كل شيء يدل أنى راحل عنك يادنيا فلتهن العواذل
عشقت نفسي غيرهذى المنازل آه يانفسي فارقى اليوم جسمى

وقبل أن يتم هذا الشطر الاخير :

آه يانفسي فارقى اليوم جسمى

خرجت الفراشة من الشباك ترفرف بأجنحتها البيضاء فى ضياء القمر الكمد فاوماً يقول :

إذهبي من سجن المحب الغريب وامرحى فى زهر الجنان الخصيب
ودعينى في حرقة ونحيب فانا قد أموت دامى الكلم

إذهبي واقضي العمر في التفريح واتركينى في النوح والتبريح
واقصدى في الضحى شقيقة روحى وصفي ما رأيت بى في نظم

حدثيها عمـا رأيت وقولي قد قضى الحب من جوى ونحول
قد قضى في هواك دون وصول لا تحدي عليه لاتغتمي

آه قولي لهـا السلام عليك لم أتح حظا للوصول اليك
انما الوصل في العلا فعليك حفظ عهدي وتعملين بحزم

ثم اطل من الشباك ونظر نظرة اخيرة وكان الغمض عدوه اللطيف قد استظهر عليه فانطرح على سريره خار القوى. وكانت صورة حبيبته تحت وسادته فتناولها وقبلها وضمها الى صدره وبعدئذ استسلم بسكون الى حضن النوم . وكان هو النوم الذي لا يرجى منه تيقظ هو النوم الابدي .... وثمت سطعت المنارة التي كانت على منضدة شغله مرة اخيرة بنور زاه ثم انطفأت ودون ذلك نور

مصر في يناير سنة ١٩٠٣

الى باريز

خلنا من ذكر سلمى وتناسى عهد سلمى
واهجرن حجر غوان تيههن الكبد أدمى
وعلى باريز عرج لترى ما كان حلما
فهناك « برج إيفل » شق ستر الافق عظما
«والتروكادير» راس قربه يعظم جرما

وبميدان «الايزا» ترد الافواج جما
ثم زر «قصراً كبيراً» اسمه نعم المسمى
«وانفليدا» فيه قبر شخص «نابليون» ضما
كم به رايات قوم سلبت في الحرب رغما
قل على القبر سلاماً للذى قد كان قرما
والى «فرسايل» اذهب لترى كم هي عظمى
في اراض هي احرى برياض أن تسمى
سرح الطرف بها كم شتتت هما وغما
«للويس» الشهم ابقت كل مجد ساد قدما
حفظوا فيها سريراً لم تشاهده سليمى

ياقصورا قد تسامت في العلا تشبه نجما
ومحت ذكر سدير صيته في الكون عما

«غاب بولون» ألافي م اللفظ كم تعذب إسما
ما أحيلاك جناناً راق في العينين رسما
أنت ملجا شعراء فيك تمضي العمر نظما

باريز في يونيو سنة ١٩٠٣

نابليون الاول

أيها الباسل كم تيمت صبا وسفكت الدم في الغارات صبا
وكسوت الجو جواً من بخار وملأت الارض والارضين رعبا
بالحسام الفرد اخضعت أربا بعد ان دمرتها شرقاً وغربا
بعد أن مزقت منها كل رحم بيد كانت على الكاهل صلبا
ونثرت الشلو إثر الشلو فيها وبأعلام الاعادي عدت كسبا
وبهذا النسر حومت عليها يوم قد مزقها المخلب إربا
بين جنح النسر شامت برق حتف منذرا فارتعدت قلبا ولبا

أيها القرم أما تتعب حينا بعد ان اتعبت قوات أربا
او ما تضجر من حمل العوالى طالما اشعلت اثر الحرب حرباً
أوما تخفق والفرسان تهوى لا وهل مثلك قد يخفق قلبا
أنت تلهو كلما المدفع يدوى انت تبدو فى رحى الميدان قطبا
أنت تصفو كلما اشتد قتال وبقوات العدا تلعب لعبا

يالقرم قد يثير الحرب شرقاً ولظاها قد يجر الويل غربا
كل من تحتك مهر عربىّ فوقه جزت الوغى طعنا وضربا
بعد ان خضت به لج المنايا بعد ان أدميته صدرا وجنبا
كم على حد الظبا سالت نفوس كم رجال فى الوغى جرعت نحبا
ليت شعرى كم أبيدت عائلات أبدا ما ارتكبت فى الحرب ذنبا

فرويدا ان فرسانك أنوا   وتواروا فى الفيافي بك حبا
ثم ضجت تعبا منـك فرنسا   بعد سفك الدم فوق الارض صبا
واستغاثت بك مهلا ثم مهلا   أمن الصوان قدوا لك قلبا

انما قد اطربتك الحرب قلبا   وجناناً فبها اصبحت صبا
وبخار الدم فى رأسـك هبا   ولهيب الحقد في صدرك شبا

فرويدا ان أوربا تفانت   وأقرت لك بالنصر أربا
وأتت تسأل منك الصلح عجزاً   وغدت تطلب من قدرك قربا
لا .. معاذ الله ان تحجم عنها   وبحجر الحرب نابليون دبا
ومعاذ الله ان تنفك عنها   وبك البأس الذى ينطح شهبا

ايها الباسـل بكفيك حروبا   نسرك المنصور قد احجب سحبا
طالمـا اخضعت اعداءك قسراً   طالما اهملت بل اغضبت رباً
طالما اجريت في الارض دماءاً   طالما أضمرت خطبا جر خطبا
أنت تغتر بعلياك شموخا   أنت تغتر بعيد النصر عجبا
لا تكابر بالمعالى والعوالى   سوف نلفيك تذم الدهر تباً
لا تقل مستقبلى فى قبضتى م   فالامر في قبضة مولاك استتبا
من ذرى الاهرام أدمى النسر سهم   وبها استرليز قد أترب تربا
فغـداً مسكو فواترلو فهيلا   نة حيث القبر فيها قد تخبا

باريس فى يوليو سنة ١٩٠٣

على شاطئ النهر

أيها النهر الى اين تسير   لهف نفسى كل ما فيك نزير
فرويدا راعنى منك الخرير   مثلما راعك من صدرى الزفير
هكذا عمري أيا نهر يصير

آه بالله اذا صادفت زهر   قرب مجراك اسقه تكسب أجر
ان عمر الزهر يانهر قصير

فتجول في رياض وترقرق   وتسلسل في حياض وتدفق
وعلى مثواى عرج لو توفق   تجد الازهار جفت فترفق
واحملنها هكذا منا المصير

واذا صادفت محبوبة روحي   قل لها عنى مات الصب نوحى
مات في صبح الصبا وهو اسير

أين أوراق على اشجار كانت   لقد اصفرت وجفت وتوارت
ثم في عري غصون البان بانت   يالعمري فانظروها كيف خارت
وجفتها مبعث الانس الطيور

هكذا قومى خلونى اقاسى   اعزلا فى غربتى جرعة كاسي
بارحونى فتعجب يانمير

لم أزل اسمع اجراس مماتي　　فوق رأسي قارعات ناعيات
عن قريب سينادي بوفاتي　　اذمع الاوراق قدجفت حياتي
ويقول الناس مات الاسير

آه يا وقت الصبا هذا المصير　　هكذا عمري مع الزهر يصير
فسقوط الزهر بالموت نذير

باميدون (باريز) في اغسطس سنة ١٩٠٤

على شاطئ البحر

في الضنى والاحزان احمل نفسا　　يا بحار النوى أما فيك مرسى
طالما قاسي فيك مضنى غريب　　طالما في الاسقام أضحى وامسي
في مهب الهوى أروح وآتي　　لهف نفسي خارت قوى النفس يأسا
فهزيم الرعود بزجر زجرا　　وانصدام الغمام يقدح قبسا
وجيوش السحاب اثر جيوش　　وكأن جفن النجم أطبق نعسا
ورداء الظلام يسبل ذيلا　　وجبال الامواج تفتح رمسا
يا ليالي البعاد هل لك صبح　　للقا حتى ما رأينا ننسى
يا ليالي البعاد بئس الليالي　　كم وكم طلت كم وكم قلت بئسا
أسفي هل أنا فريسة دهر　　أيها الدهر ما أنا بالخنسا
أنت يا أمواج البحار خذيني　　أينما تذهبين أو مت يأساً
والى الشاطئ العزيز احمليني　　ربما قد القي هنالك انسا

واذا مت بلغيهم سلامي واخبري أن صبح عمري أمسى
فعلى البر سوف تلقين خوداً في انتظار الحبيب عند المرسى
فانظمي انها عروسة شعري في هواها قد همت قلبا ونفسا

مرسيليا في اغسطس سنة ١٩٠٤

على قبر فلتير [1]

فلتير لم أر فوق قبرك رائيا هل مع عظامك صار ذكرك ثاويا
ما بال قومك قد نسوك تبرؤاً من بعد ما كنت الحبيب الغاليا
ودعوك وقت الموت دون مسامر لتذوق انواع الردى وتقاسيا
ورموك في ذا القبر دون موسد يصغي الجميع الى انينك شاكيا
قد كنت في الآداب بحراً طاميا لكن قضيت التحب تصرخ ظاميا
في كل فن قد تركت غرائبا وعن الهدى كنت الغريب اللاهيا
لم تنس شيئاً قط لكن قد نسيـت الله لا بل كان ذاك تناسيا
هل في الكرى الابدي نمت بلا رجا ام كان ثمت عدل ربك راضيا
أبراحة الاموات ترقد مثلهم أم لم تزل قلقا وتذكر ماضيا
قم إن هذا العصر بالفسق ارتدى سترى به لك معضداً ومحاميا
لالا فذاك هو المصير فليت أمـك لم تلدك وكنت عنا نائيا
فلتير قم واصلح حياتك ثم نم قد صار ذكرك مثل جسمك باليا

---

١ ظهرت في جريدة المشرق العدد ٢٢ السنة التاسعة

هيهات قد سبق الحمام ندامــة ما كنت تعلم ذا الحمام القاضيا
فلتير قد كان ابتسامك ممقتنا هل كنت تبسم للضريح تصافيا
ما بالهم يدنون منك تجنبا ويبارحونك باضطراب خاليا
مابالهم لم يطلبوا لك رحمة وعلى ضريحك غيث قطر ساقيا
ما بال قبرك في انفراد ثاوياً وضريح غيرك في زهور زاهيا
اصبحت ممقوتا وطيفك مرجفا وعليك قلب الناس أمسى داعيا
فلتير ما اجداك علمك ياترى فرميم عظمك منك أصبح شاكيا
والنفس قد شجبت بحكم عادل وجزاؤها اضحى سعيرا كاويا

باريز فى اكتوبر سنة ١٩٠٤

نابليون فى جزيرة سنت هيلانة (١)

ضاق صدرى ايها البدر المنير وغــدا للحزن فى قلبي سعير
مذ وهى نجمى أصبحت أسير بعد ان كنت على الهام أسير
ومجال الارض عن عزمى قصير

فتطلع هل ترى نسري الصغير هل درى ما حل بالنسر الكبير
أم نفوه تحت جدران القصور ثم قصوا جنحه كيلا يطـير
آه ما علمته طير النسور

(١) ظهرت ايضاً فى المشرق فى العدد الخامس السنة العاشرة

خابت الآمال يا ابنى فالوداع　　تاج مستقبلك انحط وضاع
وتلقته الاعادي باندفاع　　كي يذلوا ابناً صغيراً في رضاع
يالتاج عمره كان قصير

قد صفا الجو لهم لما أبوك　　صار منفيا وأنت استلموك
كلهم يسعون حتى يعدموك　　طالما فى فكرهم قد قتلوك
فاسم نابليون أبلاهم كثير

فتدرع أيها المسكين صبرا　　إننى خلفت حملا لك وعرا
انما فيك دم يعليك قدرا　　فاصلهم حربا تجر النصر جرا
لا تكن نابوليونيا أخير

هل نسيت العهد يا ماري لويز　　هل فينا قد تنسيك بريز
لا فبعدى لن تري ركنا حريز　　فاحفظى ابنى فهو الشبل العزيز
انه يزأر مثلى فى السرير

اسفاه أين مهرى العربي　　اين جندى اين نسرى العلوى
نصر أستارليز كم أنت بهي　　لا تغب عنى أيا مجدى السني
فمع السيف فقط صرت أسير

أيها النسر لقد ساموك خسفا　　هكذا شمس الضحى تخسف خسفا
مثل نابليون هل يرغم أنفا　　مثل نابليون يا ناس أينفى
فاعجبوا منى ومن هذا المصير

اقبلي مني سلاما يا فرنسا بعد نابليون هل قد طبت نفسا
فهو في هيلانة صادف مرسى يا لمرسى سوف ألقى فيه رمسا
أو يهوي النسر الا في الصخور

باريز في اكتوبر سنة ١٩٠٤

على ظهر السفينة

أيها البدر لماذا أنت ساهر أتسلي مدنفا فى البعد حائر
آه يابدرا بكبد الافق زاهر ليت محبوبي كان الآن حاضر
فيريك أنه باه وباهر

هو نور وبه نار غرام بل زلال رطب للمستهام
هو كالبلسم يشفي من سقام هو شبه لك يا بدر التمام
هو بالارض وبالافق انت سائر

أنت يوما واحدا في الشهر كامل وهو دوما فى كمال الحسن رافل
ويغشيك غمام السحب جائل وبمرآه غمام الغم زائل
ولمدناه شذا الانفاس عاطر

رتفع علاك يابدر تراه فهو بين الخلق يبدو بهاه
،ءا في غاب بولون لقاه اذ لقانا كان قبلا في حماه
قل له الخل بوسط البحر سائر

لا . . ففيك لاح لي وجه صبوح   وبها قرصك بالسر يبوح
أخيال أنت تغدو وتروح   أم محياه بمرآة يلوح
فادن مني واطف يابدر الجامر

ادن مني كي اراك عن قريب   وكفى ما انهل من دمعي الصبيب
أرني ما فيك من شبه الحبيب   واطف اشواقا بقلبي كاللهيب
ما طفاها البحر قبلا وهو زاخر

في البحر في اكتوبر سنة ٩٠٤

السلم *

(في الحرب الروسية اليابانية)

قيصر السلم اغمد السيف غمدا   طالما في القتال ضحيت جندا
قد عهدناك تشنأ الحرب حقدا   لا نظننك اليوم تنسى العهدا
ولاحزاب السلم خصما ألدا

« پترو پفلسك (١) » في الظلام المخيف   جنحت بالشهير « ما كاروف (٢) »
يا لاسطول ذاق هول الحتوف   قد هوى قعراً مع حياة الوف
تحت قذف مازال يرعد رعدا

* ادرجت في المشرق العدد العاشر من السنة الثامنة

(١) دارعة حربيه روسية انفجرت اثر لغم اصابها وهي راجعة الى المرسى (٢) قبطان

فرويدا ثم انبذوا الشحناء   فقد احمرت البحار دماء
وافترشتم سطح الوغى أشلاء   وغمام الدخان خيل سماء
أسفاه على الجنود الاشدا

إن فى «كوريا[١]» الدماء تسيل   كسيول قد شاهدتها «سيول[٢]»
فخيول أثر الخيول تجول   وفحول على الفحول تصول
وحصون تنهد بالنسف هدا

سائلوا «أنجو[٣]» كم قضى من نجيد   سائلوا «يالوا[٤]» عن نجيع الجنود
اذ «سسوليش[٥]» ذاق مر ورود   منه هولا يشيب رأس الوليد
ترك الحرب وانثنى مرتدا

«ستكلبرغ[٦]» ان «ندزو[٧]» عنيد   واقف بالمرصاد ليس يحود
اسفاه عليكم يا اسود   عدد منكم تولى عديد
ليت ذا الباس كان بالنفس يفدى

هكذا خر «كلر[٨]» الجنرال   عند ما اشتد في اللقاء القتال
«اكروكي[٩]» قد ضجت الابطال   ومن «الروس» خابت الآمال

روسي (١) شبه جزيرة موضوع النزاع بين المتحاربين (٢) عاصمة كوريا (٣) مدينة استولى عليها اليابان بعد سيول (٤) نهر (٥) جنرال روسي له وقعه مع كوروكي الياباني (٦) جنرال روسى كان ذاهب لنجدة بور ارثور فاوقفه ندزو وتغلب عليه وقتل منه مابنوف عن الف مقاتل (٧) جنرال يابانى (٨) روسى تجندل فى معترك عنيف بينه وبين كروكى (٩) احد رجال اليابان المعدودين

كم يصد « الكوزاك (١) » « اوكو (٢) » صدا

قذفت أفواه المدافع قذفا   بحديد قد ينسف الارض نسفا
فى صفوف الجيوش يقصف قصفا   فتراها الجنود تلفظ حتفا
وكان الفضاء نارا تردى

حاميات قد أصبحت مشعلات   وقد اندكت تحت وبل الرمات
حملات تصيح في الحملات   صافنات تعدو على الهامات
مرهفات تقد بالحد قدا

وسيوف الابطال تعلو وتخفق   فكأن المنون فى الخفق تبرق
فتطير الروس دون ترفق   فهنا عضو إثر عضو تفرق
وهنا شلو فوق شلو مدا

وتمادت فيالق وجحافل   تترامى قذائفا وقنابل
فتوارت طلائع وفواصل   في دماء تجمعت كالمناهل
ظمأ الاعدا قد يراها وردا

فصياح وضجة وصهيل   وصرير وكرة وصليل
كم فحول تجندلت وخيول   كم جريح معفر وقتيل
في مجال المضمار فاقوا العدا

---

(١) فرقة من فرسان الروس يشهد لهم بالفراسة (٢) قائد ثالث يابانى

«بور ارثور(١)» قد صبرت زمانا   فى حصار قد اعجز الفرسانا
كم وكم قاسى فارس وتفانى   تحت وبل من الحديدوعانى
طالما رديت الاعادى الالدا

ان تاريخك العجيب يدوم   مثلا تستفز منه القروم
ياحصار كم فيك شبت نجوم   ما رأى مثلك الزمان القديم
ياحصارا اضحى الوحيدا الفردا

«مكدن(٢)» يا لوقعة قد تمادت   ومجارى الدماء فيها جادت
يالحرب خمسين الفا ابادت   يالحرب بها المذابح زادت
مانبا فيها مرهف او أكدى

«كوربتكين(٣)» خاب منك الرجاء   «فبمنشوريا(٤)» تمادى البلاء
كل يوم تقهقر ودماء   **كل يوم** تزاحف الاعداء
فكفى جزر والتزم لك حدا

ارحموا الام قد ضناها النحيب   ابنها الفرد مات وهو غريب
ثم أختا بعد الشقيق تذوب   قيصر السلم لن فلانت قلوب
ليس قلب الملوك قلبا صلدا!

---

(١) ثغراشتهر بحاميته التى قاومت حصارا مدة عشرة اشهر تحت قيادة ستوسل
(٢) بلدة بمنشوريا حصلت بجوارها مذبحة هائلة تعد اكبر المذابح الحربية (٣) القائد العام للروس خلفه لينيفتش (٤) ساحة القتال اقتسمها الان اليابان مع الروس

طال نوح الثكلى مع الايتام　　وتمادوا في قرحة ولطام
بعد زوج قد سار للاعدام　　في الوغى جرعوه كاس حمام
وثوى فى معارك الحرب لحدا

بمصر فى ابريل سنة ١٩٠٥

الى طائر

طائر الآكام لم أنت كئيب　　فلمرآك غدا دمعي صبيب
ماالذى ابكاك هل بعدحبيب　　ام جريح أنت مثلى وغريب
ام كروب بك حلت ام خطوب

ايها الطير اما يكفى تنوح　　فلقد فتحت في قلبي جروح
لست تشكو است بالسر تبوح　　بل لسان الدمع وضاح فصيح
فكفى ان فؤادى في لهيب

أيها الطير لماذا لا تطير　　فوق هاتيك الرواسي والبحور
ليتنى كنت انا مثل الطيور　　بجناحين لكى صبحاً أزور
وطنى الغالى والشخص الحبيب

آه يا طير أما ألفيت أمي　　وهي تبكى كلما اختى تلفظ اسمي
قل لها كوني على نور وعلم　　مثلما اوصيت عن كل اثم
لست اهفو لا ولو غاب الرقيب

ايها الطير ألم تنظر شقيقه حينما نمرح تيها فى الحديقه
بين اشجار وأزهار وريقه ثم أمى كل آن ودقيقه
لم تزل ترقبها خوف تغيب

أو ما ألفيت محبوبة قلبي تحسب الايام كي تحظى بقربي
والعيون النجل فى ذرف وسكب آه قد أفنت حشاني نار حبي
قل لها ان لقانا عن قريب

قل لهـا عنى أيا طيراً حميم لم أزل في هيكل الحب مقيم
قل فانى حافظ عهدى سليم ثم حدثها عن الجسم السقيم
قل لها والله علام الغيوب

باريز فى اغسطس سنة ١٩٠٥

فى غاب بولونيه

غاب بولون يا كاتم سري ياعليما بمـا يهب بصدري
غاب بولون غاب عنى بدري فاليك أتيت أشكو أمري
غاب بولون آه لو كنت تدري!

كم قصـدناك في النهار مقيلا واتخـذناك للوصال سبيلا
كم طفينا فيك لظى وغليلا ثم شاهدت في اللقا تقبيلا
يا ترى هل تضمنا في السر

كم على الخضرة ارتمينا وقمنا   كم لعبنا وكم سهرنا . ونمنا
والتفتنا خوفا شمالا ويمنا   كم شكونا من الهوى ثم نحنا
حيث لا صوت غير سجع القمري

أيها الغاب هل تذكرت لما   كنت آتيك كي أزيل الهما
هل تذكرت يوم صدت الرئما   بعد ان كان شاردا فانضما
ورمى لحظا في شمال الصدر

هل تذكرت فيك وقت الغروب   حينما الشمس ترتدى باللهيب
غاب ما أحلى فيك وقت المغيب   وأحيلى ايضاً وجود الحبيب
اذ يسود السكون فى كل قطر

هل تذكرت طلعة البدر ليلا   مثل لص في السر يزحف كيلا..
فتميل الاغصان باتيه ميلا   ويهنيه الطير جل المولى
وتحييه الارض طرا ببشر

هل تذكرت الغصن لما ماسا   وطفقنا نستنشق الانفاسا
وعلى رأسي قد أمال الراسا   ولبثنا كذا ندير الكاسا
لا رقيب نهاب غير البدر

كم قضيت الساعات في الاعتذال   نائيا عن قومى سئيم الحال
كم قضيت الساعات والفكر خالي   وسوى الحب لا يجول ببالى
آه ساعات قد اطالت عمري

ايها الناس لا تلوموا غريبا قدرأى فى بولون شخصاعجيبا
هل جهلتم يا قوم هذا الحبيبا عنه موسو سلوا عسى ان يجيبا
ما حبيبى الا عروس الشعر

غاب بولون (باريز) فى يوليو سنة ١٩٠٥

رثاء المرحوم سامي نخله بك رزق الله

أسفاه على الكريم الهمام أسفاه على العزيز السامي
يا عزيزاً لفقدك انهد ركن والحشا بعدك انكوى يا سامي
قد نعاك الناعون والدمع طام ولقد كنت بحر جود طامي
شيعت نعشك المفدى سراة من عظام الرجال يا ابن العظام
فهي تمشى في الحزن والاكرام والاسى يبدو فوقها كالغمام
نحو مولاك قد مضيت سريعا تاركا قوما في ثياب سقام
تاركا اخوة تنوح وتبكي وبنيناً في لوعة ولطام
وأباً هده التفجع هداً وجميع الاهلين في آلام
أسفاه عليك يا عز طرطا اسفاه على سليل الكرام
ولكنا نقاتل الموت لكن لا قتال يرد فتك الحمام
لافداء لا قوة لا بكاء لاغناء يرد سامي المقام
فاذهبن مبكيا عليك عزيزا واذهبن محبوباً من الآنام
كنت ركنا في كل أمر حصينا كنت نارا تزهو على الاعلام

فاذهبن عاجلا كغصن رطيب قصفته منا يد الايام
فسنبكيك كلما ناح طير بقلوب مصابة بسهام
بدموع فوق الخدود دوام هكذا يبكى العز طول الدوام

طنطا فى اكتوبر سنة ١٩٠٥

الى حمام

يا رسول الاحباب اهلا وسهلا كم تروقين للمحبين شكلا
لك لم ننظر في الوداعة مثلا كم وكم فقت بالامانة رسلا

أنت بشرى قلوب اهل التصابى اذ ترى فيك صورة الاحباب
وبفيك المحمر كالعناب غصن بان على البشائر دلا

حدثيني بذكر مهجة قلبى يا ترى حافظت على عهد حبي
أم لبعدى ضحت عهود القرب لا ... فقلبي ما شك فيها بطلا

فانا قد حفظت عهدى طاهر فهو فى قلبى باهر ثم زاهر
شخصها في عيني ما زال حاضر مثلما ذكرها على الفم جلا

مصر فى ابريل سنة ١٩٠٦

فى بدر مفخرة

أرى في البدر شيئاً من بهاك ... كأن البدر باه من سناك
هل الزرقاء مرآة ففيها ... بدا وجه أراه كما أراك
ام استصوبت منزلة البدور ... م السواطع فاتخذت بها حماك
نعم هذي مكانةمن تسامت ... بذيل عفافها مثل السماك
فان على جبينك شمت حسنا ... يحاكي بالسنا حسن الملاك
ومن يحوى لحاظك دون ريب ... يرى طهر حوته مقلتاك

سما بسماك قلب مستهام ... يضحى ذاته طوعا فداك
واصبح شبه بعض سناك لما ... رآك وهام حبا في هواك
فزينيه بشيء من بهاك ... وزيديه كمالا من نهاك
فقلب العاشقين أرق قلب ... وأرق للوصول الى علاك
ومهما طال بعدى عنك انى ... على عهدى وقلبى ما سلاك
فكلى اعين حتى تراك ... وكلى طاعة ترضى رضاك

مصر فى دسمبر سنة ١٩٠٦

الام فوق مهد صغيرها

نم يا بنيّ الغالي   نم يا خليّ البال
نم وأبتسم في الحلم م   للسراء والآمال
نم يا ملاكا بالبها   نم وانم للاقبال
نم يابنيّ الغالي

ماذا تكون أيا حبيبي   هل في العلالك من نصيب
أتكون قس فصاحة   واراك في عود الخطيب
أتكون جراحا وتد   بع جيشا وقت الحروب
ماذا تكون أيا حبيبي

ماذا تكون أيا بنيا   هل فارسا قرما قويا
أم عالما أم راويا   أم شاعراً فتيا شجيا
أم كلهنا ام قاضيا   أم ياترى باشا غنيا
ماذا تكون أيا بنيا

لا يا ابن كن ماالله آمر   فهو المدبر للمصائر
فاذا أنا في الليل أغ   فل عنك فهو عليك ساهر
يحميك من شر الردى   ويرد عنك كل ضائر
لا يا ابن كن ماالله آمر

نم يا بنيّ الغالى   نم ياخليّ البال
نم وأنت في الحلم م للسراء والآمال
نم يا ملاكاً بالبها   نم وأنت اللاقبال
نم يا بنيّ الغالى

مصر في يناير سنة ١٩٠٧

الشاعر وعروس الشعر (١)

أعروس الشعر ما هذا النفور   فقد استولى على نفسي الفتور
هل تناسيت اويقات السرور   حين كنا نلتقي عند البكور
عجباه كم تولى من شهور   دون أن تأتي أوطيف يزور
اعروس الشعر ماهذا النفور

---

(١) عروس الشعر هي ذلك الالهام الشعرى الذى يفتح مغلق القول على الشاعر ويجعل الشعر ان ينثال على الخاطر وكان اليونان تخيلوا لذلك إلاهة كما انهم اوجدوا ثماني الاهات أخرى لكل من فن التاريخ والخطابة والرواية وغيرهم وجعلوها جميعها في مصاف آلهتهم المتنوعة واسكنوها جبل برناس (Mont Parnasse) يناجونها ويستنجدون بها في كثير من مطالع اقاويلهم الشعرية واذا ماجفت قريحة الشاعر فمعناه الشعر نسب ذلك الى نفور الاهة الشعر واستدعاها. وكان الرومان على شاكلتهم. وقد استعذبت هذه التصورات الخيالية عند الفرنساويين فاطلقوا عليها اسم La Muse اما شعراء العرب فقد ذهبوا الى ان لكل منهم شيطاناً يلهمه الشعر ويهديه الى مقاصده. قيل كان شيطان الاعشى يعرف بمسحل وجنى المخبل بعمرو. ولعل شعراء الجاهلية رأوا في ملك الالهام الشعرى اللطيف هذا الشيطان الوهمى لانهم كانوا يقولون قديماً اكثر اشعارهم في الهجاء فلم يجدوا انسب من الشيطان لالهامهم خبث الهجاء.

أعروس الشعر لا لا تهجريني فقد احمرت من الذرف عيوني
اعروس الشعر بالله انظريني كيف قد اصبحت مصفر الجبين
فخذي آلة نظمي واطربيني فاستغاثت بك نفسي بأنين
اعروس الشعر لا لا تهجريني

أعروس الشعر بالله تعالي وانظري حالي هل سرك حالي
اسفاه أوشكت تفنى أمالي قبل أن تمنحني وقت وصال !
أعروس الشعر جسمي صار بالي من جفا من قبل لم يخطر ببالي
أعروس الشعر بالله تعالى

أعروس الشعر قد زاد النحيب فانظري دمعي على خدي صبيب
لهف نفسي هل تناسيت حبيب ابدا بعدك لم يبرح كئيب
انظميني فعسى تلك الكروب تنجلي عني أو موتي قريب
أعروس الشعر قد زاد النحيب

لست انسى شجو مغناك الرقيق لست انسى حسن مرآك الرشيق
اعروس الشعر نفسي لا تطيق ذا التجافي فهي في يأس وضيق
فاقربي منها عساها أن تفوق واسمعي منها ذفيرا وشهيق
لست انسى شجو مغناك الرقيق

أيها الشاعر والخل الودود لا تخف إني لم أنس العهود
فلقد جئت كما أنت تريد ولك استحضرت إلهاما جديد

فخذ العود وسراك تعود لاتخف إنى لم اخلف وعود
أيها عر الشاعر والخل الودود

آه فق ياشاعر القلب الجميم شنف الأذن بمغناي الرخيم
وانظم الشعر كما القلب يروم قم ترنم وأجل ديجور الهموم
شاعر القلب اترك الشعر القديم واتبع إلهامى العذب السليم
آه فق يا شاعر القلب الجميم

لم أزل تنتابنى بعض شجونى كلما أذكر من لم يذكرونى
عجبي من شعراء جهلونى بل الى الجن قديما نسبونى
فقط اليونان باسمى قد دعونى وعلى طور المعالى رفعونى
لم أزل تنتابنى بعض شجوني

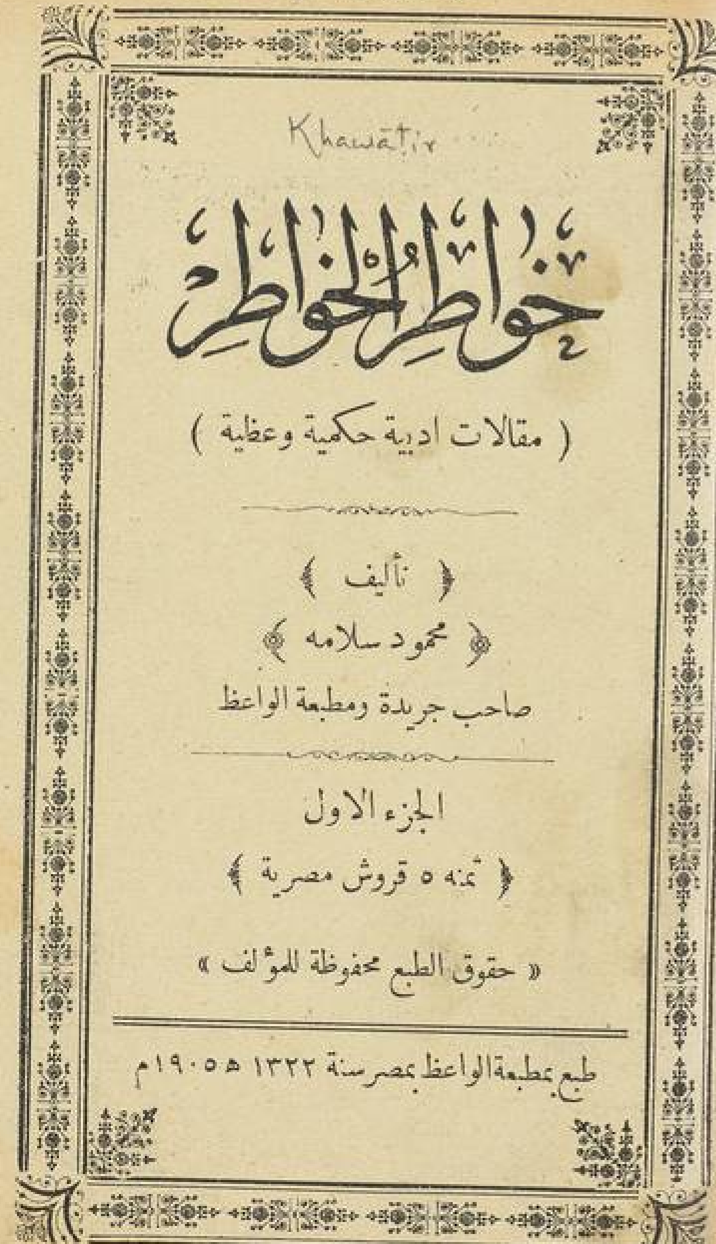
شاعرى المحبوب ما أحلى لقاك فى الضحى اذفي انتظارى قد أراك
كل فجر سوف انتاب حماك فكفى تحزن من يأس كفاك
ها انا بالقرب فاستبدل بكاك أو على آلة شعرى فانظم شجاك
شاعرى المحبوب ما احلى لقاك

لم يزل نورك للآن ينير وكذا نجمك فى العليا يسير
قم ولا تيأس ولم هذا الفتور قم فقد جاءك محبوب يزور
فاغتنم خلوة أوقات البكور تلك أوقات بها يسمو الشعور
لم يزل نورك للآن ينير

مصر فى مارث سنة ١٩٠٧

(انتهى)

فهرست



خواطر الخواطر

(مقالات ادبية حكمية وعظية)

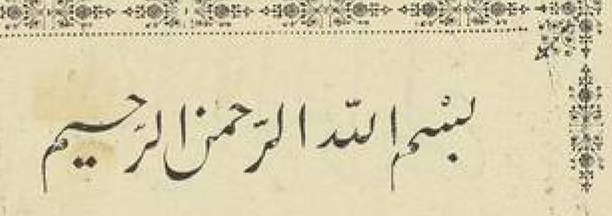
﴿ تأليف ﴾

﴿ محمود سلامه ﴾
صاحب جريدة ومطبعة الواعظ

الجزء الاول

﴿ ثمنه ٥ قروش مصرية ﴾

طبع بمطبعة الواعظ بمصر سنة ١٣٢٢ هـ ١٩٠٥ م



الحمد لله الذي اجزل لنا من البيان مننه، وامرنا ان ندعو للخير ونهدي سننه، وعلمنا طريق الدعوة المجابة وبينه، فقال «ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة»؛ والصلاة والسلام على محمد وآله والذين يستمعون القول ويتبعون احسنه

اما بعد، فلما انشئ «اللواء» في سنة ١٣١٧ هجرية (سنة ١٩٠٠ م) واستعين لتحبيره بناني واستعير لتحريره بياني الفيت دعاة الخير من كتاب الصحف اجتمعوا في دعوة الامة الى سبيل هداها على سنة واحدة: هي «تذكيرها بما كانت عليه وتعييرها ما صارت اليه» يقدحون لها بهذا زند التأذي من «المخازي» لتنفر منها ويضرمون لها نار الشوق الى «المفاخر» لتنفر اليها، والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم؛ فاقتديت بهم في هذه السنة وكتبت

فى العادات والاخلاق مقالات ألبست فيها « الحقيقة » لباس « الخيال » لتكون ادعى لاقبال النفوس عليها: تجردت من نفسى « تلميذا » يتعلم، ومن « الدهر » استاذا يعلم، ومن القدم والابد، وابنى سمير (الليل والنهار) حاشية له وخدما، ومن « دنيا » معشوقة. ومن « الامل » رائدا. وجعلت البحث فى موضوعاتها حوارا بيني وبينهم فيما حضر من الحوادث والاحوال أحيان كتابتها لهذا لم أراع فيها ترتيبا ولا تبويبا: واخترت ان تكون دورية تظهر فى الاسبوع مرة : يوم الاحد ، لتأتى القراء على شوق. وما زلت أردف المقالة بالمقالة فى دورها الى ان بدا لصاحب جريدة اللواء ان يبدلها برواية صغيرة تنشر يوم الاحد فى ذيل الجريدة فختمتها بوداع « الدهر » ولكنى استبقيت باب الرجوع للموضوع مفتوحا لانى أنست من القراء شديد الشوق اليها وتوقعت منهم ان يطلبوا العودة اليها. فكان ماتوقعت، وعدت: ولكنى ما كتبت منها بعد ذلك فى اللوء الا قليلا

هذا وقد طلب الى الكثير من الأدباء ان ألم متفرق ما كتبت من « خواطر الخواطر » في كتاب يجمع شواردها

و تقييد اوابدها. ولما كنت لا أزال اكتب في هذا الموضوع
رأيت ان أجعل الكتاب أجزاء متعددة فجمعت في هذا الجزء
ما نشر في اللواء الا مقالتين تركتهما للجزء الثاني لاني رأيت
مقالة « وداع الدهر » أليق بختامه

محمود سلامه

آداب الرعايا مع الملوك

كنت من حيث لم اكن وسبحان من يقول للشيء :
«كن فيكون» . فاذا أنا نفس يتردد في جسم يتأود له رأس
كبير داخله شيء خطير طويل التفكير كثير التدبير ينظر في
الامور نظر بصير ويخبرها خبر خبير ثم يقضي فيها قضاء
قدير ويأمر وينهى كأنه أمير له على الوجود تسخير
وتصرف بتقدير وعلى سائري تسيير لا يشوبه تخيير فجملي
آلة يحركها بارادته ومفصلي عبيد لخدمته: عينان يستكشفان له
الآثار ، واذنان يستطلعان له الاخبار ، وأنف يخبره بمثل ماتنشره
الازهار وماتطويه الأوضار من مطايب إسرار ومخابث اضمار ،
وفم يوافيه بطبائع الاذواق من حلو يساغ ومر لا يطاق ،
وحاشية تطالعه بما يحسن لمسه او يسوء مسه ؛ ثم يدان عاملتان
بما يراه وقدمان ساعيتان لما يرضاه ولسان وشفتان تنطق بما
يهواه . وله علي عون اسمع صوته ولا أرى انسانه وأجهل
صفته ولا أستطيع نكرانه يحاسنني مرة ويخاشن أخرى ويقسو

تارة ويلين طوراً سريع الحساب كثير المجاملة أثير العتاب حسن الجزاء خشن العقاب ما قال «أحسنت» حتى حاسن وما قال «أسأت» حتى خاشن

ثم اذا انا بسماء تظلني وأرض تقلني ووطن يواسيني وأمة تؤاسيني: ثم عوالم أخرى مختلفي النحل مفترقي الملل متباعدي الاقطار متقاربي الاوطار؛ يتناوبهم اصباح وامساء بنعيم أو شقاء ونحوس أو سعود وهبوط أو صعود واقبال أو ادبار وعظمة أو صغار وملك أو هلك... يتنافسون لبلوغ الكمال واحراز الجلال بعضهم بالفعال وبعضهم بالمقال بلا ملال ولا كلال؛ والفائز منهم من طاول فجد وكد والمحروم من قصر فقعد أو رقد. وما رأيت قائماً كراقد خلافاً لما قيل «رب ساع كقاعد». فما تواكل شعب حتى انشعب ولا تآكل آخر حتى انعطب ولا تكافل جيل حتى انضم فاحتمى وهم فسما وما دالت دولة عن متقاعد حتى دانت لمجاهد و«مصائب قوم عند قوم فوائد»

ثم اذا انا بشبح ان قلت شيخا كذبتني نعومة أظفاره وجدة ازاره وشدة إساره. وان قلت شابا خالفني ابتسام

البرق في لمته وقهقهة الشيب في لحيته وانحناء قامته. فقلت من الرجل؟ — قال: بخ بخ! تسأل عن مربيك بعد أمك وابيك وكفيلك بعد قبيلك! — قلت: بئس الكفيل وحسبي الله ونعم الوكيل في كل دعي دخيل. — قال: اياك والسباب وطيش الشباب والتسرع في الجواب بغير حساب وخطأ القياس في الحكم على الناس. ومن اين لك اني دعي وما من اجدادك وآبائك بين ميت وحي الا وانا القيم عليه بعد شبوبه عن طوق ابويه؟

فأنست بمناصحته ونفرت عن مقابحته وملت الى مسالمته في مكالمته فقلت له: وما اسمك عافاك الله؟

قال: الدعاء هنا منك عاب فوق عاب لأنه في محل ارتياب يوهم اني اعتديت عليك فاحسنت الى: واجدر ان يكون مني اليك لانك اسأت الى. ولكني اعدها هفوة تغفر وتنسى فلا تذكر أما اسمي ف «الدهر» وكنيتي «ابو العبر»

قلت نعماً انت لمن اتعظ بعظاتك واعتبر بحادثاتك ولقد سمعت بسيرتك وسريرتك وكنت اتمنى لقاءك لأطلع بنفسي طلع سبرك وحبرك (١) واقابل بين خبرك وخبرك. فهل

(١) سبره وحبره اي ظاهره وباطنه

لك اليوم ان تلق على اول درس لعل فيه شفاء ما فى النفس ؟

قال : اياك والنكران فهو مجلبة الخسران على الانسان فانزعه من قلبك واللسان واستبدله بالشكران فهو موجب الزيادة فى الاحسان بنص القرآن . كيف تقول اول درس وقد لقنتك الساعة اثنين فى خلتين : تسرعك فيما يصرعك والدعاء حيث يضرك ولا ينفعك . ولكنها نزغة شباب وأرى فيك نزعة متاب والله تعالى يقول «الا من تاب» . فتم واجلس منى بمقام المتعلم من المعلم وسل اجب

فأعلنت شكره وسمعت أمره وسألته عن ذلك الشئ الراسخ الراسى فى راسى الذى استلان مراسى واستعبد جوارحى وحواسى . — فقال : ذلك ملك جثمانك وسلطان انسانك وحافظ كيانك ورافع شانك ومعزك بين اقرانك المدبر لصوالحك المدير لمصالحك واسمه « العقل » لعقلك عما يودى ويزرى بك ويهذى بتهذيبك : او لأنه معقل لو تحصنت به صانك من عبث الاغيار وتقلبات الليل والنهار . ولولا استظلالك بأعلامه وطاعتك لاحكامه واستسلامك لتسييره وسيرك على تقديره لتناوبتك العوادى وتناولتك

الأعادي فاستلبوا حقوقك واوجبوا عقوقك وجردوك من الحرية وحقوق المدنية وعاملوك معاملة السائمة الهائمة ان لم يغلوك في أطول من هم ويقصروك في أضيق من سم. فحافظ على ولائه واعتصم بلوائه واحرص على محالفته ولا تطع مفسدا في مخالفته تندم. — قلت : افادك الله. فما ذلك الشيء الذي أسمع حسه ولا ارى شخصه ؟ — قال: ذلك صاحب شرطته الممثل لسلطته الصادع بأمره حلوه ومره البشير في الخير النذير في الشر المبلغ لرضاه المنفذ لقضاه؛ ومقره القلب، واسمه «الوجدان»، وحياته حياة الانسان وعنوان العمران في الاوطان، ودليل الايمان في الابدان. فأحيه تسد على الاسود وتبيض أيامك السود ويرضى عنك العباد والمعبود. وحياته بالطاعة وما أسهلها صناعة واربحها بضاعة !!! — قلت : أرشدك الله. أرى اصغر جوارحي اكبر منه جسما واعرف اسما واظهر رسما؛ ألم تكن كبراها أولى منه بهذه الوظيفة الشريفة المنيفة؟ ألا ترى ان هذا الملك الخطير أساء التدبير في تحكيم الصغير على الكبير ؟ — فقال : اياك يابني وسرطان الامم!

قلت: وما سرطان الامم ؟ — قال: التعاظم بالورم والتفاخر

بالرمم والتماس الشرف بالاجسام دون الاحلام والفضل بالاوهام دون الافهام وتخطئة الصعلوك للملوك واشرئباب المماليك للممالك ومنازعة العبيد للسيد المالك وتحاسد الناس واتباع الوسواس الخناس؛ فأن ذلك يولد التنافر ويحل عقدة التضافر؛ ووالله ما حل هذا الداء في أمة الا اضناها وأضواها وما أضواها الا أشقاها وأشقاها

على ان الوجدان وان لم يظهر له كيف ولا كم ففضله جم وشرفه أهم وحسبك قول النبي الاكرم: «المرء باصغريه قلبه ولسانه». وقد عرفت ان مقره في الفؤاد فلا ريب انه المراد. وقال الشاعر

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق الا صورة اللحم والدم

انظر كيف قسم الانسان لوجدان ولسان وهما أصغر ما في الجثمان وكلاهما مثال ذلك السلطان: أحدهما كلمته والآخر ترجمان؟ — قلت: آمنت بأمانتك وحسن كفالتك وانك المربي الوفي والكفيل الحفي كأن بيني وبينك نسبا أو كأن لحياتي بك سببا فناشدتك الذمة ما واجب الملك على الأمة؟

فتبسم وقال: أتدري ما الذمة في عرف الأمة؟

قلت: أليست العهد لا ينقض والميثاق لا ينقض ؟

قال: أجل . ولكنها فى العرف هي الوجـدان . الا تسمعهم يقولون : « ذمتى تأبى ذاك ذمتى توبخنى على ذلك » . ثم أيكون قسما عظيما ولا يكون قدره فخيما ؟

قلت زدتني يقيناً زادك الله تمكيناً . فما جواب سؤالي؟

قال : مثل الملك فى الأمة مثل القائد العظيم فى الجند : يجب له الاكبار والاجلال والانقياد والامتثال لا اعتراض ولا امتعاض ولا مراجعة ولا ممانعة سيما اذا كان صاحب السلطتين : الدين والملك . قلت:— بم نقابل خطأه ان أخطأ ؟

قال: بالغفران — قلت: والاحسان ؟— قال: بالشكران

قلت: فان وصلتنى بعض نعمه على يد اصغر خدمه أأقبلها ام أردها ؟— قال : قبولها شكر وردها كفر لان حاملها اليك قائم مقامه لديك: فان صغر فانما تنزل لك فيمن ترتاح اليه نفسك وينبسط لديه انسك زيادة فى الاحسان استزادة في الامتنان — قلت: لك الله من حكيم عليم . ولكن لم ترب امتى على هذا المبدإ القويم ؟

قال: اما كرام الحسب احرار النسب فقد أدبتهم فتأدبوا

وهذبتهم فتهذبوا واما الخليط والدعى ومشترى الدرهم فقد عركت آذانهم لأستفتح اذهانهم فلم اجدمنهم الابهيما لايفهم كلما عربته استعجم وكلما علمته تبلم . ولن يصلح « ابو العبر » ما افسد القدر

ثم قال : قم فاسترح فان اليوم امسى وحسبك هذا الآن درساً و« سنقرئك فلا تنسى » ف

ودعته وبودي لو يودعني　　طيب الحياة وانى لا أودعه

٦ جمادي الثانية سنة ١٣١٨ — ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٠٠



﴿ الشكران والنكران ﴾

فارقت الدهر اذولى النهار وبالقلب من فراقه شواظ من نار ولولا وعدنى اللقاء لودعنى البقاء فلما طلعت الشمس ونسخت باليوم آية الأمس هنأت النفس وهيأتها لتلقى الدرس وخرجت فطلبته فوجدته حيث تركته فسلمت عليه وسلم وشرع يعلمنى لأتعلم فقال : كيف تجدك يابنى ؟

قلت : على أحسن حال ، وأنعم بال ، ما دمت فى اقبال

قال : أعلقت درس الامس ؟ — قلت : علقته وعقلته

وحاضرت به من حضر في سمر السهر — قال: — فما كان له من أثر؟ — قلت أرضى الخليص وأغضب الخليط وسر النسيب وساء اللقيط — قال: فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله. يابني ان ارضاء العموم رابع المستحيلات

(وان) رضيت عني كرام عشيرتي فلا زال غضبانا على لئامها

قلت: استاذي! الشئ بالشئ يذكر وضياع الفرص غصص ولدي سؤال يحرج الصدر ويجرح الحر وليس لى عليه من صبر؛ وقد ألفتك حليما وألفيتك حكيما وعرفتك عفوا كريماً: فهل لى شفيع من حلمك ان طرقت باب علمك وسألتك عنه فاستأت منه؟

قال: من لا يعفو عمن يهفو فليس بحليم؛ ومن لا يحسن الى من يسيء فليس بحكيم؛ ومن لا يجود بالموجود على سائل فليس بكريم؛ وما كنت لأكذب في ظنك وقولك فهات سؤالك وخذ سؤلك

قلت: رأيت الناس يقولون عنك انك ما أقبلت حتى أدبرت ولا أحسنت حتى أسأت ولا وهبت حتى سلبت ولا تحكمت حتى ظلمت ولا وصلت حتى هجرت ولا صفوت

حتى كدرت وقد قال قائلهم

ما صفا الدهر لخل نصف يوم وأتمه

وأنك ترفع الوضيع وتخفض الرفيع. أحق هذا؟ وان كان فلماذا؟

قال: يابني قضى الله ولا راد لما قضاه ان اكفل الخلق وأحكم فيهم بالحق؛ وشرع لى سبحانه شرعا أقف عنده ولا أتعدى حده هو تنفيذ ماضمن من وعد ووعيد في قوله تعالى: «لئن شكرتم لازيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد». ووالله ماوضعت شكوراً ولا رفعت كفورا ولا سلبت حامدا ولا وهبت جاحداً ولا منحت الندى لمستحق الردى ولا الردى لأهل الندى. وقد أعرب عن أمري معهم من اليه اهتدى فقال: «لكل امرئ من دهره ما تعودا». وهو قول تصرف فيه المفسرون والرواه كل بما رآه ووافق هواه. وحقيقة معناه: «أن الانسان اذا اعتاد الشكران فله الزيادة فى الاحسان. وان تعود الكفران فله العذاب والهوان». واذا عرفت ان هذا شأني مع القوم فأي ذنب استحق عليه اللوم؟

(لكن) نصف الناس أعداء لمن ولى الاحكام هذا ان عدل

قلت: رويدك استاذي! قد هولت على امر الشكران ،

حتى تخيل لى انه الايمان — قال : هو شعبة منه . وهو دليل حسن الطوية وشاهد صدق النية وعنوان الاعتراف بالعبودية ولسان الاقرار بفضل واهب النعماء وترجمان الاخلاص فى السراء والضراء . ونقيضه نقضيه ؛ ولذلك سمي كفرا

قلت : هل اعطيت الناس فرصة تغتنم لشكر النعم؟

قال: اعطيتهم « النهار» اذا اصبحوا «والليل» اذا امسوا

قلت : وهل اقمت فيهم من يذكرهم اذا نسوا؟

قال: اقمت «الحال» يذكر « بالماضى » وينذر «بالاستقبال»

قلت : « الحال » قصير العمر ؛ فهلا ذكرتهم بأطول اجلا منه فتبلغ منتهى العذر؟ — قال : كأنك تجهل ان من اسمائه «اليوم» ، وهو ابن « الامس » ، ووالد « الغد » ، وان وظيفته يتوارثها الخلف عن السلف فهي دائمة فيهم ما داموا مقيمة بينهم ما اقاموا ... قلت وما الأثر؟ — قال : ما لهم من سير خطوها بانامل العمل على درج (١) الاجل وبقيت عظة لهم فى حياتهم وعبرة لغيرهم بعد مماتهم — قلت: لله ما احكم ما دبرت!!! ألك ان تطلعنى على صحيفة مما ذكرت ؟ — قال لمثل هذا

---

(١) الدرج في الورق هو ما نسميه فرخاً

ادخرت منها ما ادخرت. ثم ناولني شيئاً وقال اقرأ فقرأت:

« انا صحيفة فلان بن فلانة خطني بأنامل عمله على درج اجله لأذكره في يومه بأمسه وانذره بغده. قد كان كالمتاع يشرى ويباع « فشكر » . فعتق وتخلص من الرق « فشكر » . فارتفعت درجته وعلت رتبته « فشكر » . وكان فقيراً فلعب بالفضة والذهب « فشكر » . فذكر اسمه بمجالس السلاطين والامراء فداخلته الخيلاء « فكفر » واهب النعماء فانقضى دور الاقبال وابتدأ دور انقلاب الحلال. واذ عُرف فيه الكبر جفاه الناس « فسخط » . فزاد انعكاساً على انعكاس « فسخط » . فذهبت نعمته « فسخط » . فاشتدت فاقته حتى تسول بعد ان تمول وربما عاد لأصله الاول. وسبحان من يحول ولا يتحول »

قلت: انها لعبرة كبرى حقها انه تنشر وتقرى ليذكر بها من تنفعه الذكرى. فهل لك ان تسمح لى بنشرها فى الأملاء مقرونة لك « بالشكر » والثناء؟... قال: شأنك وما تشاء. فتركته على وعد العود بعد ان اتحف بها القراء

١٣ جمادى الثانية سنة ١٣١٨ – ١٧ اكتوبر سنة ١٩٠٠

٣

﴿ الحرية والزنى ﴾

عجبت للمرء يعزو　　لنفسه كل حكمه
ويدعي أنه قد　　حاز الكمال أتمه
وينتضي للمخازي　　وللنقائص عزمه
ولا يبالي بشرع　　ولا يخاف مذمه
يرى الفجور فخاراً　　يرى التعفف وصمه
يرى النزاهة رجساً　　يرى التلوث عصمه
يرى وصال الزواني　　غنماً يكافئ غرمه
فيستحل حراماً　　منه ويضرب سهمه
وأخته ليس يدري　　أصاب أم صاد أمه
تلك الدنايا وخير　　منها المنايا الملمه

السلام يا عالم الآداب السلام! « سلام مشوق لا سلام مودع »! غبت عنكم شهراً لا لملال ولا لدلال

وكيف يمل اللقا واله　　وكيف يدل أخو الجاحظ

وانما هي الاشغال في الاطواق كالاغلال في الاعناق

وما اشتغالي عنكم الا اشتغال بكم

وهكذا الحب يقضى على المحب لحبه

فلولا خدمتكم ما انقطعت الى « الدهر » هذا الشهر ألتقط الجواهر من لفظه والزواجر من وعظه والنابغ من كلمه والبالغ من حكمه لنجعلها رصداً لصالح الاعمال وتتخذها رشداً لصفات الكمال . ولعل فيكم متشوف لحديثي معه فعلى أن أقصه وعليه ان يسمعه :

أول ماقابلته حييته فحياني وبيته فبياني ثم بادرني السؤال فقال : من أين مجيئك ؟

قلت من عاصمة البلاد : « القاهرة » .

قال : أرى فيها ضجة ورجة فأى حادث حدث ؟

قلت : يرحمك الله ! عهدى بك جهينة الاخبار تعلم ما لا اعلم : فكيف غاب عنك جواب هذا السؤال ؟

قال : يا بنى انما انت متعلم وانا معلم ولا بد للمعلم من تعرُّف(١) عرف تلميذه ليرى اي خلاله فى حاجة للتقويم . وان تجاهل العارف للسحر الحلال لفك الطلاسم عن سرائر الصدور . فأجب عما سألتك واياك ان تخفى ما في نفسك ولو رأيت فيه

(١) تعرف عرف الشيء : اختبره وتبينه

اعوجاجاً — قلت : من نكد الدنيا ان المحافظة اعتدت فى هذه الايام على «حرية» الناس فصادرتهم فيها اذ قامت تدفعهم عن موارد الملذات التى تميل اليها النفوس وترتاح لها القلوب كاستجلاء البدور الطوالع خلف غيوم البراقع ومداعبة الحسان الخاطرات في الشوارع ...

فقهقه ملياً ثم تنهد طويلا وقال : اتدري يا بنى ما الحرية؟ قلت : عافاك الله أليست تصفيف الطرر، وفرق الشعر، وتزيين الغرر، وبرم الشوارب، ونتف اللحى، وتحسين المنظر، بتفصيل الملابس على نسبة الأعضاء: ضيقة عند الخصور، واسعة عند الارداف، وتطييب النكهة بالعطريات، وابراز اطراف المناديل من فتحات الجيوب، وادماج العمائم، وامالة الطرابيش، وتقليد القطا فى نقل الخطى؛ ثم لطف المحاورة، وحسن المحاضرة، والموافقة فى المرافقة، ورشف الكاس وتقبيل الطاس، والافتتان بالحور والولدان، والافتتان في مغازلة الغزلان، وقضاء الليل بين قهوة وبيرة ومرقص ومنزل سر اوجهر الى مطلع الفجر؛ ثم بعد ذلك المنابزة بالألقاب، والمفاخرة بالانساب والاحساب، ومناقشة الأفاضل بحق او بباطل، وقوة الاحتجاج على من

يمس الاحساس بأدنى مساس؟

قال: لا حول ولا قوة الا بالله!. لقد استهواك يا محمود شيطان الغرور وزين لك مدنية «الغرب» المموهة بزخرف التغرير: ولكن «قدر ولطف» اذ جئتني صغيراً لين الغصن:

ان الغصون اذا قومتها اعتدلت ولن تلين اذا قومتها الخشب

اعلم يا بني ان ما وصفت ورصفت لتعريف الحرية بعيد عنها وعن الحكمة بعد المشرقين. وانما الحرية ان يعرف المرء حقه فيقتضيه ويعلم واجبه فيؤديه ويتبين حده فيقف عنده

قلت: استاذي! ذكرت كلمة طالما سمعتها وما عرفت معناها. فبحلمك لا تؤاخذني ان قطعت حديثك وسألتك عن معنى «الحكمة»

قال: يسرني انك لا تدع شاردة الا قيدتها. الحكمة يا بني «فضيلة في النفس تعرف المعقولات وتعلم ايها يجب ان يفعل». وبعبارة اخرى «هي ترك التفريط في الامور واجتناب الافراط ولزوم ما توسط بينهما». وهي اقسام مرجعها قوى النفس وليس هذا محل التفصيل فحسبك الآن مثالا يقربها من فهمك ويناسب المقام:

من قوى النفس قوة تميل للشهوات البهيمية ، لذلك يسمونها «القوة البهيمية الشهوية» ، وطرفها التفريطى «الخمود» ، والافراطى «الفجور» ، والوسط المعتدل «العفة» . فترفعك عن الخمود وتمنعك عن الفجور وأخذك بالعفة هو «الحكمة» .

قلت : ما احسن العلم واقبح الجهل ! لقد تبين لي من هذا التعريف ان الناس تطرفوا فى الحرية الى حد الافراط الذى سميته «الفجور» ، وان المحافظة بمصادرتهم فيها انما تريد ان تلزمهم حد الاعتدال وهو «العفة» رغبة منها ان يتبعوا الحكمة فى سلوكهم وآدابهم . أليس كذلك ؟

قال بلى . قلت : لله انت لقد انرت بصيرتي بنور علمك ولكنني لا ازال اجهل مضار الفجور وما يترتب عليه ، فهل لك ان تشرح صدري بشرحها تغتنم مني الشكر ومن الله الاجر ؟ . . . قال ذلك لك : الفجور ، وقيته يا بني ، اشكال وانواع ابشعها عند الخلق وافظعها عند الخالق الزنى . وذلك لانه ينقض على الاشباح فيعلها ، ويهجم على الارواح فيستلها ، ويسطو على الاخلاق فيشوه محاسنها ، وينزل على الاعراض فيمزقها ، ويأتي على نواميس الشرف فيخرقها ؛ ويهبط على الاموال فيبددها ؛

ويتعدى على الهيئة الاجتماعيـة فيفسدها ، ويعتدى على اركان الدين فيهدمها . وانه لذنوب الذنوب وعيبة العيوب وعير العار الابدي لمن ركبه ولو مرة : فلا تقال عثرته، ولا تستر عورته، ولا تزول وصمته، ولا تدفع خزيه عن الزاني ثروته، ولا تقبل منه توبتـه ، ولا يطهره الموت من رجسه . بل هو نجس فى حياته دنس فى رمسه . يا بنى ان توبة السكير والمقامر واللص والقاتل أضمن قبولا عند الله والناس من توبة الزانى ولو استقام ولزم المسجد وتهجد وأنفق فى سبيل الله سائر ماله وعتق ما شاء من رقاب

انظر الى حكمة ربك كيف قدر الحدود بنسبة الجرائم فجعل حد القاتل : القتل ، والزانى المحصن : الرجم . ثم كيف نهى عن الاسراف فى قتل القتلة فى قوله تعالى : « وقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف فى القتل » ، وكيف نهى عن الرأفة بالزانين فى قوله : « ولا تأخذكم بهما رأفة » . أليس ذلك لان القتل أخف الجرمين ؟

والحكمة فى ذلك يا بنى أن القتل قد لا يتبعه جرائم فرعية تذكر . بخلاف الزنى فانه لا يقع الا وقع معه من الجرائم

الكثيرة ما يؤود حمله الجبال :

منها أن الله سبحانه وتعالى كفل لعباده بالدين الحنيف سلامة النفس، وحفظ المال، وصون العرض والشرف. ولما كان الزنى يسطو على الارواح فيسلبها والاموال فيذهبها والعرض فيمزقه وناموس الشرف فيخرقه كما أسلفنا كان مضيعة لما كفل الله بالدين لعباده فاستحق ان يكون جرمه انكى وعذابه أنكر

ومنها : أن الزانية اذا حملت فوضعت وارثاً ورث بغير حق، وكان ما ورثه حقاً مشروعاً لغيره مغصوباً من صاحبه. والمسئولية فى ذلك الاغتصاب راجعة الى الزانى والزانية ؛ ولن تقبل توبة من غاصب الا اذا رد ما اغتصبه لذى نصابه، وهذا محال، فقبول التوبة محال

ثم اذا هي حملت ووضعت والقت به في شارع او على باب جامع كما يفعل الناس اليوم فربته الحكومة وحان حين زواجه فربما تزوج أخته لأبيه أو لأمه أو ربما وقع القضاء فتزوج بأمه نفسها بعد وفاة زوجها. وان ولدت بنتاً ربما تزوجت أخاها أو أباها أو صارت ضرة لأمها. والمسئول فى ذلك الزانيان

ومنها : أن الزنى لا ينقص من شرف الزانيين ولا يقتصر على عرضهما وحدهما ؛ بل يعم آل الرجل وزوج المرأة وأهلها فيكونان سبباً في ضياع عائلتين

ومنها : انه سوسة تنخر الفضائل وتنقب مكارم الاخلاق التي بعث النبي عليه الصلاة والسلام لتتميمها ، فهو من اقوى عوامل الفساد في الهيئة الاجتماعية

ومنها : ان اللواتي تركن الزواج واتخذن الفاحشة مهنة للاكتساب ما عمرت بهن بيوت الفاحشة الا خربت بعددهن بيوت الكمال وصرن أعضاء فاسدة في جسم الأمة يسري فسادها من عضو لعضو حتى انهن لأضر على الامة من الطاعون ؛ لان هذا ضرره غير دائم وضررهن مستمر كل يوم في ازدياد ينقص من أموال الامة ومن رجالها ونسائها وأخلاقها وآدابها . وان بعض الشعوب ليتخوف من انقراضه لتكاثرهن فيه يوماً عن يوم وانصراف الناس عن الزواج اكتفاء بهن

هذا يا بني . ولو شئت استقصاء مضار الزنى وما يترتب عليه لقضى « الدهر » حياته في عدها وما انتهى حسابها

قلت : حسبي وكفى . ثم بكيت . فقال : لم بكاؤك يا بني ؟

قلت : أبكي على مصر وحظ مصر . فان رجالها اشتغلوا بالسفاسف وأهملوا الجسام العظام

قال : وكيف ذلك ؟ قلت : منعوا التهادى فى الشوارع وتركوا الكبائر تنمو وتزداد فى البيوت العمومية سرها وجهرها ، وفى المراقص والمواخير ؛ بل أعانوا على الزنى بتأمين سبيله اذ وكلوا بالفواحش أطباء يكشفون عليهن ويعلنون سلامة الوصول الى وصال السليمة منهن . فكأنهم بذلك يسوقون الأمة الى حتفها العاجل بأيديهم

قال : هو كذلك ؛ لانها مسوقة بيد من لا يريد لها سعادة ولا اقبالا ، ولا يهوى الا ان تهوى فى هوة الانحطاط ليطأ رأسها بقدمه . وزد على ذلك ان منشور المحافظة طوى تحت وسائد الضباط المكلفين بتنفيذه . اذ هم لا يبرحون مراكز ادارتهم الا لراحة أبدانهم . هذا فضلا عن ان المحافظة نشرت غيره تقول فيه أنها ما أرادت بالأول الا الارهاب .....

« ويأتيك بالاخبار من لم تزود »

قلت : يرحمك الله وما سبيل نجاة هذه الامة ؟

قال : أتل عليهم ما القى عليك من دروس حكمى فان

علموا علمي وعملوا بارشادي نجوا ان شاء الله

فأعلنت شكره وسمعت أمره

وجئت أسعى مجداً　　بما استفدت اليكم
لتعملوا ففوزوا　　ثم السلام عليكم

١١ رجب سنة ١٣١٨ و ٤ نوفمبر سنة ١٩٠٠



﴿ الخمر ﴾

عجبت للانسان في أمره　　تناقض يرمى الى جهله
يعلم ان المرء ما مازه　　عن رتبة البهم سوى عقله
وانه لولا الحجى ساده　　وداسه الكلب على ذله
يعلم هذا ثم يسعى الى　　جنونه وسع خطى رجله
ألا ترى الخمر له مطلباً　　وهي خمار العقل عن عقله
ألا ترى للكاس في ماله　　قسم يساوى الخرج من دخله
فيشترى الخمر بما لودعى　　لبذله في الخير لم يوله
ويبتغى السكر ولا يبتغى　　موارد الشكر على فضله
تالله هذا منتهى ما نرى　　من سفه الانسان في فعله

أردت أصيل البارحة رياضة النفس وترويحها من عناء الاشغال المتراكمة والأعمال المتزاحمة وأنا أنا على فطرتي الاولى: بعيد عن «المودة» الجديدة بعد المشرقين أو أقصى، قريب من «الانتيكة» القديمة قاب قوسين أو ادنى. لا أعرف من ساحات المنازه غير باحة منزلي. وقد سئمت لزومها: فخرجت أتمشى طوع خطرات خطواتي لا طوع خواطر خطراتي فما اشعر الا وأنا في متنزه اشتبكت فيه غصون الدوحات وتعانقت به قدود الايكات وفرشت أرضه بالسندس الاخضر وحفت طرائقه بأنواع الزهر الازهر: بين ورد أحمر وآس ابيض ونرجس أصفر؛ وأحاط به نهر صفت صفحته وصقلت ديباجته واينما لحت مجالس للأوانس وفيها مجال للرجال ومطالع صفاء لشموس الصهباء؛ فتثاقلت في السير لأملأ اقداح احداق النواظر من انوار تلك المناظر النواضر واذا بصديق في مجمع انس وايناس ومربع كاس وطاس يستدعيني اليه ويستدنيني لديه فهممت باجابة دعوته لولا اعترضني شيخ ملثم فأخذ بيدي ولم يتكلم وقادني بالقهر الى ايكة على شاطئ النهر ثم رفع اللثام فاذا هو استاذي «الدهر». فأنست بعد النفار

واطمأن خاطرى بعد ان ثار ثم قايضته السلام وجلسنا فدار بيننا الكلام فقال: من اين والى اين ؟

قلت: من البيت الى رياض الرياضة ومراح الراحة

قال: أضاق بك عرض الارض فلم تجد مسرح نزهة الا الجزيرة وهى هيه! — قلت: عافاك الله وما هيه ؟ اني لاجهل اسمها فضلا عن مسماها وموقعها. — قال: هى مذهب الذهب، ومفض الفضة، وممال المال، وميدان الفتك بالفضيلة، ومعرض هتك الاعراض وفض بنات الكروم وطمث بنات الكرام، وملعب الراح بالاشباح والارواح، ومشهد مخازى مصرك وفضائح عصرك. — قلت: استاذى ! لا تأخذ بلحيتي ولا برأسى! فوالله ما أتيتها قصدا ولا جئتها عمدا ولا زرتها في العمر غير هذه المرة. وقد سرت اليها أسير أقدامى لا طليق إقدامى: بل كان القضاء سائقي والقدر قائدى — قال: بر قسمك، وعفى الله عنك ! والى أين كانت وجهتك حين لقيتك ؟

قلت: كنت على أهبة اجابة صديق دعانى لمجلس انس تلاقت فى هالته الكواكب بالكواعب، ودارت عليهم شموس الراحات فى دارات الراحات، ونادى المنادم فيه «خذ وهات»

فأطرق برهة ثم قال: أ كنت تشرب معهم لو جمعك جامعهم؟ قلت: ولم لا! والخمر مذهبة الاتراح، ومجلبة الافراح، وداعية الارتياح، ووسيلة الانشراح، وريحانة القلوب والارواح؟ ثم هى مظهر كمال المرء فى مدنيته وانسانيته ولطفه وظرفه ورقته وحسن عشرته و .....

قال: حسبك! حسبك! هذا ما خفت عليك منه فأدركتك قبل أن يسحرك عدوك الذى سميته صديقك بسحره ويسقيك ما يشقيك ويشفيك. أوشربتها من قبل يا محمود؟ — قلت: لا والله

قال: ومن أين لك انها على ما وصفت؟

قلت: من قصائد الشعراء أرباب الافهام وأمراء الكلام؛ فقد جلوا فى وصفها ابكار الافكار عربا اترابا وابرزوا خواطر الخواطر معربة عن كنهها اعرابا. وهل فى قبول حبابها ممن حبابها ورشف رضابها ما يشين الرضى بها؟

قال: شين وأى شين. بل وبال وأى وبال.

قلت: استاذى؟ حبذا لو تفضلت ففصلت ما أجملت وشرحت مضارها فاطنبت لعلى اهتدى بعلمك وأهدى به من أحببت. — فقال: يا بنى، انها الخمر! وكفى هذا الاسم دليلا

على عوراتها فانما سميت به لانها تخمر العقل أى تستره . وفعلها السكر ، وحسبك به دالا على سوآتها لان معناه ما أسكر اى حال بين المرء وعقله .

ثم انك تعلم ان مطالب المرء فى حياته ولذته منها لا وسيلة لبلوغها الا بأمرين : جثمانى لا يتم الا بصحة الابدان وسلامة الاعضاء وكمال قوتها وتمام شعورها وقيامها بوظائفها بمقتضى قوانينها الفطرية . ثم نفساني وغايته ادراك النافع من الضار والخير من الشر للاخذ بالاول والنبذ بالثانى . ولا ينال الا باعتدال القوى العقلية وسلامة المدارك لتتصرف فيما خلقت له تصرف الحكيم فى شئونه بما لها من حكمة وهبية وتجربة كسبية . والخمر يابنى مهلكة الامرين ومضيعة الحالتين لانها تدمر قواعد الجسم وتنهك قوى النفس معاً . فليس لشاربها فى حياته لذة ولا الى مطالبه مطال .

وانها الجامعة جوامع العطب وعقدة رابطة المخازى . فما علق بها امرؤ الا عقلت عقله وأساءت حاله ولاشت ماله وقطعت من الكمال آماله وفرقت على اصحاب النصيب ماله : هذا خمار ينفحه ببدرة وتلك ذات خمار مومس يمنحها دره

وهذا قواد يهبه الدينار وذلك مقامر يرهن له الدار والعقار ومصاغ الحلائل الاحرار

انها يا بنى مجلبة العار وداعية الشنار ومذهبة الجلال والوقار ومقطع شرف الاعراق وتهلكة مكارم الاخلاق وأم الرذائل وضرة الفضائل تدعو الى كل موبقة وتنهى عن كل معروف مألوف وتأمر بالفحشاء والمنكر . ما احتسى كأسها انسان الا حباً فى الخروج عن قيود الآدمية والدخول فى بحبوحة البهيمية رغبة فى التخلص من عقال العقل له فى معاهد الكمال فيستريح من متاعب المدارك وأحمال الوقار الثقال حتى اذا اصابه من هوى مسارحها مكروب الكروب وجرائيم الخطوب فذوت زهرته واغبرت نضرته ووهت قوته عن درك امر دينه ودنياه وقربت من سوء مبدئه وخاتمة عقباه قال « يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله » ولات ساعة مندم

قلت يا أستاذ ! أين هذا مما وصفها به الشعراء ؟

قال يابنى ! لاتغرك من المتشببين بالخمر زخارف مايموهون . انهم مبطلون «والشعراء يتبعهم الغاوون» . يابنى ! إن الشعر باب

من أبواب الباطل فان أريد به غير وجهه ضعف؛ ولذلك ضعف كثير من شعر أمية بن الصلت واشباهه . فالعاقل العارف لا يجعل ذلك مواطن حقيقة يلتمس منه نصحاً ويرجو منها ارشاداً. يابني! ان الله وهبهم ذلاقة اللسان وطلاوة البيان وبلاغة التبيان فاستعملوا ذلك فيما لا يرضيه الا قليلا منهم فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكتبون. يابني! انهم خالوا من مخازي الخمر عروساً رسموا لها بدم المحابر قصراً شادوه بأقلام التغرير من مواد الغرور، ثم البسوا تلك العروس حلة معان رائقة وحلوها بحلية خيال شائقة سمطها الوقاحة وفرائدها جواهر الادب، بل عقودها الخبائث ودراريها لا لئ الحكم ونادوا عليها مناداة من قاد لمن جاد . فاحذر يابني نفثات أقلامهم في هذا المقام فانها السحر الحرام الهاذي بالوقار الهازي بالاحلام

ثم تولت الشمس بأنوارها وأقبل الليل بظلامه فقطع الاستاذ موصول كلامه وقال: قم يا بني الى البيت فقد أمسيت وليس لك رفيق وأخشى عليك غوائل الطريق والآتي للاحد الآتي

١٨ رجب سنة ١٣١٨ — ١١ نوفمبر سنة ١٩٠٠

٥

﴿ الخمر ايضاً ﴾

الخمر مذهبة الوقار ومجال مضيعة العقار
كم عاقل عقرت حجا ه لذاك سميت العقار
كم موسر نقلته من عز الى ذل افتقار
كم سالم فقرته أى كسرت له عظم الفقار
كم من عظيم أسلمته الى الصغار والاحتقار
كم عصمة وصمت وكم شرف أضاعت في شنار
كم أبرزت مكنون سـ ـر كم أزالت من ستار
كم ثوب عرض لم يكن أبداً يباع ولا يعار
نادت عليه لبيعه بيع الكساد بسوق عار
كم كاسب كاس عرا ه الخسر منها فهو عار
ما كاس شارب كاسها ايكيس من يرد البوار

أفلت الشمس وأنا بالجزيرة أتلقى الدرس في مضار الخمر على أستاذى «الدهر» فقطع الكلام وأمرنى بالقيام والرواح قبل هجوم الظلام خشية عوادى الطريق مع عدم

الرفيق ووعدني عودة يشفي بها صدري ويغنم فيها بالتعاليم أجري فودعته وقمت أجري الى حيث أدري أين أحط رجلي في مسيري ولا أدري سواء السبيل لمحط رحلي ومصيري. فكنت أسائل السابلة: أين السبيل الى داري؟ ولا أداري أني غير داري. وأستوصفها حسب الجاري بشهرة وجار جاري. فلم أزل يضلني هازي ويهديني هادي حتى فلق الفجر فرق الليل فصدعه وهجم ابن سام على ابن حام فصرعه. فاهتديت الى البيت بعد كيت وكيت وهناك من التعب ارتميت على الحصير كالميت بعد ان اتحفت القراء عما تلقيت فلم ازل في نوم الى اليوم. ولولا موعد لقاء «الدهر» لنمت شهراً او بعض شهر. ومن يطل سهاده يطب رقاده

قمت فصليت ما فاتني من صلوات وأديت ما وجب على لمن تجب لهم الصلات وخرجت اطلب «ابا العبر» فما زلت استهدي اليه من عبر حتى ولى النهار وغبر وغابت الشمس وآب القمر. فرجعت الى حيث نجعت. ولكني لم يستقر بي القرار حتى طرق على طارق باب الدار. قلت: من الطارق؟ — قال: غخمة بن جمير (من اسماء الليل)

قلت : وما شأنك ؟ — قال : انا رسول استاذك « الدهر »
يعني ادعوك لتنهض اليه . — قلت اعوذ بالله : ان رسولا
اسمه فحمة ، وابوه جبير ، لأشأم من غراب . وهممت ان لا
اخرج من الباب . ولكن رغبتي في التعلم منعتني من التخلف
عن المعلم . فخرجت واذا بالرسول اسود زنجي ، في عنقه طوق
فضي ، وفي وجهه وعلى اهابه نكت بيضاء تلمع لمعان الدر وكأنها
نجوم السماء الزهر ، وكأن الطوق غرة الشهر . فقلت بياض
ابلج في سواد ادعج يماثل النجم الزهي في الليل الدجي
هداية من ضلال مبين : قال تعالى « وبالنجم هم يهتدون »
فنزعت التشاؤم من فكري ثم تبعته الى حيث يسري . فما زال
يتنقل بي من سكة مسلوكة ، الى طريق متروكة ، الى درب
صغير ، الى شارع كبير ، حتى دخلنا جنة هي الجنة اشجارها
خضراء مورقة ، وانوارها زاهرة . واقمارها نضراء مشرقة ،
وانوارها باهرة . وبالجملة فمناظرها النواضر ملهى العيون
النواظر ومسرح خواطر الخواطر . وفيها جبيل جمع من
محاسن الطبيعة كل بديعة : تفجرت من جوانبه الانهار
وبسقت في صخوره الاشجار وسرحت في سفحاته الغزلان

ومرحت في ساحاته الحور والولدان . فتسلقنا منه الجدار الى قلته فاذا « الدهر » في الانتظار على قمته . فسلمت عليه وجلست بعد الاذن بين يديه . ووقف فخمة بن جمير حيث يراه ويسمعه اذا دعاه . ثم جرى بيننا الحديث مجراه فقال: اتدرى اين انت ؟ — قلت : كأني في جنة الدنيا وهذه العين الجارية كوثرها وتلك العين العيناء حورها . ثم هذه القصور العالية معاهد المتقين ومنازل الصالحين

قال : لست هناك . انما هي جهنم مصر وقودها الناس والذهب ؛ وهذه القصور المشيدة مهابط الشياطين ومجمع الفاسقين ومربع المقامرين ومرتع السكيرين ؛ وتلك النساء فتنة اولئك الرجال وداعياتهم الى سوء الحال وشر المآل

قلت : وما اسم هذه البقعة ؟ ولم احضرتني ليلا اليها اذا كان هذا حالها ؟ الم ينهني استاذي عن الذهاب الى الجزيرة لانها مفسدة ؟ — قال : يا بني اسمها الازبكية ؛ وهي أم الجزيرة في الفجور ، والشرور ومقارفة الخمور ، ومخامرة ربات الخدور ، وسلب مهج القلوب ، ووهج الجيوب وحجج الاطيان والدور وما احضرتك اليها وقد نهيتك عن بنتها الا لترى بعينك

ما تسمعه بأذنك من كلمي ودروس حكمي فان التعليم بهذه الطريقة يقرب للافهام ما بعد ويقيد بالاذهان ما شرد «وما راء كمن سمع» فلا تعجل بعتبي مرة أخرى . ثم انى اخترت حضورك في الليل دون النهار لان ليلها كنهار غيرها كاشف الاستار عما بها من أسرار

شرحت لك يابني فى الدرس الماضى مضار الخمر قولا : وسأبعث بك مع الخادم الى حيث تشاهدها فعلا : فتنبه لكل ماترى وها أنا فى انتظارك لتخبرني بما جرى حتى اكون على يقين من انك أحطت بها خبراً (ثم التفت الى نخمة بن جمير وقال : طف به من ماخور الى ملعب، الى مرقص، الى .. الخ ثم عد الىّ به)

فذهبنا الى محل فسيح فيه كراسى منصوبة وزرابى مبثوثة ونمارق مصفوفة وموائد من الرخام قائمة صفوفاً . ثم جلسنا في جانب منه واذا بشاب خفيف الحركة سريع الخطى تمثل بين ايدينا وسألنا أى شراب نريد ؟ فنظرت الى نخمة مستنكراً ، فهمس الىّ بأن ذلك أمر لابد منه . وعرفنى ان فى هذا المحل ما حرم شربه وما حل . فطلبنا الحلال دون الحرام ومع ذلك

فقد شغلني عن شربه ترقب حركات الجلوس واستماع رنات الكؤوس في الكؤوس. فرأيت فيما رأيت عمدة، فتح قناني عدة، ومعه عاهرة أقبح من قردة، حتى اذا دبت سورة الخمر في نفسه، ولعبت برأسه، وكشفت عن سوأة تهذيبه، أخذت المومس تهزى به: فهدات عمته، ومزقت جبته، ونتفت لحيته، وهو يضحك ويلعب، ولا يغضب ولا يعتب، وآل به المآل الى أن قام فرقص، وكأنه حمار قص. ثم سلبت ما معه. ولم يمض الا قليل حتى أتاه الخمار فطلب الحساب فلم يجد شيأ؛ فقدم له «كمبيالة» فأمضاها: ثم طرده كما تطرد الكلاب. أما صاحبته فتحولت الى غيره وهي تترنم بقول القائل «تنقل فلذات الهوى في التنقل»

انتقلت الى رجل يلوح على منظره الناضر ومظهره الفاخر انه من ذوي المناصب العالية والمراتب السامية فطاف عليهما طائف الكاس حتى خلط في قوله واختبط في عقله فأتاه صاحب الحان في الحال وتقاضى حسابه. فرهن له الساعة على مشهد من الجماعة ثم سحبته قرينة السوء وقامت تجرى به الى محل تجريبه أو تدريبه...

ورأيت جماعة التفوا حول مائدة يتنادمون على شرابهم بذكر نسائهم وبناتهم، وحديث أحيائهم وامواتهم، ويتمززون باعراض الحرائر، وشرف الأكابر، فباح احدهم بسر زوجة الثاني فانقلبت المنادمة مشاتمة والمكالمة ملاكمة. فدعا الخمار البوليس فأخذهم عصبة بعد ان دفعوا الحسبة. . . . .

ثم خرجنا من هذا المحل في طلب غيره فصادفنا ذلك الذي قام مع العاهرة يتمشى مع يهودى فغمزنى ابن جبير وقال لى تثاقل فى خطاك وافتح اذنيك وتلقف ما يقولانه. فاذا الوجيه يستقرض اليهودى مبلغاً يعمر به جيبه الخرب. فلم يزل يتذلل اليه وهو يتدلل حتى اتفقا على ربح فادح ورهن كافل. وهنالك مالا الى قهوة حررا فيها صك القرض وحجة الرهن. ثم نقده اليهودى ما نقده، وخرج الوجيه مسرورا محبورا. فقال لى «خمة» تتبعه لترى ماذا يفعل. فسرنا وراءه فدخل محلا ودخلنا معه فاذا به انتظم فى عقد جماعة يلعبون القمار وكلهم سكارى الا الأوروبيين منهم فانهم اقتصدوا في الشراب لينصحوا في الالعاب ويعدوا للأسلاب فكانت لهم الغلبة على كل حال إما بالمهارة او بالشطارة (السرقة). فلم نلبث الا قليلا

حتى افلس صاحبنا وثلاثة معه، بعد ان خسروا املاكهم من طين وعقار. ومنهم رجل فضل الانتحار عن العود الى الدار فألقى بنفسه من النافذة « الى حيث القت » فراح واستراح. وهناك بعث البوليس الى المستشفى جثته بعدان اخذ صورته..

ثم تفقدنا الوجيه فرأيناه يدلج في الشارع وهو يميل يمنة ويسرة، ويقع مرة ويقوم كرة، وآونة يتخبط في الشجر، وآناً يسبح في القمر، وحينا يمشي على قدر، حتى مر على مرقص تداس فيه بالاقدام الفضيلة، وترفع على الهام الرذيلة، ويراق دم الكمال، بسيف الابتذال؛ فمال اليه، واحدق قليلا بعينيه، ثم كأنه ادرك خلو يديه، فلم يقدم عليه؛ واستمر في طريقه ونحن نقتفيه، حتى وصل الى البيت الذي يؤويه. هنالك قلت لفحمة ابن جبير: حسبي! فعد بي. فقال تأن فقد امرت ان اطلعك على احواله مع عياله. فلما فتح الباب تلطفنا في الدخول وراءه فرأيت وما ادراك ما رأيت: اطفالا هجروا الهجوع وارسلوا الدموع لشدة الجوع. ووالدة بارة تعللهم بعودة الوالد بالطارف والتالد. فلما دخل قهقه من شدة سكره الصغار وتناسوا بالضحك عليه ألم السعار وما زالوا يعبثون بذقنه

حتى مال بهم السكرى الى الثرى . أما الأم فبكت طويلا ثم قامت تعوله كما تعول عليلا . فأحس بها وهي تنزع عنه ملابسه وتلبسه لباس النوم : فظنها سالبا يسلبه ؛ فما زال يضربها وهي تلاطفه حتى كل ومل ، ولولا انحلال قواه من السكر لأضر بها الضرب ، وهي تحاشى دفعه عنها بقول أو فعل لئلا يسمع بها الجيران فيشمت حاسد ويفرح حاقد ...

فقلت لفحمة : استحلفك بحق سيدك ان تعود بي اليه فقد كادت تجمد حواسي وتخمد انفاسي من هذا الفصل البارد. فلم يكن الا كلمح البصر حتى رجعنا اليه وقصصت ما رأيت عليه . فقال : هذا يابنى بعض من كل وقل من جل

قلت: سيدى. اذا كانت هذه . مضار الخمر أفلم يحرمها الله لطفا بعباده ؟ — قال : كأنك لم تقرأ قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون » وكأنك لم تسمع قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يزنى الزانى حين يزني وهو

مؤمن ولا يشرب الخمر وهو يشرب وهو مؤمن » ؟

قلت : صدق الله ورسوله . انى أرى في الآية الشريفة من مضار الخمر مالم أره وما لم تذكره لى . أرى من ضررها ما يتعدى من شاربها الى الجامعة النظامية اذ ينجم عنها الايقاع بين الناس بالعداوة والبغضاء ؛ وهما أقوى عوامل التنافر وتفريق الكلمة وتمزيق الجامعة — قال نعم . وكأنك نسيت ما شاهدته من تضارب أولئك الناس الذين كانوا يتمززون بالاعراض على الشراب ، ثم ضرب ذلك الوجيه لامرأته بلا ذنب جنت . — قلت : صدقت . وأرى أيضاً من الآية الكريمة والحديث الشريف انها تسطو على عقيدة شاربها فتمزقها كل ممزق . فهى اذن لم تقتصر على الفرد فى بدنه وماله فقط بل كذلك في ايمانه . ثم تتعدى منه الى الفصيلة ، ثم الفخذ ، ثم البطن ، ثم الشعب بتمامه . فهى على ذلك انكى مهالك الممالك . أليس كذلك ؟ قال : نعم . — قلت : فمابال الحكومات لا تضرب على أيدى شاربها ؟ — قال : يابنى ان الحكومات كلها ترى من الاعتدال الواجب عليها الوقوف عندحده ان لا تصادر المرء في حريته الشخصية وتصرفاته الذاتية ما دام

راشداً ممتعاً بحواسه ومداركه؛ فاذا اختلط عقله لسكر او خلافه وبدا منه ما يضر بغيره او بماله رأت حق التداخل في شئونه من واجباتها . فليس للقانون على السكير سيطرة الا اذا أخل بالنظام — قلت : عجباً ! انى ارى عملها هذا مال عن الحكمة بالكلية فأخذ بطرفى التفريط والافراط معاً : فرطت حيث تراه يبذر فى ماله أولا ، ويهدم في عقيدته ثانياً ، ويتلبس بأم الجرائم ثالثاً ويتعرض لما يعرض بوقاره وعرضه وشرفه رابعاً ، ثم بما يضر بالجامعة خامساً ولا تصده ولا ترده . وأفرطت حيث طاولته في ذلك كله فلم تعترضه الا بعد الجرم والجناية ؛ بل تعدت بالافراط حده اذ جعلت للسكر شفاعة مقبولة في تخفيف العقاب عند التقاضى

عجباً على عجب ! تعاقب الحكومة على الشروع فى جرم واحد فما بالها لا تعاقب شاربها وقد أخذ يستعد لارتكاب جرائم كثيرة ؟ تضرب على يد القاصر والسفيه المبذر فما بالها غفلت عن السكير وهو أسفه سفيه لتبذيره في ماله وعرضه وشرفه وحياته وتفريطه فى دينه ووطنه ؟ أرى الحكومة تعقل المجنون بآفة سماوية فى معقل البيمارستان أفما كان المجنون

باختياره المعتوه بآفة ارادته أولى بهذا العقال منعاً لما عساه يحدثه من خلل فى الهيئة النظامية ؟

قال : كان الواجب ذلك يا بنى . وتلك حكمة الله فى تحريمها وتقرير الحد عليها . وقد علمت ان الحكومات تحكم بمقتضى قوانين وضعية ؛ ومحال على عمل الانسان تمام الأتقان والاحسان « الا من عصم ربك »

قلت : أفما كنت ترشدها فتغنم الاجر ؟

قال : أرشدت . وما من أمة الا وتعرف مضار الخمر وتتمنى لو منعت منعاً باتاً ؛ ولكن البعض وهم أولو الكلمة النافذة اليوم يرونها ضرورية فى بلادهم لمقاومة البرد فهم يتناولون منها بقدر الحاجة اليها ويسعون فى تعميمها ببلادك وأمثالها لما وراءها من كسب سحت . فلهذين السببين لم تحرمها القوانين الوضعية . غير أن الامة الراغبة في الكمال اذا رأت خللا فى قوانينها لا تسكت عليه بل تطلب من حكومتها سده بشدة

قلت : ان حكومتى يديرها من لا يسمع للامة صوتاً او لا يجيب نداء كما تعلم . فهل من سبيل آخر للتوقى من شر الخمر ؟

قال : عظ بوعظى وازجر بزجرى فان أطاعك اخوانك

فقد رشدوا وهدوا والا « فعلى نفسها جنت براقش »

ثم ختم الدرس فقمت رامحاً وجئت واعظاً ناصحاً

والنصح أعلى وأغلى   من غاليات اللآلى

هل مشتر يشتريه   بالسمع والاقبال

٢٥ رجب سنة ١٣١٨ و١٨ نوفمبر سنة ١٩٠٠

٦

﴿ الخمر ايضاً ﴾

ياواصلا بنت الكرو   م وهاجرا بنت الكرام

علمت هذى اذ نقض   ت عهودها نقض الذمام

فاذا بدت من خدرها   كالبدر من سجف الغمام

فى حلة رقت فنم   ت عن تفاصيل القوام

وشدت حلاها فوق غص   ن قوامها شدو الحمام

وسعى سفير لحاظها   يتلوه رائد الابتسام

هذا يرحب بالمريـ   ـد وذا يكاشف بالمرام

ورأيتها تنزو وتز   نى فاعتب على شرب المدام

ألقيت فى الاسبوع الماضى ما تلقيت من نصائح استاذى

« الدهر » فى وجوب الامتناع عن الخمر على مسامع اخوتى أبناء أمتى ولبثت اسبوعا اترقب ان ينزعوا عنها وينفروا منها لما تبين لهم من قبائحها وتكشف من فضائحها فرأيت الهائمين بها ملازمين لبابها دائبين على ارتشاف حبابها وامتصاص رضابها ومداعبة كأسها ومساهرة السهى فى مسامرة ناسها على طاسها فطاشت بى الافكار وجاشت فى صدرى الهموم والاكدار وفاضت العين بدمعها المدرار حسرات على شبيبة ناضرة وشيخوخة زاهرة يأكل فيهما جمر الخمر ويدنى منهما قصى العمر ويعرض باعراضهما للتمزيق ونقد النقاد ويذرفى اموالهما بالتفريق على النباذ والقواد ويسلم مصالحهما وصوالحهما للطامعين فى البلاد وهم لا يشعرون

ولما عيل الصبر واشتد الكرب وضاق الصدر وانقبض القلب وخفت على النفس ان تذهب بها ريح الافكار او يلهبها لفح الاكدار طلبت مشهدا غير هذه المشاهد في معهد غير تلك المعاهد ينسيني اشجانى ويسليني عن احزانى فسرت حتى وصلت الى قبة مضروبة على قنطرة منصوبة يتدفق من تحتها نهر حفت به الجنات وجرت عليه الجوارى المنشآت

فرميت بعيني الى بابها واذا الدهر بها وقد رآني فدعاني فأقبلت عليه وقبلت يديه ورأيت معه غادة

هي الجمال مفرغا في قالب الحسن البهي

فغضضت البصر عنها حياء منه ومنها واشفاقا على القلب من عوامل الهوى وبواعث الجوى وماسلمت حتى استأذنت في العودة من حيث اتيت فأدرك الدهر ماخامر فكري ولم يخف عليه امري فأبى الا الجلوس والائتناس بتلك العروس فاخذت من المجلس مقري وأعطيتها ظهري فضحك وقال: ما هذا الاعراض والاغماض والخلق الجديد؟ أما كان اولى بأدبك ان تسلم على السيدة وان تستقبل الجلوس بوجهك؟

قلت يمنعني قوله تعالى: «قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم» — قال: حفظ الله عليك دينك وقوى يقينك. يابني ان السيدة ليست من اللواتي حرم الله النظر اليها فقد خلقها مجتلى كل انسان ومتعة كل فؤاد ولم يخص بها احدا من العباد.

قلت قرأت القرآن وطالعت الزبور والتوراة والانجيل فلم ار مثل هذه الفوضى في الاديان. وكأنك تهزأ بي او عدلت بي من الارشاد الى الافساد...

قال: حاش لله ان اغرك او اغر ربك او اسخر منك.
ارأيت يابني ان «الدنيا» خص النظر اليها والتمتع بجمالها بأحد من الناس؟ — قلت: هذا مثال لا يصح عليه في هذا المقام قياس.

قال: ولم وهي هيه؟ — قلت هي هيه؟ ... ووجهت وجهي اليها وملأت منها النظر فكدت اطيش. ثم قمت فصافحتها وسألتها العفو عن هفوتي فعفت. وكان بودي ان اسألها عن اسباب ذم الناس لها لولا سبقني الدهر الى ما في نفسي فقال: نعم يا بني هي هي مرآة الاحوال التي تمثل للامم وافرادها اعمالهم ان خيراً فخير وهي المحمودة الممدوحة وان شراً فشر وهي المذمومة الممقوتة

قلت: اليست كما قيل فيها «فتنة للعابد»؟

قال: وهل تؤثر فتنة في نفس ذي دين مكين؟

قلت: اليست متاع الغرور بنص القرآن؟

قال: ذلك يابني لمن لم يسلك بها سواء السبيل. وقد حث النبي عليها صلى الله عليه وسلم — فقال: اعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً» — قلت: فما بال علمائنا ينهون عن الاشتغال بها ان خيرا وان شراً؟ قال: ولمن خلقت؟

قلت: سؤال عليهم جوابه ولى لبابه !!.

ثم انتقل بنا الحديث فسألني عن اثر الدرس الماضى فى نفوس من سمعوه فأخبرته الخبر والدمع يتقاطر وزفرات الحسرات تتواتر — قال: خفف عنك يابني وذرهم فى خوضهم يلعبون فسيعلمون اى منقلب ينقلبون — قلت: ذلك ما اخشاه وقد علمت انهم مني إما اب او اخ وكلاهما اعز على من نفسى

قال: دنيا وقد احاطت بالمبتدا والخبر: اراك وعظتهم بأن الخمر تأكل العمر، وقد عرفوا ان لكل اجل كتابا. ثم بأنها مضيعة المال، والمال مكتسب، فأن ضاع عوضه الاكتساب. ثم بسقوط الوقار والتعرض للاحتقار، وقد أمنوه بحكم القانون الموضوع الذى يقضى على من يقول للمومس «انت مومس» بالعقاب. ثم بوعيد الدين، ومن خصائص الخمر ان تنزع الايمان من القلوب فهم لا يعتقدون فى جنة ولا فى نار ولا فى جزاء ولا فى حساب. والأولى عندى ان تأتيهم من باب «العرض» لعلك تجد فى قلوبهم بقية من الغيرة على الزوجات والبنات والامهات وحفظ الانساب.

قلت: وهل لديك ما تزودني به من علم لطرق هذا الباب؟

قالت ؟ نعم . انظر ترى الرجل يقضى النهار فى خدمـة يؤديها أو تجارة ينميها او صناعة يديرها أو مهنة أخرى يدبرها؛ فاذا جاء وقت العشاء وقد هيأت له زوجته العشاء – ان كان لديها ما تهيئه – اكل وشرب ثم تركها وذهب الى مذاهب الذهب ومعاطن العطب ومواطن الريب، فقضى الليل بين خمر وقمر وفجور الى قبيـل الفجر ، وامرأته فى انتظاره أنيسها الهواجس وجليسها الوساوس وسميرها الأبالس يسائلونها : لمن تزينت وقد هجرك من تزدان لمثله النسوان وغنى عنك بنت الهوى وبنت الدنان؟ ألست خلقا مثله تهوين من الرجال ما يهوى من النساء الرجال؟ وما اصطبارك على هـذا الحال ؟ فاذا عاد سكران مسطولا، لا يعي مسموعا ولا مقولا. وارتمى على فراشه عرضاً او طولا. قال لها الأبالس: هذا من قضيت الليل فى انتظار اقباله لاستقباله كالميت أو الميت خير منه : فما هذا العذاب، وعلام احتمال الحجاب، هلا خلعت الازار، وهتكت الستار، ودرت كما دار: هو بالليل وانت بالنهار ؟ واذا كان لا يحفظ عهدك ولا يرعى ودك ولا يغار على الاحرار فعلى م حفظت له الذمار ؟ فلا تلبث المسكينة ان يغويها الشيطان

فتدرج في مدارج النقصان وهاديها في دروجها نفس زوجها!!

قلت: وكيف ذلك؟ وهل يقود الرجل امرأته؟

قالت: نعم. السكير اقود لامرأته من عجوز لباغية!! فانه وهو في سكره - والسكر فضاح السرائر - يكاشفها بخطته التي سار عليها في غيبته؛ ويصف لها مسالك الريب التي سلكها من خروجه الى عودته. ويحدثها عن حيل الرجال في ختل ربات الحجال وفنون فتون ذوات الخضاب للشيب والشباب؛ ويصف لها مواقع البيوت السرية والمنازل الجهرية واين توجد الفساق ويكثر العشاق؛ ويعلمها قراءة الخواطر من خط رمش النواظر وما يريده رائد الابتسام من مرمى ومرام. وكيف تخلص من بعلها او احد اهلها اذا صادفها في الطريق مع رفيق او عشيق او في السرير مع رشيق

هنالك لا يخرج من البيت الا وهي في أثره ويدها في يد غيره. وربما اعترضته في سيره وطالعته بسرها وطالعها بسره؛ فان عرفها ونبس قالت له: «يدَس!». ولولا ذلك لانحلت عقدة الوفاق بعامل الطلاق وفارق كل سكير حليلته ولازم خليلته الا من عصم ربك...

— أحقا ما تقول أيها الرجال وهل ترضون بهذه الخلال وتلك الحال ؟ . . . .

لئن رضيتم بهذا يعزى، وينمى اليكم
برأت لله منكم ثم السلام عليكم

٣ شعبان سنة ١٣١٨ و ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٠٠



٧

﴿ الميسر ﴾

اخسر خلق الله منا صفقة من يطلب اليسر بلعب الميسر
يجنى حراما ان جنى وقلما يبلغ الا حسرات المعسر
فغنمه جرم واما غرمه ففقد ميسور وفقر موسر
كم خرب الميسر بيتا عامرا وكم اهان من وجيه وسرى
اقل ما فيه الدمار والبوا ر والشقا فأسر عنه وسر

قمت من مجلس « الدهر » و « دنيا » يوم الاحد الماضى وكأنها رمت فؤادي من لحظها بسيف ماض ومن قوس حاجبها بسهم صائب ومن قدها بقضيب قاضب او كأنها

اودعت بين جوانحي من خدها جذوة جمر وسقتني من حدقها قدح خمر فسكرت من غير سكر وبقيت اسبوعا ذاهل اللب ذاهبه شارد الفكر ساربه. وكنت سمعت من احاديث الهوى نتفاً وقرأت في الكتب من اخبار الجوى طرفاً فاذا ما بى من حال عين ما سمعت من قال. فايقنت هنالك انى القيت بنفسى فى المهالك وانى لابد هالك اذا لم انل وصالها وتضمنى واياها عقدة لا انفصام لها. وبينما أنا افكر وادبر اذا بفتى كالملك جمالا والملك جلالا أقبل الى وسلم على ثم قال: أنعم الله بالك واصلح حالك كيف أنست بالانفراد وهو وحشة العباد وهل لك فى جليس أنيس؟ قلت: شرط التآلف التعارف. فمن أنت، ومن اين، والى أين؟ قال: اما الاسم ف «الأمل»، واما الوظيفة فتقريب البعيد وتسهيل الصعب الشديد، وأما الموطن فبلدة النفوس، وأما الوجهة فالتجلى للقاصد لأيسر له وسائل المقاصد

قلت: لله انت. ان لى لمقصدا أراه بعيد المطال عزيز المنال. فهل لك ان تهديني اليه. ولك منى الشكر ومن الله الاجر؟

قال: لمثل ذلك خرجت ودرجت فماذا تريد؟

قلت: شغفنى هوى «دنيا» من أسبوع لم تمض منه ليلة

ولا يوم الا وأنا بها في شغل شاغل وهم طائل وحال حائل.

قال: الخطب سهل. وللوصول اليها طرق: جد ولعب، وراحة وتعب، وسهل وصعب: فأيها تحب ان تسلك؟

قلت: بأبي أنت وأمي ارحني من الصعب اذا تيسر السهل.

قال: اراك خطبت مظاهرها لا مفاخرها وهي عروس مهرها الذهب: فتم اريك أقرب سبل طلابه واغزر موارد اكتسابه. ثم نهض ونهضت، ومشى وتبعته، حتى وصلنا الى ناد اجتمع فيه الناس فرقا بعضها يشرب، وبعضها يلعب، وبعضها يقرأ صحف الاخبار، وبعضها يتنقل في الحديث من قديم لحديث: فمال بي الى اللاعبين وهم افرقاء: فريق للنرد وفريق للشطرنج وآخر للورق. ثم قال أيها تعرف؟ — قلت اعرف النرد. — قال اجلس. فلم اكد استقر حتى اقترب مني فتى وسألني ان العب معه وللغالب على المغلوب قرش. فالتفت الى صاحبي «الامل» فقال: اجب. ففهمته وحيا اني لا أملك غير قرشين وعليهما احتسب قوتي وثمن الزيت وأجرة البيت حتى يسوق الله لي غيرهما. قال: اجب. فأجبت ولعبت فقدر الله أنه غلبت. فأخذت القرش وضممته الى اخويه وأنا اقول فعززناهما بثالث.

وسألني ملاعبي عن رغبتي في الاستمرار، فرغبت واكتسبت فطلب مني في الثالثة ان يكون الغرم اربعة قروش فكان لي الفوز. وهكذا حتى اجتمع في جيبي ما لم يجتمع به في عسر ولا يسر ولا كنت اصدق به في حلم: وهو ريال كامل. هنالك اشار الى «الامل» أن قم. فقمت ونقدت صاحب النادي ثمن القهوة التي شربناها، ومشى ومشيت بجانبه نتحدث بحلاوة هذا الكسب السهل وموقعه في النفوس الراغبة في «دنيا» تصيبها، حتى وصلنا الى شارع واسع يسمى «وجه البركة» فقال: هنا البركة. ثم مال بي الى بيت قام على ماخور. فوقفت. فقال مالك؟ قلت: لا والله لا ادخل حانة وقد عرفت مضار الخمر

قال وانا لا ارغب لك ذلك؛ وانما أريد ان نصعد الى الطبقة العليا: طبقة اللعب الذي تربح فيه الربح الطائل في صفقة واحدة. فصعدت معه. واذا عن شمالي باب فيه نسوة متبرجات يخطبن ود الداخل والخارج فتأخرت الى الوراء. فقال: اقدم

قلت المنية ولا دنية الزنى! قال أعوذ بالله ان اكون قواداً. مل الى اليمين فهو محل اللاعبين. فملت معه ودخلنا، فاذا قوم التفوا حول صندوق يدور بآلة وضعوا عليه المال

الجم ؛ وفيه فرجة صغيرة رأيت كلا منهم يسحب منها ثلاث ورقات في بعضها نقط سوداء وفي بعضها نقط حمراء وفي البعض الآخر صور . ورأيت اول ساحب عد نقط ورقاته فكانت ٩، فجمع المال كله وأخذه لنفسه . فترقبت لهم مرة أخرى فلما سحبوا الورق زاد عدد النقط عند أول ساحب عن ٩ ؛ فانتظر حتى استكمل رفاقه السحب ؛ فاذا صاحب اكثر النقط عدداً هو الرابح . ورأيتهم حينئذ يحسبون الصورة صفراً . وكذلك الورقة التي بها عشر نقط

وبينما أنا على هذا الحال اذا برجلين (غربي حسن البزة وعلى رأسه قبعة اصطوانية اطول من ذراع ، سمعتهم يخاطبونه بـ « ياجناب الكونت » ؛ وشرقي مهيب المخايل رهيب الابهة ، سمعتهم ينادونه بـ « ياحضرة البك ») اقتربا مني وسلما فسلمت . ثم شرعا يحسنان لى اللعب ويرغباني في كسبه ويدعواني الى الشرب معلنين لى انه في هذا المحل مجانا بلا ثمن . فقلت اما الشرب فلا حاجة لى به ، واما اللعب فربما . ثم التفت الى الصندوق فرأيتهم انتهوا من دور ، وعلى وشك الابتداء في دور آخر ، فسبقتهم فوضعت « الريال » عليه . وكانوا اقبل ذلك يلعبون

بالاصفر الرنان ولكنهم تفضلوا ـ على رأيهم ـ فقبلوا ان يلعبوا هذه المرة بالابيض الساطع اكراما لي ـ لاني ضيف والضيف يكرم — . فلما سحبت الورق وهواجسي تحدثني بالغنى في لحظة سحبت ثلاث ... ثلاث ... ثلاث صور تحسب بثلاثة اصفار، مجموعها صفر ! فضاع الريال وامست يدي صفر، وجيبي صفر، ورأسي من العقل صفر ... فالتفت الى «الامل» مغضباً وقال لا تغضب، فان كان اليوم خسر فغداً يسر . فرجعت بخفي حنين اندب القرشين! . وماخرجت من الباب حتى اعترضني «الدهر» فصفعني صفعة حسبتها صعقة . ولم افق منها الا وانا في مجلسه المعتاد وليس معنا احد من العباد ؛ فقال معاتبا مؤنباً: اين كنت ؟ — قلت: كنت اطلب الغنى من سوقه الرابحة ومنبعه الفياض ـ قال: ومن هداك سبيله ؟ قلت صديق حميم اسمه «الامل» ـ قال: وهل ربحت ؟ ـ قلت ربحت ثم خسرت ويوم لك ويوم عليك

قال : الآن يابني علمت انك جاهل ما كنت فيه؛ وقد عفوت عنك هذه المرة؛ واياك ان تطيع «الامل» مرة أخرى حتى تقوى مداركك وتستنير بصيرتك . واعلم ان «الامل»

اثنان : حق وباطل . وان الذى كنت معه الليلة هو الباطل فلو كنت على علم وبصيرة لملت عن صحبته

يا بني انه قادك الى أخ الزنى، وابن الخمر . فهو ثالث المهالك، ثالث المهاوى، واسمه «الميسر» كم خرب من قصور كانت للضيف والسيف ! وأقفل من بيوت كانت للسائل والمحروم ! وكم التهم من أموال لو استربحها صاحبها فى الطيبات لعادت عليه بالعوائد الجمة والفوائد المهمة ! . وكم حكم مرابيا فى رقاب مقارفيه فأصبحوا له في أملاكهم عبيداً يزرعون ويحصد، ويستثمرون ويقطف، ولا جزاء ولا شكور ! ! !

يا بنى : ما اقترف الميسر مقترف حتى شرب الخمر ؛ ففيه عيوبها التى عرفتها . ولا ارتكبه مرتكب حتى ارتكب الزنى . وقد عرفت وباله ونكاله . ولا اقترب منه مقترب حتى نشأ في قلبه الحسد، وهو مقرض القلوب . وتربى فى نفسه الحقد، وهو مهلكة النفوس . ولا فشا فى أمة حتى أفناها

قلت : استاذى ! وأى جامعة بينه وبين الحسد والحقد وفناء الأمم ؟

قال : ان الياسر لا يقدم على الميسر الا وهو راغب فى

تحول مال مياسره اليه . وهو عين الحسد . ثم ان أحدهما لا يربح حتى يخسر الثانى ، فيحقد الخاسر . ومتى فشا وكثر المتحاسدون والمتحاقدون فى الأمة ، فلا يحتك بعضهم بالبعض الآخر حتى يتطاير شرر الشر وتستعر بينهم العداوة والبغضاء فيتآكلون

كالنار تأكل بعضها ان لم تجد ما تأكله

قلت : وهل حرمه الله ؟ قال كأنك نسيت آية تحريم الخمر : ألم أتل عليك قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون »

قلت : صدق الله العظيم : ان فى الآية لتزكية لما ذكرت من ان الميسر مهلكة الأمم . وفيها انه مضيعة الدين . ولكن هل حرمته القوانين الوضعية ؟

قال : نعم ، حتى عند البرابرة المتوحشين ، لانه سلب ونهب بغير حق . ولكن منه انواع موهها المحتالون تخلصاً من القانون وعقابه فنجحوا . كالمضاربات فى البورصة ، فانها نوع

منه وضع فى شكل تجارى؛ غير ان بعض الأمم اليقظة لم تنطل عليها هذه الحيلة الشيطانية فحرمتها . وكما يسمونه « لوتريه » فهى هو بعينه

قالت : سيدى! انى أرى « اللوترية » أغلب ما تكون فى الأعمال الخيرية؛ ولعلك تعلم ان لجنة اعانة منكوبى المجاعة فى الهند اتخذتها من ضمن الوسائل لجمع الصدقات لهؤلاء المساكين . أتراها فى مثل هذا الغرض الشريف محرمة ؟

قال: أما تحريمها فكالتحريم في أشنع صور الميسر؛ وأما ما يجمع بها من صدقات فغير مأجور ولا مبرور ولا مقبول عند الله. والذنب فيه على المتصدق مضاعف؛ لانه يتصدق بحرام، ويطعم المتصدق عليهم حراما وهم لا يعلمون؛ فعليه وحده الوزر فى الحالتين. وخير له أن لا يتصدق بهذه الوسيلة ان كان موسراً وان يأكل مال اليتيم ان كان معسراً

– بقى على ان أسأل سيدى عن رجلين قابلتهما فى ذلك المحل المشئوم فى أبهة وجلال لا يلعبان ولكن يحببان اللعب للناس ؛ وعن حظ صاحبه فى اباحته الشرب هدية بلا ثمن؛ وعن حكمة واضع هذه اللعبة الممقوتة فى حساب الصورة

بصفر، والعشرة وهى اكبر ما فى الورق عدداً بصفر كذلك

قال : يا بنى ! ان الرجلين من أسفل الناس وأحطهم درجات وان كان المصرى منهما فى رتبة البك؛ ووظيفتهما فى هذا المحل السمسرة فى نظير درهم او دينار سحت يأكلانه حراماً . أما صاحبه فقد أباح الشرب مجاناً ليخمر عقول الناس ويغشى على بصائرهم فيندفعوا فى اللعب حتى ينفد ما فى جيوبهم ؛ وحظه فى ذلك ان له ربع مكسب الكاسب . وأما الصورة يا بنى فرمز الى الجمال . والعشرة رمز الى الكمال ، وحسبانهما بصفر اشارة الى أن جمال الميسر وكماله هباء فى هباء

قلت : أستاذى أفادك الله . ولقد ندمت على ماقدمت ، وتبت وأبت . وأسأل الله سبحانه وتعالى ان يقبل توبتى ويوفق الى التوب والثوب ابناء امتى وملتى آمين

ثم استأذنته فى الانصراف فأذن . وما ودعته حتى سلم حب « دنيا » فأسلمته قياد الفؤاد يعبث به ما اراد

١٠ شعبان سنة ١٣١٨ و ٢ ديسمبر سنة ١٩٠٠

٨

﴿ القتل ﴾

اذا حكى الانسان وحش الفلا   في الفتك بالنفس لحب السلب
فنستعيذ الله من شره   ومن شر سوء القلب والمنقلب

استوى ملك الحب — حب « دنيا » — على عرش فؤادي وتملك قيادي وتصرف في قلبي تصرف المالك فيما ملك والصائد فيما وقع في الشرك وتحكم في جوانحي وجوارحي تحكم الامير في رعيته بل الغانم في غنيمته. فبت من جور قضاه وجمر غضاه على مهاد من قتاد أسامر السهاد وأساهر من الليل السواد وأسائل طوالعه متى أبلغ من « دنيا » المراد فأتذكر ضياع الريال وكنت أعده رأس مال المهر، وتحرك على ألم صفعة الدهر فأردد الحسرات وأصعد الزفرات أسفاً على ما فات وأسلم النفس لليأس واندب حظي فيما هو آت. وبينا أنا على هذا الحال واذا بـ« الأمل » صاحبي بجانبي. ففرحت به فرح المريض بالطبيب والمحب بلقاء الحبيب. وبعد أن تقايضنا السلام تقارضنا الكلام فقال: كيف حب « دنيا » وقلبك؟ —

قلت كاللهب في القصب. قال: الا تزال راغبا في تحصيل مهرها ؟

قلت: وكيف لا أرغب وهي مني ماعلمت: حياة نفسي ونفس حياتي ! — قال: اذن فقم بنا نسعى

قلت والى أين المسعى ؟ — قال: ألم أرك بابا يأتيك منه الربح سهوا رهوا لا تعب ولا نصب ولا طول انتظار ؟ (يريد الميسر) — قلت (وقد غشى الحب على بصيرتي فحجب عني ما بصرني به «الدهر» من مضاره وتجريبه): نعم الباب لولا اني أضعت فيه الريال وأصبحت لا أملك شيئاً لا باليمين ولا بالشمال. فالتمس لنا بابا غيره نأمن شره ونأمل خيره

فأطرق قليلا ثم رفع رأسه وقد لمعت أسرته لمعان البرق في جبين السحاب، وقال: لقد رأيت لك بابين ان طرقت احدهما او كليهما بلغت المرام في ليلتك هذه ولا كلام: اما الأول فأعرف رجلا جمع مال قارون، فان قتلته حصل لديك المهر ونفقة الحياة طول العمر؛ واما الثاني فرجل آخر حاز «الدنيا» واستأثر بجمالها. فان فتكت به استخلصتها لنفسك ونلت ما تريد. فما قولك ؟ — قلت: دمت لأخيك راشداً الى ما فيه بهجة مهجته وريحانة روحه. ثم أخرجت من جيبي

براية قلمي (لأني لا اعرف سلاحا سواها) ووضعتها في يدي وقلت له : ثم فأرنيهما . فقام واقتفيت اثره حتى دخلنا بيتا لحسن الحظ غفل البواب عن ارتاج بابه؛ وصعدنا على سلمه فانتهينا الى بهو فسيح الأرجاء حيطانه بلور الهواء ، وسقفه زبرجد السماء؛ وفيه رجل استقبل القبلة يصلي الفجر ستر الظلام عن عيني وجهه فلم اتوصفه ولم اعرفه . فهمس الأمل في اذني قائلا : « هذا احد الرجلين فاستجمع قوتك وافتك به ولا تخف؛ فانه قد بلغ من الكبر عتيا » فوثبت بيأس شديد وقلب كالحديد؛ ولكن لم اشعر الا وعبد اسود قبض على ساعدي وثناهما الى ظهري وربطهما بحبل متين . فالتفت الى الأمل فوجدته طار في طلب الفرار . فقلت في نفسي لم يبق للخلاص وسيلة الا الحيلة؛ واعجز الناس من فاته الاحتيال في مثل هذا الحال . فاستجشت جاشي واستحضرت ثابت صوتي وقلت للعبد : من انت ؟ — قال : نجمة ابن جبير يا محمود ! — قلت : خادم استاذي « الدهر » ؟ — قال : نعم .

قلت : واين هوه؟ لقد جئت لالتقط من بحر علمه لآلئ حكمه فرأيت هذا الشيخ يقوم ويقعد ، ويتمتم بما لا يفهم ، فظننته

عفريتاً فأردت قتله ..... - قال: كفاك يا محمود كفاك!!! ذاك الشيخ الذى تراه هو استاذك يصلى .. قلت: واسوأتاه (وتباكيت فلما اتم صلاته وسلم امر خمه ان يفك كتافي وقال: لا بأس عليك يابنى! .. فتقدمت اليه ولثمت راحتيه وسألته العفو فعفا على شرط ان اكشف له حقيقة امرى ومكنون سرى. فأقررت له بأسراى وسابق اصرارى. واقسمت له انى ما كنت اعرف انه الفريسة التى سعيت لافتراسها. - فقال: الم انهك يابنى عن مطاوعة اوهام «الأمل» وايهامه قبل تقويم عودك. - قلت: نعم. ولكن الحب يعمي ويصم. - فقال: أولو كان غيرى وتمكنت منه كنت لابد قاتله؟ - قلت: ولم لا، وفى قتله الغنى ونيل المنى؟ .. - فقال: رب لا تحمل عليه إصراً إنه جاهل. يابنى! ان القتل حوب كبير وذنب عظيم قل ان يغفره الغفور. ما جرأ عليه جارئ ولا جرم جارم الا وقد تجرد من عواطف الرحمة وخصائص الانسانية وتلبس بلباس الوحشية وخسر الدنيا والآخرة. القاتل يا بنى معتد على نفسه، معتد على القتيل، معتد على ابنائه وذراريه، معتد على الامة، معتد على الوطن، معتد على الدين. فأما على نفسه، فلأنه عرضها لسخط الله

حتى باءت بنكال الآخرة والأولى . واما على القتيل . فلأنه حرمه من التمتع بحقوقه في الحياة وصادره فى حريته على اطلاق معناها . واما على ابنائه ، فلأنه حال بينهم وبين عائلهم وتركهم لا كفيل لتربيتهم ولا معين على معيشتهم ولا حفيظ عليهم من جور جائر وظلم ظالم ، وربما آل امرهم الى الموت او النشوء فى مناشئ الفساد فضاعوا واى ضياع . واما على الامة ، فلأنه قطع من جثمانها عضوا نافعاً كان يؤدى فيها وظيفة من الوظائف التى يترتب على امثاله قوام حياتها وحفظ كيانها ودوام وجودها . واما على الوطن ، فلأنه حرمه من عضد قوى كان ينفعه فى دفع الاعداء ويرفع شأوه ويعلى شأنه . واما على الدين ، فلأنه انتهك حرماته واستحل محرماته وخالف الله فى اوامره ونواهيه . . . فانظر يابنى : كم ذنب ارتكب القاتل وقدر بنفسك ما يستحق من عذاب وعقاب !

قلت : او حرم الله القتل يااستاذ ؟

فضحك وقال : او يكون ما اوردت عليك بعض مآثم القتل ولا يحرمه الله ! ! قال تعالى « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق » وقال عز وجل « ولا تقتلوا انفسكم ان

الله كان بكم رحيما . ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيرا »

قلت : استاذى . ارى في قوله تعالى فى الآية الاولى : « الا بالحق » دليلا على جواز القتل فى مواطن . وفي قوله سبحانه في الآية الثانية : « ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما » اشارة الى اختلاف العقاب باختلاف الأسباب . فاشرح لى متى يجوز لى ان اقتل ، ومتى يخف عقاب القاتل ، شرح الله صدرك

قال : يا بنى لو ترك الناس فوضى ينتصف المرء لنفسه لاغتال القوى الضعيف ، والشاب الشيخ الكبير والطفل الصغير . ولكان الناس اضر على انفسهم من الوحوش الضارية والوباء الدائم . لذلك كان القصاص من ضروريات حفظ الوجود قال تعالى : « ولكم في القصاص حياة » . ولما كانت النفس لا بواء لها الا مثلها فقد قرر الله سبحانه عقاب القاتل بالقتل : « والنفس بالنفس » ولما لم يكن يصح للانسان ان يكون خصما وحكما يقتص لنفسه ، كان القصاص بالقتل من خصائص الامام الحاكم وحده . ومن هنا يتبين لك وجه من وجوه جواز القتل وانك ليس لك ان تقتل . واما وجوه اختلاف العقاب ، فان كان

القتل عمدا فجزاؤه القتل في الدنيا والعذاب في الآخرة . وان كان خطأ فجزاؤه الدية والكفارة

قلت : او ليس لأهل من يريد الحاكم قتله ان يمنعوه ؟

قال : يابني ان ممانعة الحاكم عن تنفيذ احكام الله مضيعة للأمة بتمامها ، ومحاربة لله ولرسوله . وقد قال تعالى : « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا أن يقتلوا او يصلبوا او تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف او ينفوا من الارض . ذلك لهم خزى في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم » فللحاكم اذن ان يقتلهم جميعاً

هنالك هززت رأسى « على غير قصد » وقلت هذا سر ماحرت في فهمه البارحة فسمعني « الدهر » فقال وماهوه ؟

قلت : شاهدت يوم الاربعاء الماضى مقتل مجرم قتل بأمر الامير فى ميدان المنشية ، وشاهدت مثل ذلك المشهد بعينه فى صباح البارحة بميدان باب الخلق ، ولم أر من اهل المقضى عليه من يمانع عنه . بل طلب الاول زوجته ليودعها فلم توجد ، وطلب الثاني اخاه كذلك فلم يجده ، فعجبت لقسوة قلوب أولئك الاقارب . وقد بطل الآن العجب اذ عرفت السبب

قال: اتدرى ما فعل الاول والثاني ؟

قلت : سمعت ان الاول قتل امرأة وحرقها طمعاً فى مالها . وان الثانى قتل رجلا ليستخلص امرأته لنفسه .

قال: الا ترى أنك الليلة كنت عازما جازما على اقتراف السيئتين واجترام الجريمتين طمعاً في الغايتين ؟

قلت: كان ذلك وقد حماني الله ببركتك!

قال: ألم يكن لك فيهما عبرة وزجرة ؟ – قلت لم اكن اعرف ان القتل حرام. وكنت اعتقد ان الظلام يسترنى عن اعين جميع الانام فضلا عن الحكام – قال: اخطأت في اعتقادك فان الليل واش والنهار نمام ، والبغي عادل يصرع بصاحبه، والغدر منصف يكبو براكبه. يابني! ما رأيت قاتلا بالغ في كتمان امره واخفاء سره الا كان هو كاشف ستره وفاضح خبره. انظر لمن ذكرت مصرعه البارحة كيف صرع وكيف وقع: فتك بزوج محبوبته فى جنح الليل وخال ان الجو صفا له ولها. وفى اليوم التالى بينما كان يعبر النيل معها الى الجيزة للنزهة فى رياضها الغناء، وكان قد نصب على بعض التجار فأخذ منه حلياً بقصد بيعه واهما انه سمسار فلم يعد اليه ، اتفق ان صاحب

الحلى كان يجتاز معه النيل فعرفه . فلم يطأ البر حتى دفعه الى بوليس الجيزة: وهذا أرسل بالثلاثة : التاجر والقاتل وصاحبته الى قسم الازبكية؛ لأن حادثة النصب وقعت فى دائرة اختصاصه فلما وصل الى القسم وجد القتيل هناك فى انتظاره مطالباً بدمه . فعرض عليه فأنكر معرفته بادئ الأمر ثم عرض عليه مرة أخرى فوقع مغشياً عليه . ولما أفاق شرع يسب محبوبة قلبه ومصرع حياته وانتهى أمره بالأدلال على نفسه بنفسه بأنه القاتل ... قلت: صدق الله العظيم «ان ربك لبالمرصاد»

يظن الاثيم اذا ما اختفى ... تخفى فيوجده الواجد
وينطق اعضاءه بالشها ... دة ان غاب عن جرمه الشاهد
« وفى كل شيء له آية ... تدل على انه الواحد »

١٦ شعبان سنة ١٣١٨ — ٩ ديسمبر سنة ١٩٠٠

٩

﴿ الانتحار ﴾

(وكيف تنال الدنيا)

سئمت الحياة لذل الهوى ... وبعد منال المنى والوطر
ورمت انتحارا به استريح ... فنوديت اياك ان تنتحر

ففي ذاك جبن وفيه قنوط   وما قنط المرء الا كفر
تروم فرارا به من عذاب   فتلقى عذابا ولا من مفر
وان غفرت موبقات الذنوب   فذنب انتحارك لا يغتفر

لما قمت من بين يدي سيدي واستاذي «الدهر» بعدما تلقيت عليه الدرس في تحريم القتل في تلك الليلة السوداء · ليلة حملني «الامل» الغرور الى الاقدام على قتله بغير علم مني' قمت وأنا أعض البنان ندما على الطاعة العمياء والانقياد للامل انقياد الضرير لقائده . وقصدت منزلي وأنا استغفر الله من ذنبي واحمده تعالى على ان داركني برحمته فعصمني من الفتك بمربي روحي ومقوم عودي ومهذب مداركي ورب الفضل الذي ليس لأبوي على بعض بعضه . ولما وصلت الى الدار وجدت هموم الحب — حب دنيا — في الانتظار فطاشت بي الافكار فسئمت الحياة وقلت مالي وما لهوى جنته نار ؟ . . ومالي وما لحياة كلها متاعب ونواصب ؟ . . وأخذت أفكر في التخلص منهما فلم أر أحسن لي من الانتحار . ولم أجد مانعاً منه لعلمي أني مالك حياتي حر التصرف فيها فضلا عن أن «الدهر» سكت عنه في درس القتل فلم يذكره ولو كان

حراما ما سكت . واخترت أن يكون شنقاً لأني رأيته أسهل من سواه فنهضت الى سطح المنزل وأخذت « حبل الغسيل » وعدت الى مخدعي وأحكمت رتاج بابه حتى لا يشعر بي أحد فيحول بيني وبين ما عزمت عليه . ثم عقدت طرف الحبل فى حلقة في السقف ووقفت على كرسي وأخذت بالطرف الثاني وطوقت به عنقي وهممت أن أعقده واذا بغادة كأنها الغصن في لينه والبدر فى سناه واقفة بين يدى ولا ادرى، أمن السماء هبطت أم من الارض خرجت ومدت يدها الى الحبل فقطعته فملأت العين منها فاذا هي محبوبتي « دنيا » « ولا تسل عن حسن المصادفات » فكدت اطير فرحا لرقة قلبها وحنو فؤادها ووددت لو انى نصبت لى كل يوم مشنقة وكانت شفيع حياتي!

ثم اخذت بيدى وجلست واجلستني بجانبها وانا ساكت أحاول التكلم فلا أجد لساني دهشة واشتغالا بهواها . وكأنها أدركت ذلك مني فطيبت خاطري وقالت : ماذا كنت تريد أن تفعل ؟ — قلت : كنت على عزم الانتحار ! — قالت ولمه ؟ قلت تخلصاً من جورك وهجرك ويأسا من وصلك . — قالت : وهل طلبت فحرمت حتى يئست ؟ — قلت : نعم . أخبرني

الأمل أن يهرك المال . فطابته بارشاده من طريق اليسر فلم أربح ، ومن طريق القتل فلم أنجح : وعرفني «الدهر» أنهما حرام فضاقت على المذاهب وسدت أبواب المطالب فقلت لا خير في حياة كلها نواصب . — قالت : تقول أنك تلقيت عن «الدهر» ان القتل حرام فبم تستحله في نفسك ؟ — قلت ان نفسي ملك يميني ولي الحرية في التصرف فيها . فضحكت وقالت : استغفر الله ياحبيبي (هنا خفق قلبي وارتاحت روحي) فليس لك في نفسك شيء ؛ وانما هي لله وحده خلقها وسخرها لبقاء النوع الانساني ليعبده . قال تعالى «وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون» وبقاء النوع يتوقف على صيانة نفس المرء أولا ، وكفالة بنيه ثانياً ثم أهله ثالثاً ثم أمته رابعاً ، ثم ملته خامساً ، والبعض للبعض من ذلك الكل ضمين ونصير . وعليه فانتحارك هروب من القيام بهذه الفروض . وفيه جنايات متعددة ، وخروج عن طاعة الله . وعذابه الخلود في جهنم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً . ومن تحسى سما فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم مخلداً فيها ابداً .

ومن قتل نفسه بحديدة يتوجأ بها في نار جهنم خالداً مخلداً فيها ابداً »

قلت : استغفر الله واستتيبه وآمنت بما قال رسوله عليه افضل الصلاة والسلام . ولكني ارى ان من يقتل نفسه شنقاً، او حرقا . اوغرقا اوخنقاً بكربون الفحم مثلا ليس من اهل جهنم : فان نص الحديث صريح فى من رمى بنفسه من جبل، او تناول سما، وسفك دمه بسلاح ابيض فقط

قالت : ليس غرضه عليه الصلاة والسلام من هذا التعداد تخصيص التحريم بقتل النفس بهذه الوسائل المعدودة . فكل ما ذكرت وما لم تذكر من غيرها في حكمها

قلت : وهل يعم ذلك من ابتلى بعاهات صيرته عالة على غيره بحيث لا يستطيع نفعاً ولا ضراً ؟ — قالت : كفاه الاعتراف بوحدانية الله ولو بالاشارة ؛ وحسبه الاقرار بعبوديته لخالقه ولو بصبره على ما ابتلاه ، وتحذيره الناس بلسان حاله عن التعرض لمناشئ بلواه . — قلت : أرى الكثير من الناس يعتقدون ان العيش على الفقر مثلا هوان وصغار ؛ وان الموت هنالك شرف وفخار ؛ فهم اذن مخطئون ؟ — قالت : بل آثمون فأن الانتحار من الفقر جبن عن الاقدام في معترك الحياة، وعار

الجبن أقبح عار فضلا عن انه قنوط من روح الله ولا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون . — قلت : فان كان الهوى تمكن فى الفؤاد وتملك القياد وحيل بين المريد والمراد ؟

قالت : كان يأسا كذلك ، وجبنا عن ضبط القلب وغض البصر ، ومخالفة للدين فى النظر لما حرم الله . — قلت : فان أبيح النظر والحب والسعي فى بلوغ الامل من المحبوب ، كحبي لك مثلا ؟ — قالت : هو اليأس بعينه . — قلت : وأين الرجاء منك اذا لم يكن اليأس ؟ — قالت : على العين والرأس . — قلت : اذن أهنئ النفس بالأنس ؟ .

قالت : عزيز علىّ أن أمنيك ولا أفيك ؛ فأن الوعد سهل ولكن الوفاء صعب . — قلت : كيف هذا السهل الممتنع ؟

قالت : شراب من سراب الا لمن عرف حقيقتى وقام بفريضتى فأنى له رقرقة سحاب . ولكل حرة خاطب ولكل درة كاسب . — قلت : وهل لك ان تعرفينى بحقيقتك وترشدينى الى فريضتك وتخبرينى ان كنت من رجال خطبتك ؟

قالت : نعم : انا ثمرة جنية هنية مرية ، فى شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، ترانى العيون وتشتهينى النفوس ويود من

يراني لو جناني، ولكنه لا يدنو مني الا بقدر ما تطول يده وينول باعه ويجد عزمه ويقوى في جادة طلبي سعيه. فان تطاول كنت مُنيته وان تقاصر أو أخطأ قصد السبيل كنت منيته. وكم حكيم خطبني بحكمته فتعته، وكم سفيه رامني بطرق سفهه فنعته وصرعته. وانك مني عند همتك وحكمتك وجدك في سبيل طلبتك

قلت: وهل لي في هذا السبيل من دليل، ومركوب يسهل علي وعثاء السفر، ورفيق استعين به عند الخطر؟ — قالت: رفيقك عملك، ومركوبك أملك، ودليلك دينك، ويد الله مع الجماعة.

ثم تهيأت للقيام فقلت: الله في الصب ودمعه الصب.

فقالت: اعمل تصب! ... ثم تركتني وحدي أومعي وجدي وكانت قد ضغطت على يدي بيدها عند قولها «ويد الله مع الجماعة» ففكرت في هذه الاشارة الخفيفة ساعة حتى عرفت انها تريد بها الاتحاد في العمل مع اخوتي أبناء أمتي ومالي

فجئت أجرى وأدعو الى اتحاد القلوب
والجد في السعي حتى نفوز بالمطلوب
فهل يصادف صوتى سمع السميع المجيب

٢٣ شعبان سنة ١٣١٨ -- ١٦ ديسمبر سنة ١٩٠٠

١٠

طلب الدنيا

﴿ الدين والجامعة ﴾

سألت « دنيا » متى وصالى وهل سبيل الى الرضى بى
فقالت اخطب فقلت خطب فقالت امهر تنل رضابى
فقلت ما المهر قالت « اسعى » فقلت أعيي فما ركابى
فقالت « اؤمل » فقلت من لى بخير هاد الى طلابى
فقالت الدين خير هاد الى جنابى على احتجابى
دع الدنايا ومل اليه فما شراب من السراب
فقلت للدهر هل حقيق ؟ فقال : حق بلا ارتياب
فقلت فاشرح فقال فاسمع فقلت قل واغنم ثوابى

فقال : اعلم يا بنى ان الله سبحانه وتعالى لما خلق الانسان جمله فجعله فى أحسن تقويم وكمله فوهبه قوة الادراك والتمييز ليحسن التصرف في جسمه وحياته ويستعملها فى « جلب المنفعة » و « دفع المضرة » وهما ركنا كيان العمران . ولما كان « جلب المنفعة » يدفع للاستئثار والاغتصاب وطلب ما فى أيدى الغير

فطرة في النفوس كان «دفع المضرة» يقضى برفع التكاليف؛ والوقوف لذلك الدافع (جلب المنفعة) بالمرصاد في موقف المنازعة للممانعة فطرة كذلك. وكانت نتائج هذا وذاك موانع للحياة الاجتماعية، هوادم لاركان العمران، بل مواحى مواحق لنوع الانسان. لهذا كان لا بد للناس من مسيطر يبين الحق فى المعاملات ويقضى بالوقوف عند حده، والواجب فى المعتقدات ويأمر بطابه؛ ليضمن بالاول الوصول الى جمال «الدنيا» وجلالها ويكفل بالثانى نعيم الآخرة .....

اذا تقرر هذا وذاك علمت يا بنى ان ذلك المسيطر لا يصح أن يكون انساناً عاملا برأيه وفكره، ولا ان يكون من عمل الانسان لما علمت من ان فى نفسه غريزتين متنازعتين: «جلب المنفعة» و «دفع المضرة». فان سيطر بنفسه أو عمل مسيطراً فأرضى احداهما أغضب الاخرى. وليس فى قدرته ارضاؤهما معاً؛ لانه لا يستطيع ضبطهما ولا التوفيق بينهما لوقوعه فى أسرهما. وعليه فلابد أن يكون ذلك المسيطر من الله وحده وهو «الدين». وعلى هذا فالدين كفيل الدنيا

واعلم يا بنى ان «الدنيا» تحفظ الدين، بمعنى انه اذا انتهك

حماه منتهك كانت هي حاميته . فلو أن لمصرك هذا في عصرك هذا جاه الدنيا ما تعرض المبعوثون لدعوتكم الى النصرانية ، ولا اجترأوا على ما اجترموا من تدوين الكتب ونشر الجرائد في الطعن عليه وتشويه جماله ودعوى النقص في كماله . فهما متضامنان متكافلان ...

قلت : استاذي ! أراك وعلماءنا في هذا على طرفي نقيض . اذا كان ما تقول كما تقول فما بالهم انصرفوا عنها مدبرين وقالوا : إيثار التلذذ والتنعم ليس من أخلاق المؤمنين ، وألقوا حبل الدنيا على غاربها ، وخطأوا عمل طالبها ، وامروا بالزهد فيها والاستسلام للتوكل ؟ . قال : يا بني ! هذا اصل ما حل بالاسلام من بلاء وبالمسلمين من شقاء . فانهم بهذه الاقوال اماتوا القلوب ، واضعفوا العزائم ، واطفأوا بأفواههم نور الاسلام . يا بني ! ان الله سبحانه وتعالى لم يخلق الدنيا الا ليرفع شأنها ويعلي شأوها تمجيداً له واعلاء لكلمته . فلو اقتديتم بعلمائكم وصرفتم الوجوه عنها الى زوايا المساجد فعطلت المزارع ، واغلقت المصانع ، وهجرت المتاجر خرب والله العامر ، وانمحى الوجود ، ولم يبق من يوحد المعبود . ولو كان ذلك مراد الله من خلق الدنيا ما خلقها

يا بنى انهم فهموا من التوكل والزهد غير معناهما : صرفوا التوكل الى انه ترك الطلب والادخار والاستعداد للطوارئ .
قال قائلهم :

لقد علمت وما الاسراف من خلقى ... ان الذى هو رزقى سوف يأتينى

وهذا ينافيه قوله تعالى « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » وقوله سبحانه « وخذوا حذركم » وقوله جل جلاله « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » وقوله عليه الصلاة والسلام : « اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا » . وحقيقة التوكل يا بنى انه اعتماد المرء على الله فيما أمل من غاية اتخذ لها سبباً . فهو لا ينافيه الكسب بالبدن ، والادخار ، « وجلب النافع ورفع الضار » ؛ وقد علمت أن هذين ركنا العمران . فالعمل لهما مع التوكل بحقيقة معناه من شعب الايمان . ومن يقل غير ذلك فقد كفر والعياذ بالله . . . صرفوا الزهد الى انه ترك التلذذ والتجمل ، والرضى بالدون . وحقيقته ترك الفضول التى لا تدعو اليها الحاجة المناسبة للزمان والمكان . فان وجد العالم منهم في بلد يسكن جهلاؤها القصور ، ويلبسون الثمين ، ويأكلون السمين جاراهم ؛ لم يخرج عن الزهد ولم يتعد حده . ألا تراهم يلبسون الأبريسم

وقد كان يغنيهم عنه الكتان؛ ويحملون الساعات من الفضة والذهب (وهو محرم عليهم)، وقد كان لهم عنها مغناة بساعات الحديد والنحاس؛ ويتناولون الطعام صنوفاً بالملاعق وهم جلوس على كراسي منصوبة، وقد كان يكفيهم صنف واحد يلتقمونه باصابعهم وهم قعود على حصير؛ ... ثم هم بعد ذلك زاهدون ! ...

قلت لك ان الزهد هو ترك الفضول مما لا تمس له الحاجة؛ واذا علمت أن أشد ما تمس اليه الحاجة فى هذا الزمان تقوية «الدنيا» لحفظ الدين من أعدائه علمت أن من الزهد والتوكل أن يترك العالم مهد راحته وبطالته، صومعة تعبده، ويبرز فى معترك الحياة ومزدحم الجهاد العمرانى ساعياً فى جمع «الوحدة الجامعة» المتفرقة حتى تستطيع ان تحفظ ديناً اضاعه بما فرط فى جنب كفيلته الدنيا .

يقولون « ايثار التلذذ والتنعم ليس من اخلاق المؤمنين » أتدرى ان ركونهم للسكون والسكوت والدين في نزع، والامة فى شقاء، هو عين التلذذ والتنعم بالراحة ونعومة البال ؟ ... أترى لم كان « ايثار التنعم ليس من اخلاق المؤمنين » ؟ ... ذلك لان الحياة جهاد، ولا تنعم مع جهاد : فالاكل والرقاد هما المراد . لا طلب

الازدياد من خيرات رب العباد ...

انظر يابنى كيف كان العرب فى تدابر وشقاق وتنافر وافتراق وتباغض وتباعد وتحامل وتحاقد ؛ وانظر بعد ذلك لآثار الدين فيهم وكيف ترق بهم من هذا الى الأخاء وفيم استخدمهم بعد ذلك : قال تعالى ونزعنا ما في صدورهم من غل » ، ثم ترق بهم من ذلك الى الوفاق والوئام فقال سبحانه « واذكروا اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم » ، ثم لم يقف بهم عند هذا الحد بل كملهم بما وصفهم به فى قوله : « اشداء على الكفار رحماء بينهم » ، ولم يزل يلم من شعثهم ويجمع مفترقهم حتى جمعهم فى عروة اتحاد وثيقة العرى اذ آخي بين جميعهم فقال « انما المؤمنون اخوة » . وأيد النبي عليه الصلاة والسلام معنى هذه الاخوة فقال « انما انا لكم بمنزلة الوالد اعلمكم » . بهذا جمع منهم قوة ايدة ووحدة جامعة حزمها برابطة الاخاء . فانظر الآن فيم سخر تلك القوة :

قال تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً » ، فكانوا يداً واحدة ؛ وقال سبحانه «ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم» ، فتعاقدوا الخناصر على التناصر ؛ — تأمل تره يربيهم لأمر جلل —

وقال عز وجل « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » ، فكان بعضهم لبعض عضدا عضيدا . وعرفوا الحق فأحقوه ودروا الباطل فأبطلوه ، وتبينوا كل وجه يحمد فيه التعاون بالقوة او المال أو بهما معاً فاستقبلوه ؛ وقال جل جلاله « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الامر منكم » . فكانوا لوليهم سهمه ان رمى وسيفه ان سطا وجنوده ان هجم وحصنه ان امتنع وعونه ان استعان (تأمل) فما انفكوا والفتح قبلتهم والظفر مؤذنهم والنصر إمامهم حتى امتلكوا نصف الكرة في ثمانمائة عام . . .

أهذا التدرج ، وهذا الترقي ، وهذا التآخي ، وهذا الجهاد ؟ أليس لعمران الدنيا بعدل الدين ؟

قلت : لعله لنشر الدين فقط — قال : لو كان ذلك ما خير المخالفون له بين اتباعه ، والجزية ، والحرب . ولو كان ذلك ما امرنا ان نحفظ ذمة الذمي ، وعهد المعاهد ، وتأمين المستأمن حتى يبلغ مأمنه . على انه لو كان ذلك لكفى لما علمت من ان المقصود من الدين تبيين المعاملات وفيها سلامة الدنيا والمعتقدات وفيها نعيم الاخرى . — قلت : ما زال في النفس

شيء من الدنيا، فقد سمعت ذمها في القرآن · قال : يا بنى تلك التى ذمها الله هى التى تطلب لمثل اغتيال الحقوق ، ودوس الضعيف، وانتهاب البلاد بغير حق، واستعباد العباد بلامسوغ، ويباع فى طلبها الدين. اما التى وصفتها لك فهي عند ما وصفت وفوق كل ذى علم عليم

ثم لاح لنا موكب يجتاز الشارع فسألته عن أمره. فقال هو موكب يدور في كل عام احتفالا بشهر الصيام أحد أركان الاسلام · قلت هل لك ان تدير اليه دفة الكلام ؟

قال : حسبك الآن درس اليوم وفي اجتماعنا الآتى أعلمك الصوم

٢ رمضان ١٣١٨ - ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٠٠

﴿ الداء والدواء ﴾

١١

ياشاكيا جور الزمن   ودفين أدواء المحن
طهر فؤادك واحتفظ   بفروض دينك والسنن
هـذا دواء نافـع   فيما تبـدى أو بطن
تالله ما داوى الورى   داء به الا سـكن

علمنى « الدهر » فى الدرس الماضى حكمة الدين وأبان لى انه كافل سلامة الدنيا وضامن نعيم الآخرة وذكر لى انه والدنيا (أعنى الجاه والسلطان) متضامنان فى حفظ كيان الامة وضرب لى مثلا على نهوضه بالأمم . نهضة تنال بها جلال الدنيا، الامة العربية اذجاءها الاسلام وهي ماعلمت فألف بين قلوبها وجمع مفترق كلمتها ومختلف أهوائها في « وحدة » ملكت بها نحو نصف الكرة في نحو ثمانين سنة . فلما انتهى الدرس وعدت الى وحدتى فى حجرتى، تمثلت لى الارض من مشرقها لمغربها ومن القطب للقطب مصورة فى مرآة الخيال ، مقسمة بين أمم العالم أقساما معلومة محدودة يمتاز بعضها عن بعض بألوان مختلفة؛ فصرفت اليها طرف الفكر فاذا مرقوم على كل قسم اسم الدولة المسيطرة عليه لاستيطان أو استعمار أو احتلال . ولم أر للعرب ذكرا؛ بل لم أر للاسلام علما الا على بعض قطع لو اعتبرت مساحاتها مجتمعة لكانت كالشعرة البيضاء في اهاب الثور الاسود . فهممت لأسألن الاستاذ عن السبب متى لقيته . ولم يأت الميعاد المضروب بينى وبينه حتى كنت بين يديه وألقيت السؤال عليه فقال : اعلم يابني ان للممالك أدوارا تتناوبها وتقدر بالحرص على

آمادها أعمارها . وأول تلك الادوار دور النشأة، وهو الامد الذى تستغرقه الامة فى جمع كلمتها وتوحيد وجهتها وحزم رابطتها؛ وفيه تكون الامة كالطفل تشتد قوته كلما اشتدت أعصابه، ويحتد نشاطه كلما عرف حاجته للحركة، وتسمو رغائبه كلما قويت مداركه

ثم دور النمو، وهو زمان تصرف الامة بما اكتسبت في دور النشأة من قوة فى فتح واستعمار، وتأييد ملكها بالاستزادة من حوافظه المادية والادبية؛ وفيه تكون الدولة كالشاب فى زهرة عمره وزهوة شبابه يزاحم فى معترك الحياة بعمل لا يعرف الملل ويناصب الايام بيأس لا يعرف اليأس فأما ردى وأما مراد

يأتي بعد ذلك دور الرفاهة، وهو زمن ميل الدولة الى الراحة والتفرغ للتنعم بما كسبت فى الدور السالف؛ وفيه تتبدل حركتها بالسكون ونموها بالوقوف ويكون مثلها فيه مثل الكهل جمع مالاجما فى صباه وشبابه فتلاهي به عن الاستزادة فيه وتلهي بمشتهياته عن انمائه

يعقب هذا دور الانحلال، وهو زمن ارتخاء أعصاب الدولة الناشئ من الانغماس فى نعيم الرخاء؛ وفيه تختلف أهواء الافراد

فتتفرق بعد الاجتماع، وتتغاير المقاصد بعد التشاكل والتشاكه، وتتنافر القلوب بعد التآلف فتتعدد الوحدات بعد التوحيد؛ وفي هذا الدور تكون الدولة كالشيخ بلغ من الكبر عتياً فوهنت قواه الجثمانية والعقلية فلم يعد ينتفع به لجلب خير أو دفع شر، ورصدته عين المنون تترقب نفاد انفاسه المعدودة لتغتاله

ودولة العرب يا بني تنقلت بها هذه الادوار حتى دارت عليها الدوائر — قلت: اذن فالحكم في اعمار الممالك للدور لا للدين يا استاذ؟ — قال: يا بنى شبهت لك الدولة فى ادوارها بالمرء في اطواره؛ فهل رأيت رجلا كد وكدح فى صباه وفى شبابه فنال ملكا عظيما ومالا جسيما وولدا أنشأه على الفضيلة والكمال كما نشأ، ورباه على النشاط والعمل كما تربى. وقوم اخلاقه وآدابه بمقومات الدين كما تقوم، وعرفه واجبه ليقضيه وحقه ليتقاضاه كما عرف فقضي وتقاضى، ثم لما مال به الكبر الى الراحة سلم ادارة مصالحه وشؤن املاكه الى ولده هذا فاضاعها؟ . . .

قلت: لا أظن ذلك يكون. بل الاقرب ان يزيد فيها عن أبيه لان هذا جمعها ولا رأس مال لديه وذاك جاءها ورأس

ماله وافر — قال : كذلك الدولة . فلو هي انشأت خلفاء عرشها على ما نشأت عليه، وحاطتهم بما حيطت به، وزودتهم بما زاد من محاسن عصرها مما لا يخالف دينها ولا يميل بالقلوب الى الهوى ولا بالاخلاق الى الفساد، وأوحت لهم أن يعدوا لاعدائهم ما أوحى الله الى الرسول الكريم في قوله: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ورباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم» لم تبد قط ولن تبيد أبداً اذا هي لم تزد شأنا وشأوا — قلت : آمنت . ولكني لا يزال في نفسي شيء تخامر به ضميري مظاهر الامم التي لم تدن بالاسلام؛ فاني أراها في وحدة لا مفرق لها. فبأي شيء أحكمت رابطتها ؟ .. ابدينها، ام بما قننت من قوانين موضوعة من عندياتها ؟

قال: يابني هـذا سؤال تلجئني الاجابة عنه الى الخوض معك في كل دين لأ يقافك على كنهه . ونسبة ما بينه وبين سواه وما في الواحد من المغايرة للآخر . وهو بحث عميق يحتاج الى تحر طويل وأمد مديد . وربما كان فيه مغضبة لبعض القوم . فحسبك مني الآن أن اقول لك ان الشرائع أنزلها الله سبحانه وتعالى مناسبة لاحوال الامم ومقتضيات الزمان والمكان، وان بعضها

جاء متمماً للبعض الآخر، وان دينك واف بحاجيات أهله وكمالياتهم مناسب لمقتضيات أحوالهم اياً كانوا ومتى كانوا. فأنت به في غنى عن القوانين الوضعية. ولو تصفحت قوانين الامم اجمع وشرائعها لا تجد فضيلة فيها الا وهي في الكتاب الشريف والسنة المنيفة أكمل

قلت: وهل في الامكان ان نجمع ما تبدد من وحدتنا، ونسترجع ماضاع من مجدنا، ونسعد كما سعد آباؤنا ونسود كما سادوا؟ — قال: يابني كل من سار على الدرب وصل، وماخاب ذو أمل قرنه بعمل. يابنى ان الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. وقد امتلأت نفوس أمتك بكل مقعد عن النهوض والرقي لمخالفته الدين: ألا ترى افرادها تآكلوا، تواكلوا، تحاسدوا تحاقدوا، استناموا استماتوا. تبدلوا الخبيث بالطيب، والحلال بالحرام، والمباح بالمحظور، والعفاف بالفجور: فشت فيهم السعاية والوشاية، وقربتهم المآثر من المقابر. تركوا الصوالح، طرحوا المصالح، كسلوا حتى عن تربية أبنائهم فسلموهم لملأ يأتمرون ليقتلوا أهل الوحدة فيبعثون في نفوسهم ما يفرقون به بين الولد وأبيه، والاخ وأخيه، ويدسون لهم سم الالحاد في

رسم التعليم . . . ومن المحال ان تحول احوالكم الى خير منها مالم تطهروا ظاهركم وباطنكم من ذلك كله بطهور الدين. فان فعلتم – وليس عليكم بعسير – فانا بنجاتكم ورقيكم ضمين: بل استغفر الله فقد ضمنه رب العالمين.

قلت : او تعلم امتي بذلك كله ؟ _ قال: علموا به؛ ولهم قوة على محو رسوم هذه الضلالات ، واقامة معالم الهداية ، وجمع القلوب ولو بتأسيس النشء الصغار وانقاذهم من مخالب الأسد الذي ينتاش قلوبهم وافئدتهم بمخالب ناعمة الملمس لينة المغمز مسمومة الاطراف _ قلت : لعلهم جهلوا بعد ما علموا : فلهم العذر . _ قال: من جهل بعدان علمه الدهر ، وذكرته الحوادث ونبهته الكوارث فلا عذر له . ومع ذلك فقم فذكر لعل تنفع الذكرى _ قلت : وعدتني ان تذكر لي شيئاً عن الصيام فهل لك ان تفي قبل القيام ؟

قال: كنت اود ان لا أخلف لك وعدا لولا ضاق الوقت بما جرنا اليه الحديث فأرجئه لفرصة أخرى

قلت أنا في حاجة اليه الآن قبل فوات رمضان

قال : أمسك عن المأكل ، والمشرب ، وملامسة النساء

من قبيل الفجر الى مغرب الشمس . وكف السمع، والبصر، واللسان، واليد، والرجل، وسائر الجوارح عن الآثام فهذا الصيام . وسأزيدك علما به وبآدابه في درس آخر . فقم الآن فذكر بما علمتك . — فقمت وجئت وذكرت فهل من مدكر

٨ رمضان سنة ١٣١٨ — ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٠٠

﴿ آداب الصيام ﴾

١٢

يا نادبا ما تـولى　　دنياك قامت بدينك

ومـذ توليت عنـه　　ولت بنقض يمينك

فارجع اليـه تجدها　　عادت لملك يمينك

ما اطول هم النفوس الراغبة في تقويم مائل يعنيها، واصلاح فاسد يعز عليها، واسترجاع ذاهب تفنيها غيبته وتبقيها اوبته، ونيل امل يميتها تركه ويحييها دركه ! .. تبيت من طوله تساهر النجوم وتسامر الوجوم، وتصبح تعانى العناء وتنازع الفناء شوقا لما هامت به وسعيا وراء ما همت بطلبه: فلا تهنى في ليلها بلين المهاد ولا تمرى فى نهارها لجهد الجهاد . وما اضيعها بين

هذا وذاك ان بعد المراد وتمادى بينها وبين القدر العناد

ارسل البصر في ماضي امة انا منها ولد لوالد ، وشقيق لشقيق، ورفيق لرفيق فيرجع وهو بهيج مسرور ؛ وارود به حالها فيرتد خاسئاً وهو حسير ؛ واقيس على هاتين المقدمتين مستقبل امرها فيضيع في ظلمات اشد من ظلمات القبور على ملحد مات وهو كفور : فأصف داءها لطبيب الادواء، واستوصفه شافي الدواء، وآتيها بهسهل المساغ مأمون العاقبة فيه العافية فتعافه وتسترسل فيما اخافه عليها وتخافه ؛ فيميل بي ذلك الى اليأس فأكاد اقعد عن مواصفة الطبيب . وينزع حبها الى الرجاء فأهم بزيارته لمشاورته في العاجل القريب . وما أولع المحب بسلامة الحبيب !

قصدت نطاسي الوجود : استاذي «الدهر» امس قبيل الظهر استوصفه ماتشفى به العلة وتروى به الغلة ويحسن به الحال ويسعد المآل وطرقت بابه فقال : ادخل بسلام ! فدخلت وقلت : سلاما . فقال : سلام . ثم اذن لي بالجلوس ؛ فجلست فقال : ما شأنك اليوم ؟ — قلت : احد الخيرين .

قال : كأنك تشير الى قوله عليه الصلاة والسلام : «خير

ما طلعت عليه الشمس عالم أو متعلم » ؟ — قلت : نعم

قال : وأيهما أردت ؟ — قلت : ثانى الاربعة .

قال : وكأنك تعنى قوله صلى الله عليه وسلم : « كن عالما أو متعلما أو مستمعاً ولا تكن الرابعة فتهلك » ؟

قلت : نعم . وانى ليحزننى أن تتناسى نسبتى اليك ، وتتجاهل سبب قدومي عليك ، فتسألنى مثل هذا السؤال ، وأنت اعلم بالحال . وأرجو أن لا يكون ذلك منك علامة الملال

قال : ما أحضر جوابك ، وأشد عتابك ، وأسرع عقابك ! يا بنى ان من الناس من اذا تعلم تعالى على المعلم ، وانكر عليه ما أسدى اليه ؛ وقد حسبتك اغتررت بما اغترفت من بحرى فأردت اختبارك حتى اذا استبنت اغترارك جعلت اليوم درسك فيما يصلح نفسك . وتلك سنة من سنن المعلم الراغب في تقويم المتعلم — قلت : لقد كان ثانى درس تلقيته عنك في « الاعتراف بالجميل » وما كنت عنه لاميل ولا عن شكرك لأفتر فضلا عن انى لم أبلغ من العلم ما تخشى به ان اغتر ؛ واستعيذ بالله ان اغتر — قال : بورك فيك ولا شمتت فيك اعاديك . هات الآن ما أدرت علمه وخذ حكمه

قلت : هل تسعد امتي   قبل مشيب لمتي ؟

قال : علم غيبي . ولا يعلم الغيب الا الله . ولكن من نظر في المقدمات لا يعسر عليه ان يعرف النتائج . وقد قلت لك في الدرس الماضي ان سعود امتك موقوف علي تغيير ما في نفوسها لقوله تبارك وتعالى : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . ولما علمت من انها نهضت بالدين وانحطت بتركه . فهي لا تقوم لها قائمة الا بالرجوع اليه . واني مطلعك اليوم على حالها في دينها لتنظر ان كانت اخذت في تغيير ما في نفوسها ام لا تزال متمادية في غيها . وان كانت شرعت في التغيير فبأى درجة حتى نقدر ما تستغرق من الزمن لتبلغ الصلاح ، ونحكم به على حين الاصلاح . ثم نحدد بعد ذلك يوم اشتهاب لمتك بالقياس على متوسط احيان مشيب الناس . ونقارن بين الحينين : حين الاصلاح ، وحين المشيب . ونرى أيهما بعيد وايهما قريب .

ثم التفت الى خادم له ابيض الوجه حسن الصورة اسمه بلجة ابن سمير (اسم من اسماء النهار) وامره ان يطوف بي على واحد من كل طبقة من جميع طبقات الامة ، شرطاً ان يكون

ممن يأمنهم على سره وجهره . وان يحضر بي كل صلاة تدركنا في اشهر مسجد في المدينة . وان يزور بي بعض انديتها العمومية . واوصاني ان اقيد في ذاكرتي كلما ارى حتى اذا عدت اخبره بما جرى

فأخذ باجة بيميني وسار وسرت معه حتى وقف بي على قصر رفيع البنيان، رصين الاركان، واسع الساحة . وفيه بستان على اشجاره من كل فاكهة زوجان . فاستأذنا ودخلنا ، واذا بأيوان مذهب السقف، منقوش الحيطان بابهج الالوان، مفروش الارض بالبسط الغالية الاثمان . وفيه اراثك من الحرير وكراسي من الخيزران و . . . الخ . وفي صدره رجل جميل الشيبة، جليل الهيبة، كأنه انوشروان . وبجانبه صديق له يقاربه سناً ويناسبه منظرا ومظهراً كأنهما صنوان او اخوان . ولا تسل عن الخدم والحشم والندمان . . . وما استقر بنا الجلوس حتى طاف طائف بالسجاير وآخر بالكؤوس وكأن كل واحد منهما عروس . فاستعذت بالله في سري وجعلت الصيام في اباء تلك الكرامة عذري . فقطب رب القصر حاجبه وكشر، وعبس صاحبه وبسر ، وليم باجة على مصاحبتي فاعتذر بما

اعتذر، وسئل عني فقال : فلاح حسبته لظاهر هيئته تمدن، فاذا هو جلف على عهده . فقال احدهما : لن يفلح فلاح من مهده الى لحده . قم فاربطه مع بقرة فهو بذلك أحرى واياك ان تزورنا مع مثله مرة أخرى !

قمنا وما ندمنا . وسألته في الطريق عنهما فقال : احدهما امير والآخر وزير خطير ! ! قلت : ان كانت بقية الامة على هذا النمط فيا سوء المصير .

ثم ادركتنا صلاة الظهر وكنا على مقربة من المسجد الزينبي فملنا اليه . ولما قامت الصلاة لم ار خلف الامام الا بعض العوام وجلهم من عجزة السيدة ، حتى القوى من خدم المسجد والضريح قاعد مستريح كأن لم يكن عليه فرض وجب

ولما قضيناها خرجنا وفي النفس حسرات . ثم سرنا حتى وقفنا على منزل أعرف صاحبه وأعتقد في حسن اسلامه وصحة صيامه وقيامه . فسألنا البواب عنه فقال انه على المائدة في الحرم . وان شئتما انتظاره فتفضلا . فدخلنا في مخدع هناك . وبعد ساعة نزل يتلمظ وفي يمناه خلة رماها ، وفي يسراه سبحة . فلما رآنا سلم تسليم الصديق الحميم ثم قال : « رمضان كريم ! » فتبسمت وقلت :

واين كرمه وقد تغديت وحدك ونحن عندك. فافتر باسما وقال: ومن انبأك هذا ؟ ـ قلت تلمظ لسانك وتخليل أسنانك

قال: كل الناس على هذا الحال: يأكلون في المخادع ويصومون في الشوارع. ـ قلت: ولم هذه السبحة ؟ ـ قال اداة وهم وايهام، وعلامة التظاهر بالصيام. فهل لك الآن في قهوة اومدام؟ . . . قلت: وعليك السلام. ثم خرجنا ودرجنا حيث درجنا. حتى وصلنا الى ماخور جمع من الاوباش من طاش، فعشا على اشعة الاقداح كالفراش على المصباح. وهم على هذا الضلال: نداماهم الكواعب والاطفال، ومنادمتهم الحنين الى شوال، والاسف على شعبان، والشتم في رمضان. ولا أدري ما ذنبه وليس له عليهم سلطان

فلما شهدت هذا المشهد المثير للاحزان المسعر للاشجان قلت لبلجة: عد بي الى الاستاذ، وحسبي ما كان. فأبى. وكان المؤذن يحيعل الى صلاة العصر. فملنا الى مسجد هناك، فلم نر الصلاة فيه اجمع من سابقه. ثم رجعنا الى الزيارة فلم احمد منزلا نزلته ولا ناديا حضرته ولا مجمعاً دخلته لما يدور فيها من غيبة ونميمة وتحاسد ووشاية الخ . . . وما زلنا على هذا الحال حتى

غربت الشمس فحضر فحمة بن جمير وقال لابن سميران «الدهر» بعثه ليتولى ارشادى بدله. فأسلمنى اليه وذهب واخذنى فحمة ومالى بي جانباً وقال: اقعد هنا وانظر ماذا ترى بعد الافطار. فقعدت. فلم تمض ساعة حتى كثر الدب والدرج فترقبت وجهة الناس فلم ار الا ذاهباً الى قهوة او بيرة او معهد خمور او منزل فجور او مرقص... ولم اجد من وجهته مسجد يتقرب فيه الى ربه بركعة، أو بيت صديق او دار ذى رحم يتودد اليه بزيارته. فزدت كمداً على كمد ونكداً على نكد، ووددت لو أنى من غير هـذا البلد. وبينا انا كذلك واذا بفقيه يدلج في الطريق وهو يقول: «من رزقني من شوال الى شعبان يرزقنى في رمضان» فقلت لفحمة ان لهذا الشيخ لشأناً فأتنا به نستطلع أمره لعل فيه ما يذهب عنا بعض الاحزان. فناداه فأتى، فسألناه عن حاله فامتنع فأقسمنا عليه فقال: «ان من عادتي ان اسهر في رمضان لتلاوة القرآن فأستفيد ما يعيننى على مصرفه وكساء العيال على العيد. وقد دعاني في هذه السنة فلان... القاطن بشبرا لأن اسهر عنده مع فقيه آخر فحسبته مسلما فلبيت طلبه ولكن لم يمض من الشهر الا القليل حتى طلب مني انا ورفيق ان نادمه

على شرابه نهاراً جهاراً . فاما رفيق فقبل، واما انا فاعتصمت بتقوى الله. فطردني فخرجت من عنده وانا اقول ما سمعت . ولا ازال أردده كلما ذكرت فوات « الموسم » وحرماني من الكسب فيه. فقلت له: هل ندمت على مافعلت ؟ ـ قال وهل يندم من رزقه على الله ؟ . . . هنالك نازعني عاملان : عامل فرح بهذا الشيخ التقي النقي على اعتصامه بحبل الله وايثاره التقوى مع الحرمان على المعصية مع الاكتساب، وعامل ترح من فعل ذلك الفاسق المارق. اذ لم يكتف بضلاله حتى سعى في تضليل غيره. وهنالك رجوت لحمة بن جبير ان يعود بي الى «الدهر» قبل أن ارى ماهو ادهى وامر فأموت حسرة. فقام ولم يك الا القليل حتى وصلنا الى الاستاذ. فحدثته بما رأيت وسمعت فقال:

رأيت يا بني ان أمتك لا تزال متمادية في غيها بطيئة في تغيير ما في نفوسها بطء السلحفاة في سيرها او اشد تثاقلا . ثم ان الانسان يشيب غالبا في سن الاربعين ، وقد مضى عليك من هذا العمر ما مضى. فهل تراها مع هذا البطء تنقلب من فسادها الى صلاحها فيما بقي لك من هذا الاجل القريب؟ قلت ليس ذلك على الله بعزيز. ـ قال آمنت بالله.

قلت : علمني الآن ما ارشدها به وان شاء الله لا يأتي التاسع والعشرون من هذا الشهر الا وسائر الناس صيام ! قال: طال سهرك ، والتفصيل يطول ، والاجمال لا يشفي الغليل ، فحسبك هذا الآن

١٥ رمضان سنة ١٣١٨ — ٦ يناير سنة ١٩٠١



﴿ الصيام ﴾

١٣

لم أر ما أراني « بلجة بن سمير » و « فخمة بن جمير » يوم السبت الماضي وليلة الاحد تاليه من فنون فتون معظم الناس وافطارهم شهر الصيام في السر اتفاقا وتظاهرهم بالامساك فيه نفاقا . ثم لم أسمع بعد ذلك ما أقرأني « الدهر » : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » الا استخففت ما خف بنا من استخفاف ، واستصغرت ما أصابنا من صغار ، واستهونت ما ألم بنا من هوان ، وأيقنت ان الفساد لصقت بالخاص والعام أوضاره وتراكمت فى القلوب أقذاؤه وأقذاره ، وان لا سبيل لتغيير ما في النفوس الا بتطهيرها بمثل ما طهرت به الارض في عهد نوح . فمكثت ليلتى وما بعدها أتوقع للعالم سخطاً يمحق أثره

ويمحو ذكره ويطوى خبره وتتبدل به الارض غير الارض والناس غير الناس . وكلما مضت ليلة او انفرط يوم زاد لهفى واشتد خوفى من اقتراب ساعة فتك الهلك بالخلق انتقاما . فلما انقضي الاسبوع والحي حي والفسوق فسوق ولم يتم ما توقعت اختلجتني الخوالج وأخذتني الهواجس مآخذ شتى ترجع كلها الى استنباط حكمة الله فى ابقائه هذا العالم على هذا الحال ودخلتنى الشكوك – وأستغفر الله منها – فى ان الصيام أكل في البيوت بين الأهل والأبناء وأخلص الأخلاء، وامساك فى الشوارع والمجامع وبين من لا يحفظ السر من المعارف والاوداء . أو انه سنة مستحبة لمن أخذ بها مباحة لمن تركها وللآخذ جزاء ما أخذ وليس على التارك لها عتاب ولاعقاب . أو انه بدعة ابتدعها البخلاء بادئ الامر بخلا على انفسهم وضنا على بطونهم ببعض ما جمعوا من عرض الحياة ليفر مالهم واتبعهم فى ذلك من اتبع وخالفهم من خالف . أو انه من وضع السلف أيام الجاهلية والوحشية الاولى ونسخته المدنية والحضارة الحاضرة .ولم أزل أفكر واستنبط ولا ادرى اصبت أم أخطأت وبعدت من الحقيقة أم قربت حتى اقترب

موعد لقاء « الدهر » وازف حينه المضروب بيني وبينه فقمت اليه وبعد افتتاح الكلام بالتحية والسلام سألته عن ماهية الصيام التي تضاربت فيها مني الافهام . فقال :

يا بني ان الله سبحانه وتعالى لما خلق الخلق لعبادته بين لهم طرقها ليتفقوا فيها ويتحدوا قلباً وقالباً عليها وفرض عليهم فروضاً وهو في غنى عنها فلا ينفعه اداؤها ولا يضره المطل فيها وانما شرعها وحتم التعبد بها ليظهر الصالح من الطالح ويمتاز الطائع من العاصي وتتكشف للخلق حكمة : « هذه للجنة ولا أبالي وهذه للنار ولا ابالي » ولا تخرج انواع العبادات عن امرين : حسن المعاملة مع الحق وحسن المعاشرة مع الخلق . والصيام يا بني جمع بين الفضيلتين . لذلك فرضه الله وجعله ركنا من أركان الاسلام التي بني عليها

قلت : أرشدك الله اني لا ارى في الصيام للحق ولا للخلق شيئاً ، ولا اخاله الا جوعا وظمأ يساوران نفس الصائم وحده ويسومانه اشد العذاب على غير ذنب . فاكشف عني هذه الغمة بتفصيل ما أجملت حتى لا يبقى في النفس شيء واحتسب ذلك من زكاة صومك .

قال : يا بنى ان الصوم معناه فى اللغة مطلق الأمساك .
قال تعالى حكاية عن مريم عليها السلام : « انى نذرت للرحمن صوما » اى صمتاً وامساكا عن الكلام، وتقول صامت الريح تريد انها امسكت عن الهبوب ، وصامت الفرس تعنى انها امسكت عن العدو والركض . وفى الشرع معناه الأمساك عن الأكل والمشرب والشهوات وكف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام . روى عن جابر قال : قال صلى الله عليه وسلم « خمس يفطرن الصائم: الكذب والغيبة والنميمة واليمين الكاذبة والنظرة بشهوة» . وقس على ذلك الفحش والجفاء والخصومة والمراء مما يثير الاحقاد ويمكن الاضغان ويفرق القلوب المؤتلفة؛ قال صلى الله عليه وسلم : « انما الصوم جنة فاذا كان احدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل وان امرؤ شاتمه او قاتله فليقل انى صائم انى صائم »

وفى ايجاب الصيام بترك المأكل والمشرب حث على رحمة الفقراء واطعام المساكين وسد جوع اليتامى وابناء السبيل لما يعانيه الصائم من ألم المجاعة ؛ قيل ليوسف الصديق عليه السلام: اتجوع وانت على خزائن الارض ؟ .. فقال: اخاف ان

اشبع فأنسى الجائع. ولهذا نهي عن الاستكثار عند الافطار من الطعام الحلال: «مامن وعاء ابغض الى الله عز وجل من بطن ملئ من حلال» لانه لو فعل لا يدرك للجوع ألما . وفى الرحمة بالفقراء يا بني من حسن المعاشرة منتهى الاحسان

ثم ان فى ايجاب الصيام بترك المآثم بسائر الجوارح كالغيبة وسماعها والسعي بالسعايات الخ .. كف عن التعادى والتباغض والتحاقد وتفريق الكلمة والاعتداء على الحقوق وغير ذلك مما يخلص القلوب ويوثق عرى ائتلافها ويحكم روابط اتحادها . وفى هذا من حسن المعاشرة مالا مطلب بعده لطالب .

زد على ذلك يابنى ان التهانى بشهر الصوم مشروعة وهى جلاء القلوب من رين الجفاء . فضلا عما يدور بين المتزاورين لها من حديث ومذاكرة فيما يصلح شؤنهم المعاشية واحوالهم الادارية ويكاشفهم بالماجريات السياسية فيحترزون من شرها ويتهيأون لاستقبال خيرها . وفى ذلك من نفع الخلق مالا يقوم بقيمة ثم فى ايجاب ذلك كله طاعة الله والقيام بما فرض. ففى الصوم اذاً يا بني فضيلتا حسن المعاملة مع الحق، ولطف المعاشرة

مع الخلق؛ وهما اس العبادات . — قلت : ما الحكم في من أنكر فرضية الصوم ؟ — قال : كافر ! — قلت : ومن أكل أو شرب في شهر رمضان؟ — قال : ان كان متعمدا لغير مسوغ يؤمر بقتله ؛ لان ذلك منه دليل استحلاله

قلت : وهل هناك مسوغ للأفطار ؟ — قال : يسوغ الأفطار للمسافر والمريض والحائض والنفساء، وعليهم القضاء يوما بيوم ؛ والحامل والمرضع اذا خافتا على ولديهما، وعليهما القضاء فقط عند أبي حنيفه والقضاء والكفارة عند الشافعي ؛ والشيخ الكبير والعجوز الكبيرة اذا لم يستطيعا الصيام، وعليهما الكفارة « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »

قلت : ما أوسع حلم الله : نقطع الصلة بيننا وبينه بمخالفته وعصيانه ولا يقطع عنا صلة بره واحسانه ! وما أظلم أمة ترى صالحها في اتباع دينها ويغضى علماؤها وحكامها عن حراسته واقامة حدوده ويأتيها من جراء ذلك العذاب ولا تعمل لازالته بازالة الاسباب . اللهم اهدها الصواب واكشف عن بصرها الحجاب ووفقنا لما فيه الخير

٢٢ رمضان سنة ١٣١٨ — ١٣ يناير سنة ١٩٠١

١٤

﴿ آمالى ﴾

﴿ في القرن العشرين ﴾

لله ما اهنى وامرى الغرام | لو دان للمغرم وصل ودام
هام فؤادى بـ « أمانى » فما | جفت ولا ضنت برفع اللثام
وانعمت بالوصل لى منة | والوصل منها منتهى مايرام
فرحت أجنى الورد من خدها | لا حارساً أخشى ولا ذا ذمام
وأهصر النهد على مأمن | من صارم اللحظ ورمح القوام
وأعصر القـد ولا محرماً | اخاف أو فى عصره من حرام
وأرتوى، من ثغرها باللمى | فيخجل الشهد ويخزى المدام
مابت من شوق «كشوق» بها | « مبلبل البال شريد المنام »
ولم أقل ما قاله ليـلة | « يا للهوى مما يثير الظلام »
ان اشتكى الهجر وطول النوى | أشكر أنا القرب ونيل المرام
وان بكى وجدا فبل الثرى | «وناح واستبكى جفون الغمام»
أستضحك البرق وأضحك وكم | أطرب وأستطرب «فؤاد الحمام»
لانى آخيتها فى الصـبا | وهو تراخى والتراخى خصام

وانى أسلمتها مهجتى وهو أباها والأباء انفصام
وانى لم آل سعياً لها وهو ونى وفى التوانى الحمام
فاستحكمت ما بيننا وحدة وهو نأى عنها فعز الوئام
فأخلصتنى ودها دونه وأسلمتني قلبها والزمام
فوصلها مني قريب وإن يكن بكيوان لعلياها مقام
ووصلها منه بعيد وان دنت فلا ترضى ولا فى المنام
«لاضرب المقدور احبابنا ولا أعادينا بهذا الحسام»

أصبحت اليوم على عزم لقاء «الدهر» للاقتباس من علمه والالتقاط من غرر حكمه كعادتى الاسبوعية. ولى اعتياد ان لا ابرح المنزل ولا أعود اليه فى حين من الاحيان حتى اقبل يمين والدتى «مصر» تيمناً بها واستدراراً لرحمة رضاها وبركة دعائها وبرّاً بها سيما وقد مضى عليها نحو تسعة عشر عاماً وهى طريحة الفراش تقاسى لوعة المرض ومرارة العلاج.
فيممت حجرتها فوجدتها مطروحة على سريرها والطبيب لديها، وقد شبح يديها، وقيد رجليها، ووضع أحدى قدميه على صدرها والثانية على مرسل شعرها، وبسط يسراه على وجهها فغطى على عينيها، ومد يمناه بقدح فيه دواء يريد ان يجرعه لها وهى تمجه

وترده . فلما احست بى قالت : « اعجزت يا محمود انت واخوتك وبنو عمومتك وخؤولتك عن كف يد هـذا المتطبب المحتال عنى ؟ . . . اني اراه قاتلى اليوم بهذا السم الذى يسميه دواء . فهلا داركتموني وكفيتموني شره ؟ » . — قلت : يا والدتي ! قيل فى الامثال : « الشرط أملك عليك ام لك » . وقد اشترط علينا هذا الطبيب واشهد علينا المـلأ كله يوم جاء لمداواتك ان لا نعارضه ولا نمانعه والا تعاصت علي الشفاء علتك . فلو هممنا بنقض شرطه خفنا اشتداد الداء وعابنا الانام وحكموه فى رقابنا فاصبري حتى يأتي الله امراً كان مفعولا . — قالت : صبرت ، وعظم الله اجري فيكم ، ويا ضيعة برى بكم . والله قل ان أفلحتم مادمت غير راضية عنكم . فساورتنى الغموم وتزاحمت علي القلب الهموم وفاضت بالدموع العيون فقعدت مكانى وشغلتني عن لقاء « الدهر » احزانى

وبينا أنا فى وحدتى اذ تجلت لى محبوبتى « أمانى » واسفرت عن وجه يخجل البدر اذا رآه فرحبت بقدومها وجلسنا نتذاكر الهوى ونتشاكى الجوى ونتنقل فى الحديث من قديم لحديث حتى جر بنا الكلام الى ان قلت لها :

— يا أمانى ! طالت عشرتى لك . ولم أسألك يوماً عن أبيك

وأمك وموطنك، ولا عما اذا كنت صريع هواك وحدي أم تعددت عشاقك؛ ولا عما اذا كنت أيماً أو عروساً. فهل لك أن تخبريني بما ذكرت؟ فقبيح بالمرء يجهل ذلك من ريحانة روحه

قال ياحبيبي أما الاب فالوجود، وأما الام فالحياة، واما الوطن فالنفوس: وقد كثر عشاق وطلابي فكل من تراه من خطابي ولا آنف أن أعاشر اللئيم والكريم والأحمق والحليم وأصاحب الصغير والكبير والحقير والخطير ولكن لا ينال عهدي من هؤلاء الاذو الهمة الشماء والعزمة الصماء فأنا بحسب استعداد النفوس أيم وعروس. وكم خاطب كنت منيته وراغب كنت مُنيته وعاشق متعته وآخر صرعته

قلت: وكم فتنت من محب وفتكت بصب؟. قالت: كل من سلف ومن خلف!.. قلت: ولم هذا التلف؟. قالت انما كنت السبب وأميالهم سيف العطب وارواحهم السلب فهم القاتلون المقتولون. قلت: وكيف ذلك؟

قالت: أضرب لك من الامثال ما فيه عبرة: عاشرت أباك آدم وأمك حواء، وكان ربك أمرهما أن لا يأكلا من الشجرة المعهودة كما تعلم فزين لهما الشيطان مخالفته وغرهما «بي»

فكنت علة اخراجهما من الجنة. وكانا العاملين على شقائهما بأيديهما ولا ذنب لى . وصاحبت الرومانيين وهم جميع ، واليونانيين وهم متحدون ، والمصريين وهم مؤتلفون ، والعرب وهم متفقون ، فهديتهم الى مفاتح العلوم والفنون فأخذ كل منهم بنصيب موازن لهمته ، وفتح كل فريق من البلاد واستعبد من العباد بمقدار عزمه وتناصر أفراده ؛ ثم تناسوا الاخاء وجهلوا حكمة الاتحاد وود كل فرد من جماعاتهم الاستئثار « بأمانى » ، فاختلفت أهواؤهم فتنازعوا ففشلوا فذهبت ريحهم ، فأمسوا وأصبحوا وكأن لم يكونوا ، وهم الجانون على انفسهم . وقد كان بالعرب الشرق شرقاً فأصبح بعدهم كما ترى موطئ نعال الغرب ، ولم يكن فى عهدهم غرب ... ولما ذكرت المصريين تذكرت والدتى «مصر» ومرضها . فسألتها : ألك فى علم الطب ؟ . قالت : أى طب تريد ؟ . قلت : طب الأمهات (المراد الأمم) فان أمى مريضة وقد تولى علاجها طبيب غربى عدة سنين ولا نراها تزداد الا سوء حال . قالت : لا حول ولا قوة الا بالله ! .. بلغ بك الجهل أن تسمي هذا طبيباً وهو الداء العياء . فوربك انى لأعلم انها ما تماثلت للصحة الا لقح جسمها بمكروب الوباء . يا حبيبي لن

تجد لأمك بل لمريضات الشرق كله طبيباً اذا أم المريض سبقه الشفاء الا ذلك الشيخ الذى تناسيتم فضله وجهلتم حقه واحتقرتم قدره وصرفتم عنه الوجوه فانزوى فى الازهر وجفاه الامير والمأمور. فانه هو الذى ربى آباءك واجدادك وعرف طبائعكم وما يوافق ابدانكم من غذاء وارواحكم من دواء فاسترضوه واستشفوه يشف مرضاكم باذن الله

قلت : وما اسمه ؟ — قالت : الدين

ثم همت للقيام فشيعتها بالتحية والسلام وبقيت كما كنت وحيدا فريداً حزينا. ولما رأيت الهموم كادت تقتلنى أردت ملاهاة النفس ومساهاة القلب عنها بالقراءة فتناولت عدداً من جريدة يومية فاذا فيها اقتراح على القراء أن يناجوها بثلاثة من آمالهم فى القرن العشرين فقلت ما طابت هذا الطلب الا لسبب ولعلها اتصلت الى الله فأتاها معجزة تفريج الكرب ثم بادرت فراجعت هذا الدرس ولخصت منه ما يأتى وكتبت به اليها :

أول آمالى اخاء الامة اخاء صدق محكم بحكمه
وثانيا تشفى من اعتلالها مصر وكل الداء فى احتلالها
وثالثا تجمع أهل الشرق وحدة دين الله دين الحق

حتى يسود فى حماه وحده   وخير ما أملت هذى الوحدة
فهل لنا ان نبذل الاعمالا   لنبلغ الأوطار والآمالا

٢٩ رمضان سنة ١٣١٨ — ٢٠ يناير سنة ١٩٠١

١٥

آثار الغرب فى الشرق

قد كنت ابكى من سلف   فصرت ابكى من خلف
قد حلفوا بأنهم   هدوا فكذب الحلف
هم فرطوا وافرطوا   في شرف وفى سرف
هم تركوا امورهم   تديرها يد «الصدف»
هم اغتنوا فيما اقتنوا   عن الدرارى بالصدف
وحولوا وحوروا   فيما استتام فانحرف
وبدلوا وغيروا   مؤتلفاً بما اختلف
لا لصلاح انما   اسخف أى سخف
كان الدخيل فى اللغى   عن حاجة عند السلف
وفي الصلاة بالفرنساوى سبح الخلف
فكيف لا ابكى وذا   اقصى الفساد والتلف

اسفر فجر يوم الثلاثاء الماضى عن غرة العيد البهية وطلعته الوضية فاستقبله رجال الدين على المآذن بالتهليل والتكبير وفى المساجد بالتسبيح والصلاة والتسليم والخطب الطنانة الرنانة، وحيته القلاع في العاصمة والثغور بالمدافع ايذاناً بحلوله واعلاناً بتعظيمه وتجليله، وخرج اغلب الناس من بيوتهم في أفخر ملابسهم وأحسن زينتهم، وذهب الاكابر منهم الى سراى الامير حفظه الله لتأدية مراسم التهنئة والتبريك والاواسط ومن دونهم الى منازل الاموات لزيارتهم والترحم عليهم بما وفقهم الله اليه من اطعام المساكين والتصدق على المعوزين واقراء القرآن الكريم، ثم انصرف الجميع بعد ذلك الى المنازه يقضون اليوم في لهو ولعب وشرب وطرب

اما أنا فبعد ان زرت اعز الناس على بعد نفسى خامسة خمسى فى بيت صهرى « القبر » ووصلت رحمها بعقيق المهجة ولؤلؤ الدموع واهديتها الفاتحة نفقة العيد واوصيتها خيراً بأخويها واختيها النازلين بجوارها قصدت استاذى « الدهر » لزيارته قياماً بحق المعلم على المتعلم وفرض المربى على المربى فوجدت في حضرته شيخاً اكل الزمان من لحمه حتى شبع

وشرب من ماء شبيبته حتى نقع واسمه : القِدم (المراد به ما مضى من الزمان) وفتى غض الشباب ناضر الاهاب جميل الوجه كأنه البدر ليلة تمه واسمه :الأبد (المراد به الزمن المقبل) . وفهمت انهما اتيا اليه لتهنئته بالعيد . فلما دخلت عليه اردت ان احييه بما سمعت الامراء وشبان العصر الحاضر الذين أخذوا الكمال عن دعاته والادب عن هداته وتربوا في مهد الحضارة وحجر المدينة المصرية يحيون به بعضهم البعض فقلت : Bonne fête, monsieur الشيخ ! (عيد سعيد ياسي الشيخ)

فقال: كل عام وأنت بخير يابني !

ثم تقدمت وقبلت يمينه بطنا وظهرا والتفت لمن معه فوجدت « القدم » يقلب طرفه في من رأس لقدم، والفتى ينظر الي نظره الى الخدم. ثم قلت رافعاً يدى الى رأسي مرتين مرة للقدم ومرة للأبد: — Bonne fête شيخ قدم' (عيد سعيد ابد ! Bonne fête, mon ami (عيد سعيد يا حبيبي)

فلم يرد منهما أحد علي جوابا. بل حول الشيخ « قدم » وجهه عني الى « الدهر » وقال: ارى الهيئة غريبة والسحنة

شرقية واللهجة مختلطة ونحن فى مصر مهد العربية الصحيحة الصريحة, والتحية مسيحية غربية ونحن مسلمون، فماهذا الحال؟

فقال: سله يجبك. – فقال لى: يا بنى ما كان زى البلاد فى العصور الخالية على زيك، ولا لباسها كلباسك، ولا لغتها كلغتك ، ولا آدابها فى السلام كأدبك: اشارة باليد الى الاعلى وطأطأة بالرأس الى الاسفل فما الذى قلب الاحوال فيها ؟ وهل ذلك الانقلاب قاصر عليك او شائع فى أمتك؟ وهل وقف على اللباس والكلام والسلام ام تعدى منه الى سائر الاخلاق والعادات والعقيدة؟ – فقلت : يا mon cher (ياعزيزي) كل زمن له des habitudes et des mœurs (عادات واخلاق) مخصوصة . Aux temps passés (ففي الزمن السالف) كان الناس dans une incivilité (فى وحشية) كبرى et à la suite (اما الآن) فقد ترقى الزمن Quant à présent. فان الناس بلغوا من la civilisation (التمدن) اعظم شأن.. (وهكذا) كل شيء a pris (اخذ) من المدنية et ainsi. والترقي sa part (نصيبه) حتى la religion même (الدين) فهز الشيخ رأسه وعض شفته وفكر مليًا ثم اعاد النظر الي وقال:

أرجوك ان تذكر لي شيئاً مما تغير من احوال أمتك من هذا الترقي المعكوس المنكوس وأسألك بالله ان لا تشوب حديثك بما ليس من لغتك فان هذا يصدعني

قلت: كانت لا تعرف في الاسلام سكرا ولا مقامرة ولا مضاربة في بورصة ولا فجوراً فاصبحت تألف كل ذلك وترى هجر الصلاة ومخاصمة الصيام والجهر بالافطار في رمضان مدنية حرم الله منها السلف وآثر بها الخلف

كانت العمامة تاجها والطيلسان كساءها فاصبحت «الجاكيتة» شعارها والطربوش اكليلها، ومع الزمن ستحل محله البرنيطة وتتم لها الحضارة باكمل معانيها واجمل مرائيها

كان العمل رائدها والأمل قائدها الى مبتغاها فأصبح الأمل مل‌ء مخ الكل والعمل دأب الفقير الحقير فتمت الرفاهة لمن ملك قوت يوم وليلة فافترش الحرير وجلس على السرير واستراح من تعب التفكير ونصب التدبير

كانت تعرف في دينها الكمال وتغنى به في معاملاتها وسائر امورها عن سواه فلما سرت اليها المدنية العصرية تكشفت لها الاحوال فرأت نفسها في حاجة لشرع وضعي اباح لها

بعض ما حرم الدين فتمتعت بلذاتها وتوسعت فى معتقداتها حتى كادت تنسى الله واوشكت تقول بمقالة الماديين . بل نشأ فيها من يدين « بالفكر الحر » توسعاً في الحرية حتى دانت لها قطوفها يانعة الثمر ... من هذه الحرية المطلقة ان احد الوزراء اضطرته مقتضيات الاحوال للتوجه الى المسجد يوم الجمعة « اليتيمة » طوعا لا كرها مع مولاى ومولاه الامير ، فلما قامت الصلاة أحرم الناس وفيهم سيد الأمة في عصره وركع الامير وسجد خاشعاً لربه صاغراً الأمره وابى الوزير واستكبر ان يسجد لخالقه كما ابى واستكبر ... واخذ كرسياً وانتبذ مكاناً دنياً وقعد مقعد السائح المتفرج على مشهد لم يره فى حياته ولا وجدان يعاتبه ولا اماماً يعاقبه ...

قال : ايه ! ايه !

قلت : كانت لا تقبل الدخيل فى نسبها قط ولا تسمح له بالدخول فى لغتها الا لحاجة اليه . فرأت فى هذا الأباء جفاء للانسانية من جهة وتقييداً للسان عن حرية التمشدق بأى لسان من جهة اخرى فتنازلت عنه براً بالانسانية للسبب الاول وسأماً من لزومها لهجة واحدة مدة حياتها كما سئم بنو اسرائيل المن والسلوى

بل أصبحت لا ترى التكلم بالدخيل حال الصلاة يخرج منها . فقد سمعت ان احد السادة الوزراء الذين اضطروا لمصاحبة الامير المحبوب يوم صلاته في جامع عمرو خشى انتقاد الناس وسخط الامير عليه ان سلك مسلك رفيقه الذي اسلفنا ذكره وتظاهر بدين «حرية الفكر» ، فأحرم للصلاة ، فلما سجد أطال الامام سجدته فلم يضجر الامير لقوة ايمانه وضجر الوزير فقال وهو ساجد بصوت عال سمعه كل قريب منه : « C'est embettant » أى (ذا شيء يضايق !) ثم لم ينكر احد عليه قوله بل ضحك الجل وبكى القل وأتم كل صلاته ورجا أن يتقبلها الله . . . هنالك استوقفني الشيخ «قدم» وقال حسبي حسبي ! ! الحمد لله الذى وارانى وما أرانى هذا الضلال في أمة عاشت في عهدى . وبكى الفتى «أبد» وقال :

ليت أمي لم تلدني ليتها كانت عقيما
كنت أهوى أن أوافى امة اطيب خيما
فاذا بى في اناس سودوا وجهي الكريما
رب ان تقصف حياتي كنت بي برا رحيما

فتبسم الدهر ضاحكا وقال :

خل عنك اليأس ياذا وتمسك بالرجاء
ستري مصر قريبا دار خير وهناء

اىها أصغت لنصحى ووعظاتى وندائى
فاستجابتها وقامت من رقاد لارتقاء

ففرحت وجئت مبشرا بما سمعت

٦ شوال سنة ١٣١٨ — ٢٧ يناير سنة ١٩٠١

١٦

الوداع الوداع !

(دهر) صبرا أفديك يا (دهر) صبرا لست أقوى على وداعك صبرا
أو صبر وفي الفؤاد شجون صبرت بالفؤاد والنفس صبرا (١)
انا في القرب ان تغيبت عني ذقت حلو الحياة صابا وصبرا
فاذا ما نأى المزار ببعد ذبت وجدا يا (دهر) أومت صبرا
بحياتي يا «دهر» أبق حياتي أتمتع فيها بقربك دهرا
وأرود المراد منها الى ان يحدث الله بعد ذلك أمرا
لا تطع في داعياً للتنائى طوع داعي اللقاء أذني وأمري
وارع لى ذمتي وعهد ولائي ان رعى الذمام بالحر احرى

الوداع ياعالم الآداب الوداع ! وداع من طب لمن حب . وداع الحكيم الحليم للحبيب الحميم . وداع الوالد للمولود

(١) ذكرت كلمة الصبر خمس مرات (١) بمعنى تمهل . (٢) نقيض الجزع (٣) يقال صبر به صبرا بمعنى : كفل به (٤) الصبر : المر (٥) الصبر هو ان يحبس ويرمى بشيء حتى يموت

وداع « الدهر » لمحمود! وداعا حجر على «خواطر الخواطر» ان تبرز من الضمائر ، وقضى على القلم ان يهجر المحابر ، وعلى الحكم ان تحجب في السرائر ، وعلى الكلم ان تصارم اللسان ، وعلى البكم ان يلازم البنان ، وعلى البيان ان يقبر في الجنان ، وعلى الجنان ان يلحق بخبر كان ، ويكون لمن حضر كمن غبر من العبر . واليك تحرير الخبر : — قصدت اليوم أستاذي « الدهر » كالعادة طلباً للاستفادة من معارفه ، والاستزادة من عوارفه . فلما تمثلت لديه ، وسامت عليه ، وجدت « القدم » عن شماله ، و « الأبد » عن يمينه ، و « ابن سمير » وفي خدمته « دنيا » و « الامل » في حضرته ؛ ومعهما سيدة أخرى تعجب اذا بسمت وتسوء اذا عبست ، وتسر اذا سالمت ، وتحزن اذا صارمت ، وتحي اذا حاسنت وتميت اذا خاشنت ؛ علمت فيما بعد أن اسمها « حوادث » وكنيتها « أم الكوارث » . ولما حللت من المجلس محلي ، اللائق بمثلي ، نظر الى « الدهر » نظر حنان وشفقة . ثم أراد الكلام فسبق دمعه نطقه ، ولكنه تجلد فأوقفه ، وأخذ منديلا وكفكفه . فبكيت اذ بكى ، ولا أدري لم هذا البكا . غير ان القلب يؤلمه ما اشتكى . وقد علا بكائي حتى نهنهت . ثم نهنهني الاستاذ فتنهنهت . فقال :

— أى محمود !

قلت لبيك يامولاى ! — قال: يابنى مامن مرافقة الا لمفارقة. ولا من وصال، الا لانفصال. ولوان تواصلا دام، ما حال بين الطفل وثدى أمه فطام، ولا بين الروح وجسدها فصام....

قلت — والقلب يجب، والجوانح تضطرب، والصدر فى انقباض، والدمع فياض — رحماك مولاى! أومفارقي انت؟ وهل أقوى...

قال: تجلد يابنى واصغ لما ألقي عليك فما فى الجزع، فائدة لجزع ولا في الفزع، خير لفزع. وفى احتمال الشدائد، كل الفوائد. والجلد للرجال، والهلع لربات الحجال!.. يابنى ان الحياة أدوار، واطوار. ولكل طور حال، يحول مع الآجال. وملازمته لشأن واحد من المحال: ألا ترى انك كنت في صلب أبيك ماء، فصرت في بطن أمك مضغة. ثم جنيناً، ثم صرت في حجرها وليدا رضيعا ثم ترقيت فكنت فطيما يرعاك أبواك حتى اذا ترعرعت تلاهيا عنك، فخرجت من الدار وألفت من عرفت من أبناء الجار فقضيت في اللعب معهم معظم النهار؟.. ثم لما كبرت عن اللعب و«شب مالك عن الطوق» اسلماك لمعلم الكتاب فتولى تربيتك أعواما نسيت فيها رفاق الصغر وتعلقت باترابك من ابناء كتابك، حتى اذا علمك

المعلم علمه وبلغت فيه حكمه توليت أمر تهيئتك للحياة الاجتماعية بما أخذت عنى من العلوم العالية والحكم الغالية . . . ألا ترى انك فى كل دور من هذه الادوار فارقت رفيقاً ، وصادقت صديقاً ، وألفت في يومك . من لم تعرفه فى أمسك ؟

على هذه السنة الفطرية والناموس الطبيعي يابنى أنت اليوم مفارق رغما عن قلب يذوب لبعدك ، وعين تسر بقربك !

فقلت وقد زاد بكاى ، واشتد جواى ، وعظمت بلواى : ولمن يامولاى تكل أمرى بعدك ؟ — قال : للسيدة «حوادث» فهي خليفتى عليك . ولكن قلبها قلب وحالها حول ، فكن منها على حذر وان هشت لك وبشت . وقد ربيت فكرك لهذا الحذر فقايس به بين مقدمات قديمها وتائجه ، وبين مقدمات جديدها تعلم نتائجه ان خيراً وان شراً . واياك أن تستقبلها اذا نزلت عليك بغير روية . ثم ان عبثها يخففه «الأمل» ، وقد تركته لك أليفاً ؛ ويلاشيه «العمل» ، فاتخذه حليفاً . وهما ملازمان لك لا يفارقانك مادمت تعمل «لدنياك» كأنك تعيش أبداً . وكذلك تركت لك «بلجة» و «خمة بن جبير» شاهدين عليكم جميعاً يكتبان فعالكم : هذا بالليل وذاك بالنهار . فأياك اياك ان يشهدا فيما تسوءك

شهادتهما يوم الشهادة ... ثم سكت، فقلت : استاذى ! زودنى بنصحك وزدنى من ارشادك. ولا تكلنى لفكرى فانه كثير الخطأ جم الخطل . قال : لك أن أوصيك وصية الذاهب غير الآيب الى من لزمه رعيه وعناه سعيه، وصية تكفل لك حسن العواقب وتضمن اسنى المآرب . فتلقاها باذن صاغية، وحافظة واعية، ولقنها لولدك اذا ولدت، ولمن يهمك اذا أردت . وسأستفتحها بوصية لقمان التى وردت فى القرآن . فافتح لها الآذان :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم «واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم . يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الامور. ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الارض مرحاً ان الله لا يحب كل مختال فخور. واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ان أنكر الاصوات لصوت الحمير»

الله الله يا بنى فى دينك فهو خير هاديك، الى ما يرضيك . ولا تبغه بسواه فالله الذى لا اله الا هو يقول وهو أصدق القائلين : « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » . ولا تحسبن يا بنى ان الدين قاصر على ما يفهمه العوام :

شهادة، وصلاة، وصوم، وحج، وزكاة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الايمان بضعة وستون شعبة، والحياء شعبة من الايمان» منها أربع فى قوله تعالى «والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله»؛ ومنها الثبات للعدو «اذا لقيتم فئة فاثبتوا»؛ والوفاء بالعهد «أوفوا بالعقود»؛ وشكر النعم «وأما بنعمة ربك فحدث»؛ وحفظ اللسان عن الغيبة «ولا يغتب بعضكم بعضاً»، وما شاكلها كالكذب والنميمة؛ وأداء الامانة «فليؤدى الذى ائتمن أمانته»، ومن هذه تولية المناصب والأعمال لاهلها؛ وقبض اليد عن الاموال المحرمة، وفيها السرقة وأكل الربا وأخذ الرشا وهدية الحكام والرؤساء واجتناب المحرم من المطاعم والمشارب كالدم ولحم الخنزير والخمر؛ وتحريم الملاعب والملاهى المخالفة للشرع، ومنها تغنى المؤذنين بقصائد التشبيب والنسيب على المآذن والمنشدين على الاذكار؛ والاقتصاد «ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط»؛ وترك الغل والحسد «ومن شر حاسد اذا حسد»؛ وترك هتك الاعراض والوقيعة فيها «ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة»؛ والتعاون على البر والتقوى: وصلة الارحام وبر الوالدين وبر

الاولاد ، ومن هذه حسن التربية والتعليم . و . . . الخ . . .

يابنى «ولا تنس نصيبك من الدنيا» فزاحم فى مواردها المزاحمين، ونافس فى حيازتها المنافسين . ولا تقعدك عنها كلمة وكل يحسب العسل فى الكسل، والعز لمن خمل . يا بنى انك قليل بنفسك كثير باخوانك . وما دنياك وحدك اذا ضخمت، بنافعة لك اذا هزلت دنيا وطنك وضئلت . فخذ بيد أخيك ابن بلدك الذى يؤويك وعاقده الخناصر على محبة المليك . وقايضه اليمين على التعاون، وقارضه الميثاق الوثيق على تقديم المصالح العمومية عن المصالح الخصوصية وتفضيل المصانع والمتاجر الاهلية عن الاجنبية ، ولا تبدلوا الخبيث بالطيب من خصائصكم الامية كالاخلاق والآداب والعادات، واحذروا نزغات الشياطين والأبالسة المفسدين والاعداء المفرقين وشرهم المنافقون وشر هؤلاء من جمعتكم واياهم رابطة جنسية أو وحدة دينية يتظاهرون لكم بالمودة وملء قلوبهم العداوة وحشو ثيابهم البغضاء ؛ فقاتلوهم برد كيدهم فى نحورهم ورد شبهاتهم اليهم قبل أن يقتلوكم وأخرجوهم من ارضكم بأعراضكم وقطع صلاتكم عنهم قبل ان تملأ بطونهم وتقوى أفئدتهم فيخرجوكم

يابنى ان ملأ الغرب يأتمرون بكم ليقتلوكم وقد غفل قومك عن سيوفهم المسلولة وخناجرهم المسنونة وسهامهم المسمومة فقتكوا فيهم فتكاً ذريعاً، وكأنى بهم وقد أصبحوا لا ترى الا مساكنهم، فتنبه ونبه أهلك قبل أن يمحوكم : بثوا فيكم روح الشقاق فتغيرت قلوبكم ، دسوا لكم سم الافتراق فتغايرت أهواؤكم ، نشروا بينكم الموبقات فملتم اليها كل الميل حتى أكلت عزيمتكم ، وفلت حدتكم ، ومزقت وحدتكم : دخلوا عليكم من باب التجارة بزخرف يعجب ظاهره ويسوء باطنه فألهاكم زهو التمويه والايهام عن بضائعكم فكسدت ، وعن صنائعكم فقسدت ، وهدت اركان حياتكم الوطنية الا بقية من الزراعة خاسوكم حتى فى بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها : وكأنى بها وقد انتقلت من ايديكم الى ايديهم واصبحتم فى بلادكم غرباء ، وفى ارضكم اجراء : تزرعون وهم يحصدون ، وتخبزون وهم يأكلون ، ثم لا تؤجرون ولا تشكرون : دخلوا عليكم من باب العلوم تظاهراً بترقية شأن الانسانية وقد جهلتم ان الضرة لا تربى ربيباً وان القصاب لا يعلف الشاة لتقويم حياتها فأسلمتم لهم ابناءكم يربونهم على مايسمن لحومهم ليذبحوا ، لا على مايقوى حلومهم ليفلحوا ،

فأمسوا وأصبحوا وأنتم منهم غرباء، ومعلوهم لهم قرباء، وشر الدواب الولود لغيرها الحلوب لسواها: دخلوا عليكم من باب الحرية والمدنية فزينوا لكم حب الشهوات وأحلوا لكم ما حرم الله فاسترسل فيها جاهلكم وأعرض عنه عالمكم وحاكمكم حتى تعاصى الداء على الدواء ولا أدرى بما سيلقى الله منكم العلماء والحكماء

كل ذلك يا بنى أسلحة ماضية يقاتلكم بها الغرب وكأن احساسكم مات فلم تشعروا بضرباتها فى أفئدتكم. فنبهوا شعوركم وأحيوا وجدانكم. وما كاليوم غنيمة لمغتنم، ولا كالامس عبرة لمعتبر؛ وشر الغصص قولك: الغد فرصة المفترص

هذه يا بنى وصيتى لك ولسائر قومك فأن تقيدت بقيودها، وعملت بأصولها وبنودها. لاتخرج معك «الحوادث» عن محمود حدودها. وحسبى وحسبك الله الذى لم يخلق الخلائق هملا ولكن ليبلوكم أيكم أحسن عملا. ثم نهض قائماً ومد يمينه الى وقال:

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما ... يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

هناك ذهبت الافئدة جمرات، وذابت المهج حسرات، وسالت العيون عبرات، واخذت النفوس سكرات وغمرات،

ولا أدرى اثبتنا فى موقف الوداع ، ام زلزلنا الارتياع ، غير أنى افقت وكأنى ما سمعته ولا شهدته . لولا عبرة تتدفق ، ومهجة تحرق ، وأضلع تتفرق « والحوادث » تلاهيني ولا ملاهاه فأواه من الفراق أواه ! ! !

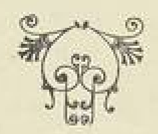
٣ شوال سنة ١٣١٨ — ٣ فبراير سنة ١٩٠١

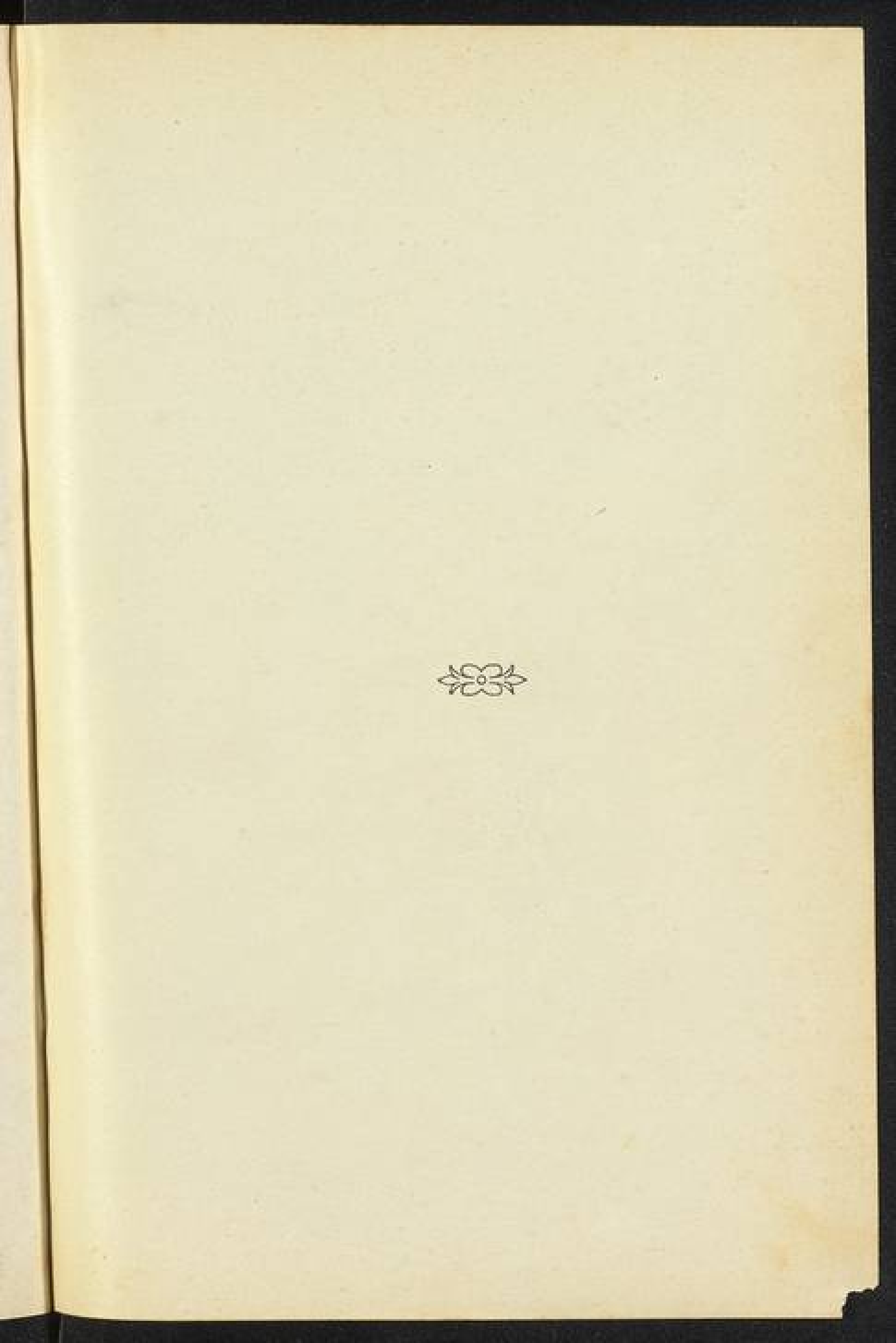
(انتهى الجزء الاول)



فهرس

فهرس

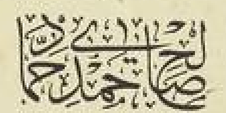






النعم الدنيوية انما تكون نعمة وسعادة
اذا تنـــوولت على ما يجب وكما يجب
ويجري بها على الوجه الذي لاجله خلق
الامام الراغب

تـأليف



﴿ ويليها بعض فصول قد لا تخرج عن المعنى ﴾
مما كتبه المؤلف أيضاً

١٣٢٤ — ١٩٠٦

(القاهرة)
مطبعة مدرسة والدة عباس الأول
بالطرقة الشرقية بشارع خيرت

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم يامن أسبغت نعمك . وأجزلت عطاياك . ويسرت بالعون الامور . وسهلت فى سبيل الحياة الصعاب . وباينت بين همم الخلق فيها لكي تستصلح بعد الشؤون . وتنتظم ثم أعمال البرايا . فلك الحمد ولك الشكر . والامر منك واليك . ونصلي ونسلم صلاة وسلاما دائمين متلازمين على سيدنا محمد أشرف مبعوث وأعظم مرشد الى الخير ونهج الهدى بكتاب انزل اليه من قبل الله العلى الاعلى يهدى الى الحق والى صراط مستقيم . وسنة هى الحنيفية السمحة والبيضاء النقية

وبعد فغير خاف على ذوى الفطن أن للاجتماعات البشرية تطورات وتغيرات حقيقية أو صورية تناسب أحوالها الزمانية والمكانية وبذلك تختلف اجيال الناس وتتباين الشؤون سواء من حيث الماديات الحيوية أو من حيث الادبيات والمعنويات وهذا سر من أسرار ناموس الارتقاء وسبيله التدرج من الادنى الى الارقى .

ولقد جاءت الشرائع المنزلة آمرة بالتمشى على حسب تلك المقتضيات الزمانية والعرفية الا فيما يخالف أصلا أو يهدم ركناً . والشرائع الوضعية قد يرى من حال توالى المعالجة فيها بالتغيير والتبديل تبعاً لتلك الاحوال مايؤيد هذا المبداء مبداء الارتقاء واختيار الاصلح تبعاً لتلك المقتضيات

والحال فى الآداب والاخلاق هو الحال فى الشرائع ما لم تخالف أصلا من أصول الآداب الصحيحة والخلال البشرية المنيفة المجمع على صحتها وصلاحيتها فى كل أين وآن كأنها تلك البديهيات المنطقيه كالصدق وكالكذب مثلا فان الاول ممدوح بكل شفة ولسان والآخر مذموم على مدى الزمان .

قلت ان الخلف فى المجتمعات حقيقى أو صورى أما كونه صورياً فلأنها فى جوهرها تتبع نواميس لاتتغير كالسعى الذاتى فى طلب الارزاق وكوجود الوازع وكالعدل وكالدين وكالعلم مثلا. وأما كونه حقيقياً وبالتالى متجددا ففيما عدا ذلك من المظاهر والقشور وطرق الطبيق على الاصول السابقة أو فى تلك الامور الثانوية التي قد تترك وتهمل ويقوم غيرها مقامها كالازياء مثلا وكالتفاوت فى استصلاح أمتعة هذه الدنيا الاخري أو فى اتجاه الافكار واختلاف الاذواق وعودها كأنها تلك الحلقة المفرغة تبعاً للظروف المحدقة ولامور الشائعة .

هذا ولقد كنت كتبت فى العام الماضي رسالتى الموسومة بـ « فى سبيل الحياة » هذه التي حازت رضى جماعة من الاخوان وتفضل المؤيد الاغر بنشرها لى فى أعداد منه اذ ذاك تباعا وقد عنيت فيها بالالمام ببعض الآداب الحيوية على مثال ما يكتب الاوربيون فيها اليوم كجباب اللورد « افبرى » (السير جون ليبوك) صاحب التصانيف الشهيرة فى هذا المعنى وكالمسيو « ونيار » الذى حاز قصب السبق فى هذا المضمار أيضاً وكالسير استيوارت بلاكى من اساتذة كلية أيدمبرج الجامعة ومصنف الرسالة المفيدة المسماة تربية النفس بالنفس(١) وغيرهم مكيفة بحسب ما يناسب احوالنا

(١) قد شرعت بحول الله فى تعريب هذه الرسالة عن الافرنسية وقد قاربت التمام وسأطبعها بعد ذلك ان شاء الله تعالى خدمة لقراء العربية

الخصوصية وبالتالى بما لا يخالف ما قد أشرت اليه آنفاً من الاصول بل هى بالضد من ذلك تناسبها بحسب روح العصر وقابلياته وأذواقه عندنا وكنت قسمتها الى عدة فصول ترجع فى الواقع الى سبع مقالات آخذ بعضها برقاب بعض

ولقد جعلت مدار الكلام فى المقالة الاولى منها على «الحياة العلمية» فقلت ما قلت عن فائدة العلم والتعلم فى هذا العصر ولذة العلم والمعارف واغتباط الانفس المتعلمة وفضلها على غير المتعلمة وما يجب أن يؤخذ وما يلزم ان لا نضيع الوقت الثمين فيه الى أشياه ذلك .

وبنيت الكلام فى الثانية على « الحياة البيتية » أو العائلية من حيث ما يتعلق براحة الانسان وهنائه ولذته فى بيته وربة البيت ووظيفتها والزواج وما يستحسن فيه وتربية الاولاد وما يلتحق بذلك .

وخصصت الثالثة بالرياضة البدنيه وتحرى صحة الاجسام فيها بالاعتدال حتى تتقوى وتنشط الارواح باستنشاق الهواء الجيد خصوصاً وبذلك تتم للانسان اعظم السعادات وأجمل المسرات فى هذه الحياة الدنيا .

وضمنت الرابعة الكلام فى « حياة الانسان في مهنته » من حيث ما يصلحها ويرغب النفوس فيها وشرف المهنة والحرفة وآدابها الى غير ذلك

وحصرت الكلام فى المقالة الخامسة فى بعض « الآداب الاجتماعية والاخلاق الكريمة العملية فيما يدور خصوصاً على اداء الحقوق والقيام بالواجبات وتربية النفوس عليها منذ الصغر

وجعلت مدار الكلام فى السادسة بالايجاز كذلك على (افعال الخير الزائدة من المروءة والاذواق السليمة) الى ما ينطوى تحت ذلك وينتظم فى عقده النضيد .

وبنيت السابعة وهي الاخيرة منها على (الحياة الدينية) من حيث اداء حق الله تعالى فى العبادات ومعرفة الاصول الدينية من مظانها الاصلية من الكتاب والسنة والسيرة النبوية المطهرة والمتابعة فى الاعمال المقصودة بالذات واعمال البر الموصلة الى خير الدارين وسعادة الحياتين الى آخر ما يندمج تحت هذا الباب الكريم

***

هذه مضامين تلك الرسالة وما حوت من المواضيع الهامة مصوغة كما سلف فى قالب عصرى على مثال ما يكتب أجلة اخلاقى العصر من الغربيين بل والسلف الكريم ومستقاة من المصادر الكريمة والمظان الموثوق بها عندنا خصوصاً وما قد أملاه الوجدان .

ولقد قام بالخاطر الآن انجاز ما كنت عازما عليه واشار به على بعض الاصدقاء من قبل من طبعها على انفراد فى كتاب يضم شتيتها و نضد عقدها ويجعلها من ثم سفراً عصرياً مفيداً هو هذا الكتاب الصغير الحجم الغزير الفائدة الذى اقدمه اليوم فى هذه الاوراق بين يدى حضرات قراء العربية متمثلا فى حلة قشيبة من الطبع العصرى الجميل ولى عظيم الامل بان يصادف صنيعي هذا ما أرجو من القبول والارتياح والنفع خصوصاً . و « انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى »

القاهرة فى غرة ربيع الثاني سنة ١٣٢٤ صالح حمدى حماد

﴿ في سبيل الحياة ﴾

مضى قبلنا قوم رجوا ان يقوموا   بلا تعب عيشاً فلم يتقوّم

كل انسان فى هذا الوجود الدنيوى يطلب السعادة ويتحرى طيب الحياة لنفسه ثم لغيره من بنى جنسه على قدر اتصاله به وارتباطه بذلك الغير وانى لا أدعي أن كل الناس في هذا السبيل وبصدد ذلك النهج العظيم كاسنان المشط في الاستواء بل هم كما هم سابق بالخيرات ومتوسط فيها ومقصر حتي فى حق نفسه وهو لعمري ما تساق اليه وتردد عادة أمثال هذه النصائح الذهبية والارشادات النافعة مصورة بحسب المناسبات مصوغة بصيغة الوقت حتى في ذات تلكم البلاد الغربية التي لا يباري أفراد سكانها فى شأن من الشؤون الارتقائية والكمالية

١

﴿ الحياة العلمية ﴾

وأول مراتب هذه السعادة الدنيوية «العلم» وان شئت فقل وسائله الاولى من معرفة القراءة والكتابة وما في معناهما

وحكمهما من مبادىء اللغة وقواعد الدين والحساب لأنها أس كل خير ومفتاح كل باب مغلق من أبواب السعادة العلمية فالأمي محروم من شطر مهم من لذات الحياة فى هذا العصر والمتعلم متمتع بالكثير منها لانه يطالع الجرائد والمجلات والكتب العلمية والتاريخية والادبية والفكاهية ويستفيد منها الاشياء الكثيرة بضمها الى معلوماته الاولى المدرسية فتنمو ملكاته الذهنية وتتسع تصوراته العقلية والامي بمعزل عادة عن هذا كله فضلاً عن انتقاصه فى ذات عمله ونفس معيشته من جراء أميته وجهله وفي القرآن المجيد (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)

والعلم وان كان محبوباً لذاته لكنه يطلب فى هذا العصر خصوصاً كآلة وواسطة عظيمة لتسهيل سبل الحياة وتخفيف مصاعبها ومتاعبها على أفراد الناس فى كل الشؤون الاجتماعية والاسباب المعاشية فلهذا اقترن بالاعمال والمهن البشرية وصحبها يداً بيد فأثمرا كل ماتراه أو نسمع به من مخترعات ومكتشفات رفعت شأن بنى الانسان وأغزرت موارد ثروته وسهلت عليه اسباب منافعه ومعايشه وقربت ابعاد مواصلاته ولا غرابة فى ذلك على سلطان العقل والفكر الانسانى متى ما وازره فى عمله

العلم وعضدته المعارف النافعة وحاطه النشاط وعلو الهمة .

والعلم الانسانى فى اسمى معانيه وان حصل واكتسب في بعضه على الوجه المتقدم من الكتب لكنه لا غنى لطالب سعادته العلمية الحقيقية من الاعتماد فيه على سفر اسفاره ومستمد امداده اعنى به « صحيفة الكون » ورقعة الوجود الدنيوى وما حوت من نظام طبيعي بديع وصنائع بشرية جميلة . تلك هى الاشياء التي يجب ان نداوم التأمل ونطيل النظر بالجد في نظاماتها العجيبة وترتيب نواميسها الغريبة المحكمة الصنع ونستكنه على الخصوص مواليدها الثلاثة الارضية من الحيوان والنبات والمعدن التى ننتفع بها ونسخرها فى شؤوننا المعايشة وصنائعنا وفنوننا البشرية اذ لا يكفى لدرس ذلك كله واستكشاف حقائقه واستخراج منافعه الكتب وحدها بل لابد معها من فتح العيون والنظر والتأمل والتدبر واعمال الفكر والتسوح سواء للتطبيق العلمى الخصوصي عند العلماء او لتوسيع نطاق المعلومات العمومية وزيادة الاعتبار والاستبصار في عظمة الخالق جل شأنه وعز سلطانه ثم قوة فكر الانسان وعظيم مهارته فى صنائعه وآثاره بالتدبر والمقارنة بين اعمال الامم المختلفة والشعوب المتباينة وفى

القرآن المجيد آى كثيرة تأمر بكل هذا وتحث عليه للذى فيه من المزايا العظيمة والفوائد الجليلة والعبر الجمة

واذا كان العامل الاول الفعال فى الانسان حقيقة هو العقل والفكر اللذين لولاهما لكان اضعف سلطاناً واقل قوة من كثير من الحيوان فجدير بالانسان ولا ريب ان يقوى هذا العامل الرئيسى فيه مستعينا عليه في ذلك بوسائط العلم ووسائل المعرفة والاختبار والمشاهدة الحسية على نحو ماسلف وبه على اكتسابها واستفادتها هى جمعاء وهكذا تنمو القوى العاملة وبالتالى تتولد الحياة العلمية الصحيحة فيستكنه الكثير من الحوادث فى عالم الكائنات سواء كانت ذواتاً او افعالا ارادية او غير ارادية وتصور علل ذلك واسبابه ومسبباته وهذا كله من الاهمية في عالمى العلم والعمل بالمكان الاسمى والمنزلة الرفيعة العليا

وأول شروط النجاح العلمى والتقوى العقلى «التصور والتفهم» للمسائل والقضايا العلمية اذ ربما حرص الانسان وحظى بقوة الحفظ والسرد من غير تصور ولا فهم حتى يصير حافظا لالفاظ المعانى ساردا لها كاحسن ما يكون بدون أن يكون متصوراً لها ولا فاهما لما تضمنت من المعانى وليس هذا محل الفائدة من

العلم والمعرفة ولا هو بالمغنى فى تحصيلهما في هذا العصر خصوصا فتيلا فقليل من التصور والتفهم خير من كثير من حفظ الالفاظ أو سردها كالببغاء أو كالفونوغراف. ولقد كره العلماء من قديم الزمان هذ الحال واحتاط له المتأخرون كثيراً بتسهيل موارد العلم وتقريب شوارد مسائله وعويص أسراره فغيروا وبدلوا كثيرا في اساليب التعليم وطرق اداء العلم مع تحرى واختيار أهمه على مهمه تسهيلا على النفوس وتقريبا الى الافهام وزيادة في النفع حتى انهم ليخرجون الجد فى صورة الهزل والحقائق العلمية أو التاريخية أو الادبية الحكمية في قالب الحكايات الفكاهية والقصص والروايات الغرامية كيلا تسأمها النفوس ولا تمجها الطباع وتتلقفها مع ذلك العقول بالسرعة هذا فضلا عن انتشار الجرائد السيارة والمجلات العلمية والادبية التى تتفنن وتتنافس فى اختيار المواضيع الحسنة والمسائل الهامة وتؤديها الى افهام الامم العصرية بالاساليب الشتى المراعي فيها على الخصوص جانب السهولة مع الجزالة والالذاذ ومراعاة النفع العام وناهيك بفضل المطابع وتسهيلها وسائل نشر العلم واختيار الحروف الجميلة والورق الجيد ونعمة كل هذه النعم فى تقريب العلم ونفع بنى الانسان بها

وتقييد المسائل الهامة التى يعثر عليها عادة فى تضاعيف المطالعة ونرى ثم حاجة الى مراجعتها حيناً ما أمر ضرورى للانسان وقد ورد فضل تقييد العلم والحث عليه من قديم الزمان فاذا قرأت عبارة وطالعتها بتمعن وأعجبك أو أهمك ما فيها فاحرص على تقييدها في كراسة خصوصية بشكل يناسب ذوقك أو علم عليها فى موضعها من الصحيفة التى أمامك من الكتاب بالقلم الرصاص اذا كان ملكك وخذ بذلك ملحوظة عندك فى دفتر مخصوص لان الانسان كما قيل محل النسيان وكثيراً ما نحتاج فى الحياة الى أشياء ومعلومات كنا طالعناها وفهمناها جيداً ولكن ذهابها عن فكرنا أحرمنا ثمرتها عند ما تطرأ ثانية على البال أو يحتاج اليها ولانه بذلك أيضاً يتكون للانسان «دائرة معارف خصوصية» تكون له نعم العون فى الحياة

ولترتيب الاشغال بالمسائل العقلية من المطالعة والتفكه بها ونحو ذلك فى لحظات معينة من وقت الانسان دخل كبير في التأثير الحسن على حياته العلمية وراحته العقلية فلا بد من مراعاة هذا التنظيم والترتيب ثم الاخذ في المطالعة والمدارسة بالقصد والاعتدال قال بعض الحكماء «ان لهذه القلوب تنافراً

كتنافر الوحش فتألفوها بالاقتصاد فى التعليم والتوسط فى التقديم لتحسن طاعتها ويدوم نشاطها، ولان فى الحياة اعمالا أخرى هامة وأفكارا كثيرة يشتغل بها تعارض الخاطر وتذهل الذهن عن تصور المعنى فاذا لم يراع هذا الترتيب وذلك التفرغ والتنقل حصل التشويش والارتباك وفقد الانسان فى الحقيقة الثمرة المقصودة من اقتناص الشوارد العلمية هذا فيما يخص رجل الهيئة الاجتماعية وانسان العالم العملى . اما تلميذ المدرسة وطالب العلم المنقطع له فله نظامات اخرى قد أحسنت فى ترتيبها المدارس الحديثة على درجات متفاوتة بحسب استعداد الطلبة وقابليات أعمارهم

وانه وان يكن هناك التفات عظيم من جماعة العلماء وأرباب الاقلام والآراء فى اختيار النافع المفيد وانتقاء الجيد الجميل فى هذا العصر واطراح ما عداه بحسب ما ترمي اليه أذواق الهيآت الاجتماعية المتمدنة ويميل اليه الرأى العام عادة فيها غير أنه يجب على المرء ان يعتمد على نفسه ويختار ما تحسن مطالعته وتعم فائدته لان كثيرا من الآراء العاطلة والامور الضارة قد تدس فى الدسم من أصحاب الاهواء والاغراض الاجتماعية

المخالفة للحق تبعا لضرورة قاعدة حرية الافكار كذلك تطوحات بعض قدماء المؤلفين وتغافل جماعة أصحاب المطابع والمكاتب عما يجب اختياره وانتقاؤه من الاحسن والاصلح للنشر من الكتب والاسفار القديمة أو الحديثة واطراح ما فى نشره الاضرار البليغة بنفوس الامة وعقولها طمعا فى الكسب وحب الربح . لهذا كله يجب على المرء العاقل الراغب في العلم الصحيح أن يستخدم الذوق العصرى السليم وينتقى لمطالعاته الكتب العلمية والادبية والدينية المجمع على أفضليتها وصحتها وعدم تعقيدها وتقييدها من قديمة وحديثة والجرائد والمجلات المشتهرة بصحة أخبارها وآرائها وحسن خدمة الجمهور واختيار المواضيع المفيدة وأشهى المباحث العصرية النافعة من سياسية وعلمية وأدبية وفكاهية ثم القصص والروايات والقطع التشخيصية الحسنة السبك والفكر وحضور تمثيلها على المراسح بواسطة جماعات المشخصين المجيدين المتقنين لفن التمثيل واخيراً مطالعة دواوين مشاهير الشعراء من المتقدمين والمتأخرين الجامعة الحافلة بالخيال الجيد والمعانى السامية العصرية والالفاظ العذبة السلسة أما ما عدا ذلك من الكتب العقيمة والمطبوعات المشحونة

بالخرافات والتعقيدات أو الآراء الباطلة أو السخف والمجون فيجب القضاء عليها أدبياً بالاعراض عنها وعدم الالتفات اليها وتضييع الوقت الثمين فى مطالعتها

وآخر الآفات المعوقة في سبيل العلم والاستفادة منه بعد أن يحسن الانسان فهمه وتصوره هو أن لا يعمل ولا ينتفع بما يجب أن يعمل وينتفع به منه فهذه الخصلة الذميمة شر على المرء من كل خصلة تقعد بهمته فى طريق العلم والمعرفة لان تحسين العمل هو المقصود بالذات والعلوم والمعارف المبنية عليها على انواعها واسطة وآلة عظيمة لذلك لاسيما في هذا العصر فكيف نحسن استيعاب الوسائط ثم لا نحفل بالغايات وقد قيل « ثمرة العلوم العمل بالمعلوم » وقيل « لا ينتفع بعلمه من ترك العمل به » ناهيك أن الحياة العصرية مبنية فى كل شؤونها واشيائها تقريباً على المبادىء العلمية من طبيعية وكيماوية ورياضية وأدبية مؤسسة على أصولها فلا صناعة ولا زراعة ولا تجارة ولا سياسة ولا شيء من أشياء العصر الا وهو مرتبط بتلك الاصول فى أصوله وفروعه فكيف نقف في تطبيقاتنا على ما حصلناه فى المدرسة أوجرت به العوائد المتبعه والسذاجات العلمية الاولى

فقط ولا نستفيد ونعمل بتجارب العلماء الاخيرة وخبرة الحكماء العظيمة مما نعثر عليه في تضاعيف مطالعاتنا وهو المنقول الينا موطأ مهيأ على أسهل سبيل وبأيسر مؤونة بواسطة الكتب والاسفار أو الصحف الدورية أولا فأولا؟ لا ريب أن مضيع وقته في التلذذ بالمطالعة واستيعاب ما في ثنياتها من الفوائد والشوارد العلمية بلا استفادة منها فيما يتعلق بعمله الذاتي وشأنه الخصوصي مضيع لقوى عقله وفكره سدى وقد قيل قديماً «من تمام العلم استعماله ومن استعمله لم يخل من رشاد ولم يقصر عن مراده»

على ان المتأمل في قوة انتشار العلوم والمعارف في هذا العصر بين أفراد الامم المتمدنة والشعوب الآخذه بأسباب الرقي الحديث لا يسعه الا الاعتراف بحسن أثر ذلك على وجه العموم مما يرجع فضله الى جودة النظامات السياسية وتفنن زعماء النهضات الحديثة من العلماء قادة الافكار وأرباب الاقلام الذين يضحون نفيس أوقاتهم في خدمة الامم طلباً للنفع أو اكتساب المفخرة والثواب. وليعلم أفراد الهيئات الاجتماعية أن ماينفقونه من يسير المال في سبيل استفادة العلوم والمعارف ومداومة تغذية العقول والارواح بهما بتخصيص شيء من نفيس الوقت

للمطالعة والتحصيل على قدر الامكان لايضيع عليهم سدى ولا هو بالذاهب على غير فائدة بل هو بالتحقيق من أجل وأعظم رؤس المال التى تضاف الى نا حيتهم وليت شعري من منا لا يرغب فى ان تكثر رؤس امواله العقلية وهى لدينا أنفس وأعز من رؤس المال المادية التي لولا ذلك الحارس الامين والمستشار الناصح من العقل والعلم والأدب لقل نماؤها وضاعت ثمارها وما أحسن ما قال الامام على كرم الله وجهه فى فضل العلم على المال « العلم خير من المال العلم يحرسك وانت تحرس المال . المال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الانفاق ... »

٢



الحياة العائلية

واذا كان العلم أول منازل السعادة البشرية فأحر ببيت الانسان أن يكون ثانى ربوعها ولا يلزم من هذا أن يسكن المرء قصراً شامخاً عالى الذرى مزخرف الاطراف والحواشي مطرز الداخل بأنواع الطلاء اللماع والنقوش الجميلة مفروشة غرفه وبهواته بالطنافس وأنواع الرياش الجميلة والفرش الوثيرة مضاء

فى النهاية بالنور الكهربائى على أشكال بديعة وألوان تأخذ
بالالباب. كلا ثم كلا. فان السعادة العائلية ربما قد لاتأوى أمثال
هذه الصروح العالية والربوع الفخيمة لاعتبارات أخرى من
أهمها عادة زيادة الترف وغلبة البطر والاشر وانما الذى يجب هو
أن يأوى الانسان «بيتاً نظيفاً» طلق الهواء مفروشاً بالبسيط
المتين من الاثاث والفرش النظيفة وما عدا هذا فليس في الحقيقة
بشروط لسعادة الانسان البيتية وانما المشروط بل أهم المشروط
هو أن يعاشر المرء فيه «عائلة» تناسب أذواقها أذواقه وتماثل
أمياله أميالها لتتم له أسباب الهناء والراحة بالذي يكون فى بيته
من الألفة والمودة والتعاطف والتحابب بين أفراد أهله وناسه

وأسباب الالفة والمحبة في العائلات أمر طبيعى بالنظر
لصلات القربة وأواصر النسب والمصاهرات عادة فان كان
أفراد عائلة متمكنين من التربية الحقة متشربة نفوسهم مبادئها
الصحيحة من دينية واجتماعية ظهرت نفحات ذلك فى صلاتهم
بالاستقامة وأداء كل الحقوق والواجبات العائلية كأنهم قطع
الالة المركبة تؤدى كل منها وظيفتها بالدقة والارتياح وأن كانو
على العكس من ذلك بعدت عليهم شقة تلك الالفة والسعادة

وكثرت بينهم اسباب الشحناء والقطيعة وعقوق الاولاد الى أشباه ذلك من أنواع التقاطع والتدابر المذمومة

وأس السعادة فى العائلات « المرأة المدبرة » ربة البيت فان كانت رشيدة عاقلة حسنة التربية نالت تلك العائلة على يدها أسباب الراحة وحسن العيش وكل أنواع الغبطة والهناء واستراح رب العائلة وأفرادها من كثير من العناء وفازوا بحسن ادارتها وعنايتها كل بما يخصه من أنواع السعادة البيتية والراحة المنزلية فالاولاد تصلح أحوالهم وتحسن تربيتهم وصاحب الدار يستريح باله ويهنأ عيشه وتتوفر عليه أرزاقه

وتدبير المنزل كما لايخفى مماهو من وظيفة النساء العظيمة في هذا الوجود الدنيوى باب واسع وفن عملى عظيم ينبغى على الفتاة العاقلة والمرأة الرشيدة الحازمة أن تنتبه له وتدرسه بالقدوة الحسنة والعمل الصالح خصوصاً الذى كان للنساء الفاضلات قديماً وحديثاً ممن اشتهرن بفضلهن وآدابهن وحسن تدبير منازلهن وادارة شؤون دور أزواجهن فقد كان نساء النبي صلى الله عليه وسلم ونساء أصحابه رضي الله عنهم وغيرهن كثيرات من فاضلات النساء فى الامم يعملن فى بيوتهن وبحسن خدمة أزواجهن

ويسعين في تربية عيالهن بأنواع التربية كأحسن ما يكون في حال من وسائط التمدن وأسباب الراحة فى العيش ما كان أشقها وأصعبها على النفوس عما هى عليه حالتنا الراهنة من دواعي الراحة فى الاعمال والتيسير في الاشغال البيتية فكن مع ذلك يؤدين أعمالهن ويباشرن مهامهن بكل ارتياح وسرور لعلمهن بمقدار مافى رقابهن من هذه الواجبات العائلية وان كان الشارع لم يلزمهن بالكثير من تلكم الاعمال .

ومن هنا يتبين لمتحرى خير نفسه ضرورة اختيار «الزوجة» ممن تعهد فيهن التربية البيتية الصحيحة وفن تدبير المنزل العملى خصوصاً جاعلا «الجمال» أو «الغنى» فى الدرجة الثانية من التفاته ورغبته لا سيما وان «الجمال البارع» يكون عادة كثير «الدلال» والاعجاب بنفسه فهو لا يلتفت بالاكثر الا الى زيادة تحسين ذاته وتزيين نفسه فضلا عما يتبعه غالباً ولو الى حين من صبابة الزوج وفرط افتتانه به أو بلوى «الغيرة» وخوف المنازعة عليه وكلها مذمومة شاغلة للبال متعبة للخواطر وهذا القول لا ينفى أفضلية اختيار الزوجة الحسنة الصورة الجيدة الصحة خصوصاً وقد قيل «حسن الصورة أول السعادة» وقد جاء الحث عليه

فى السنة كما جاء الحث على تطلب ذات الدين وذات الحسب لكن شتان بين الفتاة الحسنة الصورة الجيدة الصحة على وجه العموم وبين تلك الفتاة الفتانة «البارعة الجمال» الصائدة للقلوب بسهام لحاظها ورشيق قوامها وفرط دلالها

أما الغنى فله في الغالب أيضاً معائب وآفات مؤثرة على أحوال الزوج بما قد تنتحله الزوجة الغنية عادة من الرئاسة الباطلة والزعامة الفاسدة ومحبة طأطأة الهام امام ارادتها ورغائبها غير المتناهية مما يجر المرء — والمرء كما قيل على دين زوجته — الى التطوح والميل الى الترف والاسراف والتبذير وكلها كما لا يخفى أمور مؤدية الى ضد سعادة الانسان فى بيته وكل شؤونه ولقد كره السلف الصالح النكاح طمعاً فى المال لاعتباره قلة مروءة من الرجل

واذا كان ليس من عيب فى العادة أن تتزوج المرأة بالرجل الاقل منها مقاما فليس من عار كذلك على المرء العاقل أن يتزوج بالفتاة الاقل منه كفاءة فى الرفعة والثروة والعلم ما دامت مهذبة جامعة لمبادىء التربية العامة المشروطة فى أصول فن تدبير المنزل العملية المتبعة فى مجتمعه وليس من الضرورى أن تكون الزوجة

متعلمة العلوم الكثيرة بما قد يخرج بها عن حد وظيفتها الطبيعية أو يسلبها اياها فان كثيرات العلم قليلات العمل البيتى وهى قاعدة قد بانت شواهدها بكثرة فى النساء العالمات فى أمريكا وأوروبا وترفعهن حتى عن الزواج نفسه فضلا عن التنازل أو التدانى الى ادارة المنازل ادارة نسائية على أنا نحمد الله تعالى على أن ليس في نسائنا أو فتياتنا من قد تتوق نفسها الى بلوغ هذا الشأو العالى وركوب ذلك المركب الصعب الخشن الا فيما لا بد منه من الطبيبات والمعلمات الخ

وأحسن ما يكون فى الزواج - وهو أس السعادة العائلية والراحة والهناء النفسى أن لا يفتتح بما قد يناقضها على خط مستقيم من الاسراف والتبذير من حيث ما قد يتكلف له الطرفان عندنا عادة عندنا من النفقات الباهظة غير المشكورة فالصداق يحمد ان يتوسط فيه وقد جاء فى السنة والأثر النهي عن المغالاة فى المهر واثاث البيت (الجهاز أو الشوار) وما فى معنى ذلك من الهدايا يلزم ان يقتصر فيها ويختصر على الشيء المعتدل المناسب للذوق السليم بلا اجهاض للنفس ولا تحميلها فوق مقدورها من النفقة والمصرف . وحفلة العرس أو وليمته

يجدر أن تكون معتدلة كذلك غير متوسع فيها ولا متكلف لها بما فوق الطاق ولا هو بالمشكور المحمود مع ذلك عند جمهور العقلاء والشبان الالباء أصحاب الاذواق العصرية

والتودد والتحبب بالادب وحسن الخلق فى المعاشرة والمداعبة بين الزوجين أمر ضرورى لايجاد المحبة والألفة الصحيحة المثمرة للسعادة العائلية اذ أن سوء الخلق أو الغلظة والفظاظة في المعاملة عند الزوج او الزوجة مسبب للانقباض والنفرة ومدعاة اخيراً للكراهية وقد اوصى الشارع الحكيم صلى الله عليه وسلم بالنساء وحسن معاملتهن وكف الاذى عنهن فكما يجب على الزوجة حسن الطاعة وتمام الانقياد لرغائب الزوج العادلة وادارة شؤون منزله بالجد والعزيمة الخالصة وعدم الخروج الى «الاسواق» لغير ضرورة مع مراعاة الحشمة وكمال الادب الموفر لها في النفوس خصوصا من حيث عدم ابداء الزينة يجب على الزوج كذلك ان يحمل ويصفح عن بعض ما يفرط منها عادة من الزلات والسقطات البيتية البسيطة والغضب النسائي غير الطويل اجتنابا لاسباب الشحناء واجتلابا لانواع المودة واستصفاء القلوب بالمحبة وانما يجب على كل حال ان يراعى فى كل

شؤونه الاعتدال والتوسط ثم لا يسرف في النفقة الخصوصية عليها الى حد يفسد عليهما حاليهما جميعاً ولا «يتبهظ» بالكلية معها الى مايسقط هيبته ووقاره من نفسها ويوجب ترفعها عليه بما قد يخرج عن حد ما يعبر منه بسقوط التكليف بين الزوجين المبنى على المحبة الحقيقية والاخلاص المتبادل بين الطرفين بالاحترام والاحتشام

ومن اهم موجبات السعادة العائليه حرص المرء العاقل على تربية اولاده وفلذات اكباده فتيانا كانوا ام فتيات منذ عهد الصغر وزمن حداثة السن والمبادرة مع ذلك بارسالهم الى المدارس او المكاتب المناسبه لحاله حين يبلغون سن الدراسة لان ذلك كله من الاهمية بمكان لا ينكره منكر خصوصا فى هذا العصر فهوكما يسعد العائلات فى ذراريها بالمستقبل السعيد والعيش الرغيد ينيل الهيئة الاجتماعيه الطبقات المتعلمه المهذبة من الرجال والنساء التى عليها يتوقف رقى الاحوال وانتظام سير كل الاعمال الدنيوية والاقوال فى فضائل هذا الباب من قديمة وحديثه اكثر من ان تحصى وفى الحديث الشريف تلك الحكمة العاليه « ما نحل والد ولده نحلة افضل من ادب حسن يفيده

اياه او جهل قبيح يكفه عنه ويمنعه منه »

وكما ان السعادة البيتيه غير متوقفة على عظمة المسكن وفخامة الاثاث والرياش فهي كذلك ليست بالمحمولة على كثرة الترف فى المأكل والملبس خصوصاً من حيث تطوح النفس في محبة «الازياء» ورغبتها فى التحلى بالحلى الكثيرة بل ان مطاوعة النفس ومطاولتها بهذا الصدد طالما جرتا الى التلف والضرر البليغ فالتوسط والاعتدال في تدبير هذين الامرين العظيمين من امور الحياة ضروري جدا صحيا وماليا بشرط ان يراعى الانسان فيهما مع البساطة الجودة والنظافة والذوق السليم بحسب عادة عصره وشيمة مصره وقدر حاله . فالاعتدال فى الطعام يكون بان يعطى الانسان نفسه مشتهاها من الالوان والاشياء الملذة والانواع الشهية المباحة التى اعتادها بالتوسط بان لا يملأ معدته ويحملها من الطعام فوق طاقتها وقد قيل « اكبر الدواء تقدير الغذاء » و « رب اكله هاضت آكلا واحرمته ما كل . وفى الحديث او الاثر المشهور « المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء » وهنا نصيحة اخرى ثمينة وهى من حيث ترتيب اوقات الطعام فلا يأكل الانسان حتى يجوع واذا

أكل فليجد المضغ ولا يزدرد الطعام ازدراداً كما تصنع بعض الطيور أو كما اشتهر عن بعض العمال الامريكيين من سرعة تناولهم للطعام بلا كبير مضغ فان هذه الخصلة مضرة جداً بالصحة وموجبة لعسر الهضم واهاضة كثير من الامراض كما ان كثرة التأنى في تناول الطعام لتلك الدرجة العظيمة التى يستعملها بعض الاوروبيين خصوصاً في الولائم غير مستحسنة بل هى قد تذهب بحسن الشهية والتلذذ بالطعام وتفسد الهضم ايضاً

واحسن الملبوس ما روعى فيه جودة الصنف والبساطة الذوقية وشروط الصحة بأن يلبس المرء لكل حال من القر والحر لبوسها أما التأنق في الازياء والافراط بالتغالى فيها فمذموم منتقد حتى قيل قديما «العرى الفادح خير من الزى الفاضح» فليكن المرء في ملبسه معتدلا متوسطا لا بالمقال المحقر ولا بالخارج عن حده فيه قال الامام عمر بن الخطاب رضي الله عنه «اياكم لبستين لبسة مشهورة ولبسة محقورة» وقال بعض الحكماء «البس من الثياب ما لا يزدريك فيه العظماء ولا يعيبه عليك الحكماء» وما يستحسن من التوسط في اللباس قد يستحسن أيضا فى زينة الحلى وأنواع المصاغ والتختم عند النساء على الخصوص فان ما

روعى فيه اللطف والذوق السليم منها مضافا الى حلية ذلك الجمال الطبيعى النسائي خير وأفضل بكثير مما قد يعكس الحال من كثرة الحلى ويشوه تلك المحاسن غالبا

وهنا كلمة أخرى جر اليها ماتقدم وهى مسئلة « الاصباغ والدهانات » وما أشبه من العطورات غير المشكورة فهذه أيضا تذم في الكثير منها وتضر بصحة الابدان بالتحقيق كذلك ويفضلها كثيراً مراعاة النظافة ــ والنظافة من الايمان فى الوجه واليدين والشعر والثياب والعطر الذى لا بأس به وقد جاء فى السنة ما يؤمى الى ذلك فيجب الاكتفاء بما اعتيد عليه من العناية بغسل الوجه والايدى والاستحمام بالماء والصابون النقي الخالى من المواد المضرة وتعهد الشعر الشعث بالتمشيط والتنظيف والتضفير ثم استعمال العطر غير الضار فان هذا كله مضافا الى استنشاق الهواء النقى ذلك الغذاء الذى لا يثمن بالتعود على فتح الكوى والمنافذ صيفا وشتاء ولو فى أوقات معينة من النهار ثم استعمال الرياضة الخلوية أو البحرية أحيانا بحسب الوسط الذي نقيم فيه قد لا يعدل مزاياه العظيمة في حفظ الصحة والجمال باضافة ما تقدم في المأكول والملبوس ومراعاة الذوق

السليم فى الحلى وزينتها كل أنواع الاصباغ والطلاوات الكاذبة التى يبيعها أحسن العطارين مجتمعة . ولا يصعبن قولى هذا على قارئات المؤيد الاغر اذ هو الحق « والحق أولى بالاتباع »

ومن أحسن ما يؤثر فى سعادة العائلات وتمتعها بلذة الحياة وطيب العيش فى الهيئة مراعاة الآداب الجميلة في الزيارات والضيافات العائلية وحسن السمر وطيب الحديث العائلى الذى يمازج النفوس ويخالط الارواح بعذوبة الالفاظ ودقة المعانى وحسن الأثر فى الاذهان وتفكهة العقول وجودة التأثير والتعليق خصوصا فى تربية الاطفال. ولله ما احلى تمضية أوقات الفراغ بالتنقل في لطائف الاحاديث واطايب الكلام فى العائلة وتخليل ذلك اذا كان هناك عادة بشيء من فن الموسيقى أو الالعاب الرياضية البيتيه لا سيما في الساعات الاولى من الليل تختم به أعمال النهار وتزود به ساعات النوم وراحة الابدان



﴿ الرياضة البدنية ﴾

ومما ينبغي ان ينخرط في سلك هذا النمط من السعادة الانسانية اوهو احسن ما يعقب به عليه في جملة منفردة لعظم شأنه وخطارة امره مسئلة الاهتمام بصحة الابدان وتقوية الاجسام بالرياضة المعتدلة والتمرين العضلي غير الشديد ثم مداومة استنشاق الهواء الجيد خصوصاً لذوى الاعمال العقلية والمهن التى قد يكثر فيها الجلوس وقلة الحركه وقد مضى القول آنفاً فيما يتعلق بالنساء بهذا الصدد اما اولئك الرجال والشبان الذين يعملون ويشتغلون في مجمل ساعات النهار بالاشغال الدقيقة والاعمال العقلية المتنوعة فلا بد لهم من ارداف تلك الساعات العلمية بسويعات اخرى في الرياضة وتنزيه الخواطر طلباً للقوة وتجديداً للنشاط الحيوى وتعويضاً على الاعصاب وسائر البدن مافقدا وانحل منهما من العناصر الرئيسة

واجمل وأعم مايتروض به بحسب العادة المألوفة من قديم الزمان لاهل المدن خصوصا «الخروج الى الخلاء» ومشاهدة

خضرتها ونضرتها الجميلة واستنشاق نسماتها العليلة البليلة صباحا ومساء سواء سعيا على الاقدام بالمقدار المناسب او بامتطاء صهوات الخيل وركوب العربات والدراجات والسيارات الى غير ذلك مما هو واقع به العادة والمألوف وان كان المشي على الاقدام في الرياضة افضل من الركوب غير ان ركوب الخيل فيه ايضاً للقادر عليه لذة كبيرة وفائدة صحية جليلة قد لا تعد لها تلك الراحة فى ركوب العربات ذات العجلات «المكوشكة» والفرش الوثير. ومن الغريب ان كثيراً من الشبان الاقوياء عندنا يزاحمون النساء والكهول غير القادرين فى ركوب العربات فى النزهة والرياضة ولا يقتدون بالكثير من الانكليز وغيرهم من الاوروبيين حتى النساء منهم فى امتطاء الخيول المطهمة وتعلم لعبة «الكرة والصولجان» تلك اللعبه او الرياضة الجميلة التى كان لها شأن كبير عندنا فى الشرق قديماً فانها من انخر وافيد الالعاب التى يتروض ويتلهى بها على متون الخيل وظهورها ومحاسن سباقاتها التى لم تزل لها بقية شهرة عندنا فى الاقاليم بل هى نفضل بعضها بقلة خطرها ورقة جانبها

وركوب البحر والانهار فى القوارب الصغيرة والتجذيف

عليها بالمجاذيف بالقرب من الشواطئ من أثمن انواع الرياضة والنزهة التي تسر الخواطر وتشرح الصدور وتنمي قوى البدن وهذا ايضاً قد امتاز فيه الغربيون علينا كثيراً مع ان اجدادنا من سكان وادي النيل الى عهد غير بعيد كان لهم شغف وغرام بالتنزه على متن هذا النهر في المراكب والقوارب اما الآن فنهاية ما في الامر ان الواحد من سراتنا واغنيائنا اذا امضى بضعة ايام في (ذهبية) على متن النيل ايام الصيف كان شأنه ايقافها بقرب الشاطئ والاكتفاء من انواع اللهو فيها بالاكثار من الاكل والشرب وسماع الاغاني والنوم بلا حركه ولا رياضه مع ان في هذا ضرراً كبيراً على الصحه من وجه ثان كما قرره الاطباء .

ومما امتاز به الغربيون عنا ايضاً وهو من اجود ما يتروض به احيانا تعلم (السباحة) فانها فضلا عن نفعها عند الضرورة قد تفيد الانسان كثيراً في صحة جسمه وانعاش بدنه وقد جاء الحث عليها في الحديث الشريف «علموا اولادكم السباحة والرماية» على ان افضلها ما كان في البحر الملح وحماماته الخصوصيه المستوفية لشروط النظافة والوقاية

ولعب «السيف» على حسب الطريقة الحديثة ومافي معناها من لعبة «النبوت» البلدى القديمة فى الريف من أفيد أنواع الرياضات البدنية لابناء الشبيبة هناك خصوصاً . وكذا لعب «البلياردو» ثم لعب الكرة سواء بالايدى او بالقدم من اجل تلك التمرينات للاعضاء وتقوية الاجسام . ولقد احسنت مدارسنا في جعل لعب الكرة من اهم واكثر رياضات تلامذتها وان كان يجب على هؤلاء أن يعتدلوا فيها عند اللعب منعاً لكثير من حوادث الاصابات التى قد تحدث لبعضهم من فرط تغالبهم وتصلبهم لاحراز النصر على الاقران.

ومن أعظم مايتروض به «الصيد» صيد البر والبحر فانه لغير متخذه مرتزقاً ومهنة من أفضل الملاهى وأنفعها للابدان ولقد كان للقدماء من أهل الاسلام والجاهلية رغبة زائدة به خصوصاً الملوك والسلاطين واقتدى الغربيون بالقدماء في ذلك فلاملك ولا أمير ولا وزير ولا خطير بل ولا أحد من كل الطبقات العالية والمتوسطة فى أوروبا الا وهو يحسن الصيد ويميل اليه ويلهو به في أيام البطالة والفراغ وهم يتنافسون فى ذلك وكثير منهم يربون له كما كان يصنع القدماء عندنا الجوارح من الكلاب

والشواهين ويتقنون له فن الرماية بالاسلحة النارية . ثم ولاهل البلاد البحرية أو النهرية شغف زائد بالتروض والتلهى بصيد الاسماك بواسطة الشص والصنارة والنزهة في البحار والانهار في القوارب والمراكب الصغيرة لاجل التلذذ بتلك الرياضة الجميلة والغاية الحسنة

ونحن وان كانت بلادنا المصرية ليس فيها من انواع الصيد البرى مايستحق أمثال تلك العناية الكبيرة الا انه لايلزم من ذلك ان لا نجعل هذه الرياضة واللهو المشكور من احسن وأجمل ما نتسلى به كثيرنا أحيانا أما صيد البحر فلا عذر لشباننا خصوصا فى القعود بالمرة عن هذه الرياضة واللهو الصحي الجميل والنيل على الابواب وفروعه فى كل صوب والبحر الملح لدى سكان ثغورنا قاب قوسين أو أدنى .

ومن أظرف وأجمل ما يتسلى به ويتروض تربية الازهار ولاهل الغرب عناية بشأنها ووقايتها فى الاصص الجميلة والمخابىء المعدة للتدفئة سواء فى البساتين او في البيوت قد تفوق حد الوصف وقد صار منها ومن زراعة الخضر والاثمار هناك موارد ارباح طائلة كما اشار اليه جناب اللورد كرومر فى تقريره

(عن سنة ١٩٠٤) الاخير عن مصر والسودان ونصح للمصريين بالاكثار من زراعة تلك الاصناف لانها بحكم الحال كما هناك قد صارت بالتحقيق في عداد ما يجب ان يقدر قدره ويعتد به من مواد الزراعة الرابحة والمستغلات العظيمة لتكاثر احتياج البلاد اليها وازدياد مقطوعيتها فيها سنة عن سنة فيجدر باصحاب الاطيان التي تجاور المدن واسواقها العظيمة خصوصا ان يهتموا بزراعة الخضر والازهار والاثمار ولا يتركوا الاوروبيين يستأثرون مثلا بانشاء أمثال تلك الحدائق التى تسمى (الزهريات) فيربحوا منها الارباح العظيمة في فصل الشتاء وموسم السياح خصوصاً ونكتفي نحن باستحسان أعمالهم ومدح نشاطهم .

وأختم هذه الجملة بالتنبيه على ما فى السفر والسياحة من الفوائد الجلى والمزايا العظيمة المجمع عليها قديما وحديثا وقد جاء فى مواطن كثيرة من القرآن المجيد والسنة السمحاء وآثار السلف والمتقدمين الحث على السفر والترغيب في السياحة اذ بذلك يتمكن الانسان من مشاهدة عجائب خلق الله تعالى في البر البحر وغرائب صنائع البشر وآثار تمدن الامم الغابرة والشعوب الحاضرة وتقلبات أحوال الزمان في ابنائه فضلا عما فى ذلك

من تبديل الهواء وتجديد النشاط في القوى البدنيـة والعقل الفعال. وقد يدخل في هذا الباب على أسهل سبيل خصوصا لغير القادر على ابعاد الشقة في السفر والاغتراب زيارة الضواحى القريبة من مدينته والمتاحف التى تحتوى على نفائس كنوز آثار المتقدمين من الاسلاف وصنائعهم وحدائق الحيوانات والاماكن التاريخية الى أشباه ذلك مما يجمع بين لذة الرياضة وعظة النفس وعبرتها وتدريب دقة التأمل والتصور في الانسان على أقرب نهج وبأيسر مؤونة وأقل كلفة .

٤

﴿ الحياة في المهنة وأدب الحرفة ﴾

وبما أنه لا قوام للحياة بأكملها الا على مرتزق الانسان ومادة عيشه فلاجرم كانت سعادته في (مهنته) من أهم مايجب عليه العناية بشأنه وحسن الرعاية له وأول ما يطلب من متحرى هنائه فى كنز حرفته (الاتقان) وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان الله تعالى يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه) وقال أفلاطون هذه الحكمة البليغة (لا تطلب سرعة العمل واطلب

تجويده فان الناس لا يسألون عن مدة العمل وانما يسألون عن جودته) وفى الحقيقة أن اتقان المهنة واستجادة الحرفة وتطلب المزيد فى تحسينها ايجاد للرغبة والشوق اليها فيقبل عليها الاقبال المطلوب فتروج ويسعد صاحبها فيها

وهذا لا يتناول الاعمال الصناعية والحرف اليدوية فقط بل هو عام شامل يتناول كل ماله مساس بالمحترفات البشرية وأسباب المعاش على أنواعها سواء كانت حسية مادية أو ادبية معنوية كما انه في جملته أيضاً يتبع عادة نسبة الحالة العموميه لدرجة الرقى فى المجتمع وقوة الحضارة وحركة الرواج العملية فى الامة لان الناس مالم يستوف العمران الحضرى فى مجتمعهم انما همهم البسيط الساذج من الضرورى الحاجي فاذا زاد تمدنهم وترقيهم واتصالهم بالامم الراقية بواسطة التعامل والمبادلة في السلع وأنواع التجارات احتاجوا الى المزيد فى اتقان وتجويد ما فى أيديهم من الاعمال وثمرات الصنائع التى يتبادلونها بينهم وعلى هذا النمط يزداد العمران وتنمو الثروة الخصوصية والعمومية وتكثر أنواع الكماليات حساً ومعنى

والاتقان وان كان من ملزومات الرقى العام في الامم

اضطراراً الا انه لابد فيه من خلة ذاتية وصفة فردية هى (الاجتهاد) والنشاط الشخصي وعلو الهمة فى الاعمال والا فشل ذلك العامل المقصر المهمل وفاز رجل العمل المجد المجتهد ولقد قيل قديماً (الهمة جناح الحظ) وقال آخر (لاتدور رحي الجد الا بقطب الهمة وقيمة كل امرىء همته) اما الدعة وعدم الاجتهاد والاكتفاء بالوقوف في الاعمال والمهن من زراعية وصناعية وتجارية على ما اعتيد عليه بالتقليد عن الآباء والجدود بدون اكتراث أو التفات الى الاتقان والتحسين فيها وتقدمها فموجب لانحطاطها وعجز صاحبها وتأخره فى النهاية بين الاقران المزاحمين له بالجد والنشاط لان سنة العالم الارتقاء والتقدم فاعتراض هذه السنه بالوقوف أو الجمود وعدم الاهتمام بالتغيير والتجديد المتواصل المحدق بالانسان فى عالم العمل موجب للاضمحلال والضياع فلا بد لطالب السعادة في مهنته أية كانت من (الحنكة) والحركة مراعاة للظروف والاحوال الارتقائية المحدقة به والدور مع الزمان فيها كيفما دار وهذا ولاريب سر عظيم من أسرار ارتقاء تلك الامم النشيطة العاملة وكثرة مخترعاتها الفنية ومبتدعاتها العصرية بالجد والاجتهاد

واذا كان الاتقان هو النتيجة اللازمه للجد والاجتهاد فلا شك انهذين الاخيرين لايفيدان ولا يثمران الا بوجود ملكة اخرى عظيمة وخلة كريمة ثانيه ألا وهي (جودة الفكر) أو (صواب الرأى) الذى يتولد فى القريحة الانسانية ويتربى عادة من قوة تحصيل المعلومات الفنية الخصوصيه أولا ثم تثقيف العقل ومداومة تغذية الفهم بالمعارف العموميه ثانياً فاذا أخذ الانسان بالسبب الاقوى من ذلك قوى عزمه فى عمله وعظم نشاطه واجتهاده وكان مع قوة عزمه متبصراً عارفاً كيف يستصدر الامور ومن أين يردها فى محترفه وعمله وهذه كلها تولد تلك الفكرة العظيمة فكرة أوقوة الاستنباط والاختراع التى ترى ارباب الاعمال والصناعات الحسنات والسيآت وبواسطتها يحصل لهم فيها منتهى الحذق والمهارة البالغة

ولقد مضت لى فى اول هذه الرسالة جمله مستوعبة على قدر الامكان فيما يتعلق بكيفية تثقيف العقول وتغذية الالباب بالعلم الضروري ومداومة ترويض الافهام والقرائح بواسطة المعارف المكتسبة بالمطالعة والاختبار لرجل العالم العملى على جهة العموم غير انه مما يجب ان ينبه عليه هنا ان اهل الجد والنشاط

وذوى الفطن والهمم العالية من أصحاب الفنون وارباب الصنائع والحرف المختلفة لما كان لا ينبغى لهم أن يقتصروا او يكتفوا بتلك (العموميات) فيما يختص بمهنهم ومحترفاتهم الخصوصية بل لا بد لهم مع ذلك من متابعة مايستجد فى ديوان الاختراع والابداع العلمى او الفنى الخصوصي واستلزام الاخذ بالاحسن والعمل بالاجود من ذلك للتقوى ومراعاة الافضل على الدوام محاكاة للطبيعة وقاعدتها فى الانتخاب. لذلك كله نزع أهل كل صناعة وحرفة في الغرب الى الاتحاد والتعاون على أخذ ما يلزم من الاهبة والاستعداد لتنميتها وتحسينها بانشاء الجمعيات والنقابات والشركات لكل صناعة والمجلات والنشرات المختصة بكل فن والاندية الخصوصية لاجتماع أصحاب الحرف المتلائمة بذلك أحييت الصناعة والتجارة والزراعة وتقدمت هناك كثيراً وصار لمتحصلاتها ومستغلاتها القدم الراسخة والقدح المعلى والرواج العظيم فى جميع أسواق العالم مكفولة بجودة النظام مؤيدة معضدة بقوة الدولة بما يفوق حد الوصف اتقاناً وتنافساً بين تلك الامم النشيطة العاملة وتزاحمها فى بقاع الارض مما اضطرت الدول معه الى الاعتراف بذلك المبدأ السياسي التجارى المشهور الذى يسمونه

سياسة (الباب المفتوح)

وانه وان تكن المهارة في المهنة والجد والاجتهاد فيها من شروط نجاح الاعمال والصنائع المختلفة الا أن هناك (أدب المهنة) وان شئت فقل (حسن التلطف والتحايل في الصنعة) يجب أن يجعل أيضاً نصب الاعين حتى تنتظم السعادة وتكمل فيها ولا يجر الحذق الكبير أو الخرق في الشطارة والطمع الى الاضرار بأصحابها من ناحية أخرى وبالغير أيضاً فوضع هذا الادب وبالتالي الرفق والتحايل في الطلب لتعتدل المهن في أشيائها ويستتم نجاح أربابها ؤسساً على أساس اجتماعي متين لا تزعزعه الاهواء ولا تهد ركنه مخاطر الاطماع وطيش السهام بالخرق والجشع

فالمزارع مثلا لا تنجح أعماله باتقان فن الزراعة العملية واستجادة آلاته وحسن خدمة الارض والعناية بتنسيق زرعها وتنظيم ريها واجادة تسبيخها ونقاوة بذارها وتغزير مستغلاتها فقط بل يلزمه أيضاً ان يراعي الرفق بها ولا يثقل عليها بما ينهكها من اصناف المزروعات المضعفة كما انه لا يؤدى به الطمع او (الثقة) في المحصول الى كثرة الاستدانة بلا ضرورة او تقديم او تأخير بيع محصولاته حباً بقبض المال معجلا او طمعا في

المكسب الكبير بتأجيل البيع وتأخيره مع سنوح الفرص مثلا انتظاراً لارتفاع السوق مع ان السوق يقبض على اعنته في بقاع الارض الآن تجار ماهرون يعرفون كيف يديرون دفته بما يوافق مصالحهم بالرغم عن مهارة (النقابات) الزراعية واجتهاد دواوين الزراعة التي تعمل لصالح المزارعين والزراعة من كل وجه فيجب على المزارع الحازم أن يتنبه لذلك كله من ذاته ليسعد في زراعته وترسخ حاله على أساس ثابت غير متزعزع بالطمع أو المجازفة والخرق فى العمل وهو ما يسمى له بالجد فى مصر الآن رجال الاصلاح وينصح به جناب اللورد كرومر المصريين بما يجب علينا العمل به واسداء جنابه عليه الشكر الجميل

وصاحب الاعمال الجسيمة والمشروعات الكبيرة من المقاولين ونحوهم لا يفلح فى عمله بالاقدام والاتقان وعظم رؤس المال فقط بل لا بد له من حسن الاختيار ومراعاة الظروف والمناسبات وعدم المزاحمة فيما لا يرجى منه الارباح المناسبة لكثرة المزاحمين أو تفاهة الرغبة فى العمل في المجتمع مثلا ثم استخدام حسن الادب ولين الجانب مع كل المعاملين والعمال واستعمال الصدق والامانة واداء كل الحقوق والاجور بلا مطل ولا تأخير

والتاجر قد لا تروج له بضاعة جيدة كانت أو مزجاة ويقبل لطفه ورقته المشهورة وتكبر سمعته في الهيئة الا اذا صدق في المعاملة وساوى فى البيع بين جميع العملاء فلم يبع بثمنين ولم يكل بمكيالين فان استغفال بعض الزبائن السهلين ومحاباة البعض من المتشددين خسران مبين ربما جر الى فقد الثقة والاشتهار «بالغش» مثلا ويالها من مضرة قد تعود على التاجر بالبوار والكساد وان بلغت يقظته ونشاطه الدرجة العليا وكانت بضائعه من جودة الصنف ودقة الصنع بالمكانة السامية

والطبيب لا يفلح في صناعته بمهارته وحذقه فى فن الطب فقط بل يجب عليه مع ذلك مراعاة ما يسمونه « بادب الطبيب من الاستقامة وطهارة الذمة والعفة وكتم الاسرار واستخدام الرقة واللطف مع المرضي

والمحامي لا ينجح بقوة العارضة وذلاقة اللسان وسعة المادة القانونية فقط بل سبيله فى النجاح كسبيل الطبيب من حيث لزوم اكتساب ثقة الناس بالاستقامة والنزاهة اذ ائتمان الناس له فى حقوقهم وأموالهم وكل قضاياهم ليس باقل أهمية عندهم من اطمئنانهم الى الطبيب في أبدانهم وأرواحهم كتب

بعض المحامين الافاضل منذ شهر تقريباً مقالة في المقطم الاغر فى نجاح المحامى واعتقاد الجمهور في المحاماة جاء فيها هذه الجملة «انى وجدت فى السنين التى قضيتها فى مزاولة هذه الصناعة الشريفة أن الاستقامة والنزاهة وان عاقتا تقدم المحامى فى الشهرة فى البداية فلا تلبثا ان ترفعاه الى منزلة سامية لم يكن ليبلغها لولاهما»

وقس على ما تقدم سائر المهن والحرف البشرية من يدوية وعقلية فان لها فى الحقيقة شروط آداب وشؤون تحايل دقيقة لا بد من مراعاتها مع الاتقان والاجتهاد وتوفر المادة ليتم نجحها وتنفق ويسعد أصحابها بواسطتها بالجد والسكينة فى الالتماس وقد جاء من أفلاطون هذه الحكمة الثمينة قال «ينبغى للعاقل أن يستعمل فيما يلتمسه الرفق ومجانبة الهذر فان العلقة بهدوها تلحق من الدم ما لا تلحقه البعوضة باضطرابها وفرط صياحها»

وكما ان تلك الآداب يجب ان تراعي بين اصحاب المهن المختلفة ومعامليهم فان هناك تلك الآداب العظيمة بين أصحاب الصنائع والمحترفات المتنوعة وبعضهم. كأن يحترم الاصاغر منهم الاكابر من أصحاب المعامل والمصانع لكسب ثقتهم ومحبتهم فيؤدون أعمالهم معهم بالامانة والاستقامة وعدم القيام في وجوههم

بالاضراب عن العمل والاعتصاب عن الشغل الا بالوجه الحق وعند مسيس الحاجة من الظلم البين. وكأن يبذل الاكابر جهدهم في مرضاة من تحت سيطرتهم من أصاغر العمال والسعى معهم في ترقيـة أحوالهم وتنظيم معايشهم اكتساباً لثقتهم ومحمدتهم ورضي خواطرهم لتنتظم بواسطتهم الاعمال وتستقيم للمجموع الاحوال .

والمزاحمة والمنافسة وان كانتا فى صالح الهيئة الاجتماعية فى الحقيقة ولولاهما لكان (الرخص فى الاسعار) بضميمة الاعتبارات الاخرى له اسما بلا مسمى الا أن هذه المزاحمة يجب ان تراعى بالدقة ولا يتطوح فيها وينفدع الى درجة الشطط وجلب الخطر وبالتالى جر الخسارة فى الاعمال وفقدان الارباح وللسلامة من مخاطر هذا الحال التجىء الى مبدأ الاتحاد والتشارك بين المتزاحمين من أرباب الحرف المتحدة النوع وأنشئت لها النقابات والشركات المختلفة الاجناس والاشكال فكان منها قوة لارباب الاعمال والاموال وفوائد ثمينة القيمة للهيئة الاجتماعية بما قد لا يقدر على منافستها ومزاحمتها فيه الافراد من أرباب هاتيك الصنائع والحرف بعينها مستقلين مهما كبرت هممهم

وعظمت رؤس أموالهم وكيف يمكن ان يضارع عمل العقل الواحد مفعول تلك الآلة المركبة من عدة عقول فى الشركات والنقابات من صناعية وزراعية وتجارية ؟

٥

﴿ الحياة الادبية في الهيئة الاجتماعيه ﴾

ولما كانت حياة الانسان العملية غير منحصرة فى العائلة والمهنة بل هناك بازاء المرء الهيئة الاجتماعية التى يعيش في كنفها وعموم العالم الانسانى الذى هو أحد أفراده لذلك كان أمامه فى سعادة الحياة واجبات أخرى وشروط عظيمة يلزمه ان يمسك بها نفسه لتسعد وتغبط من ناحية ثانية أو قد لا تتم سعادته فى نفسه وبيته ومهنته الا بها لان الانسان لما كان (مدنيا بالطبع) لذلك ارتبط بروابط اجتماعية وطبيعية عامة مع بنى جنسه وهيئته الاجتماعية لزمه مراعتها مستعينا فى ذلك (بالادب) لقمع شرور اعدى أعدائه من نفسه التى بين جنبيه والافسد عليه حاله الخصوصي وحوسب فيا كثره وهذه الروابط هى وازع الشرائع ووازع الادب وكلاهما لازم فى سعادة البشر وحسن

سير أعمالهم وانتظام جميع احوالهم

ولا شأن لي بالبحث والتكلم في وازع الشرائع المختلفة ونظاماتها المتباينة بين قديمة وحديثة وسماوية وأرضية وانما قولي هنا قاصر على وازع الادب فيما يتعلق خصوصا بما يسمى بالادب السلبي أي ما يختص بتلك الرذائل الشائنة التي تعلق بنفس الانسان او تقوى فيه خصوصاً من ما جريات الاحوال الاجتماعية التي قل ان تخلو من شوائبها هيئة مهما بلغت من الكمال فتعيق بعض الناس ادبياً ومادياً عن نيل الغبطة والتصدر للسعادة الحقيقيه فيخلد الى ارض المذلة والهوان النفسي وتضحي علاقاته ببني جنسه لا علاقة اخاء وصفاء ومعرفة بالمساواة في الحقوق بل علاقة حيوان اعجم يهارش ويغتصب ويغدر ويفتك لان النفس البشرية كما لا يخفى مفطورة على اخلاق محمودة واخلاق غير محمودة فهي لذلك لا غنى عن تهذيبها وترويضها تفويضا الى العقل او العلم وحده اذ لو كان الامر كذلك لاستغنى مثلا عن بعثة الرسل وتدوين الشرائع الرادعة فالعقل والعلم والشرائع كلها قد لا تقوى على النفس مالم يكن لها زاجر من الادب النفسي ومكارم الاخلاق المؤسسة على الدين والعرف

والذوق السليم الذي يجعله علماء الاخلاق في هذا العصر من اهم شروط النجاح فى هذه الحياة الدنيا .

فالعلم والمعرفه وان اتسعت افياؤهما والشرائع وان بلغ فى ترقيتها ابعد المدى واجل ماتبرزه العقول ليست كلها بالكافية الوافية لتمام سعادة الانسان الحقيقية في كل شؤونه ما دامت اوساطه التمدنية على ماهى عليه بل لا بد له مع ذلك من ادب النفس ووازعها الخصوصي منه الموجب لها الاتصاف والتحلى بحلى الفضائل والآداب الجميلة والا كان الانسان كلما اتسع مجال رقيه ودائرة معلوماته اقرب الى الشر منه الى الخير يجعل العلم سلما الى الشرور ووسيلة الى ارتكاب الموبقات وآلة يستخدمها للاضرار بغيره مستعملا كل انواع المكر والخديعة والدهاء فى نيل حظوظه وشهواته بالاستناد عليها فيكثر الفساد ويطم الشر المجتمع فيكون ظاهره جميلا وباطنه من قبله العذاب بخلاف ما اذا ضم الى العلم ادب النفس ولقح به تلقيحاً جيدا تتربي معه الاذواق السلمية وتحصل ثمرته فى المعاملات الشرعية وتبين مزيته في جميع اطوار السلوك الانسانى فى الهيئة الاجتماعية ويسعد به الانسان في حياته

ولقد عرف المتقدمون هذا الامر ودرسوه درس خبير بالعلل حكيم عليم بالادواء فلم يحور فيه المتأخرون الا بما يناسب حال الزمان ومقتضيات الاحوال ولقد شبه بعض هؤلاء المتقدمين الانسان المتعلم الخالى من الادب بالارض الجيدة المعطلة كلما طال خرابها ازداد نباتها غير المنتفع به التفافا وكثرت سكنى الهوام لها. وقال بعض حكماء الاعراب لابنه وهو يعظه (يا بنى الادب دعامة أيد الله بها الالباب وحلية زين بها عواطل الاحساب فالعاقل لايستغنى وان صحت غريزته عن الادب المخرج زهرته كما لا تستغنى الارض وان عذبت تربتها عن الماء المخرج ثمرتها) ومن غرر ابن المقفع ذلك النابغة المشهود له بالحكمة وعلو الكعب فى علم الادب قال (ما نحن الى ما نتقوى به حواسنا من المطعم والمشرب باحوج منا الى الادب الذى هو لقاح عقولنا فان الحبة المدفونة فى الثرى لا تقدر ان تطلع زهرتها ونضرتها الا بالماء الذى يعود اليها من مستودعها)

ولئن كان العلم يجب أن يتلقى منذ الصغر لانه يكون اذ ذاك كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (العلم فى الصغر كالنقش فى الصخر) فأحر بالادب أن يكون قرينه بالتعليم والتلقين

والقدوة العملية خصوصاً بل هو أجدر أن يكون سابقه على هذه الصورة الى الانغراس فى تلك النفوس الصغيرة الاكثر انطباعا وفراغا لتأنس به ويشغل فراغها بحليته منذ نعومة الاظفار وترتاض رياضه اليانعة ووقت العمر من مشاغل العالم صحو وبحر الحياة من أعمال الحياة فى هذا السن رهو وقد قال الامام على رضي الله عنه «قلب الحدث كالاراضي الخالية ماألقى فيها من شيء قبلته» وقال بعض السلف «بادروا بتأديب الاطفال قبل تراكم الاشغال وتفرق البال» على أن هذا ليس فيه مايمنع الكبار وهم الاكبر عقولا والاوعى قلوبا بل وهم المخاطبون بالتكاليف المدينون بالتصاريف من الاخذ بالسبب الاقوى من الادب النفسي والتمسك بالكمال الخلقي بالتلقى من مدرسة العالم بالاستناد على تجارب الحياة العظيمة وعبرها الجسيمة ومواعظها الجلى والتقوى في ذلك كله بالمطالعات العمومية التى لاغنى لبشر عنها فى هذا العصر وسماع الوعظ الدينى فهذا كله كما يزيد العقول تنويراً يزين النفوس بالادب والكمال الخلقى ناهيك أن الانسان باستقامته وحسن سلوكه الذاتي ودماثة أخلاقه يكتسب محبة القلوب نتصفو له الحياة ويساعد بهذا السلوك الجميل فى جودة

تربية الاولاد وهو مايرى كريم أثره فى عائلات الامم الراقية التى نسمع بمحاسن أخلاقها وعظيم آدابها ومحبة مراعاة النظام والقانون في كل الاحوال والاعمال عندها

وانى لاأريد أن أطيل فى هذا المقام بالنسبة لما تقتضيه في الحقيقة سعادة الانسان فى حياته من الآداب النفسية والاجتماعية لما يستلزمه ذلك من زيادة البسط والتفصيل فى الاصول وفروعها بالتطبيق انما ذلك غير مانعى هنا من الالماع الى بعض تلك الرذائل الفاشية المعوقة للانسان عن نيل حظه من السعادة في الحياة والكمال العصري والتمدن الصحيح ـ وقد قيل وبضدها تتبين الاشياء ـ فيخلق بالمرء العاقل الراغب فى خير الدارين وسعادة الابد أن يتوقاها ويجنبها أولاده منذ الصغر ويتخلق بأضدادها من محاسن الاخلاق الكريمة والشيم الحميدة ويكسبها آله علمياً وعملياً لتصفو له ولهم الحياة ويسعدوا فيما هم بصدده من العيش والهناء والراحة النفسية. ناهيك أن تلك الرذائل محرمة قطعاً من قبل الدين فهى من المحكوم على قبحه وخسته واضراره من كل الوجوه.

فالحقد والخيانة والظلم والفجور الى أشباه ذلك من أخس

الرذائل النفسانية التى تلازم عادة بعض النفوس القاصرة فى الهيئة الاجتماعية فتقعد بها في أرض المهانة والاحتقار وتبوء الى أصحابها بالاضرار الجسيمة وكذا الكذب والغيبة والنميمة والسعاية والخداع والسفاهة الى اضراب ذلك من الرذائل اللسانية وهذه وتلك ومتفرعاتهما ومتولداتهما نقائص قبيحة ومساوى فى النهاية العظمى من الذمامة والرداءة تعيق الانسان في سبيل الحياة الصحيحة وتضر به وبهيئته الاجتماعية الاضرار البليغة التى أوجدت لها الشرائع والقوانين في الكثير من مستلزماتها من الجرائم والجنايات العقوبات الصارمة والقصاصات الشديدة فهى كجراثيم الامراض التى قد يمكن للانسان تلافيها والتوقى منها ليعيش معافى سليم البدن والا احتاج فى النهاية الى طب الشريعة وقصاصها العادل. فالعاقل الذي هو فى حرز نفسه المتأدبة لا تلجئه مهما كان الحال الانانية الكاذبة وحب الذات المبنى على الجهل أو التجاهل وغباوة النفس بالتلذذ الوقتى بالرذائل أن يترك نفسه غفلا ويخفى عيوبها فتمرض ويطوى الكشح عن تفقدها بالعلاج فتشقي والله سبحانه وتعالى يقول « قد أفلح من ذكاها وقد خاب من دساها »

وطريقة تقديم العلاج الشافي من الوجهة الادبية أو بالتالى أعمال الوقاية اللازمة للانسان في نفسه للسلامة من الرذائل النفسانية وتحرى الافضل الاجود من الخلال الشريفة وتنميتها فيه تكون على نحو مايقول ابن المقفع في اليتيمة «احترس من سورة الغضب وسورة الحمية وسورة الحقد وسورة الجهل واعدد لكل شيء من ذلك عدة تجاهده بها من الحلم والتفكر والروية وذكر العاقبة وطلب الفضيلة واعلم انك لا تصيب الغلبة الا بالجهاد وان قلة الاعداد لموافقة الطبائع المتظلمة هو الاستسلام وانه ليس أحد الا وفيه من كل طبيعة سوء غريزة وانما التفاضل بين الناس فى مغالبة طبائع السوء فأما أن يسلم أحد من أن تكون فيه تلك الغرائز فليس في ذلك مطمع الا أن الرجل القوى اذا كابرها بالقمع لها كلما تطلعت لم يلبث أن يميتها حتى كأنها ليست فيه وهى في ذلك كامنة كمون النار في العود فاذا وجدت قادحاً من غير علة أو غفلة استورت كما تستورى عند القدح ثم لا يبدأ ضرها الا بصاحبها كما لا تبدأ النار الا بعودها التى كانت فيه»

وقال الكندى الفيلسوف حكمة أخرى في تقديم هذا العلاج للنفس وتحرى الفضيلة قال «ينبغى لطالب الفضيلة لنفسه

أن يتخذ صور جميع معارفه من الناس مرآة له تريه صورة كل
واحد منهم عند ماتعرض له آلام الشهوات التى تثمر السيآت
حتى لا يغيب عنه شيء من السيآت التى له وذلك انه يكون
متفقداً سيآت الناس فتى رأى سيئة بادية من أحد ذم نفسه
عليها كأنه هو فعلها وأكثر عتبه على نفسه من أجلها ويعرض
عليها كل يوم وليلة جميع أفعاله حتى لا يشذ عنه شيء منها فانه
قبيح بنا أن نجتهد في حفظ ما نقضناه من الحجارة الدنيئة
والارمد الجامدة الغريبة منا التى لا ينقصنا عدمها البتة فى كل
يوم ولا نحفظ ماينفق من ذواتنا التى بتوفيرها بقاؤنا وبنقصانها
فناؤنا فاذا وقعنا في سيئة من أفعالنا اشتد عذلنا لانفسنا عليها
ثم لنقم عليها حداً نفرضه ولا نضيعه واذا تصفحنا افعال غيرنا
ووجدنا فيها سيئة عاتبنا ايضاً نفوسنا عليها فان نفوسنا ترتدع
حينئذ من المساوىء وتألف الحسنات وتكون المساوئ ابداً
ببالنا لاننساها ولا يأتي عليها زمان طويل فيعفى ذكرها ولذلك
ينبغي ان نعمل فى الحسنات لنفرغ اليها ولا يفوتنا منها شيء»

٦

« المروؤة وأفعال الخير »

على انه ينبغى لطالب السعادة وكمال الحياة الآخذ فيها بالسبب الاقوى أن لا يقتصر على ان يجنب نفسه الرذائل ويلزمها الفضائل الذاتية القاصرة فقط بل يجب عليه أيضا أن يتعدى هذا الحد من القصر ويتخطى ذلك الطور فى المعاملات فيجعل من نفسه رجل « المروؤة » والانسانية يعامل الناس بالاحسان ويتحمل في أحوال معينة مساوئ الغير بالاغضاء والصفح ويتلطف فى معاملة كل الخلق ويحسن معاشرتهم ومخالطتهم ومجاملتهم ومداراتهم لكى يتألفهم وتحسن سمعته بينهم وهذا لعمرى هو بعينه الذوق السليم الذى يراه علماء الاخلاق فى هذا العصر أحسن وسيلة لنجاح المرء في هذه الحياة الدنيا ويسميه أطباء الاخلاق والنفوس قديما « المروءة »

ولقد مضى القول فى أسباب الالفة والمحبة ومسبباتها فى العائلات أما في المجتمع فلها أسباب اخرى كثيرة . منها توافق المصلحة والاذواق أو مصادفات الاختلاط والصحبة والتزاور

والمعاملات الضرورية وأنواع التعاون والاتحاد كلها التى الناس كلهم مضطرون اليها لنقصانهم وعدم تمام أحوالهم الا بها في الهيئة الاجتماعية بل وعموم العالم الانسانى فترى من هذا ان المرء مدفوع مضطر الى استعمال كل قواه الادبية في تحسين معاملاته في هذا العالم واستخدام «المروءة» من دماثة الاخلاق والظرف واللطف وعمل الخير ابتداء لتصفو له الحياة ويحصل على المركز الاسنى والدرجة الرفيعة بين الهيئة الاجتماعية ويكتسب محبة كل ذوي عشرته وصفاء اخوانه وصداقة أصدقائه وكل معارفه ومعامليه وهكذا يجب أن تكمل الحياة بالعزم والحزم والمروءة

واذا كانت العدالة فى الافعال من ضروريات الحياة ومستلزمات العمران ومتحرى الشرائع الوازعة لسلامة الهيئة الاجتماعية ومصادمات الحقوق الفردية والعمومية فى جوهر أمرها فالمروءة الانسانية من موجبات الارتقاء ومسببات زيادة سعادة المتصف بها وشكره وحمده بين الاقران والاخدان وكل الهيئة لانها جامعة الفضائل وصفوة الصفوة من محاسن الشيم التى يجب أن يتحلى بها الانسان المتمدن ليسعد فى كل

أحواله الاجتماعية والذاتية ولذلك تعرف المروءة بأنها «مراعاة الاحوال على أفضلها وأجملها» ولقد جمع الله شتاتها فى قوله تعالى «ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من عامل الناس فلم يظلمهم ووعدهم فلم يخلفهم وحدثهم فلم يكذبهم فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت أخوته وحرمت غيبته»

فالاتصاف بالمروءة في هذا العالم يثمر للانسان كل خير ويبعد عنه كل شر فصاحب المروءة أدبياً هو ذلك الرجل العفيف عن المحارم والمآثم الضابط لنفسه عن الاسترسال فى الشهوات الكاف لسانه عن الخنا وفحش القول وهجر الكلام وسفاهة أهل السفاهة والهذيان الملزم نفسه فى الافعال العدل والاعتدال وأداء الامانة والاستقامة والنزاهة المدبر لحاله وماله كأحسن ما يكون من أنواع التدبير والتقدير واداء كل الحقوق ثم المعين لاخوانه أدبياً ومادياً المتجاوز عن زلاتهم قبله الصافح عن هفواتهم نحوه

وللمروءة من ناحية اخرى آداب وضعية وأصول عملية

فى أشياء كثيرة منها قد تكون بها ولو نقصت عن التمام كأحسن ما يكون قبولا عند الناس وارتياحاً الى صاحبها والمتصف بها حتى ولو كان فقير الحال قليل الموجدة وهى ذاهبة كل مذهب فى المعاملات الاجتماعية والشؤون الانسانية . أعدد منها ما يأتى على جهة العموم

(١) البشر وطلاقة لوجه ولين الكلام من احسن ما تجتذب به القلوب وتصفو به المودات وتتضاعف به الحسنات فى الحياة

(٢) حسن المجاملات بين الاخوان كافشاء السلام والرد بأحسن التحية — وهما سنة وفرض — والتحبب والتودد والاخلاص للاصدقاء والاصفياء واستعمال كل لطف في مجالستهم ومحاورتهم وحسن الاستماع لشهى احاديثهم وبذل النصح والارشاد لهم باللطف والرقة وحسن المداراة فيما تقتضيه ذلك وكتم أسرارهم والتجاوز عن بعض الهفوات فيما يستحق العفو والصفح الاخوى

(٣) التزاور بين الاخوان والاصدقاء مراعي فيه أحسن الآداب والعادات المتبعة في المجتمع وتكون الزيارة مع ذلك غير مثقل فيها خصوصاً من حيث المواعيد ولا متكلف لها بما يراه المزور لطفاً وظرفا وعيادة مرضى المعارف بما يحسبونه

مأثورة وفضلا للزائر الى آخر ما فى هذا الباب من الاداب الجميلة والمآثر الغراء الحميدة

(٤) الاحترام لمن هو أكبر سناً أومقاما وحسن التوقير والتعظيم للرؤساء بما يحسب للمرء من تمام الاداب وكمال الاخلاق الحسنة ولا يخرج به ذلك الى حد التملق والرياء الكاذب أو تنزيل النفس الى درجة تسقط بهمة المرء وتحط بقدره فى عين نفسه فضلا عن غيره

(٥) بر ذوي القربى فان برهم على أنواعه الادبية والمادية على قدر الطاقة وبحسب المناسبات خصوصاً من حيث بذل المودات واستصفاء القلوب من سخائمها والصدور من حزازاتها بأداء الحقوق وتجنب كل أسباب الشحناء فيها وأنواع البغضاء والخصام عليها فان هذا وأمثاله من أنواع البر وصلة الرحم فضلا عن كونه من أوكد ما حث عليه الدين فانه يجعل الانسان مشكوراً به فى الدنيا بين معارفه ويكسبه مع ذلك حسن السمعة والثقة عند كل بنى هيئته الاجتماعية.

(٦) حسن الجوار للجار بترك الاذى والصبر عليه فيما لا يوجب الضرر أو التضرر في الهيئة خصوصاً وقد جاء فى

الحديث الشريف «اذا أحببتم أن يحبكم الله ورسوله فأدوا اذا ائتمنتم وأصدقوا اذا حدثتم وأحسنوا جوار من جاوركم» وهذا ولاشك يتناول جار السكنى كما يتناول جار المهنة والمزرعة الخ

(٧) اصطناع المعروف واغاثة الملهوف والمنكوب كأن يرى مستغيثاً فيغيثه أو غريقاً فيسعى في خلاصه أو حريقاً فيعمل الجهد في أطفائه والتنبيه عليه لجهة الاقتضاء بلا ابطاء الى أمثال تلك الفعال والمآثر المشكورة عند الله والناس أجمعين. ويدخل فى هذا الباب العظيم أعمال البر العمومية العصرية على قاعدة التعاون والتكاتف بقدر الطاقة بواسطة الاكتتابات العمومية والتشارك القومى فيها سداً لعوز الفقير البائس واليتيم القاصر والمريض العاجز فان هذا كله بحسب منشآته وتفنناته العصرية من أعظم وأجل ما تسعى اليه النفوس ذات المروءة والشعور الحى براً بالانسانية وخدمة للمصلحة القومية الداخلة فى الثواب العظيم عند الله تعالى وصنائع المعروف التى تقى مصارع السوء كما فى الحديث

(٨) أخيراً معاملة كل أفراد الهيئة على اختلاف مللهم ونحلهم بالعدل والاحسان في عموم المعاملات ومصادفاتها وأن

يحب لاخوانه فى الانسانية مايحب لنفسه

تلك هى بعض أوصاف رجل المروءة العملية والذوق العصرى السليم ولعمرى انها لمن أنفس ما يجب أن يتنافس فيه المتنافسون من الخلال الكريمة ومحاسن الشيم العملية الشريفة ناهيك انها من أعظم واهم ماهو مشروط للنجاح والفلاح واليمن والبركة فى هذه الحياة الدنيا فالانسان العاقل يخلق به ان تكون كل أفعاله وأعماله رامية الى التحلى بحلى المروءة والذوق السليم والتمسك بعروة ذلك الوثيقة ليحظى بالسعادة وينال فى الحياة الحسنى وزيادة .



« الحياة الدينيه وما يتحرى فيها »

ومن أجمل الخلال وأجل الاحوال اخيراً التى تكسب الانسان السعادة الحقيقية لافى هذه الدنيا الفانية فقط بل وفى الحياة الباقية التى يجب العمل لها كما يعمل المرء للدنيا « الدين » الذى يلبس المتصف به ثوبا قشيباً من الفضائل والكمالات الانسانية ويقف بالنفس البشرية عند حدها من الزواجر ابتغاء

مثوبة الله تعالى العظيمة فى الآخرة وخوف عقابه الشديد فى تلك الدار الباقيه فالتخلق بالدين على حقيقته ممسك للمرء بالتحقيق دون الاسترسال عن حده ممد له بالخيرات وأنواع السعادات واق لصاحبه من الوقوع في الشرور والمساويء مبين له مع ذلك فى كل اموره مناهج الرشاد وسبل الهدى والسداد في العمل فكأن فى الحقيقة لا معرفة ولا حكمة ولا سعادة ولا أدب ولا مروءة الا ولها مستمد من الدين . ولا رذيلة ولا شر ولا ضر الا وله وازع في اصل الشرع وزاجر من الملة السمحاء

واصل كل هداية فى الدين بالنظر الينا معاشر أهل الاسلام فى هذا الوجود متابعة الكتاب العزيز كتاب الله تعالى الكريم والسنة الشريفة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتمسك بعروتهما الوثقى التى لا انفصام لها وتحليل حلالها وتحريم حرامهما وقد جاء فى الحديث الشريف « تركت فيكم شيئين ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى كتاب الله وسنتي » فالاتصاف بصحة العقيدة عقيدة الجماعة الاسلامية ومتابعة الكتاب والسنة فى ذلك وغيره من اصول العبادات وأنواع المعاملات ومكارم الاخلاق والاداب الشرعية من أجل وأعظم ماينبغي أن تتحلى

به النفوس الكريمة الاسلامية فى كل عصر وفى كل مصر تحريا لنيل السعادة في الحياتين الدنيوية القليلة الامد والاخروية الابدية القرار

ومن أحسن الخلال في هذا المقام « الاخلاص » وصدق النية وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما الاعمال بالنيات وجاء « نية المرء خير من عمله » فاخلاص النية وصفاء السريرة الى الله تعالى في السر والنجوى خوفاً من عقابه الشديد وطمعاً في مزيد ثوابه العظيم مثمر لكل الخيرات فى الاعمال وحصول الملكات الدينية الطيبة من العلم والحال في مقام الخوف الذى هو رأس الحكمة والرجاء الذى هو محور سرور النفس وداعية نشاطها بتضاعف الحسنات فيجدر بالمرء العاقل أن لا يقتصر على ان يعلم الاصول والفروع في الدين فقط بل يلزمه ايضاً لنيل حظه من سعادة الحياة الاخروية ان يتصف بذلك قلباً وقالباً متخلقاً عاملا بالاخلاص وبما جاء كذلك فى الدين من الاداب الصحيحة ومكارم الاخلاق العملية الشريفة ذات الثمار اليانعة والاثر العظيم فى تطبيب النفس وتهذيبها ورد جماح غواياتها ثم في اصلاح حال افراد ابناء الملة والهيئة باجمعها

بحسب مقتضيات الاحوال والمناسبات مما اجمع كل العقلاء من اهل الملل والنحل المختلفة على انه من أجمل وأفيد ما يجب ان تتخلق به النفوس البشرية المتمدنة المتورعة .

وفى معنى الحال والاتصاف العملى فى الدين مما هو المقصود بالذات منه جاءت الاقوال الكثيرة الحاثة والايات الكريمة المرغبة لانه لا فائدة من العلم بلا عمل كما لا ثمرة من صفة وموصوف بلا اتصاف حقيقى بها قال الامام ابن خلدون فى هذا المعنى ما نصه .

« ان المعتبر فى هذا التوحيد ليس هو الايمان فقط الذى هو تصديق حكمى فان ذلك من حديث النفس وانما الكمال فيه حصول صفة منه تتكيف بها النفس كما ان المطلوب من الاعمال والعبادات ايضاً حصول ملكة الطاعة والانقياد وتفريغ القلب عن شواغل ما سوى المعبود حتى ينقلب المريد السالك ربانياً . والفرق بين الحال والعلم فى العقائد فرق ما بين القول والاتصاف به . وشرحه أن كثيراً من الناس يعلم ان رحمة اليتيم والمسكين قربة الى الله تعالى مندوب اليها ويقول بذلك ويعترف به ويذكر مأخذه من الشريعة وهو لو رأى يتيما أو مسكيناً

من ابناء المستضعفين لفر منه فضلاعن التمسح عليه للرحمة وما بعد ذلك من مقامات العطف والحنو والصدقة فهذا انما حصل له من رحمة اليتيم مقام العلم ولم يحصل له مقام الحال والاتصاف. ومن الناس من يحصل له مع مقام العلم والاعتراف بأن رحمة المسكين قربة الى الله تعالى مقام آخر أعلى من الاول وهو الاتصاف بالرحمة وحصول ملكتها فتى رأى يتيما أو مسكيناً بادر اليه ومسح عليه والتمس الثواب والشفقة عليه لايكاد يصبر عن ذلك ولو دفع عنه ثم يتصدق عليه بما حضره من ذات يده وكذا علمك بالتوحيد مع اتصافك به والعلم الحاصل عن الاتصاف ضرورة وهو أوثق مبنى من العلم الحاصل قبل الاتصاف وليس الاتصاف بحاصل عن مجرد العلم حتى يقع العمل ويتكرر مراراً غير منحصرة فترسخ الملكة ويحصل الاتصاف والتحقيق ويجيء العلم الثانى النافع فى الآخرة فان العلم الاول المجرد عن الاتصاف قليل الجدوي والنفع وهذا علم اكثر النظار والمطلوب انما هو العلم الحالى الناشيء عن العادة واعلم أن الكمال عند الشارع في كل ما كلف به انما هو فى هذا فما طلب اعتقاده فالكمال فيه فى العلم الثانى الحاصل من الاتصاف وما طلب

عمله من العبادات فالكمال فيها فى حصول الاتصاف والتحقق بها »

ومما ينبغي أن ينبه عليه في هذا المقام انه لما كان الترقى سنة العالم الالهية استحالة وتغيراً ظاهرياً سواء في الافعال الارادية والعوائد والاخلاق أو فى الصور الظاهرية للمادة إما بفعل الانسان أو بيد الطبيعة وكان الدين باصوله العامة هو « ذلك الوضع الالهى السائغ لذوى العقول باختيارهم المحمود الى الخير بالذات قلباً وقالباً » فلاريب انهما لاتحاد مصدرهما لا يتناقضان ولا يجوز في العقل من هذه الوجهة أن يخالف أحدهما الاخرفى أصوله العامة واذا كان الامر كذلك والشأن كما ذكر فلامطعن على الدين في أصوله تلك من انه يخالف الحقائق العلمية الثابتة أو ينافى نظام الرقي الطبيعي فى الهيآت الاجتماعية خصوصاً وهو ماوجد الا لها ولمنفعتها على ما يشهد به النظر الصحيح والوجدان الديني الحق فأما ما قد يظهر منه أن يخالف هذا السنن أو تلك الحقائق فمنه ما هو مؤوّل ومنه ما هو محمول على انه ضم الى الدين فى الغالب بحسب الظروف والمناسبات كما ألصق مثلا الى التمدن الانساني على اطلاقه علما وعملا أمور وأشياء حسبت من الرقي الطبيعي أو الحقائق الثابتة العلمية بحسب العادة والاستحسان

العصرى أو الظن والتخمين العلميين ثم ظهر واستبان انها ليست في شيء من الحقيقة أو جانب الرق الصحيح وما أدرانا انه قد يأتى زمان ترى فيه أمور وأشياء مما نعده حقيقة أو رقيا صحيحاً في العوائد والاخلاق والافكار والاراء الفلسفية العلمية انها من سقط المتاع أو « النظام المنسوخ » بدعوى المخالفة أيضاً لسير ذلك الرق بعينه في نوعيه وهذا بحث طويل لا شأن لى به هنا الا بهذا المقدار المناسب للتنبيه على ما يلزمنا من التوسط في الامور والاخذ بأحسن الاشياء في امر الدين والدنيا بحسب ما يناسب حالتنا ومنفعتنا مؤسسين ذلك كله على الاصول العامة التى لا يلحقها التغيير ولا يعتورها التبديل

واول واجب على متحرى سعادته الدينية في هذا الوجود العصرى ان يأخذ مع الاتصاف بالجوهر من دينه ويمسك بالاصل دون الاعراض أو الحشويات الطويلة العريضة التى الحقت به والصقت بحسب المناسبات الاخلاقية والمقتضيات الزمانية ولا احسن طريقة لنيل هذا الغرض والحصول على تلك البغية الجميلة من مداومة تلاوة القرآن المجيد حبل الله المتين بالتدبر والتفهم الجيد ولا بأس من الاستعانة في ذلك ببعض

التفاسير الجيدة ثم ارداف ذلك بمدارسة الاحاديث النبوية الصحيحة ومن احسن ما فى هذا الباب ايضاً مطالعة صحيحات السير النبوية المشتملة على تاريخ حياة النبي صلى الله عليه وسلم ومآثر اعماله النبوية الغراء وشمائله الشريفة البيضاء ومن السيرة ايضاً يستوعب على الخصوص فهم آى القرآن المجيد فانه نزل فى الكثير منه على وقائع السيرة وقصصها يخاطب الله تعالى به قريشاً والعالم بالوعظ والارشاد والتخويف والامر والنهى والعلم بكل هذا فتح لباب اليقين فى الدين والاحوال المكتسبة من ذلك انما هى آثار اليقين فكان معرفة السيرة الشريفة اصلا من اصول الاسلام والايمان ومفتاحه والسنن المدونة في الاحكام تتمات لذلك وابعاض له وانما حذار من تلك السير المشحونة بالخرافات والاباطيل القصصية التى على ما يقول اصحابها اجاز لهم حشوها فى السير النبوية الكريمة على هذا الشكل. وسهل لهم وضعها على هذه الصورة المستهجنة خصوصاً فى القرون المتوسطة والمتأخرة للاسلام ما جاء من تساهل بعض الائمة المتقدمين فى مرويات الفضائل والسير وعدم اعطائها ماتستحقه من التمحيص كما صنعوا في السنن والاحكام مثلا مما جعل

للقصاص بابا واسعاً ومجالا فسيحاً يدسون به ماشاؤا فى السيرة الكريمة وغيرها مشوهين محاسن حقائقها بمقدار ما كانت ترمي اليه اغراضهم وتسعه عقولهم مما لو درى اجلة الأئمة المتقدمين ان اهل اوروبا الآن يروونه بالتنديد والتشنيع علينا معاشر اهل الاسلام لاعطوا هذا الامر الخطير مزيد عنايتهم وكبير التفاتهم لعظم اهميته الدينية وخطارة امره فى تاريخ الاسلام

فباجتماع هذه الاصول وغيرها كبعض كتب العقائد والفقه الجيدة على مذهب المقتدى بهم من ائمة المذاهب وسير الخلفاء الراشدين ومداومة مطالعة ذلك ومدارسته عند المسلم العصرى الذى لا يتخذها لمجرد التبرك تتربى فى المرء ملكة الدين وروحه ويتصور على حقيقته ومرامي غاياته الاجتماعية السامية ومحاسن مآثر نبيه صلى الله عليه وسلم واعمال خلفائه الراشدين الجليلة كاحسن مايكون بل منه يعلم بالتحقيق ان هذا الدين الحنيف الذى يدين به يناسب بأصوله العامة الصحيحة الرقى الصحيح ويساعد أهله فيه أيما مساعدة وهذا هو منتهى السعادة وغاية القصد فى هذا الوجود والعمل لما بعده

ولقد يرى المسترشد في دينه من جهة ثانية أن كل أعمال

الخير والبر التي ترمى اليها أغراض حكماء العالم وزعماء الانسانية فى كل عصر ومصر براً بأبنائها وأخذا بيد أهل البؤس والشقاء منهم ورفقاً بعموم خلق الله تعالى حتى الحيوان الاعجم موجودة مبادئها العظيمة فى أصول هذا الدين القويم ومن أجلها تقررت فيه مبادئ فرض الزكاة وسنة الصدقة ووقف الاوقاف والحبوس الخيرية المحضة على المساجد والمدارس والمكاتب والمستشفيات والملاجئ وخزانات الكتب العمومية الى غير ذلك مما وجدت وتوجد له الآثار العظيمة والاعمال الجليلة فى جميع بقاع العالم الاسلامى وهو مايجب علينا معاشر أبناء العصر أن نقتدى فيه بالاسلاف الطيبين لا حذو النعل بالنعل بل بحسب ما ترمى اليه أفكارنا وأحوالنا العصرية على قاعدة التعاون والتكاتف على الخصوص مما سبقت اليه الاشارة وله بعض الأثر الحميد عندنا الان فى مثل أعمال «الجمعية الخيرية الاسلامية» و«العروة الوثقى» واضرابهما اذ مراعاة ذلك فى الشؤن الاجتماعية الخيرية العصرية فضلا عما فيه من التخفيف فهو أكبر مساعد على سد عوز هيئتنا ومرضاة خالقنا وارتياح وجداننا الدينى بالقيام بتلك الواجبات الانسانية الحقة

والدين الاسلامى فضلا عن أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وتحليته المتمسك به بكل الاخلاق الاجتماعية الكريمة والشيم الادبية الحميدة لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «بعثت لاتمم مكارم الاخلاق» فانه لم يمنع أهله ولا حرم عليهم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق فى هذه الحياة الدنيا فالتمتع بذلك كله والعمل له بالحق والصدق من متممات السعادة الابدية لانها تزيد فى شكر النفوس لله تعالى المنعم المعين في نيل نعمه الكبيرة المتواصلة وآلائه العظيمة المتوالية ولقد جاء عن الشاذلى رضي الله عنه ومكانه من التصوف والزهد في الدنيا بالمقام الاسنى انه كان يقول لاصحابه هذه العبارة «كلوا من أطيب الطعام واشربوا من ألذ الشراب وناموا على أوطأ الفراش والبسوا ألين الثياب وأكثروا من ذكر ربكم فاذا فعل أحدكم ذلك وقال الحمد لله يستجيب كل عضو فيه للشكر بخلاف ما اذا لم يفعل ذلك فانه يقول الحمد لله وعنده اشمئزاز وبعض سخط على مقدور الله»

على ان من يتدبر في أسرار ما جاء في الدين القويم من الحث على السعي والعمل والصبر والقناعة والزهد والورع والنهى

عن كل الرذائل النفسانية واللسانية ثم تحريم الخمر والميسر والدم ولحم الخنزير وأكل أموال الناس بالباطل الى آخر ما نهى عنه وزجر رأى انه تعالى قد حرم ونهى بالتحقيق عن كل ماتتوقف سعادة الانسان الدنيوية حساً ومعنى على التوقى منه كما يرى انه تعالى قد أتى فى تأديب النفوس وتطبيب مصائب بنى الانسان وتخفيف ويلات شرورهم الاجتماعية بأحسن ما يستوصف لها في هذا العصر من أنواع العلاجات الباطنة والظاهرة وان اختلفت الصور الظاهرية. وانه جل شأنه من جهة ثانية ماحرم شيئاً من ملاذ الدنيا الا وجعل فيما أحله وأباحه منها ما فيه أضعاف الاضعاف لذة وسرورا للنفس. كما يرى انه سبحانه وتعالى بنى كذلك أصول العبادات من الطهارة والضوء والصلاة والصيام والحج الخ على أسرار حكم وفوائد نعم عظيمة. ترى لكل متبصر مسترشد عند التأمل وأعمال الفكر انها ترمى الى صوالح ذاتية وفوائد ظاهرة وباطنة مما قد شرحه كثير من العلماء أحسن الشرح.

ولا يهولن المسلم العصري أو يقعد بهمته ويثنى من عزمه فى أمر الدين والعمل فيه ماقد يراه فى الكثير من كتب وأسفار

القصاص والوعاظ من المتصوفة ونحوهم من التشديد في العبادات والتزهيدات والاكثار من الاوراد والاذكار وتعظيم الامور وتجسيمها والتعمق والاستغراق فى الامور الدينية مما نهي عنه الشارع الحكيم صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة لانه خارج في أغلبه عن حد التصور والعقل والحقيقة الدينية الناصعة على أنه وان كان قد وجد في الاسلام فى أزمنة وبقاع متعددة أناس من كبار العباد وعظماء الصوفية ممن بلغ الحال ببعضهم في الزهد رضي الله عنهم الى اطراح الدنيا بحذافيرها وتطليقها بتاتاً بمحض الاصطفاء والرغبة منهم فيما عند الله تعالى من حسن الثواب والدرجات العلية فأولئك أناس مخصوصون قد كوشفوا بالسرائر والقلوب فهاموا فى الحال بالقصد حباً وتاهوا فى جلال الله تعالى عن عمد أماجمل اعمالهم واحوالهم أو بالتالى ما بنى عليها فى التصوف خصوصاً عند اولئك المتصوفة ممن مال الى الكسل والبطالة وسكنى الزوايا والربط مكثرين من الاوراد والاذكار والرقص على نقرات الدفوف مع شحن بطون الكتب بها وحسبان ذلك من احوالهم وعده من امهات الدين وعرضه كالمثال الدينى للخلق كلهم يحتذونه وينسجون على منواله في امورهم

الدينية وشؤونهم الاخروية مما قد تنبهت له الآن مشيخة الصوفية بابطال كثير من بدعه الفاسدة فهذا وامثاله من اشد ضروب التعجيز في الدين فضلا عن انه على ماتشهد به النصوص الصريحة وتؤيده آراء أجلة علماء الملة الحنيفية فى كل عصر انه ليس من مراد الله تعالى لعموم خلقه ولاهو من مقدور العباد كلهم ومع ذلك فان التاريخ الاسلامى اصدق شاهد ينبئ بأن الامة الاسلامية ماخرجت يوما مابسوادها الاعظم في حياتها الدينية وأمورها الاخروية عن حد الوسط المألوف المنصوص عنه من الاقتصار على اداء الفروض وجميلات السنن واجتناب المحارم والمآثم والانصاف بين الخلق على قدر الطاقة وحسن معاملتهم بحسب العادة والتوجه الى الله بالنية الصادقة والاخلاص له تعالى فى كل الاعمال غيباً وشهادة وهكذا نال سلفنا الصالح سعادتهم فى الحياة الدينية وهكذا بتوفيق الله تعالى ننال نحن ايضاً نصيبنا منها

(تمت ولله الحمد والمنة)

الفصل الاول

﴿ هل نحن شاعرون ﴾

الشعور بالحاجة يؤدي بالانسان الى سدها فالظمآن يلتمس الماء القراح يروى به ظمأه ويبل به صداه والجائع يتطلب جيد الطعام يكسر به جوعه ويشبع بطنه والامة الراقيـة النشيطة تتحرى حاجاتها القومية كالفردية فلا تهملها ولا تنأى بجانبها عنها لانها تعلم علم اليقين أن فيها حياتها وعليها يتوقف مدار نجاحها واطراد ارتقائها وعزها

وهذا الشعور بالحاجات القومية وان تفاوتت فيه الامم واختلفت الشعوب بحسب الاوساط المادية والادبية وظروف الزمان والمكان الا أنه قد أصبح في هذا العصر بحكم ذلك التمدن الحديث الذي دخلت الامم في دوره متوحد الوجهة متفرد المبادىء تقريباً فالشعور بضرورة التعاون في العمل ولزوم التعاضد والتضافر في الافعال الارتقائية والكمالية ومراعاة الترتيب والتوزيع في كل الشؤون مثلا أمور قد تصدق على كل الامم على حد سواء وقس على ذلك سائر المبادىء الاقتصادية والادبية لانها

وضعت كمبادىء علوم حقة وقضايا عامية صحيحة تنتج النتائج الواحدة وتمر الثمرة الشبيهة هنا وهناك وفى أى زمان أومكان

ولقد وجدت الامة المصرية الاسيفة في هذا العصر فى ظروف تقضي عليها ولا شك بان يكون تنبه الشعور القومي الحى في كل طبقاتها وأفرادها على أشدة تجاه هذا التمدن الجديد الذى ولجت بابه وسلكت سبيله اناضطراراً أو اختياراً وهى تحسبه هينا لينا وهو وأيم الحق ذو حاجات شتى وواجبات كثيرة فردية وقومية انلم نتنبه لها ونوفها حقها على مقتضى ما استقري القوم من أصولها ومبادئها الصحيحة كأمة حية شاعرة بحاجاتها عاملة لذاتها خسرنا وتضعضت أحوالنا الشخصية الاستقلالية تبعاً لذلك.

ولكن هل نحن شاعرون بهذا عاملون لمصلحتنا بازائه؟

هذا سؤال تنبيء عن جوابه أحوالنا وأعمالنا ويالاسف باننا ما زلنا تقصر همتنا دون بلوغ شأوه وان ذلك الاحساس القومي الكريم الذى يخالط نفوس تلك الامم الحية النشيطة ويمازج أرواح افرادها كبيرهم كصغيرهم يقيمها ويقعدها في تحرى خير الهيئة الاجتماعية في كل الاعمال وتطلب الكمال القومي بواسطة

جميع الافعال لم يزل بعيدا عنا بمقدار ما هو قريب من نفوس تلك الامم الراقية العاملة خفيف على ارواحها

ولقد تضاربت الاقوال وتباينت الظنون في علة خمولنا وتثاقلنا معشر المصريين وقلة الشعور القومي الشريف الى هذا الحد فينا . فقال قوم ان سببه الجهل المخيم على العقول وفساد تربية الامة. وذهب آخرون الى أنه نتيجة ظلم الحكام في الازمنة السالفة المتوالية مما أوجد في نفس الامة كثيراً من الخلال الرديئة والصفات القبيحة وعلق أثره بأعصابها الى الآن فاورثها فقدان الشعور الحى والتخاذل القومى المميت وذلك الجمود والتقاعس عن طلب الكمال فى الاعمال

ورمت به طائفة من متعصبي الاورباويين دين الامة الحنيف زوراً وبهتانا لجهلها باصوله الحقة الموجبة لسعادة الدارين وبرائته من تلك الشوائب والبدع الكثيرة التي ألصقت به على غير هدى من اهله فحسبت عليه وكانت هى داعية رميه بالنقص عن الكمال من امثال هؤلاء الطاعنين القادحين .

وعزته فرقة اخرى الى اقليم مصر الصافي الجميل وماء نيلها العذب المبارك

تلك هى اسباب الداء على ما ارتأى كل فريق ممن تكلم فى امرنا وخاض فى شؤوننا الاخلاقية وعيوبنا القومية ذاهباً فيها كل مذهب

فأما من نسبه الى اقليم البلاد فلاشأن لنا معه اذ يكفى فى دحض ما ذهب اليه أن نحجه بالامة المصرية القديمة اولا ثم بالنزلاء الاجانب بيننا الان وهم من نعلم كدحا ونشاطا كلما طال بهم المقام بين ظهرانى هذه الامة الضعيفة

وحجة من اسنده الى فساد الاحكام في الازمنة الماضية قد صارت بطبيعة الحال واحكام الزمان ساقطة لقيام العدل مكان الظلم والنظام فى الحكومة بدل الفوضى والاستبداد فلم يبق امامنا اذن غير ذينك السببين الجوهريين بل العدوين الالدين وهما الجهل والشوائب اتى الحقت بديننا القويم فكدرت صافي موارده السائغة علينا

ومما لا ريب فيه ان الامة اذا جهلت وساءت تربيتها خسرت كل شيء فهى تخسر الثروة وثمرات العمل. تخسر حسن القيام بترتيب الاعمال والشؤون فيلحقها الفشل. تخسر الجاه القومى ولذة الشعور بالحياة الفردية وتسيء بذلك الى طبقاتها.

ثم واخيراً تخسر حرمة الهيئة الحاكمة وثقتها اذا كانت أرق منها وتعبها بكثرة شرور اشرارها

واني لا ارى من موجب الان لتفصيل ما أجملت وأدمجت هنا إذ في شواهد الحال ومشاهد الامور ما يغني عن كل إفصاح وايضاح كما اني لا الاحظ على الشوائب التي شابت ديننا الشريف باكثر من استلفات الانظار الى تلك البدع الجمة والمعتقدات الفاسدة وسفاسف الاوهام الكاسدة مما لا يوافق روح العصر وقد اشربتها نفوسنا وعلقتها عقولنا فأوقعتنا في المساوىء والمعائب وابعدتنا عن حقائق ديننا القويم وفضائل شرعنا الاغر وهو ما اوجده الله تعالى الا لينتشلنا به من أوحال الحياة ويجعلنا في مصاف البررة السعداء. مناً منه تعالى ورحمة للعالمين

هذا هو داؤنا العقام وهذه هي اسبابه واعراضه الثقيلة الوطأة علينا بسطتها بغاية الايجاز والاختصار. ولا مشاحة في ان عبء التبعة في تلافي اخطار ذلك عنا وتداركه بالعلاج الشافي رويداً رويداً حتى تستأصل شأفة الداء وتعود الامة بعده حية نشيطة حافظة لكيانها. واقع بلا شك على كاهل كل قادر من افرادنا وان كانت مسؤليته الكبرى محصورة بالاكثر في حسن

غيرة سراتنا وكفاءة علم كبرائنا وساداتنا لان الامة بهم وهم بالامة كلها « فهل نحن شاعرون »

الفصل الثاني

« حياة الفكر قوام العمل »

الفكر والعمل فرسا رهان في حلبة ميدان حياة الانسان فالفكر رائد العمل والعمل تابع للفكر خادم له والنتائج من وراء هذا وذاك بقدر الهمم والعزائم وبالتالي بقدر سمو الافكار وانحطاطها وقوتها وتراخيها وهذا هو شأن الانسان الفرد كما هو شأن مجاميعه من الامم والشعوب في الجملة منذ اوجده بارئ النسم وخالق الكل على ظهر هذه البسيطة

وليس من غرضي بل ولا من طاقتي ان اشرح هنا ماهية هذا الفكر أو العقل الذى هو قائد الانسان وهاديه في كل عمله ولا أين مقره من أدمغتنا ولا كيف يعمل عمله ويؤدى وظيفته السامية التي منحه الله تعالى اياها اخذاً ورداً وتأثيراً في المجموع العصبي وغيره من الاعضاء الى ان تخرج افعالنا بواسطة ذلك من القوة الى الفعل لان ذلك من خصائص الفسيولوجي الماهر

وعمل كبار علماء طبائع العمران البشرى الذين بنوا علومهم العصرية على أمثال هذه الاستقراآت الدقيقة فأحاطوا بالموضوع من كل أطرافه ووفوه حقه شرحاً وتبياناً.

كذلك لا أبغى أن اتعرض لهذا الفكر الانسانى ومعانيه صحة وفسادا ونتائجه من هذه الوجهة بالقياس على مايرمى اليه غرض المنطيقى فى علمه بصفته علما للفكر الانسانى له اصول وقواعد خاصة يتبين بها صحيح الافكار من زائفها وجزئيها من كليها

انما الذى اريد ان ابحث فيه هنا اعم من هذا وذاك واقرب واعنى به ماظهر من الامور ومشاهد الاحوال بالنسبة الى الافراد والامم من حيث ماسما بأفكار البعض فجنوا بواسطة ذلك ثمرات الاعمال الطيبة المستجادة وما قعد بهم البعض الاخر فلحقهم بالتبعية لذلك الفشل وفوات الاغراض واسباب ذلك القريبه ونتائجه المشاهدة اذ العبرة بها هنا وفيها الفائدة لمثل هذا المقام والمتسع .

فقد نعلم ببداهة العقل الان ان الانسان المتوحش هو غير المتمدن فكراً وعملا وان جاهلات الامم ليست كمتعلماتها على وجه العموم كذلك وان تهذيب العقل وترويض الفكر بالعلم

والمعرفه الضرورية يكسب الانسان مع تجارب الحياة العديدة الملكات الذهنية الحسنة والمدارك الجليلة فتصدر اعماله بناء على على ذلك حسنة جميلة وتخرج افعاله على هذا المنوال قرينة الصواب سالمة من العيوب على وجه العموم بقدر الامكان . وان الامم كالافراد فى هذا السبيل وتلك المحجة البيضاء .

هذه هى في جملتها القاعدة العامة في هذا الباب ومهما يكن من كثير شذوذها في كثير من الاحوال مما قد حارت له افهام العلماء والحكماء قديما وحديثاً فذهبوا فى تعليله كل مذهب علمياً وأدبياً الا انها بالرغم عن ذلك كله قد تصدق بنوع ما على كل بنى الانسان كيف وأينما كانوا

ولقد بنى علماء الاقتصاد السياسى من ثم بالاستناد على هذه القاعدة العمومية قاعدتهم المشهورة فى تقسيم رأس المال الى نوعين مادى حسى وعقلى معنوى . أما المادى فما استعان به الانسان فى عمله من عدة وآلة ومال الى آخر ما هناك من ذلك . وأما العقلى المعنوى فهو ذلك البحر الخضم من الفكر الانساني والملكات الذهنية التى يكتسبها الانسان من مجرى حياته فيستجاد بواسطتها عمله كله وتحسن نتائجه المطلوبة المرغوبة

واذا تأمل المتأمل بثاقب بصيرته علم من غير ان يعتريه أدنى شك ان النوع الاول من نوعى رأس المال وهو المادى منهما محدود وقاصر ما لم يكن مسنوداً معضداً برأس مال الانسان العقلى وهو عظيم قوى لا يعد له شيء ولا يشق له غبار في تجويد الاعمال وتدبير المصالح والشؤون فالثروة عند كل الناس قوة ولكن أقوى منها عند ذوى التحقيق الفكر الذى يتولى تدبيرها والعقل الذى يعرف كيف يثمرها وقد جاء فى الحكم المعزوة الى أفلاطون ما معناه «ليس الغنى من اجتمعت له الاموال وانما الغنى من دبر الاموال»

ونحن اذا التفتنا الى منثور حكم المتقدمين ونوابغ كلم اسلافنا المتوسطين ومآثر أعمال معاصرينا المتأخرين ألفيناها كلها مجمعة على صحة هذا المبدأ رامية الى غرضه بسهام جواهر العقل وصائب الرأى ودرر الحكمة إما بالذات وإما بالواسطة

فالاعمال الجيدة الناجحة مصدرها ورأس مالها الافكار الجيدة ومضاء العقول المستنيرة . والاعمال التافهة الساقطة سبيلها وسببها قصر الفكر وعجز الرأى وعدم انضاء عزيمة العقل الى ما يجر اليه ذلك من قلة الثبات والصبر والاهمال. والشواهد

على ذلك كثيرة اذ كم من عمل حتى مع قلة رأس ماله المادى نجح واستجاد بسبب توفر تلك الصفات فى القائمين به كما انه كم من مشروع توفرت له كل شروط النجاح المادية لكنه فشل وسقط بسبب فقدان كل أو بعض من هاتيك الصفات فيمن كان يباشره

وهنا ولا ريب قد تثور ثائرة المشاغبات بالحظوظ وسعود المطالع ونحس الطوالع فيقال مثلا ما بال زيد من الناس مع قلة عمله وتافه معارفه فيما هو بصدده من الاسباب نجح فى عمله نجاحا باهراً يستوقف الانظار وتغبط صاحبه النفوس عليه ثم ما بال عمرو مع غزارة علمه وسعة معارفه وتفوقه على قرينه فى مادته لم ينجح فى شغله ولحقه الفشل والخسارة ولم يذق لعمله طعم مكسب . أجاب جماعة العلماء الباحثين ان سر ذلك ولا ريب يرجع فى الغالب الى توجيه الاول كل قوى فكره الى نجاح عمله وتمميته واحتياطه له بخبرة دقيق تلك الوسائط العظيمة وتراخي هذا ولا بد فيه من اي جانب فدخل عليه الضعف منه والوهن بالرغم عما امتاز به على صاحبه من الصفات الكمالية وتهيأت له فيه من الاسباب المادية

ويؤيد هذا أيضاً من جهة أخرى ما نراه من التفاوت في كثير من الاحيان بين أعمال الا باء والابناء أو الاخوة وبعضهم واخلاقهم فنرى مثلا خالداً قد نجح فى عمله مع عدم توفر اسباب ذلك له ثم خلفه ابنه بكر فبدد ما جمع واساء التصرف فيما صنع مع انه قد يكون أعظم علما من ابيه وأحسن تربية وما ذلك الا للاسباب التى شرحت آنفا والعلل التى بينت ثم

فالعبرة فى استخدام الفكر وتوسيط العقل في الاعمال ليست على اطلاقها بكثرة المعلومات والاحاطة باطراف المعقولات ولكنها تكون بقوة توجيه الفكر وحسن اختيار العقل ما دام الانسان على وجه العموم مترقياً متعلما المبادىء العمومية المشروطة للنجاح والفلاح ثم ملما عارفاً باصول ما هو بصدده ومتفرغ له من العمل الواحد

وليس هذا الامر قاصرا على الاعمال الاقتصادية والاسباب المعاشية المادية ولكنه عام يتناول على التحقيق كل أعمال الانسان فالمخترعون والمؤلفون وعظماء القواد وفحول اهل السياسة والخطابة ونطس الاطباء ومشاهير المهندسين لم يمتاز الكثير منهم على الاقران ويبرزوا فيما هم بصدده من جليل الاعمال ودقيق

المهن الا بانتهاج هذا النهج القويم واتباع ذلك الصراط السوى

فانضاء عزيمة العقل وحسن استخدام الفكر أهم شروط نجاح العمل الانسانى الحسي والمعنوي لانه مهما توفرت للعمل شروط نجاحه الاخرى من قوة العضل وكثر المادة وفقد هذا الشرط العظيم لحقه ولا ريب الخلل والفشل واحاطت به العيوب من كل جانب وما أكثر أعمالنا نحن معشر المصريين التى هذه صفتها وتلك حالها!

الفصل الثالث

﴿ التربية الصحيحة ومبلغنا منها ﴾

ينشأ الصغير عادة على ما يكون عليه وسطه العائلى فالاجتماعي ولتمام نموه وحسن نشئه وهبه الله تعالى قوة القابلية وسرعة المحاكاة والتقليد فهو يقتبس من أمه ويقتدى بابيه ويأخذ إخذ اخوته وذوى عشيرته وبالجملة فانه يتخلق فى الغالب باخلاق الوسط الذي يشب بين اهله ويدب بين ناسه يتأدب بآدابهم ويتربى بتربيتهم جيدة كانت أم رديئة صحيحة كانت ام فاسدة

ولقد وهب الخالق جل شأنه كل قوم بل كل عائلة خصوصيات في الاخلاق والعوائد ومميزات فى الطباع والصفات على حسب امزجة البلدان وطبائع الاوساط قل ان توجد فيمن ليس على شاكلتهم فلا الانكليزى كالفرنساوي والالمانى كالايطالى بل ولا أهل صعيد مصر كسكان ريفها البحري في اخلاقهم وإن قل الاختلاف أو بعد الشبه بمقدار اقتراب الوحدة القومية او ابتعاد الجنسية الخلقية .

غير ان فى الانسان على وجه العموم — وهو اكرم الخلق على الله تعالى -- قوى كامنة خيرية محضة ترقب افعاله وتحكم على اعماله وما ارتياح الضمير فى الفعال الحسنة وتوبيخ الوجدان على الاعمال القبيحة الا ظاهرة من ظواهر تلك القوى النفسانية السامية التى متى ما اجلى صدؤها وكشف عن اصولها الكامنة قادت الانسان ولا ريب الى الخير المحض وجعلته كائنا ملكياً سعيداً وبالتالى انسانا كاملا توحدوجهته وتحد غايته الشريفة كائنا ما كان

على ان فى النفس البشرية أيضاً قوي أخرى تضاد هذه بنوع ما تناصبها العداء وتنازعها الزعامة في الافعال الانسانية

أودعها البارىء تعالى النفوس لحكمة أيجاد التعادل والتماسك وحفظ النوع متى ما استعملت بحكمة واستخدمت بروية فى الوقت المناسب وبالمقدار اللازم ثم جعل تعالى للعقل سلطانا قويا يحكم به الجميع ويقضى بينها بالحق بما وهب من قسط القوة وصفاء الجوهر وحسن التمييز ولكن الويل للانسان اذا غلبت عوامل الشر فيه عوامل الخير فانه بذلك يحكم هواه عقله فيشط عن محجة الهدى ويضل عن سبيل الرشاد أو كما يقول قدماء الاخلاقيين ينسلخ عن انسانيته فيعد حينئذ اما حيوانا بهيمة واما شيطانا مريداً وما اسراء شهواتهم وشرار أقوامهم الا من هذين القبيلين وان تكيفوا في جملة اخلاقهم بما عليه وسطهم الاجتماعى وتواروا خلف ستاره

وهذان العاملان للنفس عامل الخير وعامل الشر قد ألهمها الله تعالى النفوس فعرفهما الانسان لنفسه من قديم ايامه وغابرات حقبه إما بالبلاغ والارشاد وإما بالفطرة البشرية والسليقة الانسانية أى بالواسطة وبلا واسطه ظاهرة فالقول بالاصلين « النور والظلمة » عند قدماء الفرس. وآلهة الخير وآلهة الشر عند بعض الامم الماضية والشعوب المنقرضة يشير في الغالب

الى هذا النوع الاخير فى معرفة حالى النفس كما أن هداية الرسل للخلق وارشادهم لهم الى طريق الحق في ذلك هو من القبيل الاول على خط مستقيم لا عوج فيه ولا ضلة من شيطان النفوس وغواياتها.

كذلك على هذين العاملين القويين والدافعين المهمين للنفس البشرية وسيادة سلطان العقل عليهما قام وازع الشرائع متدرجاً من بسيط العادات الى دقيق المركبات وأسس علماء الاخلاق والتربية فى الامم والشعوب من قديم الزمان كذلك علومهم المقصود بها تهذيب النفوس وتربية الاخلاق الفاضلة وكبح جماح مضاداتها فى الانسان لتقوية الموازنة في أعماله وايجاد التكافؤ بين خلاله لترسخ قدمه في المدنية الحقة ويتأصل رقيه بالاستقامة فى أداء وظيفته في مجتمعه الانسانى لاسيما منذ صغر السن وعهد الحداثة والشبيبة لانه الزمن الذى يكون فيه الانسان غصنا رطباً وعوداً نديا يسهل تقويمه ويجدي فيه تهذيبه لحسن استعداده وتمام قابليته حينئذ وان كان الانسان بالحقيقة لا يفرغ له هم ولا ينتهى له شغل من تربية نفسه وتثقيف عقله بالاستفادة خصوصاً من مجريات الاحوال المحيطة به فهو فى دور التربية

كيفما كان وبالتالى في التجارب كما قيل من المهد الى اللحد .

* *

والتربية وان اتحد بنو الانسان في جميع الازمنة والبقاع المتمدنة على ما تحراه من الاصول العامة والاخلاق المجمع على أفضليتها للنفس البشرية ورذائلها الشاملة الشائنة فى أحوالها المعينة الا ان علماء الاخلاق والتربيـة اختلفوا فى الوجهات والاميال بحسب الظروف والمناسبات اختلاف المتشرعين لذلك كذلك فمن ثم كان هناك التربية الدينية المحضة والتربية الانسانية الخيالية العالية والتربية الدنيوية الحديثة الى غير ذلك

ولما كان خير الامور الوسط لذلك كانت التربية التى تكفل للانسان سعادة الدارين هى الحرية بالاتباع والاقتداء وحسن القبول لانها العروة الوثقى التى لا انفصام لها بل هى الضالة التى يجب نشدها كما نشدها من قبل اسلافنا الاول وعرف كيف يستفيد منها ويستخدمها على احسن وجوهها المتأخرون من الاوربيين ففازوا في معترك الحياة بأجل الارب وأجمل الغايات وأهملناها نحن مخلدين الى أرض السكينة والدعة شيئاً فشيئاً الى أن انحططنا تماما خلقا وعملا

ولقد عرف علماء الاخلاق من الاوربيين التربية فى هذا العصر بتعريفات شتى وحدوها بحدود جمة هى ولئن جاءت مختلفة الصور متباينة الصيغ لكنها ترمى الى غرض واحد من حيث ان فى نفس الانسان كما تقدم أصول أخلاق كريمة واخري تضادها بنوع ما فكل قصد فى تعريفه وتحديده تقوية أو مطاردة أصل منها بحسب ما ارتأى واختار وكان من مجموع تعريفاتهم وتحديداتهم ما أجمله وأدمجه الفيلسوف سبنسر فى تعريفه حيث قال « الغاية من التربية هى أن تهيئنا لان نعيش عيشة الكمال »

وعلم الاخلاق والتربية كأكثر العلوم الاجتماعية ينقسم الى قسمين نظرى وعملى . فبالاول تستفاد المبادىء الاولية والاصول العامة والقواعد المجمع على جودتها كالواجبات والحقوق ومحاسن الاخلاق العامة الى غير ذلك مما يكتسبه العقل وتتلقفه الاذهان بالتلقي والتوقيف والاستنتاج من الوجدان فتكون قانوناً للعقل يحكم به على الخطأ والصواب في الحياة الادبية . وبالثانى يحصل التطبيق والمزاولة الفعلية لتلك الاصول فى سائر أحوال السلوك وآداب المعاملات الاجتماعيه

ولا سبيل للفصل بين هذين القسمين من التربية والاخلاق

فمن عرف الاصول وحفظ المتون ولم يعمل بها كان كمن بيده مصباح منير يمكن ان يهتدى به في سيره فى ظلمات الليل البهيم ولكنه يهمله مع ذلك لسبب ما ويمشي فى الظلام الدامس ومن طلب العمل في الحياة الادبية والاحوال الاجتماعيه بغير تلك الاصول خبط خبط عشواء وكان مثله كربان السفينة يسير فى عجاج البحر بغير « بوصلة » تحفظ له طريق سيره وخطة وجهته ألا تراه يضل مقصده ويبعد عن غايته ؟

☆
☆ ☆

والتربية كما لا يخفي تحتها الان ثلاثة أنواع . الاول التربية الطبيعية تربية الجسد بالنظر لاتخاذ الوسائل الصحية الضرورية في تدبير الاجسام وحفظ قوام الابدان من حيث المأكول والمشروب والملبوس والراحة والرياضة البدنية لان فى تقوية الابدان أهم الوسائط لتنمية العقول وتقويتها وترويح النفوس ونشاطها اتباعا للقول الروماني المأثور (العقل السليم فى البدن السليم)

الثانى التربية العقلية من حيث تلقى العلم واكتساب المعارف الضرورية لتثقيف العقول وتنمية الملكات الذهنية وهذه تتلقى بالاكثر في المدارس والمكاتب وتستفاد من جهة أخرى

بالتطبيق والتأمل فى محاسن الطبيعة وامعان النظر في أعمال الخلق ومصنوعاتهم وفنونهم الجميلة فهى ليست اذاً مختصة بالانكباب على الدرس والمطالعة فقط وإن كان ذلك أسها وعمدتها

الثالث التربية الادبية تربية الاخلاق الكريمة والخلال الجميلة وهى أهم وأدق ما في الباب بل هى بالحقيقة بيت القصيد منه ولذلك قد خصت في العادة بالذكر وأفردت بالكلام عند المتقدمين من الاخلاقيين ولا غرو فان الانسان ان لم تكن كل اعماله وافعاله مؤسسه على مبادىء الصفات الادبية الكريمة من مثل « الحكمة » و « العدالة » و « العفة » و « الشجاعة » الى غير ذلك وبالتالى ان لم ترجح هذه الخلال الحسنة فيه على اضدادها من الرذائل النفسانيه كثرت شروره ورجحت مضاره على منافعه فى المجتمع الانسانى بلا أقل التفات الى جمال صورته وحسن بزته أو كبير علمه وقوة بنيته .

هذه أنواع التربية الثلاثة في جملتها دون تفصيلاتها وأفانينها العصرية الكثيرة وللمربى بازائها أدوار ثلاثة أيضاً هى الاوساط أو كما يسميها البعض المدارس الثلاث التي ينتقل فيها الانسان ويتدرج منذ تلده أمه الى أن يقبر فى لحده ويقتبس

فى خلال حياته الدنيوية كل أخلاقه ومعلوماته وأفعاله منها فان كانت أوساطاً صالحة جيدة مبادىء التربية في جملتها كانت خلاله فى الغالب جيدة وان كانت غير حسنة كان هو كذلك على الارجح

وهذه الاوساط أو المدارس الثلاث التى يتدرج فيها المربى وينتقل كتنقل القمر فى منازله هى . أولا العائلة التى يولد فيها وينشأ على ما نشأت عليه . ثانياً المكتب أو المدرسة التي يتعلم فيهامبادىء العلوم ويتلق أصول المعارف الضرورية مقتبسا نوره من نورها . ثالثاً وأخيراً الهيئة الاجتماعية التي يعيش فى كنفها يخالط أهلها ويعامل ناسها ويستظل بوارف ظلها

٭ ٭ ٭

ونحن اذا سبرنا أحوالنا القومية الخصوصية بمسبار النظر الصحيح والنقد الرجيح بالقياس والتطبيق على تلك الاصول العامة الضرورية في صلاح أحوالنا وانتظام أمورنا وتقدمنا الذاتى ومبلغ ماحصلناه تلقاء مايقتضيه حال هذا التمدن العصرى وكماله عندنا لوجدنا أنفسنا فى حالة لم نبلغ معها بعد درجة راقية من أصول التربية الصحيحة ومبادىء الرق الحقيقي على نحو

ماتتوخاه الامم المتمدنة التى تعرف كيف تاتى الامور من أبوابها ولولا عناية الحكومة السنية بنا فى كثير من الشؤون الارتقائيه والاحوال الاجتماعية لألفيتنا على حال قد لا تسر الخاطر ولا تشرح صدر المحب فى مثل هذا العصر الزاهى الزاهر

فمن جهة التربية البيتية العائلية تلك المدرسة الاولى المهمة لنا فانها ما زالت منحطة عندنا للغاية لا سيما في طبقاتنا الدنيا وسوادنا الاعظم حيث العناية بامر الصحة مفقود بالمرة وتعويد الاطفال على مبادىء التربية الصحيحة معدوم البتة لم تزل الامهات بل والآباء ايضاً لاستغراقهم في الجهل يحسبون ان من الشفقة ترك الحبل للاطفال على الغارب فلا طعامهم يعتنى به ولا اوساخهم تزال الا بشق الانفس ولا امراضهم تداوى الا بالاوهام ودجل العجائز ولا تعويد لاخلاقهم والسنتهم الا على السفاسف وبذىء الالفاظ نفرح اذا شتمونا ونمرح اذا كذبوا علينا حاسبينهم في هذا السن اللطيف العوبة لنا وتسلية لاوقاتنا وفاتنا اننا نجنى باهمالنا حقهم من التربية على انفسنا وهيئتنا الاجتماعية فى رجال الغد وامهات المستقبل

وتربيتنا العقلية ليست على ما يرام ايضا سواء من حيث

نوعها وتأليفاتها وطرق تعليمها القديمة المتعبة او من حيث غايتنا العصريه منها نعم ان هناك شبه ميل عمومى فى التعليم والتثقيف تبديه الامة من حين الى حين كلما رأت حاجتها اليه الا ان القصد من التربية العقلية الحقيقى ما فتىء غير مدرك منا تماما والمساعي المبذولة لتقوية هذ النوع من التربية النافعة في البلاد لم يزل فى طور الفكر والتخمير وهو ولا ريب قد لا يخرج من حيز القوة الى حيز العمل النافع الا اذا تنبهت الامة واستيقظت له بل وساعدت عليه بالعزم الاكيد لان الاصلاح المادى ومشروعاته العظيمة التى يقصد بها خير الامة وزيادة رفاهيتها وتقدم احوالها الصحية كل ذلك لا يعود على الاهالى عموما بالفوائد الجليلة التى ترجى منه ما لم يكن مقرونا بشيء جوهرى من التعليم والتثقيف المفيد

ومبلغنا من التربية الادبيه الاخلاقيه التى هى ام الباب وخالص اللباب تافه جدا تبعاً لتربيتنا العقليه ومشين فى الغالب من الوجهة العملية على الخصوص لذلك مما قد اصبحنا معه ولا حكمة عندنا فى الامور ولا عدالة غالباً فى الافعال ولا سعادة فى العائلات ولا معرفة بالواجبات ولا متانة فى الاخلاق . فلاحنا

يكمن الضغن والاحقاد ويبيت على حب الانتقام وحضرينا يميل الى الشهوات ولا يبالى باقتحام الفساد مع ان ميراثنا من تلك التربية الادبية الصحيحه ومبادىء الاخلاق الزكية الطاهرة عن اسلافنا فقط غير قليل ولا هو بالشيء الذي يستهان به اذا ما استخلص وصفى وسهلت مناهج وروده وطرق تناوله على النفوس بحسب ما يناسب ظروف الزمان ومقتضيات الاحوال وقد كفانا سيراً الى الوراء في حين أن العالم كله سائر الى الامام طلباً لكمال الحياة وحياة الكمال .

الفصل الرابع

فضيلة التوفير ورذيلة التبذير

والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا
ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما
قرآن شريف

ملكة التوفير وخلة التدبير من الخلال الشريفة ومحاسن الشيم المنيفة التى متى استحكمت من نفس صاحبها وذاق لذة رحيقها المختوم وجنى من شهى ثمارها اليانعة لاجرم صيرته قوى العزيمة منعم العيش مرتاح البال مطمئن الخاطر ينظر الى

مستقبله بعين ملؤها السرور وفؤاد طافح بالامل والحبور ولا غرو فقد قيل في منثور الحكم السالفة ونوابغ الكلم الماضية « من اقتصد في الغنى والفقر فقد استعد لنوائب الدهر » بخلاف رذيلة التبذير وردىء خصلة الاسراف وسوء التدبير فانها مجمع العيوب ومنقصة النقائص ومجلبة الخسائر تحمل المرء ما لا طاقة له به وتحمله أخيراً على الحسرة وخيبة الامال والقنوط واليأس حتى من الرزق الحاضر والربح الموجود وان كان عظيم الخطر كبير المقدار

وليس التوفير وحب الادخار في شيء من البخل والشح الممقوتين شرعاً وعرفاً المانعين من أداء الحقوق والقيام بالواجبات في المال كما ان حب الرفاهية والزينة بالقصد والاعتدال المحبب الى الاذواق السليمة ليس مرادفاً للاسراف والتبذير المذمومين المضيعين للمال والحقوق كذلك . فالميل الى القصد والتبذير من جهة وتطلب رفه العيش والتنعم في الحياة ضمن دوائرها المحدودة المشروطة من جهة ثانية أمران لازمان بل شرطان من شروط الحياة الاجتماعية الصحيحة كما أن طرفيهما من التقتير والتبذير سببان من أسباب تعطيلها وعاملان من عوامل تأخيرها وانحطاطها .

والتوفير اصطلاحاً عند الاقتصاديين عبارة عن « امتناع الانسان باختياره عن استعمال بعض أشيائه التي يصح ادخارها لتحصيل نفعها في المستقبل استغناء عن استهلاكها في الحال » وهاته الاشياء التي يحرص عليها وتدخر لوقت الحاجة كما قد تنفع الانسان في رأس ماله الخاص وتقوية عمله الحالى تكون على الخصوص نعم العون له فى أيام الشيخوخة وزمن المرض والبطالة أوتنضم في النهاية الى ميراثه الحلال لاولاده وورثته فهى على كل حال وكيفما قلبتها وجدتها ذات نفع جليل ولا ضرر فيها البتة على معيشة الانسان الحاضرة

وانه وان يكن هناك أشياء كثيرة يجوز ادخارها من أنواع السلع والمتاع غير انه لما كانت « النقود » من الذهب والفضة ومافي حكمها وقوتها من الاوراق المالية هى الواسطة الوحيدة الآن فى المعاملات وتبادل كل المنافع لهذا وقع الاختيار على تفضيلها فى الادخار على سواها اقتصادياً كما قد سهل على النفوس من قديم الزمان اعتياد استخدام هذا الدرهم والدينار في سد جميع الحاجات وحبسهما واعدادهما لدرء كل الملمات فالتوفير اذن يفضل ويتحتم أن يكون فى صنف النقود دون غيرها من أنواع

السلع والمتاع الا اذا كان ثم ضرورة قاضية بذلك تبعاً لمقتضيات الاحوال الاقتصادية الاخرى.

وللتوفير ثلاثة شروط . أولها ـ التمكن أى القدرة على تخفيض النفقة والمصرف وتقليل استنفاد مادة العيش. الثاني ـ قوة الارادة له والرغبة فيه. الثالث ـ مقدار حرص النفس والتبصر فى العواقب فى الانسان خوفاً على مستقبله

ولقد يرى الشرط الاول لاول وهلة بالنظر السطحي انه غير متيسر في الحالة الراهنة لكثير من الناس ولا هو بالممكن خصوصاً للفقراء ومتوسطى الحال لان ضروريات العيش وكمالياته وسرعة حركة دولاب الاحوال الارتقائية وتقلباتها العظيمة قاضية على هذا الفريق الأعظم من أفراد الامم المتمدنة بمجاراة تلك الاحوال الزمانية وملابساتها الارتقائية في معائشهم وأحوالهم فلذلك قد تكثر عليهم النفقة وتفتح أمامهم أبواب الحاجات بكثرة وتضاعف كلما تقدمت الشعوب فى الحضارة وهي قد لا تسد الا بعد أن لا تبقى على شيء من أرزاقهم ومكاسبهم فكيف يكون لهذا الفريق حظ أو نصيب من القدرة على توفير الدرهم والدينار اللهم ان هذا شيء لا يقدر عليه إلا الاغنياء والموسرون

وأرباب تلك الاموال الطائلة أما ذلك الصانع الفقير وهذا العامل أو المزارع المتوسط الحال فلا سبيل لهما الى التوفير بالنظر لمطالب الحياة العصرية الجمة التى قد لاتفي بها أجورهم وأرزاقهم وان ارتفعت بنسبة تقدم تلك الأحوال أيضا

تلك هى بعض الشبه الاعتراضية التى قد قامت وتقام غالبا فى وجه «التوفير» والقول بلزومه وضرورته لكل أفراد الهيئة الاجتماعية لاسيما لذلك السواد الاعظم من الامة الذى على قوة حياته ومتانة أحواله الاجتماعية يتوقف رقى الامم ونمو الشعوب وهى بالحقيقة اعتراضات واهية ومغالطات سوفسطائية تثيرها عادة الطباع الناقصة النزاعة الى حالتها الوحشية الاولى وشهواتها البهيمية الغالبة على النفوس محتجة بحجة التمدن ومطالب الحضارة فتقهر السفاهة الاحلام ويدحر الجهل العقل فيحصل التبذير والاسراف فى الارزاق والاقوات ويخرج الانسان من هذا المعمعان بادى الانفاض خالى اليد ساخطاً على الزمان والمكان وهو لعمري لو تدبر قليلا لرأى أنه وحده الملوم المعيب الجانى على نفسه باعطائها كل مشتهاها ومناها في الحال دون النظر في عواقب الامور ومصائر الاحوال فى حين أن الكيس الحازم

والمتمدن الحاذق قد لا يعدم الواسطة في تدبير حاله ولم شعثه أياكان كسبه والظروف المحدقة به

وما يزع النفس اللجوج عن الهوى من الناس الا حازم الرأى كامله

على انه زيادة على ذلك فانه لا سبيل لطوائف العمال والصناع الى نكران أن ما يحصل لهم من الاجور ويصل اليهم من الارزاق بنسبة أحوال معيشتهم قد يكفى بل يربوا أحياناً على نفقاتهم والا لما وجدوا السبيل مثلا الى طرق أبواب «حانات المسكرات والمخدرات» و«أماكن الفساد» واستعمال «التبغ» بكثرة زائدة والنزوع غالباً الى تكليف النفس وتحميلها فوق طاقتها محاكاة للاغنياء في أحوالهم المعاشية . أليس في هذا دليل وأى دليل على مقدرة هؤلاء الناس غالباً على التوفير ولو بالشيء اليسير مما يصرف على هذه الامور «الغير ضرورية» بل والتي ليست بالحقيقة فى شيء من رفاهية العيش المطلوبة اقتصادياً وهم مع ذلك قد يتركونها ناحية وينفقون على تلك الاشياء الفاسدة بكل ارتياح جميع مكاسبهم وأرزاقهم بلا حساب ولا أقل اكتراث؟

والشرطان الثانى والثالث من شروط التوفير من صفات الامم المتمدنة وخصائص أفراد الشعوب الراقية التى حسنت

تربيتها وثقفتها العلوم والمعارف وحنكتها التجارب الاجتماعية فقرأت العواقب وحلبت اشطر الدهر أما المتوحشون فالغالب انهم لا يميلون الى التدبير والتوفير والظاهر انهم لا ينظرون الى المستقبل الا كما ينظر اليه ذلك الحيوان الاعجم فالمتوحش مثلا يقطع الشجرة من أصلها لتنال يده ثمرتها والمتمدن يغرسها ليجنى منها أولاده ومن هنا ينكشف الحال ويتبين لنا الفرق بين طبقات الامة المتمدنة الواحدة فالتدبير والتوفير يلازمان على أشدهما عادة طبقاتها المتعلقة المنضية لعزائم العقول جداً ونشاطاً ثم يفارقها شيئا فشيئا في طبقاتها النازلة التى قد يكثر فيها التبذير وسوء التدبير والفساد أيضا تبعا للظروف الاجتماعية الاخرى التى لما لا تقدر على مقاومتها والتخلص من شرورها لقلة استعدادها وعدم كفاءة تربيتها تكثر من المشاغبة والمعارضة بمثل ماتقدم من الاعتراض على التوفير والقول بلزومه فيرد عليها الاقتصاديون والاخلاقيون ويرشدونها الى مافيه خيرها ومصلحتها مبرهنين على فساد مزاعمها واعوجاج سيرها من ذات سلوكها على نحو ما سبق أيضا

على ان ماير يده ويتحراه علماء العصر من الخير والاصلاح

لكل طبقات الهيئة الاجتماعية من هذه الوجهة المهمة وغيرها هو عين بل صدى ماجاء عن اساطين المتقدمين فيها ففى الحكم المأثورة عن سلفنا الصالح شيء كثير يهدى بالحق ويرشد بالصدق الى فوائد حسن تدبير المال وتوفيره وسوء مغبة الاسراف والتبذير ففى القرآن المجيد احكم الحكم في هذا الباب كتلك الآية الكريمة العجيبة الجامعة لصفوة مقاصد علم الاقتصاد وقد طرزت بها صدر مقالى هذا « والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » والآية الشريفة « ولا تبذر تبذيراً ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا» الى قوله تعالى «ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسوراً»

وجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث « ما احسن القصد فى الغنى وما احسن القصد في الفقر وما احسن القصد فى العبادة» وحديث «ليس في السرف شرف» وحديث «انك ان تذر ورثتك اغنياء خير من ان تذرهم عالة يتكففون الناس»

وعن ابى بكر الصديق رضي الله عنه (انى لأبغض اهل بيت ينفقون رزق ايام فى يوم واحد) وعن عمر بن الخطاب

رضى الله عنه (ان الله يحب القصد والتقدير ويكره السرف والتبذير) وعنه ايضا « اصلحوا أموالكم التى رزقكم الله فان اقلالا في رفق خيرمن اكثار في خرق » وقال ايضا (لا يقلّ مع الاصلاح شيء كما لا يكثر مع الافساد شيء) وقال الامام على رضي الله عنه (ما اعال من اقتصد) وقال معاوية رضي الله عنه «حسن التقدير نصف المكسب وهو قوام المعيشة» وعنه ايضاً « ما رأيت تبذيراً الا والى جنبه حق مضيع » وقال ابن عباس رضي الله عنهما « اطلبوا الغنى باصلاح ما فى ايديكم فان الفقر مجمع العيوب » وقال ابو حنيفة رضي الله عنه (لاخير فيمن لا يحفظ ماله ليصون به عرضه ويصل به رحمه ويستغنى به عن لئام الناس» ومما يعزونه الى افلاطون (راس العقل الاقتصاد فى الانفاق من غير بخل» وقيل «ماوقع تبذير في كثير الاهدمه ولا دخل تدبير فى قليل الا ثمره» وقيل ايضا « من حفظ دنياه حفظ الاكرمين عرضه ودينه » وقال الشاعر

أنفق بمقدار ما استفدت ولا ... تسرف وعش صاح عيش مقتصد
من كان فيما استفاد مقتصداً ... لم يفتقر بعدها الى أحد

هذا قليل ما حضرنى واخترته من كثير مما جاء من آيات

الحكمة والموعظة الحسنة بهذا الصدد العظيم عن متقدمينا وسلفنا الكريم فالتدبير والتوفير على كل حال ممدوح محمود المغبة على كل أفراد الناس وليس هو مع ذلك بالامر العسير على الانسان العاقل اذا أراده وسعى اليه سعيه الرشيد لان المرء الحازم قد لا يعدم الواسطة فى اقتصاد جزء ولو يسيرا على سبيل الوفر والادخار للمستقبل من نفقته وكسبه اليومى أو مرتبه الشهرى أو دخله السنوى و « ايداعه جانباً » بلا اخلال بنظام معيشته بنسبة حالة يساره وعادة شاكلته وانما الذى يمنعه ويباعد به عن اتيان هذا الامر الجليل وسلوك طريق هذه الفضيلة الاقوم انما هو ما قد سبقت الاشارة اليه من سفه النفس وجهلها أو تجاهلها لحقائق الامور وحسن التبصر فى عواقبها فيصرف الانسان فى غير مصرف وينفق ويبعثر على غير ضرورة وهدي ثم يقعد اخيراً ملوما محسوراً

والتوفير وان كان معهوداً من قديم الزمان فى الامم والشعوب المتمدنة لحرص النفوس وحبها لهذا المال على الدوام وامساكها له على درجات متفاوتة غير أنه لم يكن بحسب نظامات تلك الاعصر الا عبارة عن (تخزين) الدينار والدرهم وحبسهما

في الصناديق واخفائهما عن العيون فى الخبايا والزوايا دون الانتفاع بهما بوجه من الوجوه أما الآن فقد استنبطت للتوفير طرق عظيمة ووسائط حسنة بل مشوقات جليلة تستخدم بواسطتها تلك النقود من جهة وتعتبر توفيراً مع ذلك لاربابها من جهة ثانية والفضل في ذلك يرجع الى النظامات الاقتصادية الحديثة التى كان من مبتكراتها فى ذلك (أولا) انشاء «صناديق التوفير العمومية» سواء بواسطة مصالح البوسطة أو بعض البنوك المعتمدة (ثانياً) تأسيس جمعيات التعاون الخيريه وشركات بيع اللوازم الضرورية لطوائف العمال والصناع (ثالثاً) وأخيرا شركات التأمين على الحياة خصوصاً التى قد تشبه فى نظاماتها بنوع ما نظام المعاشات في الحكومات المتمدنة .

وهذه الوسائط المهمة الحديثة لتوفير المال وادخار الدرهم والدينار على الفقراء والمتوسطين خصوصاً قد وجدت فى قطرنا المصرى الآن تبعاً لمقتضيات الاحوال التمدنية الحديثة إما بواسطة الحكومة السنية وأما بواسطة الشركات الاوربية ونحوها ومن منا اليوم لا يعرف مثلا الغاية السامية من انشاء صناديق التوفير فى مصلحة البوسطة المصريه وبعض البنوك

المعتمدة أو أعمال شركات التأمين العظيمة التى لها مراكز في القاهرة والاسكندريه أو يجهل الغاية الحميدة كذلك لمثل جمعيات التعاون الخيريه الخصوصيه لعمال بعض المصالح (البوسطة والفابريقات (لفافى السجاير) أو سبب تأسيس بعض تلك الشركات الصغيرة المحلية التى قد يقوم بتأسيسها بعض نبهاء الافراد لبيع اللوازم البيتيـة لاعضائها وللجمهور معاً وتكون أرباحها كسباً حلالا لاعضائها من جهة ووفراً حقيقياً لهم من جهة ثانية هذا فضلا عن جودة البضائع التى ينتقونها لانفسهم بواسطتها

ومن العجب العجاب أنه بالرغم عن علمنا بوجود هـذه الوسائط السهلة المفيدة لتوفير المال بين ظهرانينا خصوصاً صناديق توفير البوسطة وسماعنا بحلها ونفعها العظيم وفضلها في الضمان حتى على بيت الانسان نفسه لم يزل جمهور صناعنا وعمالنا ومزارعينا وتلامذتنا بل وكبارنا أيضاً يحجم عنها ولا يقبل عليها الاقبال الواجب كأنه يخاف على دراهمه القليلة الحقيرة فى جنب غيرها أن توفر عليه ولا تضيع منه بواسطتها ولذلك مابرحت تلك الصناديق التى عم انتشارها انحاء القطر وسهلت معاملتها

حتي على الاطفال الصغار الذين لا يعرفون غير القرش والمليم لقلة معامليها منا كأنها أنشئت اليوم وما ذلك الا للذى وقر في نفوسنا لا من « الخوف والحرص على الدرهم والدينار » بل بالاكثر لقلة التدبر وعدم التبصر فى الامور ميلا مع هوى النفس سفاهة وتبذيراً للارزاق في مغررات من الامور قد نظنها من رغد العيش ومحاسن التمدن أو كسب المال على طريقة « الشطار » من المقامرين وهي ليست في شيء من ذلك البتة ولا نحن من أهل تلك الشطارة الخارقة الآن فيخرج الانسان منا عند تصفية حسابه من وراء هذا الشطط أو ذلك « الطمع » ان لم يكن مثقل الظهر بالديون فلا اقل من ان يكون صفر اليدين نظيف الجيب غير مدخر فلساً واحداً بنسبة حاله وعلى « قدر مقامه »

وهذا الحال من سفاهة الحال وسوء الرأى والتدبير واقع فيه لا اقول كل أفراد الامة المعول عليهم بل لا أقل من نحو الثمانين فى المائة منهم ولا حجة بعد المعلوم ولا برهان أكثر من المشاهد من أحوالنا وأعمالنا السخيفة فالمزارع الصغير قد لا ينتهى من بيع محصوله ويخلص من همه وغلبه حتى تنطلق دراهمه بالسرعة الزائدة الى أيدى هذا العميل وذلك التاجر الى اشباه

هذين ممن يعرف قيمة الدينار وكيف يثمر الدرهم والصانع او العامل لا يقبض «جمعته» (اجرة الاسبوع) الا ويشاطره الخمار او صاحب القهوة في الجزء المهم منها واذا ترقينا بالترتيب الى تلك الطبقات العالية رأينا انواعا اخرى من ضروب السفاهات وحب «الظهور الكاذب» كم ضاعت معها من ثروات وكم قد تبدد فيه من اموال وانه والله لمن اكبر العار واعظم الآثام والجرائر ان نكون امة كثيرة العدد عظيمة الكثافة بالنسبة الى الارض الصغيرة التى تقلنا وتدر علينا مع ذلك خيرها الجسيم وبرها الوفير بواسطة نيلها السعيد المبارك بما قد لا تقاس عليه احسن بلاد الله الواسعة ونكون مع هذا على ما هو محقق اقل بمراحل كثيرة من اقل الامم المعاصرة المتمدنة مالا ذاتيا مخزونا ووفراً خصوصياً مدخراً لنا فى «مستودعاته» العصريه المفيدة لا اقول حتى ننافس ونعمل به الآن الاعمال العظيمة التى تقوم بها الاموال الجسيمة الاجنبية فى بلادنا بل لكي ننتفع به فقط وقت العوز ونستعين به حين الحاجة وهى هى ما اكثرها واصعبها على النفوس الابية اذا كانت غير متزودة لها زادها ولا معدة لها عدتها

الفصل الخامس

﴿ إياك ومجاوزة الطاق(١) ﴾

لكل آنية فراغ محدود فاذا كانت مما لا يسع الا رطلا واحداً من الماء فمها عولجت فانها لا تقبل ولا بضع دوانق من الزيادة فوقه والا طفح كأسها فالانسان مقيد في مثل هذا الحال بالمادة التي لا تعير أغراضه آذانا سامعة فهو ملزم معها بان لا يتخطى حد طوقها ومحدود فراغها فيجب ان يضع في الرطل مثلا ما يسع الرطل بلا زيادة عليه شيئاً ما

أما مع جسمه فشأنه شأن آخر لما لهذا الجسد الضئيل من قابلية التمدد واللدانة فاذا شاء صاحبه أن يكرهه فلا يشعر من نفسه بالتقيد أو الايقاف عند الحد — ولو ضمن حدود عظيمة الاتساع - بواسطة أية صعوبة جوهرية ظاهراً فيلحقه الغرور وغواية النفس بأن في قدرته كل شيء بالنسبة الى تلك الذات اللطيفة

(١) هذا الفصل والفصول الخمسة التالية له كلها معربة بتصرف قليل أو كثير عن مختار مقالات للدكتور تولوز الشهير الذي يكتب من وقت لاخر في جريدة « الجورنال » الباريسية تحت عنوان « ابحاث اجتماعية » المقالات العمرانية الجليلة والفصول العصرية ذات الفوائد العظيمة .

هذا هو السبب الاصلى فى مصائب الانسان وداعية ويلاته الذاتية . يجهل قدر نفسه ومقدار ما يمكن ان يتكلف فى شؤونه العملية وهذا باب واسع في فن تقويم الحياة أريد ان الخصه فى هذه السطور.

اذا قلنا ان كلا له قدرة وحد لطاقة قواه فقد نطقنا بحقيقة راهنة لمبدأ مسلم به ولا يمكن جحوده ولكن هذا المبدأ ويا للاسف في حكم ما لا اعتداد به عند أغلب هؤلاء الناس الذين يعملون بما يخالفه ويضاده على خط مستقيم كأنه لم يكن شيئاً مذكوراً.

اذا كانت تلك هى الحال السائدة ففى الحقيقة كل لا يعرف قدر حاله جيداً بل كل يجهل كل شيء فى نفسه خصوصاً فى تينك الدائرتين العظيمتين صحة الابدان وقوة الاجسام.

كنت أفحص حديثاً شاباً ضئيلا ضيق الكلكل ذا وجنات بارزة يعلوها احمرار دلنى بضميمة علامات أخرى على أنه مصاب لدرجة واضحة بالسل الرئوى الا ان هذا التعيس كان يرى من نفسه أنه الصحيح القوي الجدير بتحمل واقتحام أعظم المشاق وكان من شأنه معي أن قرع على صدره الضعيف قائلا

بالافتخار - انى تعب قليلا ولكن صدرى سليم

ان أكثر الامراض ينجم عن الجهل بالنفس وعدم معرفة ماللبدن من الحق فترى هذا وهو بمزاجه معرض لمرض الروماتزم مثلا يميل الى أشياء اللهو والرياضة الخلوية الكبيرة بما قد يخرج عن حد الاعتدال المفيد وحيث يقتضي ذلك منه التعرض لرطوبة الارض والهواء. وتري ذاك وقلبه يدق بما ينذر بالضعف من أكبر المغرمين بالركوب المولعين بالمسابقات لدرجة الاجهاد والاعياء الخطر على جهازه الدوري وهو من شدة شغفه وولوعه لا يكترث بذلك

ان فى هذا بالحقيقة كثيراً من أمور الغرور المدهشة المحيرة بما قد يبدو فيها من العناد والتصاب ازاء الحقيقة الناصعة من طوق الانسان وحد اقتداره. كان لى فى صباي صديق جل مناه أن يظهر بمظهر كبار الاكاذين مع أنه لم يكن ثمت شيء فيه يؤهله ويرشحه لأن يكون كما يريد لا استعداد بنيته ولا مساحة معدته التي كانت على الضد من ذلك لم تخلق الا لفم صغير النطاق كفمه لكن هذا الغرور كان مرمى نخار صاحبي المستغرب لمثل عقله الذكى على ماكنت أرى أن يجعله ثم فكان جل زهوه

أن يلتهم أمامنا اللقم الجسيمة مما كان لا يكاد يسيغه أو تبقى عليه معدته غالباً ولم يكن هذا بالذي يردعه ويرشده الى الرجوع الى الصواب والتزام الاعتدال وقوفاً عند حد الطاقة ثم انه لكي يعظم لنفسه تلك الشهرة وذلك الصيت اللذين أكسبهما نفسه زوراً وظلماً أنزل نفسه منزلة البطن وعاقبها عقاب الشره فصار الفظ الغليظ يتعب ويسيل عرقه سعيا وراء التهام ما لذ وطاب من المأكولات والمشروبات وهكذا صار يتعب ويكد أيضا الى أن أسرعت به الخطا بعد ذلك بقليل الى سكنى باطن الارض.

وهناك أناس آخرون — وكل فيه قليل شيء من هذا العيب يعرفون ما فيهم من الجانب الضعيف ولكنهم يعملون بما يضاده كأنهم يجهلونه. وهذا الشأن المخالف لما يجب أن يكون عليه السلوك في الحياة هو الذي يلزم كلا أن يعمل على قمعه ومخالفة النفس فيه لانه مجلبة الكثير من المصائب التي يمكن أن ننغص بها ونذوق مرارة آلامها وسيء عواقبها بنوع ما يوما من الايام

قصصت آنفاً حكاية صاحبي ذلك الاكول الكاذب الذى يذكرنا بالمثل الخرافى لتلك الضفدعة التى أحبت أن تقلد الثور فلقيت حتفها بظلفيها. لكن كم هناك في العالم من أناس يعملون

عمل صاحبنا هذا عند سنوح الفرص . أو وجود المناسبات كأن يوجد الانسان في حفلة عشاء عند بعض الاصدقاء ويكون هذا الصديق قد صنع لمدعويه كثيراً من ألوان الطعام بما قد يكفى لاضعاف عددهم فلكي (نجبر بخاطره) لابد لنا من خلع رداء التكليف وما أعتدناه من القناعة والتوسط حتى نسر خاطره مع انا نتعرض بالضغط على أنفسنا واكراهها ـ سواء كان حقيقة أو مجازاً ـ الى عسر الهضم الذى قد يهيج علينا عدة أمراض كالصداع أو أحد أمراض المعدة والامعاء أو مرض النقرس والعياذ بالله. وانى لأسأل لم كل هذا التكلف والتقحم المضر ؟ ان جواب ذلك لمخجل لاننا فى كل هذا نعرض نفوسنا للوقوع فيه فى سبيل مجاملة كاذبة واعتقاد باطل . ان من الضروري فى مثل هذه الظروف (جبراً لخاطر المضيف) عدم رفض ما كان قد تكلف صنعه من أجلنا من ألوان الطعام بلا ترو منه أولا ومنا نحن ثانياً

واذا انتقلنا الى دائرة الشراب كان لنا منها حال شر من هذه الاولى فحجتها سهلة القبول ومجاملاتها أكثر والانجرار فى مزالق شرورها أعظم . فعادة الشرب بأكثر مما يقدر عليه

الانسان هى تقريباً يعتادها الشاب دائما بواسطة روح التقليد البسيطة فالكأس الاولى التي يسمونها (مفتحة الشهيه) أول ما تحبب الخمر الى النفس منها أن تؤخذ كعلاج بسيط لفتح الشهية الى الطعام سواء بحق أو بغير حق ولكن الشاب يقاوم كل ماتكرهه نفسه لكي يقال عنه بين الاتراب (انه صار الرجل الكامل) ثم انه يثني تلك الكأس ويثلث فاذا اعتاد ذلك ووقعت لذة نشوته منه موقعاً تشجع وحسب الفخر كل الفخر فى ذلك الطريق المتعب المردى طريق السكيرين فيزج بنفسه فيه بالرغم عن انذارات الطبيعة مما ينتاب السكيرين من الاوصاب والاسقام حتى لا يتعدى طاقته فاذا استمر على ذلك من غيه وغوايته فلربما جره هذا مع الاسف الى الوقوع أخيراً فى أحد تلك الامراض القاتلة التى تعتري مدمنى الخمر

ان اكبر عدو للضعيف على أوسع المعانى هو القوى خصوصاً من حيث العوائد والاخلاق لا لان الاول يصير مهضوم الحق مظلوما فى المجتمع بواسطة هذا الثانى بل لان الضعيف مولع أبداً بتقليد القوى لـكى يتمتع مثله بالفخر العظيم الذى تتسم به القوة على جميع الصور والاشكال فقولهم مثلا

« فلان يشرب الاقة ولا يبالى » فيه مافيه من معنى القوة وعظم نظام تلك البنية وبالتالى عظم جنس ذلك الرجل فيرسخ العجب منه والاعجاب به في الاذهان ويعترى النفوس ما يعتريها من ارادة اللحاق به ومساواته فى قوته حتى عنـد بعض أرباب الفطانة وأصحاب الادراك والعقل

ان انسانا واحداً يكون عنده من الاستعداد والقوة فوق المعتاد المتوسط يكون من ذلك في حد ذاته وبلاجريرة منه خطراً كبيراً على كل الذين يقارنونه ويريدون بلاروية الاقتداء أو التشبه به كثيراً كان أو قليلا . رأيت شابا كان من مهرة ركوب « العجلة البسيكلت » وكان من متوسطي الحال فى رياضته عليها فدخل في صحبة رجل من كبار غواة ركوبها الاشداء جداً فجره هذا الى أمور من المسابقات جديرة برجل المهارة في تلك الصناعة مثله فكان هذا الرجل لا يتعب قط من ذلك ولـكن ذلك الشاب التزم بأن يبذل معه للمباراة كل قواه بما جاوز حد ما تحتمل طاقته عادة في رياضته بها فحصل له تعب وألم فى الاضلاع وضيق فى النفس وخارت قواه كثيراً ولكنه اذ لم يكترث بهذه الآلام وبالتالى اذ لم يصغ لتلك الانذارات

الطبيعية انتهى به الحال الى الوقوع فى احد أمراض القلب الذى وان لم يود بحياته تماما فقد تركه الى أمد طويل بين حى وميت

انا نرى من جهة ثانية من وجوه الانجرار في مزالق هاتيك الامور المتبعة التي يلزم الحذر منها والوقوف فيها عند حد الطاقة وملازمة الاعتدال بما منه أعظم النفع وأثمن الفوائد . تلك الاعمال العقلية والاشغال الفكرية فى معاهد التعليم خصوصا فى تلك المدارس التي تحضر للامتحانات الصعبة الدقيقة فان المنافسة تكون صعبة جداً بالنسبة الى التلاميذ الضعاف أو المتراخين فى ترتيب أشيائهم بأوقاتها وهم مع ذلك على جانب من حب الذات والاثرة فهؤلاء الطلبة القليلو الاستعداد أو المهملون بعنادهم وتصلبهم واتعابهم أنفسهم وأباءهم الا ان يساووا التلاميذ النجباء يصلون فى نهاية الامر من دراستهم وقد صاروا خائرى القوى عاجزين عن السير في ذلك السبيل بل ربما كان منهم من يضحى في حكم العدم . تلك حال يجب أن يتنبه اليها أولياء أمور التلامذة وأساتذتهم بل وهم أنفسهم حتي ينجوا من محذورات التعب والوقوع فى الاضرار على اختلاف أنواعها .

ان السهر و« الحياة الليلية » تعمل هى أيضا عملها السيء

القوى بما يتطرف له الانسان فيها فيقع فى المحذورات التي يلزمه ان يتجنبها للسلامة من العطب. ترى الحفلات الليلية على اختلاف أنواعها وقد جمعت اصنافاً من الناس بالازياء الجميلة المختلفة والملابس المهندمة ولكنها قد تحوى الكثير من الاجسام الضعيفة والابدان التى ربما كانت تنهك فيها من جراء السهر وأموره الاسقام فالظاهر أنيق والباطن منها فيه العبرة لمن يعتبر وكلها تميل وتتبع مع ذاك أسخف وأطيش العوائد التافهة الاصطلاحية كالالتفاف حول موائد الالعاب المضرة أو السمر بكرع كؤوس الراح وارتشاف المدام الى غير ذلك مما يوقع فى الاوصاب والاسقام. أتذكر اني لما كنت تلميذاً كنت احد اعضاء فئة من الشبان كانت تميل بالاعتدال الى السهر وتعاطي المشروبات لكن دخل في زمرتنا احد كبار شاربي البيرة الذين كانوا يكرعون منها في الليلة بين الستة والثمانية من الليترات بالارتياح العظيم فأخذ الجنون منا مأخذه شيئاً فشيئاً الا أن نضارعه فى هذا العمل العظيم. في المساء كان يجلب لنا برميل صغير من الجعة يوضع أمامنا فوق مائدة سمرنا فيأخذ كل منا كأسه أو طاسه ويملؤه بيده كلما فرغ من ميذاب ذلك الدن

العظيم ثم بالرغم عن انذارات طبيعتنا وتنغصها وانحراف أمزجتنا من جراء ذلك نحو اليومين وصلنا أخيراً الى القدرة على تعاطى اللترين أو الثلاثة من الجعة في الليلة بينا ذلك القدوة لنا والمثال العظيم الذى حاولنا أن نباريه كان يكرع الستة ليترات منها بكل رشاقة وهو مع ذلك واضع ذراعيه على المائدة يحادث هذا ويسامر ذاك ولا يغيب له حس

أول واجب على الانسان نحو نفسه هو أن يقاوم جهده هذه التيارات وتلك الاندفاعات النفسانية جاعلا نصب عينيه التوفيق والتناسب بين أعماله وأحواله كلها ودرجة قابليته وقوة استعداده فى جميع الظروف والاحوال وليس من الضرورى أن نقتدى بما يصنع الاخرون منها اذا كانت فوق حد طاقتنا انما الذى يهمنا هو ان نعلم بالضبط مقدار مانقدر ان نمنح نفوسنا منها وان لا نبذل سواه مهما كان الحال وأية كانت الظروف الحاكمة فاذا عملنا بغير ذلك فقد رحنا الي ضد الغاية التى يجب اتباعها عند بنى الانسان لاطراد السير المنتظم فى الحياة والاوجب الوقوف فجأة اذ كل يعلم تقريباً أنه لا بد من السكون والوقوف — وأحياناً يكون ذلك الى زمن طويل — عقب مايكون الانسان

قد تعب بالركض الشديد بما قد يفوق مالديه من قوة

أنه باتباع أمثال هذه النصائح الذهبية يمكن لكل انسان أن يتوقى ويحتاط لنفسه من الوقوع فى كثير من الاسقام والعلل التي يكون مصدرها الاعياء وكثرة الاجهاد واضعاف القوى ثم أغلب تلك الامراض العصبية وخصوصاً امراض السل

يجب أن نعمل ونأكل وننام ونتريض بحسب احتياجاتنا وقابلياتنا وليس ثمت انسان قط يشابه في هذا الآخرين أو يساويهم . هذه فكرة عن علم وخبرة ولو لم تكن بالتى تطابق الافكار الجديدة الطلية لكن يلزم أن يبالغ فى تلقين هذه وتفهيمها للشبان أيضاً . فاذا كان للانسان صاحب يقدر أن يركض ويعدو بعجلته نحو الخمسة وعشرين كيلومتراً فى الساعة فهذا يثبت انه الصحيح القلب السليم الرئتين ولكن ليس في هذا ما يثبت أن يكون عندنا منها مثل ما عنده وقس على ذلك كل ما تقدم .

انه من السهل عادة بالنظر الى عمل الانسان اليومي أن يتبين ما قد يحصل له فيه من التعب والكلال ولو بحثنا لرأينا سبب ذلك قد يكون غالباً قلة استيفاء النوم الذى هو بالحقيقة

أعظم مريح لبدن الانسان مجدد لقواه ونشاطه فاذا لم يستوفه هذا بسبب السهر الطويل فقد تراه يستيقظ الى عمله وهو لم يزل تعباً فلا غرو اذا أضحى وهو متوعك المزاج مشوش عليه عمله مضطربة فيه يداه وكل حركاته.

أما اذا كان العمل العقلى هو الذي قد تجاوز فيه الانسان حد طاقته فان أول ما ينذره بذلك الارق والنوم بالصعوبة والاستيقاظ مراراً ومن اكبر علاماته الافتكار والانشغال بالعمل الذى يبقى كمضايق للفكر لا يمكنه طرده واذا لم يكن هذا الفكر متمكناً طاف دائما حول تلك النقطة فحينئذ يبقى موضوع العمل حاضرا فى الفكر لا يفارقه ليرتاح صاحبه . ففى مثل هذا الحال يكون الانسان فى الحقيقة قد تجاوز حده فيلزمه ان يعدد عدده للمقاومة بأن يأخذ راحته ويقطع مادة انشغاله التماساً لراحة عقله اما اذا أخلى نفسه تاركا لها الحبل على الغارب ظناً منه انه يأخذ ما فات من الراحة بالتعويض في غده فانه ربما لم يظفر بذلك باطراد زيادة الانشغال الفكرى الذى قد لا يعود يفارقه البتة .

على أن أول التهيجات العقلية المؤدية والعياذ بالله تعالى

الى الجنون هو اجهاد القوى العاقلة بالقوة رغما عنها ففي هذا الاتعاب والاعياء يجتهد الفكر لكى يتخلص من مراجعات الارادة ولما لم يجد ما يخلصه أو يساعده من قبلها التزم بالتوجه حائما حول مادة ما يشتغل به الفكر والخاطر. وليس من انسان يكون متحفقا في مثل هذه اللحظة من التمكن بالخلاص من تلك الاخطار المحدقة به ما لم يكن له ثم ارادة قوية وعزم ثابت يقف بالنفس عند الحد ولقد دلنى اختبارى الطويل فى المرضى ان الجنون كثيراً ما كان يطرأ على الانسان فى مثل هذه الظروف بضعف الارادة التى عليها مدار المقاومة والوقوف بالنفس عند الحد فى مثل هذه الاحوال

وهناك مسئلة مهمة جداً لا يمكنني أن أغض الطرف وأطوى الكشح دون التنبيه عليها وهى من أهم مغررات النفوس ومردياتها أعنى بها مسئلة عواطف (الاسرار الجنسية) ففى هذا لا لوم على من يغشى الامور بالاعتدال عن رغبة طبيعية صحيحة وانما التثريب على ولوج باب الافراط المنهك لكل القوي تقريباً الذى يجتهد فى التزامه حتى من يلزمه ان يبتعد عنه أو يعتدل فيه ويتوسط .فالتمسك بحبل القناعة المفيد في باب الحب

والميل الجنسي لم يزل من الفضائل القليلة المهجورة لان التوسع في هذه الدائرة ما فتىء له حظ الصول والطول على العقول وأوهامها ومفاخر الانسان الكاذبة على انه يجب بالرغم عن ذلك كله أن يصغى الانسان الى ما تنفخ فى روعه طبيعة حاله أو تقدم سنه يوما ما بانه قد أسرف فى ماء حياته بما انضب معينها

وخلاصة القول أن من اسوأ الاحوال على الانسان أن يفخر على الخصوص بما لا يملك وان يملأ الغرور جوانحه حتى أنه ليرتاح لذلك ؛ لان جسم الانسان وان يكن ألين من تلك الآنية التي مثلنا بها آنفاً ويمكنه بقوة بديعة ان يقبل اكثر مما يسع فراغ طاقته ظاهراً وأمر الغواية النفسانية إذ رأت سهولة ذلك عليها تقوم به بكل ارتياح لكنها من الاسف لا تشعر بما تخسر بما تهدم من داخل بناء هذا الهيكل الجثماني اللطيف بضغطها عليه واكراهها له. فاياك ومجاوزة حد الطاق أو العدول عن جانب الاعتدال قياما بما تقتضيه النفس من الحظوظ والحاجات الطبيعية الحسية والمعنوية مراعاة لحقوق هذه المطية اللطيفة من البدن الانساني حتى تحظي بسعادة هذه الحياة وتنال لذاتها الحقيقية

الفصل السادس

الى الاحداث

(اكراماً لعيد الميلاد)

«يقولون للصغير ليلة عيد الميلاد» ضع حذاءك فى المدخن وغداً عيد الميلاد يأتيك بكل ماتتمنى وتشتهى على أحسن حال» وعلى ذلك ينام ذلك الطفل جذلا مسروراً بهذه الاحدوثة الخيالية . ومتى كبر وظهر له أن هذه الخرافة كاذبة لا يرفضها بتاتاً بل يكتفى بالاقرار بصحتها عندما يلابس أمور الحياة بشكل جدى اذ يكون عيد الميلاد عند الشاب هو ذلك الوالد الذي كيسه دائما عامر ومستعد لان يفي ديون اللعب والحب التى يحدثها الولد . وكنز الميلاد عند المرأة هو ذلك الزوج الذى لا تحد موارده والعيد يجعلها غير مقطوعة عنها . وكنز الميلاد عند جمهور الناس هو صاحب المحل الذى يشتغل الصانع فيه أو الادارة أو الحكومة التى يستخدم فيها وهى أى تلك الخرافة ليست الا رمزاً أو نتيجة حياة الضعف الطويلة التى تخبطت فيها الانسانية مدة العصور والاجيال الماضية . فجعلت الانسان

يعتمد على سند عظيم وعناية سموية قد تأتيه عند الحاجة وساعة العسرة فتفك عقدة شقائه وتحل رباط تعاسته فاذا ربى أولاده شبوا على ما أوهمهم به فكانه يرتاح ويتلذذ بأن يمارس ذلك الغرور والامانى التى هى غذاء أسباب الكسل ومسببات البطالة والاندفاع فى تيار الغرور وعدم التبصر فى العواقب وكل أنواع البؤس وجالبات الشقاء

وانى لأريد أن يبذل الجهد خصوصاً في تربية العقول تربية تقربها من الصواب ومعرفة المسؤوليات أو الاسباب ولما كان هذا الوقت هو الوقت التقليدى الذى تعمل وتؤثر فيه النصائح العملية بمالها من الحظ والحظوة في النفوس رأيت أن اصيغ بعض تلك النصائح خطابا الى الاحداث مؤملا أن يفسره لهم الاباء والامهات ويقربوه الى أفهامهم بالعبارات المألوفة لهم لانها تؤثر فيهم تأثيراً يفوق تأثير عباراتى

أيها الصغير لقد كان الانسان فى وقت من الاوقات يجهل كل الجهل أسباب الامور ونواميس الحوادث التى تحدق به وتدور من حوله حتى انه كان لايعرف ان الارض التى يبنى عليها مساكنه ويشيد دوره والتى كانت تظهر له مثال السكون

والجمود تدور بحركة شديدة حول الشمس. ولم يعرف الا بصعوبة شديدة الاشياء التي يستخدمها للتوقى من العناصر التى كانت فى سالف العصور تهلك وتميت فيه بلا انقطاع

فى البلاد المتمدنة التي ولدت فيها قد أقاموا الجسور على الانهار وفي غيرها من البلدان تفيض الانهار وتحدث تلفا وخرابا فاعلم جيداً انه حيثما يقع ذلك كان سببه عدم التبصر والغفلة اذ في الامكان منع تلك المصائب عن جماعة بنى الانسان قبل وقوعها

لقد أكلت النار وأعدمت كثيراً من الموجودات قبل أوانها مع انه لو كانت المباني كلها تقريباً على الطراز الحسن واتخذت لها الوسائط اللازمة للوقاية والوسائل والاحتياطات السريعة في الاسعاف لا تتشلت من الحريق ولم يكن له مفعول فيها فحيثما وجدت تلك الادوات تقل اخطار الحريق ففى باريس يأمن المرء اضرار الحريق اكثر مما يأمن اضراره فى غيرها من المدن التى لم تتوفر فيها أدوات الاطفاء

الارض ليست ثابتة والزلازل التى انتابت البلاد الايطالية ودمرت بعضها لا تزال آثار اخبارها المحزنة فى الذاكرة كان

جماعة من الناس التعساء القليلى التنور يعيشون هنالك في مساكن لم تكن متينة البناء لتقوى على تحمل أقل هزات الزلازل وصدماتها فعدم تبصرهم وحذرهم أوقعهم فى الشقاء بعد الزلازل

انك أيها الصغير لا تعرف القحط ولا المجاعات التى كان الناس يخافون منها أشد الخوف فانهم يصيرون عند ما تنزل بهم كواسر آبدين يتقاتلون ويتكالبون على الغذاء ويزاحمون فيها الحيوان وربما نبشوا قبور الاموات الجدد وسدوا بلحومها جوعهم الكافر . ولقد كان الدواء الكافى الوافي لسد ذلك العوز من أسهل السبل ألا وهو قيام المبادلات التجارية وتسهيل طرق المواصلات مما يمنع العود الى أمثال تلك الازمان الشداد

فكل هذه المصائب التى هى كما ترى وتعلم الآن ايها الصغير ممكن اجتنابها وليست هى من هذه الوجهة من القضاء الذى لا يرد وان ظهور هذه او تلك منها انما هو راجع الى خطأ الناس

اعتبر الحال في الامراض : فانه يعلم الآن أن بعضها معد وانه يمكن التوقى من عدواه بالوقاية والاحتياط . فالتطعيم بمادة الجدرى يمنع الوقوع فى شر هذا المرض وتنقية مياه الشرب تقلل حوادث الحمى التيفودية وبالتطهير وأعنى به النظافة التامة

وحدها يعمل الجراح العمليات الجراحية التى كانت تعد قديماً بمثابة الحكم بالاعدام على كل من أجريت له. فلقد كنت أحضر وأشاهد وأنا تلميذ عمليات جراحية تعمل فى غاية الدقة والمهارة ومع ذلك فقد كان يحدث فى غد يوم العملية أن تأخذ الحمى المريض وتبدو على شفتيه زراقة اللون ويؤدى الفساد الطاريء على الجرح شيئاً فشيئاً بحياة الجريح. أما الآن فانه بالتحقيق بل وبأقل مهارة مما سبق قد يمكن للجراح أن يبتر الساعد أو الساق بكل سهولة وبلا خوف

كل هذا الذى قلته لك أيها الحدث ربما خرج عن دائرة فهمك فلذلك أروم أن اكلمك فيما هو أقرب وأمس بشخصك فأقول: ان لجسدك استعدادات ومساوىء ولكن ثق انه يمكنك أن تقلل من شأنه بقدر مالك من القدرة العظيمة فلقد كان لى أصحاب نحاف الاجسام ضعاف فصاروا بما نظموه من أحوالهم والصبر عليها يومياً من ذوى البنيات العظيمة والعضلات القوية وانك سوف تعلم أن أولاد أولئك المسلولين الذين يربون في الاوساط العائلية السليمة سيكونون فيما بعد على وجه العموم سليمين وأقوياء فترى من هذا ان كل شىء جائز مع فعل الانسان

حتى تلك الصفات الخلقية فقد يمكن تصليح الحول في العيون ورد الآذان المفرطحة بالاربطة والاسنان البارزة بالتصليح

ثم ان كثيراً من أمراض الاعمار المتوسطة سببها سوء تصرف الانسان فى نظام معيشته كتعاطي المشروبات الروحية والتبغ « والحشيش » وأمراض أخرى تعرض الانسان للوقوع في اشيائها فهذه وتلك هى بعض أمثلة أو هى أشهر تلك الامثلة الدالة على خطاء الانسان ومسؤوليته امام جسده بما يجلب عليه من المصائب

اذا التزمت أنت ان تقيد في دفتر صغير ما ينتابك من الامراض والاسقام الثقيلة أو الخفيفة وأسبابها المعلومة لديك لعجبت مما تقيد الى جانب ما تذكر منها من أغلاطك فكم ترى من حوادث سعال ونزلات صدرية شديدة وعسر هضم مسبب عن تخم وتصدعات في الاعضاء مما قد يكون له أحياناً عواقب مكدرة فسبب تلك الحوادث فى الغالب طيشنا والتجهم على انفسنا بانفسنا

انك اذا انتقلت الى تلك الحوادث الطارئة بغتة ترى ان معظمها لم يكن في الغالب الا مسبباً عن خطاء أيضاً . اقرأ

الاخبار فى الجرائد تعلم مقدار ما يجلبه الاهمال والجهل والحماقة كل يوم من حوادث اختناق بالفحم وكسر فى الاعضاء وتشهيم فى الرؤوس بل حوادث موت

انك تسمع من حولك يتكلم بالبخت والحظ فتمتاد أنت بطريق التمثل والتشبه أن تنطق بهذه الكلمة في شؤونك ولكن كن واثقاً ان الصدف السعيدة او الحظ والبخت فى هذه الحياة الدنيا هى الحالة التى يكثر اهمالها الجمهور الاعظم من هؤلاء الناس وانك ترى عند ما تكبر ان كلاًّ هو تقريبا فى المكان أو المنزلة التى هيأ نفسه لها او جعلها تناسبها فيما هو بصدده من اسباب الحياة على انه يجوز ان يصادف الانسان نجاحا اكثر فى وسط آخر ولكن فى الطريق الذى سلكه وزج بنفسه فى غماره ان اختياراً أو اضطرارا تراه حاصلا بالتمام على ما تستحق مزاياه وتؤهله له فضائله الاجتماعية

وهناك اناس على جانب عظيم من الذكاء والنباهة العظيمة قد التزموا الدرجة الواطئة فيما هم بصدده من المهن والمحترفات ولكنك اذا فحصتهم رأيتهم غير خالين من بعض النقص فترى هذا مثلا خلوا عاريا من كل همة ونشاط مفيد وترى ذاك

تنقصه المعارف أو الاختبارات العملية الضرورية وترى آخر هو الثرثار القوال وآخر ليس بالمخلص ولا بالثقة

كن واثقاً انه لا يكون لك من الصحب والاصدقاء الا ما تستحق فاذا أنت لم تعرف كيف تجتذبهم اليك بتبادل الثقة والتكافل فلا يمكن أن يكون لك معتمد يبطن لك الاخلاص . فالصداقة اذاً من الزوائد في القوة على العمل وقد تلطف وتخفف الآلام فى الشدائد — وفى الشدائد تعرف الاخوان

هذا أيها الصغير ما يجب أن تفتكر فيه بحلول عيد الميلاد الذى يتمثل حين مجيئه لكل من هم فى سنك وعلى شاكلتك انه رسول العناية يحمل كل الخيرات فاعتد منذ حداثة عهدك ونعومة اظفارك بأن تكون فى الغد رجل العمل والجدوانك متي فهمت مغزى هذه الكلمات البسيطة ووجهت على الخصوص جميع اميالك وعزائمك وبسطت رغائبك الى هذا المبدإ الجديد الذى لا يناقض كثيرا مبادىء التربية التقليدية فانك تكون حينئذ رجل المستقبل الذى ينشده مجتمعنا ليزيد فى حياتنا الاجتماعية من الصواب فى القول والعدل فى الفعال

(التطبع)
(أو كيف يتخلص من سيء العادات وتكتسب أحاسنها)

لقد احتفل أخيراً بذكرى «ليبولت» وطنيّ مدينة نانسي الذى كان أحد مستنبطي طريقة علاج الامراض بواسطة التنويم والاستهواء . على ان من المحقق أن الغاية من كل معالجة أدبية إنما هي للضرب على أيدي العادات الرديئة التى قد علقت بالعقل وإحلال غيرها من جديد مكانها تكون أقرب تناسباً لما يتحرى من صحة الابدان وسلامتها من العطب. وكل انسان في هذا الوجود قد يمكنه أن يستفيد مما يرتبه لنفسه من القواعد فينظم حال نفسه ويقوم أود عوده كما نظم الشهير «كنديد» حديقته الغناء ونسقها تنسيقاً جميلا.

إن السر فى صحة الابدان والعلامات الدالة عليها لتبدو فيما نكون عليه من عادات منتظمة بحسب أمزجة أعضائنا وعاداتها وعليه فكل حركة وكل عمل يكون من شأنه التكرار فى أفعالنا يصير عادة وهكذا لو استيقظ الانسان من نومه فى جوف الليل لسبب قسري كسماع صوت طارىء أو بسبب تعب في الهضم أو لأحترازه من دثاره فانه قد يتأتى له أحياناً انه قد يستيقظ فى الغد فى نفس تلك اللحظة التى استيقظ فيها

بالامس مع عدم وجود السبب لما يكون قد علق بذاكرته الغامضة السر من ذلك ولقد يتكرر له الاستيقاظ ويصير عادة قد لا تفارق الانسان نحو الاسبوع أو أكثر أما اذا عاد السبب فتكرر حتى تقوى معه تلك العادة وتستحكم فمن ثم قد يستعصى الارق وليس وراء هذا من مزيد في جر واحداث مرض ثقيل وداء عياء

هذا مثال لما تبنى عليه أمور التربية العصرية وشؤون الاجسام الصحية فأعضاؤنا وأنسجة أجسامنا هى كتلك الاقمشة التى تحفظ آثار أو صور طياتها التى نكون قد طويناها مرة عليها فكل ليف من ألياف جسدنا وأعصابنا بعد إذ يحصل له ما يحصل من التأثر والانفعال بالحوادث قد نراها من ثم لتعود الى العمل بذات الفعل غير محتاجة الى إعادة الكرة فيه الا الى تهييج خفيف جداً حتى اننا قد لا نشعر به ولا نحس فتندفع فى العمل من نفسها كأنها تلك الآلة الموسيقية التى اذا ما أديرت مرة لا تلبث أن تردد الصوت مراراً من نفسها بلا حاجة الى معونة يد الانسان .

ينتج من هذا انه يجب تجنب أي عمل من شأنه أن يخلف

لنا من أول أمره عادة رديئة وخلقاً سيئاً فالحدث الذى يدخن خفية أول سيجارة لايلبث ان ينزج فى غمار التدخين لدرجة ان يستعصى معه داؤه فلايقدر على الخلاص منه الا بشق الانفس . والزوج الذى يحسن له شيطان النفس الاقتداء بتلك الزوجة التعيسة المتعودة على المورفين فيحقن منه نفسه مرة على سبيل اللعب قد يصير عبداً لآفة تلك العادة وقس على ذلك كل الرذائل من التعود على الخمور ولعب الميسر .والسرقة عند الطبقات النازلة

أي حكمة نراها فى ذلك المثل العامى «ليس من صعوبة الا في الخطوة الاولى» لكن اولئك الرجال الذين يلقنونه أولادهم ينقصهم قليلا فهم مغزاه فلذلك هم يجورون فيما يجورون فيه من الحكم .

هذا المثل صحيح من حيث ما يرمى اليه العرف العامى من المغزى فان تلك المرأة التى تضعف وتزل قدمها فتسقط في المهواة يوماً مثلا قد تبقى حيال الرجل المشتبه فيها المرتاب في عفتها ابداً وهو يبنى من ثم حكمه فى مقدار عفة النساء بما قام في نفسه وبالتالى بما تأثر به احساسه الادبي لدرجة أن لا يزول أثر منه

وهكذا الحال عنده بازاء كل فعل ذميم وعمل قبيح غير ان من المروءة وكرم النفس أن يصفح عن زلة الزال فى الهفوة الاولى وان كان من البديهى أن النفوس العالمة بسقطته قد لا تفوته ببعض الظن وتقدير ما تحمل من عار فعلته في نفوسها بما لا يمكن لشريعة العفو وحسن الصفح محوها كما قد تمحى مثلا من صحيفة المجرمين الذنوب والجرائم الخفيفة فى الاحوال الاعتيادية بمضي المدة .

وهذا شبيه في تطبيقه على الحوادث المرضية التى قد تنتاب اجسامنا فان أصغر دمل وأقل جرح ليترك على بشرة الانسان أثراً قد يشاهد أثره ولو بعد عشرات من السنين. واذا حصل للانسان سقطة تسبب له تشويه بعض أعضائه أو أى عاهة فى ذلك الموضع من جسمه قد يبقى التغيير الطارئ طول العمر بل انه بالنظر للاستعداد المرضي الباقى في ذلك المكان من الجسد قد يثور ثائره ويحصل منه قليلا أو كثيرا التألم فلو طال الانسان البرد أو حصل له التعب أو اصابته صدمة او كان ردئ البنية من طبيعته فان هذا وأمثاله قد يوقظ ويهيض في ذلك الموضع المصاب بالعاهة العرضية الآلام ويحرك فيه السقام لتكاثف

اعراض المرض عليه لانه الاكثر ضعفا والاقل قوة ومقاومة من سائر الجسد . والخلاصة ان الانسان متى ما أصيب مرة فى مكان من جسده أو فى نفسه بشىء من تلك الطواريء المرضية الطبيعية أو الادبية استمر موضع ذلك العارض حافظاً لاثر قوة صدمة الاصابة الاولى به .

بالتكرار يرسخ فينا كل ما نقوم به من الفعال والخصال اكثر شيوعاً وشمولا بين الهيئة كانت تلك الفعال وهاتيك الخصال أم اعظم لصاقاً بالاشخاص والذوات فعوائدنا هى « تقاليدنا الفسيولجوية » وفيما يتعلق منها بصحة الابدان وقيامها نرى الانسان من اولئك « المحافظين » في التقاليد التى اعتادها من قديم الزمان وسالف الحقب .

فمن اجيال عديدة اعتاد الانسان ان يمنح نومه زمناً هو نصف الزمن الذى يقضيه فى صحوه وعمله تقريباً بحيث قد صارت النسبة بين اليقظة والنوم هى كنسبة الاثنين الى الواحد وهذه العادة قد اضحت متمكنة وغير قابلة للتغيير المهم الذى لو فرض وحصل لتشوش منه حال الانسان ولاضطراب له مزاجه بل وللحقه منه الخطر

ومن حيث الطعام فانه مثله أيضاً وان كان اكثر قابلية للتغيير بنسبة الاحوال . فالفرنساويون لا يتناولون طعامهم في عين الوقت الذى يتناول فيه جيرانهم غذائهم وهذا قد يباين اجناس والوان الاطعمة الفرنسوية وكيفية طهيها وجملة القول ان الطعام قد يجوز ان يختلف بنوع ما بين شخص وآخر اكثر مما يقع الخلف فى النوم .

لكن هذا الخلف لا بد معه من الترتيب بالنظر الى ذات الاشخاص وهو من افيد العوائد والتطبعات الانسانية فان العمل كله — والهضم واحد منه — قد ينجز بالترتيب بسهولة اكثر مما لو لم تعين له المقادير والساعات المعلومة حتى تستيقظ لها دائماً الذاكرة وتتنبه لها الشهية والنفوس كما هو الشأن فى كل مألوفاتها وعاداتها .

وهاك مثلا صغيرا لما قلت وشاهداً على ما ذكرت — إنى اعتدت ان اتناول فى فطورى فى الصباح بيضاً ثم حدث أني فى وقت آخر استبدلت البيض بنوع ثان من الطعام الخفيف غيرانى لما عدت الى سابق عادتى من تناول البيض بعد ذلك أبت معدتى عليّ الا المعاكسة في الهضم بالتطويل والتصعيب

فيه لان معدتي لما كانت قد خف عنها حمل ذلك الغذاء فلما عدت اليه كانت قد اعتادت ما هو اخف منه فضعفت وصارت لا تعطيه ما يستحق من العصارة الهضميه نوعا ومقداراً

بالترتيب والتنظيم تنتظم العادات وتقوى وتصير سهلة الاجراء وهناك قاعدة عموميه شهيرة التطبيق — فلقد يعلم ان الانسان لكي يزيل استعصاء امعائه فيما تخرج عادة ما عليه الا أن يرتب اوقات الخروج الى الخلاء فيها وهي قد تنقاد بالعادة صاغرة بدون احتياج الى تناول اى عقار او اجراء اى عمل .

وبمثل ذلك يجرى ايضاً في الاعمال لا سيما العمل العقلي فلقد قيل ان الشهير « بلزاك » ما كانت تسيل قريحته الا بين الاضواء الكثيرة . وكثيرون غيره قد يستعينون على القريحة إما بالتبغ وإما بالقهوة أو بالكحول حتي وبسماع الموسيقى . وكل هذه الوسائل - على ما في بعضها من ضرر وخطر - ليست بذات قيمة في الفعل الا لما أعطيت من الترتيب والتوقيت بالاوقات والساعات المحدودة عند اصحابها للعمل وعليه فيكون السر في الترتيب المثير للهمم وبعبارة اخرى ليس من مشوق في العمل غير العمل نفسه

إجلس إمام مكتبك في وقت معين وأبق هكذا منتظراً فانك لا تلبث بالتحقيق الا ان تسيل قريحتك ويجرى عملك مجراه واذا كنت تدخن فضع فى فمك بدل السيكارة عوداً من عيدان الاسنان وإن هذا ليقوم لك وأنت في العمل مقام تلك السيكارة .

ولعل قائلاً يقول - لكن كيف السبيل للتخلص مما يقوم فى هذا واضرابه من الاوهام فى المخيلة مما يتورط له الانسان فى هوى النفس ويضل سبيله الى الحق والترتيب

أقول اولا انه لا يكفى فقط ان لا يكون للانسان فى أعماله وخصاله عوائد رديئة تشوش عليه أمره بل اننا قد لا نعمل عملا بالسهولة وبالاتقان اذا لم نجعل الترتيب رائد كل اعمالنا وسبيل جميع فعالنا وانه لمن اعظم الخطأ واكبر الخطل بل والاضاعة للجهد والتعب سدى او تحصيل نتائج تافهة وشاقة ان يعيش المرء بلا عوائد صحيحة ثابتة وخصال مليحة راسخة وان اعظم وشر ارتباك ادبي لير صد ذلك الذى لا يعرف كيف «يقتاد نفسه بلجم الحكمة وأزمة الترتيب»

فمن ثم يخلق بكل انسان ان يحقق لنفسه الاميال الصحيحة

الطبية التى ارته الاختبارات والملاحظات انها الانسب لشأنه والاوفق لسلامة قواه الحسية والمعنوية .

إنما الصعوبة قد تظهر في مقاومة تلك الاميال المعوجة والامور المعيبة عند ماتأخذ نهجها وتجرى مجراها. على ان امثال ذلك ونحوه من التأثرات العصبية والحاوطات المغوية والوساوس الدافعة والترددات المرضية الى غير ذلك من امور الاضطرابات اللاحقة بالعقل مما يمكن مقاومته بادىء ذى بدء بالسهولة

وأكثر ما تظهر هذه الشوائب العقلية الرديئة وتبتدىء تأخذ مجراها إنما يكون عادة حوالى سن البلوغ والمراهقة وقد تبتدىء بسبب حادث طارئ مثال ذلك صبي دخلت فى احدى عينيه «قذاة» فهذه القذاة ببقائها عدة أيام بلا اخراج قد تسبب له «الخزر» فى تلك العين حتى ولو بعد اخراج تلك القذاة منها وهذا مثال تلك التأثرات العصبية. ومثال الاضطرابات العقلية فتاة قد استوجبت على مافرط منها فى السلوك التأنيب الصارم من أهلها فانها ليبقى أثر ذلك «الدرس» في ذهنها يشغلها ويربك أعمالها وأفكارها لدرجة أن يخرج بحيائها ومحاسبة نفسها الى حد الجنون .

فهذا وأمثاله الكثيرة الاخرى من الاميال الرديئة والوساوس والاندفاعات أو الارتباكات والشكوك العقلية عند الاطفال يجب حتما حينما تبدو أن تقاوم وتناهض بالوسائل الادبية اللطيفة المناسبة لمحوها وازالتها

على انه يلزم مع ذلك لكل الاعمار أن يتخذ الانسان من نفسه لنفسه مثل تلك الوسائل والاحتياطات لانه في كل الاعمار قد يجوز أن يقع المرء في العوائد الرديئة والطباع السوء فهو محتاج أبداً الى العلاج والتداوى لانه لاسبيل عن الحيد عما يظهر انه بديهي اللحاق بالانسان ومن لوازم هذا العالم أعني ضرورة تقويم النفس وتزكيتها فيما يتعلق بالافكار والاعمال الانسانية. فمثل الجسد والروح كتلك النباتات في الحقول والحدائق من حيث الافتقار أبداً الى التعاهد بالتصليح والتهيئة والسقيا الى غير ذلك مماهو من ضروريات بقائها ونموها وصلاح حالها بلا انقطاع.

أستخلص الموضوع بهذه الكلمات أو النصائح:

يجب عليك أن لاتصيب ولو مرة عملا أو أمراً ما من شأنه انه اذا صار عادة لك وخلقاً كان الشائن المحط لشأنك

فاجتهد لذلك حتى لا تعطى طبعك او لا يتسرب الى نفسك مالاتحمد عقبى آثاره فى وجدانك وبدنك

اجتهد فى تقوية كل الاميال والعواطف الحسنة والامور المفيدة لك بواسطة المزاولة والتكرير لها والتطبع عليها وأنجز بالدقة رواتب أعمالك الصحيحة بالترتيب وثق بأنك بانتهاج هذا النهج قد تحظى بالسرور واللذة والنجاح في عملك مما قد تبدو لك نفحاته من الشوق اليه والتنشط له عند اقبالك عليه وبمجرد مباشرتك له إذ السر فى نوال المرء السعادة وبعبارة اخرى النجاح فى حياته العملية وماهو بصدده من المهنة إنما هو بعلمه وتحققه من ان المرء فى هذا العالم « آلة تعمل بالتكرار » وبه تنجح فى الصالحات كما به تردى في الرديئات .

الفصل الثامن

﴿ لابد من قاعدة في السلوك ﴾

لما أمضيت امتحانى الدراسى الاخير لحرفة الطب من عدة سنوات مضت كنت أشعر مع ما كنت أشعر به من سرور نفسى لذلك ببعض القلق والحيرة اذ صرت غير مقيد بعمل عقلى محدود ولا ملزم بشيء ما وقد القي لى الحبل على الغارب

وأصبحت حراً غير خاضع لنظام ولا مقيد بقانون نخشيت من «حيثيتي الجديدة» اكثر مما تولاني من الفرح لها حيث قد لا أجد لنفسي من نفسي ما كان لتلك السلطة النظامية التي كانت تضغط عليها في السلوك في سبيل الحياة وقد تركتني وتركتها بعد

وهذه الحيرة بل الخوف الذي كان قد اعتراني ما أحسب أن من هم بمثل ما كنت عليه من العمر يشاركوني فيه وقد ظهر لي ان رفاقي الذين خرجوا معي اذ ذاك قد كانوا اقل شعورا به مني لان كل الشبان لقربهم بعهد الحياة قد يرون اقل احتمالا لنير نظاماتها والكثيرون منهم بنوع ما من المغرمين بالحرية بطبيعة حال شعورهم وعواطفهم التي تميل نحو حال من الاستقلال المطلق بالنظر لاية سلطة نظامية في السلوك في مهام الحياة .

أما انا فاري بعكس ذلك ان سعادة المرء ليست في هذا العصر بالتي تأتيه من هذه الجهة وان أوكد واسطة للنجاح الذاتي هي ان يخضع المرء لشيء من النظام العملي يتخذه قاعدة للسلوك .

*
* *

فلكي يتعلم المرء الاشياء المفيدة ليس أحسن وسيلة لنوال

هذه البغية من طريقة التهذيب المدرسي فى هذا العصر ففى المدرسة يوضع نظام من قبل وكل من الاساتذة والتلامذة مجبورون على اتباعه فاذا كان قدتقرر بمقتضى هذا النظام أو البروجرام اربع ساعات مثلا فى الاسبوع لتعلم اللغة الالمانية ففى الوقت المعين للدرس يكون استاذ تلك اللغة الاجنبية بين تلاميذه وهؤلاء لا بدان يخرجوا من الحصة وقد حصلوا بعض الشيء منها وبدون هذه الطريقة الالزامية لايحصل اى تلميذ ذكى على فائدة من ذلك لا لقلة اجتهاده في نفسه بل لما ربما قد يصرف فيه همته من درس آخر تريه الفكرة انه الانفع له .

ومن الملاحظ جيدا ان التدقيق فى تحصيل المعارف لينقص بالانتقال من « التعليم » الثانوى الكبير النظام الى « التعليم العالى الكثير الحرية لان الشاب المتحصل على الشهادة الثانوية كان بحسب النظام قد تحصل بجد وهمة على شيء من القواعد الاساسية فى مثل اللغة والرياضيات والتاريخ ففيما بعد ذلك وان كان ليتغذى عقله بالأرق من الافكار والاعلى من الاراء العلية الهامة الا ان الحوادث العلمية والقضايا العقلية قدلا يتلقفها عقله

الا اختلاسا لاتساع نطاق عمله وبالتالى لقلة الوضوح لنظام عملى اكثر دقة وشدة .

وفي الطب نفسه ترى ان الاهتمام بالمعلومات لينقص كلما تقدم الطالب في العلم والمعرفة . فتعليم السنوات الاولى أحكم وادق ففيها يتعلم التلميذ التشريح الذى هو درس الجسم الانسانى ولكن بعد تلك السنوات تأخذ قوة العناية في الضعف من نفس الطالب لتراخي النظام واستقواء الحرية الممنوحة بحسب النظام نفسه فيلاحظ على كثير من الطلبة انهم قد لا يعرفون في وصف الامراض بمثل تلك الدقة التي قد يعرفون بها وصف الاعضاء وتشريحها .

وفى الحقيقة فاننا قد لا نعرف جيداً الا ما نكون قد تلقيناه ونحن صغار وبصفة تلاميذ خاضعين لنظام محكم ودقيق ولو تلقى الطلبة فى المدارس العليا بالحفظ جدول فيثاغورس في الحساب وهم كبار لما أتقنوا حفظه كما يتقنونه وهم صغار .

وللتدريب العسكري مزاياه الجليلة من هذا القبيل فى مراعاة قواعد السلوك الجيد فان التعليم العسكري بنظاماته المعهودة هو أجود ما يكون في تربية النفوس وأعظم وسيلة لنوال

الغاية الحميدة في السلوك تقتضي نظام وقاعدة.

وانى لآسف على أن أكثر الناس قد يجهلون الامور الاكثر ارتباطاً بهم وضرورة فيما يقيهم الاخطار ويدرأ عنهم الاضرار فلو قرر كقاعدة عمومية فى السلوك لأبناء الامة الذين يستعملون غاز الاستصباح مثلا أن يلزموا الزاماً بقفل «عداده» فى الليل عند مايذهبون الى النوم — وان كان ذلك قد يعده أولئك المتفيقهون من الهزء والسخرية — لنجى كثير من النفوس قد تذهب أحياناً ضحية اهمالها.

لكل حرفة نظام وقواعد مخصوصة يجب مراعاتها للنجاح فأى عمل قد لا يعطى نتائج صحيحة مرضية الا اذا اتبع فيه قواعد مقررة يتمشى فيه عليها بالدقة. ففى الاعمال التجارية الشهيرة مثلا قد لا يحصل الاقبال والرواج العظيم الا لأن كلا في ذلك المحل يتبع قواعد وحركة عملية منتظمة بكل دقة وهمة

ولقد أجمع الناس على أن الاعمال التجارية لتفضل الخدم العمومية فى دقة أعمالها وسير أشغالها ذلك لأن تلك تخضع لنظام دقيق بقصد الربح والنجح فالمكاتبات تجاب بالسرعة والشؤون تجري بكل همة ونشاط لأن كلا عالم بكبر المسؤولية

عليه فى عمله بأزاء أصحاب المحل بخلاف الخدم العمومية فان المكاتبات قد تهمل الايام والشؤون تجري بأقل دقة لاتساع نطاق المسؤولية

فشعور النفس بالواجب فى العمل غير كاف للقيام بالاتقان والتدقيق فيه بل "لابد معه من قواعد ونظام قسرى يحتاط له به لتمشيته طبق المرام. فاذا كانت شركة مقاولات تأخذ عملا مثلا ويترك لها الشأن فى انجازه بلا شرط فى عقده لتحديد ميعاد له فهى قد لاتقوم به الا فى مدة قد تربو على مايستحق منها أضعاف "الاضعاف.

وواضح "أن قواعد التقيد فى السلوك لابد وأن تصعد لتتناول الكبار كما تتناول الصغار حتى تحقق الفوائد وتأتي بالثمار النتائج ناهيك أن العدل ليقضى بذلك ولاتهضم من ثم حقوق الامور وتبخس الاشياء" وهو ما يعاب به على النظام الاجتماعي الحالى من حيث "النظر في تقرير القواعد بنسبة تمشيتها على الضعاف والصغار دون" تقديرها اقدارها عند الكبار مما جر ويجر الى الاضرار الكثيرة في الهيئة الحالية.

كل هذا واضح فان القواعد في السلوك لما يستفاد منها بالنظر الي عمل الغير ولكنها لتكون من أفيد الامور بالنسبة لما يجنؤ المرء نفسه منها في نفسه فان من أعظم الآفات عند بعض الناس هي أن يكونوا مالكين تمام حريتهم . أعرف موظفاً لما كان يشغل أحـد المراكز الصغيرة من الاكثر وقوعا تحت سيطرة ومراقبة النظام كان يحوز من الصفات من حيث الاجتهاد والنشاط فى العمل ما كان يؤهله لانه يكون في المقامات العليا ولكنه اذ وصل الى تلك الحالة وملك بعض الشيء من الحرية العملية جعل نشاطه يقل واجتهاده يضعف حتى كان يخاله كل من يطلع على تلك الحال منه أنه غير الاهل لذلك المركز الذى يشغله لما كان ينقصه فيه من الصفات أما أنا فكنت أعتقد أن أكثر من كان يري ذلك النقص فيه انه ما كان ليكون أحسن منه لو شغل هذا المركز

ويخال لى أنى لولا حظت على مثل هذا الانسان الذى أطلب خيره وفائدته لاجابنى بالتيه والفخر « انى أشغل مركزاً حسناً وأؤدى عملا لطيفاً خفيفاً لا سلطة ولا مراقبة فيه على فانا مالك تمام زمامي » لانى أعتقد ان من هذا شأنه لهو عبد

نفسه وأسير هواه وأغلاطه غالباً وهذا ما آسف عليه .

لقد اجتهد الناس طويلا في البحث والتنقيب عن تلك العيوب والنقائص التى كانت لامبراطرة الرومان وأدت الى تلاشيهم مع ان السبب قريب وماهو الا التمادي فى السلطة وعدم التقيد بنظام يسيرون بمقتضاه حتى في الشؤون الذاتية . خذ أحد الناس من المتمسكين بالنظام والفضائل وأمنحه سلطة كبيرة تره قد ينتهى فيها الى أمور من الجنون المحض. ولو بقى الطاغية « نيرون » الامبراطور الرومانى مجرداً من السلطة فلربما كان عاش عيشة الرجل المستقيم كما كان أولا ولما كان له الى الشرور والمفاسد من سبيل .

فوضع قواعد صحيحة فى السلوك تمنع الانسان عن الشرور وتقيه الوقوع في المحذورات وتجعل الاعمال أكثر راحة وتشويقاً للهمم ومزجها بشيء من التلطف البسيط بحسب العادة يكفى لمحو ما قد يعلق بالذهن من سوء تأثير التكاليف المستكرهة ويحولها الى سرور فى النفس .

فقد ترى انه قد يأتيك بعض الاصحاب في المساء فتحادثهم وتلاطفهم وانك ولو كنت غير عازم على الخروج لكن قد ترى

من باب الذوق وكمال أدب السلوك في هـذا المقام ان تشيع ضيوفك هؤلاء حين انصرافهم الى خارج دارك فانت تفعل ذلك بدون أن تشعر من نفسك بتضجر ولا كراهية له بل تقوم به بكل ارتياح لان هناك واجباً او قاعدة تكيف سلوكك فى هذا السبيل وانت تقوم بها بلذة وارتياح .

كل قاعدة وان خالفت هوى نفسك عادة فى بعض الاحوال والافعال لكنها قد تسهلها عليك بل وتجدد فيك عادة اوطريقة في التطبيق قد تكون مصدرا هى الاخرى لفوائد ومسار ترتبط بوجودها فيك واتصافك بها ولقد تسعد وتغبط فيما تتبع من قواعد فى امورك وان ظهرت لدى الطبع بادىء بدء صعبة تنفر عنها طباعك وتأنفها نفسك. مثال ذلك لو اعتدت النوم فى الساعة العاشرة مساء فبتعودك على هذه العادة وتمشيك على تلك القاعدة الصحية قد تشعر حقيقة بسرور وارتياح نفسى تستطيبه وترتاح اليه فيما بعد .

انه بدون ترتيب ولا اتخاذ قواعد في كل المهام الحيوية لايمكن لاعظم مجتهد فى العمل والشغل ان يسير بالنجح فى حياته لانه يسيره بحسب ارادته وهواه قد يتطلب في عمله دئما الاكثر

وقوعا فى النفس والاقل كراهية فيها ويترك باقي عمله فمن هنا يتأتى التراخى والتوانى. فترى هذا مثلا عظيم الكسل في الاجابة على ما يرده من المكاتبات وذاك لا يعطى المطالعات المفيدة حقها من الوقت والتمعن الكافى. وثالث لا يترتبط فى تجارته الا بالمحال القريبة دون التفات الى فوائد الاتصال في التجارة بالخارج فيما هو بصدده فامثال هذه الاغلاط فى الاعمال قد تجر أحيانا الى نتائج اجتماعية رديئة فالترتيب واتخاذ القواعد لمثل ذلك قد يلافى اضراره. وهاته القواعد لتكون كبروجرام المدرسة الذى يحتم مثلا على التلميذ تعلم اللغة الالمانية فى حصتها فهى تحدد الاعمال وتقول للمرء في تأدية الاعمال «ها ساعة المكاتبة والمراسلة ها ساعة المطالعة. ها يوم الزيارات» وبدون قاعدة يقررها المرء لنفسه فان كثيراً من شؤون ومهمات اعماله ربما اهملت وتخطاها الانسان ركوناً الى العمل فيها «فيما بعد» فيكون وان كان من أمهر الناس واكيسهم مغشوشا وما غشه غير نفسه وعدم تقيده بقاعدة وترتيب في عمله بما قد لا يتأتى له معه فرصة لانجاز ما هو بصدده. فالقاعدة التى يتخذها المرء لدرء تلك الحال عنه تكون كالشروط والاتفاقات المعقودة فى الاشغال

بين الاطراف من الناس حيث تكون قانونا لهم فهي اذن قانون أو عقد شروط وضعه المرء ليسري مفعوله بينه وبين نفسه للقيام بمهامه نعم أنا أعلم ان هذا الحال من العمل بحسب خطة مرسومة ونظام متبع قد لا توافق أولئك المشتغلين بالفنون التي تقتاد بالعواطف والاحساسات لكني مقتنع ايضاً بان لا شيء في كل الاعمال حتى فى مثل تلك الفنون يفضل السير فيها بحسب خطة مرسومة كما يرشد اليه التأمل في حياة امرء عاقل من متوسطي الامة يجري فى كل شؤونه بمقتضى ترتيب ونظام يمثل لنا بهما أسلوب الحكمة وسداد الفكر .

***

وأختطاط قاعدة فى السلوك وان كان من أعظم مايلزم لكل الناس الا انها من ألزمها لاولئك المصابين بضعف الارادة أو فقدها ممن نراهم دائماً فى التردد وعدم الثبات فى شيء لافكراً ولا عملا . ولمثل هؤلاء يجب اقامة الاوصياء والقوام الذين يرشدونهم ويختطون لهم خطة سيرهم . كنت أعالج بعض الناس ممن أصيبوا بمرض عقلي من ضعف الارادة وكان قد وصل به الداء لدرجة أنه ما كان ليقدر أن يأتي بأقل الافعال البسيطة من

مثل المشي أو الخروج أو التلهى والاشتغال باي شيء من تافه الاعمال فجعلت في كل الايام التى توليت فيها معالجتـه آمره بأوامر ينفذها على نفسه ولكنه ما كان يطيع الا ما كان منها مكتوباً وهاك بعض ما كنت آمره به كتابة «سر على نهر السين ثلاث مرات سر فى شارع الشان اليزه الى مكان الاتوال . ادخـل مخزن ملبوسات واشتر رباط رقبة . توجه الى التياترو وأبق به الى آخر الرواية» وعلى مثل هذا النمط من العلاج الادبى وبمساعدة علاجات اخرى تعافي ذلك المريض من مرضه النفسانى وملك عام صحته ونشاطه ولم تعد له ثم حاجة الى « أوامرى المكتوبة»

فهـذا المريض مثال بل هو رمز لحالنا جميعاً وما حالته الا حالتنا مجسمة فيما يتألم له بين جميع الطبقات فى كل الدرجات مما يتبين منه انه بدون قواعد للعمل راسخة يكون ذلك الرجل حتى ولو كان عالى المقام سامى الرفعة كصبي يتخبط ويعبث فى شأنه . نعم لست انكر ان للوجدان الانسانى حقه وكفأته لان يزن أعمال المرء ولكن يعوزه الاختبار والادراك والتعلم بل هى شرطه حتي يؤدى عمله على التمام ولكن لمثل هذا يعوز المرء الى زمن طويل الخضوع لنظام فى التدريب وان هذا النظام

أو التدريب من الناس من لا يأتيه الا جبراً ومنهم من يأتيه في كل أدواره عفواً

أما أنا فقد اختططت لنفسى قواعد دقيقة فى السلوك أتبعها بكل انتظام في جميع أفعالى وأعمالى فأنا عند ما كتبت هذا الفصل سررت جداً لانى حررته في ميعاده من اليوم والساعة المخصصة عندى للكتابة والتحرير وكل أفعالى هى على هذا النمط من حيث التمشي فيها على قواعد مقررة لها عندى ومرتبة لدى فيها ولا أترك منها للصدف شيئاً اذ الصدف في اعتبارى ليست غالباً الا الاختلال والتشويش فى الحياة والفرق بينى وبين مرضاى أولئك الذين قد استصدر لهم الاوامر وأصف لهم أمثال هذه العلاجات الادبية أنى أقرر لنفسى خطة السير والقواعد التى ألزم نفسي بسلوكها فى سبل الحياة وهم يتلقون ذلك بارادة الغير فألزم خطتي فى السلوك واجتهد بان تكون أنت واضع قواعد سيرك ومبتدع خطط عملك مما هو من ألزم اللوازم في هذه الحياة الدنيا

﴿ قوة الاختراع ﴾

ان نقصان القوة الاختراعية بمعناها الاعم من الآفات التى تنتاب الحياة الاجتماعية فهى تقلل استغلال الثروة وتحط باقدار كل الاعمال . وهذا النقص فى اعتبارى أحد العوامل الرئيسة في حدوث الازمات في الاعمال لان الاجور مهما ارتفعت قد تزاد بكل ارتياح لاولئك العمال الذين يوفون الاعمال حقها اتقاناً وتحسيناً .

غير ان هذا النقص ليس بالفائت احدا ولا هو بالاقل تكديراً لصفو حياة كل انسان فمن ثم حصرت الاطماع وصغرت الهمم ومسار النفس عند الانسان الذى قصر لذلك أمانيه وآماله وتخبط فى شأنه ضمن دوائر من العمل ضيقة .

ما هى فى الحقيقة قوة الاختراع بحسب المقصود بها هنا؟ هى تلك الملكة أو الخلة الكريمة التى ينزع المرء بها الى تحرى أحوال عملية جديدة فهى اذن فن ايجاد وسائل عملية وتحليلات جديدة فى الشؤون موافقة لمقتضيات الاحوال المحدقة والخبرة رائدها والحنكة مرشدها .

وظاهر ان هـذه القوة الاختراعية تكون بنسبة أهمية الاوساط العملية فهي أعظم قدرا في المدن منها في القري وفي مثل باريس عما هى فى غيرها من المدن الصغيرة وعلة هذا ولا ريب هو ان الاشخاص ذوى الافكار العظيمة والنشاط العقلى يتركون الاوساط الصغيرة ليجدوا لهم المتسع في العمل فى الاوساط الكبيره .كما قد يرجع من جهة ثانيه الى ان الاوساط الكبيرة تكثر فيها الحاجات ويلتمس كل العمل فى استنباط الحيل والفكر لسدها (١)

ولقد يوجد فى فرنسا أقاليم متأخرة حيث لا تجرى فى كل أعمالها الا بحسب التقاليد الثابتة من سالف الحقب وأنى لاعرف زميلا لى من الاطباء يدير ملجأ خيريا فى احد الاقاليم الفرنساوية وبين وسط ريفي محض فكان مما قصه علىّ من أمور القوم في التثاقل وعدم الاكتراث والعناية بالاشياء النافعة انهم كانوا حتى ليهملون أرواث حيواناتهم مما هو من اجود الاسمدة في الزراعة فضلا عما فى اهمالها من الاضرار بالصحة العمومية أما بلدان الثغور البحرية فهي بعكس تلك الحال ولقد

١ قرر الامام ابن خلدون في مقدمته هذا الامر كاحسن مايكون اهـ معرب

تعد من أعظم الاوساط لتنشيط القوة الاختراعيه عندسكانها اذ إن سهولة اتصالها بالاقطار النائية وكثرة اختلاط أهلها بالاجانب يحرك فيهم قوة التصور والتخيل ويوجد في نفوسهم الجرأه والاقدام والتفنن فى الاعمال والمشروعات .

ومادامت البلدان الفرنسوية كثيرة البعد فى الشبه ببعضها في صفات وأخلاق أهلها فلقد يوجد من بينها — وهى في الغالب البلاد التى لا اختلاط لها بغيرها — من قد لا يصلح من أهلها الا فى الاعمال الساذجة من مثل الخدمة والاعمال العضلية الشاقة كاعمال الحفر والردم وشيل التراب الى اشباه ذلك(٢)

أما البلاد الامريكية ففى الطرف الاخير من سلسلة الاعمال البشرية ارتقاء ورفعة . فهناك ما ينبغى أن يتلقى من دروس العمل حيث قد تجد الاعمال العظيمة والمشروعات الجسيمة التى قد تقرب الى حد الهوس والجنون عند اولئك الرجال الذين يقومون بها بجد ونشاط وعظم همة وتعضيد وتماسك حتى بين اصاغر العمال . بل هناك نجد تلك الصفات العالية

٢ ما يقوله الكاتب هنا قد يصدق على كل اقطار الدنيا وفى قطرنا المصرى نرى البرابره مثلا قد لا يصلحون الا للخدمة كما نرى كثيرا من اهل الريف لا يصلحون الا للاعمال التى يشير اليها اه معرب

لنجاز الاعمال وارتقائها فهم بذلك قد يمتازون عن باقى الامم فى القيام باتقان الاعمال وتجويد متحصلاتها

أما الصناعة الفرنساوية ـ الا بعضا منها ـ فانها لتتبع خطة واحدة ولقد بينت فى جملة لى سلفت كيف ان متحصلات صناعتنا الكيماوية تزاحمها وتضايقها الصناعة الالمانية لان القوم هناك أخذوا يعتمدون على مجهودات عقول علمائهم وما قرروا من مكتشفات ففازت الصناعة من وراء التطبيقات المفيدة بين العلم والعمل عندهم وفازوا هم بالنجاح والفلاح لسد كثير من حاجات صناعتهم

بعكس حالنا الان ارباب الصناعة عندنا يحكرون على أنفسهم ويقيدون مجهوداتهم التطبيقية المتوارثة عن الجدود والاباء بالاقتصار على الاساليب الواحدة ولقد تراهم لذلك يعجبون ويدهشون عند مايرون من منافسيهم ومناظرى صناعتهم انهم قد يفوقونهم فى مضمار الرقى باعتمادهم على الاساليب الجديدة السهلة والقواعد المنتجة أحسن النتائج بخلاف ماكان يحسبه صناعنا هؤلاء من ان مالديهم من اسرارها الصناعية الموروثة قل ان يفوقهم فيها انسان ومع ذلك تراهم أبعد الناس عن

الاعتراف بالعيوب فى اساليب الصناعة التى قد مضى زمانها أو في بذل العناية والاهتمام باستصلاح الحال فيها مع انهم باشد الحاجة الى ذلك نظرا الى تضلع مناظريهم وتفوقهم عليهم.

واذا كان ينقص رؤساء الصناعة عند ناشيء من «الحنكة» وقوة الاختراع فان هذا النقص لاحق بالعمال الاصغر منهم باكثر من ذلك. وكثيراً ما كنت أفتكر عند ما أرى في الطريق طوائف العمال تنساب راجعة الى مساكنها فى المساء أو ذاهبة الى تلك الاحياء العامرة بالملاهى كم هى في الغالب غير مكترثة بأعمالها ولا مشتغلة الذاكرة بما يرقى صناعتها خصوصاً للذى قد اعتيد عليه من كثرة تخطيط العمل ورسمه من قبل بما لا يجعل للمهارة الذاتية والاجتهاد الفكري سبيلا الى النشاط وقوة العمل فتراهم بمجرد ما انتهى يومهم من ذلك العمل المرسوم لهم من قبل يسرعون الى خارج أمكنة العمل التي ما كانوا فيها فى الغالب الا كالآت تعمل بلا كيروية ولا عظيم دقة فكرية

ان قلة الحركة الفكرية لتلاحظ في كل مكان فى الحياة الفردية . فأغلب النساء مثلا لا قدرة لهن على تنظيم داخلية

بيوتهن الا بما تريهن إياه العادة والتقاليد وانهن ليملن بالرضوخ لما يوصف لهن فى الشؤون كلها بحسب الاوساط وكثيراً ماقد تضلهن برقشات البائعين وتمويهات الخدامين .

إن نتائج فقدان النشاط العقلى السيء المغبة فى استغلال الثروة فى بلد ان العالم لهو الذي يؤدى بضعف الاشخاص وينتهى باستكانتهم وتضعضع أحوالهم .

وليس من عمل مهما صغر وحقر الا وروح النشاط العقلى العملى يرفعه ويعلى منزلة صاحبه ولقد يعجب الناس أحيانا من أن بعض أصحاب الاعمال أو البيوت يترك العمل فيها لخادم له ولا غرابة في ذلك وعلته ان هذا الخادم بنشاطه العقلى قد وفر على سيده كثيراً من شواغل تلك الشؤون أو الامور الحيوية الداخلية وقام مقامه بما استعمل من ذكاء في الظروف والاحوال التى قد تحتاج الى قوة الحكم والبت مما قد لا يكون عند مخدومه ذلك الوكل .

فى كل مهنة وفى كل حرفة يرى أن التقدم والترقى قد لا يناله اولئك المخلدون الى السكون والدعة العقلية ومع ذلك فان اكثره قد يتحقق لا كثرهم بفضل مهارة الرؤساء والمدراء ذوى

النشاط والعقل . قال رئيس ادارة لاحد اصحابى وكان يلتمس اليه ان يرقى ابناً له فى تلك المصلحة « كن مستريحاً فانى سأرقى ابنك لان الوظائف قد تنال هنا بالصنيعة ولكن هذه الصنيعة قد لا تفيده فيما بعد » وهذه القاعدة الثانية قد تلتزم ضرورة عند هؤلاء الرؤساء حينما يكون عليهم وقر مسؤلية الارباح الاقتصادية التى تجلب عليهم حسابا دقيقا صارما فى كل أعمالهم

ولقد تلجئنا اسباب وجود هذه الحالة من نقص النشاط العقلى وقلة الحنكة الى البحث عن وسائل لعلاجه وتطبيبه وتلافى أمره .

أما هذه الوسائل فلا سبيل لايجادها على التمام الا منذ دور الدراسة سواء فى المدارس الابتدائية أو فى المدارس الثانوية لان العلة قد تبتدئ تتأصل من ذلك الوقت عند رجل المستقبل حيث لا يتعلم فيها الا ان يكون العامل المخلد الى الدعة العقلية بسبب أنهم لا ينمون فيه ملكة الاختراع وذوق البحث الذاتي بل يكتفون لان يوجدوا فيه الرغبة والشوق الى تحصيل مواد العلوم بين معقول ومنقول موطأة مهيئة وهذا الحال من المبادئ يتبع خطاه أينما حل وحيثما سار سواء كان فى المعمل

والمصنع أو فى الادارات والوظائف

ولقد يلاحظ بالحق ان كثيراً من المخترعين والمكتشفين قد لايخرجون عن الدوائر الصحيحة العلمية العادية وانهم لم يمتازوا عن باقى العلماء الذين قد يكون فيهم من هم أغزر مادة وأعظم احاطة بالاصول والفروع الا بالحنكة والنشاط العقلى العملى لما هم بصدده بعزيمة وشوق ولذلك قد نرى اولئك الذين يطلبون العلم لانفسهم بانفسهم لمجرد الميل والرغبة الذاتية بلا واسطة معلم أو استاذ قد يرى فيهم من الحنكة ويشاهد عليهم من النشاط واتساع نطاق المعلومات ما قد يفوقون به على غيرهم .

فيجب والحالة هذه أن يقوى فى النشء الرغبة فى تقوية العقل وتنشيطه للعمل بنفسه وعدم الاندفاع في تيار تحصيل الاصول والقضايا العلمية مستوفاة الحل والشرح وان شر ما يتوهم ويعتقد هو ترك هذا الاعتقاد يتسرب الى النفوس والعقول من ان كل شيء في هذا العالم وفى سبل الحياة البشرية العلمية والعملية قد أخذ قسطه من الاحاطة واستكناه العقول وياله من غرور وسخرية ! ـ اذ في هذ العالم لا بد على الدوام من تغيير وتبديل وتنظيم وتنسيق مراعاة المصلحة الهيئة

الاجتماعية فى تقدمها وبنسبته فيها بازاء غيرها من الامم الراقية فالذى يعوزنا ليس هو مادة العمل ومكانه وانما الذى يعوزنا هم الرجال الاكفاء وتلك حال يطول الامد على الحصول عليها وهو ما ينبغى المبادرة الى التدقيق فيه وعدم اتباع الخطط المتبعة للآخرين بالتقليد حذو النعل بالنعل

ولقد تقدم لى فى فصل سالف (هو الفصل السابق من مجموعة هذا الكتاب) انه يجب انتهاج قاعدة أو خطة مرسومة بالدقة في سبل الحياة ومهامها وهذا ما يجب ان يكون للعمل المرسوم للعقل أما العقل ذاته فلا ينبغى الا ان يكون حرا فى عمله فى هذه المهام حتى لا يعوقه عائق ولا يحول دون حنكته ونشاطه حائل .

قال أحد صانعى جهازات التدفئة بالغاز وهو رجل نبيه وان كان قليل المادة العلمية لاحد العلماء الطبيعيين من أصحابي أنه يريد ان يدخل تحسينا مهما وتوفيراً كبيراً فى صناعته من حيث الاستغناء عن بعض مالاقوام لها فى العمل الا به فاعلمه صاحبي بكل صعوبة على استحالة الامر وأنه وان كانت فكرة هذا المخترع مستحيلة لكنى أراها حسنة بالنظر لانها تدل على

غيرة وشوق وحنكة عقلية وتوقد في القريحة مما هو داعية تحسين كل الشؤون وقوام كل الاعمال وجودة البدأيه في الترقيات العملية والاستنباطات المفيدة

الفصل العاشر

﴿ حسن التصرف في الحياة ﴾

لقد ألفت الانظار الى مسئلة استجادة تربية الاطفال بل والكبار أيضاً ما قامت به أخيراً لجنة التعليم من الاحتفالات الشائقة لان مدرسة الحياة قد يبقي فيها كل امرء فى دور التعليم الى نهاية العمر . وانى لأريد ان أبين فى هذا الفصل ما ينبغى أن يقرر في أذهان الافراد من شدة الحاجة الى وجود أسلوب يسيرون عليه فى سبل الحياة

لقد قالوا في فضل النظام الوراثى فى بعض الدول السالفة أن مزية هذا النظام هى ان جميع الوظائف العاليـة في الدولة تعطى بالوراثة وان رجال الدولة من اهل السياسة والوزارة والامارة وقيادة الجيوش إنما ورثوا وظائف ابائهم وجدودهم بحسب تقاليد عائلاتهم المخصصة لتلك المهن العالية كابراً عن كابر بحيث يضحي كل ذكر فيها عالماً من قبل بمصيره وانه

سيكون إما وزيراً أو سفيراً أو قائداً الى غير ذلك وان أباه ليرشحه ويهيئه بالتربية والتدريب لمهنته بحيث قد لا يأتى زمن ولوجه بابها الا وقد تطور وتكيف باطوار مزاوليها وتخلق باخلاق ناسها حسا ومعني

غيران هذه الطريقة من النظام الوارثى لا تناسب روح الديمقراطية وتمجها أذواق ناسها وتأباها العدالة والطباع ثم . لكنه مع هذا قد لا يمكن انكار ما كان لها من تأثير في ايجاد الاشخاص الا كفاء لما بأيديهم أو ما هم بصدده من الاعمال أو المهن فمن ثم تظهر تلك الفائدة من تعويد وتدريب الشبان من أمد طويل على ما يريدون أو يراد لهم من الاعمال أو الوظائف التى سيقومون بها كباراً .

نعم هذه الطريقة مهما يكن من حالها فانها قد لا تكسب المرء الاستعدادات الطبيعية الواجبة اذا نقصت فيه أو عدمها من ذاته وانه ليكون من الجنون المحض أن يتعب فى استحثاث أميال أو ايجاد صفات غير متوفر شروط وجودها في أمرء طبيعياً وأدبياً لانه يكون من قبيل الضرب في الحديد البارد أو النفخ في غير ضرم فترى زيداً مثلا يريد ان يشتهر فى مهنة

الصحافة والتحرير وهو قد يتخبط فى شأنه عند ارادة تسطير خبر بسيط عادى ولو كان له استعداد فيما تتوق اليه نفسه لصار القصصى الشهير دون ان يبقى فى أصغر درجة من مهنة التحرير من تسقط الاخبار الى الصحف .

غير انه لحسن الحظ قد نرى ان السواد الاعظم من لا افراد في الامم يتكون من اشخاص مع تباينهم في الاشكال والاحوال قد يتشا كلون في الاستعدادات ويتجانسون فى القابليات من القبول للتطور والتكيف واللبس لكل حال لبوسها وعلى هؤلاء المعول في تطبيق أصول التربية بما يكون له أجل النتائج لانها تصادف قلوبا واعية بالاعتدال ونفوساً فى الحد الوسط من القابلية لكل ما يراد منها أو توجه فيه وليس ثم صفة غالبة على صفة حتى تري كحجر عثرة فى هذا السبيل .فأمثال هؤلاء يكفي لهم الثبات حتى يحصلوا على النجاح . الذى قد يستعصى حاله أحيانا معهم بادئ بدء ولكن لا يلبث أن تنقاد لهم الامور بزمام إني أعرف كثيراً من أصحابى كانت تطمح أبصارهم الى مراكز كانت ترى اكبر مما قد كانوا عليه من الكفاءة ولقد بقوا السنوات وهم موضع استهزاء كثير من اصحابهم بسبب توقهم الى ما ليس

من طوقهم ولكنهم ثبتوا وصبروا حتى خدمتهم الظروف وفازوا بالنجاح والفلاح .

على انه ينبغي فى حال اختيار المهنة ان يعزم ويستشير نفسه وأعتقد انه لا يكون النجاح على احسنه الا بمراعاة ميل الشبان فيما يراد لهم من الاختيار فى المهن منذ عهد الصبا رأيت صاحباً لى كان وهو فى العاشرة من عمره مغرماً بالحركات العسكرية التى كان يطبقها على جميع حركاته فلما كبر وبلغ مبلغ الرجال صار من كبار رجال الفن المعدودين .

فلكى يظفر المرء بالنجاح فى تصاريف الحياة لا بد له من الاقتداء بهذا الطفل واحتذاء مثاله من حيث الشوق والرغبة فيما هو بصدده . ولنوال هذه البغية قد انشئت المدارس الخصوصية التى تخصص النشء باكراً للمهن . فالبحريون الذين يدخلون المدارس البحرية فى سن المراهقة قد لا يمر على احدهم العشرون ربيعاً من العمر الا وقد اكتسب اوصاف ذلك الضابط البحري حساً ومعنى .

وهذا التخصيص الباكر في المهن والمحترفات وان كان له مضاره غير انه قد يحقق للمرء ضروب من النجاح عظيمة

القيمة وله أسوة في كل الاوساط التي قد سبقت العادة فيها على اعداد النشء للمهن بالتمرين والتعويد عليها حساً ومعنى حتى يتطبعوا بروح الصناعة التي يخصصون لها .

ثم انه سواء لزم التعجيل والمبادرة باكساب أرباب المهن صفاتها منذ الصغر أو وجب التأخير فيها حتى يستوفي المرء اكتساب المعلومات العمومية فان هذا العمل من الاحاطة بالمهنة بشوق ودقة وان كان واجباً الا أن هناك صفاتاً أعم للمرء ومعرفته لها من أهم الواجبات أيضاً لنجاحه فى صناعته نفسها. فالطبيب يلزم أن يكون كاتماً للاسرار وذا شفقة ورحمة. والحاسب يجب أن يكون دقيقاً وأميناً . والتاجر يحتم أن يكون كيساً وصادقاً . وهذا وأمثاله من آداب المهنة كما لا يخفى قد لا يعتنى به فى التدريب على المهنة على وجه العموم .

وهذا كله هو الصورة الظاهرية بل التركيب الاولى لحسن التصرف في مهام الحياة وأمر المهن لانه يهيء عقل المرء ويرشحه للاخذ بالحكمة والروية لما هو أو لما سيكون بصدده بعكس ما قد نراه من حال بعض معلمى أطفالنا الخصوصين فيما قد يسوقون فى دروسهم الحيوية ويملأون به أدمغة هؤلاء

الاطفال من نكات الطرق وسمج الحوادث الفكاهية مما قد لايكسب البته هؤلاء الاحداث تلك الصفة من حسن التصرف بالعقل والروية وكمال الادب فى الحياة

كنت أحادث فتاة كانت حضرت عندي تسألنى اللحاق بوظيفة باحدى المستشفيات وكانت من حسن البزة بمكان فلما مثلت لدى ظهرت عليها علائم الكراهة والاشمئزاز من رؤية بعض العدد والجهازات في مكانى . وبالرغم عما كانت تظهره من اللطف والظرف والتأنق فى الحديث وحشوه بالنكات توسمت فيها بعد فراغ جعبتها منه عدم الكفاءة لما كانت تروم .

على ان ماذكرت من الصفات والاخلاق فى أدب الحرفة والرغبة فى المهنة قد لايكفى للنجاح وحده بل لا بد معه أيضاً لتمام حسن التصرف فيها من الحيطة الذاتية واليقظة النفسية وللوصول الى هذا ينبغي على المرء أن يعرف مبلغ قوة نفسه وقدر حاله واستعداده لمقاومة العيوب والاستزادة من بعض الصفات المليحة والظهور بها فى ميدان الحياة العملية وتصاريفها الهامة . كأن يظهر هذا مثلا الجلد وعدم الاكتراث للتغلب

على المصاعب بجأش رابط ليستر ما هو لاحق به من الكمد كما يحكي عن الوزير الفرنسوى «ولداك روسو» من أنه كان يستر تحت صفاته العقلية العظيمة عواطفه الكبيرة بحيث انه كان يظهر لاصحابه بمظهر المستمد للآراء المسترشد والمبين لهم في أوقات العسرة الحال على التمام. ويظهر لاعدائه وخصومه بمظهر المتحوط الذى لا يسبر له غور.

وكأن تظهر أو تغلب «الطيبة» فى أفعال هذا فينجح بها أيضاً لان لهذه الصفة مزاياها العظيمة اذ انها تولد الثقة فى النفوس لصاحبها وفى كثير من الاحوال يحصل النجاح بواسطتها في تصاريف الحياة. وكأن يظهر ذاك بمظهر «الحرص» و «الجمع» ولهذه الصفة فى مهام الحياة فضل وجليل خدمة.

وبالجملة فان لكل صفة من صفات الانام وتصاريفهم فى شؤون الحياة مزية وثمرة وحسن أثر بشرط أن يراعي فيها مناسبة الظروف ومقتضيات الاحوال وخصوصاً بشرط أنه يتمثل فيها باتقان وحسن تظاهر — وبحسن السبك قد ينفى الزغل — كما يصنع ذلك المشخص الماهر فى اتقان دوره على المراسح وما الحياة فى تصاريفها الا رواية تشخيصية تمثل فيخلق

بكل امرء أن يتقن فيها دوره.

وكثير من الناس ذوي المهارة والحذق قد يستفيدون من عيوبهم الخلقية ويستخدمونها كأحسن ما يكون في تصاريف حياتهم حتى كأنها ماوجدت لهم الا للنجاح بها. أعرف انساناً كان يلكن في الكلام من طبعه فجعل يتفنن في تلطيف شأنه بالتأنى فيه حتى ظهر عند الناس بمظهر المتعمد لذلك ترفعاً أو لحكمة ما وصار كل من يراه يعجبه ذلك منه ففاز بالنجاح ولم يقعد به عيبه الخلقي عن الظفر به

أما ذوى الضعف والخوار في العزيمة فقد يتمثلون فى الحياة ويظهرون بمظهر الحلماء ودمثى الاخلاق. أعرف انسانا رب عائلة بسبب ما فيه من عيب ونقص من هذا القبيل ترك كل شيء في عائلته الى تصاريف امرأته وجعل أولاده ينازعونه أشياء ثروته فعوضا عن أن يوقفهم عند حدودهم جعل لضعفه يتشبث بطيبة النفس والتخبط فى الشأن مما لم يفده غير الاشتهار بتلك الصفة من الطيبة التى كان يجد فيها وفى اشتهاره بها لذته وراحته من عناء هذا العالم « الفانى »

فيخلق بأمثال أولئك الناس من ذوى الاحساسات

والعواطف المائلة الى الضعف أن يصلحوا عيوبهم ونقائصهم هذه التى لافائدة فيها لفائدتهم الحقيقية فان الاوهام الكبيرة والمخاوف الغير المعقولة والشكوك والريب التى لاأساس لها الا في مخيلاتهم فهذه كلها من تلك الامور النفسانية الرديئة التى يجب مقاومتها ويسهل اقتلاعها حتى ولو بالوسائل الطبية والعلاجات النفسانية المناسبة لحالها اذ فى كثير من تلك الاحوال النفسانية قد لاينقص الانسان ولايعوزه غير الثبات والصبر للجزم بالمقاصد والبت بالعزم فى الاغراض مما هو من أهم وسائل علاج الارادة بالتكلف والصبر كما يتكلف ذلك اللاعب الذى يحمل الاحمال الثقال ويري فى ذلك منتهى نخره.

وهذه النصائح ليست بالتى قد لا ينتفع بها الا أولئك المفضلون المخصصون بالمراكز الرفيعة والحيثيات الوجودية العالية اذ فى أحقر مهام الحياة والصناعات البشرية كما هو فى أرفعها وأرقاها لابد من اختطاط وجهة تولى بالجد ونهج حسن ينتهج بالعزم فالمستخدم الصغير والصانع الحقير كذلك الموظف العظيم والصانع الكبير فى التساوى فى لزوم اختطاط خطة ذاتيـة واستعمال همة نفسانية تسهل عليهم شؤونهم وتيسر عليهم تصاريفهم

فى حياتهم . ففى الهيئة الاجتماعية كما هو الحال على مراسح التمثيل لاينجح الا صاحب الهمة والحنكة ولا عمل للخمل والمكسال

ولرب معترض يقول : انك بما ترمي اليه في نصحك تريد أن الناس حتي «ليتصنعوا» ليستروا ما وراء مافى النفوس من العيوب ويظهروا بما يضادها — أقول نعم هذا الذى أنصح به يقتضي كما قلت فى كثير منه التصنع والتكلف لما قد لايكون للنفس نصيب منه أحيانا ولكن لاضرر ولا ضرار فى ذلك وكلنا يريد أن يظهر فى هذا العالم بالمظهر العالى الذى فوق حده فلماذا لايكون لنا ذلك فى تصاريف الحياة الهامة على ان ما قد يتكلف له ويتظاهر به اليوم قد يضحى فى الغد بالتكرير وكثرة اللصاق بالنفس من طبائعنا وغرائزنا ؟

﴿ حكم ونصائح عصرية [١] ﴾

١

تعلم كيف تحسن الارادة والعزيمة .

أعمل كل الواجب عليك .

كن شجاعاً أدبياً وطبيعياً حساً ومعنى .

تعلم حسن العمل وكن دائما رجل عمل تنمو فيك قوى الجسد وقوى النفس حتى تظفر بالنجاح فى سبل الحياة وتصير من ثم من خيرة الفرنسويين .

كن نشيطاً مجتهداً وأعط عملك أحسن ما تنشده وتتحراه فى وجودك .

كن مهذباً مدرباً

لاتتردد فى تأدية الاحترام والتوقير الواجب بحق الاشخاص والاشياء التى تستحق التوقير والاحترام .

---

١ معربة من كتاب « مسيو بول دومر » رئيس مجلس نواب فرنسا السابق الذى سماه « سفر ابنائى » وصدر فى أوائل هذا العام وقد اختتمه بهذه النصائح كما بناه على محورها وتقسيمها فهي خلاصة هذا الكتاب العصرى الجليل وصفوته ولقد حافظت فى تعريبها على اسلوب خطابه الموجه الى بنى جلدته من ابناء الشبيبة الفرنسوية مما لا يمنع الاستفادة منها عندنا بقدر الحال ومبلغ الرقى وضمن دائرة النظام والحيثية الوجودية التى أتاحهما الله لنا اهـ معرب

أحفظ لنفسك فى كل مقام مقامها

أحبب الحقيقة وكن فى كل الاشياء صادقاً وبسيطاً ودمثاً

كن مخلصاً نزهاً أميناً محباً للحق

كن معتدلاً رزيناً محتاطاً قنوعاً

كن متعوداً على النظام متمرناً مثابراً على الترتيب عفيفاً زاهداً محبباً الى النفوس.

كن عادلا وشريفا

كن خيراً عطوفاً أخوياً

أحسن المدافعة عن حريتك والذود عنها واحترم حرية الغير

كن معتدلا فى تمسكك بمبادئك واعتقاداتك وأعلم ان لغيرك مالك من هذا الحق وان خالفك فيها فلا تصنع شيئا ولا تقل قولا يجرح احساسات غيرك بهذا الصدد مما هو من أعز ما فى الوجدان الانسانى عليه فيكون من مسه إهانة لذلك الغير واغاظة له

قوّ عقلك وروض فكرك بالعلم والمعرفة ورتب تصوراتك وآرائك بحسب قواعد صحيحة.

حقق لبدنك أمر صحته وجماله بمتانة الخلق وشرف العواطف والاحساسات.



ينبغى عليك في جميع أدوار عمرك وكل مقاماتك محبة واحترام وتشريف مقام والديك ذينك الذين منحاك نعمة الحياة وربياك صغيراً

كن عطوفاً مخلصاً لكل ذوى قرابتك من جميع الطبقات

كن متشرباً بمحبة العائلة متحريا لاكتساب احترام قرينتك بما تتحلى به من الفضائل وماتتخلق به من صفات الكمال فى العائلة

ق نفسك الفساد ومسترذل الشهوات الخادشة للشرف المسقطة للهمم والمروآت .

أحفظ شبابك ونضرتك وكريم عواطفك وصحة جسمك وشرف مقامك .

تعلم كيف تحسن الحب واجعل عقلك رائد هواك وحبك ودليله فى اختيار تلك الشريكة لك فى الحياة من الزوجة الصالحة

أطاب فى الفتاة التي تختارها قرينة لك الاستقامة والطيبة وسلامة الاخلاق وصحة البدن مما هو عين الجمال كل الجمال .

تزوج حينما تقدر ان تتزوج وأسس لك عائلة وبيتاً فهذا

هو الواجب الانسانى بل الواجب الاجتماعي بل هو منتهى الغبطة والسعادة .

أعمل لعائلتك وأجعلها فى حال من رفاهية العيش فى الحياة المادية بقدر ماتقدر عليه ولكن ليكن من همك ايضاً ان تكسبها حياة ادبية ذات شرف وجمال خلقى لا تقتحم دراك معه النقائص والمفاسد والشرور .

أعط لهيئتك الاجتماعيه اولادا كراما هى في حاجة اليهم وأحسن تربيتهم لك ولها .

رب اولادك لتجعلهم من اهل الخير وحسن الارادة والشهامة مما تحب ان تراه في نفسك . ورب بناتك على كريم الخلال النسائية التى كنت تنشدها وتتحراها فيمن كنت تخطبها لتكون حليلة لك .

عش العيشة العائلية وأحبب بيتك وأصرف همتك وعزيمتك لان تكون تلك العيشة سارة فى اعين اهلها من عائلتك ونفسك محبوبة لدى افرادها معلقة قلوبهم ابداً بها

أفتح بيتك لاعز احبائك واصدقائك ممن تثق باخلاصهم لك ولكن لا تفتحه لمن عداهم .(١)

أعط من وقت فراغك حصة للسرور البيتي والهناء العائلى واقضها فى الالعاب البيتية البسيطة السارة التى تروض البدن وتنعش الارواح .

٣

كن وطنيا حسن الوطنية متعلقا بالاخلاص بالجمهورية التى هى الهيئة الحاكمة ذات السيادة القومية على جميع الفرنسويين تحرى استفادة مزايا الحقوق المدنية القومية التى بدونها لاقوام لكل النظامات الحكومية من مثل محبة الوطن والاهتمام بالمصلحة العمومية واحترام الشرائع والحرية والعدالة والمساواة واستشعار الاخاء لجميع من يجمعهم واياك رابطة الوطنية وجامعتها العظيمة .

لا تطلق للنفس هواها ولا للاغراض مشتهاها لما هو من مصلحة حزبك أو شيعتك بل اجعل الصالح القومي الوطنى

---

١ يريد بذلك عادة الخلطة بين الرجال والنساء بحسب العوائد الاوروبية ه معرب

فى جميع مدار هذه الشؤون فوق كل مصلحة أخرى

ليكن الحق والعدل رأيدى جهادك في جميع مناهجك السياسية ودليلك غير المتغير فيها

أجعل هذا المبداء نصب عينيك وهو وان تكن حقوق جميع الوطنيين متساوية ازاء الديمقراطيه الحقة الا ان الامر ليس كذلك بالنظر الى الواجبات فيها فان الميزة فى العقل والميزة فى العلم والبسطة في المال الى أشباه ذلك تجعل في عنق من يمتاز بها فى المجتمع واجبات اسمى وأرفع وأكثر مما هى على غيرهم من أبناء هيئتهم (١)

كن حريصاً على حقوقك الوطنية ومحترماً لحقوق غيرك فيها

ليكن من كريم عملك وشريف مرمى غاياتك بقدر مالك من حق أن يكون ما يخرج للبلاد من شرائع وقوانين متساو فيها الجميع وأن تجرى مجراها التنفيذي بواسطة الهيئات القضائية والادارية ذات العدل والاستقامة وحب المصلحة العمومية وعدم التأثر بمصالح الاحزاب أو أهواء ذوى الاهواء.

أحب الحرية العمومية وذب عنها فيما للافراد بما لا يخرج

---

١ هذا بعينه المبتدأ الاسلامى بحق الغني وبحق العلم اه معرب

عن حد النظام من حق القول والكتابة والاجتماع والاشتراك

كن كذلك بالتعلق بحقوق العمل والاستغلال والاسترباح والتملك فى المجتمع .

جاهر بانه لولا الملكية الشخصية لما بقى للحياة راحة ولا للحرية من قيمة .

اجتهد في بذل خدمتك للعلم وساعد على نشره وعلى تقدم الصناعة وارتقائها وحث همة الحكومة على الدأب في هذا السبيل بالمزيد وكن معتقداً أن كل ما يبذل بهذا الصدد ويجنى من فوائده قد يفضل كل فائدة أخرى .

أرم فى أفعالك الخصوصية بصفتك من أبناء الوطن الى تعضيد ومساعدة الاعمال القومية العمومية وأعمال البر الاخوية بالنظر الى تلك الروابط السامية التى تربط أبناء الامة الواحدة

كن خيراً محسناً وأمدد يد الرفد بقدر طاقتك الى كل انسان قد قعد به الشقاء والبؤس بحالا يمكنه معه ان ينتشل نفسه بنفسه منه .

ساعد على توسيع نطاق الاعمال التي يقصد بها تدبير طوائف العمال بدون التفات الى الربح من ورائها لك اذا كانت ثروتك

تساعدك على التجاوز عن الربح بل وتجعلك بمأمن مما ربما قد تخسر فيها وليكن عملك هذا رامياً فى المساعدة الى جعل الشخص أوجماعات تلك الطوائف بمأمن عن الاستجداء والتماس إحسانات المحسنين العمومية والاعتماد في أمور الحياة على النفس وما ادخرته اليد حفظاً لكرامة النفوس البشرية وتحريرها من ربقة تلك العبودية ورق الاحسان .

٤

أحبب وطنك وأخدمه وشرفه وأعمل لسعادته وغبطته وعظمته وفخاره بين بلدان العالم .

اعط هذا الوطن قوى عقلك ولبك وامنحه قلبك ونشاطك وعملك وضحِ له دمك لسلامته ودفاع مصالحه وشرفه

كن الوطني بالمعنى الحقيقي بل كن الوطني قبل كل شيء كما قال غمبتا ولا تعتبر من ألقاب الشرف فوق هذا لقباً .

لاتصغ الى أقوال السوفسطائية والمغالطين العصريين (يريد الاشتراكين) الذين ينكرون الوطن والوطنية ويجحدون الواجبات نحوهما فهؤلاء أعدى أعداء الحقوق الانسانية والنظامات البشرية وهم إذا ما معاذ الله أصغى الى أوهامهم

وتبجحاتهم جروا البلاد الفرنسوية الى الاضمحلال بل الى الموت والتلاشي كما صنع امثالهم فى البلاد اليونانية قديما وروميه

تعلم كيف تعرف فرنسا وطنك وانظر اليها بعين العظمة والفخر في جمال مناظرها ووافر غناها وعظيم زرعها وضرعها وجمال مدائنها وثمين آثارها التى هى أجل ما يتشرف به جنسها وأجمل ما يتحلى به من ألقاب الشرف والفخار أبناؤها .

تعلم جيداً مجيد تاريخ فرنسا وطويل اخبارها فى العصور الغابرة حتي تتشرب بروح الفرنسوى القح فيما يوجب عدم سقوطها ويجعل مستقبلها كماضيها حافلا بالازدهاء والفخار . يجب تقديم الامل وحسن الاعتقاد في المقادير اللاحقة والاعمال المتعلقة بالوطن

أعمل للخير وأعمل لفخر فرنسا وأعلم انها من خطارة الموقع على خريطة هذا العالم بحيث قد يري من ماضيها ان العظمة والقوة هما من شروط وجودها .

أحبب جيش وطنك حيث مكانك محفوظ لك فيه فانه يمثل الوطن ويشخصه في قوته وسلامته

أحبب الجنود إخوانك وأقرانك الذين يمثلون لك فى

هيئة الجيش عائلة ثانية لك وأنك واياهم لتتوازرون وتقاتلون فى ساحات الوغى جنباً الى جنب وربما أصابكم القتل وانتم على تلك الحال فأرتبط بهم برباط الاخاء في العمل والاخاء فى الشهامة بل والاخاء في الموت .

أقبل بكل ارتياح وبلا أسف أو تذمر الخدمة العسكرية في زمن السلم كما فى زمن الحرب وأعدد نفسك ودربها وأنم فيها القوة البدنية بواسطة ذلك كما قد تنمى فيها بالتثقيف والتهذيب القوى الادبية النفسية

كن الجندى القوى المدرب اليقظ الذي ينشده الوطن

أحبب واحترم راية فرنسا المثلثة الالوان والتي هي رمز الوطن وعظيم شعاره

اعتبر الحرب من أعظم المصائب والويلات وأبذل جهدك حتى تجنبها بلادك وتنقذها من الوقوع فى اهوالها المريعة ولكن لاتهابها اذا هى وقعت

قل ان الحرب وان كانت من شر المصائب ولكنها ليست من أعظمها وانها لتفضل مراراً اذا كانت فى سبيل سلامة الوطن وانقاذ الشرف القومى .

أعلم انه اذا كان لامة كبيرة شرف القدرة على الحفاظ بالسلام في الامم فذلك لا يتأتى لها الا اذا كانت القوية الجانب بينها بالاجتهاد واليقظة والنشاط

انه لا يوجد لك غير سبيل واحد فى خدمة ما ينشد اليوم من خدمة الانسانية ذلك بان تدأب على العمل فيما يعلى قدر وطنك وشأن بلادك .

(تم الكتاب والحمد لله تعالى)

